"إثارة ذكية، أنيقة، وآسرة إلى حدّ يصعب المقاومة..."
— براد ثور

موسكو X

رواية

ديفيد مكلوسكي

DAVID McLOSCKEY

ترجمة / مكتبة الوادي

الجزء الثاني من ثلاثية (محطة دمشق)

موسكو إكس

ديفيد مكلوسكي

عملية جريئة لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) تهدد بإشعال الفوضى داخل أسوار الكرملين..
ولكن، هل تجرؤ "لانغلي" على وضع ثقتها في العنصر الروسي الذي يقف في قلب العاصفة؟

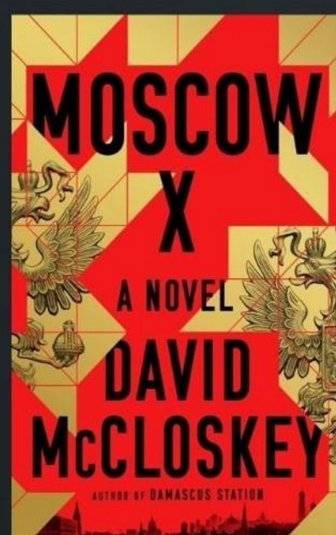
يتسلل عميلا الـ CIA، "سيا" و"ماكس"، إلى العمق الروسي تحت غطاء تجاري متقن، في مهمة لتجنيد "رجل المال" وخازن أسرار فلاديمير بوتين. "سيا" تختبئ خلف واجهة محامية لندنية بارعة في إخفاء ثروات فاحشي الثراء، بينما يدير "ماكس" إرث عائلته في المكسيك؛ مزرعة لخيول السباق الأصيلة، ليست في الحقيقة سوى واجهة استخباراتية عتيقة منذ الستينيات.

ينتحل الثنائي صفة زوجين للإيقاع بـ "فاديم"، مصرفي بوتين الخاص، وزوجته "آنا". لكن ما يجهله الجميع هو أن "آنا" ليست مجرد زوجة، بل ضابطة استخبارات روسية تعمل تحت غطاء عميق وشديد السرية داخل البنك نفسه.

وبينما يغوص "سيا" و"ماكس" في مستنقع روسي يقطر بالبذخ الفاحش وتنهشه حروب العصابات الدموية، يكتشفان أن طوق النجاة الوحيد قد يكون بيد "آنا"، التي تخوض لعبتها الخاصة والخطرة.

في رحلة لاهثة تنتقل بين مزارع الخيول في شمال المكسيك، وأروقة "لانغلي" الباردة، وفخامة روسيا-بوتين المظلمة؛ تأتي رواية "موسكو إكس" لتكون أكثر من مجرد قصة تجسس تحبس الأنفاس.. إنها تعليق قاسٍ وصريح على طبيعة الحقيقة، والولاء، والانتقام في خضم حرب الظل المستعرة بين الولايات المتحدة وروسيا.

ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks



ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks

موسكو إكس

MOSCOW X

ترجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم
مبادرة ترجم
Tarjim Initiative
هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission
Translation funded by the Tarjim Initiative

ترجمة / كاميليا

ديفيد مكلوسكي

DAVID McLOSCKEY

موسكو إكس

MOSCOW X

تعريف بالمؤلف

بقلم / **a7med**

ولد ديفيد مكلوسكي في ولاية مينيسوتا و تخصص في الدراسات الدولية في كلية ويتون و حصل على درجة الماجستير من كلية جونز هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة حيث تخصص في سياسة الطاقة والشرق الأوسط و عمل في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) لمدة ست سنوات محللاً للشؤون السورية و عاش في دمشق قبل و أثناء الحرب الأهلية وكان متمركزاً في مختلف أنحاء الشرق الأوسط.

استقال ماكلوسكي من الوكالة عام ٢٠١٦ ردًا على التدهور المُستمر للوضع في سوريا و عجز الغرب الواضح أو عدم رغبته في إيقافه ويقول : "كان من الصعب مُشاهدة ذلك كشخص يُريد أن تكون السياسة الأمريكية مزيجًا من الفعالية و الأخلاق والصدق شعرنا وكأننا لم نُحقق نتائج جيدة في أيٍّ من هذه الأبعاد".

و يضيف: يبدو جليًا من واقع سوريا قبل فرار الأسد أنه لم يكن حصنًا منيعًا للاستقرار و السلام كما ادّعى لقد كان مصدرًا للفوضى و الفتنة والألم ومن الجيد رحيله.

أما بالنسبة للرئيس المخلوع طبيب العيون المتدرب في لندن فيعتقد مكلوسكي أنه سيبقى لاجئاً و قد يفتتح عيادة "الأسد وأولاده" لطب العيون في موسكو".

و كوسيلة للتصالح مع تجاربه في سوريا بدأ ماكلوسكي كتابة ما أصبح فيما بعد "محطة دمشق"و حققت الرواية نجاحًا فوريًا حيث أشاد بها المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الجنرال ديفيد بترايوس و وصفها بأنها "أفضل رواية تجسس قرأتها على الإطلاق".

و صرح مكلوسكي أنه بدأ كتابة الروايات كوسيلة لاستيعاب فترة عمله في وكالة المخابرات المركزية.

نُشرت روايته الأولى "محطة دمشق"عام ٢٠٢١ و حظيت الرواية بمراجعات إيجابية بشكل عام و تُرجمت على نطاق واسع الي عدة لغات(الي العربية و لأول مرة عبر قناتنا)

والذي أبهر النقاد بروايتيه الأوليين(محطة دمشق 2021) و (موسكو إكس 2023) و التي يحاول فيها بروكتر زرع الفوضى في قمة نظام بوتين من خلال خلق انطباع بأن النخب الروسية تخطط لانقلاب

و استمر هذا النجاح مع الرواية الثالثة(الطابق السابع 2024) التي يبحث فيها عميل في وكالة المخابرات المركزية عن جاسوس روسي في أعلى مناصب الوكالة و قد صدر له مؤخرا الفارسي(2025) و تتناول الصراع الخفي بين إيران و إسرائيل.

و بصفته موظفًا سابقًا في لانغلي فإن مكلوسكي ملزم بتقديم مخطوطاته إلى وكالة المخابرات المركزية قبل النشر حتى يتمكنوا من التأكد من أنه لا يّعرض الأمن القومي للخطر بالكشف عن أسرار حساسة و يعترف بأنه كان "مهووسًا" عندما سلم محطة دمشق إلى لجنة مراجعة تصنيف ما قبل النشر و أنه أضاف أكثر من 300 حاشية سفلية لتوضيح أن التفاصيل المحددة التي أدرجها قد نُشرت بالفعل في مكان آخر. و بالنسبة لرواية موسكو إكس قدم حوالي 20 حاشية سفلية و لم يقدم أي حاشية على الإطلاق لرواية الطابق السابع.

a7med

الجزء الأول

ZAGOVOR

المؤامرة

الفصل الأول

دوشنبه[1]، طاجيكستان

الزمن الحاضر

في ذلك اليوم، انتهى المطاف بآرتميس أفروديت بروكتر في «قفص التأديب».

أفاقت على عتمةٍ دامسة، وهواءٍ تلبّد بعبقِ مسكٍ غريب، وأسنانٍ تصطكُّ كأنها تروسُ دميةٍ ميكانيكية. كانت جفونها ثقيلةً تأبى الانفراج، وبرودةُ الخشب الصلب تسري في جسدها. رمشت بروكتر، ومن خلال خصلاتِ شعرها الأسود المجعّد المنسدلة على وجهها، راحت تتفحصُ أرضيةَ غرفةٍ لا عهد لها بها.

تناهى إلى سمعها وقعُ خطوات، ثم امتدت يدُ خشنةُ المفاصل لترفع خصلات الشعر عن وجهها برفق. جثا رجلٌ أمامها ولوّح بيده.

قال بروسيةٍ مبهجة:

– «صباح الخير يا آرتميس.»

كان عقلها يموج ويضطرب، وأفكارها تائهة في بحرٍ من الظلمات. جالت بنظرها في الغرفة؛ طاولة، وكرسيّان بجوار النافذة، وسروالها الداخلي الموشّى بنقوش الأناناس ملقىً بإهمالٍ على الأرض، وبجانبه زجاجة فودكا فارغة مائلة على جنبها، وقد ارتسمت على حافتها هالةٌ من أحمر شفاهٍ أرجواني لامرأةٍ أخرى.

---

[1] **دوشنبه** هي عاصمة طاجيكستان والجمهورية السوفيتية السابقة التي لا تزال تدورفي فلك النفوذ الروسي سياسياً وعسكرياً. تتسم علاقتها الحالية بموسكو بتبعية اقتصادية عميقة، حيث يُشكّل العمال الطاجيك في روسيا وتحويلاتهم المالية شريان الحياة الرئيسي للبلاد.

اعتدلت في جلستها مستندةً إلى الأريكة، عاريةً تمامًا ينهشها البرد. اتجه الروسي إلى مقعدٍ وثيرٍ بجوار النافذة وأشعل

سيجارة، بينما ضمّت هي ركبتيها إلى صدرها وأغمضت عينيها؛ لأن الغرفة كانت تدور بها.

قال الروسي:

– «يا لها من ليلة رائعة! لقد رأيتُ أشياء لا ينبغي لرجل أن يراها.»

أصدر صوتاً ممتعضًا بلسانه، ثم أردف:

– «أيتها المرأة الصغيرة المتوحشة.»

قالت بروكتر بالروسية، وعيناها ما تزالان مغلقتين، فالضوء كان يُحيل العالم دوارًا وميلانًا:

– «من أنت؟»

أجاب:

– «أنطون.»

بعد دقيقة، تحاملت على نفسها ووقفت تترنّح باحثةً عن ملابسها. وباستثناء سروالها الداخلي، لم ترَ سوى سترتها الجلدية وحذائها الرياضي «Reebok» الملطخ بالطين. حينها، أدركت أن فجوةً سوداء قد ابتلعت ذاكرتها تمامًا منذ لحظة طلب المشروبات الليلة الماضية. كانت بصحبة «مشروع عميل» روسي، شابٌ لاهٍ من موسكو يملك خيوطًا تصل إلى رؤوسٍ كبيرة: الكرملين، وأجهزة الأمن.

همست لنفسها:

إما أن يكون ميتاً الآن، أو ضالعًا في هذه اللعبة. والأرجح كلاهما.

عندما استقرّ نظرها قليلًا، استطاعت بروكتر تمييز صخب الصباح في شارع «روداكي» عبر النافذة. كانت قطرات مطرٍ خفيف تنقر على الزجاج، والطاولة أمام أنطون عامرة بأطباق الطعام والأكواب، وكؤوس «المئة غرام» المعتادة من الفودكا الصباحية.

جاهدت بروكتر لارتداء الحذاء والسروال الداخلي، وكادت تفقد توازنها مرتين، ثم توقفت لتلتقط أنفاسها قبل أن تشرع في ارتداء السترة. تحسست جيوبها فوجدتها خاويةً من هاتفها ومفاتيحها ومطواتها. ألقت بنفسها على الكرسي المقابل للروسي.

ضحك أنطون وقال:

– «آرتميس أفروديت بروكتر. رئيسة محطة وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). موظفة حكومية تتقاضى أجرًا زهيدًا. ووفقًا لمصادري، تم تجاوزكِ مرة أخرى في الترقية إلى جهاز الاستخبارات العليا. يا له من سقوطٍ مدوٍّ من عمّان إلى مستنقعٍ راكد مثل دوشنبه. وكل ذلك بسبب تجاوزاتٍ غير محددة.»

قالت بروكتر:

– «تجاوزاتي كانت محددة للغاية.»

صفق أنطون بيديه المشعرتين وضحك، والسيجارة مثبتة بين أسنانه:

– «نعم، بروكتر الطيبة. شغفٌ جنسيٌّ جارف. ومنحرفة ذات...»

ثبت نظره عليها بجدية، ثم أكمل:

– «... شهوات.»

ردت عليه:

– «وأيادٍ ملطخة بالدم الروسي.»

خيم ظلٌّ على عينيه. أطفأ سيجارته في منفضة نحاسية وبدأ ينقر في طبقه المليء بـ «السيليودكا»: سمك الرنجة المخلل مع البطاطس والبصل.

كان لترٌ من حليب الخيل المتخم بالخمائر يتعرق داخل عبوة زجاجية. لقد أدى الروس واجبهم البحثي بدقة. ورغم أنه من أطايب المطبخ الكازاخي أو القرغيزي، إلا أنه حين يُتاح هذا الامتياز النادر في دوشنبه الطاجيكية، فإن بروكتر لا تتردد في شربه. لكن عندما سكب لها أنطون كوبًا، سكبته هي على الأرض.

قهقه الروسي وتخطى السائل الأبيض المنساب ليحمل ملفًا بلونٍ باهتٍ من الأريكة. ناوله لبروكتر وعاد إلى طعامه.

قال وهو يقضم قطعة من السمك:

– «لدينا صورٌ أكثر بالطبع. هذا مجرد عرض تشويقي. كانت هناك بضع صورٍ وأنتِ مكبةٌ على وجهك، لكنني لا أعتقد أنكِ ستجدينها هنا. يجب أن أقول، إنني فضولي بشأن الوشوم. ولماذا تسعة؟ أنا واثق أن وراءها قصصًا مثيرة. على أية حال، هيّا، ألقي نظرة.»

قلّبت بروكتر مجموعة الصور العارية التي التُقطت لها وهي غائبة عن الوعي تحت تأثير المخدر. بعضها كان مبتكرًا للغاية؛ بل وفنيًا. كانت هناك صورتان أو ثلاث تقارب الكمال: الإضاءة، والطاقة، والزوايا الحميمة، إذ نجحت تلك اللقطات في اقتناص ما اعتبرته بروكتر «الروح الحيوانية» لـ «الأنا» الجنسية لديها. أما الصور الأخرى فكانت مبتذلة وصارخة، لا تصلح للتداول حتى في أحط أسواق النخاسة.

لم تجد بروكتر – وهي الغريبة عن الشعور بالخزي – صورةً واحدةً تدعو للحرج. حدثت نفسها أن نهديها، على العموم، يبدوان رائعين.

ألقت الملف في بركة حليب الخيل المسكوب، وقالت:

– «اذهب إلى الجحيم.»

أشعل أنطون سيجارة أخرى، وقال:

– «أرجوكِ يا آرتميس. إن لم تتعاوني، حسناً، ستُنشر هذه الصور المؤسفة على الإنترنت. وسنكشف هويتك كعميلة لـ CIA.»

ردت قائلة:

– «ستفعل ذلك على أية حال يا أنطون، أليس كذلك؟ والآن، أين سروالي اللعين؟»

كان العالم قد كفّ عن الدوران. نهضت ببطء وأخذت تجول في الغرفة تائهة.

قال أنطون:

– «سترُحّلين إلى وطنك يا آرتميس. لطخة سوداء أخرى في ملفك المهني.»

أجابته:

– «أسلوبك في العرض بائس. الغاية كلها من هذا الأمر هي إعادتي للوطن. أنت تلاحقني لأنني أستمتع بتجنيد الروس. تريد التخلص مني. على أية حال، يجدر بك الاستثمار في مصورٍ أفضل، لأن بعض تلك الصور...»

وخزت بإصبعها الملف الغارق في الحليب:

– «... فظيعة. جوابي هو التالي: تباً لك. سأغادر الآن لأبلغ لانغلي والسفير بما حدث. مهلًا، لدي فكرة أفضل. بدلًا من كتابة برقية تجعلك تبدو كأحمق، لمَ لا تتجسس لصالحي؟ ما رأيك في ذلك؟»

نفث أنطون سيلًا من الدخان فوق الطعام، وتمتم:

– «اغربي عني يا آرتميس.»

كانت بروكتر تبتسم:

– «أظن أننا فهمنا بعضنا البعض. والآن، أين سروالي؟»

رمت بعض وسائد الأريكة على الأرض في بحثٍ عبثي. كانت مستاءةً جدًا لفقدان بنطال الجينز؛ خرقٌ للقواعد، هكذا فكرت. تصرف غير مهني. وقذارة. قلبت المكان رأسًا على عقب لدقائق بينما كان أنطون يدخن. هل يعقل أنهم تخلصوا من بنطالها؟

قالت وهي تقف فوقه، واضعةً يديها في خاصرتها:

– «هيا يا أنطون. الجو بارد وأنا امرأة محترمة. لا يمكنني الخروج من هنا بسروال أناناس وسترة جلدية.»

بينما كان يُنهي سيجارته، أطلقت ضحكتُه المكتومة عند سماع كلمة «محترمة» شقلباتٍ من التخيلات السوداوية في ذهنها.

قال:

– «آرتميس، فكري في محطتك. إذا عدتِ للوطن، ستبقي المحطة بلا رئيس. ولقد سمعتُ أن زميلًا لك رحل مؤخرًا. ظرف صحي مؤسف.»

قبل شهرين، استيقظ نائب بروكتر وعائلته في شقتهم يعانون من دوار وصداع. أصيبت الزوجة بالعمى في عين واحدة. شكت بروكتر أنه هجوم روسي بالطاقة الموجهة[2]؛ موجات ميكروويف تقلي دماغك اللعين.

كان أنطون يبتسم وهو يتفحص ساقيها العاريتين.

وكانت بروكتر تعبس وهي تتفحص بنطال أنطون.

دوت صفارة إنذار في جمجمتها.

[2] **هجوم بالطاقة الموجهة Directed-energy attack** : هجوم يعتمد على تركيز الطاقة، كالليزر أو الموجات الدقيقة، لإحداث ضرر جسدي أو إلكتروني دون استخدام قذائف تقليدية. يُشير هذا المصطلح غالباً إلى أساليب القتال الصامتة والمتطورة تكنولوجياً التي تصيب أهدافها بدقة وخفاء.

ثم هوت يد بروكتر على زجاجة الفودكا الفارغة، حطمتها على الطاولة لتظفر بعنقٍ زجاجي مسننٍ وطويل، وقبل أن يتمكن أنطون من تفادي الضربة، شقت خدّه وغرست الزجاج في لحم كتفه الأيسر، حيث استقر هناك، وحافته المطلية بالأرجواني تشير باستقامة نحو السقف.

عوى أنطون، وحاول النهوض لانتزاع الزجاج، لكنها ركلته في صدره فسقط مجددًا على الكرسي. سال سيلٌ من الدم على خده. لكمت أنفه، مرة، وثانية، وثالثة، حتى سمعت صوت قرمشةٍ رطبةٍ عذبة، وأفلتت من شفتيه أنّةٌ متهتكة. ثم خطفت زجاجة الحليب من الطاولة وهشمتها فوق جمجمته. تهادلت رأسه، واختلط الحليب بالدم في جدائل وردية.

قلبت بروكتر الطاولة وحطمتها في الجدار، ثم انتزعت ساقًا خشبية متشظية لتطحن بها ركبة أنطون اليسرى وتحيلها إلى عجين. بعد وابل من الضربات، تسلل الضوء عبر غشاوة غضبها، فرمت ساق الطاولة جانبًا وصفعته على خده ليصحو. لكنه لم يفعل.

قالت:

– «أنطون، استيقظ. لقد تحمستُ زيادة عن اللزوم. أنطون، هل تسمعني؟»

فرقعت بأصابعها أمام وجهه:

– «أنطون؟»

وضعت إصبعين على عنقه. شعرت بالنبض.

لم تتخيل يومًا أنها ستسعد لبقاء ضابط مخابرات روسي على قيد الحياة، لكن الحمد للرب.

نظرت حول الغرفة المحطمة وعبر النافذة، متسائلةً عما إذا كان لديه شركاء أو فريق يراقب عبر الكاميرات. خلعت عنه بنطاله بصعوبة وارتدته، وقالت للروسي الفاقد للوعي:

– «تستحق ذلك لأنك تخلصت من بنطالي.»

كان أطول وأعرض منها بكثير، لذا شمرت ساقي البنطال قدمًا تقريبًا وشدت الحزام لأقصى حد. اختفى ملف الصور العارية داخل سترتها، ثم أخرجته مجددًا وقلبته حتى عثرت على الصورة المنشودة: لقطة جميلة تبرز مرونتها وأنوثتها القاسية. قوتها اللعينة الصامتة. كورت الصورة ـفي يدها وحشرتها ـفي سروال أنطون الداخلي. ثم خرجت من الباب.

***

واصل اليوم تداعيه. ـفي السفارة، خاضت «جلسة مساءلة عسيرة» مع السفير الوغد. أرسلت برقية تسرد فيها المحنة، وتلقت ردًا لاذعًا من المدير وبيروقراطيي لانغلي. تلا ذلك محادثة مقتضبة مع نائب المدير برادلي، بكلمات ونبرة تستحضر تلك التطمينات التي تُهمس لكلب محبوب قبل لحظات من قتله بالحقنة الرحيمة.

بحلول العشاء: ظهرت الصور على عدة مواقع مؤقتة، وضخمت الحسابات الآلية الروسية الروابط عبر منصات التواصل الاجتماعي. كما كشفوا علنًا أن بروكتر هي رئيسة محطة دوشنبه.

وصلت البرقية الرسمية التي تستدعيها إلى لانغلي ـفي وقت متأخر من ذلك المساء.

نهاية الجولة: عليها ركوب أول طائرة مغادرة ـفي الصباح. سيتولى ضباط الدعم إغلاق شقتها وشحن ممتلكاتها إلى فيرجينيا.

كان اعتداءها علي الروسي قد انتهك حزمة من القوانين الطاجيكية، والأهم من ذلك، أثار شبح رد انتقامي حركي روسي، بسبب إرسال ضابط استخبارات

كبير – كما علمت الـ CIA لاحقًا – إلى المستشفى بعد أن أُرسل خصيصًا من موسكو. توقع الأطباء تعافي الروسي، وفقًا لمذكرة من ضابط ارتباط طاجيكي اعتاد إفشاء الأسرار للـ CIA مقابل المال. لكن أنطون سيحمل آثارًا باقية: تحديدًا رقعة من الندوب، وعرجًا دائمًا من جراء عمل بروكتر على ركبته، وبفضل زجاجة حليب الخيل، سيلازمه شبح دائم لقصور في القدرات العقلية. نظم عدد قليل من ضباط محطة دوشنبه الجريئين وداعًا سريعًا للرئيسة، تضمن كعكة كُتب عليها اسم وظيفتها بخطأ إملائي ساخر.

(سنفتقدك يا «شيف» Chef). [قاصدين "طباخة" بدل Chief "رئيسة"]

عندما خلت المحطة في المساء، أغلقت بروكتر حاسوبها ووضعت القرص الصلب في الخزنة. لم يكن هناك الكثير لتحزمه؛ فمكتبها المعقم خلا من الصور العائلية، ومن "جدار الأنا" المليء بالهدايا والتذكارات، ومن الفن. لا زينة من أي نوع.

كان ترفها الوحيد مضرب بيسبول يحمل توقيع كل عضو في فريق كليفلاند إنديانز الفائز ببطولة العالم لعام ١٩٩٧: وصفتها الإدارية السرية لتعزيز إنتاجية المحطة. في دمشق، احتفظت ببندقية صيد في مكتبها، لكن في عمّان توالت الشكاوى، والآن صار لديها المضرب. كانت تحمله معها؛ تختلس النظر إليه بشوق أثناء اجتماعات العمليات الصباحية؛ وكان يستند إلى الجدار في الزاوية، مرئيًا خلال مكالمات الفيديو مع المقر الرئيسي.

لوّحت بروكتر بالمضرب في قوس كسول شق هواء مكتبها.

كانت تعلم أنها لا تستطيع البقاء في دوشنبه، لكنها كانت تمقت خلية النحل في لانغلي المقر الرئيسي، التي تضج بـ«زواحف» يتضورون جوعًا للكعك المحلى أكثر من نتاج التجسس. يا له من يومٍ كالح.

هوت بالمضرب على الطاولة المصنوعة من الخشب المضغوط في مكتبها. ظهر صدع. ضربت مرة أخرى، فانكسرت، واستمرت في الضرب حتى تحولت

الطاولة إلى حطب، وتصبب جسدها عرقًا غزيرًا. أطفأت أنوار مكتبها. والمضرب على كتفها، بدأت في إغلاق المحطة.

المقر الرئيسي، يا إلهي. ولكن ماذا عساهم يفعلون ببروكتر؟ تلك الفاسقة المتهورة التي تعد في الوقت نفسه رئيسة وعميلة تحظى باحترام كبير، وتملك سنوات من الخبرة في الميادين الأجنبية؟

إنها الآن في «قفص التأديب[3]». فترة عامين في المقر الرئيسي تحت رقابة صارمة. بمجرد إتمامها بنجاح، قد تدير محطة مرة أخرى يومًا ما. ولأنها كانت كفؤة، وليست فاشلة تعجز عن إدارة العمليات، ألمح نائب المدير برادلي إلى أنه سيجد شيئًا مهمًا لها.

تأكدت بروكتر من خلو المكاتب من الأوراق. تحققت من إغلاق الخزائن. ثم أدارت قفل الباب المعدني السميك لمحطة دوشنبه للمرة الأخيرة.

[3] **قفص التأديب Penalty Box** : مصطلح عامي في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) يُشير إلى وضع عقابي يُعزل فيه الضابط عن العمليات الميدانية الحساسة، ويُنقل إلى مهام مكتبية هامشية نتيجة لخطأ ارتكبه أو فقدان للثقة. يعكس هذا المصطلح حالة من التجميد الوظيفي والنبذ، حيث يُمنع الضابط من المشاركة الفعالة ويُوضع في "صندوق" من العزلة البيروقراطية .

الفصل الثاني

لانغلي

في صباح اليوم التالي لوصولها إلى أرض الوطن، كانت بروكتر تعاني من إعياء السفر، وأذناها تطنان من فرط الإرهاق، وهي تنتظر لقاء إد برادلي، نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية.

جلست بروكتر على إحدى الأرائك خارج مكتبه في الطابق السابع. بدت غرفة الانتظار وكأنها صُممت من «كتالوج المشتريات الحكومية»: الأثاث كله من خشب مقلد داكن، متآكل الأطراف أو ممزق قليلًا هنا وهناك. وطاولة القهوة الملطخة ببقع خفيفة تعج بالمجلات. وكما هو الحال في كل غرف الانتظار، في كل مكان وزمان، كانت مواد القراءة، شأنها شأن الأثاث، قد تجاوزت صلاحيتها منذ زمن بعيد.

حين أُذن لها بالدخول أخيرًا، كان برادلي منكبًا على مكتبه فوق جهاز «MLP»؛ وهو هاتف آمن بحجم الطابعة يربط بين أربعة عشر مسؤولًا من قادة الأمن القومي. زر للمدير، وآخر لمستشار الأمن القومي، ووزير الخارجية، ووزير الدفاع، وهكذا دواليك. كان مكتبه يطل بنوافذ واسعة على الأشجار التي تحف نهر بوتوماك: المتوهجة الآن بألوان الذهب والأحمر والبرتقالي.

كان برادلي رجلًا ضخمًا، طوله ست أقدام وبوصتان، وظهيرًا سابقًا في فريق جامعة تكساس، وضابط حالة أسطوريًا تقاعد بعد أن خدم رئيسًا لقسم الشرق الأدنى القديم، قبل أن يطلب منه المدير الجديد العودة بصفة نائب. وتعود علاقته ببروكتر إلى عقود مضت.

كان «جدار الأنا» خلف مكتب برادلي عاريًا في معظمه، تمامًا كما تذكرته. لكن، على الخزانة الجانبية، استقرت صور لزوجته وبناته، إلى جانب بعض الهدايا من أصدقاء مميزين. ميزت بروكتر قطعة خردة معدنية ملتوية، تذكارًا من يوم ساعدت في تفجير باب سيارة ميتسوبيشي باجيرو في وسط دمشق قبل مائة عام. وثُبتت على الجدار مقتنيات برادلي المفضلة: نظام صواريخ «ستينغر» تم تعطيله، هدية لقيادته البرنامج ضد السوفييت في أفغانستان، وحديثًا، صاروخ «جافلين» مخصص للعمل السري في أوكرانيا ضد الروس.

جرت بروكتر قدميها نحو كرسي يقع في مرمى قاذفات الصواريخ تلك، بينما كان برادلي يراجع البطاقة الفهرسية الصغيرة التي تحوي جدول أعماله اليومي. تنقلت نظراته المشمئزة بين البطاقة وجهاز الاتصال، وكأنه لا يطيق مهتمه التالية. اختفت البطاقة في جيبه حين رفع رأسه ورآها. منحها ابتسامة باهتة.

قالت بحسرة وهي تحدق في القاذفات:

– «قرنٌ آخر. وها نحن نواصل دعم صناعة توابيت الزنك الروسية[4]. ما يحدث سيظل يحدث. لا شيء يتغيّر. آمين»

ردد برادلي «آمين» وعانقها عناقًا حارًا:

– «يا آرتميس، كيف تتماسكين؟»

– «أنا في أفضل حال يا إد.»

لوى فمه بامتعاض:

– «أنا آسف. الروس الملاعين.»

– «يجب أن نطبع هذه العبارة على قمصاننا هنا.»

[4] ***التوابيت الزنكية*** ارتبطت تاريخيًا بالجنود الروس الذين يُعادون في توابيت معدنية من الحروب.

– «هل تحصلين على ما تحتاجينه؟ الأطباء والأخصائيون النفسيون يقولون...»

رفعت يدها مقاطعة:

– «أنا في "قفص التأديب"، أفهم ذلك. لكن لا تُجلسني على دكة الاحتياط. أنا بخير، أحتاج فقط إلى عمل. شيء ما أفعله.»

– «عليكِ حقًا أن ترتاحي.»

– «وأفعل ماذا بالضبط؟»

– «أقول تأكدي من أنكِ بخير فعلًا. رتبي أفكاركِ.»

– «يا إد، كف عن هذا. نحن نعرف بعضنا منذ أكثر من عشرين عامًا. لقد انتهينا من هذه الأمور.»

– «أنا قلق عليكِ يا آرتميس.»

مر طيف من الحزن على قناع برادلي الجامد، لكنه تلاشى حين أصدرت بروكتر صوتًا ساخرًا بفمها.

قالت:

– «لقد أصبحت عاطفيًا في خريف عمرك يا إد. يا للهول. قلت لك، أنا بخير. إذا كنت تريدني ألا أكون بخير، فتفضل إذن وامنح "آرتميس العجوز" إجازة إدارية لأربعة أشهر حتى أشرب حتى الموت في "مركز ريستون". هل هذا ما تريده؟ أن تتصل بك الشرطة في منزلك لأنني أحتسي "التكيلا" وأصرخ حول الـ CIA في موقف السيارات؟»

– «المدير أراد طردك. قال إنه كان سيفعل لو كانت هذه مؤسسة طبيعية.»

– «المؤسسة الطبيعية لم تكن لتوظفني أبدًا. والآن، هل قدم "الروسكيون[5]" احتجاجًا؟»

– «ولا حتى همسة حتى الآن.»

– «وماذا يدور في أذهاننا بشأن الرد؟»

أشاح برادلي بوجهه، وضم قبضته بقوة.

قالت بروكتر:

– «يا إلهي يا إد. حقًا؟ لا شيء؟ الروس خدروني. التقطوا لي مجموعة من الصور العارية. وضربوا نائبي بهجوم طاقة موجهة.»

– «التحقيق لا يزال جاريًا يا آرتميس.»

– «لقد أجرينا تحليلًا يثبت أن فرق الاغتيالات وصلت إلى دوشنبه قبل ثلاثة أيام من الحادثة.»

– «وأنا أتفق مع هذا التحليل. أنا أقول فقط إن التحقيق مستمر. وأن البيت الأبيض كان مترددًا حتى الآن في دعم خيارات انتقامية عدوانية.»

تأوهت بروكتر:

– «إذا لم نفعل شيئًا، سيستمر الروس في النكز. إنهم برابرة بلا حدود أو أخلاق يا إد. هذه طريقتهم في العمل. والأمر لا يتعلق بي. طوال السنوات العشر الماضية أو نحو ذلك، شاهدنا جميعًا بوتين ينكز ويستفز ويعبث عمومًا بالـ CIA وبالولايات المتحدة مع إفلات تام من العقاب. يتجاوز الخطوط، ولا نفعل شيئًا. يغزو جورجيا. يمزق أوكرانيا، يثير تمردًا منخفض الحدة، ثم يغزوها فعليًا ويرتكب طنًا من جرائم الحرب. يغلق شبكات الطاقة. إنه يعبث داخل شبكتنا، يخطط لما لا يعلمه الا الله ...»

---

[5] **الروسكيون** / **Russkies** : لفظ عامي يحمل صبغة ازدراء، شاع استخدامه غربياً خلال الحرب الباردة للإشارة إلى الروس.

رفع برادلي يده بلطف، لكن بروكتر تجاوزتها واندفعت في كلامها:

– «لقد أشعلوا النار فينا بموجات من الهجمات الإلكترونية وفيروسات الفدية. غيلانه سمموا وقتلوا الناس في جميع أنحاء العالم: في المملكة المتحدة، بلغاريا، واللعنة، حتى هنا في واشنطن. حاولوا تدبير انقلاب في الجبل الأسود. الجبل الأسود اللعين يا إد! الروس هاجموا ضباطنا جسديًا في موسكو. مدير الـ FSB اللعين لكم أحد ضباطنا في رأسه! في رأسه يا إد، بعد اعتقاله! ميليشياتهم أسقطت طائرة ركاب ماليزية فوق أوكرانيا. "الروسكيون" دفعوا مكافآت لطالبان لقتل الجنود الأمريكيين. لقد عبثوا بعقولنا على وسائل التواصل الاجتماعي هنا في عقر دارنا. لقد شوشوا أدمغة العشرات من ضباط الـ CIA بأسلحة الطاقة الموجهة. ونعم، خدروني والتقطوا صورًا لمفاتني. وكل هذا...»

نحنت حنجرتها ثم أكملت:

– «... لم يسفر عن أكثر من صفعة خفيفة على اليد. علينا أن نبدأ برسم خطوط حمراء لعينة وواضحة لا يتجاوزها ذلك الصرصار القابع في الكرملين.»

قال برادلي:

– «أتفق معك يا آرتميس، مائة بالمائة. أنا في صفك.»

– «أريد أن أكون في قلب اللعبة. وسمعت أن هناك منصبًا شاغرًا، المكتب الخلفي الجديد الذي يدير كل عمليات روسيا الغامضة. موسكو إكس[6].»

– «وظيفة موسكو إكس؟ آرتميس، المدير ليس من معجبيك، ليس بعد...»

– «بسبب الحادثة غير السارة في عمّان. والآن دوشنبه.»

– «صحيح. تلك الحوادث غير السارة تجعل تسويقكِ أمرًا صعبًا.»

[6] **مكتب موسكو إكس Moscow X** تسمية تُشير إلى محطة وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) في موسكو، التي تُعد الجبهة الأخطر والأكثر عدائية في عالم التجسس الحديث. يرمز المصطلح إلى العمل في "عرين العدو" تحت رقابة روسية مكثفة وشاملة، حيث تتطلب العمليات أقصى درجات الحيطة والسرية للنجاة.

– «أين تريد أن تضعني إذن؟»

نظر برادلي إلى قاذفات الصواريخ المعلقة:

– «أنا أريدكِ أن تعملي على الملف الروسي.»

– «حسنًا إذن، أقنعهم بذلك.»

***

كان صباح الخريف حارًا ورطبًا على غير العادة حين عبرت بروكتر موقف سيارات مبنى القيادة الرئيسي القديم. كانت حشود الموظفين الروتينية تتدفق حولها كالماء.

حكم بالسجن لمدة عامين في معسكر الاعتقال هذا، فكرت في نفسها، أمر لا يصدق.

لكن الجانب المشرق هو أنه إذا تمكن برادلي من إقناع المدير بمنحها وظيفة «موسكو إكس»، فستكون لديها فرصة أفضل لتحطيم «الروسكيين» من لانغلي مقارنة بأي مكان آخر تقريبًا. وكان في جعبتها الكثير من الأفكار الجميلة حول كيفية النيل من الروس. قادت سيارتها «البريوس» خارج المجمع باتجاه «فيينا إن»، تلك الحانة المتواضعة التي استضافت عددًا لا يحصى من ساعات التخفيضات، واحتفالات العمليات، والترقيات، وحتى مأتمًا أيرلنديًا أو اثنين لرفاق الوكالة. خططت بروكتر للاعتكاف هناك في نوبة شرب لمدة يومين، وربما ثلاثة.

انطلقت بروكتر مسرعة عبر شمال فيرجينيا، تداعب خيالها رؤية صارخة للفوضى في موسكو، تتراقص على وقع ألحان «بحيرة البجع» الغنية. لو كانت امرأة متدينة، لآمنت أن يد الرب هي من رسمت هذه اللوحة في ذهنها. لم تكن تعرف حقًا ما تفكر به بشأن الرب، لكنها خمنت أنه بحلول هذه المرحلة، فإن أي إله عاقل سيكون له حساب عسير مع الكرملين. وبعد كل ما فعلوه، لن يمنعها الرب من إدارة عملية محكمة تلقن «الروسكيين» درسًا لا يُنسى.

الفصل الثالث

سانت بطرسبرغ – روسيا

في الساعات الأولى من أمسية رطبة ـفي سانت بطرسبرغ، ترجّل رجلٌ يرتدي حلةً فُصِّلت بإتقان من سيارة «مرسيدس» حكومية سوداء، ودلف إلى ردهة أحد البنوك. ورغم أن «مهمته» ـفي تلك الأمسية كانت السطو والسرقة، إلا أنه لم يكن يحمل سكينًا ولا مسدسًا. كان سلاحه حزمةً من الوثائق الرسمية، التي تتيح له نقل كمية ضخمة من سبائك الذهب من احتياطيات البنك القابعة ـفي قبوٍ يرسخ أربعة طوابق تحت الأرض، ويحرسه ـفي تلك الساعة فريقٌ مدججٌ بالسلاح وعددٌ من الموظفين، نام قلةٌ منهم فقط ـفي تلك الأثناء.

خوّلت تلك الأوراق الرجلَ صاحب الحلة، المقدم كونستانتين كونستانتينوفيتش تشيرنوف، من جهاز الأمن الفيدرالي الروسي (FSB)، نقل مائتين وإحدى وعشرين سبيكة ذهبية من البنك إلى احتياطي استراتيجي ـفي الشرق.

طرقت حذوة «فيراغامو» السوداء التي ينتعلها تشيرنوف رخام الردهة، وتبعت كعبيها الناصعين زمرةٌ كبيرة من رجال الشرطة النظاميين يجرون العربات والصناديق. كان رجال الشرطة قد سِيقوا كارهين من قِبل جهاز الأمن الفيدرالي لقضاء أمسية ـفي الأعمال العضلية الشاقة. فالسبائك كانت ثقيلة؛ إذ تزن كل واحدة منها ما يزيد قليلًا عن اثني عشر كيلوغرامًا.

استقبل رئيس أمن «بنك روسيا» تشيرنوف في الردهة. كان الرجل عقيدًا سابقًا في الجيش؛ ويعرف أصول اللعبة. فالأمن الفيدرالي لديه عشرات الجواسيس داخل البنك، وهو من يضع القواعد. وتشيرنوف سيفعل ما يحلو له.

تبادلا تحياتٍ جليدية. كانت عينا تشيرنوف ميتتين وحازمتين، لكنهما اتسمتا بالأدب، وكانت الأوراق رسميةً بمللٍ قاتل، ورغم أن الجو كان مشحونًا بالتوتر، لم يكن هناك جدالٌ أو مماراة، ولم يرتفع صوتٌ بغضب.

كان تشيرنوف يومًا ما جنديًا وكاهنًا، لذا كان يوقن أنه لا قانون إلا قانون الرب، وأن الرب ينطق بهذا القانون عبر روسيا وحدها. ورغم أن أوامره في تلك الليلة قد تُعد تعسفية، بل وغير قانونية في مجتمعات كثيرة، إلا أنها بالنسبة لتشيرنوف كانت بمثابة وحيٍ إلهي، لا تختلف عن الكتاب المقدس أو مرسومٍ صادرٍ من الكرملين.

لم تكن ملامح تشيرنوف لافتة للنظر باستثناء طوله الفارع. كان شاحبًا، أصلع، متورد الخدين. عيناه ساكنتان ومتأملتان. وحلته السوداء قادمة من شارع «سافيل رو» عبر الحقيبة الدبلوماسية، ومحاكة ببراعة لتلائم بنيته الضخمة. غالبًا ما كانت كلماته هي الإرهاصات الأولى للجنون، وفي تلك الأمسية لم ينطق إلا بالنزر اليسير.

من الردهة، تبع تشيرنوف رئيس الأمن إلى مكتب فسيح يطل على الساحة. وهناك تجاوزا أول عقبة بروتوكولية في الأمسية: هل ينبغي الاتصال بأندريه أغابوف، المساهم الرئيسي في البنك، في هذه الساعة لإبلاغه باستيلاء الدولة على كومة من الذهب تناهز قيمتها مائتي مليون دولار؟

قال رئيس الأمن لتشيرنوف، وهو يقبض على سماعة الهاتف بيده البيضاء:

– «يجب على الأقل أن يعرف ما يجري.»

كان متأهبًا للاتصال بأغابوف لكنه تجمد مكانه، منتظرًا الإذن. أومأ تشيرنوف موافقًا.

تحدث رئيس الأمن مع أغابوف لبضع دقائق. قرأ عليه النقاط الرئيسية من الأوراق. ذكر اسم تشيرنوف ورتبته وإدارته. طلب من أغابوف التعليمات. ثم أنهى المكالمة.

سأل تشيرنوف، وقد لمعت عيناه بالفضول:

– «هل أُمرتَ برفضنا؟»

أجاب رئيس الأمن:

– «لا، لكن عليّ أن أجعل الأمر يبدو صعبًا علينا.»

سأل تشيرنوف:

– «وهل تظن أن ذلك من الحكمة؟»

اتفقا على أنه ليس كذلك. وأن رئيس الأمن لن يفعل شيئًا البتة لتأخير النقل أو تعقيده، ولكن إذا ضُغط عليه، فسيصر تشيرنوف على أن المقاومة كانت مزعجة، بل وشرسة. ثم هبطا إلى القبو، حيث سار تشيرنوف بين الصفوف، وأصابعه تنزلق على الأقفاص التي تحوي سبائك الذهب، بينما يتبعه أحد ضباط الشرطة ليطابق الأرقام التسلسلية مع الأوراق التي يحملونها لإضفاء الشرعية على هذا السطو. وبمجرد أن اطمأن تشيرنوف، بدأ رجاله بالتعبئة.

ملأوا قاع كل صندوق، وبسطوا قماشاً سميكًا فوق الذهب. أضافوا طبقتين أخريين حتى خشوا أن ينوء الذهب بجدران الصناديق. ثم أغلقوا الأغطية ببراغي خشبية، وألصقوا ملصقات جاهزة توضح نطاق الأرقام التسلسلية التي يحويها كل صندوق. لم يسحب رجال أمن البنك أسلحتهم؛ ولم يلمس أحدٌ أجهزة اللاسلكي أو الهواتف. وقفوا بجمود وانتباهٍ أبله.

ماذا عساك أن تفعل حين تكون الشرطة هي من تسرقك؟

راقب رئيس الأمن الصناديق وهي تنزلق أمامه بتعبير يائس لرجل يشاهد منزله يُسرق.

ثم، عاجزًا عن كبح جماح نفسه، تمتم بكلمات حول سرقة تشيرنوف لذهب أندريه أغابوف.

التفت إليه تشيرنوف، وقال بصوتٍ موزون، رغم أنه كان يشعر بدمه يلتوي ويتموج داخله كالزئبق، وطعمٍ خفيفٍ من الملح والمعدن يومض على طرف لسانه:

– «أتقول إن هذا ذهب أغابوف؟»

تأمل رئيس الأمن انعكاس صورته في حذائه، واضعًا يديه على خاصرته غضبًا، لكنه لزم الصمت.

قال تشيرنوف:

– «سألتك، هل موقفك هو أن هذا الذهب ملك لأندريه أغابوف؟»

رفع الرجل رأسه لكنه لم يجرؤ على التقاء عينيه بعيني تشيرنوف، وقال:

– «الأوراق تعترف بذلك.»

قال تشيرنوف:

– «إذن أسألك هذا: من يملك أندريه أغابوف؟»

عبث رئيس الأمن بربطة عنقه. كان يشهق بخفّة، وتفاحة آدم في عنقه تضطرب صعودًا وهبوطًا.

تنهد تشيرنوف. قلة هم من يفهمون.

قال تشيرنوف:

– «إن سلطة روسيا المنفلتة هي التي تُعيد له مكانته. فالإله الذي أخفق ـ في القيام بدوره يتّحد بروسيا من خلال هذا العمل الخلاصي. ولذلك، فإن الله — ـ في النهاية — هو مالك هذا الذهب. هل تفهم[7]؟»

كان الرجل يبتلع ريقه بصعوبة الآن، وأصابعه تشد عقدة ربطة عنقه. لم يُجب. ولم يلتقِ بنظرات تشيرنوف.

انزلقت الصناديق أمامهما.

قاد تشيرنوف الرجل من كتفه نحو صندوق فارغ. كان شرطي يقوم بتدبيس ملصق على الخشب. أمره تشيرنوف بالتوقف قائلًا: «امنحنا لحظة». كان الطعم كثيفًا ـ في فمه الآن، هل عض لسانه؟ مسح فمه بإصبعه، لكنه خرج نظيفًا ولامعًا.

قال تشيرنوف:

– «الأفكار هي الأسلحة الوحيدة القادرة على محو التاريخ، والحقيقة، والواقع. وبصفتنا روسيين صالحين، أنا وأنت ندرك قوتها. ـ في القرن الماضي، عانى الملايين من مواطنينا بنبل تحت راية أفكار كانت غامضة ذات يوم. وأصلي لكي يتبعهم المزيد ـ في القرن القادم.»

وبينما هو قابض على كتف الرجل، أشار تشيرنوف إلى الصندوق الفارغ:

– «ادخل.»

– «ماذا؟»

اشتطت قبضة تشيرنوف. حدق داخل الصندوق، وعبر قاعه رأى ـ في خياله تلك الحفرة المظلمة ـ في الريف السوري حيث حشروه لشهور. وأدرك أن الكرمة السوداء التي تتمدد عبر جسده هي ذاتها ما يشعر به هذا المصرفي الآن.

---

[7] **الخلاصية الروسية Rus / سياn Mesسياnism**عقيدة سياسية تخلط بين الدين والدولة، وتُبرر السلطة المطلقة والعنف باعتبارهما تجسيداً للإرادة الإلهية على الأرض .

خرج تشيرنوف من تخيلاته ليشاهد صندوقًا آخر ينزلق نحو مصاعد الشحن في القبو.

– «ادخل.»

تكلل خط الشعر لدى الرجل بقطرات عرق دقيقة. مسحت يد تشيرنوف الضخمة شحمة أذن الرجل برفق ثم انزلقت بنعومة إلى عنقه.

قال الرجل:

– «أرجوك. أرجوك.»

– «ادخل.»

تحرك إبهام تشيرنوف قليلًا داخل أذن الرجل. تبادلا النظرات للحظة.

خطا الرجل داخل الصندوق.

– «اجلس.»

طوى ساقيه المرتجفتين وجلس.

انحنى تشيرنوف فوقه وقال:

– «فكرتي عن روسيا هي أنها جسد. جسدٌ كامل، مولود من الرب، وبتول. مكون من خلايا، تمامًا مثل جسدنا. وهذه الخلايا لها أدوار. لكل منها وظيفتها الصحيحة. وإذا لم تعمل الخلية، فيجب أن تُبتر من الجسد.»

قال الرجل:

– «أرجوك. لا تفعل.»

قال تشيرنوف:

– «تمدد، لتكون مرتاحًا.»

فعل الرجل ذلك. ثم أغمض عينيه.

التقط تشيرنوف الغطاء ووقف ملقيًا بظله فوق الصندوق. مضغ باطن خده حتى تدفق الدم أخيرًا في فمه.

قال:

– «لدي رسالة لأغابوف من سيدي: نحن قلقون من أن خليتك لم تعد تعمل. أنها تسعى لحرية آثمة. أن جنرال الـ KGB السابق العنيد، والصناعي المشاكس، والمالك الفخور للأراضي، قد أصبح مقتنعًا بأن شخصه، وعائلته، وماله أمور منفصلة عن الدولة الروسية. أن أغابوف، كفرد يتمتع بحقوق وحماية بموجب القانون... حسنًا، يتخيل العجوز الأحمق الآن أنه يستطيع فعل ما يحلو له. لكن فقدان هذا الذهب الليلة يجب أن يثبت أن القانون ليس سوى طقس، إنه إيماءة مجيدة للإذعان لقائدنا. القوة والعنف يتفوقان على القانون، والعنف هو ما سيأتي إذا استمر أغابوف في تقديم مصالحه على مصالح روسيا. الشر يبدأ حيث يبدأ الشخص. لا يوجد سوى الأمة الروسية، لا وجود للأفراد. لا وجود لأغابوف.»

ثم وضع تشيرنوف الغطاء. تناول مثقابًا، وضغط زره لأقصى سرعة، وغرس البرغي الأول في الخشب.

صرخ الرجل:

– «يا إلهي، يا إلهي.»

الفصل الرابع

مزرعة «روس-فارم» لتربية الخيول، خارج سانت بطرسبرغ

سمعت آنا أندريفنا أغابوفا أنين المكابح، وشعرت بوطأة القصر وهو يجثم عليها من الأعلى. نظرت عبر نافذة السيارة: كانت كل غرفةٍ تقريبًا غارقة في الظلام. لطالما كانت مظلمة. أربعة من الخدم يجرجرون أقدامهم بحذرٍ أسفل الدرجات الرخامية المبللة، تحت وهج الفوانيس وتماثيل «الغرغول» الوحشية التي تتخذ شكل رؤوس الخيل. كان يسعدها دائمًا أن ترى عواقب الذوق التصميمي المريع لوالدها، لكن لسوء الحظ لم ينزلق أيٌّ من الخدم على الحجر الزلق. فتحت امرأة ممتلئة البنية الباب، فأنزلت آنا حذاءها من طراز «لوبوتان» بلونه الأحمر القاني على الحصى، وحشرت يديها في جيبيها.

رفعت بصرها نحو المنزل مجددًا، لكن مرآه هذه المرة أثار حنقها، لذا استدارت لتحدق بعينين نصف مغلقتين في الأضواء التي تنير مضمار السباق وأسطح الإسطبلات البعيدة. كم حصانًا هناك الآن؟ ربما أكثر من مائة. كان المطر الثلجي يشتد، شظايا تتطاير مع الريح المتسارعة. ونحن فقط في أكتوبر. يا إلهي، كم تمقت شتاء سانت بطرسبرغ. رطب، وقارس، وبلون معدن البنادق الرمادي. إنه مصدر الإلهام لسلسلة طويلة من الأدب الروسي الانتحاري. كانت آنا، مثل أي شخص آخر، تسمي المدينة ببساطة «بطرسبرغ».

وبينما عيناها لا تزالان معلقتين بالإسطبلات، سألت المرأة:

– «أين هو؟»

قالت المرأة:

– «في المكتب، لكنه...»

قاطعها صوت والدها:

– «يا عزيزتي.»

استدارت لترى أندريه أغابوف يخرج من البهو. تسمر الخدم صامتين وبلا حراك في حضرته. كان شعره الأبيض مصففاً بعناية، ومرتديًا ملابس أنيقة: بنطالًا مفصلًا وكنزة من الكشمير. لكن عينيه بدتا مجهدتين، ووجهه يعلوه شحوبٌ يشبه لون الرماد في منفضة سجائر. لم تكن لدى آنا تفاصيل، لكن إلحاح هذا الاجتماع وانتقاله إلى «روس–فارم» يشيان برجلٍ يقع في مرمى مؤامرة.

سأل:

– «كيف كانت الرحلة؟»

توقفت عند أعلى الدرجات، قبل العتبة مباشرة:

– «جيدة. سهلة.»

قال وهو يشير للخدم بأخذ حقائب آنا:

– «أود التحدث معكِ الآن.»

فتحت المرأة الممتلئة صندوق السيارة وحدقت فيه. كان فارغاً.

قالت آنا:

– «لن أقضي الليلة هنا.»

أشار لها بالدخول إلى البهو وهو عابس. هزت رأسها رفضًا.

أمال رأسه إلى الجانب، وقال:

– «للحظة فقط. الجو بارد. ادخلي، سأحضر معطفي. ثم يمكننا التحدث في الخارج وسط هذا الثلج...»

أشار بيده نحو المطر الثلجي، ثم أردف:

– «... وإلا قد ينتهي بنا المطاف ونحن ننظف هذا القرف في سيبيريا اللامتناهية.»

لوح بيده مرة أخرى، وكأن لسان حاله يقول: هيا ادخلي أيتها الصغيرة.

ابتسمت آنا ونفثت زفرةً متجمدةً نحو السماء سخريةً من هذا التعبير المهذب عن «معتقل سيبيريا». أشاحت برأسها بعيدًا عن المنزل.

قالت:

– «سأنتظر هنا ريثما تحضر معطفك. ربما نتحدث عند مضمار السباق أو في الإسطبل؟»

حينها سمعت آنا زنينًا خافتًا. التفتت لتنصت، فازداد الصوت علوًا. شفرات تضرب الهواء. كانت تميز صوت هذه الطائرة.

سألت:

– «مروحية الـ CIA؟»

ضحك وهز رأسه، ثم دلف إلى الداخل ليحضر معطفه.

***

كانت مروحية والدها المفضلة مملوكةً يومًا لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA. إنها طائرة «ميل مي–١٧» سوفيتية الصنع، بمحركين، استخدمتها لانغلي في الأيام الأولى للحرب ضد طالبان عام ٢٠٠١. عندما استعاد قادتها

كابول، استولوا على هذه الطائرة وأرسلوها إلى موسكو كهدية. قال والدها إنه فاز بها في رهان مع وزير الدفاع. ولم تسأله قط عما راهن به هو.

في المروحية، تقاسما قارورة من الكونياك الداغستاني المفضل لدى والدها. كانت هناك عدة حقائب وأغماد بنادق، بعضها ضخم جدًا. وصندوق يئن تحت وطأة الذخيرة. وما بدا وكأنه قاذفة قنابل صاروخية (آر بي جي) ملقاة على الأرض. وطياران صامتان. واثنان من آل أغابوف: الأب والابنة.

حلقت هذه الشحنة عاليًا، متجهةً إلى ميدان الرماية عند الطرف الجنوبي لـ «روس-فارم». كان قمرٌ ممزق يختلس النظر من بين الغيوم. لم يحاولا حتى التحدث فوق ضجيج المراوح. توقفت المروحية للحظة قبل أن تميل لتبدأ الهبوط. ثبتت آنا نفسها بالمقبض.

نزلا عبر تيار الهواء القوي الذي أحدثته المراوح إلى ممرٍ مفروش بالحصى يؤدي إلى ميدان الرماية. أنزل الطياران الأسلحة. كان والدها يرتشف الكونياك وهو يراقب. تحول المطر الثلجي إلى ندف ثلجية منتفخة.

قال وهو يضع يده على كتفها:

– «لقد مر وقت طويل منذ أطلقنا النار معًا يا آنيا. ظننت أن الأمر سيكون لطيفًا.»

ضغط والدها على مفتاح، فغمرت الأضواء الكاشفة الميدان. ترك الطياران الأسلحة على طاولة خشبية خلف خط الرماية وذهبا لتدفئة نفسيهما في المروحية.

تفحصت آنا الترسانة. كان هناك مسدس «MP-443» نصف آلي، المعروف باسم «بيا» أو «بيستوليت ياريغين»، وهو السلاح الاحتياطي القياسي للجيش الروسي. مملٌ جدًا بالنسبة لمجموعة والدها؛ ما الذي يفعله هنا؟ كان هناك مدفع رشاش «RPK-74» مع مسند ثنائي، وقاذفة قنابل كلاشينكوف. أين سلاحها المفضل؟ هل نسي؟

رأت بندقية هجومية برمائية من طراز «ADS». ثم بندقية «AK-47» أثرية صُنعت للتجارب العسكرية السوفيتية الأولية عام ١٩٤٧. وما زالت تعمل.

وأخيرًا وجدتها: علبة سوداء مخملية بطول قلم. فتحتها بقرقعة خفيفة وابتسمت للأنبوب. مسدس أحمر الشفاه. «قبلة الموت». يعود التصميم الأصلي لأيام الـ KGB: طلقة واحدة، عيار ٤,٥ ملم، غير دقيق بشكل جنوني، ولم يُستخدم في الميدان قط. قام التقنيون بتحديث طراز والدها في التسعينيات. كان الغرض التشغيلي الوحيد منه هو تسليته. يطلق الأنبوب الآن طلقة واحدة عيار ٩ ملم. ولتسهيل تهريب المسدسات، صُمم جهاز الإطلاق بحيث يمكن لأحمر شفاه حقيقي أن يستقر فوق رأسه، تحت الغطاء. لكن طراز والدها المغبر فقد قبعته الشمعية الوردية منذ زمن طويل.

راقبها وهي تقلب السلاح في يديها، وقال:

– «أنتِ وهذا الشيء اللعين.»

أغلقته وأعادت العلبة إلى الصندوق.

اختار والدها بندقية «AK-47». كانت الأهداف الفولاذية تتدلى في عمق الميدان أمام ساتر ترابي بارتفاع مبنى من طابقين. أطلق النار، معدلًا تصويبه حتى جاء ذلك الرنين المتصل والمرضي لارتطام الرصاص بالفولاذ. ثم صوت «طقطقة» المخزن الفارغ.

سألته:

– «لماذا أنت في المزرعة؟»

أجاب:

– «لدي رجال يقومون بمسح شامل في ريبينو. أخشى أن المكان كله ملغم بأجهزة التنصت. احتجت لمكان أعمل فيه مؤقتًا. خذي.»

ناولها بندقية الـ «AK-47».

ركّبت آنا مخزنًا جديدًا. حررت أمان السلاح. ثبتت الأخمص في كتفها ومدت يدها اليسرى أسفل البندقية، وأصابعها مفرودة حتى لا تكشط مفاصلها بجسم السلاح. سحبت الأجزاء بسرعة بإبهامها.

نظرت آنا نحو الهدف. ثنت ركبتيها، وسوّت كتفيها، ومالت بجسدها قليلًا للأمام. دحرجت كتفها نحو الأخمص حتى استقر بالقرب من عظمة الترقوة. قبضت على المخزن. نظرت عبر المهياف إلى اللوح الفولاذي المتأرجح. ضغطت الزناد. ابتلع جسدها الصغير الارتداد العنيف. رنين.

عشرون طلقة أخرى، وثمانية عشر رنينًا. ليس سيئًا، رغم أن والدها لن يقول كلمة ثناء واحدة. كانا يذهبان للرماية عندما يكونان على وفاق. وقد مر وقت طويل على ذلك. أعادت أمان السلاح ووضعته جانبًا. انضم إليها عند الطاولة، ناولها القارورة، وأخرج ملفًا من الجيب الداخلي لمعطفه المصنوع من جلد الغنم. وضعه في حجرها.

قالت وهي تأخذ رشفات متقطعة:

– «أرى أنك أحضرت مكتب ريبينو في معطفك. ما هذا؟»

– «شيء لا ينبغي أن يكون بحوزتي. لكن أولًا سأخبركِ لماذا أملكه. مساء أمس، وصل ضابط من الأمن الداخلي في الـ FSB، مقدم يُدعى تشيرنوف، إلى البنك ومعه أوراق تخوله نقل ذهبي إلى احتياطي استراتيجي، يُزعم أنه قبو عسكري في الشرق. أكاذيب بالطبع. كانت سرقة، واضحة وصريحة. هربوا بأكثر من مائتي سبيكة من ذهبي. وحشروا رئيس الأمن لدي في صندوق لعين وشحنوه إليّ مع رسالة سيكوباتية مفادها أن عليّ أن أجثو على ركبتي اللعينة. المسكين حفر بأصابعه حتى تحولت إلى كتل دامية وهو يخدش جدران الصندوق. استغرق الأمر منه ثلاث ساعات تقريبًا ليستعيد وعيه وينقل الرسالة.»

كانت عينا والدها كعيني ذئب، وقبضتاه مضمومتين بشدة لدرجة أنه حين بسطهما، تفتحت بقعة دم على كفه حيث غرس ظفره. مص الجرح.

ارتشفت آنا الكونياك حتى تمكن والدها من الكلام مجددًا.

ثم همس قائلًا:

– «هذا المدعو تشيرنوف يعمل لصالح "الإوزة" يا آنيا. الرسالة من "الإوزة".»

بدا وكأن الاسم قد فتح معطفها لزمهرير شتاء "بطرسبرغ" المحدق. فاسيلي بلاتونوفيتش غوسيف. «الإوزة». المدير السابق للـ FSB، وسكرتير مجلس الأمن الحالي، وأحد أقرب مستشاري بوتين. عبر ثلاثة عقود، خاض والدها و«الإوزة» صراع سلطة روسيًا أصيلًا؛ صراعًا طويلًا في دمائه، قصيرًا في انتصاراته. لكن القادة ما زالوا واقفين، يرمق كل منهما الآخر بحذر عبر الميدان.

أكمل والدها:

– «قالوا إنهم سيتوقفون بعد أن أخذوا حوض بناء السفن الخاص بي. ولكن الآن هذا؟ سطو على بنك؟ الموارد تقل، ومع ذلك يفرضون علينا ضرائب بهذه الطريقة. هل يريدون حربًا؟»

سألت آنا:

– «هل يمكنك التحدث إلى "الخُزيان[8]"؟» (وتعني السيد الرئيس بوتين).

– «"الخزيان" لم يفعل شيئًا بعد ابتزاز حوض السفن. سأحاول مرة أخرى. لكن في هذه الأثناء، لدينا خيط. سنحاربهم.»

[8] **الخُزيان** The Khozyain / لقب روسي يعني حرفياً "السيد" أو "المالك"، استُخدم تاريخياً للإشارة إلى ستالين، ويُطلق هنا على بوتين للدلالة على سلطته الأبوية المطلقة. يشي المصطلح بأن الرئيس لا يدير الدولة فحسب، بل يمتلكها فعلياً، مما يفرض هالة من الرهبة والخضوع التام لإرادته باعتباره الآمر الناهي الوحيد.

صفع والدها الملف بكفه.

فتحت آنا الملف، ومسحت الصفحات الأولى بحثًا عن أختام رسمية أو الخطوط الزرقاء لتقرير عملياتي. لم ترَ شيئًا، فأغلقت الملف.

سألت:

– «من أين حصلت على هذا؟»

قال والدها وهو يأخذ القارورة وجرعة كبيرة من الكونياك:

– «فقط اقرئيه. لدينا شخص يتصنت لصالحنا وقد سمع شيئًا مثيرًا للاهتمام للغاية. "نيوفيتسيالني ميري".»

إجراءات غير رسمية. لا مذكرة ورقية تأذن بالتنصت. لا ضمانات بأن هذا نابع حتى من عالم «قانون الهاتف»؛ تلك المكالمات الغامضة من الكرملين التي تحمل توجيهات هامسة. هذا جاء من والدها وحده. صوت هادئ بداخلها أخبرها أن تنهض وتغادر، لكنه لم يستدعها بهذه الطريقة من قبل. تعالي إلى المزرعة، هكذا قال. تعالي الآن يا آنيا. لم تزر «روس–فارم» منذ أكثر من عام. وكان الفضول يتملكها بشأن المعلومات الاستخباراتية، كطفل يمرر أصابعه برفق فوق صندوق هدايا مغلف. ماذا يمكن أن يكون بالداخل؟

فتحت المجلد وقلبت الأوراق. نصوص تفريغ صوتي. كومة سميكة.

قال والدها:

– «إليكِ أبرز ما فيها. كنا نراقب عددًا من رجال "الإوزة" الماليين في أوروبا. لندن. اليونان. سويسرا. وفي أحد نصوص لندن هناك زلة لسان تساوي جوهرة، لأن اثنين منهم كانا يتحدثان عن الأسهم وكيف ينبغي للمحامين تنظيم الأمور بحيث يحصل الجميع على حصتهم بالعدل. ذكروا الأسماء المعتادة، وقالوا إن "الخزيان" ليس مشاركًا في هذه العملية. إنما هذا لصندوق استراتيجي منفصل.»

تمتمت آنا:

– «تبًا.»

وضع والدها يده على كتفها:

– «"الإوزة" سرق مالي وهو يخفيه عن الرئيس.»

أخذت آنا القارورة. تأملتها بفضول، وكأنها لا تملك الأصابع التي تمسك بها. استمعت إلى دقات قلبها، وعقلها ينسج الخيوط معًا. ربما اختلق والدها كل هذا. أخبرته بذلك.

ضحك قائلًا:

– «أنتِ جادة يا آنيا؟ يا إلهي.»

– «هل لديك التسجيل الصوتي؟»

– «نعم.»

مدت يدها، وراحتها مفتوحة نحو السماء.

– «ليس معي.»

رفرفت ندفة ثلج واستقرت في راحة يدها المفتوحة.

قلب عينيه وأخرج وحدة تخزين USB من جيبه وصفعها في يدها:

– «لا توصلي هذه بجهاز كمبيوتر متصل بالإنترنت.»

دست آنا الوحدة في جيب معطفها ووقفت لتلتقط مسدس أحمر الشفاه من الصندوق. ابتسمت وهي تفتحه لتلقيم رصاصة في الأنبوب. وهي تسير في عمق الميدان، حرصت آنا على إبقاء فوهة الأنبوب موجهة بعيدًا عنها. مسدس أحمر الشفاه لا يحتوي على زر أمان. أرادت أن تفكر، فتمشت حتى وصلت إلى هدف من

الخشب الرقائقي بالقرب من الساتر الترابي. عليك الاقتراب كثيرًا بهذه المسدسات. فهي دقيقة فقط على مسافة بضعة أمتار– هذا إن أصابت.

توقفت على بعد مترين أو نحو ذلك من الهدف. صوبت، ورأت أن المسافة بعيدة قليلًا. خطوة كبيرة أخرى أقرب. وجهت الأنبوب نحو الهدف، وأدارته حتى طقطق وأطلق النار. لم تصب.

هذا الشيء اللعين.

عادت آنا إلى الطاولة الخشبية ودست الأنبوب في علبته.

سألته:

– «ما هو شعور فاديم تجاه السباق في دبي؟ هل الحصان جاهز؟»

– «اسأليه بنفسك. إنه زوجك.»

– «أي واحد سيشارك؟»

– «"سيد الجودو".»

لوت آنا شفتيها بامتعاض:

– «إنه ميؤوس منه.»

قال والدها وهو يمسح قطرة كونياك عن ذقنه:

– «ربما. يجب أن نناقش التقرير المدوي الذي سلمتكِ إياه للتو، بدلًا من شأن الخيول الذي تخلّيتِ عنه بلا لباقة. أو أي إلهاء آخر.»

استدارت عنه، وقد شعرت بالتأنيب. آخر شيء كانت تحتاجه هو استدعاء إلى هذه المزرعة الكئيبة.

تحدث الآن بصوت أكثر ليونة:

– «آنيا، هل تعرفين ما قد يفعله "الإوزة" بنا؟»

كانت لديها أفكار. لقد راقبت الرجال الأقوياء يتناحرون طوال حياتها. عندما كانت طفلة صغيرة، دار صراع دموي في «بطرسبرج» في ظل الانهيار السوفييتي. ووسط عنف العصابات، قام والدها بتهريبها هي ووالدتها إلى هذه المزرعة، التي كانت حينها تعاونية سوفيتية متهالكة. ما زالت تستطيع تخيل رجال والدها وهم يفحصون أسفل السيارات بمرايا مربوطة بعصي طويلة، بحثاً عن قنابل في الهيكل السفلي.

عندما كانت مراهقة، ترك والدها الخدمة ليرتقي في صفوف رجال الأمن السابقين الذين انتشلوا روسيا من الفوضى. وهو الآن رئيس مجلس إدارة «روسيا الصناعية»، وهي تكتل متضخم يحمل أهم الأصول الاستراتيجية للدولة: تصنيع وتصدير الأسلحة، إحدى شركات النفط العملاقة، ثاني أكبر صندوق تقاعد في البلاد، وسلسلة مخابز.

لكن ثمن صعود والدها كان باهظاً. لقد اشترى الولاء من خلال تحالف مع عائلة كوفالتشوك[9]: المصرفيون الذين يديرون الكثير من أموال بوتين.

وقد دفع الثمن بـ آنا.

لمست آنا إصبع الخاتم العاري في يدها:

– «أعرف ما سيحدث يا بابا.»

قال والدها:

– «سيضغط علينا "الإوزة" لبيع المزيد من الأصول له، وربما يحاول نفينا مع كل أولئك الفنانين الملعونين وراقصات الباليه والأساتذة الذين حزموا أمتعتهم عندما اشتدت الحرب. وربما يذبح بضعة من هذه الخيول، بحق السماء.»

[9] **عائلة كوفالتشوك The Kovalchuk Family** / إحدى أقوى العائلات الروسية التي تشكل العصب المالي لـ "الدائرة الضيقة" المحيطة بالرئيس فلاديمير بوتين، ويُلقب عميدها يوري كوفالتشوك بـ "مصرفي بوتين".

تحدث بهدوء في الظلام، يتنبأ بيقين رجل فعل كل ذلك بآخرين.

صححت له:

– «أنت. سيأتي لينتزع أحشاءك أنت، ليس أنا.»

قال:

– «لا يوجد "أنت" و"أنا". هناك "نحن" فقط. وإذا كنتِ لا ترين ذلك يا آنيا، فحسناً، فليساعدنا الرب جميعًا.»

ارتجفت وشدت معطفها عليها، غير واثقة أيهما المحق.

– «ماذا تريد يا بابا؟»

– «نحتاج إلى مزيد من الأدلة قبل أن نذهب إلى "الخزيان". أريدكِ أن تجدي أين أخفوا ذلك المال اللعين.»

نقر على الملف:

– «هناك مفاتيح هنا. مكتب محاماة في لندن، مكتب "هاينز دوسون"، متورط في الأمر. سأبدأ من هناك؛ فهم من ينشئون الحسابات. سيفهم المحامون الهيكل الكامل. وربما يملكون توكيلًا رسميًا على بعض الحسابات. قد يساعدنا ذلك في سرقة المال واستعادته. ستبحثين في هذا الأمر، وتعدّين مقترحًا لعملية. حان الوقت لنرد الصاع صاعين. لنريه أننا لن نركع، تباً له.»

قالت آنا، وشفتها تلتوي في ابتسامة ساخرة:

– «فهمت.»

احمرّت وجنتاه:

– «ما المضحك؟»

– «طوال ست سنوات وأنت تشتكي من عملي. وتخبرني أنني يجب أن أستقيل وأنجب أطفالًا.»

– «وماذا في ذلك؟»

– «والآن تريدني أن أستخدم مهاراتي تلك. لهذا السبب أبتسم يا بابا.»

– «حسنًا، كفي عن ذلك يا آنيا.»

– «أنا أدير قضايا أخرى. واحدة في جنيف، على سبيل المثال. ماذا علي أن أفعل بشأنها؟»

لم يعر ذلك اهتمامًا:

– «هل ستساعدينني، أم ستجلسين وتتفرجين؟»

صدمت ركبتها بركبته، فناولها القارورة. شربت.

– «هل لديك شخص يمكنه المساعدة بالموارد؟»

– «يمكنك التحدث مع ماكسيموف في موسكو.»

فجأة، ارتجت غابة البتولا الصامتة بصوت خفقان المراوح من مسافة بعيدة.

نظرت لأعلى:

– «مروحية فاديم؟»

أومأ والدها برأسه:

– «زوجك ربما يريد التحقق مع المدربين قبل وضع الحصان على الطائرة المتجهة إلى دبي.»

وعندها تحركت، قائلة إنها ستعود إلى موسكو الليلة.

صاح والدها وهو لا يزال جالسًا:

– «لماذا لا تبقين الليلة فقط يا آنيا؟ سافري في الصباح الباكر. سأرتب مروحية أخرى.»

ازداد صوت الخفقان علوًا. نظرت إلى السماء، والمطر الثلجي الجديد يلسع وجهها. عبرت مروحية فاديم فوقهم باتجاه مهبط الطائرات قرب القصر. أشارت برأسها نحو مروحية والدها في الفسحة أمامهم.

– «سأجعلهم يعيدونني إلى موسكو الآن. هل في ذلك مشكلة؟»

– «آنيا، فقط ابقي الليلة.»

– «هل تريد مساعدتي أم لا؟»

ابتسم والدها، وتنهد ناظرًا إلى الأرض، ولوح لها بيده لتذهب.

الفصل الخامس

لندن

كما هو الحال في أروع الحكايات، سمعت المحامية «سيا فوكس» لأول مرة بقصة ذهب «الإوزة» من رجلٍ مخمور بلكنةٍ خلابة. كان المخمور هو «ميكي ليادوف»، واللكنة مزيجًا ساحرًا من إنجليزية «إيتون» وروسية مصنع خرسانة سيبيري. كانا في الغرفة الخاصة المكسوة بألواح الخشب في فندق «بيركلي»، حيث اعتادت شركة المحاماة التي تعمل بها، «هاينز دوسون»، استضافة علية القوم من الروس. كان ميكي غارقًا في الشمبانيا، يسأل سيا عن لكنتها هي.

قال ميكي:

– «حسنًا يا عزيزتي، ما هي؟ كنت أنوي سؤالكِ عن لكنتك منذ بدأنا العمل معًا. دحرجة الراءات. مذهلة. شهية بعض الشيء، إن قبلتِ المجاملة.»

قالت سيا:

– «الأفريكانية. كيب تاون.»

أجاب ميكي:

– «مثالية. إنها الكمال بعينه.»

كانت الأمسية تشارف على نهايتها، وكانت سيا قد أغلقت صنبور الشمبانيا خاصتها منذ فترة طويلة. لكنها تقربت من ميكي، متظاهرةً بمشاركته الشراب لتستدرجه إلى الحديث عن المال. لُقّن شركاء «هاينز دوسون» الروايات المعتادة

خلال العشاء الرسمي المرهق: أن عملاء ميكي قرروا، فجأةً وبلا مقدمات – بطبيعة الحال – نقل مبلغ ضخم من المال – مجهول المصدر – إلى هيكل جديد يشبه دمية «ماتريوشكا»[10] من الحسابات التي تسيطر عليها شركات وهمية متداخلة داخل شركات وهمية أخرى. في جزر فيرجن البريطانية. نيفيس. سويسرا. جزيرة مان. مواقع تتمتع بسمعة ناصعة في السرية والكتمان.

كانت سيا تعلم أن ميكي ينقل الأموال لصالح «الإوزة». كل الشركاء الكبار في «هاينز دوسون» يعلمون ذلك، رغم أن أحدًا لا ينبس ببنت شفة. ما أرادت سيا معرفته هو مصدر هذه الشريحة من الأموال. وميكي، كما خمنت، كان يريد أن يروي لها. كانت هناك قصة، وعيناه تقولان إنها قصة جيدة. أعادت ملء كأسه بالشمبانيا.

قالت:

– «المبلغ كبير جدًا يا ميكس، حتى بالنسبة لك ولعملائك. مائة وخمسون مليون دولار في وقت قصير؟ مبلغ ضخم للغاية. هل من تفاصيل مثيرة، أم أن الأمر سري للغاية وروسي بحت؟»

قال ميكي:

– «حسنًا، إنه مهم للغاية لجماعتي. مهم للغاية للغاية.»

ثم أضاف كلمة بالروسية: «Zayebeese» (زايبِيس). قطبت سيا حاجبيها، فضحك ميكي.

قال:

– «آسف. أعني أن عملي مهم جدًا لدرجة أن الرئيس سيلعن سلسفيلي إذا أفسدت الأمر.»

[10] دمية ماتريوشكا **Matryoshka doll** / الدمية الخشبية الروسية التقليدية التي تخفي بداخلها نُسخاً أصغر متطابقة.

ضحك مجددًا، وشرب المزيد من الشمبانيا، ثم أومأ لها لتقترب حين صرّح ميخائيل ليادوف، ربما بدافع الحماس الزائد أو السكر المفرط، أن المال كان ذهبًا في الأصل.

سألت سيا ووجهها يتهلل:

– «ذهب؟ واو يا ميكس، هذا لا يُصدق. أراهنك أنك تبالغ.»

ضحك، ثم اكتست ملامحه بالجدية:

– «لا، أقسم. ذهب. من بنك روسي.»

أخبرها أنه سمع شائعات بأن بعضه مسروق، لكن ذلك ربما كان أروع من أن يكون حقيقيًا. مثيرًا للغاية. الحقيقة غالبًا مملة، هكذا عرض الأمر بعبوس. إنه ذهب يحتاج عملاؤه لإخراجه من البلاد، يُهرّب عبر أوروبا، ويتحول إلى نقد نظيف بواسطة بضعة تجار سويسريين ودودين، ويُكدس كما ينبغي في جزر رطبة بواسطة «هاينز دوسون» والمصرفيين. العمل المعتاد، السعي المحموم وراء العملة الصعبة وما إلى ذلك. أخذ جرعة كبيرة من الشمبانيا. لكنه أصر، واضعًا يده على قلبه، أن الأمر بدأ كذهب من قبو بنك في سانت بطرسبرغ.

سألت سيا، وهما منحيان فوق الطاولة الطويلة يتهامسان بتآمر:

– «ميكس، كيف بحق الجحيم أخرجوا كل تلك السبائك؟»

غمز لها قائلًا:

– «سمعت أنهم عبأوها في صناديق من متحف هيرميتاج. أرسلوها إلى فلورنسا، شراكة متاحف، بطبيعة الحال، ثم بالشاحنات إلى حيث يعلم الله. ربما سويسرا.»

تلاشت ابتسامته وحل محلها خيبة أمل:

– «رغم أنني أخشى أن هذا الجزء أيضًا أروع من أن يكون حقيقيًا.»

أرادت أن تسأل عما ينوي «الإوزة» فعله بالمال بحق الجحيم، لكن ميكس لن يعرف. السؤال سيجعله يتململ ويهذي بتلك اللكنة الراقية.

قالت وهي تميل نحو الطاولة، غير ناوية تغيير الموضوع حقًا:

– «موضوع جديد. سمعت أن أصدقاءك في روسيا يواجهون مشاكل مع أحد رجال الأعمال. أوليغارشي[11]؟ قيل لي إنه لا يملك أندية كرة قدم أو يخوتًا، لكنه يبرق إشعاعًا من كثرة المال. ما اسمه؟ آغو-شيء ما...»

قال ميكي:

– «أغابوف. الجنرال أندريه بوريسوفيتش أغابوف. رغم أنه متقاعد يا عزيزتي.»

كان يحرك كأس الشمبانيا ممسكًا بعنقه.

أكمل ميكي:

– «أغابوف باع لهم مؤخرًا حوض سفنه بأبخس الأثمان. والآن قصة البنك هذه.»

هز رأسه بعلم، وشرب المزيد من الشمبانيا.

سألت سيا:

– «البنك ملك لأغابوف أيضًا؟»

قال ميكي:

[11] **أوليغارش Oligarch** / مصطلح يُطلق على طبقة من رجال الأعمال الروس فاحشي الثراء الذين راكموا ثروات هائلة عبر الاستحواذ على أصول الدولة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. يرمز وجودهم إلى تزاوج المال بالسلطة، حيث يتمتعون بنفوذ سياسي واسع لكنه يظل مرهوناً بولائهم التام للكرملين وللرئيس.

– «أغابوف هو المساهم الرئيسي في البنك. الرجل، بطبيعة الحال، لديه أعداء معينون. أذكياء نوعًا ما، في الواقع. من النوع الذي يغزل خيوطه في أعماق قلعة الكرملين.»

ابتسم وهو يدير الكأس الفارغ. كانا (ميكي بالتحديد) قد أنهيا الشمبانيا. التقطت سيا زجاجة براندي من عربة التقديم لتملأ كأسه.

قال:

– « ألا يوجد كأس براندي حقيقي من نوع snifter ؟ يا إلهي يا سيا... إنكِ تتصرّفين كأنكِ من البرابرة! الڤيسيجوث فقط هم من يصبّون البراندي في كؤوس الشمبانيا، يا عزيزتي... الڤيسيجوث والڤاندال.»

– « إلى أبواب روما إذن يا ميكس[12].»

صبت لنفسها كأسًا وأخذت رشفة ضئيلة. دخل نادل الغرفة؛ لوحت له بالانصراف، وشبكت يديها على الطاولة، مائلةً لتهمس مجددًا:

– «كنت تتحدث عن الأعداء يا ميكس. أعداء أندريه أغابوف.»

– «بالفعل، بالفعل. حسنًا، كلنا لدينا أعداء، أليس كذلك يا سيا؟ انظري إلى ميكس العجوز. في الحاضر: غارق في السكر مع بربرية غربية. محاصر تمامًا.»

قهقه ثم فحص ساعته وكأن لديه مواعيد.

يحتاج إلى دفعة، فكرت سيا. قليل من المساعدة.

قالت:

– «أنا ألتقط فقط الشائعات التي تصل من موسكو إلى لندن الكئيبة، لكنني سمعت أن "الإوزة" يضغط بشدة على أغابوف. في الأيام الخوالي السيئة كان

---

[12] إشارة إلى قبائل البرابرة التي اجتاحت روما تاريخيًا.

"الإوزة" الزعيم الكبير في الـ FSB، على ما أعتقد. والآن لديه مكتب في نهاية الرواق من مكتب بوتين. بحق الجحيم يا ميكس، قرأت مقالًا يقول إن "الإوزة" كان وراء ابتزاز حوض سفن أغابوف. ما القصة؟ هل هناك شيء قذر يزحف تحت ملاءات الكرملين؟»

أغلق ميكي فمه كأنه يسحب سحابًا، ورمى المفتاح الوهمي في الكونياك، وتجرع كأسه دفعة واحدة.

أعادت سيا ملأه:

– «حسنًا، الآن يا ميكس، المفتاح عاد إلى كأسك. اشربه، وربما تفتح فمك وتفصح.»

هز كتفيه وابتسم ابتسامة باهتة بعد رشفة طويلة وبطيئة. طبل بأصابعه على مفرش المائدة. ثم، وكما أصبحت طريقة ميكي المفضلة لمشاركة الأسرار، تحدث بصيغة مبني للمجهول انتقائية. فصيغة المبني للمعلوم كانت ستتطلب منه تحميل "الإوزة" مسؤولية أشياء لا ينبغي له تحميلها إياه.

قال:

– «ذهب أغابوف تم الاستيلاء عليه، إن صح التعبير. لأغراض استراتيجية هي بالطبع لغز لميكس العجوز المتواضع. لكن ذهبه خُطف، وحوض سفنه أيضًا، وعدد قليل من عصافيري الصغيرة في "الوطن الأم" (الرودينا[13]) تغرد بأن أندريه العجوز يُعاقب لأنه لا يلعب وفق القواعد. عليه أن يدفع الجزية، فهمتِ، وهو عنيد بشكل لعين بشأن ذلك. ذكرتِ "الإوزة". ولن أعلق على المقالات. تعلمين أن الصحف هنا تثير كل أنواع الافتراء والتشهير ضد الوطنيين الروس. لكنني أسمع من عصافيري أن "الإوزة" وأغابوف يمقتان بعضهما البعض. كلاهما من إرث الـ KGB في لينينغراد. وهل تعلمين ما سبب كراهيتهما المتبادلة: إنها امرأة. ما

---

[13] **الرودينا (الوطن الأم) The Rodina** / كلمة روسية تعني "الوطن الأم".

الجديد بحق الجحيم؟ هناك هيلين طروادة[14]، وهناك غالينا سانت بطرسبرغ، رحم الله روحها. غالينا كانت مع "الإوزة" قبل أن تتزوج أغابوف. الآن "الإوزة" في صعود، ولديه "إوزاته الصغيرة" ليطعمها، وهو يفعل ما ينبغي لأي رجل عاقل فعله، أليس كذلك يا سيا؟»

– «وما الذي يحاول "الإوزة" فعله؟ سرقة منافس قديم حتى آخر فلس؟»

هز ميكي رأسه:

– «هذا، وأكثر. بنى أغابوف تحالفًا قويًا مع عائلة كوفالتشوك. كانا مقربين كاللصوص، أغابوف وكوفالتشوك. بحق الجحيم، كان أغابوف هو من استولى على حصة السيطرة في البنك عندما توفي كوفالتشوك الأب قبل بضع سنوات. حتى إن أغابوف زوّج ابنته، آنا، لابن فاديم كوفالتشوك. قد يتساءل المرء عما إذا كانت اللعبة هنا انتقامًا حلوًا وسياسة جيدة في آن واحد. ابتزاز منافس قديم، وتحطيم تحالف سياسي قوي. عصفوران بحجر واحد وما إلى ذلك.»

قالت سيا:

– «أمر مذهل يا ميكس. عملاؤك يطفحون بالمكائد الستالينية.»

قال وهو يمسح كفيه بابتسامة مرحة:

– «أيديهم ملطخة بالدماء. تمامًا مثل يديكِ.»

***

قبلتان على خدي ميكس، ونزهة قصيرة عبر «مايفير» المقمرة، وعادت سيا إلى «هاينز دوسون»، حيث كان كومة من المساعدين المنهكين يترنحون في الساعة السابعة عشرة من يوم عملهم. صعدت الدرج الملتوي الصرير ودخلت

[14] **هيلين طروادة Helen of Troy** / شخصية أسطورية إغريقية عُرفت بأنها "الوجه الذي أطلق ألف سفينة"، حيث تسبب جمالها الأخاذفي اندلاع حرب طروادة. تُستخدم في الأدب كرمز للمرأة الفاتنة والخطرة التي يصبح وجودها شرارة للكوارث، أو "الجائزة" التي تتقاتل القوى العظمى للفوز بها ولو كان الثمن دماراً شاملاً.

مكتبها، حيث أغلقت الباب ووقفت تحدق من النافذة القذرة إلى الشجيرات غير المشذبة المحيطة بالفناء المفروش بالحصى في الأسفل.

كانت النافورة جافة؛ لم ترها تعمل قط. بيني هاينز، المؤسس الوحيد الباقي للشركة والشريك المدير الفخري، أصر على هذا المزيج الانتقائي للمكتب الذي يجمع بين العقارات الفاخرة والديكور المتداعي. تتباهى العديد من الشركات الكبرى في «السيتي» بمكاتب أنيقة فائقة الحداثة تعج بوسائل الراحة لتعويض الموظفين عن عبوديتهم للشركة. ليس «هاينز دوسون». قد يبدو منزل «مايفير» هذا وكأنه منزل عائلة غريبة الأطوار. أرفف الكتب تبطن الممرات والمكاتب. الجدران مكتظة بلوحات زيتية لا علاقة لها بالشراكة أو العملاء أو ممارسة القانون: معركة ترافالغار، مشهد ريفي من كورنوال، بطة رسمها بيني هاينز بنفسه. المساحة كانت نادرة: مكتب سيا كان يومًا ما غرفة نوم طفل.

كان عامل الجذب في الشركة بسيطًا: التعويضات خمسة أضعاف ما تدفعه شركات المحاماة الأخرى في لندن. وفي سنة جيدة، قد تجعل خطة تقاسم الأرباح في الشركة ذلك الرقم سبعة أضعاف. المال يعوض عن مكان العمل الفوضوي. كما سعى المال للتكفير عن قائمة عملاءهم التي تتراوح بين المشبوهين والفاسدين. أيادي العملاء كانت محشورة في أواني المال القذر في جميع أنحاء العالم. والعديد من تلك الأيادي تميل لكونها قاتلة: الأسد، بوتين، آل سعود، خامنئي. لم تظهر أسماؤهم على الوثائق، لكن كان مفهومًا لدى كبار الشركاء من خريجي أوكسبريدج أن ممثليهم هم أثمن عملاء «هاينز دوسون».

طُرِق الباب.

– «تفضل،» قالت سيا.

دلف بيني هاينز متبخترًا إلى مكتبها. كان في الرابعة والسبعين، هزيلًا، بشعر أبيض كثيف وبدلة رمادية من ثلاث قطع. ساعة جيبه كانت مملوكة لتشرشل يومًا

ما. كان مستيقظاً ويعمل في الساعة ١:٠٣ صباحاً. جلسا على الأريكة الجلدية الخضراء وللحظة راقبا عابر سبيل عبر النافذة في الشارع بالأسفل.

سأل وهو لا يزال ينظر من النافذة:

– «قضيتِ وقتاً مع ميكي ليادوف؟»

– «إنه يحب الكلام.»

– «ثرثرة الكرملين؟»

– «أليست كذلك دائمًا؟ المال كان يخص أندريه أغابوف. "الإوزة" أخذه. الصراعات تتشكل في موسكو، فصائل متحاربة وكل ذلك. "بيزنس" روسي تقليدي.»

غمغم، وعبث بربطة عنقه:

– «هذا يفسر الهراء الذي أطعمونا إياه في العشاء. هل هناك أي خطر علينا إذا ساعدناهم في غسل الأموال؟ هل يعتقد ميكي أننا في مرمى النيران؟»

– «ليس أكثر من المعتاد.»

– «ماذا بحق الجحيم سيفعلون به؟»

– «ميكي لا يعرف.»

– «إنه لا يعرف الأشياء المهمة أبدًا.»

– «إنه مجرد حامل حقائب.»

وقف بيني وتمطى:

– «لقد أرسلوا العقد للتو لنبدأ العمل. رتبي الأمر لهم، هاه يا سيا؟ أيًا كان ما يريدون، وسيريدون المعتاد: شركات وهمية فوق شركات وهمية فوق شركات

وهمية حتى يختفي كل شيء. ما لم نعتقد أن أغابوف أو أي وغد آخر من الكرملين سيحرق هذا المكتب، سنساعد "الإوزة" في تخزين أمواله. لأنه من يهتم؟ هذه وظيفتنا. هذا سبب وجودنا بحق الجحيم.»

ربت بحنان على ركبتها، ثم نهض بيني واتجه نحو الباب.

فكرت سيا: وهذا هو السبب الذي جعلني أتسلل إلى مؤسستك المرتزقة الصغيرة، لكنها لم تقل ذلك.

بدلًا من ذلك، سبقت بيني إلى الباب وفتحته لتوديعه، مع رتبة على الكتف ووعد جازم بأنها ستكلف فريقًا بارعًا بالأمر فورًا، وتودع شريحة من أموال أغابوف المسروقة في حساب كاريبي بريء بحلول الغداء، أو شاي بعد الظهر على أقصى تقدير.

***

كان ميكي محقًا في معظم ما قاله. وصلت صناديق الذهب إلى فلورنسا في عنبر طائرة نقل عسكرية روسية معارة لوزارة الثقافة. استمرت التبادلات المتحفية على وتيرتها، حتى مع الحرب. رافق مجموعة من الصناديق تشيرنوف، الذي وصفته وثائقه الرسمية بأنه مرمم ملحق بمتحف هيرميتاج في سانت بطرسبرغ. المرممون الحقيقيون، الذين سافروا للإشراف على إعارة لوحات ومنحوتات كانت تملكها الامبراطورة الروسية كاثرين العظمى يومًا ما، حافظوا بحكمة على مسافة بينهم وبينه.

كانت صناديق تشيرنوف زرقاء ملكية وغير معلمة باستثناء رقم تسلسلي ولافتة صفراء مكتوب عليها «افتح من هذا الجانب» باللغات الإيطالية والروسية والإنجليزية. تبادل تشيرنوف، الذي كان يشرف على التفريغ في مدرج المطار بفلورنسا، التحيات مع رجل يعرفه فقط بلقبه الخالي من الخيال في الـ FSB: «مايكل أنجلو». كان الرجل يمتلك ويدير شركة نقل بالشاحنات متخصصة في نقل

اللوحات والمنحوتات وغيرها من الأشياء الثمينة في جميع أنحاء أوروبا. درست ابنتاه الاقتصاد في لندن بفضل مدفوعات من الأمن الفيدرالي الروسي.

من فلورنسا، نقلت شاحنات مايكل أنجلو الصناديق برًا إلى مصنع لتكرير الذهب خارج دريسدن، حيث تم صهر السبائك وإعادة تشكيلها بشعارات جديدة لإخفاء مصدرها. إجراءات مكافحة غسيل الأموال في تجارة تكرير الذهب تطبق بضعف – ويزداد الضعف عندما يكون المالك والمدير التنفيذي على كشوف رواتب الـ FSB.

تفرع مسار الذهب من المصفاة، حيث بيع لفروع سويسرية لاثنين من تجار الذهب بالجملة الألمان، وكلاهما يدين مسؤولوه التنفيذيون بامتنان مماثل لأرباب العمل في «لوبيانكا». لا شك أن الجشع شجع المتآمرين على تجاهل الضباب الذي يكتنف مسقط رأس الذهب، لكن أولئك الذين لديهم أسئلة عالقة، أو ربما خوف من الانتقام – قانونيًا أو غير ذلك – يمكنهم أيضًا أن يجدوا العزاء في حقيقة بسيطة وهي أن «بنك روسيا» لم يبلغ عن السرقة. لأنه، كما أصر تشيرنوف، لم تكن سرقة لأن الذهب لروسيا وبالتالي للرب، وكل شيء ملك للرب. بالنسبة لأي منظمة دولية أو حكومة مهتمة، ظلت السبائك مدفونة بأمان داخل «الوطن الأم».

بمجرد بيع الذهب كشظايا في أسواق العملات، رتب رجال أموال «الإوزة»، وعلى رأسهم ميخائيل ليادوف، تدفق العائدات إلى هيكل بيزنطي[15] من الحسابات الخارجية المملوكة لشركات وهمية: «ساندالوود المحدودة»، «بروكتون للتطوير»، «كيو آر إي للحلول»، إلخ. كانت الأسماء جوفاء عن قصد. فالشركات موجودة على الورق فقط.

[15] **هيكل بيزنطي Byzantine structure** / وصف مجازي مستمد من الإمبراطورية البيزنطية التي عُرفت بتعقيداتها الإدارية والسياسية الهائلة. يُستخدم المصطلح للدلالة على أي نظام أو بناء يتسم بالتشابك الشديد والغموض كالمتاهة، مما يجعل فهم آليته أو اختراقه أمراً بالغ الصعوبة والتعقيد.

كانت المحامية اللندنية، سيا فوكس، هي المقدر لها أن تكون مبدعة الهيكل المدوخ لممتلكات «الإوزة» المالية الخارجية، المهندسة والبناءة لمخفر مالي ناءٍ بعيدًا جدًا عن حدود «الوطن الأم». بالنسبة لمعظم المراقبين، كان إبداعها سيبدو مملًا ومضجرًا ومعقدًا لدرجة تخدير العقل. لكن من الأعلى، وفي الضوء المناسب تمامًا، يمكن للمرء أن يميز شكله الحقيقي: لقد كان ساحة معركة مليئة بالندوب لصراع سلطة روسي شرس. وكان أيضًا، على الأرجح، أكبر سرقة لسبائك الذهب منذ نهب النازيون أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية.

كانت سيا تعرف أي الحسابات تنتمي لـ«حدود الإوزة»، رغم أن أيًا منها لم يحمل اسمه. كانت سيا تعرف كيف تنقل المال.

كان هذا لأن رجالًا أقوياء داخل الكرملين وثقوا بـ«هاينز دوسون». ورغم أنهم لم يعرفوا اسمها، إلا أنهم بحكم الواقع وثقوا بسيا فوكس.

وفكرت في نفسها: تلك كانت غلطة فادحة منهم.

الفصل السادس

موسكو – مقر جهاز الاستخبارات الخارجية SVR

انعطفت آنا خارجةً من طريق «ميكاد» الدائري عند مخرج في منطقة «ياسينيفو» كُتب عليه «ممنوع الدخول» باللغتين السيريلية والإنجليزية. دسّت مقدمة سيارتها الـ «رينج روفر» في طريق ضيق، متجاوزةً لافتة أخرى كُتب عليها «مركز الأبحاث العلمية»، متوغلةً أعمق في الغابات حتى وصلت إلى كشك حراسة متواضع غارق في ضوء الصوديوم الأصفر. خرج حارس وحيد. لم تكن آنا تحمل إحدى الشارات المارونية، لذا حدق الحارس فقط، ربما متسائلًا عما إذا كانت الشقراء الضئيلة قد ضلت طريقها عند المخرج الخطأ. ألقى نظرة سريعة نحو الأعمدة والألواح المعدنية المسطحة المثبتة في الرصيف، والتي سيرفعها إذا حاولت سيارة التملص من فحص الهوية. سمعت آنا بحدوث ذلك مرة، حين اقتحم مخمور البوابة ليجد سيارته «لادا» مسحوقة كالفطيرة أمام حاجز فولاذي نبت فجأة من الطريق. سلمته رخصتها بابتسامة لطيفة وشرحت له أن عليه الاتصال بمكتب النائب الثالث للمدير فورًا؛ فهي ليست مدرجة في القوائم.

انتحت جانبًا بينما أجرى الحارس مكالمته. بعد بضع دقائق، هرع من الكشك وبيده هويتها، فارتفعت العارضة نحو السماء، وعبرت بقرقعة فوق الألواح المعدنية إلى المجمع.

في موقف السيارات الشاسع، أطفأت آنا هاتفها المحمول وحشرته في صندوق القفازات. كان الوقت لا يزال مبكرًا، لكنها استطاعت أن ترى أن العديد من المكاتب مضاءة بالفعل، بما في ذلك الجناح التنفيذي في الطابق الثالث الذي شغله

والدها يومًا ما. خلف المبنى الرئيسي المكون من سبعة طوابق، ارتفع برج شاهق من اثنين وعشرين طابقًا، خلية النحل العامل. وإلى الغرب مباشرة من موقف السيارات اللامتناهي – والمزدحم بشكل متزايد – كان هناك مبنى مائل يضم متجرًا متعدد الأقسام بخصومات كبيرة، وساونتين، ومسبحًا أولمبيًا، وثلاث صالات رياضية، ومجموعة من ملاعب التنس. أكواخ «داتشا» خاصة، كانت ملكًا لقادة المديرية الرئيسية الأولى للـ KGB، تنتشر في الغابة داخل السياج الأمني.

عندما انهار النظام السوفييتي، أعيدت تسمية المنظمة التي تشغل مجمع «ياسينيفو» بـ SVR (جهاز الاستخبارات الخارجية). والدها، مثل أي شخص آخر، لم يمانع في إعادة التسمية لأن أحدًا لم يستخدم الاسم الجديد قط. أغمضت آنا عينيها، واستمعت إلى طنين محطة الكهرباء الفرعية وحفيف أشجار الصنوبر في رياح الصباح الباردة. مقر الـ SVR. هي، مثل والدها، كانت تعرفه فقط باسم «الغابة».

***

كان النائب الثالث للمدير، ماكسيموف، يتباهى بمكتب واسع في الأجنحة التنفيذية بالطابق الثالث. تطل النوافذ الكبيرة على أشجار تشق الضباب كالأشباح في غبش الصباح. ماكسيموف، مثلهم جميعًا، كان لديه جدار من الصور والتذكارات في خزانة زجاجية فوق الخزانة الجانبية خلف مكتبه (كرة بيسبول موقعة من فيدل كاسترو، صورة مصافحة مع كيم فيلبي[16] وهو على فراش الموت، بندقية كلاشينكوف تذكارية مهداة من وزير الدفاع السوري).

ورأسه مدفون في كومة من الأوراق، تمتم لها بالجلوس عند الطاولة المطلية بالورنيش التي تمتد بطول الغرفة، والمصنوعة من ألواح صنوبر كانت تزين يومًا سفينة حربية أمر ببنائها بطرس الأكبر في الحروب ضد السويد. في نهاية المكتب،

---

[16] **كيم فيلبي Kim Philby** / ضابط مخابرات بريطاني وعضو في "خماسي كامبريدج"، يُعد أشهر عميل مزدوج اخترق الغرب لصالح السوفييت في تاريخ الحرب الباردة.

كانت طاولة أخرى تئن تحت وطأة سماور فضي مزخرف، نُهب من قصر تيريم في موسكو أثناء الثورة. كان الرسم الباهت للنسر الإمبراطوري المزدوج لآل رومانوف[17] مرئيًا من الجانب الآخر للغرفة حتى عبر عيني آنا الناعستين.

كان ماكسيموف ضخمًا، بشعر أبيض كثيف على جانبي رأسه ولكن أصلع من الأعلى. كان صوته يجلجل غالبًا – وقد أثيرت مشكلة ارتفاع صوته في تقييمات الموظفين مؤخرًا في أواخر العقد الأول من الألفية – ومع ذلك، ورغم جلبته، كان يُعتبر محافظًا من الناحية العملياتية. كان رجلًا يفضل الوضع الراهن، ومن شبه المؤكد أنه حذر من رغبة والدها في وضعهما كبيادق شطرنج في مباراته مع «الإوزة»: بتوظيفها هي وماكسيموف – أو الـ SVR في الواقع – للعثور على ماله المسروق. ولكن لحسن الحظ، وخلافًا للعديد من المخلوقات الأخرى في الطابق الثالث، لم يهتم ماكسيموف قط بكون آنا امرأة. قبّل وجنتيها وانضم إليها على الطاولة.

بدأ قائلًا:

– «لدي مكتب في أحد المباني الملحقة يمكنك استخدامه لبضعة أيام، وعدد قليل من فنيي الدعم العملياتي (Line OT) للمساعدة في التحليل. لا ورق. لا محاسبة عملياتية. استخدمي حكمك الخاص.»

– «بالطبع.»

– «عندما تحددين هدفًا، لا أريد أن أعرف. أحتاج لبعض المسافة من هذه العملية. تتفقين على تلك التفاصيل مع والدك.»

– «مفهوم.»

---

[17] **آل رومانوف The Romanovs** / آخر سلالة حكمت الإمبراطورية الروسية لثلاثة قرون، وترمز تاريخياً إلى الحكم القيصري المطلق الذي انتهى دموياً إبان الثورة البلشفية.

– «ولكن داخل الـ SVR، ترفعين التقارير لي وحدي يا آنيا. استمري في قضاياك الأخرى عبر التسلسل الطبيعي، لكن ليس هذه.»

نظرت إليه وكأنه عجوز أحمق لاضطراره لقول ذلك بصوت عالٍ.

تنهد قائلًا:

– «كان ذلك لضميري.»

– «بالطبع.»

هزت آنا كتفيها، وربتت على سطح الطاولة، ونظرت فوق رؤوس الأشجار:

– «قد أحتاج لموارد من أجل المراقبة.»

– «عندما يحين الوقت.»

عند الباب، قربها منه وهمس في أذنها:

– «والدك سيكون فخورًا يا آنيا. هو فخور بالفعل.»

كانت تعلم أن ضابط العمليات العجوز بداخل ماكسيموف يعمل على «آنيا الصغيرة»، يشجعها، ويخيطها داخل هذه المغامرة القذرة برمتها لتستمر حتى عندما تصبح الأمور صعبة، وهو ما سيحدث حتمًا في قتالهم ضد «الإوزة».

قالت:

– «تلك كذبة لطيفة.»

ابتسم وفتح الباب وقبل وجنتها مودعًا.

***

حبست نفسها داخل المبنى الملحق في «الغابة» لثلاثة أيام، تتقوت على دفق لا ينتهي من الشاي. فريق التخطيط، وهم تقنيون موثوقون اختارهم ماكسيموف،

اتخذوا من غرفة مؤتمرات متداعية ذات نوافذ قذرة تطل على حافة الغابة مقرًا لهم. هنا دخلت في الضباب المحيط بـ «هاينز دوسون».

في اليوم الأول وجدوا عنوانًا لندنيًا في سجل الشركات بالمملكة المتحدة، منزلًا في «مايفير» في شارع هادئ يبعد بضع كتل سكنية عن «هايد بارك». كشفت خدمة «جوجل ستريت فيو» عن عقار رث بسياج صدئ، وطلاء مقشر، وحجر تلطخه الأملاح المعدنية. لم يكن يبدو كمؤسسة يستخدمها الأثرياء لإخفاء أموالهم. وربما كانت تلك هي الفكرة.

بتمشيط قواعد بيانات الجمارك والضرائب البريطانية «المستعارة بشكل غير رسمي»، بنى التقنيون قائمة بموظفي «هاينز دوسون». أرادت آنا الأشخاص الذين يعملون على حسابات «الإوزة». من الناحية الواضحة، ليس الشركاء الكبار – فهم مرئيون لرجال «الإوزة» وأقل عرضة للإغراءات المالية – ولا الموظفين ذوي المستوى المتدني الذين يفتقرون للوصول المباشر. أرادت موظفًا مثقلًا بالعمل في منتصف الهرم، لديه القدرة على الوصول للمعلومات، ولكنه بعيد تمامًا عن رادار «الإوزة». كما احتاجت آنا لهدف يتناسب مع غطائها التجاري في الـ SVR كمصرفية روسية.

وهنا عثر الفريق على شريك مشارك في «هاينز دوسون» تدعى هورتينسيا روز فوكس (سيا فوكس). مقال في صحيفة «الجارديان» يفصل تأثير العقوبات على الحي المالي ولندن الراقية اقتبس منها بصفتها «محامية تركز على روسيا وأوروبا الشرقية».

تعمقوا أكثر في هورتينسيا. أحدث صورة تمكنت آنا من العثور عليها، بتاريخ قبل ثمانية عشر شهرًا، أظهرت امرأة طويلة بشعر أسود، وعينين رماديتين ضبابيتين، وأنف أقنى. كانت تحمل جنسية مزدوجة: جنوب أفريقية وبريطانية. في حساباتها على وسائل التواصل الاجتماعي، التي كانت خاملة إلى حد كبير منذ انضمامها لـ «هاينز دوسون»، كانت تطلق على نفسها اسم سيا.

كان ذلك منطقيًا.

قالت آنا لغريغوري، أحد التقنيين:

– «هورتينسيا، أي نوع من الأسماء الفظيعة هذا بحق الجحيم؟ ليس أفريكانيًا.»

هز كتفيه. لم يسمع به أحد من قبل.

بنى الفريق سيرة ذاتية غير مكتملة. نشأت في كيب تاون. جامعة كامبريدج حيث درست القانون. ثم تحول غريب. انتقلت إلى سان فرانسيسكو للانضمام إلى «ليريك»، شركة تكنولوجيا. وجدوا صورًا لسيا مع مؤسس «ليريك» ورئيسها التنفيذي، هاري هاميلتون. الكثير منها. يبتسمان، يضحكان، يتعانقان. تركت «ليريك» لتنضم لـ «هاينز دوسون» قبل خمس سنوات. أعجبت آنا بزاوية «ليريك» – إذا سأل أي من سادتها الآخرين داخل الـ SVR عما تفعله، يمكنها التلويح بالقيمة الاستخباراتية لشركة تكنولوجيا أمريكية كبيرة تملك محفظة بمليارات الدولارات من عقود الدفاع.

استخرجوا رقم هاتفها المحمول من السجلات الضريبية «المستعارة». ثم عبر واجهة للـ SVR – شركة محاسبة مقرها تركيا ولها فرع في جنيف – اشترى الفريق أكوامًا من المعلومات المتاحة علنًا من شركات تجمع وتبيع البيانات من التطبيقات الشائعة. قام عالم بيانات ببناء خرائط حرارية تظهر تحركات سيا في أنحاء لندن والريف البريطاني. عرفوا كيف تسافر إلى المكتب، والأطباء الذين تزورهم، ومن أين تشتري البقالة.

سألت آنا غريغوري وهما ينكبان على الخرائط:

– «ما رأيك؟»

أجاب وهو يمرر إصبعه على طريق المشي القصير من شقتها في مايفير إلى مكاتب «هاينز دوسون»:

– «محامية مملة. تعمل خمس عشرة، ست عشرة ساعة كل يوم. تأكل وجبات سريعة، تدعو العملاء لعشاء فاخر، وتركض في عطلات نهاية الأسبوع.»

أكد وجهة نظره بتثاؤب.

في وقت متأخر من المساء الثالث، جلست آنا وحيدة في غرفة المؤتمرات تفكر في القضية. بدأت، كما هو الحال دائمًا، بمفضلاتها: الخيارات الأقسى. قد تتلقى سيا مكالمات هاتفية تهديدية، وتظهر آنا بطريقة لإيقافها. يمكن قتل الحيوانات الأليفة، لكن سيا لم تكن تملك واحدًا على ما يبدو. (أشارت بيانات الموقع الجغرافي إلى أنها لم تكن تمشي ليلًا، ولم تزر متاجر الحيوانات الأليفة لشراء الطعام). لكن الأساليب العدوانية كانت سابقة لأوانها. لم تكن تعرف بعد نقاط ضغط سيا، ولا نقاط ضعفها، ولا إدمانها. والمرأة لم تكن روسية، ولم تكن داخل روسيا. ليس بعد.

دحرجت آنا أصابعها على حافة كوب الشاي المصنوع من الفلين، وتأملت مشكلة الوصول. يمكنها أن تلقي طعمًا تجده سيا مثيرًا للاهتمام. عميل مربح ربما؟ روسي ثري ومطواع قد يكون ماله مغريًا. بداية ليست سيئة. وإن أثار ذلك اهتمام «الإوزة» إذا اكتُشف، يمكنها شرحه ببراءة تامة: نحن نخفي المال، تمامًا مثلكم.

ارتدت معطفها وقفازاتها وسارت بتثاقل عبر موقف السيارات إلى سيارتها الرينج روفر. أخرجت الهاتف من صندوق القفازات واتصلت بوالدها. أخبرته بما تحتاجه. أخبرها بما يريد منها فعله.

قالت:

– «أوه، كفى الآن يا بابا. لا أستطيع. هناك طرق أخرى.»

– «ربما يا آنيا، ربما. لكن زوجك مشارك بالفعل. أخبرته. لذا اذهبي وتحدثي معه. انظري إن كان بإمكانكما ترتيب شيء ما.»

أسندت رأسها على عجلة القيادة. زوجها. اللعنة.

في تلك الليلة، أنهت زجاجة متوسطة الجودة من النبيذ الجورجي ببضعة كؤوس من الكونياك، وشاهدت بلا تفكير الرؤوس المتحدثة في برنامج «الوقت سيبين» في ظلال شقتها في «أوستوجينكا» بموسكو، التي اقتنتها في السنوات الأولى غير السعيدة من زواجهما، وهو مكان آخر لا تحبه. كلما دار عقلها نحو المحادثة مع والدها، شربت المزيد من الكونياك. على التلفاز، احتدم نقاش حول الأساليب الدموية التي قد يستخدمها الأمريكيون لحل «الأزمة الروسية الأوكرانية»، والحاجة المقابلة للتطهر الذاتي الوطني، وعندها أخيرًا، غابت آنا عن الوعي.

في صباح اليوم التالي، استيقظت آنا منكمشة في ردائها فوق أغطية سرير مبعثرة. لم تتذكر دخولها غرفة النوم. استلقت غارقة في صداعها، تجاهد لمجرد فتح عينيها ناهيك عن ترتيب أفكارها. نزلت آنا إلى النادي في الطابق السفلي للسباحة. لفتان بطيئتان ونفدت طاقتها. أخذت حمام بخار لتتعرق الكحول الذي شربته. كانت أقرب إلى الأربعين منها إلى الثلاثين، لكن ببطن مسطح وساقين عضليتين وراثة من والدتها. الفكرة أحزنتها. في غرفة خلع الملابس، استحمت وجعدت شعرها الأشقر قليلًا ووضعت مكياجها. متجاهلة الانتفاخات تحت عينيها، وضعت آنا أحمر شفاه قانيًا وابتسمت لتتأكد من عدم تلطيخ أسنانها.

لقد حان الوقت.

***

لم تتحدث آنا مع زوجها فاديم منذ أربعة أسابيع، ولم تره منذ ستة. كانت تصر على أسنانها بمجرد النظر إلى الاسم في قائمة جهات الاتصال. تمطت وطقطقت فكها وركبت موجة المشاعر المختلطة المعتادة التي يستحضرها زوجها. قبضت آنا على سطح المنضدة الرخامي، وعندما تركته راقبت الأثر الرطب لأصابعها يتبخر ببطء. ثم طلبت رقمه.

قال:

– «مرحبًا.»

رد قبل أن يتحول الاتصال إلى البريد الصوتي مباشرة. كانت تعلم أنه، مثلها، يحدق أحيانًا في الهاتف، متأملًا ما إذا كان سيجيب. قالت آنا إنها بحاجة لرؤيته. هل يمكنها القدوم إلى «بطرسبرغ»، إذا كان في المدينة؟

قال بحزن:

– «أنا في بطرسبرغ. هل نتناول العشاء؟»

– «نعم، لدينا عمل لمناقشته.»

تخيلته يعبس عند سماع ذلك.

قال:

– «سأجعل مساعدي يحجز طاولة. أي ليلة تناسبك؟»

– «ماذا عن الليلة؟»

– «حسنًا. هل ستبقين في الشقة؟»

– «وأين سأبقى غير ذلك؟»

سعل.

كررت:

– «أين سأبقى غير ذلك؟»

– «مع والدك.»

– «أنا لست طفلة يا فاديم. هل تعيش إحداهن معك الآن؟»

– «آنيا، أرجوك. لا يوجد أحد هنا. بالطبع يمكنك البقاء في الشقة. الأمر على ما يرام. كنت أسأل فقط.»

ولكن لماذا، لماذا تسأل؟ صرخت بصمت. لماذا تسأل يا فاديم؟ دارا في دوامة من الصمت، يستمع كل منهما لأنفاس الآخر. أطبقت على أسنانها.

قالت أخيرًا:

– «سأراك الليلة.»

وكما هو الحال دائمًا، أغلق الخط أولًا.

الفصل السابع

سانت بطرسبرغ

كانت الشقة تقع في واحد من المباني السكنية القليلة على رصيف «كوتوزوف» المطل على نهر نيفا، محتلة ثلاثة طوابق من قصر كان يومًا ما السفارة الفرنسية عندما كانت «بطرسبرغ» العاصمة الإمبراطورية لرومانوف. استقلت آنا قطار «سابسان» فائق السرعة، في رحلة مريحة استغرقت أربع ساعات من موسكو. وقفت آنا في الخارج وسط مجموعة من السياح الصينيين المحدقين بقلعة «بطرس وبولس» عبر النهر. لكنها كانت تحدق في الاتجاه المعاكس، نحو الواجهات الحجرية المزخرفة لمبناهم، المتوهجة باللون الوردي في ضوء ما بعد الظهيرة المتلاشي.

كُتبت نصوص نثرية بديعة عن هذا المكان، وتأمل المؤرخون دلالات نشوء عاصمة إمبراطورية مرصعة كبيض «فابرجيه[18]»، في عنف لا يُصدق، من مستنقعات حدودية موحلة الي أرقي عاصمة للإمبراطورية الروسية. لكن آنا لم تتجاهل أبدًا الحقائق البسيطة التي عجزت اللغة الشعرية عن التقاطها: هنا وُلدت، ونشأت، وأحبت، وبيعت (تزوجت، من الناحية الفنية)، وجرى تجاهلها، وهنا، في «بطرسبرغ»، عليها أن تتحمل. خفضت رأسها ودخلت.

اصطدمت برائحة المطهرات والمبيضات عندما فتحت باب الشقة. وهي تسير نحو غرفة النوم، رأت سجادًا ممشطًا بمكنسة كهربائية، وطاولات زجاجية لامعة،

[18] **بيض فابرجيه** : قطع فنية نفيسة زينها صانع المجوهرات الروسي الشهير فابرجيه للقياصرة

وأسرة مرتبة حديثًا، حيث دُست ملاءات بنقشة الحمار الوحشي المبتذلة وطُويت بعناية، ونُفشت الوسائد بذوق. ما قد تفسره زوجة سعيدة كلفتة زوجية مدروسة، سجلته هي كدليل على أن فاديم استأجر عمال نظافة على عجل لمحو آثار «موكب الفجور» الذي يمر بانتظام عبر هذا المكان.

ارتدت فستانًا من الساتان الأحمر بحزام، وحذاء «لوبوتان» بكعب أربع بوصات كانت قد حزمته للرحلة. ومن بين مجوهراتها، اختارت عقدًا من لؤلؤ «تيفاني» وقرطين متطابقين. في المرآة، نظرت إلى ملابسها وسوت فستانها. وبينما تفكر في نساء فاديم غير النظيفات، اتصلت آنا بطبيبها في موسكو لتحديد موعد لفحوصات الدم، وبصيدليتها لإعادة تعبئة أدويتها.

خلال السنوات السوفيتية، كان تحديد النسل يعني الإجهاض إلى حد كبير. لم تكن حبوب منع الحمل متوفرة، وكانت الواقيات الذكرية السوفيتية مغبرة بالتلك وسميكة كأحذية المطر، وهي المنتج الثاني من منتجين يُصنعان في مصنع «باكوفسكي» للمطاط، وكان الأول أقنعة الغاز. أما الآن أصبحت الحبوب متاحة للجميع. المشكلة كانت أن العديد من الأزواج يريدون أطفالًا. أخفت آنا مخزونها في زجاجة أسبرين عندما يكون فاديم موجودًا. ابتلعت جرعتها المسائية. ثم ذهبت آنا إلى البار في غرفة المعيشة لتنبش عن إحدى زجاجات الكونياك باهظة الثمن الخاصة به -تصحيح- إحدى زجاجات الكونياك باهظة الثمن الخاصة بنا.

ملأت قاع الكأس وشربت جرعة طويلة. كان الوقت لا يزال مبكرًا؛ كان ينبغي أن تكسر حدة الكحول بالطعام. لكن هذه كانت إحدى تلك الأمسيات التي يجب تحملها، وكانت قد ملأت للتو كأسها الثاني عندما سمعت فاديم يفتح الباب. استدارت واصطنعت ابتسامة لزوجها، الذي كان يتحدث على الهاتف. أشار باعتذار صامت عن المكالمة ومر بجانبها دون كلمة إلى غرفة النوم. كان الظلام يسدل ستاره على نهر نيفا. كانت وحيدة مع أفكارها وشرابها.

***

نقلهم سائق فاديم إلى مطعم «بالكين» في سيارة «مايباخ» المدرعة. بدآ بكؤوس المارتيني على كراسي جلدية بلون دم الثور تحت الوهج العسلي للبار. كانت المحادثة متقطعة. سأل فاديم عن العمل، قدمت القليل، ثم بادلته السؤال. كان وسيمًا، وطويلًا، وعريض المنكبين، بعينين بنيتين ناعمتين أحبتهما لموسم واحد عندما كانا شابين. خلال واحدة من فترات الصمت الكثيرة في المحادثة، وجدت آنا نفسها تتمنى لو أنها تستطيع على الأقل تحمل القيود الغريبة لهذا الزواج شبه المدبر. كانا يعيشان منفصلين في الغالب، مما جعل الأمور أسهل. لملء الصمت سألت عن التحضيرات لدبي.

قال فاديم، ولسانه ينزلق على أسنانه السفلية، ووجهه يزداد قتامة:

– «المدربون لا يستطيعون تنظيم أمورهم اللعينة.»

رفعت حاجبيها.

هذا فقط وانتهي الحديث بينهم.

أشار فاديم لطلب مارتيني آخر بينما انتقلا إلى طاولتهما. كانت الأرضية الباركيه اللامعة لغرفة الطعام المصممة على طراز «آرت ديكو» تطقطق بشكل ممتع تحت حذاء اللوبوتان الخاص بها. جلسا في زاوية هادئة بجوار نافذة تطل على صخب «نيفسكي بروسبكت». الستائر الخضراء الحريرية كانت مفتوحة، ووهج أضواء الشوارع يتلألأ على الفضيات والأواني الزجاجية. سمراء رشيقة كانت تستعرض صدرها من مقعد في البار رمقت فاديم بنظرة وهما يمران. عبثت آنا بلآلئها.

كانت «بطرسبرغ» هي المدينة الثانية في «العالم الروسي» الجديد، عالم روسي محصن ضد غرب معادٍ ومنحل. لكن الخنادق، وسفك الدماء، وصفارات الإنذار، حسنًا، بالنسبة لآنا في تلك الليلة كانت مجرد غيوم رعدية باهتة في أفق بعيد. العملية العسكرية الخاصة في أوكرانيا، الحرب، قد تغلغلت عميقًا في الروح الروسية، لكنها كانت أبطأ في تشويه الجسد. اختفت متاجر «أبل» و«نايكي»،

وأعيدت تسمية «ماكدونالدز» بـ «لذيذ وكفى»، وقطع غيار السيارات الغربية أصبح لا بد من شرائها عبر تجار الإنترنت، وهناك نقص عرضي ومحدود في محلات البقالة والمتاجر الكبرى. ولكن، كما سمعت آنا همسات عن الأيام السوفيتية وكما جربت بنفسها كفتاة صغيرة في الإمبراطورية الميتة للتسعينيات المتوحشة، فإن القدرة الروسية على المعاناة كانت بلا حدود، وعصية على الفهم. والحرب الحالية لم تكن شيئًا، مجرد خدش خفيف على جسد محفور بندوب عميقة. الليلة سيأكلون جيدًا، وبكلفة باهظة. وسيواصلون السير وحسب. أشارت آنا لطلب المارتيني الخاص بها.

طلب فاديم كافيار «بيلوغا» دون أن يسألها عما تريد. فردا كتلًا منه على بيض السمان المغطى بالقشدة الحامضة، وقرعا الكأسين دون التقاء الأعين، ثم شربا في صمت بينما كان فاديم يقلب في هاتفه.

قال أخيرًا، وهو يدفع الهاتف جانبًا:

– «إذن، والدك تحدث معي حول هذا... العمل.»

أسكت وصول النادل المحادثة. اختار فاديم نبيذًا فرنسيًا، زجاجة «بيتر» معبأة في سنة ميلاد آنا، سعرها يعادل حوالي ستة أشهر من أجر مواطن روسي متوسط. طلب فاديم شريحة لحم «واغيو» وآنا طلبت «ستروغانوف»، طلبات بسيطة وفق المعايير الفاحشة لمطعم «بالكين».

قالت عندما انصرف النادل:

– «لدي هدف، لكننا نحتاج لطعم. شيء نلوح به.»

حام الكلام على شفتي فاديم، لكن النادل كان يقترب بالنبيذ. سمح فاديم لآنا بإتمام مراسم تذوق النبيذ. بعد أن أومأت، أخبر النادل أن يمنحهم بضع لحظات من الخصوصية.

ولكن حينها دخل «الإوزة» مباشرة في مرمى بصر آنا، متجاوزًا كبير الخدم الذي كان يتوسل لبعض الوقت لإنهاء تجهيز الطاولة. انتشر فريق حمايته في الغرفة.

شتمت آنا بصوت خافت نحو الطاولة وتمتمت لفاديم.

سارت شقراء شابة خطوة خلف «الإوزة» بأسلوب مهذب لابنة خارجة لعشاء خاص مع «والدها». لكن دور «الابنة» لم يكن دورها. لمحهم «الإوزة» في طريقه لطاولته، وجاء دور فاديم الآن ليشتم تحت أنفاسه وهو يقف للترحيب.

همس بينما كانا يرسمان ابتسامات عملاقة لتحيته:

– «لا مفر يا آنيا، أنا آسف.»

صافح «الإوزة» فاديم وقدمهما لـ «إيرينا» ذات العينين الواسعتين. تذكرت آنا أن «إيرينا» كان أيضًا اسم زوجته الثانية. صافحت آنا إيرينا، ولأنها اعتادت أن تُدفع نحو الزوجات، والصديقات، والعشيقات، والعاهرات لكي يتحدث الرجال، التفتت ببساطة عن إيرينا عائدة للرجال.

رفع «الإوزة» حاجبًا تجاهها، ثم قال لفاديم:

– «نحن نتطلع لمشاهدة ما سيحدث في دبي. لقد أنفقنا الكثير على مزرعة الخيول تلك. متى تتوقع أن تبدأ بالفوز بالسباقات؟»

فعل فاديم تلك الحركة بلسانه المنزلق عبر أسنانه، وكان قد بدأ يشرح كيف أن الأمر يستغرق وقتًا، لكن «الإوزة» كان ينظر إليها هي بدلًا منه. قابلت نظرته عدة مرات وشعرت دائمًا أن وجودها يثيره. كانت تذكيرًا حيًا بأنه لم ينجب طفلًا من «غالينا». وأنها ابنة «أندريه أغابوف» من «غالينا». ابتسمت آنا له بينما كان فاديم يتحدث. *سيكون من الممتع انتزاع أحشائك*، فكرت. *قد أستمتع بهذا.*

كانا يتجادلان بغباء الآن، فاديم يفقد أعصابه، و«الإوزة» يبتسم بخبث لسهولة استفزازه. توقفت آنا عن الاستماع. حدقت في وجه إيرينا المثالي، ثم رسمت ابتسامة لطيفة على وجهها قبل أن تشرد تمامًا، بانتظار أن ينتهي الجدال. ولتسلية نفسها نظرت إلى إحدى النباتات. انصرف فاديم، وابتسمت إيرينا ببرود، وعادا لطاولتهما. كان الطعام قد وصل.

قالت وهي تعيد ترتيب المنديل في حجرها:

– «لهذا السبب لا أحب مطعم "بالكين". إنه مسرح.»

تجرع فاديم بقية نبيذه وحدق فيها غاضبًا:

– «هذه هي الحياة يا آنيا. مجموعة من المعارك.»

ليست حياتي، لم تقل ذلك. انفصالهما الجسدي كان يعني أنها لم تكن مضطرة لتكون معلقة في ذراعه في النوادي والمطاعم عبر «بطرسبرغ» وموسكو من أجل تلك المعارك. لقد جربا ذلك لموسم واحد.

قالت آنا بهدوء:

– «الطُعم، أعتقد أنه يجب أن يكون أنت.»

فاديم، الذي كان نظريًا نائب رئيس، يدير قسم الثروات الخاصة داخل «بنك روسيا». استحوذ والد فاديم المتوفى الآن على البنك في أوائل التسعينيات. وفي سنوات بوتين أصبح «بنك روسيا» واحدًا من أكبر بنوك روسيا، وتوسع في النهاية ليصبح تكتلًا مدعومًا من الدولة يحكمه تحالف بين عائلتي «أغابوف» و«كوفالتشوك».

كان الكحول عادةً ما يجعل فاديم متعبًا، لكنه أحيانًا يطفو بالغضب، وكان هناك وميض في عينيه وهو يتأمل دور البطولة الذي سيلعبه في هذه العملية. كان فاديم يكره وظيفتها في الـ SVR، واستقلاليتها. أنتِ تلعبين ألعاب الجواسيس، وأنا

أعد المال، صرخ في وجهها ذات مرة في الأيام السوداء قبل أن تحزم أمتعتها أخيرًا لموسكو.

لوح بيده بحركة غاضبة: أكملي.

قالت آنا:

– «المواصفات واضحة. أنت موالٍ لنا. ثري. قادر على السفر معي لبضعة أيام. هذا كل شيء. أنت مناسب تمامًا.»

حدق فاديم في «الإوزة» عبر غرفة الطعام. كان الزحام يقل، ولكن بدلًا من الارتياح الذي يجب أن يصاحب نهاية الأمسية، كان الموظفون متوترين. كانوا محاصرين حتى ينتهي «الإوزة» وإيرينا.

قال فاديم:

– «حسنًا. حسنًا. لكن في المقابل يحق لي أن أسألك سؤالًا واحدًا.»

نظرت لأسفل نحو الستروغانوف، قلقة مما قد يسأله:

– «بالطبع.»

فرقع فاديم بأصابعه للنادل لطلب آيس كريم مغرق بالكونياك. أكل خاصته وراقبت آنا خاصتها يذوب وارتشفت الشوكولاتة الساخنة المقدمة بجانبه. طلب فاديم المزيد من الكونياك، وعندما انصرف النادل، رفع كأسه في تحية ساخرة لـ «الإوزة» وإيرينا، ثم لآنا.

كان يحدّق في فستانها الأحمر ولاحظت آنا تلك الشرارة الصغيرة في عينيه، رغم أنهما في العادة جميلتان وهادئتان. إنها لمعة غضب تظهر كل مرة يدوران فيها حول بعضهما في هذه العلاقة المتوترة . كانت تتساءل أحيانًا: هل وجهها هي أيضًا يتلوّى بالغضب هكذا؟ هل تبدو مشاعرها بنفس العنف؟

مال فاديم بظهره في كرسيه وفحص ساعة «بريغيه» المصنوعة من الذهب الوردي التي أهداها إياه والدها في يوم زفافهما. كان مخمورًا، وكان لديه أسئلة لن تجيب عليها، وكان مهتمًا بها الليلة، لأسباب تمنت لو لم تكن تفهمها. لم تكن ترغب في العودة للشقة معه.

سأل فاديم أخيرًا، دافعًا طبق الآيس كريم جانبًا:

– «كم من المال سنحتاج للمخاطرة به؟»

– «من المحتمل أن نحتاج لاستثمار القليل في العملية. لا شيء جوهري. ولن يكون أي شيء في خطر.»

كان لسان فاديم ينظف أسنانه مرة أخرى.

– «حسنًا. أخبريني اذا احتجت.»

– «شكرًا لك يا فاديم، سأفعل. والآن، سؤالك؟»

لم يجب. بدلًا من ذلك، رمى منديله على الطاولة ووقف مترنحًا للمغادرة. تبعته آنا، مارة بصمت بجانب طاولة «الإوزة».

***

عادا إلى المنزل يلفهما الصمت، وعيناهما معلقتان بوسط مدينة «بطرسبرغ» وهو ينساب عبر نافذتي المقعد الخلفي لسيارة الـ«مايباخ». وفي المبنى، تهاوى فاديم بكسلٍ مستندًا إلى جدران المصعد المكسوة بخشب الكرز.

وحين صارا في الأعلى، تذرعت بالتعب وبأن مزاجها لا يسمح، ثم قبلت عنقه بحماقة، واعدةً إياه بأن تكون أقل إرهاقًا في الليلة التالية.

لم يرق له ذلك. انتزع معصمها بقوة، وساقها قسرًا إلى غرفة النوم، حيث ارتمى على السرير وشرع في فك سحاب بنطاله. تخبط في نزع سرواله الداخلي، حتى نجح أخيرًا في طرحه أرضًا، لكنه أبقى على جواربه. وبينما كان يفك أزرار

قميصه، رفع بصره إليها وهي واقفة بجواره تحت ضوء القمر. كانت لا تزال بكامل ملابسها، يحدوها أملٌ بأن يغيب عن الوعي قبل فوات الأوان.

وللحظة، تجمد الزمن بينهما.

قال بلسانٍ متلعثم:

– «لم أطرح سؤالي.»

أجابته:

– «اسأل إذن.»

رد:

– «ليس الليلة... لاحقًا.»

نهض ودفعها بعنفٍ لتسقط على السرير. راودت آنا فكرة المقاومة. لم تكن هذه المرة الأولى، وكانت تعلم أنه في الصباح لن يتذكر شيئًا. لكن شيئًا ما في أعماقها، ذلك الجزء الذي أراد لهذا الزواج أن يظل جمرًا تحت الرماد دون أن يلتهمهما في حريق مستعر، حثّها بصوت خافت أن تكون «الزوجة الصالحة». نادت أجزاء أخرى منها بالقتال، لكن «الزوجة الصالحة» خنقت تلك الصرخات. الصباح سيأتي لا محالة.

لذا، حين قبض على خصلات شعرها، لم تنطح أنفه بجبينها. وحين حشر وجهها في الملاءات، لم تهشم ركبته. وحين سألها إن كانت لا تزال تتناول الحبوب، كذبت وقالت «لا» لعله ينتهي بسرعة، رغبةً في رحمةٍ يمن بها الرب عليها.

وحين فرغ منها، غط في نوم عميق، متكورًا وسط الملاءات، وصوت شخيره يعلو فوق وسادة تلطخت بأحمر شفاهها. استقر أحد قرطي «تيفاني» بجوار عنقه. تحسست أذنها بحثًا عن الآخر؛ كان لا يزال مكانه.

في المطبخ، عاثت آنا في الأدراج بحثًا حتى اهتدت لمكان أكياس القمامة التي تخفيها الخادمات. سحبت واحدًا. تسللت بهدوء بجوار زوجها النائم وانتشلت حذاء «لوبوتان» من الأرض.

في الحمام، أشاحت بوجهها عن المرآة موليةً شطرها نحو النافذة. تخلصت من الفستان، ونزعت القرط المتبقي والعقد، وخلعت حمالة صدرها. ألقت بكل شيء في كيس القمامة، ودسته في حقيبة سفرها كي لا يلحظه فاديم. ستتخلص من كل ذلك في الصباح، بعد مغادرته للعمل.

وقفت آنا تحت دوش ساخن. وبينما المياه تنساب على شعرها وظهرها وتغسل جفونها المطبقة، أطلقت العنان لخيالها: رأت نفسها تعدو بجوادها بأقصى سرعة، والشمس الدافئة تلفح وجهها، وشعرها الذهبي يرفرف في مهب الريح. كانا ينطلقان بسرعة جنونية. كانت آنا تحث الجواد على المضي، واعدةً إياه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ما داموا يواصلون العدو دون توقف.

عادا إلى المنزل يلفهما الصمت، وعيناهما معلقتان بوسط مدينة «بطرسبرغ» وهو ينساب عبر نافذتي المقعد الخلفي لسيارة الـ«مايباخ». وفي المبنى، تهاوى فاديم بكسلٍ مستندًا إلى جدران المصعد المكسوة بخشب الكرز.

وحين صارا في الأعلى، تذرعت بالتعب وبأن مزاجها لا يسمح، ثم قبلت عنقه بحماقة، واعدةً إياه بأن تكون أقل إرهاقًا في الليلة التالية.

لم يرق له ذلك. انتزع معصمها بقوة، وساقها قسرًا إلى غرفة النوم، حيث ارتمى على السرير وشرع في فك سحاب بنطاله. تخبط في نزع سرواله الداخلي، حتى نجح أخيرًا في طرحه أرضًا، لكنه أبقى على جواربه. وبينما كان يفك أزرار قميصه، رفع بصره إليها وهي واقفة بجواره تحت ضوء القمر. كانت لا تزال بكامل ملابسها، يحدوها أملٌ بأن يغيب عن الوعي قبل فوات الأوان.

وللحظة، تجمد الزمن بينهما.

قال بلسانٍ متلعثم:

– «لم أطرح سؤالي.»

أجابته:

– «اسأل إذن.»

رد:

– «ليس الليلة... لاحقًا.»

نهض ودفعها بعنفٍ لتسقط على السرير. راودت آنا فكرة المقاومة. لم تكن هذه المرة الأولى، وكانت تعلم أنه ـ في الصباح لن يتذكر شيئًا. لكن شيئًا ما ـ في أعماقها، ذلك الجزء الذي أراد لهذا الزواج أن يظل جمرًا تحت الرماد دون أن يلتهمهما ـ في حريق مستعر، حثّها بصوت خافت أن تكون «الزوجة الصالحة». نادت أجزاء أخرى منها بالقتال، لكن «الزوجة الصالحة» خنقت تلك الصرخات. الصباح سيأتي لا محالة.

لذا، حين قبض على خصلات شعرها، لم تنطح أنفه بجبينها. وحين حشر وجهها ـ في الملاءات، لم تهشم ركبته. وحين سألها إن كانت لا تزال تتناول الحبوب، كذبت وقالت «لا» لعله ينتهي بسرعة، رغبةً ـ في رحمةٍ يمن بها الرب عليها.

وحين فرغ منها، غط ـ في نوم عميق، متكورًا وسط الملاءات، وصوت شخيره يعلو فوق وسادة تلطخت بأحمر شفاهها. استقر أحد قرطي «تيفاني» بجوار عنقه. تحسست أذنها بحثًا عن الآخر؛ كان لا يزال مكانه.

في المطبخ، عاثت آنا ـ في الأدراج بحثًا حتى اهتدت لمكان أكياس القمامة التي تخفيها الخادمات. سحبت واحدًا. تسللت بهدوء بجوار زوجها النائم وانتشلت حذاء «لوبوتان» من الأرض.

في الحمام، أشاحت بوجهها عن المرآة موليةً شطرها نحو النافذة. تخلصت من الفستان، ونزعت القرط المتبقي والعقد، وخلعت حمالة صدرها. ألقت بكل شيء في كيس القمامة، ودسته في حقيبة سفرها كي لا يلحظه فاديم. ستتخلص من كل ذلك في الصباح، بعد مغادرته للعمل.

وقفت آنا تحت دوش ساخن. وبينما المياه تنساب على شعرها وظهرها وتغسل جفونها المطبقة، أطلقت العنان لخيالها: رأت نفسها تعدو بجوادها بأقصى سرعة، والشمس الدافئة تلفح وجهها، وشعرها الذهبي يرفرف في مهب الريح. كانا ينطلقان بسرعة جنونية. كانت آنا تحث الجواد على المضي، واعدةً إياه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ما داموا يواصلون العدو دون توقف.

الفصل الثامن

ريبينو / سانت بطرسبرغ / لندن

أوقفت آنا السيارة خارج البوابات الحديدية العالية لفيلا والدها، وأطلقت العنان للبوق؛ لأن الحارس يغلبه النعاس أحيانًا. كان والدها يطلق على هذا المكان الكائن خارج منتجع «ريبينو» الساحلي اسم «داتشا»، لكنه لم يكن يمت بصلة لبيت المزرعة في التعاونية القديمة التي اشتراها في التسعينيات، تلك الأرض التي أصبحت فيما بعد «روس-فارم». كان بيت المزرعة ذاك صغيرًا، بالكاد مائة متر مربع. أما هذه الفيلا فتتجاوز الألف متر. من كوخه على الجانب الآخر من البوابة، ضغط الحارس زرًا، فانفتحت البوابات ببطء نحو الداخل. قادت آنا السيارة عبر الممر الطويل المحفوف بأشجار البتولا، وركنتها، ثم التقطت حقيبة يدها التي تحوي حقيبة المستندات. علقت يدها بمقبض الباب للحظة؛ استمعت لصوت النافورة وهي تبصق الماء وتقرقر. أخذت نفسًا عميقًا، ثم دلفت إلى الداخل.

وجدت والدها مسترخيًا في غرفة المعيشة، فهدٌ متمدد على كرسي من الجلد السويدي يشاهد مباراة في الدوري الإنجليزي الممتاز. أعلنت عن وجودها بسعال خفيف. «الداتشا[19]» القديمة كانت لتستقر بأريحية داخل هذه الغرفة المكونة من طابقين وحدها. جعلها القبو المقبب تشعر وكأنها متضرعة في كاتدرائية ضخمة تذكر كل من يدخلها بأنهم مجرد ذرات غبار في مواجهة إله جبار وعظيم. تردد صدى السعال طويلًا، مرتدًا عن الجدران والأرضيات الحجرية.

---

[19] **الداتشا Dacha** / منزل ريفي روسي يُستخدم للعطلات، ويُعد ثقافياً رمزاً للمكانة الاجتماعية وملاذاً خاصاً للنخبة بعيداً عن صخب العاصمة وأعين الرقابة.

قالت وهي تراه يقترب من البهو:

– «بابا.»

تعانقا، ثم تبعته صعودًا عبر الدرج الحجري العائم إلى المكتب في الطابق الثاني. اتخذ موقعه خلف مكتب ضخم من الماهوجني أمام نافذتين شبه منحرفتين متلألئتين تلتقيان لتشكلا قمة. خلفه كانت شرفة واسعة تبرز وسط أشجار البتولا والصنوبر.

سأل والدها، وهو يشبك يديه على شكل قوس:

– «كيف حال فاديم؟»

وضعت آنا ساقًا فوق الأخرى ونفضت الغبار عن جانب حذائها الجلدي الأسود. طقطق فكها:

– «إنه بخير.»

نخر والدها. جيد.

ألقت بملف من حقيبة المستندات على مكتب والدها:

– «لدينا هدف.»

أطلعته باختصار على «هاينز دوسون» و«هورتينسيا فوكس».

كان والدها، مستمتعًا بحديث العمليات، يهز رأسه بينما تتحدث. أحيانًا كان ينهض لينظر من النافذة. قاطعها بعد عشر دقائق:

– «أنا مقتنع. أخبريني كيف ستلعبينها.»

قالت وهي تنقر بإصبعها على الملف:

– «كل شيء موجود هناك.»

نخر مجددًا:

– «أعرف، واللعنة يا آنيا. فقط أعطني الأساسيات. النقاط الرئيسية.»

فعلت ذلك، وتوقفت عندما نخر مرة أخرى ولوح بيده إشارة للموافقة.

– «ماذا لو كان رجال "الإوزة" يراقبونها بالفعل، أو يتنصتون على اتصالاتها؟ أو، بحق الجحيم، إذا كانت تبلغ عن كل شيء لأحد جواسيسهم؟ ماذا سيكون غطاؤك؟»

– «لماذا بحق الجحيم سأحتاج لغطاء يا بابا؟»

استند بظهره إلى كرسيه، وبوادر ابتسامة ترتسم على وجهه.

أكملت:

– «إنهم يستخدمون "هاينز دوسون" لإخفاء المال، وكذلك نحن. إذا ضغطوا على أي شخص، ستكون المحامية هي الضحية، لإظهارها سوء تقدير بقبول عملاء روس آخرين.»

هزت كتفيها، وانحنت لتمسح رقائق الطين الجاف عن حذائها الآخر. كانت قد اختارت طلاء أظافر أحمر داكن ليتناسب مع نظارتها من «شانيل»، التي كانت تدوّرها الآن بين أصابعها. كانت نظارة بلا وصفة طبية، لكنها كانت ترتديها أحيانًا لتبدو أكثر جدية أمام الرجال المتحجرين مثل والدها.

قلب والدها بسرعة بقية أوراق الملف. رتبت تنورتها وأعادت النظارة إلى وجهها.

قال والدها:

– «جيد. متى ستجرين المكالمة؟»

– «غدًا.»

أومأ برأسه. تمت الموافقة.

أعادت الملف إلى الحقيبة، أدارت المفتاح لإغلاقها، ووضعتها في حقيبة يدها. ستُطعم الأوراق لآلة تمزيق الورق في الشقة. وقف والدها. ظلت هي جالسة، وخفضت راحتيها نحو الأرض. تردد قليلًا، ثم أذعن وجلس.

سألته:

– «هل تمكنت من الحصول على وقت مع "الخزيان"؟»

قال والدها، وذكر بوتين جعل أصابعه تنقر على المكتب:

– «أعمل على ذلك. "الإوزة" يتحكم في الوصول. إنه يسيطر على الحراس.»

كشرت آنا عن أنيابها في ابتسامة ماكرة:

– «صحيح يا بابا. كيف لي أن أنسى؟»

عض والدها شفته.

كانت تعلم أنه يريدها أن تتوقف، لكنها استمرت:

– «نحتاج للمقابلة وجهًا لوجه يا بابا. بمجرد أن نوقع بالمحامية، سنحتاج لتقديم الدليل للرئيس. كيف يمكننا تجاوز "الإوزة" لـ...»

ضرب والدها المكتب بقبضته:

– «كفى! أنا أعمل على ذلك. يمكن أن تكوني مزعجة بشكل لعين يا آنيا. قومي بجزئك، وسأقوم بجزئي.»

أشار نحو الباب.

تبًا لهؤلاء الرجال العجائز، يبقونها في الظلام ويستغلونها في آن واحد. ومع ذلك، لماذا تقاتل في معركة لا يمكنها الفوز بها؟ رفعت نظارتها فوق رأسها وعلقت حقيبتها على كتفها.

قالت بابتسامة متكلفة:

– «سأقدم لك تقريرًا فور عودتي من لندن.»

وخرجت من الباب.

***

كان دور آنا كـ «ميكانيكي» من نوع خاص، أو عضو في مجموعة «الموظفين الملحقين» (APS) التابعة لـ SVR داخل البنك، يعني أن لديها مكتبًا في مقر «بنك روسيا» في ساحة «راستريلي». ورغم أن عملها لصالح الـ SVR كان سرًا من أسرار الدولة، إلا أن معظم الموظفين داخل قسم الثروات الخاصة كانوا يعرفون ذلك. خوفهم من آنا، الذي كانت تستمتع به وتغذيه، كان يعني أنهم يتركونها وشأنها. فتحت آنا باب مكتبها وأضاءت الأنوار.

نظرت حولها، ثم تحققت من لوحة الاسم. كُتب عليها: أ. كوفالتشوك، المدير العام. اللعنة. هذا ليس اسم عائلتي.

أثاث باروكي صارخ – كله جديد – يكدس الأرضية. غرقت آنا في كرسي ذي أرجل برونزية مذهبة، ممررة أصابعها على نقوش «الباخوسية» المحفورة على مساند الذراعين. فاديم، نائب رئيس القسم، أعاد الديكور على ما يبدو. وكان لديه ذوق خاص. شرابات أرجوانية تتدلى من مقعد الكرسي. كانت آنا تعبث بإحداها عندما قرقعت أكواب الشاي في الردهة.

ظهرت سكرتيرة آنا، كاترينا، وهي فتاة عذراء ضئيلة البنية ذات تأتأة متناقضة مع مظهرها، تحمل صينية وضعتها بضجيج على الطاولة.

سألت آنا وهي تنفخ في الشاي وتشير للغرفة:

– «متى حدث هذا؟»

– «مـ–مـ–منذ أسبوعين.»

– «زوجي أحضر كل هذا إلى هنا؟»

إيماءة.

وقفت آنا ووضعت كوب الشاي:

– «سأنزل للأسفل لاستقبال ضيف لاجتماعي القادم. عندما أعود أريد تكديس أثاث القمامة هذا في الردهة. أتفهمين؟»

– «نـ–نـ–نعم.»

ثلاث إيماءات متتالية.

في طريق خروجها، انتزعت آنا لوحة الاسم من الباب ورمتها بعنف في سلة المهملات. نادت كاترينا:

– «أصلحي ذلك.»

***

بعد عشرين دقيقة، ظهرت آنا وغريغوري، تقني الدعم العملياتي، خارج مكتبها. كانت الطاولات والكراسي مكدسة في الردهة. فريق من عمال المرافق يرتدون بدلات العمل يلهثون وهم يجرون الأثاث نحو مصعد الشحن. حلت طاولة خشبية واهية وكرسيان قابلان للطي محل كابوس الروكوكو الغجري. أجرى غريغوري وفريقه مسحًا للتأكد من خلو المكان من أجهزة التنصت، ثم وصلوا الهاتف لتسجيل المحادثة. أنهت آنا، وهي تقاوم موجة من الإعياء، شايها البارد.

– «ما رأيك فيها يا غريغوري؟»

كان يعبث بمجموعة من الأسلاك في الهاتف، ويوصلها بكمبيوتره:

– «من؟»

– «سيا.»

قال غريغوري:

– «إنها محامية مملة.»

نظرت آنا إلى إحدى الصور في ملف سيا. ربما هو محق.

سألت آنا:

– «هل تظنها جذابة؟»

– «نعم.»

– «رغم أنها قد تكون طويلة جدًا بالنسبة لك.»

في الفيديوهات المستخرجة من كاميرات المراقبة اللندنية «المستعارة بشكل غير رسمي»، لاحظت آنا أن تحركات سيا كانت أقرب للتبختر منها للمشي العادي. كان ذلك مثيرًا للاهتمام.

سألت آنا:

– «ما رأيك في مشيتها؟ غريبة، أليس كذلك؟»

جلس غريغوري مقابلها:

– «لقد نشأت خارج كيب تاون. في مزرعة.»

– «إذن؟»

– «إذن، لدينا فتاة مزرعة أصبحت الآن محامية لندنية راقية. ترتدي ملابس امرأة اعتادت الطبقة العليا، لكنها تمشي كامرأة تشعر أنها في مكانتها الصحيحة في

أسفل السلم الاجتماعي الصارم، ذلك الجزء الذي يدعم النخبة في أي مجتمع غربي.»

ضحكت آنا:

– «أنت مجنون يا غريغوري.»

هز التقني كتفيه.

ارتشفت آنا شايها وراجعت النص. كانت آنا أغابوفا، مديرة عامة في «بنك روسيا»، تستكشف ما إذا كانت «هاينز دوسون» تستطيع تقديم الخدمات التي تحتاجها هي وزوجها، وهما شخصان ثريان وبالتالي معرضان للخطر، بشدة. عبثت بالحزام الجلدي الأحمر لساعتها «بياجيه». تقترب الساعة من الرابعة مساءً في لندن. المحامون في «هاينز دوسون» بلا شك يعملون بجد. نظرت آنا لغريغوري، الذي أومأ برأسه.

جاهز.

طلبت آنا رقم مكتب سيا. ولإبقاء الأمور محكمة، كانت هناك عدة صفحات من الإجابات المكتوبة على الطاولة. بفضل فترة عمل والدها في لندن، كانت آنا تتحدث الإنجليزية بطلاقة، لكنها شعرت ببعض الصدأ وقضت الليلة السابقة تتدرب على الحديث. سحبت آنا الأوراق قريبة منها بينما رن الهاتف.

[يبدأ التسجيل ٧:٠٠ مساءً بتوقيت موسكو]

هورتينسيا فوكس: مرحبًا؟

آنا أندريفنا أغابوفا: مرحبًا. هل هذه هورتينسيا فوكس في هاينز دوسون؟

هورتينسيا فوكس: نعم هي. من فضلك نادني سيا. هل لي أن أعرف مع من أتحدث؟

آنا أندريفنا أغابوفا: بالتأكيد يا سيا. اسمي آنا أغابوفا، أنا مديرة عامة في قسم الثروات الخاصة ببنك روسيا، أتصل نيابة عن عدد قليل من عملائي.

هورتينسيا فوكس: فهمت. [صمت لمدة ثلاث ثوانٍ] هل لي أن أسأل كيف عثرتم على هاينز دوسون؟ نحن نعمل عادةً بنظام الإحالة[20].

آنا أندريفنا أغابوفا: [تقرأ من الملاحظات] أنا أمثل عدة عملاء في روسيا، رغم أنه من الأفضل ربما ألا أذكر أسماءهم عبر الهاتف. ورد اسم هاينز دوسون مؤخرًا في نقاشاتي معهم. وأنتِ يا سيا، بالتحديد. مراجعات متوهجة. [تضحك]

هورتينسيا فوكس: [تبادلها الضحك] يسعدني دائمًا سماع المراجعات الإيجابية.

آنا أندريفنا أغابوفا: حسنًا، سبب اتصالي هو أن زوجي – وهو مصرفي هنا أيضًا – وأنا سنمر بلندن الأسبوع المقبل، وكنت أتساءل عما إذا كان بإمكاننا تناول العشاء؟ نحن حريصان على فهم المزيد عن هاينز دوسون وما إذا كانت تقدم فرصًا لعدد من عملائنا.

هورتينسيا فوكس: [أصوات نقر... تعليق الدعم العملياتي: على الأرجح لوحة مفاتيح] مثير للاهتمام جدًا يا آنا. حسنًا، اللقاء وجهًا لوجه مثالي بالتأكيد لهذه النقاشات الأولية. أجد مكالمات الفيديو المروعة تلك غير شخصية للغاية.

آنا أندريفنا أغابوفا: لا يسعني إلا أن أتفق معك تمامًا يا سيا. ما رأيك في العشاء؟ ربما يوم الأربعاء أو الخميس.

هورتينسيا فوكس: [وقفة... تعليق الدعم العملياتي: تراجع التقويم على الأرجح] حسنًا، أقول رائع. لمَ لا نجعل المساعدين ينسقون الأمر؟ بريدي الإلكتروني هو hfox@hynesdawson.com. [تتهجى الحروف]

آنا أندريفنا أغابوفا: ممتاز يا سيا. أتطلع لعشائنا.

هورتينسيا فوكس: وأنا كذلك يا آنا. في صحتك (Cheers).

---

[20] **نظام الإحالة Referral basis** / سياسة حصرية ترفض استقبال العامة وتشترط وجود توصية من طرف موثوق لقبول العميل، وليس أي متصل ،مما يضمن السرية .

آنا أندريفنا أغابوفا: في صحتك.

[تنهي هورتينسيا فوكس المكالمة. ينتهي التسجيل ٧:٠٤ مساءً بتوقيت موسكو]

***

وضعت سيا الهاتف في مكانه، والطاقة تتموج من قلب يخفق بشدة إلى يدين هادئتين. «الإوزة» يسرق من أغابوف وأنا مكلفة بإخفاء المال، فكرت. ثم تتصل بي أغابوفا. أنا في الظلال. لقد بنت حياتها حول إدمان هذا الشعور. لم تستطع التركيز على أي شيء آخر. ولم تستطع الجلوس ساكنة.

شدت حزام معطفها الكشميري، وصرت الدرجات الدائرية تحت قدميها وهي تنزل وتخرج إلى ظهيرة خريفية كئيبة، راسمة طريقًا متعرجًا نحو شقتها لتتمكن من التفكير. كانت شمس شاحبة تتسرب عبر الغيوم. تجاهلت سيا مكالمات هاتفية من ثلاثة مساعدين منهكين وهي تتنزه مارة بصفوف المنازل الجصية، ومتاجر المجوهرات المتلألئة، ومعرض فني يروج للوحة مائية لقلعة بالمورال رسمها الملك. لفتت اللوحة انتباهها الشارد حتى ظهرت مساعدة مبيعات بوشم باركود على معصمها، فاعتذرت سيا وانصرفت. اشترت عشاء دجاج من بقالة راقية في «بلغرافيا» وذهبت للمنزل.

في شقتها، فتحت سيا زجاجة نبيذ أبيض، وكما تفعل في معظم وجباتها، أكلت وحيدة على أريكتها. أعادت ملء كأسها ومشت بخطوات هادئة إلى الكرسي الجلدي في زاوية غرفة نومها، المتوهج تحت مصباح القراءة. لم تعرف سيا كيف بالضبط، لكن الكرسي وجد طريقه إلى حاوية الشحن التي نقلت ممتلكاتها الشخصية إلى لندن عندما تركت «ليريك» في سان فرانسيسكو لتنضم لـ «هاينز دوسون».

أزالت الوسادة واستخدمت إبهامها الأيسر للعثور على النقطة الصحيحة في الإطار. ضغطت، ثم وجدت نقطة ثانية تحت مسند الذراع وعملت بإبهامها الأيمن حتى سمعت فرقعة خفيفة وانفتح جهاز الإخفاء (CD) داخل المقعد. في الجهاز،

خزنت سيا خمسة وأربعين ألف دولار نقدًا – مقسمة بالتساوي بين الدولار واليورو والجنيه الإسترليني – وثلاثة جوازات سفر بأسماء مستعارة نظيفة، وأنفًا وفكًا صناعيين، ونظارات للتنكر، ولابتوب، ومسدسًا من طراز «.38 سبيشال» وصندوق ذخيرة لا تملك أوراقًا لهما.

أخرجت اللابتوب وأغلقت الجهاز. اللابتوب صادر عن «هاينز دوسون» لكنه قضى بضعة أيام مع فريق تقني خلال إحدى رحلات عمل سيا الأولى عائدة للولايات المتحدة. طبعت سيا تسلسلًا طويلًا – أرقامًا، وحروفًا، ورموزًا، ضاغطة على عدة مفاتيح في وقت واحد – حتى ومضت شاشة زرقاء لتشير إلى أنها نجحت في الوصول إلى القسم الثاني من اللابتوب، المجهز للعمل عبر الإنترنت.

أخذت رشفة سخية من النبيذ، وسجلت الدخول لبرنامج كتابة البرقيات. التواصل مع لانغلي كان جحيمًا لعميل غطاء غير رسمي (NOC). كانت تعمل بمفردها، وهو ما أحبته، لكن عزلة الاتصالات كانت بائسة. تقذف رسالة للانغلي، فيقذفون الرد، وتدور الدائرة وتدور.

ملأت كأسها وشعرت بتدفق الأدرينالين وهي تفكر في القضية. كانت تسبح في حوض من الأسماك الروسية، أهداف ذات اهتمام واضح وفوري لـ «موسكو إكس». هذه كانت نوعية الرؤوس الروسية – الثرية، والفاسدة، والمتصلة – التي قد تمهد الطريق لترقيتها إلى الدرجة -14GS، وتضع أخيرًا في مرآة الرؤية الخلفية بعض تقييمات الأداء الباهتة من ضابطها الداخلي السابق، الذي اتهمها، محقًا، بتصفية المعلومات من برقياتها مما يجعل لانغلي تتردد في الموافقة على عملياتها.

أنهت كتابة تقرير مكالمة أغابوفا وقدمت طلبات تتبع للانغلي. أشارت إلى غرابة تقاطعها مع مجموعتين متنافستين من الروس فاحشي الثراء لكنها صاغت الأمر كفرصة. وهو ما كان عليه بالفعل.

ضربت سيا نفس تسلسل المفاتيح ورأت شاشة اللابتوب العادية تظهر. كان الواي فاي متصلًا، يضخ سرًا كتلًا مشفرة من القسم المخفي عائدة إلى لانغلي.

تجرعت بقية النبيذ. ثملة بشكل ممتع، أغلقت اللابتوب في جهاز الإخفاء وسقطت على السرير. غطت في النوم في ثوانٍ، وكانت آخر فكرة لها قبل النوم أنها ربما يجب أن تخلع بلوزتها. أو على الأقل تندس تحت اللحاف.

الفصل التاسع

سان كريستوبال، المكسيك

استشعر ماكسيميليانو كاستيو العاصفة الرعدية وهي تتدحرج نازلة من الجبال. الضغط، وتغير الهواء، أطلقا ألمًا مكتومًا يطرق داخل جمجمته. المطر القادم ليس شيئًا تود أن يعانيه أمير إماراتي، حتى لو كان صاحب السمو الأمير سعيد بن مكتوم بن حشر آل مكتوم مجرد لاعب ثانوي، ابن عم ثالث متشرد لحاكم دبي. لكن الإماراتي أراد ركوب الخيل. فليكن. أراد ماكس أن يكسر شوكة الإماراتي، والمطر قد يساعد في ذلك، إذا لزم الأمر.

الأمير الطيب قضى حياته كلها حول الخيول؛ هذا ما قاله على الأقل. أُرسل إلى «سان كريستوبال» لتقييم الخيل، لكن ماكس لم يعتقد أنه يعرف الكثير عنها، والأرجح أنه لا يعرف الكثير عن المطر أيضًا. وماكس كان متعبًا؛ يومان مع الأمير، والابتسامة باتت صعبة التصنع، والنكات مستحيلة الاستحضار. بدا الأمر وكأنك ترغم فرسًا منهكة على العدو ولم يبق فيها بقية من جهد. بينتشي آرابي.

إماراتي لعين.

نهض من سريره واتجه إلى النافذة لينظر عبر الامتدادات الغربية للمزرعة (الهاسييندا).

كانت الغرفة تخص أمه وأباه، وجدته لأبيه وأباها قبلهما. ويعود الأمر لخمسة أجيال أخرى حتى تصل إلى فيلا خارج «طليطلة» زارها مرة مع والدها عندما كان في العاشرة. من هناك يمكنك تتبع اسم كاستيو، وآخر الأحياء منهم كان هنا

يراقب فرسًا شهباء تهرول عبر مرعاه الغربي. كانت الفرس «فاليريا». فرس ولادة تبلغ من العمر أربع سنوات من سلالة فحله الأقدم «ريكس» والفرس «لا دوينيا إلينا». الهواء يزداد رطوبة والخيول تشعر بالعاصفة، لذا كان يشعر بها هو أيضًا. أراد أن يتجول في الإسطبلات وحيدًا، يلعب البلياردو ويشرب، ثم يتحدث مع روبرتو عن الخيول. لكن ذلك الإماراتي اللعين.

قفزت عيناه بسرعة فوق الكنيسة الصغيرة الجصية التي أصبحت الآن قبر والده الحي بسبب مرضه الشديد، وارتفعت إلى الأفق الغربي. كانت الشمس تتلاشى.

ارتدى ماكس بنطاله وقميصًا أبيض، كانا معلقين في الحمام ولا يزالان دافئين من مكواة مارتينا. سكب القليل من «المِسكال» في كأس وأنهاه. التقط زوجًا من الأحذية الجلدية الداكنة المصنوعة من جلد التمساح، أهدته إياه أليخاندرا غارزا سادا في ليلتهما الأخيرة معًا قبل زفافها. جلس وأدخل نصف قدمه اليمنى وتوقف. لم يستطع تصديق أنها مضت في الأمر. كان عليه الحضور بالطبع، ففرد من عائلة كاستيو لا يمكنه تفويت زفاف من عائلة غارزا سادا، حتى لو كان الكاستيو المعني قد قضى معظم حياته البالغة في حب العروس، وغالبًا في السر. الملاءات التي بعثرها في قيلولته، وحيدًا، جلبت ذكريات سعيدة ومؤلمة عن أليخاندرا، لذا طقطق فكه وأعاد الحذاء إلى خزانته ووقف عند النافذة ينظر إلى أرضه. السماء كانت سيئة: حافة رمادية خضراء، مفتوحة كقبو، والاضطراب يقترب قطرة قطرة، يتحول إلى ريح تلامس العشب الطويل والعرعر والصنوبر.

لم تعرف هذه السماء، ولن تعرف ما هو قادم، رغم ذلك. ستظن أن غروبًا صافيًا ومشرقًا يعلن عن الليل.

انتعل حذاءً وحزامًا من جلد آكل النمل كانا لجدّه، والسلسلة الذهبية ذات الصليب التي عبرت الأطلسي في عام ١٧٨٢، من طليطلة إلى إشبيلية إلى فيراكروز وصعودًا إلى مونتيري. لم يعش أحد ارتدي تلك السلسلة لأكثر من خمسين عامًا حتى جد ماكس. قتلتهم كل أنواع الحوادث والعنف الدموي، لكن الشيخوخة وحدها

هي القاتل الأحدث. ناظرًا لأسفل إلى تلك الكنيسة الصغيرة ، فكر أن الشيخوخة ربما ليست قاتلًا رحيمًا جدًا. كان ليفضل أن يُطعن والده في ماخور بإشبيلية على ما يقتله الآن من مرض.

في الطابق السفلي، جلس ماكس مع روبرتو في الصالون. ساعة القاعة تدق. جدة جدته تحدق فيه من لوحة على الجدار أعلاه. زجاجة شمبانيا لم تُمس تتعرق على ثلج يقرقع. في خصوصية «سان كريستوبال»، اعتاد الأمير الشرب بلا حدود. مثل كاهن في ماخور. تيك تيك تيك. نظر إلى روبرتو.

– «هل نركب عبر الممر الجبلي، بعد العمل؟»

– «باترون (يا سيدي)؟ سيكون الجو رطبًا جدًا. وسيتجاوز بنا الوقت حلول الظلام بكثير.»

– «قال الأمير إنه يريد تجربة. وهو متأخر.»

بفرقعة أصابع، أرسل ماكس أحد رجال روبرتو إلى القاعة ليلقي نظرة. عندما عاد، همس لماكس: «الحارس الشخصي للأمير يرسل اعتذاره ويطلب خمس عشرة دقيقة.»

سأل ماكس: «هل أرسل اعتذاره حقًا؟»

تجعد أنف الرجل؛ سعل، وهز رأسه ببطء.

خرج ماكس. على الشرفة شرب مِسكالًا آخر ودخن سيجارًا. سلم السيجار المخصص للإماراتي لرجل روبرتو، ولم يضطر لقول أي شيء ليعود السيجار إلى علبة الترطيب. نقر رسالة قصيرة لرقم غريب في هاتفه. أحس بوجود روبرتو خلفه.

قال روبرتو:

– «كانت هناك أسود جبلية في الممر منذ يونيو. والإماراتي...»

قاطعه ماكس:

– «تأكد من وجود سترات.»

– «المطر سيكون مزعجًا يا سيدي. الأمير الطيب ليس معتادًا على هذا، على ما أعتقد.»

– «نعم، صديقنا رجل صحراء. لكن لا يمكن لومنا على الطقس، أليس كذلك؟»

***

نصب ماكس نفسه على المكتب في المكتبة كإقطاعي. دون ملاحظات في سجل الأنساب وراجع مرة أخرى أوراق الخيول الاثني عشر التي اختارها مستشارو الإماراتي ومدربه. عرف ماكس السلالات لأربعة أجيال أو أكثر لكل حيوان، ورغم أن هذا كان عمله، إلا أنه لم يستمتع بالتخلي عن الخيول. لكن المؤسسة الإماراتية كانت رصينة. الأمير المتأنق لعب دورًا تشغيليًا ثانويًا؛ كان مبعوثًا لإتمام صفقة بسيطة. رجل مضطرب بحاجة لمهمة.

لقد دخلوا غرفة الإماراتي، بالطبع، وعرفوا بأمر حبوب الأمير، للتركيز ولدافع جنسي ذابل. لم تُركب الكاميرات بغرض تحسين استراتيجية التفاوض لـ «سان كريستوبال»، لكنها لم تضر: عرف ماكس سعره وسيستخلص المزيد لأن الإماراتي يستطيع الدفع ولا يمكنه العودة بلا خيول. قلة قليلة من الزوار جاؤوا وغادروا بلا خيول. من درج المكتب المصنوع من خشب الجوز، أخرج ماكس بطاقة عمل سميكة – منقوشة بالذهب بشعار المزرعة البارز ورمز استجابة سريعة (QR). دسها في جيب سترته الرياضية.

بخط يده دون ملاحظات لروبرتو – حول تجديد حظيرة التزاوج، ثم وصول فرس من شركة برازيلية بموجب عقد تزاوج مع «سموكي جو»، فحل «سان كريستوبال» المرموق الذي ركض سباقه الأخير. كانت ساعة المكتب تدق، ورغم أن ماكس فضل هذا العمل على ضيفه، إلا أنه بعد ساعة بدا له أن هذا التأخير جزء

من استراتيجية تفاوض الإماراتي، مما جعل قلمه ينقر على غلاف السجل الجلدي. نادى روبرتو.

– «نعم يا سيدي؟»

– «شغّل السباقات.»

ارتدى ماكس سترته الرياضية وغادر إلى قاعة الاستقبال، وحذاؤه يطرق بشكل ممتع على البلاط الأحمر الباهت.

***

كان المسرح كنيسة خاصة حتى عام ١٩٤٩. كانت الرائحة عفنة وقديمة، وثريا حديدية تتدلى بسلسلة من القبة أعلاه. الجدران لا تزال تحمل لوحات جدارية باهتة، لكن المقاعد تحولت إلى طاولات جانبية تمتد على جوانب الغرفة، وعادة ما تئن تحت وطأة الطعام والشراب أثناء السباقات.

سأل روبرتو وعيناه تجولان في الغرفة الفارغة:

– «سيدي، هل أجعل مانويلا تحضر بعض الأشياء؟»

أومأ ماكس وجلس على إحدى الأرائك أمام التلفزيون:

– «أخبر الأمير أن يأتي هنا عندما يكون جاهزًا.»

كانت التغطية ما قبل السباق تعرض على التلفزيون في الأعلى. جلب ماكس سيجارًا آخر من علبة الترطيب، وعندما عاد كان الأمير جالسًا على الأريكة يقلب في هاتفه.

قال ماكس:

– «سموك.»

جلس بجوار الأمير ونفث الدخان لأعلى. دفعت مانويلا عربة زجاجات ومشروبات وكؤوس. وضعت صينية مكسرات وفشار ورقائق تورتيلا وصلصات بجانبهم وغادرت.

سأل ماكس:

– «عمل في الوطن؟»

راقب الإماراتي سيجاره بنهم، منتظرًا عرضًا لم يأت. ثم قال:

– «بضع مسائل ملحة.»

– «حسنًا، أثق أنك سويتها. عملنا الآن يحتاج لبعض التسوية. أرقامك لا تنفع. منخفضة جدًا.»

أسند السيجار على حافة منفضة نحاسية على شكل فحل يركض ووقف ليعد مشروبًا.

صدر صوت أجش من حلق الأمير.

سأل ماكس وهو يدير الزجاجات هنا وهناك مستعرضًا الملصقات:

– «ماذا تود؟»

– «جوني ووكر بلو. سادة.»

سكب ماكس ثلاثة أصابع دسمة للأمير وملأ كأسه بـ «مِسكال» مدخن. عاد ماكس لمقعده وسحب نفسًا من سيجاره وأخرج البطاقة ذات رمز الـ QR من جيبه ووضعها على ركبة الأمير، حريصًا على لمس بنطاله بأصابعه والضغط على البطاقة أقوى مما ينبغي، طابعًا أثرًا في القماش للحظة عابرة. اتسعت عينا الأمير، لكن الانتهاك كان غامضًا جدًا، وظرفيًا جدًا ليستحق الاحتجاج. أمسك لسانه، ونظر للبطاقة.

قال ماكس:

– «مخزون سان كريستوبال الكامل من الخيول ومقارنات مبيعات عالمية حديثة. ألق نظرة. سترى أن عرضك منخفض يا سمو الأمير.»

كانت عائلة الأمير الممتدة تدير دبي، ولا شك أن أحدهم شرح له حماقة ما يفكر فيه الآن. لكن سموه كان مبعوثًا خالي الوفاض ـ في أرض وثنية، مضطربًا من عدم الاحترام المحسوب، ومياًلا للحماقة. لذا أخرج الـ «آيفون» من جيبه ووجهه نحو البطاقة وضغط الزر الأزرق الصغير الوامض، وعدّ ماكس ببطء وصمت واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة، وبينما كان الأمير يراجع تقريرًا عن اثني عشر حصانًا، كان شيء ما، عميق وغير مرئي، يحفر داخل هاتفه، هدية من أصدقاء ماكس غير التقليديين. شكره جسده برعشة مألوفة وخفيفة سرت عبر خصيتيه.

على التلفزيون، شاهد ماكس فارسًا يرتدي حرير سباق أبيض وأزرق وأحمر يقود مهرًا نحو بوابات الانطلاق. أشار ماكس بالسيجار للشاشة:

– «حصان روس–فارم؟»

رفع الأمير بصره عن هاتفه:

– «ابن عمي شعر بضرورة دعوة الروس. إن الخيول فوق النزاعات الدولية. لماذا لا يتسابق الروس، فقط بسبب الحرب؟ ومزرعة «روس–فارم» هي إسطبل خاص، ـ في النهاية. زرتها مرة ـ في الواقع،» قال بلكنته الإنجليزية. «مكان خشبي كئيب ودموي، لكن المَرافق من الطراز الأول، والمواهب التي اكتسبوها ممتازة، ومن حيث النسب كانوا يحرزون تقدمًا قبل أن يتوقفوا عن الشراء ـ في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة.»

جعد الأمير أنفه:

– «عقوبات لعينة.»

قال ماكس، تاركًا التعليق معلقًا ـفي الهواء:

– «سمعت أن بوتين يمتلكها.»

– «الآن، الآن، الآن. شائعات بغيضة. ومن يهتم بحق الجحيم بالمالك؟ الأمر يتعلق بالخيول، ـفي النهاية.»

رفع ماكس كأسه؛ وقرعه الأمير بكأسه. شربا.

انفتحت بوابات الانطلاق، وراقب ماكس حصان مزرعة «روس–فارم» يتحرك. اصطدم الحصان الأصيل الكستنائي «سيد الجودو» بالمعدن، متراجعًا بسرعة للمركز التاسع. بقي الحصان بعيدًا عن السياج وركض بخطوات رأى ماكس أنها أقصر بكثير مما يناسب طوله. مهزوزًا من الارتطام بالبوابة. بحلول المنعطف الأول تراجع للمركز الثاني عشر، متأخرًا خمسة عشر طولًا عن المتصدر، حصان تملكه إسطبلات الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، حاكم دبي ومضيف السباق. ابن عم ثالث لضيف ماكس الحالي، كما ذكره الأمير بوضوح.

عبر التلفزيون، حاول ماكس النظر ـفي عين الحصان. يمكنك رؤية قلب الحصان من خلال عينيه وأراد أن يرى أي نوع يملكه هذا الحصان. «سيد الجودو» كان عينة جسدية مثيرة للإعجاب – مفتول العضلات، طويل، بسيقان طويلة وبنية جيدة – لكن القلب هو ما يكسب السباقات، وبحلول المنعطف الثاني عرف ماكس أن الحصان لا يملكه. مع وصول المتصدر لمنتصف الخط الخلفي، تراجع «سيد الجودو» للمركز الثالث عشر وكان الفارس يستخدم السوط عبثًا لتجنب مركز أخير مخزٍ. لم يعدّ ماكس، لكنه كان واثقًا أنه بحلول التفافهم حول المنعطف البعيد نحو خط النهاية، كان الفارس قد وصل أو تجاوز حده البالغ اثنتي عشرة ضربة. ـفي دبي يمكنك ضرب الحصان اثنتي عشرة مرة فقط خلال السباق.

مع تأخر حصان بوتين الآن بأكثر من عشرين طولًا، حول ماكس انتباهه للمواجهة بين حصان الشيخ محمد وحصان يملكه ملياردير ياباني. مع تبقي خمسين مترًا، استغل حصان الشيخ احتياطيًا إضافيًا وبدأ يتقدم، عابرًا خط

النهاية متقدمًا بثلاثة أطوال. ترنح «سيد الجودو» في المركز الأخير، متأخرًا بحوالي ثلاثين طولًا.

قال الأمير:

– «تسعة ملايين صافية للمجموعة الكاملة، ولا دولار أكثر.»

كانت هناك رنة تردد في صوته، وكانوا قد زرعوا أجهزة تنصت في الغرفة على أية حال وعرفوا أن الأمير يمكنه رفع السعر.

سحق ماكس سيجاره في المنفضة وتجرع الـ «مِسكال».

– «أجد أنني أرغب في ركوب حصان بعد مشاهدة سباق. لنأخذ جولة، ونكمل هذا النقاش في الهواء الطلق، ما رأيك؟ هناك طريق يمتد من المراعي صعودًا للجبال. ريف جميل. نعود بحلول الظلام.»

– «أخشى أن وقتي نفد. لذا لا، شكرًا لك. في المرة القادمة. هذا هو العرض النهائي يا كاستيو. إنهم يزودون الطائرة بالوقود وأنا منتظر في دبي غدًا.»

وقف الأمير وتمطى وتظاهر بالتثاؤب والتقى بعيني ماكس، لكنه لم يستطع الصمود أمامهما.

قال الأمير، وقد تصلبت نبرته:

– «هل من شيء تقوله؟»

رجل آخر كان ليلين. كان ليتساءل عما إذا كان قد بالغ في رهانه بالتفاوض ضد أحد أرقى إسطبلات الخيول الأصيلة في العالم. لكن رجلًا آخر لم يكن ليملك القدرة على اعتراض اتصالات كشفت خدعة الأمير. كان صادقًا في أنه منتظر في دبي غدًا. مع الخيول.

قال ماكس:

– «لا. لا، لا أظن ذلك.»

***

استند ماكس على غطاء محرك الشاحنة الصغيرة (البيك أب) في مدرج المطار، يراقب رجال روبرتو يحملون الحقائب في طائرة الـ «800G» الخاصة بالإماراتي. ودع الأمير واختفى داخل المقصورة، وكانت المضيفتان، شقراوان سلافيتان نحيلتان بكعب عالٍ جدًا وزي ضيق جدًا، تدردشان معًا وتتفحصان ماكس باهتمام غير خفي. عندما التقى بعيونهن وابتسم، بادلنه الابتسامة وضحكن واستدرن ليشاركن سرًا. نادى شخص ما من داخل الطائرة فصعدن الدرج واختفين داخل الطائرة بتلويحة مغازلة. أغلق الباب. هدرت المحركات. ومضت الأضواء للحياة. بصق ماكس على الخرسانة. زحفت الطائرة للأمام. توقفت. ماتت المحركات. للحظة جلست هناك. ثم انفتح الباب جزئيًا، ونزل السلم، وظهر الحارس الشخصي للأمير، يهرول للقائه.

***

في وقت لاحق من ذلك المساء، والأمير في السماء متجهًا نحو الخليج، فك ماكس سرج فرسه المفضلة، بينيلوبي، ومشطها، وأشرف على عشائها. أخذ دوشًا ساخنًا طويلًا واستعاد جهاز «آيباد» من الخزنة في خزانته. أخذ كأس «مِسكال» للكرسي في غرفة النوم حيث كان يُقرأ له وهو صبي والآن يجلس وحيدًا كرجل.

على الـ «آيباد»، وبدلًا من رمز المرور القياسي المكون من ستة أرقام أو بصمة الإصبع، أدخل تسلسلًا أبجديًا رقميًا من ستة وعشرين خانة لفتح قرص صلب مقسم مخفي على الجهاز. فتح تطبيقًا مطابقًا لتطبيق الملاحظات المحمل مسبقًا على كل منتج من «أبل». رأى ملاحظة قصيرة من آرتميس توضح أنهم نجحوا في اختراق هاتف الأمير. كانت هناك إشارة مقتضبة للمكافأة التي ستحول عبر المتاهة المعتادة لتصل لحساب تملكه شركة وهمية مملوكة لشركة تابعة لـ «سان كريستوبال». شرح والدها كيف يعمل كل ذلك، لكن المبالغ كانت ضئيلة

لدرجة أنه لم يتحقق من الأرصدة منذ عامين تقريبًا. عائلة كاستيو لم تفعل هذا من أجل المال، ليس الآن على الأقل، ليس منذ السنوات الأولى في الستينيات، قبل ولادته بكثير، ورغم أنه فهم لماذا المال ضروري ليشعر الجميع بالرضا، إلا أنه لم يرد النظر في وجهه والتفكير في ذلك. حذف الرسالة.

كتب ملاحظة مقتضبة تلخص زيارة الأمير. ثم تجرع كأسًا آخر من الـ «مِسكال»، ومستمتعًا بالنار البيضاء الحارقة التي تغمر حلقه، ضغط مجموعة محددة من الأزرار حتى اختفت الرسالة. أقفل الـ «آيباد»، ثم أدخل رمز المرور السداسي المعتاد للتحقق من أن كل شيء طبيعي.

وجد روبرتو يأكل شريحة لحم على الشرفة على وقع صرير الصراصير وخرير نوافير المسبح. جلس ماكس. أحضرت مانويلا «أراتشيرا»، شريحة لحم الخاصرة المسودة، مقطعة فوق طبقة من فلفل «بوبلانو» الأخضر المتفحم والبصل، ووعاءً حجريًا من صلصتها الحمراء، وطبقًا دافئًا مع تورتيلا مغطاة بقماش. عصرت نصف ليمونة فوق اللحم وفتحت زجاجة «تيكاتي»، فقبل ماكس وجنتها وأمسك بشحوب يدها المتعرقة للحظة وجيزة. تركته يمسك بها. عندما أخذ قضماته الأولى، زحلق روبرتو ظرفًا عبر الطاولة. عرف ماكس خط يد الإماراتي منذ مراجعته لتصوير غرفته، وعرف ذلك الالتواء الطفيف في شفتي روبرتو منذ ساعد الرجل في ترويض الخيول، ذات مرة، عندما كان أصغر بكثير.

الفصل العاشر

لانغلي

شاركت آرتميس بروكتر ذات مرة، مرغمةً لا مخيرة، في «مجموعة تركيز[21]» بقيادة استشاري، تمحورت حول موضوع «عصرنة» وكالة الاستخبارات المركزية. شرح الاستشاري المفهوم لبروكتر، واصفاً إعادة التنظيم الشاملة للوكالة باستخدام مصطلحات مثل «الصحة المؤسسية»، و«تحسين إجراءات العمل»، و«رشاقة المؤسسة». ثرثر طويلًا عن الانفتاح وتبادل المعلومات، وهو ما وقع في أذني بروكتر كدعوة من دخلاء يطلبون منها أن تسترخي، وتتسبب في مقتل عملائها وسحلهم في الشوارع بعد قطع آذانهم وأشياء أخرى. وجدت بروكتر أن تجربة مجموعة التركيز تلك توازي في متعتها إجراء «عملية شق عجان ترفيهية»، وكتبت ذلك حرفيًا في استمارة الملاحظات.

قررت بروكتر أنها ستوقف زحف «العصرنة» عند بوابات «موسكو إكس». ستتسم فترة حكمها كرئيسة بقواعد تنتمي بوضوح لعصور ما قبل التنوير. وفي يومها الأول، ألصقت فوق باب مكتبها ملصقاً لرأس بوتين معلقاً على رمح، تعلوه عبارة «عودة إلى العصور المظلمة» بحروف بارزة. فلتذهب العصرنة إلى الجحيم.

---

[21] **مجموعة تركيز focus group**/ جلسة بحثية مُوجَّهة يديرها خبير متخصص لاستنطاق آراء عينة مختارة من الجمهور حول قضية أو منتج ما. تُستخدم هذه الآلية عادةً لهندسة الرسائل السياسية أو التجارية بدقة، لضمان قبولها وتحقيق التأثير المطلوب.

كان جزء من الاتفاق مع برادلي ألا تكون ملزمة بوضع مكتب «موسكو إكس» ضمن مساحات «البيت الروسي[22]» الرئيسية. فقد وجدتها فوضوية ومشتتة للانتباه، مكتظة بأثاث منبوذ وملصقات وأعلام ورفوف كتب جعلتها تشعر وكأنها تعمل في متجر «هوم ديبوت» تعرض للقصف. بدلًا من ذلك، أنشأت بروكتر مكتب «موسكو إكس» في غرفة كانت تخص كيانًا تم حله الآن يسمى «فريق الدعم الاستشاري للعمليات غير الرسمية في البيت الروسي»، أو اختصارًا «RH/NAST». ولكن لأن السياح والأجانب غير المصرح لهم أمنيًا كانوا يتجولون في لانغلي يوميًا، سقطت الكلمات الدالة على روسيا والعمليات السرية من اللوحة الفضية على الباب، وبقيت فقط عبارة «فريق الدعم الاستشاري» (Advisory Support Team). كان الجميع يطلقون عليه اسم «الـ ناستي» (NASTy ـ أي القذر أو البغيض). وكان أعضاؤه يُعرفون بـ «الناستين». وفي الغالب، كان الناس يتحاشون الاقتراب منهم. وقد أحبت بروكتر ذلك.

شغل «موسكو إكس»، مثل معظم أقسام لانغلي، «مزرعة» كئيبة من المكاتب المكعبة، رغم أن القبو كان يتمتع بنافذتين فاخرتين تطلان على سطح مغطى بالحصى لمبنى القيادة الأصلي. تتزين معظم الأقبية بالأعلام، والتذكارات، والصور. في الجانب الآخر من الردهة، في «البيت الروسي» الفعلي، كانت الأعلام السوفيتية ترفرف في الهواء المعاد تدويره، وتمثال نصفي من النحاس لجورباتشوف يستقر قرب الباب. كان المارة يمسحون على وحمته التي تشبه بقعة النبيذ وهم يغدون ويروحون. كانت جدران «البيت الروسي» مكتظة بصور لبوتين وهو يتصرف كشخص غريب الأطوار: يسقط أثناء مباراة هوكي، يبتسم لمتظاهرة عارية الصدر، يقبل صبيًا صغيرًا على بطنه، يصوب قوسًا ونشابًا نحو حوت رمادي.

لكن ليس في قبو «موسكو إكس». كانت بروكتر تمقت هذه العاطفة المبهجة.

---

[22] **البيت الروسي Russia House** / تسمية تُطلق على القسم المختص بإدارة العمليات ضد روسيا داخل وكالة الاستخبارات المركزية.

ورغم أن «موسكو إكس» يعد من بين أكثر مكونات الـ CIA عزلة وسرية، إلا أن الشائعات والثرثرة كانت تتدفق داخل جدرانه كالماء. سرعان ما دغدغت همسات حول «الفضيحة المشينة» التي أحاطت برحيل الرئيسة الجديدة من دوشنبه آذان حتى أصغر الضباط رتبة. ساهمت حادثة الطعن في تضخيم أسطورة بروكتر، بينما أشعل توفر مئات الصور العارية لها على الإنترنت، لبضعة أيام، حالة من الشد والجذب؛ معضلة وضعت الفضول في كفة، والعقوبات التي ستطال حتمًا من يُعرف، أو يُشتبه، في أنه «اختلس النظر» في الكفة الأخرى.

بعد أسبوع واحد من حكم بروكتر، ذكر محلل من الدرجة (GS-9) الصور في محادثة تراسل فوري، وفي اليوم التالي اختفى من «موسكو إكس». ظهر بعد أسابيع، منفيًا في مناوبة لمدة عامين في مطبعة لانغلي، وذراعه في حمالة، مع عرجة خفيفة في مشيته. تمتم لزميل له أثناء الغداء في الكافتيريا، وهو منزوي في طاولة مظلمة تفوح منها رائحة الخبز الكيميائية لمطعم «صب واي» المجاور:

– «سقطت من على الدرج. سقطة بغيضة. يا لي من أخرق.»

حُسم الأمر بالقوة، والصور، وإن لم تُنسَ، لن تذكر مرة أخرى أبدًا.

استقر مكتب بروكتر الجديد في أحد طرفي القبو. ضوء وحيد يسطع على مكتبها، وكرسي معدني يواجه الحائط، مخصصًا للضيوف المميزين افتراضًا، رغم أن الزوار سيكونون عملة نادرة. قناة تسوق منزلي تعرض فقرة تروج لسراويل واسعة قصيرة تصدح من تلفزيون مثبت على الحائط. مضرب البيسبول القديم الخاص بفريق كليفلاند مسندًا إلى الحائط. في هذا الوهج المريح، فتحت بروكتر كيسًا من حلوى «التويزلرز» وبدأت في فرز لقطات من مستودع عملاء الغطاء غير الرسمي لـ «موسكو إكس».

فتحت البرقية الواردة من سيا فوكس. وبحلول الوقت الذي انتهت فيه من قراءتها، كان خيط من العرقسوس الذي كانت تشربه قد سقط من فمها على لوحة المفاتيح.

لم تكن آنا أغابوفا مجرد ابنة واصلة من بنات روسيا، بل كانت أيضًا زوجة فاديم كوفالتشوك، أحد رجال أموال بوتين. تمتمت لنفسها: هدية من آلهة الجاسوسية. عيد ميلاد الـ CIA قد جاء مبكرًا. الكثير من الإمكانيات.

كان لديها محلل «مكتنز اللحم» للمهام المتفرقة. فتحت بابها بعنف وصرخت في ديبمان ليحضر إلى هنا، فورًا. بروكتر، التي وُصفت في عدة تقارير تقييم مليئة بـ «الرطانة الإدارية» بأنها تمتلك الغرائز القيادية لـ «حشرة أم أربعة وأربعين النمرية»، أمرت ديبمان بألا يغادر المبنى حتى ينهي التقرير. اختفى إلى مكعبه لإجراء عمليات التتبع والبحث الأولي.

عاد إلى مكتبها في وقت متأخر من ذلك المساء، ووضع النتائج أمام بروكتر وكأنها «قربان محروق»، ثم اتخذ لنفسه حرية مفرطة بالجلوس على كرسي الضيوف بينما كانت تقرأ. فتحت بروكتر كيس «التويزلرز» مرة أخرى وانكبت على القراءة.

١. تتبعات الاستخبارات المضادة (CI) عن آنا أندريفنا أغابوفا تكشف أن الهدف مواطنة روسية تبلغ من العمر ٣٦ عامًا وموظفة حالية في بنك روسيا. ولدت في لينينغراد/بطرسبرغ عام ١٩٨٧ للواء المتقاعد في الـ KGB/SVR ورئيس مجلس الإدارة الحالي لشركة روسيا الصناعية، أندريه أغابوف، وغالينا تيموفاييفنا بطرسبرغوفا (متوفاة – ١٩٩٨).

٢. الهدف خريجة جامعة لومونوسوف موسكو الحكومية (٢٠٠٩). تشير المواد المرجعية (أ) إلى أن الهدف عملت في بنك روسيا في جنيف (٢٠١٠–٢٠١٤) قبل العودة إلى روسيا.

٣. تزوجت الهدف من فاديم يوريفيتش كوفالتشوك، ابن الرئيس التنفيذي ورئيس مجلس الإدارة السابق لبنك روسيا، يوري كوفالتشوك (متوفى – ٢٠١٧)، في مراسم مدنية بسانت بطرسبرغ عام ٢٠١١.

٤. فاديم كوفالتشوك هو المالك والمشغل الرئيسي لـ «روس–فارم» (روس–فارم)، وهي مؤسسة لتربية الخيول الأصيلة. تشير المواد المرجعية (ب) إلى أن المزرعة مدعومة من تحالف يضم أندريه أغابوف والرئيس الروسي.

أمالت بروكتر ظهرها على الكرسي، وأدركت أن ديبمان لا يزال هناك.

شهقت قائلة:

– «يا للهول يا رجل. لقد أرعبتني بحق الجحيم.»

هشّت ديبمان ليخرج من المكتب، ثم التهمت بضعة حبال أخرى من العرقسوس وأطفأت مصباح المكتب الوحيد.

تمددت على الأرض.

لأي مراقب، كان سيبدو وكأن بروكتر قد دخلت فضاءً بينيًا (برزخًا) ظل فيه جسدها ممددًا في المكتب، بينما تبخر عقلها منذ زمن. كانت عيناها مغلقتين، وراحتاها تواجهان السقف، وصدرها يعلو ويهبط ببطء وكأنها في غيبوبة. كانت عضلات فخذها المقربة تحترق ألمًا من تمارين الظهيرة في صالة الألعاب الرياضية.

بعد ساعة، دغدغت الفكرة عقلها لأول مرة. وبعد ساعتين من ذلك، اعتقدت بروكتر أن لديها ما يكفي للبدء في العمل.

جلست ومسحت زوايا فمها. في مكان ما خلال الرحلة غفت قليلًا. أكلت المزيد من العرقسوس وتساءلت عما إذا كان يجب إشراك برادلي.

كلا. ما زلنا غارقين حتى الأعناق في مستنقع العمليات، فكرت بروكتر، لا داعي لإقلاق الرئيس.

فتحت قاعدة بيانات وأدخلت الاسم الكودي «TX/MANCUB» في محرك البحث.

تقريبًا كل عملاء الـ CIA هم مواطنون أجانب. الرمز الثنائي «TX» يشير إلى الحالة الشاذة لـ «مانكاب» (MANCUB)، واسمه الحقيقي هاري هاميلتون، وهو أمريكي، المؤسس والرئيس التنفيذي لشركة التكنولوجيا «ليريك». سمح هاري للـ CIA باستخدام «ليريك» لبناء أغطية لبعض عملائها السريين (NOCs)، وكان عادة ما يتعاون حين تطلب بروكتر المساعدة.

لكن هذه المرة، توقعت بروكتر أن يكون الأمر مختلفًا. وحيدة في مكتبها، مسحت قاعدة بيانات لأسعار المزادات لخيول السباق الأصيلة وقهقهت بصوت عالٍ.

هاري لديه «صفر» اهتمام بالخيول. لا يملك حصانًا. لا يحضر سباقات الخيل. وربما لم يركب حصانًا في حياته قط.

لن يعجب هذا الأمر هاري أبدًا.

الفصل الحادي عشر

بالو ألتو

سار ماكس عبر امتداد المدرج في مطار «بالو ألتو»، متجاوزًا مسؤول التحميل التابع لفرع الطيران في الـ CIA عند وصوله إلى أعلى السلم ليدخل طائرة «غلف ستريم G550». أشار الاستخدام المفرط للخشب الزائف والسجاد بلون «المجترّات» في الداخل إلى أن هذه الطائرة ليست مملوكة لمشهور أو ملياردير، ولا حتى لمزرعته هو، بل لبيروقراطية حكومية فشلت آلة مشترياتها، رغم استعانتها بواجهة تجارية كغطاء، في تحديث التنجيد لشيء أكثر حداثة من لون «الأفوكادو الهاوايي».

على الجانب الآخر من المدرج كانت طائرته الخاصة، الـ «ER650G» التابعة لـ «سان كريستوبال». فهم من البرقيات أن لدى بروكتر عرضًا له، وأن محامية تعمل كغطاء غير رسمي (NOC)، تُدعى هورتينسيا فوكس، معهم في الأمر بطريقة ما. فهم أيضًا أن الطلب غير تقليدي؛ فقد أدرجت آرتميس القليل جدًا من التفاصيل في رسالتها لدرجة أنه لا يوجد تفسير آخر.

تحرك ماكس بخطوات متباطئة فوق السجاد الملطخ نحو بروكتر، التي وقفت لتصافحه. دخلت هورتينسيا فوكس خلفه إلى الطائرة. كانت مشيتها واثقة، بل عدوانية، وعلقت في تيار الهواء خلفها رائحة زهرية وحمضية نقلته إلى حدائق «سان كريستوبال». لامست خشونة كفها كفه بشكل ممتع.

قال:

– «ماكس كاستيو. سرني لقاؤك يا هورتينسيا.»

سحبت يدها قائلة:

– «سيا فوكس. وليس هورتينسيا. أبدًا.»

اما بروكتر فكانت تعطي ايحاء رجال العصابات: بدلة رياضية مخملية حمراء وحذاء تنس أزرق. ست علب من بيرة «كورز لايت» تبرد في دلو ثلج على الطاولة، وزجاجة مِسكال بجانبها. جلست سيا مقابله، بجوار بروكتر التي فتحت علبة بيرة. تفحص ماكس المِسكال، وقرر المخاطرة رغم أنه لم يتعرف على العلامة التجارية – فمن واقع خبرته مع بروكتر، عادة ما تكون العلامات غير معروفة.

قال لسيا وهو يرفع الزجاجة:

– «مِسكال؟ رغم أنني لا أستطيع ضمان جودته.»

هزت رأسها، بأسلوب يكاد يفتقر للكياسة، وأخرجت زجاجة ماء من حقيبتها بدلًا من ذلك.

قال ماكس:

– «من الجيد رؤيتك يا آرتميس. تبدين بخير.»

في الحقيقة كانت تبدو أكبر سنًا، ومتأثرة بعوامل الزمن. لكن شعرها الأسود، كالمعتاد، أعطى انطباعًا بأنها موصولة بمقبس كهربائي. التقى ببروكتر مرة واحدة، قبل بضع سنوات، عندما ساعد الـ CIA في الوصول إلى كمبيوتر رجل أعمال أردني. حينها، كانت بروكتر تخدم في محطة الـ CIA في عمّان. لم يكن متأكدًا من دورها. لم يقدموا تلك المعلومة ما لم يسأل. وماكس لم يسأل أبدًا.

قالت بروكتر:

– «حسنًا، هذا لطف منك. وأنت لا تبدو سيئًا أيضًا. الخيول تعاملك جيدًا على ما يبدو.»

– «تميل لذلك.»

– «وتحية على العملية ضد الإماراتي. المعلومات كانت مفيدة للمحللين الذين يعملون على شبكات كسر العقوبات الروسية في الخليج.»

حيت بروكتر ببيرتها وأخذت رشفة طويلة متعطشة. بادلها ماكس برشفة سريعة من المِسكال الخاص به.

قالت بروكتر:

– «وأنتِ يا سيا، تبدين رائعة أيضًا. من الجيد رؤيتك يا عزيزتي. شكرًا لقفزك عبر المحيط لأجل هذا.»

– «بالطبع يا آرتميس. أموت شوقًا لمعرفة ما طبختِه.»

اختلس ماكس نظرة إلى سيا. شعر داكن طويل، عينان رماديتان ضبابيتان، وبشرة بلون الشمس. لكنة أفريكانية في حديثها وجدها مثيرة للاهتمام. وكانت طويلة، تكاد تضاهيه طولًا، وأنيقة الملبس، فستان وكعب عالي مصممان خصيصًا من مكان ما في لندن أو ميلانو، هكذا يراهن. رأى نساءً كهذه يأتين ويذهبن في «سان كريستوبال»، عادةً على ذراع رجل ثري وأكبر سنًا. معظمهن بدوا متاحين، بشكل مبالغ فيه. منفتحات ومغازلات وعاديات لدرجة أنك تعلم أنه لن يكون هناك تحدٍ، ولا رقصة، وأنهن إذا لم يجعلنك تبذل جهدًا فهن لم يجعلن رجالًا آخرين يفعلون ذلك أيضًا. لكن سيا ظهرها كان مستقيمًا، ومنتصبًا، وأي محرك بداخلها هو من النوع الذي لا يتوقف عن الدوران حتى عندما ينبغي له ذلك. أو يمكنه ذلك. كانت عيناها تخترقانه الآن، تقيمان، وتبحثان عن الخطر، والتهديدات، والضعف، كما استشعر. لم يعرفا بعضهما لخمس دقائق وكانت تفكر بالفعل في ضربه. عادة ما يستمتع بتلك النظرة، لكنها لم تحدث له في عملية من قبل. ارتشف من المِسكال المتوسط الجودة. لم يكن متأكدًا مما يفكر فيه بشأن هورتينسيا فوكس هذه.

بدأت بروكتر:

– «أعرف أن برقياتي كانت غامضة، وأنا آسفة لذلك. أشعر بالقلق اذا وضعت أفكار رائعة كهذه في القنوات الرسمية. يصيبني هذا بالقلق.»

من مجلد في حقيبتها أخرجت بروكتر صورًا ونشرتها على الطاولة.

– «فاديم كوفالتشوك، هو ابن يوري كوفالتشوك المتوفى الآن، أحد أصدقاء طفولة بوتين. يدير فاديم جزءًا من مكتب بوتين الخاص من بنك روسيا في سانت بطرسبرغ. بقدر ما يمكننا فصل مالية بوتين عن الدولة، هذا هو المكان الذي يحدث فيه ذلك. هو يعرف أين دُفنت ووزعت الكثير من مخازن بوتين الشخصية. هدف ذو أولوية عالية. واتضح أن فاديم هنا يدير أيضًا مؤسسة الخيول الأصيلة الروسية الأولى. نسخة روسية صغيرة من سان كريستوبال. هل تعرفها يا ماكس؟» هل تتفضل بإعطائنا السبق؟

– «بالطبع. رغم أنهم سُحقوا للتو في دبي، إلا أن مزرعة "روس-فارم" كانت في تحرك مؤخرًا. استثمار غير مسبوق في أفضل السلالات من الخليج، وإذا صدقت الشائعات، من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة عندما يجدون طرقًا للالتفاف على العقوبات. بعض الهمسات القبيحة حول تخديرهم للخيول، لكنني أفهم أنها لم تُؤكد. لم أقابل كوفالتشوك أبدًا، مع ذلك. ولم أزر المزرعة قط.»

سألته سيا:

– «مهلًا، هل أنت ضابط أجنبي (FNO) أم عميل ذو غطاء غير رسمي (NOC)؟»

عميل الغطاء غير الرسمي (NOC) هو مواطن أمريكي، أحيانًا بجواز سفر أجنبي. ماكس، كضابط أجنبي، كان غير أمريكي موثوقًا يقوم بأعمال تعاقدية حساسة للـ CIA. كان على الـ NOCs اللعب وفق القواعد البيروقراطية – تقارير النفقات، سلم الرواتب الحكومي، إرسال برقية قبل أن تحك نفسك. ماكس لم يفعل ذلك. كان سؤال سيا عادلًا، لكن الـ NOCs كانوا يميلون للحساسية بشأن التمييز، وبدا صوتها مشوبًا بنبرة مرارة تجاه وضعها المفترض كدرجة ثانية.

قال ماكس:

– «العائلة تتعامل مع الـ CIA منذ الستينيات.»

لم يعترف بلقب الـ FNO. يمكن للـ CIA تسجيله في قواعد بياناتهم كما يشاؤون. الاختصارات لا تملكه.

تصلب جسد سيا، واستمرت بروكتر دون أن تلاحظ.

– «لكن هنا حالفنا الحظ. لأن صديقنا الصغير فاديم متزوج من هذه المرأة، التي هي بالصدفة عميلة محتملة لسيا، آنا أندريفنا أغابوفا.»

قبل ماكس الصورة، التي بدت وكأنها مسحوبة من موقع بنك روسيا الإلكتروني. كان لديها شعر كتاني وعينان زرقاوان باردتان ووجنتان عاليتان. وجهها يقول للكاميرا «اذهبوا للجحيم». أعجبته بالفعل.

أدار ماكس الصورة لبروكتر:

– «ألقاب الزوج والزوجة مختلفة؟»

نخرت بروكتر:

– «قد يكونان منفصلين. من يدري؟»

التفتت سيا إليه قائلة:

– «لدي اجتماع محدد مع آنا في لندن الأسبوع المقبل. وهي ستحضر فاديم معها.»

قالت بروكتر:

– «لكن ها هي المشكلة. سيا لديها الوصول للزوجين الروسيين من خلال مكتب المحاماة الخاص بها. وماكس لديه المزرعة – مكان يمكننا العمل فيه،

والتلويح ببعض طُعم الخيول، لنرى ما إذا حصلنا على عضة. فاديم، وآنا، وماكس، وسيا.»

عدتهم بروكتر حتى رفعت أربعة أصابع، هزتها أمام كل منهما.

– «هناك رابط واحد مفقود ـفي هذا الرباعي المبهج الصغير. الرابط بينكما أنتما الاثنين. لذا فلنجعل هذا الفتاة تفكر. ما هي أفضل طريقة للإيقاع بفاديم كوفالتشوك؟»

دفعت بروكتر البيرة جانبًا ونشرت صفحة من الملاحظات المربكة عبر الطاولة.

ألقى ماكس نظرة متمعنة إلى ساقي سيا المتململتين، ثم لأعلى إلى عينيها الغاضبتين.

قالت سيا:

– «هاري وأنا، لم نكن عشيقين يا آرتميس.»

قالت بروكتر:

– «خطئي.»

فتحت قلمًا وشطبت «عشيق سابق». ثم ربطت الرئيسة شعرها برباط مطاطي وقالت:

– «تخيلا هذا: أنتما الاثنان تعرفتما بالصدفة من خلال المدعو هاري هاميلتون. فجأة أصبح لديه هوس مليارديرات بالخيول، وبالتأكيد دعا ماكسيميليانو هنا إلى بالو ألتو لدردشة صغيرة. هاري العجوز أحضر أيضًا موظفة "ليريك" السابقة وصديقته سيا. الاجتماع الذي ذكرته ـفي برقيتي المقتضبة سيكون في...» تحققت بروكتر من ساعتها «... ثلاث ساعات. ـفي هذا الاجتماع أنتما وهاري ستجرون حديثًا لطيفًا عن الخيول وما قد يشتريه من سان كريستوبال.

ماكسيميليانو، في النهاية يقول: لمَ لا نذهب جميعًا لسان كريستوبال في رحلة استكشافية؟ تصادف أيضًا أن كلاكما يظن الآخر جذابًا. تذهبون جميعًا إلى المكسيك القديمة: نبيذ، تيكيلا، تاكو، ركوب خيل بلا سرج، أيًا كان. ثم تأتي سيا بفكرة رائعة. يجب أن تأتي آنا وزوجها للمكسيك للعشاء بدلًا من زيارة لندن. إنهم روس فاحشو الثراء، والسفر بطائرة خاصة لسان كريستوبال لبضعة أيام يجب أن يكون سهلًا. بحق الجحيم، لا بد أنه أسهل لهم الحصول على وثائق لزيارة المكسيك من المملكة المتحدة هذه الأيام. نحن نسدي لهم معروفًا. بالإضافة إلى ذلك، وخلافًا لكل شيء آخر تفعله سيا في لندن، بهذه الطريقة لن أضطر لإطلاع البريطانيين على الأمر.»

فتحت بروكتر علبة «كورز» أخرى.

– «أنتما الاثنان تلعبان دور روميو وجولييت ونحن نصل لأسرار فاديم يا ماكس، وفقًا لكتيب اللعب المعتاد.تذهبون لعرض سان كريستوبال الخاص. بحق الجحيم، ربما نتحقق مما إذا كان لدينا أي زوايا على فاديم؟ نلقي نظرة داخله، نرى ما يحركه، ونقيم إمكانية تجنيده.»

توقفت، أفرغت نصف العلبة وهي تنظر حولها لتقرأ الطاقة، ثم تابعت باندفاع:

– «الآن، قبل أن ينزعج أي شخص، ويبدأ في الشكوى من المخاطر وبلا بلا بلا، حسنًا، دعونا نتفق على بضعة شروط. واحد، هذا مؤقت. لا داعي لإقناع الروسكيين بأنكما مغرمان ببعضكما لفترة طويلة. اثنان، نحن نملك الأرض. إنها ليست الأراضي القفرة الروسية، إنها المكسيك، والإقطاعي هنا صديق. الروس يلعبون لعبتنا، محاولة اختبار صغيرة لمؤخراتهم الروسية لن تعرض هوياتكم لخطر كبير. بالإضافة إلى أننا لا نحظى بفرص لمقابلة الكثير من الروس وجهًا لوجه هذه الأيام، بسبب أوكرانيا وكل ذلك، وعندما نستطيع، نغتنم فرصنا. الوصول لمال بوتين سيعطينا فرصًا جميلة لتخريب خططهم العسكرية. الآن سأخرس.
ماكس، ما رأيك؟ هل أنت مستعد لهذا؟»

أنهت علبة «كورن» وفتحت أخرى، ففارت وسالت على الجوانب وفوق أصابعها. لم يبدُ أن بروكتر لاحظت ذلك.

نظر إلى سيا. كون بروكتر لم تسأل رأي سيا، وأنها كانت تخاطب ماكس، وأنه كان طلبًا منه وأمرًا لها، استطاع أن يرى أن كل هذا قد أثار حفيظة سيا، لأن قدمها اليمنى بدأت تهتز على الأرض وكانت تعبث بشعرها المسرح وتتجنب عينيه.

سأل:

– «سيا، كنتِ تعملين على آنا. منذ متى؟»

قالت سيا:

– «الاجتماع الأسبوع المقبل هو الأول لنا.»

– «ألم تقابليها؟»

– «لا.»

– «وهي تواصلت معك؟»

– «نعم.»

– «لماذا؟»

– «مكتب المحاماة الخاص بي، منصة غطائي غير الرسمي، نحن نخفي المال القذر. شركات محتالة صغيرة خارج لندن. آنا مهتمة بخدماتنا لعدد قليل من عملائها. وربما لفاديم.»

– «لكن لماذا أنت؟»

– «جزء كبير من عملي هو مال روسي قذر.»

كانت نبرتها تزداد حدة مع كل رد.

– «وماذا كانت ستكون زاويتك؟ تطوير العلاقة مع آنا، أم فاديم؟»

هذه المرة اكتفت بنظرة غاضبة.

رفع ماكس يده وأخذ رشفة من المِسكال.

– «لا يهم. وقت ذلك لاحقًا.»

خرجت زفرة غاضبة من أنف سيا. أزاحت خصلة شعر داكنة عن وجهها واستدارت نحو النافذة، واضعة ساقها اليسرى فوق اليمنى. التقط بريق الغضب في عينيها وشعر أنها مرتاحة في القتال، وربما تستمتع به، وأنها تكرهه، فورًا ومن حيث المبدأ. وربما لأسباب محددة، لم يكن متأكدًا.

فهم الصورة، على أية حال. سيا تحصل على الفضل – وبالتالي الترقيات، وزيادة الراتب، والمكانة –لقاء عمليات التجنيد قبل كل شيء. لم تكن قد بدأت العمل على آنا بعد، وها هي بروكتر تعرض عليها للتو دورًا مساندًا في مخطط لمساعدته هو في العمل على فاديم. كانت غاضبة لإنه يسرق صيدها.

سألت بروكتر:

– «ما رأيك يا ماكسيميليانو؟ رحلة تحضيرية صغيرة مع هاري وسيا، ثم يأتي الروس لعرض سان كريستوبال الخاص ؟»

ورغم أن فستان سيا امتد لأسفل ركبتيها، شعر من حركات ساقيها المحبطة ووقفتها وطولها أن ساقيها كانتا مفتولتي العضلات وطويلتين للغاية، وإذا اقترب لونهما من لون وجهها فسيكونان بلون أسمر ممتع.

نظر لبروكتر وقال:

– «يسعدني المساعدة. الخطة جيدة.»

التفت عائدًا لسيا في الوقت المناسب لسماع تنهيدة مسموعة أخرى من أنفها المتسع.

قالت سيا:

– «آرتميس، إذا كانت آنا واصلة للغاية كما نعتقد، لماذا بحق الجحيم نراها كطريق لفاديم؟ هي هدف قيم بحد ذاتها. وأنا في أفضل وضع للعمل على هذا الهدف.»

انتزعت بروكتر لسان السحب من علبة «كورز» ولوحت به بحركة مسرحية تجاه سيا، التي سكتت.

– «أكملي يا عزيزتي، أنهي فكرتك، لن تسيئي لآرتميس العجوز.»

قالت سيا، وهي ترمق ماكس بنظرة جانبية:

– «لا أعتقد أن علينا فعل ذلك بهذه الطريقة. يمكنني تطوير العلاقة مع آنا بنفسي. لست بحاجة لشحن آنا عبر نصف العالم لمزرعة مكسيكية. يمكنني العمل عليها في المملكة المتحدة، في أوروبا، بحق الجحيم، يمكنني العمل عليها في روسيا إذا لزم الأمر.»

قالت بروكتر:

– «إنها هدف جيد، أتفق معك. لكنها، بقدر ما نعلم، لا تدير أموال بوتين. أنا أريد المال. فاديم كوفالتشوك هو من يرى أين تذهب كتلة لا بأس بها من نقود الرئيس.»

– «أعطني فرصة مع آنا. لنرَ كيف يسير ذلك أولًا.»

هزت بروكتر رأسها:

– «لماذا؟ طريقتي مباشرة. هل تحتاجين لرسم تخطيطي يا عزيزتي؟ بالإضافة إلى ذلك، إذا انتهى الأمر بآنا كهدف قيم بحد ذاتها، فأنتِ موجودة هناك للعمل عليها. وجود مساعد (wingman) يفيدك يا هورتينسيا. واسمعي، أنا لا

أطلب منكما ممارسة الجنس أو أي شيء. فقط قبلا بعضكما على الخد وربما أمسكا الأيدي أمامهم.»

سكبت سيا لنفسها قليلًا من المِسكال واستندت بظهرها لمقعدها. أخذت رشفات متوترة وقيمت ماكس بنظرة عابسة.

أكملت بروكتر:

– «وأنا أعرف أنك تحبين الخيول. أنتِ فتاة مزرعة يا سيا. الخيول "بوينو" (أى جيدة). أليس كذلك؟»

حدقت سيا في بروكتر:

– «نعم يا آرتميس، تعرفين أنني أحب الخيول. نشأت حول الخيول.»

التفتت سيا لماكس:

– «هل يعرف أي شخص آخر في المكسيك بعلاقتك بالـ CIA؟»

– «فقط والدي، لكنه ليس بخير. لديه زهايمر مبكر. يعيش في منزل منفصل في الممتلكات، بعيداً عن الزوار. الكتمان سيكون مطلوبًا حول الموظفين.»

ساد صمت محرج.

نظرت بروكتر بينهما:

– «هل كل شيء مناسب بخصوص خطة اجتماع هاري والأيام القليلة القادمة؟»

قال ماكس:

– «نعم. مناسب.»

تمتمت سيا بموافقتها.

وقف وصافح بروكتر، ثم قدم يده لسيا، التي قبلت المصافحة بقبضة حازمة ونظرة اشمئزاز خفيفة.

قالت بروكتر بإسبانيتها الرديئة «أديوس فايا كون ديوس» (وداعًا، اذهبوا في رعاية الله)، بينما أغلق مسؤول التحميل الباب. افترق ماكس عن سيا بصمت أسفل سلم الطائرة، متجهًا لسيارته للذهاب لمكتب هاري هاميلتون، معجبًا بطريقة مشيها وبأنها لم تلتفت إليه ولو لمرة واحدة.

***

رتبت ماغي غيلر الكثير من الاجتماعات الغريبة خلال سنواتها السبعة والعشرين كمساعدة تنفيذية صابرة لهاري هاميلتون. اجتماع رسمي بين هاري وملك الأردن ومزارع تكساسي. ظهيرة صاخبة لهاري، وبونو، ورجل مشرد من بيركلي. عطلة نهاية أسبوع طويلة في منزل هاري في جاكسون هول مع رجل أعمال روسي سيُخنق لاحقًا حتى الموت في حمامه، وآخر سيُدفع ببساطة من شرفة فندق.

الرجل والمرأة الذين كانت تدخلهما الآن لمكتب هاري كانا أقل غرابة، لكنهما مثيران للدهشة مع ذلك. لقد أمضيا عشرين دقيقة صامتة في الغرفة الأمامية خارج مكتب هاري وكأنهما يجهزان نفسيهما لكمين، أو ربما جلسة كئيبة من علاج الأزواج.

تتبع خطى ماغي عن كثب هورتينسيا فوكس، خريجة «ليريك» وتلميذة هاميلتون القديمة التي هربت للندن لتجني المزيد من المال. استمتع هاري بالنساء الأصغر سنًا، وقبل سنوات كانت هناك تلميحات قبيحة بأنهما كانا عشيقين. حينها، لم تعر ماغي الشائعات اهتمامًا يذكر. لكنها الآن تعيد النظر. دعا هاري هورتينسيا للطيران عبر العالم لتنضم إليه في إحدى رحلاته المندفعة. هذه المرة – وحتى ماغي المخضرمة كافحت لاستيعاب هذا الجزء – هذه المرة كان هاري يستكشف خيول السباق. في المكسيك. ربما الطلقة الافتتاحية لأزمة منتصف العمر الثالثة أو الرابعة له.

قالت له:

– «سيد هاميلتون، خيول؟»

– لأنها رفضت مناداته بـ هاري. كانت النبرة مشككة، لكن مهذبة. استرخى في كرسي مكتبه، متجنبًا عينيها، وقال نعم، نعم، إنه ملياردير لعين وبدأ يشعر بالملل. الخيول، قال دون قناعة، الآن، الخيول مثيرة للاهتمام.

احتجت قائلة، ويزداد قلقها على سلامته:

– «لكن سيد هاميلتون، هل ركبت حصانًا من قبل؟»

ضحك:

– «هذا هو الشيء الجميل. كل هؤلاء الملاك الأثرياء الحمقى، لا يركبون الخيول. يكتفون بالتربيت على الحيوان بعد فوزه بالسباق. سأندمج تمامًا. سأغرم بالخيول بشكل لعين.»

كانت الخيول هي السبب في الضيف الثاني، رجل وسيم يدعى ماكسيميليانو كاستيو. يدير مؤسسة لتربية وسباق الخيول خارج مونتيري، المكسيك. طلب هاري من ماغي دعوته لبالو ألتو للدردشة. أصر هاري أنه مهتم بعدد قليل من خيول كاستيو. صافح هورتينسيا وماكسيميليانو هاري وجلسوا جميعًا. أغلقت ماغي الباب بسرعة، ممتنة – كعادتها – لأنها ورغم معاناتها من إزعاج ترتيب الاجتماعات، لم تضطر لتحمل محنة المشاركة فيها فعليًا.

الجزء الثاني

RAZRABOTKA

التطوير

الفصل الثاني عشر

سان كريستوبال

حلق طيار هاري في دوائر فوق «سان كريستوبال» بضع مرات لتتمكن سيا من استيعاب المشهد. مزارع «بيغ بيند» التي عرفتها في طفولتها كانت كبيرة، لكنها تميل إلى التهالك والرثاثة، ولم يكن من غير المألوف أن تكون جوهرة العقار مجرد منزل مترامي الأطراف من طابق واحد بغرفتي نوم، وسقف من الفولاذ المموج، وطلاء مقشر.

لكن هنا، وهي تطفو فوق «سان كريستوبال»، لمحت سيا عبر الغيوم الرقيقة حظائر مصممة على طراز «الهاسييندا» بأسقف قرميدية (تيراكوتا) متناسقة، وقصرًا مترامي الأطراف على شكل حرف U مع مسبح متلألئ. كان هناك ما لا يقل عن أربع، وربما خمس حظائر، مما يعني أن «سان كريستوبال» قد تكون موطنًا لأكثر من مائة من الخيول الأصيلة.

ومع بدء طائرة الـ «G800» في الهبوط، لفت نظرها تفصيل واحد أكثر من غيره أشار إلى عظمة «سان كريستوبال»: سياج أبيض مطلي يحيط بالعقار بأكمله ويقسم المراعي، وحظائر الترويض، والإسطبلات. صيانة أميال من السياج كانت صداعًا لأي مزارع؛ قضت ساعات لا تحصى من شبابها في إصلاح خطوط السياج مع أختها في مزرعة العائلة. ولكن الحرص على طلائه؟ حسنًا، كان ذلك شيئًا لا يمكن تصوره في «بيغ بيند».

رفع هاري، الجالس قبالتها، بصره عن مجلة ونظر عبر النافذة.

قال:

– «يا للهول.»

تبددت ذكريات الوطن مع ملامسة عجلات الطائرة للأرض. نقلهم سائق منتظر إلى المنزل الرئيسي، حيث سينضم إليهم ماكس لتناول العشاء في ذلك المساء. التفوا حول إسطبل بسقف قرميدي، ثم ساروا بمحاذاة أميال من السياج الأبيض، والفرس والمهرات تتفحص السيارات أثناء مرورها. كسا العشب البني الكثيف المراعي، وكان طلاء السياج الكريمي ناصعًا، والمنزل الذي يقتربون منه على قمة التل مكونًا من ثلاثة طوابق من الحجر الملتوي في فوضى جميلة من الممرات ذات الأعمدة وحدائق الشرفات وأشجار النخيل الشاهقة. يمتلك الكثير من المزارعين أراضي، لكن القليل منهم يمتلك قصورًا كهذا. كان المكان فخمًا وجميلًا، وخبرة سيا مع الأماكن الفخمة والجميلة كانت أنها عادة ما تكون مملوكة لأوغاد.

حدثت اللحظة المتوقعة حين قاد الموظفون سيا وهاري إلى غرفة النوم ذاتها. ضحك هاري، وكالعادة، تجول للداخل دون تصحيح الخطأ. عندما حدث هذا لأول مرة قبل سنوات، بعد فترة وجيزة من توليها وظيفة «ليريك»، كانت سيا تحمر خجلًا وتوبخ هاري لسماحه باستمرار الشائعات. الآن شرحت الخطأ بهدوء، وقادتها الموظفة ذات الوجنتين الورديتين إلى غرفة نوم فخمة بأسقف مقببة، وعوارض بلوط مكشوفة، ومدفأة بحجم سيارة.

دخلت الحمام: رخام، بلاط مزخرف في دوش البخار، وقرص يتحكم في تدفئة الأرضية. أمسكت بإحدى المناشف وابتسمت. كان والدها يحب القول إنه سيسرق المناشف عندما يقيمون في أماكن لطيفة. تذكرت سيا تلك الجملة حين كانت تلعب دور الثرية: في جزيرة يونانية، أو قصر في نايتسبريدج، أو هنا، في ما يبدو وكأنه مزرعة إقطاعية في شمال المكسيك.

كان هذا مكانًا من نوع «اسرق المناشف». حشرت واحدة في حقيبتها.

***

عندما وصل هاري إلى المكتبة، دس ماكس كوبًا من الويسكي (سكوتش) في يده، واتباعًا لتعليمات بروكتر، أمضى الدقائق الثلاثين التالية يشرح سلالات المزرعة، وأداء سباقات الرهان، وفلسفة التربية، تحسبًا لأي سؤال قد يوجه لهاري حول هذه الزيارة عند عودته. أخرج ماكس كتابًا جلديًا سميكًا منقوشًا بشعار «سان كريستوبال» ليعرض مخططات النسب للمهرات التي كان يعرضها بسخاء على هاري، بدلًا من أخذها للمزادات في «كينلاند» و«ساراتوجا».

حاول هاري مرتين إخبار ماكس أن الأمر غير ضروري. احتج قائلًا:

– «أعرف أن آرتميس ستقدر مجهودك، وأعتقد حقًا أن هذا المكان رائع، لكن آرتميس ليست هنا وأنا جائع بشكل لعين. فقط بع لي الخيول اللعينة التي في ذهنك.»

كانت سيا قد سمعت ما يكفي من مبارزة هاري وماكس حول مخططات النسب.

قالت بنبرة ساحرة:

– «سألقي نظرة.»

ثم انتزعت الكتاب قبل أن يتمكن أي منهما من الاعتراض.

قالت لماكس بتلويحة مستهترة:

– «لا بأس. في الحياة الواقعية، لن يقرأ المخططات على أية حال. أليس كذلك يا هاري؟»

ضحك هاري، ناظرًا عبر إحدى نوافذ المكتبة البانورامية. كان المشهد ينحدر عبر تل لطيف نحو حظيرة تدريب بسقف أحمر.

– «ماذا بحق الجحيم سأفعل بهذه الحيوانات بمجرد شرائها؟»

دون أن ترفع بصرها عن الكتاب، قالت سيا:

– «ستجد حلًا يا هاري، ولهذا نحبك.»

وكما توقعت سيا، سرعان ما استنفدت المسرحية ما تبقى في بئر صبر هاري الضحل. تجولوا في حظيرة التدريب، وحظيرة التزاوج (التي لم تكن قيد الاستخدام – «لا أريد رؤية هذا القرف»، زمجر هاري)، وأحد مراعي المهرات. كان هاري غارقًا في هاتفه بينما كان السواس يخرجون المهرات الثلاث التي كان يشتريها قسرًا. قوبل مدير التربية بابتسامة هاري الساخرة وصمته حين سأل عما إذا كان قطب التكنولوجيا أو أصدقاؤه لديهم أي أسئلة أو مخاوف.

رغم ذلك، وقرب النهاية، تحمس قليلًا لمشاهدة حصان يمشي على جهاز مشي مغمور في الماء وآخر يغطس في حمام مالح.

مازح هاري قائلًا:

– «الخيول اللعينة تعيش أفضل مني.»

عند الغروب، قرعوا كؤوس الشمبانيا على شرفة مكسوة بالكروم تحت أقواس حجرية تطل على مرعى متموج. الهواء الدافئ على غير العادة في هذا الموسم دغدغ أنف سيا برائحة الأغاف والصنوبر. ورغم أن هاري كان يواجه المرعى، سمعت سيا تجشؤًا خافتًا وقرقعة كأسه الحجري وهو يضعه على طاولة حجرية. كان مشروب هاري قد اختفى في جرعة واحدة.

شاكرًا ماكس على كرم ضيافته، أعلن هاري أنه يشعر بالسوء، وصرح بأنه ذاهب للنوم.

قال:

– «ابقي يا سيا، استمتعي بوقتك.»

صافح ماكس وغادر. همس ماكس بشيء لكبير النادلين، الذي سرعان ما عاد مع آخرين من المطبخ حاملين أطباقًا من السلطة الخضراء والماعز المشوي

(كابريتو آل باستور) محاطاً بمائدة من التورتيلا، والبصل المفروم، والكزبرة، والليمون. غمر كبير النادلين زجاجة شمبانيا أخرى ـفي دلو ثلج ثم فتح زجاجة نبيذ أحمر، تركها على الطاولة بعد أن أتم ماكس طقوس تذوق النبيذ. شكره ماكس وانصرف النادل.

كانا وحيدين، الشمس على بعد عشر دقائق من المغيب، وفي الضوء المتلاشي توهج الطوب اللبن الأبيض باللون الوردي.

ثم حول عقل سيا مساره. الإعداد الخلاب، مائدة الطعام الحية، الازدراء لماكس الذي كان يتقيح بداخلها طوال اليوم – طردت كل ذلك من ذهنها دون تفكير يذكر. حان وقت العمل.

قالت بصوت عسكري:

– «أعطني عرضك لفاديم.»

قال وهو يغرز شوكته ـفي طبق لحم الماعز:

– «لدي فحل هنا، سموكي جو، أخ غير شقيق لفحلي الأقدم، ريكس.»

– «فحلك الأقدم؟»

– «أثمن فحول التزاوج لدي. سموكي جو فحل بسجل سباقات متميز. فاز بسباق ترافيرس قبل بضعة أشهر فقط، خلال موسمه كثلاثي السنوات. عانى من مضاعفات طبية. لن أضجركِ بالتفاصيل، لكنه لن يتسابق مرة أخرى.»

السباق لم يعنِ لها شيئًا، لكنها لزمت الصمت.

أكمل ماكس:

– «النقطة هي أنه سيُحال للتزاوج. نسبه، وبنيته، وأداؤه ـفي السباقات تجعل منه صفقة جذابة للغاية لأي شخص يبحث عن فحول. وبناءً على ما أعرفه عن أنساب روس–فارم، يجب أن يكونوا مهتمين. عادة ما أعرض هذا النوع من

السلالات في المزاد، أو أرسله ليقف للتزاوج في كنتاكي[23]، لكن المبيعات الخاصة تحدث طوال الوقت. فاديم سيكون مهتمًا. خاصة وأن نسب فاديم الروسي يجعل من الصعب عليه القيام بأعمال تجارية في كنتاكي أو المملكة المتحدة.»

أكلا في صمت غير مريح لم يقطعه سوى صوت أدوات المائدة المنشغلة. زاد انزعاج سيا لأنهم يضحون بفرص لإعداد قصتهم. كانت خطة العمليات تتطلب منهما مشاركة وحفظ بعض الحقائق الأساسية والطرائف عن بعضهما البعض قبل وصول أي روسيين. لم يكن من الضروري أن يكون كثيرًا، مجرد ما يكفي لإثبات حميمية علاقة عمرها أسابيع.

قالت بصوت المحامية الآن:

– «هذا إعداد مثير للإعجاب. الخيول كانت عمل العائلة منذ الستينيات؟»

أجاب:

– «بدأ جدي تجارة الخيول عام ١٩٦٣. قبل ذلك كانت عملية ماشية بشكل أساسي.»

سمحت سيا لنفسها – بشكل سريري – بالتفكير في كيف قد تشعر في هذه اللحظة لو كانت شخصًا آخر: النبيذ، الفوانيس، النجوم المتلألئة، ضوء القمر المسكوب على الأسطح والطوب اللبن، وصهيل حصان بين الفينة والأخرى.

درسته. وسيم، بعينين بنيتين داكنتين وشعر يقارب درجة سواد شعرها. بنطال كاكي مفصل جيدًا، حذاء جميل، جلد نعام، أليس كذلك؟ الزران العلويان لقميصه مفتوحان، يكشفان عن ملامح صدر عضلي. هل يعمل في المزرعة حقًا؟ لم تكن لتصدق ذلك ممكنًا – الأدلة: الطائرة، المنزل، الموظفون – لكنه بدا قويًا وحيويًا في نظرها، كرجل يعتني بنفسه ويعمل في الخارج بيديه. كانت زوايا فمه

---

[23] تُعرف **كنتاكي** بأنها "**عاصمة الخيول في العالم**" وموطن سباق "ديربي كنتاكي" الأسطوري، وترمز ثقافياً إلى عراقة تقاليد الفروسية وتربية الخيول الأصيلة في الجنوب الأمريكي.

مرتفعة قليلًا حتى عندما تكون شفتاه مغلقتين، مما يجعله يبدو دائمًا على وشك الضحك. تساءلت لماذا لم تكن لديه صديقة تعيش معه.

أعدا قائمة على منديل – مزقته لاحقًا وألقته في مرحاض سيا؛ كانت قد أصرت على إجراءات العمل السري المناسبة – لكل المواضيع التي يغطيها المرء في الموعد الأول، وتصفحاها كقائمة مهام للشركات.

بدأت بعائلتها.

أمها كانت جنوب أفريقية، عائلتها تملك وتدير مزرعة نبيذ خارج كيب تاون. والدها كان بريطانيًا. التقيا خلال فصول دراسية بالخارج في أوستن، تزوجا، واستقرا في تكساس، في ريف «بيغ بيند». ولدت سيا خلال إقامة في كيب تاون، حيث حصلت على الجنسية الجنوب أفريقية، وهو أصل جعل حالتها مثيرة للاهتمام لبرنامج الغطاء غير الرسمي للـ CIA بعد سنوات. جنسيتها الأمريكية وأثرها الورقي في تكساس تم محوهما أثناء عملية الانضمام للانغلي. شرحت بلا حماس كيف تم تفادي صيف تكساس الجهنمي في شتاء كيب تاون في مزرعة النبيذ. كانت تخطط للتوقف هناك، لكنها سمعت نفسها تتطوع قائلة:

– «أرادت ماما مني ومن ديزي تعلم الأفريكانية.»

– «ديزي؟»

رفع ماكس بصره عن طبقه بابتسامة عريضة.

شعرت بنفسها تحمر خجلًا وأرادت توبيخه، ليس من شأنك اللعين. لكنها افترضت أنه الآن من شأنه. ففي النهاية، هي من عرضت القصة.

قالت وهي تلوح وجهها بامتعاض:

– «أسماء الزهور البائسة كانت فكرة بابا. ما زلت لا أفهم لماذا وافقت ماما. على أية حال، خلال تلك الرحلات تحدثنا الأفريكانية فقط. ومن هنا جاءت اللكنة.

عندما حان وقت الجامعة، قال جدي، الذي درس في كامبريدج، إنه سيدفع تكاليف دراستي هناك إذا درست القانون. وفعلت، لأنني لم أكن أملك أفكارًا أفضل.»

عائدة للمسار، سردت بثقة علاقتها بهاري، و«ليريك»، والانتقال للندن، والعمل في «هاينز دوسون». باستثناء تلك الزلة الواحدة، قدمت كل شيء كإيجاز رسمي.

عندما انتهت، سأل ماكس عما إذا كانت تريد المزيد من النبيذ. هزت رأسها، وأدارت كرسيها لتواجه الشرفة والمراعي المتموجة.

أشار ذقنها لقائمتهما:

– «دورك.»

***

كانت عائلة كاستيو قد انضمت للعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية قبل ولادة ماكس بعقود. وكما يفعل الكثير من الأجانب الذين يقررون العمل لصالح الوكالة، درس جد ماكس، أرتورو، في أمريكا: أربع سنوات في جامعة كاليفورنيا (UCLA) في أواخر الخمسينيات. وفي الولايات المتحدة شاهد أرتورو أول سباق للخيول الأصيلة في مضمار «سانتا أنيتا»، ووقع في غرام عالم الخيول. وهناك أيضًا، في الولايات المتحدة، التقى أرتورو برجل يُدعى هويت، كشّاف مواهب لصالح الـ CIA.

في البداية، لم يكن لدى أرتورو أدنى فكرة عن رب عمل هويت الحقيقي. بحلول أوائل الستينيات، كانت «الحرب القذرة» في المكسيك قد بدأت. كانت الجماعات المسلحة، والعديد منها مستلهم من الماركسية، تجند الفلاحين والمزارعين. ظهرت جماعات مسلحة في الجبال خارج «سان كريستوبال». ضايقوا المزرعة. سرقوا الأبقار. أحرقوا الحظائر. وفي عام ١٩٦٣، أطلقوا النار على عاملين

في المزرعة كانا يقومان بإصلاح سياج مكسور. شن النظام المكسيكي حملة قمعية، وتبعتها دورات من العنف والقمع. وكانت عملية تربية الماشية تعاني.

مهددًا بقطاع الطرق والإفلاس، خشي أرتورو على «سان كريستوبال»، وعرض عليه هويت الصفقة: اعمل لصالح الـ CIA، ساعدنا في مراقبة التوغل الذي يحرزه الشيوعيون في كواويلا، مقابل الأسلحة والمال. قبل أرتورو الصفقة، معتقدًا أنها ستستمر لبضع سنوات فقط.

لكن عائلة كاستيو والـ CIA، كما يبدو، كانا شريكين طبيعيين. وفي النهاية، كل شيء سيرتبط بالأرض نفسها.

كانت مساحة «سان كريستوبال» الحالية البالغة ثلاثة وعشرين ألف فدان جزءًا من مزرعة مكسيكية كانت أضخم بكثير يومًا ما: عقار مترامي الأطراف منحه الملك تشارلز الثالث ملك إسبانيا لعائلة كاستيو عام ١٧٨١. وبحلول منتصف القرن التالي، أصبحت واحدة من أكبر الحيازات الخاصة للأراضي في العالم الجديد، وتمتد، من الشمال إلى الجنوب، لأكثر من مائة ميل عبر الجبال، والمراعي، وصحراء تشيواوا المرتفعة. جعل الافتقار للثروة المعدنية الأرض مناسبة لعدد قليل من الأنشطة المربحة باستثناء تربية الماشية والخيول. والمناخ الجاف يعني أن مساحات الأرض يجب أن تكون شاسعة لدعم الحيوانات. تمامًا مثل ولايتكِ في أمريكا، في بيغ بيند، قال ماكس.

على أية حال، تقلصت المزرعة (الهاسييندا) بفعل تشريعات الاستعمار بعد استقلال المكسيك عن إسبانيا، ومرة أخرى بسبب الاستيلاء في عام ١٨٦٦. كانت معجزة صغيرة، كما شرح ماكس، أن المزرعة تقترب الآن من الستة فراسخ المربعة المسموح بها قانونًا من قبل حكومة الاستقلال، وأن «سان كريستوبال» نجت من الإصلاحات الزراعية الثورية لعام ١٩١٧. بحلول زمن جده، كانت «سان كريستوبال» مزرعة لتربية الماشية. لم تكن هناك خيول أصيلة، ولا سباقات.

قاطعته سيا بابتسامة غير سارة:

– «هل تسرد هذا عادة في الموعد الأول؟»

– «عادة لا. النساء يملن للقدوم من مونتيري. الأرض هي العائلة والعائلة هي الأرض، ومعظم النساء اللواتي كنت محظوظاً بمعرفتهن، حسناً، كن يعرفن الأرض.»

هز كتفيه بلا مبالاة وقطع قطعة كبيرة من شريحة اللحم:

– «ولكن إذا كنتِ تفضلين...»

– «لا، لا. أكمل. إنه جيد. خلفية عميقة.»

رمقته بابتسامة ساخرة.

عندما يفقد الناس اهتمامهم بالمزرعة، يفقد ماكس اهتمامه بهم عادة. كما أنه كان يمقت تلك الابتسامة المتكلفة الصغيرة. سكب لنفسه كأساً آخر من النبيذ.

أكمل وهو يأخذ رشفة سخية:

– «لكن بحلول الثمانينيات، تحول العالم النخبوي لتربية وسباق الخيول الأصيلة إلى نادٍ عالمي براق لطبقة المليارديرات. كانت الـ CIA مهتمة بالعديد من الملاك. والدي، أنجل، كان الآن جزءًا من الصلة بالـ CIA. طرح هويت السؤال عليه وعلى أرتورو: هل يقبلان رأس مال تأسيسي من الـ CIA لبدء مزرعة خيول؟ إذا فشلت – كما تفشل معظم مزارع الخيول الأصيلة – فلا بأس. لكن إذا نمت، يمكنهما بناء دليل هواتف عالمي قد تستفيد منه لانغلي. كان ذلك عام ١٩٨٢، قبل عامين من ولادة ماكس. وفي النهاية نجحا لسببين: المال والحظ. ضخت الـ CIA رأس المال التأسيسي، واستحوذت عائلة كاستيو على أفضل الأنساب في المزادات الأمريكية الكبرى. بنوا إسطبلًا من سلالات عالية الجودة. بمرور الوقت، فازوا بسباقات. ثم باعوا حقوق التزاوج لفحولهم. دارت الدائرة الفاضلة. وطوال الوقت كان أرتورو وأنجل يعملان لصالح الـ CIA.»

سأل ماكس، مع نظرة ليدها القابضة على كأس النبيذ:

– «عندما كنتِ تعيشين في تكساس، هل عملتِ في الأرض بنفسك، أم استأجرتم عمالًا؟»

قالت سيا:

– «كان لدينا مساعدة بالطبع، لكنني قمت بكل الأعمال. أصلحت خزانات المياه، مددت السياج – كان سياجنا مجرد أسلاك شائكة معلقة على خشب الأرز المعقد، ليس مثل هذا الشيء – اصطدت الذئاب والثعابين والخنازير البرية، نظفت الحظائر.»

كانت يداها بالفعل بارزتي العروق وقبضتها قوية، لكنها كانت محامية إنجليزية بلكنة أفريكانية وتساءل عما إذا كان هذا مجرد هراء.

قال:

– «بالمثل. نشأت على الأرض. كنت أستيقظ قبل الفجر للعمل في المراعي والإسطبلات. أطعمت الخيول ومشطتها، أصلحت أميالًا من السياج المكسور ودهنته أيضًا. تجمدت في مراعي منتصف الليل بانتظار ولادة المهرات. ذكرياتي الأولى هي الركض عبر الإسطبلات ومشاهدة الخيول على مضمار التدريب. علمتني أمي الركوب. هناك ملاك في هذا العمل يبقون مسافة بينهم وبين الحيوانات. عائلة كاستيو لا تفعل ذلك. نحن خيالة ومزارعون.»

نظرت سيا إلى المسبح المتوهج ومنحته تلك الابتسامة الساخرة مرة أخرى.

– «خيالة ومزارعون، هاه؟»

– «أنا رجل بسيط يا هورتينسيا.»

رفعت يدها:

– «لا. تنادني. بذلك.»

تظاهر بالاستسلام:

– «بالطبع، بالطبع. أنا آسف.»

تتبع نظرتها الغاضبة وهي تجول في الشرفة، والمسبح، والمنزل.

قالت:

– «ارتباط هذا المكان بالـ CIA ليس ما سأسميه بسيطاً.»

– «أنا أسميه كذلك. لا شيء من هذا كان ليوجد لولا الـ CIA. كانت المزرعة ستتفكك، والأرض ستباع. هذا المنزل – الذي بني معظمه بين ١٧٨٣ و١٧٨٧ – كان سيصبح فندقاً لـ "الغرينغوز" (الأمريكيين) الأثرياء و"التشيلانغوز" (سكان مكسيكو سيتي) القادمين لقضاء عطلة نهاية أسبوع في الريف. هذا المكان مشروع مشترك. العمل هو الخيول. وعندما تطلب الـ CIA المساعدة، أحاول التلبية. إنه بسيط، كما قلت.»

قالت:

– «مزرعتنا كادت تقتل أبي. قال إنها كانت تبدو كسجن.»

لم يبدُ ذلك لماكس كهراء.

– «لأن الأرض حية. سان كريستوبال تكاد تتنفس. والأشياء الحية لها مطالبها، أليس كذلك؟ عندما كنت صغيرًا شعرت أنها قد تبتلعني. أردت الدراسة في UCLA، مثل جدي. ربما الذهاب لنيويورك بعد الدراسة. لم يحدث ذلك أبدًا.»

سألت سيا:

– «متى أخبروك بأمر الـ CIA؟ أعرف أنني أخرج عن الشخصية هنا في موعدنا الصغير. مجرد فضول. تبدو محادثة معقدة.»

شرب المزيد من النبيذ.

– «تريدين القصة؟»

– «بالتأكيد.»

في ليلة عيد ميلاده السادس عشر، أخبر ماكس أمه وأباه أنه يريد الذهاب لـ لوس أنجلوس. لدهشته، لم يكن هناك شجار، ولا مقاومة. أسنان مطبقة من والده لكن بلا كلمات. في الصباح التالي أيقظه والده باكرًا. قبل الفجر كانا يركبان بصمت عبر المرعى الغربي. توقفا عند جدول لسقي الخيول. لم يسأل ماكس لماذا هما هنا. الأفواه يفضل إبقاؤها مغلقة حول الرجل العجوز.

قال والده:

– «سنقوم برحلة خلال بضعة أيام يا ماكسيميليانو. إلى واشنطن. أنت، وأنا، وجدك.»

– «لماذا؟»

– «لنتعلم.»

عندما أخرج والده السيارة المستأجرة من طريق «جي دبليو باركواي»، صرخ ماكس ليطلب منه العودة. اللافتات تقول إن هذه هي الـ CIA. خطأ يا بابا!

قال والده:

– «لدينا عمل هنا.»

نظر ماكس لجده في مقعد الراكب. وضع العجوز يده على يد ماكس وأومأ برأسه.

كانت تلك رحلة ماكس الأولى والوحيدة داخل مقر الـ CIA في لانغلي. كان هناك حفل تكريم خلف الأبواب المغلقة مع المدير. صافحه كشاف المواهب هويت، مرتديًا الشارة الخضراء لما سيعرف ماكس لاحقًا أن البطاقة الخضراء تعني أنه ليس موظفًا حكوميًا بل مُتعاقد خارجي. أعطى لجد ماكس نسخة مؤطرة من برقية

التقييم التي صاغها عن أرتورو في سبتمبر ١٩٦٣. كان الاسم المشفر لجده «JY/COWBOY» (كاوبوي). ووالده «JY/MUSTANG» (موستانج) في ١٩٧٨. قدم لهم المدير لوحة تذكارية لا يمكن إخراجها من لانغلي. من قاعة المناسبات الخالية من النوافذ نُقلوا بسرعة إلى غرفة طعام الوكالة، التي أفرغت للاحتفال. طوال اليوم شعر وكأنه يشاهد فيلمًا. كأن كل هذا غير حقيقي. عندما تمكن ماكس من التركيز خلال الحفل، شعر بالفخر، في الغالب.

لكن في الطريق للغداء، وهو يجرجر حذاءه الرسمي الواسع جدًا على رخام لانغلي، تفتحت الأكاذيب في أحشائه، وتضخم ذلك الفخر ليصبح غضبًا. لقد خانوه.

جلس هويت بجانبه في غرفة الطعام، والتي أدرك ماكس لاحقًا أنها كانت فخًا. ماكس ووالده لم يكونا متفقين. كان هويت هو الساعي المثالي لرسالة من جيلين من آل كاستيو والـ CIA. في البداية جعله الغضب مرتاحًا لتجاهل الرجل. نقر ماكس في سلطة وشريحة لحم مطهية أكثر من اللازم وحدق في الغالب في رؤوس الأشجار خارج النافذة.

قال له هويت أخيرًا بإسبانية مثالية:

– «هل غاضب من والدك وجدك العجوزين؟ أنا سأكون كذلك أيضًا. يجب أن تكون غاضبا. اتخذا خيارات منذ زمن طويل. أنت من سيعيش مع العواقب.»

مضغ ماكس شريحة اللحم ولم يقل شيئًا.

قال هويت:

– «يبدو لي أن لديك خيارين أساسيين. الهروب. أو جعل الأمر قضيتك.»

– «أخبرتهم بالفعل. سأذهب لـ UCLA مثل جدي، ثم نيويورك. لن أموت في المزرعة.»

– «لن تعيش هناك أيضًا، هاه؟ يبدو هذا كخيار الهروب.»

– «أنا لا أهرب.»

– «ماذا تسميه إذن؟»

– «الرحيل.»

– «حسنًا، أفترض أن هذا صحيح، نظريًا. لكن كلانا يعرف الفرق بين الرحيل لأنك منجذب لشيء تحبه والرحيل لأنك تكره مكان وجودك.»

– «إنه ذلك إذن. كراهية مكان وجودي.»

أخذ هويت شوكة من البطاطس المقلية وقضمة من اللحم. متجهمًا، مسح قطعة غضروف لزجة على حافة طبقه.

– «أحيانًا الطعام هنا ليس جيدًا جدًا.»

بلعها بماء غازي.

– «ماكس، عرفت جدك منذ ١٩٥٩. قابلت والدك لأول مرة عندما كان عمره ثلاثة أيام، وأنت عندما كنت في يومك الثامن أو نحو ذلك في هذا العالم. مشيت في كل فدان من سان كريستوبال، عرفتها عندما كانت لا تزال مزرعة ماشية. ركبت الخيول، عانيت تحت طبخ والدتك. ليس لأن طبخنا أفضل بكثير.»

أشار بذقنه نحو اللحم. ابتسم ماكس لتلك الملاحظة.

أكمل هويت:

– «دع رجلًا عجوزًا يخبرك بشيء لا ينبغي له قوله، شيء قاموا بتبييضه من تلك التصريحات المنمقة التي ألقيتُها عن أجدادك العجوزين قبل قليل. شيء ليعطيك فكرة عن الفرق الذي أحدثته سان كريستوبال وعائلة كاستيو في مجرى التاريخ: عشرة آلاف شخص. على الأقل. ربما أكثر.»

– «ماذا؟»

– «أعتقد أن ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص على قيد الحياة اليوم كانوا سيموتون لولا عمل عائلتك لصالح الـ CIA.»

كانت غريزة ماكس الأولى أن يعتبر هذا هراء، لكنه بدأ يستلطف هويت، رغم كل شيء، وأراد سماعه حتى النهاية.

– «منذ الثمانينيات، كانت هناك بعض الجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط التي تحب إثارة الفوضى. تفجيرات. خطف طائرات. اختطاف أفراد. فلسطينيون، ومجموعة من المجانين تسمى القاعدة. الآن، الرجال الذين يقومون بالتفجيرات والقتل عادة لا يعملون في تجارة الخيول، لكن الكثير من الرجال الأثرياء الذين يكتبون الشيكات يفعلون. ممولون في السعودية، الإمارات، مصر. سان كريستوبال تبيع وتتاجر في الخيول مع رجال في تلك الأماكن، أليس كذلك؟ والدك يخبرني أنه أدخلك أكثر في العمل. هل تدق هذه الدول جرسًا؟»

أومأ ماكس.

– «حسنًا، أتظن أنه من السهل لضباط الـ CIA الوصول لشبكات مالية سرية هناك؟ فهم أين تتدفق الأموال، ذلك النوع من الأشياء؟ في الواقع، الأمر صعب كالجحيم. نحتاج لطريق مختلف للدخول. طريق إبداعي.»

على بدلته كان ماكس يرتدي دبوسًا بشعار «سان كريستوبال». أعطاه جده إياه في ردهة الـ CIA. وكز هويت الدبوس برفق.

– «الآن، هذا إبداعي. تخيل أن سعوديًا مهتم بجولة في مزرعة خيول من الطراز الأول خارج كنتاكي. قد يُدعى لسان كريستوبال. أو قد تزوره وتمضي وقتًا في منزله، في منشأته. قد تتعرف على عائلته. أصدقائه. معتقداته. يترك هاتفًا في غرفته في سان كريستوبال ولدينا طرق للدخول. أترى إلى أين أذهب؟»

أومأ ماكس. وكز هويت الدبوس مرة أخرى.

– «يبدو لي يا ماكس، أننا عدنا لخيارنا الأصلي: اهرب أو ابق. تهرب، كما أعتقد، لتصنع شيئًا لنفسك. تبقى لتكون جزءًا من شيء أكبر من نفسك.»

بعد الغداء التقوا بعدد قليل من الضباط الذين استخدموا المعلومات التي وفرها الوالد والجد. انزوى ماكس بجانب هويت في الردهة بعدها.

سأل:

– «هل تجسس والدي وجدي على المكسيك؟»

هز هويت رأسه:

– «عندما بدأت علاقة الـ CIA بسان كريستوبال، نعم، تحدثنا مع جدك حول بعض الجماعات التي تستهدف المزرعة والحكومة. لكن منذ أوائل السبعينيات – أي ما يقرب من ثلاثين عامًا – كان لدينا اتفاق بأننا لا نطلب من والدك أو جدك تقديم معلومات استخباراتية عن المكسيك.»

– «ماذا سيحدث لو اكتشفت الحكومة المكسيكية؟»

– «لن يعجبهم ذلك.»

– «لأننا خونة.»

وضع هويت يده على كتفه. لمح ماكس والده ينظر إليهم. عندما التقت أعينهم، أشاح والده بوجهه.

قال هويت:

– «عشرة آلاف حياة. تذكر ذلك. لكن، اسمع، إليك فكرة، لا تأخذ كلامي كأمر مسلم به. جرب الأمر لفترة وانظر إن كان ما أقوله منطقيًا. رجلاك العجوزان أحضراك هنا اليوم لأنهما يريدانك داخل الخيمة. أرادا منك رؤية إرث سان كريستوبال والحصول على المعلومات التي تحتاجها ليكون القرار منطقيًا هنا» – ضغط هويت بإصبعه على جبهته – «وهنا» – ثم قلبه.

– «يجب أن أجرب كوني عميل CIA؟ وإذا لم يعجبني، أستقيل؟»

– «حسنًا، نعم، أساسًا. ما الخطأ في ذلك؟ لكن الكلمات مهمة يا ماكس. صحيح أنه عندما بدأت العمل مع جدك كان عميل (Agent) CIA. أو مصدرًا (Asset). كلاهما يصح. فعل أشياء نيابة عنا. لكنه لم يكن ضابط (Officer) CIA. لم يكن موظفًا في الـ CIA. أتفهم؟»

– «نعم.»

– «أنا أقترح شيئًا مختلفًا في حالتك. أريد أن أدخلك في العائلة، إن جاز التعبير. لدينا عقود من التاريخ مع عائلة كاستيو. نعرف عائلتك أفضل من معظم ضباطنا. لدى الـ CIA مجموعة من الناس، مثل عائلتك، يعملون لصالحنا. يمكننا تعليمك كل ما يحصل عليه ضباطنا. تتعلم العمل من الداخل والخارج.»

– «ماذا يحدث إذا قلت لا؟»

– «لا شيء. نفترق كأصدقاء. تذهب لـ UCLA ونيويورك. تصنع حياة جديدة لنفسك.»

– «وإذا قلت نعم؟»

– «إذن نبدأ.»

***

أنهى ماكس قصته، وأفرغت سيا كأس نبيذها.

قالت:

– «لو لم تضمنكِ بروكتر، لافترضت أن تلك القصة هراء.»

– «أحيانًا أتمنى لو كانت كذلك.»

وقف ماكس، ثم، بيده الممدودة، أشار لها لتتبعه، مرشداً إياها حول المسبح نحو غرفتها. لم تمنحه أي فرص الليلة. كانت تعمل، مركزة، ومتوترة. بينما كانا يمشيان، قال:

– «ذكرت بروكتر أنكِ ما زلتِ تركبين الخيل؟»

في تجربته، النساء اللواتي أحببن الخيول أحببن «سان كريستوبال» وعادة ما أحببن ركوب الخيل معه. وهو لم يحب سوى النساء اللواتي يعرفن طريقهن حول الخيول.

– «نعم، رغم أنه مر وقت طويل.»

– «غداً يمكننا الاستيقاظ باكرًا لجولة قبل سفرك، إذا أحببتِ. سيكون جيداً لكِ رؤية المزيد من المزرعة. قبل أن تتصلي بآنا.»

– «بالتأكيد.»

تمنى لها ليلة سعيدة خارج غرفتها وكان قد ابتعد بضع خطوات في الردهة عندما سمع:

– «أوه، ماكس، كدت أنسى.»

كانت القائمة في يدها عندما استدار.

همست قائلة:

– «بما أننا بدأنا المواعدة للتو، أفترض أنه ليس لديك حبيبة؟ أنا عزباء. فقط لأتأكد أنك متاح.»

– «لا حبيبات. وسيا، يا إلهي، لم أكن لأوافق على هذا لو كان لدي.»

وسمع –في رأسه– صوت حبيبته السابقة أليخاندرا تشرح أنها ستمضي قدمًا في زواجها، وأن هذه المرة مختلفة، يجب أن يكون انفصالًا نظيفاً، وحقيقيًا، لمرة

واحدة في هذا الحب الطويل والمعقد والمبتذل. وأنه بعد زفافها لا يمكنها المجيء هنا بعد الآن.

سألت سيا:

– «أي شيء كنا سنغطيه في مواعيدنا الأولى القليلة؟ الأشياء الثقيلة المعذبة. زيجات سابقة؟»

– «لا.»

تصنعت نبرة جادة:

– «أطفال؟»

– «لا.»

– «خطوبات مفسوخة؟»

وهنا سمع وقع أقدام أليخاندرا على البلاط، تقطع المسافة من السرير إلى الحمام. بشرتها الناعمة تتوهج في ضوء القمر. أغلقت الباب وغيرت ملابسها، وعندما خرجت لم تعد له بعد الآن.

قال:

– «للأسف لا.»

وبكلمة تصبحين على خير، استدار واختفى.

***

عند شروق الشمس، كانا في إحدى الحظائر. كانت سيا ممتنة للقهوة التي أحضرها ماكس، ترتشفها ببطء وهي تراقب السواس يضعون السروج واللجام على الحصانين؛ كلاهما كانتا فرسين.

قال ماكس وهو يشير إلى إحداهما:

– «فرسكِ هي "روزا". وأنا سأركب "بينيلوبي".»

وضعت سيا يدها على خطم «روزا» وهمست بكلمات رقيقة للحيوان. كانت تشعر بماكس يراقب كيف تتقبلها الفرس. الحيوانات ذكية، ونبيلة، ويمكنها استشعار الخوف أو عدم الراحة لدى نظرائها من البشر. لكن سيا أدركت – بل ورأت فعليًا في بريق عين الفرس – أن «روزا» لا تشعر بأي من ذلك الآن. أخذ السايس كوب القهوة منها، وقفزت سيا بثقة لتستقر فوق السرج.

سارا بين أسوار المراعي حتى وصلا إلى مساحة عشبية منبسطة تتفرع منها عدة دروب. أصبحت طاقة «روزا» ملموسة: هذه الفرس تريد أن تركض. حثت سيا الفرس على الهرولة لتوازي ماكس. كان واثقًا فوق صهوة جواده. مرتاحًا ومتمكنًا. ليس مثل الكثير من ملاك الخيول الذين يخافون من حيواناتهم. إذن، كان صادقًا بشأن ذلك في مونولوج الليلة الماضية.

كان الندى يتلألأ على العشب، وكل شيء يفوح برائحة الأرض والبلل، ومع ذلك كان الهواء نقيًا. كانت حياة سيا تدور في فلك مكتبها، وحفلات عشاء العملاء، والطائرات، وشقتها، وأدركت أنها نسيت مؤخرًا كم تفتقد الريف حيث السماء بلا سقف، والأرض تنبسط في كل الاتجاهات. شعور يجعلك تحس بأنك جامح، أو حر، أو مكشوف، أو كل ذلك في آن واحد. سماء مفتوحة كهذه تستحضر الكثير من المشاعر.

كان من المثير للاهتمام أنه، وخلافًا لحديث الليلة الماضية، لم يكن يسرد قصصًا. بدا وكأنه يترك الأرض تتحدث عن نفسها.

مرتين أو ثلاثًا شعرت سيا بعينيه عليها. ورغم أنها اعتادت نظرات الإعجاب من الرجال، إلا أن نظراته كانت مختلفة. لم يبدُ معجبًا بها بقدر ما كان يدرس كيف يلتحم جسدها بالفرس. كان تركيزه منصبًا الآن على الطريقة التي تضغط بها ساقاها برفق على ضلوع الفرس وكيف تستقر قدماها في الركاب. ساقاها أدوات

للفروسية. كيف هي صنعتها؟ شعرت بالارتباك – فقد مر وقت طويل على ركوبها – لكن هذا الشعور سرعان ما تحول إلى إحباط. لماذا أرادت منه أن يستحسن ركوبها؟ وعندما وصلا إلى عنق الدرب الذي يؤدي صعودًا إلى الجبال، بدا وكأنه قرأ انزعاجها.

قال:

– «إما أنكِ لستِ سعيدة بالجولة، أو بترتيبات بروكتر. والجولة، كما أشعر، كانت جميلة.»

– «هل هذا سؤال؟»

– «لا.»

لكزت فرسها لتتقدم في الدرب. كان المسار واسعًا هنا، ومساحة وفيرة بين الصخور، فلاحقها ليصبح بمحاذاتها بينما كانا يصعدان.

قال:

– «أنا أتفهم موقفك. تخشين أنني سرقت، أو أسرق، صيدك. لكن يمكنني أن أؤكد لك يا سيا، أنا لست جائعًا. ليس لدي اهتمام بالوجبة، بل بالصيد فقط. ولا أمانع الصيد معكِ. ربما نستمتع بذلك.»

شدت قبضتها على اللجام، وقالت:

– «لست جائعًا. هذا يبدو دقيقًا. أنت تحصل على مكافأة وتربيتة على الظهر من الـ CIA إذا وصلنا لكمبيوتر فاديم أو جندناه، لكنني أعيش في عالم مختلف. أنا بحاجة للترقية. لدي ملف وظيفي داخل لانغلي. عليّ ملء تقارير النفقات. عليّ أن أعيد للخزانة الأمريكية الفرق بين راتب شركة المحاماة وراتبي الحكومي (GS-13). وكل هذا وأنا أعيش في وسط لندن. أنت لا تضطر للقلق بشأن أي من هذا. أنت لا تحتاج لهذا. كان بإمكانك أن تقول لبروكتر "نو غراسياس" (لا شكرًا) ولم

تكن بروكتر لتستطيع فعل شيء لعين حيال ذلك. أنا لا أملك رفاهية الرفض. وأنا جائعة لأنني آكل ما أصطاد. ما لا أفهمه هو لماذا أنت حتى...»

فجأة سمعت حفيفًا، وانزلقت أفعى جرسية من بين الحجارة لتقطع الدرب. جفلت فرس سيا وخطفت اللجام، ولمحت سيا طيفًا لماكس وجواده يفعل المثل، منطلقًا بعيدًا في الدرب. فقدت سيا تحكمها بالفرس، لكنها كانت قد اعتلت صهوة خيل مذعور من قبل، وتعلمت من عظامها المكسورة سابقًا.

جذبت اللجام الأيمن بقوة لتجبر الفرس على الدوران في دائرة أبطأ، لتستعيد السيطرة، ثم شدت بقوة أكبر، وشتائم بذيئة بالأفريكانية تتسرب من بين شفتيها المطبقتين، تصارع حتى وصل اللجام تقريبًا لركبتها وأصبحت حركة الفرس اللولبية بطيئة وضيقة، والحمد للرب أنها لم تُرمَ من على ظهرها. صهلت الفرس ونفثت أنفاسًا حارة من منخريها، فقربت سيا فمها من أذني الفرس تشجعها وتمسح على رأسها.

عندما رفعت نظرها أخيرًا، كان ماكس لا يزال في سرجه، مسيطرًا، وكان ينظر لسيا باستحسان وكأنها اجتازت اختبارًا غير معلن.

قالت وهي توجه فرسها نحوه:

– «اللعنة.»

بصق ماكس باشمئزاز وقال:

– «بينتشي فيفوراس.» (أفاعٍ لعينة).

الفصل الثالث عشر

موسكو

نهض تشيرنوف من مكتبه ليعيد الملفات إلى خزنته. كان يقرأ منذ ما قبل الفجر بوقت طويل: مجلدات مصفرة مختومة بالشمع الأحمر منذ أيام بريجنيف، ودفاتر مجلدة من سنوات يلتسين، ووثائق طُبعت في عهد بوتين. درس ملفات أغابوف باهتمام شديد بالتفاصيل. حفظ الأسماء، والعبارات، والسنوات. قرأ التقارير التي قدمها معلمو أغابوف في مدرسة لينينغراد الثانوية رقم ٢١١. راجع القائمة الكاملة للاختبارات، والفحوصات النفسية، وتقييمات الحزب من مدرسة الـ KGB العليا في موسكو. قرأ كل تقرير قدمه أغابوف أثناء عمله كمدير محطة (rezident) في لندن. استعرض صور عائلة أغابوف. الابنة، آنا. الزوجة المتوفاة، غالينا. الصهر، فاديم. لا أحفاد. وهذا غريب.

كان لمكتب تشيرنوف نافذة تطل على ساحة لوبيانكا. في المركز وقف تمثال فيليكس دزيرجينسكي، العائد من الحديقة المورقة حيث تقاعد بعد الانهيار السوفييتي. الدماء التي أريقت في أوكرانيا استدعت بعض رموز الطرق القديمة، وكان «فيليكس الحديدي[24]»، لحسن الحظ، واحدًا منهم. كان الثوري المحترف ومؤسس «التشيكا» مغطى بغبار الثلج. مجموعة من الأطفال يجرون زلاجات دارت حوله، والآباء يتبعونهم. لكن تشيرنوف لم يكن منتبهًا، كان يدير قرص الخزنة،

---

[24] **فيليكس الحديدي Iron Felix** / لقب فيليكس دزيرجينسكي، مؤسس الشرطة السرية السوفيتية الأولى (التشيكا)، ويُعد الرمز التاريخي لقسوة جهاز الأمن وتأسيس دولة المخابرات الروسية المرعبة.

ويجمع معطفه، ويلملم أفكاره للمعركة مع أغابوف التي ستجري خلف أسوار الكرملين بعد ظهر ذلك اليوم.

هناك نظامان للمترو في موسكو. الأول، رسمي وصاخب، يتباهى بمحطات ضخمة مكدسة باللافتات الوطنية، والإفريزات ، والزجاج الملون، والتماثيل، والرخام، كل منها شهادة مضاءة بالثريات للاتحاد السوفيتي، قصر للشعب مليء بهواء دافئ وزيتي. الثاني، «D6»، غير رسمي وهادئ، يتباهى فقط بالسرية وامتياز الوصول. سبعة طوابق تحت موسكو، أحياناً بموازاة الخطوط الرسمية، وأحياناً يمر عبر أنفاق نُحتت لأول مرة في زمن إيفان الرهيب، تربط خطوط «D6» الخمسة أكثر المنشآت حساسية في موسكو: المطارات، ومخابئ كبار الشخصيات، ومدينة تحت الأرض، ومقرات الخدمات العسكرية والأمنية الروسية. بعد عقود من عدم الاستخدام، بثت الحرب حياة جديدة في عالم «D6» المحصن. الآن خطوطه تعمل. أحدها يقوم بالرحلة القصيرة من مقر الـ FSB إلى الكرملين.

انفتحت أبواب المصعد على محطة «D6» الفسيحة أسفل اللوبيانكا. صرّ حذاء تشيرنوف الأسود فوق فسيفساء لستة رجال بزي رسمي وعيون قاسية، كل منهم يحتفل بالتطور المجيد لأجهزة الأمن الروسية: «التشيكا» اللينينية، والـ NKVD والـ OGPU والـ MGB الستالينية، والـ KGB البريجنيفية، والـ FSB البوتينية. اضطروا لتخطي بعض التكرارات – فالأرضية ببساطة لم تكن كبيرة بما يكفي. استرخى تشيرنوف في أحد مقاعد القطار الجلدية الحمراء الهادئة.

أقل من خمس دقائق وكان في محطة شمال شرق الكرملين بالقرب من «ستارايا بلوشاد». صعد تشيرنوف الدرج والسلالم المتحركة. تخطى أجهزة الكشف عن المعادن لكنه ترك هاتفه المحمول في خزانة مقفلة. أظهر أوراق اعتماده الرسمية لثلاثة حراس مختلفين، جميعهن نساء صارمات، لا يبتسمن، في الأربعينيات والخمسينيات من العمر – أساس كل البيروقراطيات الروسية – واللواتي فحصنها بجدية مقابل قوائمهن.

في الطابق الثالث دخل متاهة من المكاتب تضم الإدارة الرئاسية. مثل بلاط إمبراطوري، تنتشر السلطة الروسية للخارج، في حلقات، مع مكتب بوتين في الكرملين في مركزها. رغم أنه، في خريف حكمه، غالبًا ما يكون غائبًا، مفضلًا عزبته على البحر الأسود في «إيدوكوباس». «الإوزة»، ومع ذلك، ليس غائبًا في كثير من الأحيان. «الإوزة» خالد أبدي.

استدعى «الإوزة» تشيرنوف إلى مكتبه: غرفة مقببة بجدران مكسوة بألواح خشبية ثقيلة وسقف مغطى بجص مزخرف بالزهور. طاولة طويلة مطلية بالورنيش تتوسط المكتب، محاطة بكراس منجدة بقماش ذهبي. علمان روسيان يحيطان بالمكتب الضخم الذي يشكل العرين الرسمي لسكرتير مجلس الأمن الروسي. استأذن مساعد، كان يسقي السراخس بينما يعمل «الإوزة»، وانسل خارجًا. جلس تشيرنوف إلى الطاولة للانتظار. خلع «الإوزة» نظارة القراءة ولف تقريرًا. كان وجهه متجعدًا، وأصابعه العظمية تلف وتفرد الأوراق، غارقًا في التفكير.

عاد المساعد بصينية أكواب شاي وطبق من الـ «بريانيكي». وضع الصينية على مكتب «الإوزة» وهرع خارجًا. التقط «الإوزة» العديد من بسكويت التوابل والعسل المصقول، ضاربًا بقدمه على السجاد الأزرق الوثير وهو يأكل. لعق إصبعه، ثم مسحه عبر الطبق ليجمع الفتات. وضع «بريانيك» آخر في فمه.

قال أخيرًا:

– «أخبرني كيف تظن أن أغابوف سيلعبها.»

– «سيرفض.»

– «بالطبع. ثم؟»

– «ثم يدفع.»

– «نعم. ثم؟»

– «يعتمد الأمر على كيفية دفعه.»

– «بدون دماء.»

– «إذن أعتقد أن علينا التعامل مع الابنة. هو يثق بها. سيسلم شؤونه إليها إذا تم تهميشه.»

– «جيد.»

أخذ «الإوزة» ثلاث رشفات محبَطة من مائه، ثم أشار بذقنه نحو الباب وسأل:

– «كم من الوقت ظل منتظرًا؟»

نظر تشيرنوف إلى الجدار خلف مكتب «الإوزة» – ساعة لكل منطقة زمنية من المناطق الإحدى عشرة في روسيا، بالإضافة إلى واشنطن، ولندن، وبرلين، ودمشق، وبكين.

– «ثلاث ساعات.»

عاد «الإوزة» لأوراقه:

– «لنمنحه ساعة أخرى.»

***

أجرى تشيرنوف مكالمات هاتفية ودخن سجائر في مكتب مجاور. عندما انقضت ساعة أغابوف، عاد ليجد «الإوزة» لا يزال منكبًا على الأوراق. سحب تشيرنوف كرسيًا منفردًا أمام المكتب، ذاك الذي بأرجل قصيرة ويستخدمونه للضيوف.

التقط «الإوزة» الهاتف البني الآمن ونبح في مساعده ليدخل أغابوف.

جلس تشيرنوف على الطاولة الطويلة. وبقي «الإوزة» عند المكتب.

دفع أغابوف الباب بعنف، متجاوزًا المساعد المذعور، انسل فورًا من الغرفة.
اقترب أغابوف من المكتب، ورمق الكرسي بنظرة، وظل واقفًا. كان الرجل مشحونًا: أصابعه مغروزة في كفيه، وفكه مطبق، وعرق مزرق يظهر على رقبته المبقعة.

قال:

– «تبقيني منتظرًا أربع ساعات يا إوزة؟ أيها الوغد. قد نكره بعضنا، لكن يمكننا أن نكون لائقين في هذه الأمور. كلنا مشغولون.»

شبك «الإوزة» أصابعه فوق فمه ونظر متجاوزًا أغابوف ليخاطب النباتات في الطرف البعيد من المكتب:

– «لماذا تريد رؤية رئيسنا يا أندريه؟»

– «هذا شأني.»

قال «الإوزة» باستغراب حقيقي:

– «أهو كذلك؟ يا إلهي. لمَ لا تجلس؟ بعض الشاي؟»

نقر أغابوف على ظهر الكرسي القصير الخشبي. ابتسم لـ «الإوزة».

ابتسم «الإوزة» بابتسامة ملتوية لأغابوف.

ابتسم تشيرنوف لنفسه.

قال «الإوزة»:

– «حسنًا، أنا سأشرب كوبًا.»

ظل أغابوف واقفًا بينما طلب «الإوزة» الشاي. وقف منتظرًا وصول المساعد بالشاي. وقف بينما كان «الإوزة» ينقع الشاي. وقف بينما كان «الإوزة» يحرك السكر. وقف بينما وضع «الإوزة» الملعقة ومسح يديه. وقف بينما أخذ «الإوزة» رشفاته الحذرة الأولى.

كان أغابوف لا يزال واقفاً عندما التفت إلى تشيرنوف وقال:

– «أنت كونستانتين كونستانتينوفيتش تشيرنوف، نعم؟ الذي سرق من بنكي. أهذا أنت؟»

قال تشيرنوف:

– «أنا هو. وكما أخبرت رجلك في البنك، لم تكن سرقة. كلنا ملك لروسيا، يا أندريه بوريسوفيتش. الذهب لروسيا. وروسيا ستفعل به ما يجب عليها فعله.»

ضحك أغابوف بحزن. وهز رأسه. وكذلك فعل تشيرنوف. سوى ربطة عنقه. وانتظر تدخل الرئيس. شعر بالشفقة، لا الغضب. كان أغابوف أعمى. قريبًا سيُبتر من الجسد الروسي. ولا يوجد مصير أسوأ من أن تُنتزع من حضن روسيا.

كرر «الإوزة»:

– «لماذا تريد رؤية الرئيس بوتين يا أندريه؟»

قال أغابوف:

– «لندخل في صلب الموضوع. قضيت أربع ساعات لعينة أتذلل في غرفة انتظارك. لدي أشياء لأفعلها. لذا أخبرني: ماذا تريد؟ ما هي شروط ابتزازك القادم؟»

هوى «الإوزة» بقبضته على المكتب. ترنح كوبه وانسكب. سال الشاي على أوراقه ومن الجانب. ارتفعت زوايا فم أغابوف، وكأنه قد يضحك.

قال «الإوزة» وهو يهز إصبعه:

– «ابتزاز؟ لا، لا، لا. نحن نطلب من جميع الوطنيين الروس المساهمة في صندوق الحرب. وما يغضبني، يا صديقي القديم، هو أنك تعرف كيف تسير الأمور. تعرف ذلك جيدًا. بحق السماء، أنا وأنت قمنا بدورنا لكسر الأوليغارشية القديمة قبل عشرين عامًا. والآن أنت، أنت يا أندريه بوريسوفيتش، تتصرف مثل

واحد منهم. أنت تحجب الثروة والموارد عن الدولة. إنه نداء رأس مال لعين يا أندريه، وأنت لا تجيب.»

– «ومن الذي يطلب يا إوزة؟ ليست الدولة. إنه أنت! قلت إنك بحاجة لحوض سفني. بعته لك بـ ١٠ بالمائة من قيمته...»

صرخ «الإوزة»:

– «أكاذيب! كل ذلك الصدأ لم يكن يساوي نصف ما دفعتُ.»

– «تعني ما دفعه ابنك، هاه؟ وأنت فقدت عقلك يا إوزة. كان لدينا مصرفيون ومستشارون قدروا سعره وأنت أعطيتني ١٠ بالمائة من ذلك.»

سخر «الإوزة»:

– «مصرفيون. من المفترض أن أثق بمجموعة من المصرفيين الأوروبيين ليخبروني بالسعر الصحيح؟»

ترك أغابوف الكرسي القصير، وشبك يديه عند خصره وكأنه قلق من أنه قد يكسر شيئًا إذا أفلتتا.

– «أخذت حوض السفن. وأرسلت هذا» – حرر إصبعًا ليطعن به الهواء تجاه تشيرنوف – «ليسرق ذهبي.»

وقف «الإوزة» وأشار عبر المكتب:

– «أندريه بوريسوفيتش، نُقل ذلك الذهب من بنكك كجزء من احتياط أمني. إنه في مخابئ بالشرق مع بقية احتياطينا الاستراتيجي.»

ضحك أغابوف مرة أخرى:

– «لا يزال في روسيا، هاه؟ ليس مخبأً في حسابات وهمية بلا أسماء في الكاريبي بواسطة مصرفييك ومحامييك الفاسدين؟ تخبرني أن المال في "الرودينا"، وأن "الخُزيان" وافق على النقل؟»

عدل «الإوزة» كوب الشاي:

– «هذا، يا صديقي القديم، هو بالضبط ما أخبرك به.»

حدقا في بعضهما، وأغابوف يفكر فيما إذا كان سيتحدى الكذبة.

مال «الإوزة» للأمام، راحتاه على المكتب، وعيناه بعيدتان وباردتان.

– «إليك كيف سيكون الأمر يا أندريه بوريسوفيتش. ستبيع لنا "روسيا الصناعية" بـ ٨ بالمائة من أي قيمة يقول مصرفيوك إنها تستحقها. ستبيع حصصك في "بنك روسيا" بنفس الخصم. ستبيعني ممتلكاتك العقارية – موسكو، بطرسبرغ، سوتشي. وكجزء من ذلك أريد مزرعة الخيول. ستقنع صهرك بالمشاركة في ذلك البيع. ستجلس بهدوء في مكان ما مثل ولد مطيع. هذا هو العرض. هذه هي الكلمة النهائية.»

خطا أغابوف خطوة نحو المكتب وبدأ يصرخ:

– «ما رأي "الخُزيان" في هذا يا إوزة؟ إذا وافق، لماذا تبقيني بعيدًا؟ يمكنني أن أكون في إيدوكوباس الليلة. يمكنني سماع ذلك من شفتيه!»

ضرب «الإوزة» المكتب مرة أخرى:

– «لقد كلفني بالتحصيل من "البويار[25]" (النبلاء) خاصتنا، يا أندريه بوريسوفيتش. أنت بويار! ستدفع حصتك!»

ضربة نهائية بقبضته العظمية.

[25] **البويار Boyars** / أعلى طبقة في الأرستقراطية الروسية القديمة، تمتعت بنفوذ إقطاعي وسياسي واسع بصفتها النخبة التقليدية المحيطة بالقيصر، قبل أن يتم إلغاء رتبتها وتحديث الدولة في عهد بطرس الأكبر.

قال أغابوف بصوت خافت:

– «لا يسعني إلا أن ألاحظ يا إوزة، أن لا أحد من الآخرين يتلقى عقابًا بهذه القسوة. هل أعاني لأنني أخذت غالينا منك، وجعلتها سعيدة حتى لا تقضي سنواتها تتعرض للضرب في مطبخك؟»

التوت شفتا «الإوزة» في ابتسامة بائسة. ضحك. وأشار بملعقة السكر إلى أغابوف.

– «أنت، يا صديقي القديم، أحمق.»

قرع الملعقة على الصينية الفضية.

– «هذه المحادثة، رغم بهجتها، انتهت. ما هو جوابك؟ وبحق إلهي يا رجل، أنت تعرف ما سيحدث إذا قلتَ لا. فقل نعم. قل نعم وانهِ الأمر.»

زرر أغابوف معطف بدلته، وسوى ربطة عنقه، ومرر أصابعه في شعره الأبيض.

– «غالينا كانت ستقول لا. وأنا أقول لا. الجواب هو لا يا إوزة. لا.»

وضع «الإوزة» جبهته على المكتب وتحدث إلى حذائه:

– «غالينا ميتة، أيها الأحمق العنيد. ولو لم تكن كذلك، لما تركتك تنتحر هكذا. كانت لتكون عاقلة. كانت لتسمع صوت العقل.»

قال أغابوف:

– «كما فعلتْ عندما كنت تضربها؟»

تبادلا النظرات، وعيونهما تقدح بالطاقة والعنف، حتى أشار «الإوزة» لأغابوف بالخروج ووضع نظارة القراءة ليدفن نفسه في أوراقه. لكن أغابوف لم يشهد طرده الرسمي. بعد أن قام ببعض الإيماءات البذيئة تجاه «الإوزة»، ثم

تشيرنوف، استدار وسار نحو المخرج، حيث توقف، ومنح صورة بوتين إيماءة تكاد لا تُلحظ قبل أن يغلق الباب بعنف، فانزلق قليلًا مائلًا على الجدار.

الفصل الرابع عشر

موسكو

آنا أندريفنا أغابوفا: سيا، مرحبًا، كيف حالك؟ رأيت المراسلات بين المساعدين للتو وفكرت أن أتصل بك مباشرة. المكسيك قد تكون ممكنة، نعم، لكن دعيني أؤكد تلك التواريخ مع زوجي.

هورتينسيا فوكس: هذا رائع. أعلم أنها فكرة وليدة اللحظة، ولكن عندما علمت بصلة زوجك بروس–فارم (روس–فارم) فكرت أنها فرصة مثالية لا ينبغي تفويتها.

آنا أندريفنا أغابوفا: نعم، بالطبع، بالطبع. صديقك، ماكس، هو من يدير «سان كريستوبال» التي ذكرتِها في بريدك الإلكتروني؟

هورتينسيا فوكس: نعم. ماكسيميليانو كاستيو. التقينا عن طريق صديق أقنعني بالمجيء إلى المكسيك لمساعدته في استكشاف الخيول.

آنا أندريفنا أغابوفا: تبدو «سان كريستوبال» مكانًا مميزًا جدًا من الصور.

هورتينسيا فوكس: نعم، هي كذلك. ويجب أن أقول، إنني أقضي معظم حياتي في مكاتب كئيبة ومطاعم لندن الخانقة. الهواء النقي هنا بمثابة دواء. والطقس الآن في مونتيري أفضل قليلًا مما هو عليه في لندن.

آنا أندريفنا أغابوفا: ناهيك عن موسكو أو بطرسبرغ!

[تضحك المتحدثتان]

هورتينسيا فوكس: أصبتِ تمامًا، أصبتِ تمامًا!

[يخفت الضحك]

هورتينسيا فوكس: إذن، ما قولك؟ نركب الخيل في المكسيك، ونجعلها عطلة نهاية أسبوع؟

آنا أندريفنا أغابوفا: الجداول الزمنية تمثل تحديًا دائمًا، لكنني سأرى. سأوافيكِ بالتفاصيل.

هورتينسيا فوكس: لنعقد الآمال. نتحدث قريبًا!

[تنهي آنا أندريفنا أغابوفا المكالمة الساعة ٧:٤٦ مساءً بتوقيت موسكو]

***

غاصت آنا أعمق في حوض الاستحمام داخل شقتها الفخمة والفاقدة للروح في «أوستوجينكا»، نافضة فقاعات الصابون عن أنفها، ومحدقة في القوالب الزخرفية بالسقف؛ مشاهد رعوية لأشجار، وغزال، وثعلب. تلك المرأة سبقتها بخطوة بدعوة المكسيك، وهو أمر أثار جنونها وفضولها في آن واحد. أثار جنونها لأنه أخر عملية الضغط الحتمية داخل «الرودينا». وأثار فضولها لأن «روس–فارم»، وليس المكاتب في «بطرسبرغ»، قد تكون في الواقع المكان الأفضل لممارسة ذلك الضغط. سمحت للمزيد من الماء المغلي بالتدفق إلى الحوض الذي بدأ يبرد، وأعادت تمثيل المشهد في ذهنها مرارًا وتكرارًا حتى شعرت أنها تستطيع الدفاع عن أدائها أمام والدها.

غسلت آنا الرغوة عن جسدها بدوش بارد وجففت نفسها، متسائلة عما إذا كانت تستطيع إبقاء فاديم خارج هذا الأمر. لم تظن ذلك. سيصر والدها على انضمام فاديم.

أرادت براندي للمرحلة التالية. صبت كأسًا من «لوباد»، وقلبت بلا هدف في مجلة. كان من المحزن معاملة براندي فاخر بهذا القدر من الإهمال، لكنها فعلت، متجرعة إياه بسرعة كبيرة ومنتظرة على حافة السرير حتى تتمكن من تذوق ذلك

الشعور الهوائي المنفصل عن الواقع. كانت قد ناقشت فكرة القيام بذلك شخصيًا، لكنها كانت نافذة الصبر. وسيكون أقل مراوغة واعتراضًا عبر الهاتف. لن يطرح الكثير من الأسئلة.

اتصلت بفاديم. تحولت المكالمة إلى البريد الصوتي، وهو شيء نادرًا ما تتركه. لكن هذه المرة فعلت، وقالت إن الأمر عاجل. يرجى *إعادة الاتصال*. فعل ذلك بعد عشر دقائق.

قال:

– «ما المشكلة؟»

– «من اللطيف سماع صوتك أنت أيضًا.»

تنهد.

– «ماذا يحدث؟»

– «لقد دُعينا إلى المكسيك في عطلة نهاية الأسبوع.»

ضحكة، حقيقية هذه المرة.

قالت:

– «أنا جادة. إلى سان كريستوبال. مزرعة الخيول. يبدو أن صديق المحامية هو المالك. يبدو الأمر منطقيًا للأشياء التي نعمل عليها. يا عزيزي.»

– «حاول شخص ما هناك الحصول على اجتماع معي ربما قبل عام أو نحو ذلك. لم يحدث، لكن سان كريستوبال تتمتع بسمعة طيبة. أود رؤيتها.»

– «هل يمكنك التغيب من عملك في بطرسبرغ في عطلة نهاية الأسبوع؟»

– «سأرى.»

تجولت آنا خارجة من غرفة النوم. ولأجل حبوب منع الحمل ملأت كوبًا بالماء، ضاربة به سطح الطاولة بقرقعة.

– «أنا واثقة أنها لن تمانع تركك لها لعطلة نهاية الأسبوع. ما اسمها مرة أخرى؟ تلك التي أسكنتها في شقة "كاميني" مع كلب البولدوغ الفرنسي؟»

– «أليونا تعمل في العلاقات العامة للبنك. إنها تعمل لدي.»

– «حسنًا إذن، كيف يمكنها تحمل تكلفة كاميني؟»

تجاوز الموضوع ببساطة:

– «هل الرحلة في نهاية هذا الأسبوع؟»

– «نعم. سأنضم إليك في بطرسبرغ ويمكننا الانطلاق من هناك صباح الجمعة.»

– «ماذا أيضًا؟»

– «هذا كل شيء.»

أغلق الخط.

***

كانت آنا تمتلك شقتين في موسكو. الأولى، المتربعة فوق صندوق زجاجي متلألئ في «أوستوجينكا»، كانت حيث يصل البريد، وحيث تستضيف والدها بشكل غير متكرر أو، وليساعدها الرب، فاديم. التصميم الداخلي لشقتها الوحشية كان فائق الحداثة؛ أبيض وبخطوط مستقيمة، *مثل مصحة عقلية*، هكذا فكرت. كانت هناك صورة للرئيس معلقة في الردهة.

حزمت آنا حقيبة رياضية وبدلت ملابسها إلى الجينز، وكنزة بيضاء، وحذاء «نايك» مهترئ. وضعت قبعة صوفية ولفت وشاحًا حول رقبتها. نظرت إلى نهر

موسكو يجرى أسفل نوافذها. من خزنتها أخرجت الهاتف الخلوي الذي لم يكونوا يعرفون بوجوده. طلبت الرقم. أجاب على الفور– أحبت ذلك فيه.

قال:

– «لقد افتقدناك الليلة الماضية.»

– «من أنتم؟»

– «أنا افتقدتك.»

– «جان مارتيل في العاشرة؟»

صفر قائلًا:

– «لدي عمل في الصباح.»

– «وأنا كذلك. لن أبقيك بالخارج لوقت متأخر جدًا.»

– «آمل ألا يكون ذلك صحيحًا.»

– «هل ستحضر الرقعة؟»

– «بالطبع.»

صمت قليلًا ثم قال:

– «أشعر أنني قد أفوز الليلة. أردت فقط أن تعرفي. حلمت بذلك.»

– «لن تفوز، لكن التحذير لطيف.»

أغلقت الخط. فكرت للحظة في مدى غضب والدها عندما يدرك أنها لم تتصل لتقديم تحديث. لكن لم يكن بوسعها فعل ذلك بأي طريقة أخرى.

***

داخل شقتها الثانية، أفرغت آنا حقيبتها ورفعت درجة التدفئة. طابقان من الطوب يميلان نحو المبنى المجاور، بأرضيات خشبية، وإضاءة ناعمة، ولوحة جدارية متداعية لملائكة فوق الباب. كان قصرًا لما قبل الثورة لعائلة موسكوفية منسية، بُني حين كانت بطرسبرغ العاصمة الإمبراطورية وموسكو مجرد بلدة نائية ناعسة مليئة بالثروات القديمة. الملاك كانوا سيئي الحظ: اعتُقلت العائلة ثم أعدمت رميًا بالرصاص بعد الثورة، وأصبحت الشقة مشتركة، ثم اعتُقل السكان الجدد جميعًا وأُعدموا خلال «الإرهاب الكبير».

كان هناك مدفأة حجرية كبيرة ونوافذ عالقة، إما مفتوحة أو مغلقة. المدفأة لم تستطع مجاراة البرد. وهي ترتجف، ارتدت سترة صوفية تحت كنزتها، وجددت أحمر الشفاه، وتفحصت نفسها في المرآة. عيناي أرق هنا، هكذا فكرت. دست علبة سجائر «دانهيل» في حقيبتها وخرجت.

دخنت وهي تمشي، متأنية في خطواتها، رغم أن خصلات شعرها المبللة كانت تتجمد، وأصابعها تتجمد داخل القفازات. متعرجة تحت الأقواس وعبر الساحات، تنزهت آنا في سحابة من الدخان والأنفاس المتجمدة على طول شارع «كل العطلات». كانت هذه موسكو ما بين ناطحات السحاب والشوارع الستالينية الضخمة والخرسانة البريجنيفية الوحشية. كانت مضاءة بالمصابيح ودافئة، جيبًا انتقائيًا من العالم الروسي لم يهدمه المطورون العقاريون ليحولوه إلى هراء متلألئ. كان هناك بار في الطرف الأقصى لإحدى ساحات الحي، مكان منخفض السقف يسمى «جان مارتيل».

ورغم علمها أن الأمر لم يكن حقيقيًا تمامًا، إلا أنها شعرت هنا بأنها جديدة، ونظيفة. عندما سألت آنا، وهي طفلة في التاسعة، كيف كانت الأمور تحت حكم السوفييت، أطعمها والدها بعض الأقوال الشعبية عديمة الفائدة، لكن والدتها أخبرتها بالحقيقة. قالت إن الحياة كانت لعبة أكاذيب. ندعي حب *الدولة*، أخبرت آنا، *والدولة تدعي الاهتمام بنا. نحن جميعًا مرتبطون معًا في مشروع كبير لتدمير بعضنا البعض. ولأن هذه اللعبة تدور حول الخداع، يجب أن تُلعب بشكل فردي.*

لكن يجب أن يكون هناك شيء حقيقي يا ماما، أصرت آنا. اكتفت ماما بابتسامة حزينة.

انسلت آنا إلى دفء «جان مارتيل» ووجدت لوكا جالسًا في مكانهما المعتاد. على الطاولة كانت زجاجة براندي أرميني وسكين مغروس في ليمونة. كان لوكا يرتب رقعة الشطرنج. حاول المالك إعادة خلق جو حانة للمهاجرين الروس البيض في باريس عصر الجاز: مرايا برونزية مذهبة، جداريات لمشاهد شتوية سكرية في بطرسبرغ الإمبراطورية، وشمعدانات مزخرفة بالزهور ربما انتُزعت من جدران القصور في عجلة الهروب من البلاشفة. لكن الطاولات كانت مغبرة، والمرايا مشروخة ومدخنة، والجداريات باهتة. كان المكان خاليًا باستثناء سكير عجوز وزوجين شابين عند البار.

ألقت معطفها على كرسي وجلست. صب لها لوكا براندي، وعصر فيه عصير الليمون، وناولها الكأس. للحظة تبادلت معه النظرات بابتسامة. ثم شربت.

سأل:

– «أبيض أم أسود؟»

– «أسود.»

أدار رقعة الشطرنج.

– «كما قلتُ، حلمت بأنني فزت. ربما كان حلمًا نبويًا. من يدري؟»

– «في أحلامكِ نلعب الشطرنج؟»

لكزت ساقه بمرح تحت الطاولة.

ابتسم وهو يحك شعره:

– «لدي عقل نقي يا آنيا.»

منذ زمن بعيد، في حياة باهتة الآن، لعبت آنا الشطرنج بشكل تنافسي، وكذلك لوكا. التقيا بالصدفة في متجر متعدد الأقسام، كلاهما كان يشتري رقعة. أعجبتها عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر غير المصفف وأنه يرتدي ملابس غير رسمية، على عكس موظفي بنك روسيا أو الـ SVR. لم يكن لديه عينا فاديم البنيتان وشعره الداكن. كان واثقًا، لكنه لم يشغل نفسه بتهديد هؤلاء الرجال الذين حكموا حياتها. في طابور الدفع سألها إن كانت ترغب في لعب مباراة يومًا ما. منذ ذلك الحين، لعبا المئات. وكانت آنا متفوقة بفارق كبير.

حرك بيدقه، قلدته هي. حرك بيدقًا ثانيًا، بسرعة، بجانب الأول.

طقطقت لسانها:

– «أنت متوقع.»

حركت بيدقًا بجانب حركتها الأولى في وسط الرقعة، ملتهمة مساحته. بداية هجوم مضاد عدواني.

قال وهو يفكر:

– «وأنتِ لستِ كذلك يا آنيا.»

دافع جيدًا، تبادلا الملكات، طور الفرسان بشكل مثالي، صبت هي كأسًا آخر من البراندي وراقبته وهو يتملص من عدة أفخاخ، وفي النهاية، فاز بالمباراة.

تهلل وجهه:

– «الحلم كان حقيقيًا.»

مد يده، فأخذتها، وقبّلها.

قالت وهي تمد يدها لوشاحها:

– «دراماتك مقززة. دخن معي.»

تلفعا في البرد ودخنا على مقعد متهالك خارج البار.

قال:

– «رأيت بعض الأخبار عن البنك.»

نفثت الدخان في وجهه وهي عابسة:

– «القواعد يا لوكا.»

قال وهو يلوح لإبعاد السحابة:

– «أعرف، أعرف. أردت فقط أن أقول إنني آسف إذا تورطتِ في الأمر. هذا كل شيء.»

وقفت وأطفأت سيجارة «الدانهيل» في كومة من الثلج الأسود.

– «مرة أخرى.»

مضت مباراتان أخريان في صمت. فازت بكلتيهما بسهولة. ثم جمع الزجاجة وخرجا يتسكعان في برد منتصف الليل، سائرين في شارع «كل العطلات» عبر ضوء المصابيح الباهت والضباب المتسرب من الأنابيب. مروا بامرأة شابة تسير بسرعة، ورأسها للأسفل، دون أن تلقي نظرة باتجاههم. ولو فعلت، فكرت آنا في ما كانت سترى: رجل وسيم، شعره يطل من تحت قبعته، زجاجة براندي تتأرجح داخل جيب معطفه الكبير، ويده المغطاة بالقفاز متشابكة بإحكام مع يد شقراء تحتضن رقعة شطرنج مطوية تحت ذراعها الآخر. كانا يضحكان. بدوا سعداء، كأشخاص بلا أسرار. أحبت أن تعتقد أن أسرارها لم تكن أسرارًا إذا لم يرغب هو في معرفتها.

***

قبّل عنقها وهي تضع المفتاح في الباب. التفتت لتمنحه قبلة على الشفتين وقالت: لنوقد نارًا لأن الجو سيكون باردًا بشكل لعين هنا. انفتح الباب بصرير.

فتح هو الغاز وأشعلت هي النار، وتشتت انتباههما لأنه في غرفة النوم، أثناء البحث عن البطانيات، قبل عنقها مرة أخرى وارتجفت وهو خلفها، تمد يدها لشعره، وتمرر شفتيها عبر خده. كان يقبل مؤخرة عنقها عندما دفعته بعيدًا.

قالت:

– «ركز يا لوكا، نحتاج بطانيات. أستطيع رؤية بخار أنفاسي.»

على أطراف أصابعها بحثت آنا في الرفوف بخزانة ذات رائحة عفنة بينما مرر لوكا يديه على مؤخرتها وبين ساقيها. حاول إنزال بنطال الجينز الخاص بها. ضربت يده وقالت:

– «يمكنك الوصول للأعلى هنا، أتعلم ذلك؟ سيكون أسهل.»

أطلت زاوية بطانية عليها من الرف العلوي. وبينما كانت آنا تجهد للوصول إليها، انزلق جينزها لأسفل مؤخرتها، واستُبدل بقبلات ناعمة.

قال:

– «لا أستطيع المساعدة. أنا مشتت.»

لفت البطانية حول كتفيها، وقادته من يده إلى غرفة المعيشة. أطفأ الأنوار وانزلقا من ملابسهما وإلى الأريكة في دفء النار. لفت البطانية حول نفسها مرة أخرى، ممسكة بها عند خصرها فوق ساقين عاريتين.

لمعظم حياتها، كانت آنا ممارسة متحفظة للجنس الميكانيكي. توصلت للاعتقاد بأن ذلك الجزء منها قد تلاشى في الطريق، في مكان ما بين العواطف الفاترة لصديق جامعي ربما كان مثليًا، واهتمام فاديم المتقلب، الذي تأرجح بجموح بين عدم الاهتمام البارد والرغبة الهائجة والمجنونة، المصبوغة بالعنف. لكن مع لوكا لم يكن الأمر ميكانيكيًا – كان ممتعًا وسهلًا. حتى في المرة الأولى،

اكتشفت أن شهية لوكا لها كانت شرهة، وأنه كان فضوليًا لاكتشاف ما تحب، وأنهما يمكنهما التحرك معًا بتناغم.

أمطرها لوكا بالقبلات. شدت شعره. نظر إليها.

قالت:

– «أريدك.»

ابتسم:

– «ليس بعد.»

عاد لتقبيلها حتى شدت شعره ونهض، جبهته تضغط برفق على جبهتها، يداعبها بمكر حتى ابتسمت بخبث وأمسكت بخصره وقادته للداخل. أمسكت بنظراته للحظة وقبلته. ضحك.

قالت:

– «ما المضحك؟»

– «لقد فزت. لا أستطيع التصديق.»

ذكرته:

– «واحدة من ثلاث. وتلك؟ بالكاد.»

تحرك ليجد وضعية جيدة وأخبرته عندما فعل، ممسكة بكتفيه لتقريبه.

كان يتحرك جيدًا الآن. مر وقت طويل جدًا؛ كل شيء كان مشدودًا للغاية. أرجعت آنا رأسها للخلف على مسند الذراع. راقبت ظلال اللهب ترقص على السقف، ونسيت العملية، والعالم، وعائلتها، وهي تشعر بجسدها يذوب في بركة.

***

عندما انتهيا، استلقيا عاريين فوق البطانية ليبردا. كان يفرك مؤخرة رأسها بينما يشاهدان النار.

قالت أخيرًا:

– «نم هنا.»

أطفأ النار ولف البطانية فوقهما. اندست فيه. كانا لزجين، لكنها كانت منهكة وهو برائحة جنسهما، التي أحبتها. آخر فكرة لها قبل النوم كانت أنه هزمها في الشطرنج. لقد خسرت. وبعد ذلك، أحضرته لشقتها ومارست الحب معه وكأن الأمر لا يهم. وكأنه كان آمنًا.

الفصل الخامس عشر

سان كريستوبال

«أفضلية الأرض» مسألة حاسمة في لعبة الاستخبارات. ففي عقر دارها، تستطيع وكالة التجسس زرع أجهزة تنصت وكاميرات في غرفة الهدف بالفندق، والسيطرة على حاسوبه المحمول وهاتفه، واقتحام غرفته – ربما حتى بصورة قانونية – لتفتيش ممتلكاته، وتوجيه موارد مراقبة ودعم هائلة لرصد تحركاته.

لذا، عندما هبطت برقية سرية من سيا فوكس على مكتب بروكتر في لانغلي، تفيد بأن آنا أغابوفا وفاديم كوفالتشوك وافقا على زيارة «سان كريستوبال»، دوّت صيحة حماس بروكتر لتصل إلى أقصى زوايا مملكتها في «موسكو إكس». قضاء يومين مع أحد ممولي بوتين حدث قد لا يتكرر إلا مرة واحدة في المسيرة المهنية. ستُسخّر كل الإمكانيات لهذا الغرض.

طلبت بروكتر من برادلي عبر الهاتف الأخضر الآمن:

– «أريد موافقتك على إرسال فريق وصول (Access team) لإجراء بعض التحضيرات في المزرعة. معظم المكان مجهز بأجهزة المراقبة بالطبع، لكن الروس قادمون، واعتبرني مجنونة، لكنني أعتقد أن شكوكهم ستكون أعمق قليلًا من ضيوفنا الإماراتيين الأخيرين.»

لم يكونوا بحاجة لمتخصصين في فتح الأقفال؛ ففي النهاية هذا منزل ماكس. لا، بل احتاجوا لفريق الوصول المتخصص في تجهيز الغرف لعمليات الاقتحام والتفتيش.

لم يعر معظم موظفي «سان كريستوبال» الدائمين اهتمامًا كبيرًا للضجة التي سبقت وصول المشترين الروس الجادين. صمم الشيف قوائم الطعام وأرسل الموظفين للتسوق وشراء الكحول. استدعى ماكس مدير المزرعة، والطبيب البيطري، والمدرب، ومدير التربية إلى المكتبة لمناقشة اهتمام فاديم بحصان «سموكي جو»، وهو ما نقله فريق من عملاء ومحامي «روس-فارم» إلى «سان كريستوبال». الفحل، الذي يحظى برعاية تفوق رعاية معظم البشر، لم يشهد أي تغيير في نظامه الغذائي أو التدريبي أو العناية به ولو قيد أنملة.

وسط هذه الجلبة، كان الشخص الوحيد الذي لاحظ عقد ماكس لاجتماع مباشر مع استشاري أمريكي متخصص في الصوتيات والمرئيات هو مدير تكنولوجيا المعلومات الأشعث في المزرعة، الذي تظاهر بعدم الاكتراث لهذا التجاهل، لكنه شعر بحزن عميق في داخله لاستبعاده.

قبل يومين من وصول الروس، وصلت الحبيبة الجديدة، سيا. صرت إحدى مدبرات المنزل على أسنانها عند رؤية تلك المرأة الأجنبية – العاهرة! – وهي تجر حقيبتها إلى غرفة نوم ماكسيميليانو. لو كان الإقطاعي العجوز بكامل قواه، لصفع ماكسيميليانو على وجهه وطرد هذه الفاتنة شر طردة، وذيلها بين ساقيها المفتوحتين.

***

راقبت سيا الطائرة الروسية وهي تنزلق عبر السماء الزرقاء الصافية وتقبل المدرج. خرج فاديم أولًا، بابتسامة وتلويحة في اتجاههم. لوح ماكس وسيا له بالمثل. ظهرت آنا بعده، ثم رجل لم تتعرف عليه سيا. ربما أحد مستشاري فاديم في شؤون الخيول.

تبادل الأزواج التحية بالمصافحة والقبلات على الخد. رأت سيا حفنة من صور فاديم وقرأت المعلومات القليلة عن سيرته الذاتية التي تملكها الـ CIA. لكن، وهي تقابله، وتشعر بمصافحته، ونظراته الموجهة إليها، وتستوعب شخصيته الثرثارة

وشبه السلطوية التي تبناها حول ماكس، قدمت هذه الثواني القليلة في الواقع أكثر مما يمكن لأي بحث مكتبي تقديمه.

فاديم كوفالتشوك، هكذا فكرت، يذكرها بالعديد من عملائها الأثرياء، ملفه الشخصية يسميه «نجم فريق المدرسة الثانوية». وسيم. مرتاح. وطني. سلطوي. قادر على تطوير علاقات سياسية لتعزيز مكانته. ناجح في الأعمال.

أما آنا، فبدت أبرد، ومنعزلة. من الصعب قراءتها.

هرع الموظفون إلى الطائرة لجلب الأمتعة.

قالت سيا:

– «سيدة آنا، ربما نركب معًا؟ نعطي الرجل وقتًا للتعارف؟»

أجابت آنا:

– «بالطبع.»

قفز ماكس وفاديم في سيارة الـ «جي واجن» الأمامية وانطلقا نحو المنزل. أشارت سيا لآنا لتركب سيارتها وانطلقتا مسرعتين خلف ماكس.

قالت سيا:

– «سيكون هذا ممتعًا للغاية. كيف كانت الرحلة؟»

– «سهلة. سعيدة جدًا لأننا تمكنا من القدوم.»

كانت آنا تتلفت حول المزرعة.

– «جميل،» تمتمت، «جميل للغاية.»

عندما وصل الموكب إلى مفترق الطرق الحصوي، انعطف ماكس يسارًا نحو الحظائر، بدلًا من اليمين نحو المنزل والعشاء.

– «هاه، حسنًا،» تمتمت سيا لنفسها. وتبعهما سائقهما.

علقت آنا بلامبالاة:

– «فاديم نافذ الصبر. عينه على فحل، وأعتقد أنه أوضح ذلك لصديقك.»

توقفت سيارات الـ «جي واجن» خارج حظيرة التدريب. وبسبب تغيير الخطة، كان المدرب والطبيب البيطري والسواس غائبين. كانت حظيرة الفحول طويلة، بصفين من الأكشاك ومسار يلتف حولها لتمكين الخيول من المشي بالداخل. تحدث ماكس وهم يتجولون. سرد الأنساب عن ظهر قلب. ذكر المكان المحدد في المزرعة حيث وُلد العديد منها. واقتبس أوقات السباق لـ «سموكي جو» وعدد قليل من أصحاب الأداء العالي.

دخل السايس المرتبك الحظيرة تمامًا مع وصولهم إلى كشك «سموكي جو». أخرج الحصان رأسه عبر الفتحة في الباب. وكما يوحي اسمه، كان الفحل رماديًا دخانيًا، وإن كان ببقعة بيضاء تجري أسفل أنفه، والتي مسدها ماكس برفق. لاحظت سيا أن فاديم لم يبادر بلمس الحصان، ولا حتى بابتسامة.

قاد السايس «سموكي جو» خارج الكشك نحو الحظيرة المستديرة حيث سيشاهدونه يمشي.

الخيول الأصيلة مصممة لسمتين: السرعة والقدرة على التحمل. وبناءً على تلك المقاييس، كان «سموكي جو» تحفة فنية.

وفقًا للمدرب الذي وصل للتو، كان ارتفاع الفحل ١٧,١ يد (حوالي ١٧٤ سم). بني للقوة، بأكتاف مفتولة العضلات، وعظام طويلة في ساقيه الخلفيتين العلويتين، ووركين عريضين. عنق طويل يوازن خطوته السلسة، التي كانت تبلغ خمسة وعشرين قدمًا، أقل بقدم واحد فقط من «أميريكان فاروا» وأربعة أقدام من «سكريتاريات» و«مان–أو–وار». يمكنه قطع أكثر من خمسين قدمًا في الثانية.

وبينما كان الحصان يستعرض أمامهم، رأت سيا فيه تبختر حيوان لا يرتاح للوقوف ساكنًا.

أخبر المدرب فاديم أن «سموكي جو» فاز بسباقين أصغر وسباق «ترافيرس» (ديربي منتصف الصيف في ساراتوجا)، لكنه يعاني من تمزق متوسط في الرباط المعلق بساقه الخلفية اليمنى لن يشفى. لن يتسابق «سموكي جو» مرة أخرى. حان الوقت لإحالته للتزاوج.

عندما توقف المدرب عن الحديث، تأمل فاديم الحصان للحظة، ثم بصق في الرمل.

قال:

– «قرأت كل الأوراق التي أرسلتها جماعتكم. سأعطيكم مليونين مقابله.»

لمحت سيا آنا تصر على أسنانها لهذا الخرق لآداب اللياقة.

ابتسم ماكس بسخاء:

– «أرجوك يا فاديم، دعنا لا نضجر الجميع بالتفاصيل. لنذهب للعشاء. ونعود للعمل لاحقًا، هاه؟»

نظر فاديم إلى ماكس، وتروس عقله تدور، مفكرًا في شجار. ثم ابتسم، ورفع يديه مستسلمًا.

– «بالتأكيد، حسنًا. بالطبع. لكن قبل العشاء، لنمر بأحد الحقول.»

قادوا إلى أقرب مرعى وتمشوا نحو السياج، باتجاه مجموعة من المهرات تتجمع لمشاهدة السيارات. كانت الحقول تتوهج بلون برتقالي ساطع.

انتصبت أذنا إحدى أمهات الخيل عند اقترابهم. وقفت الفرس خلف الخيول التي تجمعت حول السياج، لكنها لكزتهم هنا وهناك حتى حصلت على موقع يواجه آنا مباشرة.

راقبت سيا الفرس وهي تحافظ على التواصل البصري مع الروسية. خطت آنا خطوة أقرب، ثم أخرى. ثم مدت الفرس رأسها فوق السياج. وضعت آنا يدها برفق على خطمها. كانت همهمات محادثة ماكس وفاديم تطفو خلف سيا. عندما أدارت رأسها، رأت الطبيب البيطري وأحد المدربين يحدقون في آنا والفرس، ويهمسون لبعضهم البعض.

ثم انزلقت آنا بسلاسة إلى الجانب الآخر من السياج.

لم تستطع سيا السماع، لكنها رأت آنا تهمس للحصان، وبينما فعلت ذلك، وخزت أذنا الفرس ورفرفت اليسرى لأسفل نحو صوت آنا الهامس. أليست هذه نفس الفرس التي كان يركبها ماكس عندما أفزعت الأفعى خيولهم؟

نادت آنا على الطبيب البيطري:

– «هل لديك سكين؟»

أجاب الطبيب البيطري المذهول بنعم وناولها نصلًا صغيرًا مطويًا عبر السياج. جثت آنا على العشب.

انحنى رأس الفرس ليلتقي برأس آنا. كانت الروسية لا تزال تهمس للحصان. التفتت سيا للخلف. كان وجه ماكس مزيجًا متوترًا من الانبهار والذعر، لكنه لم يتحرك أو يسأل لماذا طلبت السكين. راقبت سيا الروسية وهي ترفع برفق القدم الأمامية اليسرى للفرس عن الأرض. استجابت الفرس، لكن بالنسبة لسيا بدا ذلك استمتاعًا أكثر منه طاعة. استخدمت آنا السكين لتنظيف وفحص الحافر. وضعت آنا قدم الفرس بيدها اليمنى. ثم بيدها اليسرى تحسست خواصر وورك الفرس.

كان الضوء يتلاشى، لكن سيا استطاعت رؤية شفاه آنا تتحرك وهي تتحدث إلى الحصان. وهي لا تزال على الأرض، تكاد تكون تحت الحيوان، تحركت آنا ليمينها ورفعت الساق الخلفية اليمنى للفرس. كانت في وضع ضعيف، ركلة حصان

مذعور تفصلها عن الكارثة: زوجة ممول بوتين يتهشم رأسها في مزرعة تديرها الـ CIA في المكسيك.

تبخرت الفكرة بسرعة، لأن آنا كانت تحت الحصان مباشرة، ترفع الساق الخلفية اليمنى لفحص الحافر وبنية العظم. وضعتها وانحنت تحت الفرس إلى جانبها الآخر. مررت آنا يديها من فخذها إلى كفلها وعبر ظهرها إلى العرف. تمركزت أمام الفرس، ونظرت للحيوان مباشرة.

ثم تراجعت آنا خطوة للخلف. خطوة كبيرة لامرأة قصيرة. وقفت ساكنة. نبح كلب عند المنزل. هدر محرك على الجانب الآخر من الحظائر. كان فاديم يتمتم. وقفت آنا والفرس في انتباه لما بدا وكأنه دقائق، رغم أنه لا بد كان ثوانٍ.

تراجعت آنا خطوة أخرى للخلف.

خطا الحصان خطوة نحوها.

تراجعت آنا للخلف. تقدم الحصان للأمام.

تقدمت آنا والحصان للأمام في نفس الوقت. سمعت سيا همسًا لكنها لم تستطع تمييز الكلمات. بدا أن آنا تداعب خطم الحصان وظنت سيا أنها لمحت الروسية تضغط بجبهتها على جبهة الحيوان. تلاشى ضوء النهار من الحقل، واختفت تفاصيل آنا والحصان معه. لكن في الظلام المتجمع رأت سيا شكلين: امرأة وحصانًا، كل منهما يقيم الآخر.

الفصل السادس عشر

سان كريستوبال

في صباح اليوم التالي، ومن مقعد السائق في شاحنة صغيرة (بيك أب) ترتج فوق الطريق، أرسل ماكس رسالة نصية إلى جهة اتصال تدعى «تشارلز»: *المجال مفتوح لعمل الصوتيات والمرئيات للأربع ساعات القادمة*. ثم راسل مدير الأمن، وكبير الخدم، ورئيس طاقم الموظفين المنزليين، وأخبرهم أن يتوقعوا وصول رجلين لتقديم عرض أسعار لتحديث النظام الصوتي الذكي. دس هاتفه في حامل الأكواب، وابتسم لفاديم الذي كان يتقلب مع اهتزازات السيارة في مقعد الراكب.

***

كان «تشارلز» في الواقع هو آرتميس بروكتر، التي اتصلت بضابط في الـ CIA يدعى باتريك، كان يجلس بصحبة رجل مكتنز الجسد يدعى بيت في مطعم خارج «سان كريستوبال». كان باتريك وبيت متخصصين من وحدة «الوصول» (Access)، طاقم الاقتحام التابع لوكالة الاستخبارات المركزية. كانت هناك فرق تركز على أقفال السيارات، وأخرى على الأقفال الميكانيكية، وعلى الكهرباء، وعلى أنظمة الأمن. كانوا يعملون انطلاقًا من مستودع سري في ضواحي العاصمة واشنطن زاره ماكس مرة واحدة، قبل أن ترسله بروكتر في عملية إلى دبي. كانت المفاتيح السحرية (الماستر كي[26]) تكسو جدارًا بأكمله في ذلك المبنى. تم تصميم

[26] **الماستر كي Master Key** / مفتاح شامل مُصمم تقنياً لفتح جميع الأقفال في مبنى أو نظام معين (كالفنادق)، حيث يمكنه فتح أي باب متجاوزاً المفتاح الفردي الخاص به.

تلك المفاتيح عبر «الهندسة العكسية» من خلال اختبار الأقفال بحثًا عن نقاط الضعف، وبعضها كان غريبًا للغاية. كان أحد الرجال قد أظهر لماكس كيفية اقتحام خزنة فندق عن طريق إدخال مشبك ورق بين الرقمين ٣ و ٤ على لوحة المفاتيح ثم ضغط الرقم ٨. كان ذلك المعادل الميكانيكي لاختراق البرمجيات.

دفع باتريك الفاتورة وقفزا في الشاحنة متجهين إلى «سان كريستوبال». عند البوابة، أعطى اسم شركة الصوتيات والمرئيات الوهمية. هذه المهمة ستكون سهلة. تصوير الغرفة، ونسخ بيانات بضع قطع من المعدات. لا وجود لتسلل أو لأعداء. بل مهمة سهلة كشربة ماء.

ويا للروعة، كان المكان فاخرًا. كان قد أنجز أعمال «السطو والاقتحام» في أكثر من قصر من قبل، لكن هذا المجمع بأكمله كان من الطراز الأول بلا منازع. علق باتريك حقيبة ظهره على كتفه وحيا كبير الخدم، الذي قال إن «الإقطاعي» (هالسيندادو) طلب منهم البدء في جناح الضيوف. وفي أثر كبير الخدم، استسلم باتريك لمتعته الآثمة: إحصاء الأشياء التي سيكون من المثير للاهتمام سرقتها (رغم أنه، بشرف الكشافة، لن يفعل ذلك أبدًا). وبينما كان كبير الخدم يرشدهم عبر الجناح قبل أن ينصرف، ملأ باتريك «سيارة الهروب» في مخيلته بلوحة زيتية لسيدة مكسيكية ثرية، وبضعة صناديق سيجار من غرفة الترطيب الكبيرة، وتمثال رخامي لحصان.

وكزه بيت سائلًا:

– «ما سر هذه الابتسامة؟»

لكن باتريك لم يُجب قط.

على الباب وداخل الغرفة، تحققا من وجود إجراءات مضادة: شريط لاصق مزدوج، شعرة، أي شيء يُترك خلفًا لإرسال إشارة للروس بأن شخصًا ما قد دخل. أجرى باتريك مسحًا للترددات اللاسلكية لمعرفة ما إذا كان فاديم أو آنا قد أخفيا كاميرا أو ميكروفونًا لمراقبة الغرفة أثناء غيابهما. لا شيء علي الاطلاق.

سحب بيت حاملًا ثلاثي القوائم قابلًا للتمديد من حقيبته وثبت كاميرته عليه. ضغط زرًا في جهاز التحكم عن بعد، فدارت الكاميرا لتلتقط صورًا للغرفة. كان هناك حاسوب محمول (لابتوب) مباشرة على المكتب. أخرج باتريك قرص النسخ الصلب[27] (imaging hard drive) من حقيبته ووصله باللابتوب. بعد دقيقتين فقط ومض الضوء الأخضر.

فتح حقيبة يد نسائية والتقط صورًا لمحتوياتها. اكتشف جهاز «آيباد»، فأخرجه برفق. سحب قرص نسخ ثانيًا من الحقيبة ووصله بالآيباد. وجدوا لابتوب آخر في حقيبة سفر آنا ونسخوا بياناته أيضًا. لا هواتف. لم يكن ذلك مفاجئًا. الناس يأخذونها معهم في كل مكان. التقطوا صورًا لكل دواء، وقصاصة ورق، وبطاقة هوية. راجعوا الصور للتأكد من أن كل شيء قد أعيد إلى مكانه الصحيح بدقة تامة.

أثناء مغادرة الغرفة، حمل بيت الأقراص في حقيبة واحدة، وواصل باتريك، حاملًا حقيبة المقاول المزيف، جولته في المنزل نحو جهاز الاستقبال في إحدى غرف المعيشة. في غرفة جلوس، لفت نظره تمثال حصان مغطى بوريقات ذهبية زائفة. تأكد من أنه وحيد، ثم فتح سحاب الحقيبة ودس التمثال بداخلها. نظر إليه للحظة.

ثم أعاد المخلوق الذهبي إلى «مرعى الماهوجني» على الطاولة الجانبية، واتجه نحو الأبواب.

***

بينما كان باتريك يتخيل نهب كنوز «سان كريستوبال» – ويسرق بيانات الروس في الواقع – كان ماكس وفاديم، ضحيتاه المفترضة والمقبلة، يقفان تحت ظل شجيرات عند حافة حقل قمح، حاملين بندقيتي صيد من طراز «بينيللي» عيار

---

[27] **تصوير القرص الصلب Hard drive imaging** / عملية تقنية لإنشاء نسخة رقمية مطابقة تماماً (بت مقابل بت) للقرص، تشمل كافة البيانات الظاهرة والمحذوفة والمخفية، لغرض التحليل الجنائي الدقيق.

٢٠. كانت الفوهات لا تزال دافئة لكنهما صمتا، رغم استمرار تدفق الحمام إلى الحقل للتغذية. كان أحد كلاب اللابرادور الصفراء التابعة لـ «سان كريستوبال» يسترجع بعض صيد الساعة الأخيرة.

قال فاديم وهو يراقب الكلب يركض عائدًا إلى الحقل قبل أن يعود سريعًا وفي فمه حمامة:

– «بخصوص موضوع الفحل.»

ربت ماكس على رأس الكلب قائلًا:

– «إيسو تشينغون (هذا رائع).»

دس الطائر في حزام الصيد حول خصره.

قال ماكس، وهو يراقب الكلب ينطلق مجددًا:

– «لقد عرضتَ مليوني دولار. منخفض جدًا يا صديقي. رسوم تزاوج سموكي جو ستبدأ بخمسة وعشرين ألفًا، وربما تصل لأربعين ألفًا، نظرًا لأدائه ونَسَبه وبعض المبيعات الحديثة التي أعرفها. لقد قمت أنت بالفعل بهذه الحسبة. وأنا كذلك. لذا، مليونا دولار عرض مرفوض يا صديقي.»

أخرج ماكس من جيبه بطاقة «سان كريستوبال» المنقوشة برمز الاستجابة السريعة (QR) وناولها لفاديم. قلبها الروسي بين يديه وقطب جبينه.

– «فاخرة. ما هذا؟»

– «الحسبة. تقرير لك. عروضنا من الفحول والأسعار والمقارنات الحديثة. أحرص على عدم خداع ضيوفي. أنا رجل صريح. وسترى أن عرضك منخفض بشكل خيالي. الأرقام تُظهِر ذلك. المليونان لا تنفع. لكن إذا كانت هذه ميزانيتك، فالتقرير سيعرض عليك بعض السلالات الممتازة التي تقع ضمن نطاقك.»

لمح ماكس وميضًا عنيفًا في عيني فاديم. تدفق الأدرينالين لديه حتى تذكر أن مخزن بندقية فاديم فارغ.

الروسي، على أية حال، كان يبدو أكثر تعقلًا من الضحية الإماراتية الأخيرة لـ «سان كريستوبال». اختفت البطاقة في جيب فاديم بعد أن أصدر نخرة اعتراف.

بينما كان فاديم يعيد التلقيم، عاد الكلب بطائر آخر، وضعه في يد ماكس، حيث انتفض الطائر محاولًا تحرير جناحه. فصل ماكس رأسه بفرقعة ودسه في الجراب.

بينما كان الكلب يأخذ استراحة لشرب الماء، ظهرت مجموعة من خمس، وربما ست حمامات فوق الأشجار على الجانب الآخر من الحقل. صوب فاديم بندقيته وأطلق النار مرتين. تابعت الطيور طيرانها، سالمة، لتهبط في الحقل.

قال:

– «اللعنة.»

وازن البندقية على كتفه ومنح ماكس ابتسامة مشوبة بتكشيرة عن أسنانه.

– «ما اسم الفرس التي التقتها زوجتي في الحقل الليلة الماضية قبل العشاء؟»

راقب ماكس الكلب يثب عبر الحقل:

– «بينيلوبي.»

سأل فاديم:

– «هل معلوماتها موجودة على هذه البطاقة أيضًا؟»

– «لا. البطاقة مقتصرة على الخيول المعروضة للبيع.»

– «سأعطيك أربعة ملايين مقابل سموكي جو إذا أضفت بينيلوبي للصفقة.»

حلقت بضع أسراب من الطيور فوق الأشجار. أومأ فاديم لماكس: دورك.

دس ماكس طلقتين في البندقية، صوب ليخطئ، وضغط الزناد. كان متفوقًا على فاديم بواحد وعشرين مقابل ستة – ولكن من كان يعد؟ – وبدأ يشك أن النتيجة غير المتكافئة كانت تحبط الروسي. الأربعة ملايين كانت تقترب أيضًا من القيمة السوقية لسموكي جو. وخلافًا لسيا، هو لن يعيد المال للعم سام.

– «أربعة ملايين لا تزال منخفضة. وبينيلوبي ليست للبيع.»

– «هيا الآن، يا عزيزي ماكس. كل شيء له ثمن.»

– «إلا ليس فرس أمي.»

– «آه، فهمت. ربما أتحدث مع والدتك إذن؟»

– «أخشى أن ذلك مستحيل. ولكن حتى لو كانت حية، بينيلوبي ستظل غير متاحة.»

نظر فاديم بعيدًا في الحقل.

– «يؤسفني سماع خبر والدتك. وأنت رجل صالح، تكرم الموتى. رغم أن رغبات آبائنا...» – طقطق بلسانه – «أحيانًا تهلك الأبناء.»

صمت فاديم قليلًا. ثم التفت مجددًا لماكس وقال:

– «أربعة ونصف مقابل سموكي جو وبينيلوبي.»

وغد لعين، فكر ماكس. دس طلقتين أخريين في البندقية. وفي تتابع سريع، أسقط طائرين من الجو. انطلق الكلب عند سماع صافرته.

قال ماكس:

– «بينيلوبي ليست للبيع.»

كان فاديم يخرج زجاجة ماء من المبرد.

– «أين النساء؟»

– «يركبن الخيل.»

– «أعني نساء الترفيه.»

حافظ ماكس على تواصله البصري؛ الرجل كان جادًا.

قال ماكس:

– «لا شيء هذه المرة.»

خلافًا للروس، فضلت الـ CIA – عمومًا – عدم استخدام بائعات الهوى خلال عملية التجنيد، حتى لو بات واضحًا الآن أن القليل منهن كن ليسرعن العملية.

نظر فاديم لماكس وكأنه مجنون. ثم ضحك.

– «عندما قلت إننا ذاهبان للصيد، ظننت أنك تعني أننا سنتسلل أيضًا لبضع ساعات للحصول على بعض المرح. ربما نلقي نظرة على تلك المهرة التي أحضرت لنا زجاجة المِسكال الليلة الماضية؟ لا يمكننا زراعة أثداء كتلك في روسيا. الجو بارد جدًا، على ما أفترض. خسارة لعينة.»

كانت الفتاة هي أنطونيا. ستكمل السادسة عشرة خلال ثلاثة أسابيع. الثامن والعشرين، إن لم يكن مخطئًا. والدتها هي مارتينا، إحدى مدبرات المنزل. والد مارتينا عينه جده سايسًا في عام ١٩٧٢.

تحطيم هذا الغرينغو[28](الأجنبي) اللعين بجولة ركوب متعرجة وسط مطر غزير – الآن، ذلك سيكون ترفيهًا. تأمل ماكس الأفق الغربي. سماء صافية، ضغط جوي مستقر خلف صدغيه، شمس. بينتشي سول (شمس لعينة). بصق.

[28] **الغرينغو Gringo** / مصطلح عامي شائع في أمريكا اللاتينية يُطلق على الأجانب، وتحديداً الأمريكيين، ويحمل غالباً نبرة ازدراء لوصفهم بالدخلاء غير المرغوب فيهم.

قال ماكس:

– «أنا عمومًا أفضل النساء على الفتيات الصغيرات.»

قال فاديم، ونبرة حادة تتسلل لصوته:

– «أوه، أنت أعمى يا صديقي! لا شيء صغير بشأن تلك الفتاة. على أية حال، تعال لـ روس-فارم وسأريك وقتًا ممتعًا.»

حدق الروسي عبر الحقل وعلقا في صمت عدائي.

قال فاديم أخيرًا:

– «أنا أستمتع بامتلاك مزرعة نوعًا ما. نشأت في بطرسبرغ، كان لعائلتي داتشا في الريف، لكن لم تكن هناك حيوانات. لم أظن أنني سأهتم بمزرعة خيول، لكنني أحظى بمتعة كبيرة.»

عاد الكلب، بعد أن أنهى مهمته. بدا أن فاديم ينتظر من ماكس سؤاله عن سبب استمتاعه بحياة الريف، لكن السؤال لم يأتِ أبدًا. كان ماكس يكتفي بحك أذني الكلب.

سعل فاديم وتابع:

– «اكتشفت أن الخيول ترينا من نحن.»

– «كيف ذلك يا صديقي؟»

– «أنت خيّال، لا بد أنك تفهم.»

– «هناك آراء كثيرة حول موضوع الخيول.»

– «إليك رأيي. "فارس بطرسبرغ" هو فحلنا الأقدم. نجعله يتزاوج مع قائمة كاملة من ثلاثمائة فرس كل موسم. يفعل ذلك خمس مرات في اليوم. وأتعلم ما أظن؟ إنه يحب وظيفته. ألاحظ هذا في لمعة صغيرة في عينيه عندما يهرول مبتعدًا.»

صفر ماكس:

– «قائمة من ثلاثمائة فرس؟ كثير جدًا. تحدث مع مدير التربية لديك. وخمس مرات في اليوم؟ كثير جدًا، حتى لفحل خصب. مرتين، ربما ثلاث. هذا أفضل له.»

تجاهل فاديم هذا:

– «الفحل قوي. لذا هو يضاجع. الأمر بتلك البساطة.»

– «هذا كل ما تعلمته عن الحصان النبيل؟»

ضرب ماكس كتف فاديم بمرح. اختلج وجه الروسي غضبًا، لكن ابتسامة ماكس كانت حقيقية، وودودة حتى. وكما يميل أن يحدث مع الزبائن من نوعية فاديم، كان التناقض المربك كافيًا لاستدراج ابتسامة حذرة ومذعنة على وجه «الغرينغو».

ناول ماكس فاديم علبة خراطيش من الشاحنة. دس الروسي اثنتين في بندقية الـ «بينيللي» ومسح السماء الفارغة. كان ينبغي أن ينتشرا على طول حافة الحقل للمزيد من الصيد، لكن ماكس أراد إبقاءه يتحدث، وتغيير الموضوع.

سأل ماكس:

– «كيف التقيت أنت وآنا؟»

أجاب فاديم:

– «زملاء دراسة، منذ الثانوية.»

أخذ رشفة طويلة من زجاجة الماء.

قال ماكس:

– «حُب شباب.»

قهقه فاديم، لكن قتامة زحفت على وجهه.

– «كم تعرف عن روسيا يا ماكس؟»

– «ما أقرأه في الصحف.»

– «حسنًا، الصحف اللعينة تكذب. نُهبت روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ونحن نعيد بناءها منذ ذلك الحين. أنا أساعد في إدارة بنك يمكّن الشركات الروسية من المنافسة والعمل في جميع أنحاء العالم. فلتذهب العقوبات الأمريكية للجحيم. والدي توفي، لكن البنك كان من صنعه. كان من الناس الذين أدركوا في التسعينيات أننا بحاجة لقيادة قوية للتغلب على مشاكلنا. وكان يعرف رجلًا يدعى فلاديمير بوتين منذ كانا صبيين ينشآن في بطرسبرغ.»

– «أنا آسف لوفاة والدك.»

أطلق فاديم النار على حمامة وحيدة، وأخطأها بشكل فظيع.

– «شكرًا لك. لقد تصالحت مع الأمر.»

– «وماذا عن بطرسبرغ؟»

– «سانت بطرسبرغ. وأفترض أنك، كمكسيكي، ستفهم النقطة التالية: روسيا في التسعينيات كانت فوضى. كان لديكم كارتيلاتكم هنا. ونحن كان لدينا مافيا الأوليغارشية تدير الأمور. والدي، كمصرفي نزيه، واجه وقتًا عصيبًا في هذه البيئة.»

بادله ماكس الحديث:

– «جدي أيضًا اضطر للدفاع عن أرضنا وعملنا خلال الحرب القذرة. ووالدي اضطر لتدبير السلام مع الكارتيلات. غياب القانون، عدو رجل الأعمال.»

صفع فاديم كتفه:

– «بالضبط. لكن في روسيا ما عناه ذلك هو أن والدي، كرجل أعمال، اضطر لإقامة تحالفات مع رجال الأمن، رجال الـ KGB السابقين. وجد والدي أندريه أغابوف. أو هل أقول اللواء أندريه أغابوف. وكان للجنرال أغابوف ابنة، آنيا. أوضح والدي توقعاته لي.»

سأل ماكس:

– «كان زواجًا مدبرًا؟»

– « على الأقل لم يقل أحد ذلك بهذه الطريقة أبدًا. لكن، بمرور الوقت، رسخ والدي في ذهني أن مكاني في العمل يتوقف على الزواج من آنيا.»

هز فاديم كتفيه.

هبت رياح، وخلت السماء فوق الحقل، حيث ذهب الحمام ليجثم في الشجيرات بانتظار هدوء النسيم.

سأل ماكس وهو يحك الكلب خلف أذنيه:

– «ما رأي آنا في ذلك؟»

– «في ماذا؟»

– «الزواج.»

جعل ذلك السؤال عيني الرجل تتفحصان ماكس من أعلى لأسفل، وكأنه يقيم فرص العنف. ثم انفرجت أساريره، وطارت حمامات من الأشجار نحو الطعم الدوار في الحقل، واقتنص فاديم اثنتين من السماء. هرع الكلب لجمعهما. دس فاديم الأولى في الجراب بحزامه. وسقطت الثانية على الأرض من فم الكلب.

تابع قائلًا:

– «مثلك، تحاول آنا طاعة والديها. حتى لو كان ما يريده والدها ليس جيدًا لها.»

خفق جناح الحمامة المثقوب بعبث وحاولت المشي. التوت شفة فاديم وهو يحدق، وعيناه مسمرتان على الطائر الجريح.

– «خمسة مقابل سموكي جو. وبينيلوبي.»

لقم فاديم خرطوشة في البندقية وبدأ يصوبها نحو الطائر المتخبط.

رفع ماكس يده:

– «لن يتبقى شيء إذا فعلت ذلك.»

خفض فاديم البندقية.

حدق ماكس فيه مباشرة وخطا خطوة داخل مساحة الروسي الشخصية.

– «أنت ضيفي. وأخبرتك أنني لا أخدع ضيوفي أو عملائي. لكن لا بد أنك تفترض أنني أخدعك في الواقع يا فاديم، وإلا لكنت توقفتَ عن تقديم عروض على الفرس. هل تود تقديم عرض آخر؟»

انفرج فم فاديم عن ابتسامة ماكرة، مشيرًا لأسفل ببندقيته.

– «كنت أود ذلك، لكن بينيلوبي ليست للبيع كما تقول يا ماكس.»

حدقا في بعضهما للحظة لزجة؛ راودت ماكس مرة أخرى الفكرة المقلقة بأن الروسي سيجد بلا شك متعة في إطلاق النار عليه. وهذه المرة كانت البندقية ملقمة.

سأل ماكس مبردًا المحادثة:

– «ما الذي يثير اهتمامك بفرس عمرها خمسة عشر عامًا وبنسب عادي على أية حال؟»

بدآ المشي نحو الحمامة.

أجاب فاديم:

– «لأن زوجتي تريدها.»

سأل ماكس:

– «ستكون الفرس هدية؟»

قال فاديم:

– «نعم. هدية لي.»

تجعد وجه ماكس في تكشيرة. ثم انحنى ليلتقط الطائر ويفصل رأسه.

الفصل السابع عشر

سان كريستوبال

عبر المزرعة (الهاسييندا)، وجهت آنا «بينيلوبي» إلى ركض خفيف مريح بينما انحدر المرعى التلي نحو مساحة منبسطة من التراب والعشب المتكتل. لم تكن هناك حاجة لطلب الفرس. فبعد الترحيب المبشر في الحقل، وصلت آنا إلى الإسطبل لتجد سايسًا يجهز «بينيلوبي» لركوبهما.

أغمضت آنا عينيها، وشعرت بالريح تضرب شعرها، ثم مالت للخلف قليلًا لتتواصل مع «بينيلوبي» كما كانت تفعل مع حصانها القديم. أبطأت «بينيلوبي» إلى الهرولة. لحقت بها سيا وسارت بمحاذاتها. كانت شمس معتدلة تسطع على وجهها، والأرض تمتد منبسطة في كل الاتجاهات. كانتا قد غطيتا الكثير من المزرعة ذلك الصباح، رغم أنهما حرصتا على تجنب مناطق صيد ماكس وفاديم.

توقفتا عند جدول لسقي الخيول. كان لدى سيا قارورة ويسكي في حقيبة سرجها. صبت بعضًا منها في كوب قابل للطي من الفولاذ المقاوم للصدأ وناولته لآنا. جلستا على الأرض في ظل شجرة جوز. أحبت آنا هذا الجانب غير المتكلف من سيا. أكواب تخييم وويسكي وخيول. نقيض ما أصبحت عليه «روس-فارم».

قالت سيا:

- «عملاؤك. هل يمكنكِ إخباري المزيد عنهم؟»

أجابت آنا:

– «بشكل عام، نعم. بلا أسماء بالطبع.»

– «بالطبع.»

– «ثلاثة مهتمون بشكل خاص بخدماتك. اثنان في الموارد الطبيعية: واحد في البوتاس، والآخر في الأخشاب. لكن هناك ثالث، وسأشارك الاسم فقط لأنه فاديم. وأنا.»

ارتشفت سيا الويسكي.

– «فهمت.»

– «أعتقد أنه بين الأواني الثلاثة هناك ربما مائة مليون نود نقلها خارج روسيا. كل عميل لديه أهداف معينة. على سبيل المثال، بارون الأخشاب حريص على الاطّلاع، من خلال مستفيدين بالطبع، على أسواق العقارات الأوروبية والأمريكية. ونحن كذلك.»

– «وهل أنتم مستعدون لبدء العملية؟» سألت سيا. «لأن هناك عددًا من الأشياء التي سأحتاجها...»

هزت آنا رأسها.

– «نقل الأموال خارج روسيا دقيق بعض الشيء في الوقت الحالي، كما لا بد أنك تعلمين. مخاطر السمعة، وكل ذلك. لقد طُلب مني، أولًا، الحصول على انطباع عنك وعن هاينز دوسون. ثم، بعد أن يرتاح الجميع، يمكننا المضي قدمًا. بمجرد حدوث ذلك، ربما في غضون بضعة أسابيع، قد تأتين لروسيا لإجراء محادثة أكثر تعمقًا؟»

ظنت آنا أنها لمحت شرارة في عيني سيا.

قالت سيا:

– «بالطبع. إذن أخبريني ما الذي تريدين معرفته.»

– «نحن نتفهم سمعة شركتك،» قالت آنا، «وأن هاينز دوسون فعالة في هيكلة الشؤون المالية للعملاء بطرق تزيد من المرونة والأمان. والسرية. إنه...»

قاطعتها سيا:

– «انظري، هذا هو الجزء الذي ما زلت محتارة بشأنه يا آنا. السرية. لأنني لا أفهم كيف عثرتم علينا. نحن لا نعلن. لا يوجد موقع إلكتروني. هاينز دوسون شركة تعتمد على التناقل الشفهي. خاصة بالنسبة الروس. إذن أي فم أخبرك عنا؟»

ابتسمت سيا بفتور فوق كوبها ثم شربت.

ساد صمت. غسلهم نسيم برائحة الغبار والقش ومسك الخيول.

***

أخذت آنا رشفة سخية من الويسكي.

– «فاسيلي بلاتونوفيتش غوسيف.»

ثم، واضعة الكوب في العشب بين ساقيها، فكرت آنا: هل سينتصر جشعك يا سيا، أم ستكشفين كذبتي؟

تمتمت سيا:

– «فاسيلي غوسيف. همم. زعيم الكرملين الكبير؟ ينادونه "الإوزة"، على ما أعتقد؟»

وقفت آنا لتمدد ساقيها.

– «سأتحدث بصراحة، متفهمة أنك لا تستطيعين كسر أسرار العملاء. لا شك أنك رأيت تقارير في الإعلام البريطاني حول عداء بين والدي و"الإوزة". دعيني أقول هذا: إنها مبالغ فيها بشكل جنوني. وتتجاهل أيضًا حقيقة أنه في موسكو من الصعب الاحتفاظ بأسرار حول المال. الوسطاء والسماسرة يتحدثون لبعضهم

البعض. سمعنا عن هاينز دوسون من بعض رجال "الإوزة" في موسكو. من هناك نشأت المراجعات المتوهجة عنك وعن شركتك.»

هذا يزيد الأمور غموضا، لم تقل سيا ذلك. *ولماذا تثيرين موضوع تقارير الإعلام؟ ولماذا تلك الوقفة الدرامية المزيفة قبل ذكر اسم "الإوزة"، أيتها الكاذبة الروسية الصغيرة*؟ أسئلة كثيرة، لكنها بدلًا من ذلك عبثت بالعشب. كانوا يراقبون ميكي ليادوف (ميكس) في لندن، استنتجت سيا. آنا تبحث عن ذهب أبيها المفقود.

ثم قالت سيا:

– «لا يمكنني التحدث عما إذا كان "الإوزة" أو أي من شركائه عملاء لـ هاينز دوسون، بالطبع.»

– «أعرف. أنا لا أطرح هذا السؤال. لكن يجب أن تفهمي أن عملائي، وبصراحة، عائلتي، يهتمون بشدة بكتمانك وقدرتك على استباق الاحتياجات الروسية. البيئة اليوم... معقدة. هناك من يودون وضع أيديهم على هذا المال، أو التشهير بوجوده خارج روسيا.»

أشارت سيا للخيول والجدول والحقل.

– «نحن وحدنا. يمكننا أن نكون صريحين مع بعضنا.»

قالت آنا:

– «أريد ضمانات بأن لديك خبرة شخصية في التعامل مع العملاء الروس يا سيا. الأغنياء. الأقوياء. رجال مثل "الإوزة"، بصبر قليل وإمبراطوريات مالية معقدة لحمايتها. أريد عنك سجلا حافلا بتقديم تلك الحماية.»

– «لديكِ مرجع لي، أليس كذلك؟» سألت سيا. «من أحد رجال "الإوزة" في موسكو. شخص مجهول الاسم.»

رفعت حاجبًا ومنحت الروسية ابتسامة ناعمة.

قالت آنا وهي تحدق فيها مباشرة:

– «لدي، لدي. لكنني أحب أن أنظر لشركائي المحتملين في العين عندما يقولونها. خلافات والدي مع "الإوزة" ليست كما تقول الصحف، لكن ليس سرًا أنهما ليسا مقربين. مصدر من رجال الـ "الإوزة" يخبرني بأنك الأفضل. هذا لا يعني كثيرا أنني أستطيع الوثوق بك.»

– «لدي خبرة واسعة في تقديم الخدمات التي تطلبينها للعملاء الروس. أعرف ما أفعله. أبقي فمي اللعين مغلقًا ولا أطرح أسئلة. أقوم بالعمل. هكذا نبني الثقة.»

– «عادل بما فيه الكفاية. لكن عملائي حريصون على تفصيل صغير واحد يا سيا. يهمهم كثيرًا. يجب أن يعرفوا ما إذا كنتِ أنتِ شخصيًا من رتبتِ هيكل "الإوزة".. نحن نعرف أن رجال أمواله يستخدمون هاينز دوسون. لكن عملائي يريدون هذا اليقين...»

التقت أعينهما. كانت عينا آنا زرقاوين باردتين؛ قاسيتين، وبعيدتين.

ثم منحت كل امرأة الأخرى ابتسامة غير لطيفة.

نقرت سيا بإصبع على أنفها. إيماءة سريعة.

صبت سيا المزيد من الويسكي ورفعت كوبها. فعلت آنا المثل. تجرعتا الويسكي، وامتطتا الخيول، وغادرتا ظل الشجيرات، متعرجات عبر المرعى.

هذه امرأة استخبارات روسية، فكرت سيا وهما تركبان باتجاه المنزل الرئيسي. لا بد أن تكون كذلك. تحاول العمل عليّ، لكنها علقت في سنارتي. إنها تلعب لعبتي.

***

بعد الغداء جلسوا في المكتبة مع مِسكال ومحادثة متكلفة حتى اقترح ماكس أن يغزو هو وفاديم غرفة السيجار الكبيرة. جمعا علبة من سيجار «غورخا» الغارق

في الكونياك وأخذاها بجانب المسبح. اختفى نصف سيجارهما قبل أن يتحدث أي منهما، ومرة أو مرتين نفض فاديم الرماد في الماء. انطلق الروسي في مونولوج غير مريح حول أسلوب قيادة رئيسه، ثم آخر حول حكمة مغامرات موسكو الخارجية الدموية. كانت عيناه تلاحقان أنطونيا الشابة وهي تحمل كومة مناشف عبر الشرفة نحو غرف الضيوف.

خرجت سيا وآنا من المكتبة للانضمام إليهم، والحمد للرب، شخص آخر يمكنه التحدث لهذا الرجل. وكأنها تقرأ عقله المتعب، بدأت سيا محادثة مع فاديم حول الطقس المكسيكي. وقف ماكس وتجول تحت قوس مكسو بالكروم. الطقس. الضغط يتزايد في صدغيه. وعبر شمس الظهيرة الساطعة رأى حافة ضبابية من السحب تظهر في الغرب، خلف الجبال مباشرة. السماء فوقهم زرقاء شاحبة. سحابة أو سحابتان رقيقتان كالكتان تنجرفان. لكن اضطرابًا كان يتربص. نفث سيلًا من الدخان نحو الأقواس واستشعر فاديم خلفه.

سأل فاديم:

– «قلت إن سموكي جو بدأ واجباته الجديدة؟ شيء عن فرسة أُرسلت من البرازيل؟»

– «نعم. وصلت الأسبوع الماضي. لدي عقد لإعادتها بمجرد أن تصبح حاملًا.»

والسيجار مطبق بين أسنانه، قال فاديم:

– «متى عرضه التالي؟»

فحص ماكس ساعته.

– «لقد رأيت كل تقييماته يا فاديم.»

ضرب فاديم كتف ماكس، مطيحًا بالسيجار من أصابعه. فرقع الجمر عندما انزلق عبر الحجر. عندما التقطه ماكس، كان فاديم يبتسم.

– «لكن يا عزيزي ماكس، قبل أن أشتري شيئًا، أحب أن أرى كيف يضاجع.»

***

انتحى ماكس جانبًا واتصل بروبرتو.

– «نعم، يا سيدي.»

– «أين أنت؟»

– «في مرعى المهرات. أتعامل مع سياج.»

– «جهز بينيلوبي وروزا في الثلاثين دقيقة القادمة. احزم سترات. لا شيء آخر. لا أسلحة.»

تخيل ماكس عيني العجوز تضيقان في اتجاه الجبال.

– «عند الممر، يا سيدي؟»

– «الشمس مشرقة.»

قهقه روبرتو.

***

قادهم ماكس إلى الحظيرة. الفرس البرازيلية كانت كستنائية تبلغ من العمر عامين تدعى «ميدنايت». أعفى السواس الفحل المسكين «المثير» (Teaser) الذي لم يعد مطلوبًا بعد أن شمشم مؤخرة ميدنايت لإثارة اهتمامها. يصفر السواس عندما تتبول المهرات، لتعليم الخيول بمرور الوقت فعل الشيء نفسه عند الإشارة. مرتدين سترات وخوذات – تحسبًا لركلها – صفروا الآن وهم يقودون ميدنايت إلى الحظيرة الضيقة المبطنة ذات الجوانب الثلاثة. كانت قد ألبست أحذية من اللباد على

ساقيها الخلفيتين لحمايتها وحماية الفحل. وُضع مشبك (twitch) على عمود طويل على أنف ميدنايت وأمسكه أحد السواس ليتمكن من السيطرة على الحيوان. قام آخر بتشحيمها، وربط ذيلها، ثم رفع ساقها الأمامية اليمنى لمنعها من الركل. هرول «سموكي جو» إلى الحظيرة.

همس فاديم لماكس:

– «اكتشفت، أن بعض الفحول، مثلنا، تكون مشاغبة وسريعة الغضب بطبيعتها في حظيرة التزاوج. لا مداعبة. اعتلاء عنيف. وعض.»

– «فقط إذا سمحت لهم. السواس هنا منتبهون. نحن لا نتسامح مع ذلك. وسموكي جو نبيل.»

عند دخول الحظيرة، داعب الفحل الفرس بأنفه.

ساعد أحد السواس في توجيه «سموكي جو»، واثنان آخران كانا يحركان الحيوانات هنا وهناك ليحدث الاقتران في مساحة خالية ولا تصطدم الخيول بجدار الحظيرة. راقب الطبيب البيطري، مثل ماكس، «سموكي جو». غطى الفحل الفرس، واضعًا ساقيه الأماميتين على ظهرها. وجه سايس الفحل بتركيز رائد فضاء يرسو بوحدات صاروخية. في بضع ثوانٍ تجمد «سموكي جو»، ورفع أنفه في الهواء، ولوى فمه للخلف. ثم دفع مرة أخرى، ورفرف ذيله لأعلى، وانتهى الأمر. صفق فاديم. رأى ماكس أن آنا وسيا كانتا غارقتين في محادثة وربما لم تشاهدا حتى. تلكأ «سموكي جو» بجانب ميدنايت في نشوة وجيزة انتهت بلا مراسم عندما قاد السواس الفحل خارج الحظيرة.

قال فاديم:

– «خمسة ملايين ومائتان لسموكي جو.»

– «ما زلت منخفضًا.»

– «لكن بحق السماء يا ماكس، لم يعض حتى!»

نظر ماكس نحو سيا وآنا. كانتا تبتسمان، لغة الجسد ودودة. تجول خارج الحظيرة مع فاديم، والنساء يتبعن خلفهم، مستمتعات بحديثهن أيًا كان. نظر ماكس للسماء. بصق. التفت لفاديم.

– «ما رأيك أن نأخذ جولة ركوب أنا وأنت؟»

***

انهمر المطر بغزارة حين تجاوزوا المراعي العشبية وحواف المسطحات الملحية ووصلوا إلى الدرب الصاعد نحو الجبال. لم يكونوا قد ارتفعوا ألف قدم عندما سددت الغيوم المتراكمة ركلة لأسنان المنطق السليم لدى فاديم، فسأل ماكس عن الطقس، وهز ماكس رأسه نافيًا، قائلًا إن المطر لن يهطل على الأرجح إلا بعد منتصف الليل بوقت طويل.

لم يكن فاديم قصير القامة، ولم تكن فرسه بارتفاع خمسة عشر يدًا، لكنه مع ذلك ألقى بكامل ثقله على الركاب الأيسر حين صعد إلى السرج، ملقيًا ساقه اليمنى بقسوة لتضرب الفرس المسكينة في ضلوعها مباشرة. والأهم من ذلك، كان يركب بخوف رجل لم يثق بحصان من قبل، وخمن ماكس أنه ربما لا يثق بكثير من البشر أيضًا. كانت قبضة الروسي على العنان إما رخوة بتهاتك أو مشدودة لخنق الفرس، وكان يجلس بتردد دون أي اتصال بالحيوان.

ثم حلت العاصفة. ارتدوا السترات من حقائب السرج، لكن المطر نزل كصفائح باردة غزت القماش وتشربت إلى ضلوعه وحذائه. والمفاوضات، هي الأخرى، جرفها المطر وطواها النسيان.

صعدوا عبر درب «الكومانشي» المتعرج القديم إلى الجبال. كانت المياه تتدفق أسفل المسار، تجري عبر الجذور المكشوفة لأشجار الصنوبر الملتوية والذبلة.

صرخ فاديم من الخلف بمسافة أقدام:

– «ماكس، بحق الجحيم، هل يمكننا النزول الليلة؟»

نادى ماكس عبر المطر:

– «الدرب يفيض بالماء. لا يمكن المخاطرة بالخيول. عشر دقائق صعودًا، هناك مطل صخري. ملجأ. سننتظر هناك حتى تمر العاصفة.»

جرت مياه الجبل بنية وحمراء تحت «بينيلوبي». مال ماكس مقتربًا من الحيوان وشكرها على القيام بهذه الرحلة الرطبة والبغيضة. عندما وصلوا إلى المطل، وضعوا الخيول بمحاذاة جدار صخري يحمي ظهورها، على الأقل، من المطر. أبقوا الخيول ملجمة، ممسكين بالأعنة لأنه لم يكن هناك شيء لربطها به. سحب فاديم هاتفه من جيبه وتجهم.

قال ماكس:

– «أخشى أنه لا توجد تغطية هنا أبدًا.»

– «هل يمكننا النزول؟»

– «الدرب تحول إلى نهر يا فاديم.»

مرت الساعات في صمت، أيديهم ملتصقة بالأعنة، وأجسادهم تتناوب بين الجلوس على السرج والوقوف بجانب الخيول. قبل الظلام، تحولت الرياح لتجلد المطر فوق الوجه الصخري. كل بضع دقائق، كان فاديم يتفقد هاتفه بلا جدوى.

بعد حلول الليل توقف المطر، وبدأ ماكس يصفر لحنًا قديمًا عن الخيول. اختفت الغيوم مع العاصفة وأصبحت السماء مرصعة بالنجوم وقمر وهاج. كان بإمكانه سماع فاديم يرتجف داخل معطفه. وبينما لا يزال ممسكًا بالعنان، غفا ماكس وهو على السرج.

استيقظ ماكس على رفرفة الحمام وأول خيط من خيوط الشمس يكسر العتمة فوق الحافة الشرقية للمزرعة. كان فاديم جالسًا في السرج، وعيناه مغلقتان. كانت معاطفهم تقطر ندى. وكز ماكس كتف فاديم. انفتحت عينا الروسي، وللمرة الأولى لم يرَ ماكس فيهما رغبة في القتال. لعدة دقائق جلسا في صمت.

قال ماكس:

– «الرقم هو ستة فاصل اثنين (مليون). وهو نهائي. لا أستطيع التفاوض بأقل من أسعار السوق. يجب أن تفهم هذا. هذا هو السعر. هذا هو السعر لآل كوفالتشوك. ولآل مكتوم. ولرجال كنتاكي. ولأي شخص آخر. إنه عادل، ويستند إلى رسوم التزاوج التي ستجنيها من بنيته ونسبه وسجله في السباقات. أنت تعرف هذا. أو رجالك يعرفون. آمل أن نتمكن من إتمام العمل. ولكن إن لم نستطع، فلا ضغينة. لقد أجهدتك في الركوب وتركتك مبللًا الليلة الماضية، وعن ذلك أقدم أعمق اعتذاراتي. الطقس يتقلب بجنون في هذه الجبال وأحيانًا يكون من المستحيل التنبؤ به.»

استدار ماكس وبصق.

مد فاديم يده ببطء، مميلًا رأسه لأسفل في إيماءة طفيفة.

– «إذن ستة فاصل اثنين.»

سحبه ماكس لينهض. وتصافحا.

قال ماكس:

– «حسنًا، لنعد أدراجنا. لنحتفل.»

***

بينما كانوا يركبون عائدين، شعر ماكس بدم «بينيلوبي» يلتوي ويتدفق عبر الأوردة والشرايين في ظهرها. كانت أنفاسها تندفع بقوة عبر منخريها، وتقوس

رأسها من جانب لآخر لأنها تريد أن تركض. قطعوا الامتداد العشبي الأخير للمرعى الغربي بركض سريع بالخيول، وكان ماكس حريصًا على إبقاء فاديم دائمًا خلفه ببضعة أطوال، واستحث «بينيلوبي» على الركض كما كانت تفعل والدته، مائلًا للأمام، وضاربًا بكعبه ضربات خفيفة كالمطرقة في قبو ضلوع الفرس.

وصلوا إلى المزرعة بحلول وقت الغداء.

كانت آنا وسيا تقرآن بجانب المسبح. حمل ماكس وفاديم معهما رائحة الطين والعرق والخيل وربما ما هو أسوأ. كان فاديم قد أوقفهم في طريق العودة لقضاء حاجته. كانت عينا فاديم ملتهبتين ومحاطتين بهالات حمراء. شعره أشعث ودهني. لقد ارتجف من البرد حتى نام على ظهر حصان. ودفع مبالغ طائلة مقابل الفحل اللعين.

أغلقت سيا كتابها ووقفت لتحية ماكس بقبلة على الخد. كانت شفتيها ناعمتين ودافئتين على بشرته.

بدت عينا آنا تلمعان بتسلية. لم تقف لتحية زوجها. قلبت الصفحة التالية بحركة مسرحية ودفنت عينيها في كتابها.

قالت:

– «يا عزيزي، ماذا حدث؟ تبدو معتل الصحة.»

كان فم فاديم قد انفتح للتو ليرد، حين رأى ماكس والده يخرج من غرفة المعيشة، عبر الأبواب المفتوحة، وإلى الفناء. كان يرتدي بنطالًا رياضيًا رماديًا وقميصًا أزرق واسعًا وصندلًا مع جوارب.

بدا فاديم مرتبكًا.

قال ماكس بالإسبانية:

– «بابا؟ هل أنت بخير؟»

قال والده مريض الزهايمر بإسبانية سريعة ومتلاحقة، وهو يشير بإصبعه نحو فاديم:

– «هل أنت "مسؤول التشغيل" (Handler) الجديد الخاص بي؟ لأنني لا أعرفك. وأنت لا تبدو كرجل من الـ CIA.»

الفصل الثامن عشر

سان كريستوبال

لم تتمكن سيا من التقاط سوى نتف من الإسبانية، لكنها كانت متأكدة أنها سمعت كلمة «سي آي إيه» (CIA).

كان والد ماكس المصاب بالخرف، والذي خرج للتو تائهًا من كوخ الضيافة، يخلط بين الهدف الروسي ومسؤول تشغيله الجديد. جالت عينا سيا بين الروسيين لترى إن كان أحدهما قد فهم.

صرخ والد ماكس في وجه ابنه بالإسبانية:

– «أين هويت؟ أريد التحدث إلى هويت.»

كان ماكس واقفًا الآن، يحاول اقتياد والده قسرًا للعودة إلى غرفة المعيشة. هز العجوز إصبعه في وجه فاديم. كان ماكس يتمتم ويهمس له بالإسبانية.

أخيرًا، دفع ماكس والده إلى داخل المنزل بعيدًا عن الأنظار. سمعت سيا المزيد من الصراخ، وأبوابًا تُصفق. كان فم آنا مفتوحًا. يا للهول. هل فهمت الإسبانية؟

عندما عاد إلى الفناء، ذهب ماكس إلى البار وسكب لنفسه كأسًا سخيًا من المِسكال.

للحظة طويلة وقف الأربعة في صمت. درست سيا آنا وفاديم. إذا كانا قد فهما الإسبانية، هل سيقولان شيئًا؟ كسر ماكس الصمت.

– «والدي مصاب بالزهايمر. يعيش في منزل داخل الممتلكات. لقد شرد قليلًا.»

تجرع ماكس المِسكال.

اللعنة، فكرت سيا. هل نسف مجنون عمليتي؟

ذهب فاديم إلى خزانة، وأنزل كأسًا، وضربه بقوة على البار الحجري. صفع كتف ماكس وابتسم وهو يملأ كأسه. لكن الابتسامة لم تفعل الكثير لإخفاء حقيقة أن وجه فاديم كان قاسيًا. ولم يكن ذلك بسبب ما قاله والد ماكس. لا، لم تعتقد أن أيًا من الروسيين قد فهم. كان شيئًا آخر. العيون لم تكن عارفة. كانت غاضبة. ماذا حدث في الدرب الجبلي؟

صاح فاديم، رافعًا كأسه:

– «نحن هنا لنشرب معك يا ماكس. نخب والدك. ومزرعتك.»

وهذا ما فعلوه. في الظهيرة استراحوا. ثم شربوا زجاجتي نبيذ على العشاء. ومِسكال في حظيرة الفحول بعد ذلك، حيث انفصلت آنا وسيا لتدخين سيجارة وهما ثملتان.

عندما عادتا إلى الحظيرة، كان ماكس وفاديم مستندين بصمت إلى كشك «سموكي جو». بدا ماكس مرتاحًا لرؤيتها. وبينما كان الأربعة يخرجون متمشين، توقف فاديم. عاد ليحدق في الحصان. كان يقبض على الباب، وينقل ثقله من قدم لأخرى.

صاح قائلًا:

– «حسنًا يا ماكس كاستيو، اتفقنا على سموكي جو. وسموكي جو فقط. لكن هناك شيء آخر. شرط. أنتما الاثنان تأتيان لزيارة روس-فارم. نحن الأربعة، سنجعلها عطلة نهاية أسبوع. تعاليا لزيارتنا في بطرسبرغ. في أقرب وقت.»

مد فاديم يدًا مرتعشة.

تقدم ماكس، ونظر ليد فاديم للحظة، ثم صافحه.

فتحوا زجاجة شمبانيا احتفالية وتحدثوا قرب المسبح، وموسيقى راقصة ترتد من مكبرات الصوت المخبأة تحت الأقواس الحجرية. ودع ماكس وسيا الروس، الذين كانوا سيغادرون في الصباح الباكر. نادت سيا وهم ذاهبون لغرفتهم: أراكم في سانت بطرسبرغ. في رأسها بدأت سيا صياغة البرقيات، مفكرة في طرق لزيادة احتمالات موافقة لانغلي على ذلك. أتمّ ماكس صفقة الحصان اللعين أثناء رحلتهم، ونجحوا في استغلال الروس، لكن بالحكم على النظرات الحاقدة أثناء نخبه، فإن احتمالات تطوير علاقة أعمق مع فاديم كوفالتشوك كانت منخفضة. أما بالنسبة لآنا، فاعتقدت سيا أن هناك زوايا ممكنة. حقيقة أن دعوة فاديم شملت ماكس أضافت طبقة من التعقيد. ففي النهاية، زيارة فردية كانت لتكون أبسط، وأنظف. لكن سيا يمكنها العمل مع هذا الترتيب. كان هناك طريق للمضي قدمًا. وبعد يومين مع روسيين ذوي قيمة عالية، كان ذلك معجزة بحد ذاته.

في غرفة النوم سقطت دفاعات سيا وانهارت، منهكة، على السرير. كانت تنزلق للنوم عندما سمعت ماكس يهمس بحدة: انهضي، انهضي، هيا يا سيا. قومي. كان حاسوبه المحمول مفتوحًا، ورغم أن سيا كانت نصف مستيقظة فقط، وعقلها مشوش من كحول الليلة، إلا أنها سمعت التوتر في صوته واستيقظت فورًا منتبهة. كان برنامج المراقبة مفتوحًا على حاسوبه. كان بإمكانهم رؤية جناح الضيوف بأكمله: الدوش، الحمام، الخزائن، منطقة الجلوس، وجهات نظر متعددة للسرير والمكتب المدمج.

كانت آنا وفاديم يقفان على جانبي السرير يتحدثان بروسية هامسة. أنتج برنامج المراقبة ترجمة فورية ركيكة.

آنا: ماذا تعني بذلك؟

فاديم: أعني أن هناك شيئًا غير طبيعي بخصوصهم. هل هما عاشقان؟ لا يبدوان حميمين بالنسبة لي. يبدوان كشريكي عمل.

آنا: أنت غاضب منه بسبب الصفقة؟

فاديم: أوه، هذه نقود لعب، من يهتم بكل ذلك؟

آنا: أنت تهتم يا فاديم.

[صمت لمدة خمس ثوانٍ]

فاديم: أهتم بأنني قضيت الليل تتجمد خصيتي في الجبال اللعينة.

آنا: ربما هي طامعة في ماله؟

فاديم: لو كان الأمر كذلك، لكان ينبغي أن يمارس الجنس معها بجنون في المقابل، يمارس الجنس مع أي شيء يحبه، في الواقع. وهل تظنين أن هذا يحدث؟ بالأمس عندما ذهبنا للصيد لم تكن هناك فتيات. دائمًا ما تكون هناك فتيات في رحلات كهذه. دائمًا. وعندما ألقيت نكتة – نكتة يا آنيا – عن الخادمة، تجهم. وبخني، هذا اللعين.

آنا: كف عن هذا الهراء.

فاديم: أنا جاد. أنتِ غير قادرة على الحميمية، فكيف يمكنك أن تري؟

آنا: آه نعم، أنت عاشق عظيم، نسيت يا فاديم. حساس جدًا.

فاديم: اغربي عن وجهي يا آنيا.

دخلت آنا الحمام. كبّر ماكس لقطتين من لقطات المراقبة. في الأولى، كانت آنا تجلس على المرحاض بملابسها الداخلية. ثم نهضت، وخطفت حبة دواء من حقيبة مستحضرات التجميل، وابتلعتها. أظهرت اللقطة الأخرى فاديم جالسًا على حافة السرير. بدا وكأن كلًا منهما ينتظر نفاد صبر الآخر.

بعد بضع دقائق، دخل فاديم الحمام، ودفع آنا جانبًا، وشرع يعبث في حقيبة مستحضراتها. رفع زجاجة حبوب وصرخ بكلمات في وجه آنا، التي هزت رأسها

نفيًا. كانت اللغة الروسية الآن أسرع بكثير من قدرة البرنامج على الترجمة. بدأ فاديم بإفراغ الحبوب في حوض الغسيل. هجمت آنا عليه، فدفعها بعيدًا مرة أخرى. وعاقدةً ذراعيها على صدرها، استندت إلى الجدار لتراقبه وهو يواصل فعلته. ثم قذف بحقيبة الزينة إلى داخل كابينة الاستحمام. تناثرت المزيد من الحبوب، وفرشاة أسنان، وعلب مساحيق التجميل والفرش فوق الأرضية الرخامية.

كان ماكس يهز رأسه. زحلق الحاسوب المحمول تجاه سيا وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

عادت سيا بنظرها إلى الشاشة. كانت آنا تراقب نوبة غضب فاديم بوجهٍ خالٍ من التعبير. وللحظة، تبادلا نظرات حادة في صمت، ثم نطق فاديم بضع كلمات أخرى أفلتت من برنامج الترجمة. كان يشير إليها، ويومئ بأصابعه بحركة تعني: دوري حول نفسك. قالت آنا شيئًا، لكن الكلمات كانت أخف من أن تلتقطها سيا حتى عبر الميكروفونات. بدا الأمر لسيا حينها، وكأن الروسية تحدث نفسها.

ثم أنزلت آنا ملابسها الداخلية واستدارت نحو الجدار.

أغلقت سيا الحاسوب وانضمت إلى ماكس عند النافذة. همست:

– «ماذا فعلت له هناك في الخارج؟»

– «لا شيء لا يستحقه.»

ثم قبض ماكس على شمعدان، وانهال به ضربًا على الطاولة مرة، ومرتين، وثلاثًا. بينتشي روسو، سمعته يهمس بفحيح غاضب وهو يفعل ذلك. روسي لعين. بعدها، عدّل ماكس الشمعدان المخدوش بهدوء، وجمع بعض الشظايا من الطاولة، وألقاها في سلة المهملات.

جلس على حافة السرير لينزع حذاءه، متمتمًا بشتائم بالإسبانية.

قالت سيا:

– «خذ السرير أنت الليلة. أنت بحاجة للراحة.»

وضع الحذاء جانبًا وبدأ يفك أزرار قميصه.

– «فقط إذا انضممتِ إليّ. الأريكة غير مريحة. لن ترتاحي. السرير كبير، ونومي هادئ.»

وسريع أيضًا، فكرت سيا، وهي تعود من الحمام لتسمع أنفاس النوم البطيئة والثقيلة بعد لحظات فقط من انزلاقه تحت الغطاء.

صعدت سيا إلى السرير، لكن النوم جافاها. كان عقلها، وغضبها المتصاعد، مثبتًا على ما يحدث في غرفة نوم الروسيين. لم يقطع حبل أفكارها إلا التفاتها لتنظر إلى ماكس. وكما وعد، كان نومه عميقًا ووادعًا، وجسده ساكنًا تمامًا على جنبه، وانزعجت لأنها لاحظت ذلك، أو فكرت فيه أصلًا، أو فكرت في محنة آنا، إن شئنا الدقة؛ لأن ذلك يوحي بشيء آخر غير اللامبالاة، واللامبالاة كانت حتى الآن صديقة جيدة ومخلصة لسيا فوكس.

الفصل التاسع عشر

سان كريستوبال/ لانغلي

في صباح اليوم التالي استيقظت سيا لتشاهد طائرة الروس وهي تصعد وتتلاشى في الضباب. كان ماكس لا يزال نائمًا في السرير. أخذت كوب قهوة من المطبخ وذهبت للفناء لتداوي صداع ما بعد السكر. كان الضباب قد زحف كثيفاً، والصباح باردًا ورطبًا. أحكمت رداءها حول جسدها اتقاءً للقشعريرة. تجهمت مدبرة منزل عجوز في وجه سيا حين مرت بها. انضم إليها ماكس، ولبرهة جلسا في صمت. كانت غيوم رمادية بلون الأردواز تدور حول قمة التل.

قال أخيرًا:

– «لنمشِ.»

سلكا دربًا رطبًا من المنزل إلى مرعى غربي، متعرجًا على طول الجدول نفسه حيث سقت سيا وآنا الخيول.

قالت سيا أخيرًا حين توقفا:

– «لدينا شيء يمكن العمل عليه. آنا ليست ضحية عابسة. هناك شيء يجري تحت قناعها مباشرة. إنها عنيدة، مستعدة للمخاطرة. لا أحد يعلم ما قد تفعله إذا قُدم لها مخرج. ومستحيل بحق الجحيم أن يكون فاديم هو المدخل لها. ألديك أي اعتراض علي كلامي؟»

توقفا لمشاهدة مجموعة صغيرة من «خنازير جافلينا» – خنازير برية – تنبش حول رقعة من اليوكا على جانب التل.

قال:

– «لا اعتراض. وأنتِ من لديكِ المدخل لآنا يا سيا. لديكِ سبب لزيارتها في روسيا. هذا نجح. فقط ليس بالطريقة التي توقعناها.»

راقبا الخنازير لفترة أطول، ثم عادا أدراجهما. كانت سيا تتذوق طعم الأدرينالين اللذيذ. آنا كانت فريستهم للمطاردة. والآن سيا، وليس ماكس، ستكون الصياد الرئيسي.

في المنزل، صاغت سيا البرقية. جلسا على الأرائك في الكنيسة القديمة. شاهد ماكس سباقات الخيل بينما كانت تكتب.

لخصت سيا الأحداث الرئيسية لليومين الماضيين، مختارة ترك الأجزاء المتعلقة بوالد ماكس وكسر شوكة فاديم في الجولة الجبلية. العميل المتخفي الجيد يعرف ما يجب استبعاده. أنهت ببيان أنهم مستعدون لقبول الدعوة للانضمام لآنا وفاديم في روسيا. صاغت كل كلمة وعبارة لتوجيه «موسكو إكس» وقيادة الطابق السابع[29] نحو تلك النتيجة. ورغم أن نائب المدير برادلي كان يُعتبر عنيفاً في العمليات، إلا أن أكثر ما خشيته سيا هو تردد الطابق السابع والتقاعس اللاحق. الكثير من العمليات الجيدة وُلدت ميتة بفضل مماطلة لانغلي، رغم أن هذه، التي تدار عبر «موسكو إكس»، تمتعت بفرصة أفضل بالنظر لسمعة بروكتر في دهس البيروقراطية.

[29] **الطابق السابع The Seventh Floor** / هو المقر الفعلي لمكتب مدير الوكالة وكبار مساعديه في مبنى "لانغلي". تُستخدم العبارة كنايةً عن مركز السلطة العليا والبيروقراطية التي تصدر القرارات المصيرية.

عندما قرأت وأعادت قراءة البرقية النهائية، عرضتها على ماكس، الذي أومأ وقال «أرسلي» قبل أن يعود للسباقات. أرسلتها، ثم أخرجت هاتفها لتفرز صندوق بريدها المتضخم. فالمحاماة كانت وظيفتها النهارية الحقيقية، في النهاية.

رتب ماكس لطائرة «سان كريستوبال» لنقلها لمكسيكو سيتي لرحلة العودة إلى لندن. قادها للمدرج، وركن على حافة الساحة.

سألت سيا، ناظرة للطائرة:

– «إذا أعطتنا لانغلي الضوء الأخضر، هل ستشارك؟»

– «علي حسب.»

– «على حسب ماذا؟»

– «على حسب ما تطلبه بروكتر.»

– «عادل بما فيه الكفاية. لكن ماذا تريد أنت أن تفعل؟ يمكنك الرفض، أليس كذلك؟ لديك خيارات.»

هز كتفيه.

– «قد أرغب في رؤية روس-فارم.»

حمل ماكس حقيبتها صعودًا على السلم وإلى الطائرة. ودعا بعضهما بعناق. ثم قبّل وجنتيها وبدأ يمشي في الممر.

قالت:

– «مهلًا.»

استدار ماكس.

سألت:

– «لماذا قد ترغب في رؤية روس–فارم؟»

ابتسم.

– «سميها فضولًا مهنيًا.»

التقطت سيا عينيه تفصحان عن فضوله للحظة عابرة وهو يستدير لينزل الدرج قبل أن يختفي. ذلك الفضول، فكرت وهي تأخذ مقعدها، حسنًا، كان أي شيء إلا مهنيًا.

***

نظرًا لوجهات نظر رئيستهم المؤيدة للسرية والخداع، قام أتباع بروكتر في «موسكو إكس» طقسيًا بـ «غسل» (eyewash) كل قصاصة استخبارات أنشأها عملاؤها المتخفون. الغسل، أو إخفاء المصدر الحقيقي للاستخبارات، حتى لمن هم داخل الـ CIA، كان أحد أجزاء الوظيفة المفضلة لبروكتر. وهكذا زورت التقارير من المكسيك حتى لا يتمكن ضباط الـ CIA الآخرون من تتبعها إلى سيا، أو ماكس، أو فاديم، أو آنا.

في وقت مبكر من المساء، بعد يومين من انتهاء عملية «سان كريستوبال»، زارت بروكتر جورج، أحد كبار تقنييها، وهو رجل هزيل سرقته من وكالة الأمن القومي (NSA). جلس جورج في مكتب بلا نوافذ داخل مساحات «موسكو إكس». سطع الضوء من حوالي اثني عشر طرفية كمبيوتر لينعكس عن بشرة جورج الشاحبة. حتى الآن، الأخبار حول العملية التقنية لم تكن واعدة.

استرخت بروكتر في كرسي بجانب جورج. التقني، الذي كان ينقر في قطعة «بوب تارت» توت أزرق غير مطبوخة، لم يلاحظ الرئيسة حتى ضغطت على كتفه.

قالت:

– «الأخبار يا جورجي. الأخبار.»

قال، بشيء من الاستمتاع، مما أغضب بروكتر:

– «لا توجد أخبار جيدة.»

نفض فتات الـ «بوب تارت» عن يديه.

– «أخبرني.»

– «لابتوب فاديم وجهازه اللوحي للاستخدام الشخصي. أنا متأكد من ذلك. لا بريد عمل. لا اتصالات بشبكة بنك روسيا. إنه لا يدير حتى أعمال روس-فارم. لا شيء. فاديم، كما أعتقد، يتبنى بروتوكولات أمنية كما نفعل نحن عندما نذهب للخارج لفترات قصيرة. لا شيء متعلق بالعمل يسافر معه.»

– «أي شيء مثير للاهتمام على الجانب الشخصي؟»

– «فقط صوره، حبيباته، رسائل إلكترونية لحبيباته. هناك جبل من ذلك على جهازه.»

– «أجريت عمليات بحث عن الفتيات؟»

– «فعلت على اللواتي تمكنت من تحديدهن. حتى الآن، لا أستطيع العثور على أي واحدة ذات أهمية داخل روسيا. إنهن مساعدات، عاهرات، موظفات متاجر. لا واحدة لديها زوج غاضب وذو نفوذ، إذا كان هذا ما تسعين إليه.»

– «إنه بالضبط ما أسعى إليه.»

– «إذن هذه هي الأخبار السيئة. لا أستطيع إجراء حتى استطلاع أساسي لشبكة بنك روسيا، ناهيك عن الوصول لأي من معلومات بوتين المالية التي قد تتغذين عليها.»

تمتمت بروكتر:

– «اللعنة. ونفس الشيء بالنسبة لآنا؟»

– «نفس الشيء. استخدام شخصي. احتياطي. ليس الكثير من الصور. سجل بحثها على الويب ضئيل. طراز اللابتوب عمره ثلاث سنوات، لكن إذا أخبرتني أنها تملكه لأسبوع فقط، لصدقتك. تعرفين ماذا يقولون عن الأشخاص الذين يسافرون بتكنولوجيا كهذه، أليس كذلك؟»

– «لا أحب الألغاز يا جورجي. إنها تثير أعصابي.»

– «معني أنك تسافر بأجهزة كهذه إما أنك إرهابي، أو مجرم، أو ضابط استخبارات.»

دون استئذان، سحبت بروكتر قطعة الـ «بوب تارت» الثانية لجورج من غلاف القصدير وأخذت قضمة كبيرة.

– «آمل أن تكون آنا واحدة فقط من هؤلاء يا جورجي، لكن رهاني على اثنتين.»

***

بعد ثلاثة أيام من مغادرة الروس لـ «سان كريستوبال»، نسجت «موسكو إكس» سجادة من عشر برقيات عملياتية «مغسولة» وزعتها بروكتر على شخصين فقط في لانغلي: المدير، الذي ربما لن يقرأها، وإد برادلي، الذي سيفعل بالتأكيد. لم تثق بروكتر بالكثير من الناس. وإد هو فقط من سيقرر ما إذا كانوا سيواصلون المغامرة في القلعة الروسية.

بعد ساعة واحدة من إرسالها للبرقيات، تلقت بروكتر استدعاء لمكتب برادلي.

قال بعد أن جلست تحت قاذفات الصواريخ التي تزين المكتب:

– «آرتميس، لدي خمس دقائق. ثم أحتاج للتحضير لعشاء مع رئيس لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ (SSCI).»

قالت بروكتر:

– «ووف.»

نقر على أنفه، ثم قال:

– «بصرف النظر عن التقارير "المغسولة" التافهة، دعيني أتأكد أنني فهمت هذا بشكل صحيح. لدينا دعوة مفتوحة لضباطنا لزيارة مزرعة خيول أصيلة خارج سانت بطرسبرغ يديرها أحد رجال أموال بوتين.»

– «هذا صحيح.»

– «وزوجته مصرفية. اتصلت بأحد عملائنا المتخفين (NOCs) في لندن.»

– «نعم.»

– «والتتبعات كلها سليمة؟»

– «صحيح.»

– «وعميلتك المتخفية تظن أن لديهم فرصة تجنيد معها؟»

– «نعم. زوجها، رجل الأموال، يؤذيها. بشكل غير مفاجئ هم لا يطيقان بعضهما. سيمثل ذلك العرضُ دفعة بها.»

– «هل يمكننا المماطلة وإخراجهم من روسيا مرة أخرى؟»

– «أشك في ذلك.»

– «لماذا لا؟»

– «لأن ضارب زوجته الروسي اشترى حصاناً بستة ملايين دولار من أحد ضباطي وأصر وهو مخمور أن تكون زيارتهم القادمة في بطرسبرغ.»

ضحك برادلي.

– «يعني، يا آرتميس، يا إلهي.»

حاولت بروكتر الابتسام. كانت تتدرب.

قلب برادلي بضع أوراق.

– «العميلة المتخفية... اسمها الحقيقي هورتينسيا فوكس.»

قاطعته بروكتر:

– «سيا. تنادى بـ سيا. تغضب عندما تستخدم اسمها المسيحي.»

– «حسنًا، سيا تتلقى مكالمة من عضو في عشيرة أغابوف بعد أسابيع من مساعدة منافسهم "الإوزة" في تخزين المال. صدفة؟»

– «بالتأكيد لا. نحن نُشفط داخل مرحاض سياسات القوة في الكرملين. وهو أمر جيد، لأننا ليس لدينا أي فكرة عما يسد الأنابيب، باستثناء القرف، بالطبع. لكنني أعتقد أن آنا تريد شيئًا من سيا. ومن هنا تواصلت معها.»

– «كانت تريد منها معلومات عما فعلته بمال "الإوزة"؟»

– «على الأرجح. يجب أن يكون كذلك، أليس كذلك؟ الروس يراهنون على أن سيا جشعة، ومستعدة لجمع الرسوم بالعمل للجانبين.»

– «صحيح. يا للهول.» شبك برادلي يديه فوق أنفه. «ما هو السيناريو الأفضل في هذا من وجهة نظر الجمع (جمع المعلومات)؟»

– «أفضل زاوية هنا هي أن آنا يمكنها مساعدتنا في الوصول للتكنولوجيا التي يستخدمها فاديم لإدارة أموال بوتين. فشلنا في هذا في المكسيك، للأسف. الأجهزة التي أحضرها الروس كانت نظيفة. معدات يمكن التخلص منها. لا شيء مفيد عليها.»

شبك برادلي يديه خلف رأسه ومال بكرسيه للخلف بصرير.

– «ما هو أسوأ سيناريو؟»

– «إذا كانت هذه المدعوة آنا ضابطة استخبارات، فهي ربما تريد سيا داخل روسيا لتعمل عليها. الأمور يمكن أن تسوء دائمًا.»

– «والروس يفتقرون للصبر أحيانًا ـ في هذه المسائل.»

– «صحيح، صحيح، صحيح بشكل لعين. لكن سيا تشك أن هذه الكتكوتة الروسية، آنا، مختلفة. سيا تظن أن آنا قد تحاول تجنيدها، تعتبر نفسها فنانة، الهراء المعتاد. رهاني هو أن آنا ـ في الـ SVR أو تعمل لصالحهم، رغم أنه ليس لدينا دليل قاطع بعد. والدها كان مدير المديرية الأولى ـ في الـ KGB، مع ذلك. سيكون الأمر منطقيًا.»

تابع برادلي:

– «قراءة ما بين السطور هنا، هل أنا محق ـ في الاعتقاد بأنك إذا أرسلتهم لسانت بطرسبرغ، فستجعلين الروس يعتقدون أنهم يجمعون معلومات استخباراتية من محاميتنا؟»

– «ستكون الطريقة الوحيدة لضمان سلامتها. يجب أن تكون مخولة بتسريب معلومات عن أموال "الإوزة". هذا لا بد أن يكون ما تريده آنا. وإذا كان كذلك، نعطيها إياه. لمَ لا بحق الجحيم؟»

– «هذا حبل مشدود للغاية يا آرتميس.»

– «أعرف. إنها الوظيفة يا رجل.»

– «سيا لديها الصلة التجارية بآنا،» قال برادلي. «لماذا إرسال كاستيو أصلًا؟ ليست هذه الطريقة التي نستخدمه بها عادة.»

– «أعتقد أن طلب انضمام ماكس سيكون مفيدًا. يمكنه إشغال فاديم، ومنح سيا مساحة. يمكنه هو وفاديم القيام بأمور الخيول معًا. أيًا كانت هذه الأمور. واللعنة يا إد، أنا وأنت نعلم أن ماكس يمكنه الرفض. على الأرجح سيرفض. أسوأ

سيناريو، تذهب سيا وحدها. أفضل سيناريو، أن يوافق علي الذهاب معها كمساعد (wingman)، يعطيها بعض الغطاء.»

أخفت ابتسامة برادلي الدافئة الشكوك التي شعرت بأنها تخيم على الغرفة. الرجل ربما أظهر تلك الأسنان لمائة عميل لعين على مر السنين – النوع الدائم الخضرة من الابتسامات العملياتية التي ينتهي بك المطاف بجلبها من الميدان وتوجيهها لأصدقائك وعائلتك.

قال:

– «في هذه اللحظة، بلا هراء، ما هي احتمالات أن تجند سيا الروسية؟ ضعي رقمًا. جاريني.»

– «سبعة بالمائة. الاحتمالات العادية مع الروس أقل من واحد بالمائة. لدينا الكثير لنعمل به هنا.»

نفس الابتسامة.

– «يبدو مرتفعًا. هل تريد سيا الدخول؟ من الواضح أنها تفهم المخاطر.»

– «إنها عميلة متخفية من الطراز الأول. صلبة كالمسامير لكنها تريد إثبات ذلك أيضًا. لديها عقدة أدرينالين. بحق الجحيم، نعم، تريد الدخول. تريد رأسًا روسيًا.»

– «وأفترض أنكِ تعتقدين أن علينا إرسالهم؟ حتى مع المخاطر وفرصة نجاح سبعة بالمائة؟»

نظفت بروكتر أسنانها وفكرت في ذلك.

– «بالتأكيد. وظيفتنا هي الجمع، وليس الجلوس على مؤخراتنا والأمل في أن تتهادى المعلومات الاستخباراتية الحلوة في طريقنا. لا نحصل على الكثير من

العضات لضباط استخبارات روس هذه الأيام. إذا كان لدينا فرصة لصيد روسي فاخر، يجب أن نغتنمها.»

نقر برادلي بمفاصل أصابعه على الطاولة ووقف ليرتدي سترته.

– «أبلغي تحياتي للضباط. وأدخليهم إلى بطرسبرغ بأسرع ما يمكن.»

الفصل العشرون

«روس-فارم» / موسكو

كان عالم آنا يدور حول رجل واحد: فلاديمير بوتين. لكن آنا لم تقابله سوى ثلاث مرات. مرتان في حفلات عيد ميلاد والد فاديم، ومرة في احتفال «يوم رجال الأمن» (التشيكا) في ياسينيفو. ولم يستغرق أي لقاء أكثر من بضع ثوانٍ.

توصلت آنا إلى التفكير في بوتين باعتباره أشياء كثيرة في آن واحد. قيصر كلي القدرة، ومدير كئيب لنظام جامح أكبر منه. طاغية ومصدر لتوجيهات غامضة، تُتجاهل أحيانًا. معبود جماهيري جديد ومصدر خاص للنكات والضحك المكتوم. في النهاية، هو رجل المديرية الثانية في الـ KGB سابقًا. بلطجي، وليس فنانًا مثل رجال الاستخبارات الخارجية المحيطين بوالدها. فكرت قائلة: مثله مثل بقية بلادنا، هو فخور وغير واثق، عدواني ومثير للشفقة، قوي وضعيف. كان كل شيء، وكان لا شيء، لكن كان عليك أحيانًا أن تكترث لأمره لأنه مركز العالم الروسي.
«الخزيان». السيد. بدونه لا يدور العالم. وجوده لم يكن خيرًا ولا شرًا. كان موجودًا وحسب.

ولكن الآن، غياب «السيد» هو ما يحرك المد والجزر. شاركها والدها مقتطفات من نقاشه البغيض مع «الإوزة» في الكرملين. ما يكفي لتفهم آنا أن «الإوزة»، في الوقت الراهن، يملك الحرية لطحنهم حتى الفتات.

تمشت آنا الآن مع والدها وفاديم داخل إسطبلات «روس-فارم». الإسطبلات، كما اتفقوا جميعًا، كانت مكانًا غير محتمل أن يزرع فيه «الإوزة» أجهزة تنصت.

كان والدها يمرر يديه في شعره ويعض شفته، يرمش كثيرًا، ممتلئًا بطاقة هوسية انتقلت عدواها للخيول المسكينة التي راحت تصهل من داخل أكشاكها. استندت آنا إلى باب كشك وراقبت فاديم وهو يكشط الروث عن حذائه الإيطالي الخفيف.

قال والدها لآنا وهو يغلق باب الإسطبل:

– «كم من الوقت بقي؟»

قالت آنا:

– «سيكونان هنا خلال خمسة أيام. ربما أسبوع. ما زلنا نعمل لتأكيد جدول صديقها واستلام الحصان.»

نخر والدها.

قال فاديم:

– «ربما نحاول العمل على الصديق المكسيكي، الخيّال. سيكون لدينا فرص أكثر للضغط عليه.»

شد البابا مفاصل أصابعه بضع مرات بتوتر سريع:

– «المحامية تملك معلومات "الإوزة" المالية. من يهتم لأمر المكسيكي بحق الجحيم؟»

كان فاديم يركل القش بحذائه:

– «أنا أهتم. أريد مزرعته. أرض ممتازة وسلالات رائعة. استثمار قوي. وأنبوب لنقل الأموال من وإلى أمريكا الشمالية.»

كان محقًا في تلك النقطة، وكرهت الاعتراف بذلك.

قال والدها وهو يضرب صدر فاديم بسخط:

– «أوه بحق السماء. لا تتشتت. نحتاج للفضائح عن "الإوزة"، كل شيء آخر لا طائل منه. أتفهم؟»

كان فاديم ينظر للقش. يكنسه حوله بعبوس.

قال والدها:

– «فاديم يوريفيتش، أخبرني أنك ستدع زوجتك تدير هذه العملية. أخبرني أنك تفهم.»

أطبق فاديم فكيه ونظر بعيدًا.

– «أفهم يا أندريه بوريسوفيتش.»

– «جيد. الآن يا آنا، ما الخطة؟»

أخبرتهما.

عندما انتهت، راقبت فاديم ينسحب بعبوس من الإسطبلات، متذرعًا بكذبة عن عمل عاجل في «بطرسبرغ».

التفت والدها إليها:

– «خطة جيدة يا عزيزتي. خطة جيدة.»

وضع يده على خطم حصان فضولي، يطل برأسه من الكشك.

– «كان هناك تفصيل برز لي في تقريرك من المكسيك. كتبتِ أن المحامية والمكسيكي يتفاعلان قليلًا بشكل...»

أكملت:

– «ميكانيكي. نعم، كتبت ذلك.»

سأل:

– «ولماذا تظنين ذلك؟»

– «عدة أسباب. قد يكون كاثوليكيًا متزمتًا. لم يكن هناك الكثير من التواصل الجسدي بينهم في المكسيك، على سبيل المثال. لم يبدوا... مألوفين لبعضهما. أو ربما يستخدم كل منهما الآخر للظهور أمام الناس.»

– «المكسيكي رجل جذاب؟»

– «وسيم. ثري ووسيم. والمحامية جذابة أيضًا.»

قال والدها:

– «شخصان جذابان في علاقة جديدة يجب أن يتصرفا بطريقة معينة.»

قام بإشارة بذيئة بيده، ثم أكمل وقد خفت صوته:

– «إذا بدت الأمور غريبة...»

حشر يديه في جيبيها وأشار بذقنه نحو المنزل:

– «في غضون أيام قليلة ستكون لديك فرصة أخرى لفحصهما.»

قالت آنا:

– «سيكون لدينا عيون في كل مكان بالمزرعة، سنعرف ما إذا كانا يتصرفان كما ينبغي.»

قامت بنفس الإشارة البذيئة، فضحك والدها.

***

كان فراء الثعلب ناعمًا على ظهر آنا العاري ومؤخرتها وساقيها. كانت متوردة ومتعرقة لقربها من النار، والظلال تلعق الجص المتقشر في السقف. عاد لوكا من المطبخ بعبوتين من البيرة. أخذت خاصتها مع قبلة. شربا وهما يراقبان اللهب.

سأل:

– «كيف كانت رحلتك؟»

– «جيدة.»

– «ماذا فعلتِ؟»

– «ليس الكثير.»

أمالت رأسها على كتفه وشربت بعض البيرة. كان يحب شرب البيرة بعد الجنس والآن هي تفعل ذلك أيضًا.

قال:

– «أعتقد أنني أقع في حبك يا آنيا.»

اعتدلت جالسة بضحكة ودفعت كتفه:

– «اخرس يا لوكا.»

أخذت رشفة كبيرة من البيرة.

ضحك، ثم اظلم وجهه وهز رأسه.

– «أنا غارق جدًا.» كان صوته موزونًا، وحازمًا.

– «عما تتحدث؟» شعرت بالجلد حول عينيها يرتعش.

أشار حوله:

– «أفكر في هذا المكان طوال الوقت. أفكر فيكِ. أقلق عليكِ.»

هذا الهراء.

– «أستطيع الاعتناء بنفسي.»

– «أعرف، ليس هذا ما عنيته.»

وقفت لتواجهه:

– «إذن ماذا عنيت يا لوكا؟ هاه؟»

– «أعني يا آنيا، أنني رأيت كل بوصة من جسدك الجميل الليلة وهناك كدمات صغيرة حيث لا ينبغي أن تكون. و...»

ضربت بالزجاجة على رف المدفأة.

همست بفحيح:

– «توقف. لدينا قواعد يا لوكا، أم نسيت؟ لا نتحدث عن هذه الأشياء هنا. هذا المكان منفصل، إنه مقدس. لا نتحدث عن حياتي الأخرى البائسة، ولا زوجي القذر، ولا أي من ذلك. ما خطبك بحق الجحيم الليلة؟»

وقفت فوقه، واضعة يديها في خاصرتها. أخذ رشفة محبطة من البيرة، وضع الزجاجة، ووقف ليواجهها.

– «أعرف أنكِ لا تحبينه، لكنني لا أحب أن يشاركني رجل أخر فيكِ. أتمنى لو لم يكن بيننا الكثير من الأسرار.»

– «لا بد من وجود أسرار يا لوكا.»

– «أمي وأبي قالا نفس الشيء.»

راقبت عينيه في وهج النار. كانت واثقة، لا تتزعزع – عيون تعرف ما تريد.

سألت:

– «ماذا تقول؟ تريد أسراري؟ الغسيل القذر؟ تريد أن تعرف المزيد عن فاديم؟ والدي؟ ربما المزيد عن المال؟ مزرعة الخيول، الفيلات، الشقق؟ الحرب التي تخوضها عائلتي الآن، مع بلطجية يريدون ذبحنا؟»

تحرك نحو كومة الملابس التي خلعاها على عجل بمجرد دخولهما. رمى حمالة صدرها جانبًا ليلتقط سرواله الداخلي (البوكسر) وبدأ في ارتدائه.

قالت آنا:

– «صحيح، بالتأكيد. تفضل وغادر. أسهل بهذه الطريقة.»

بدا حزينًا. ليس غاضبًا، ولا عنيفًا. بل حزينًا.

قال:

– «أنا لن أغادر.»

وقفت هناك عارية، تراقبه يرتدي ملابسه. جرجر قدميه إلى غرفة النوم وأغلق الباب. أنهت بيرتها وسحبت بطانية إلى الأريكة. أغمضت عينيها.

***

بعد مرور الساعات، لم يزرها النوم.

كانت النار قد انطفأت، وتحولت الغرفة إلى ثلاجة، والمدفأة تئن في صراع عبثي ضد البرد. في الخارج، كان شارع «كل العطلات» ساكنًا في ليل الشتاء الزجاجي. لم تكن آنا تعرف ماذا تفعل بشأن لوكا، لكنها كانت تعلم أن الحياة بدونه ستكون أكثر سوادًا، وكان ذلك كافيًا في الوقت الحالي. ذهبت إلى غرفة النوم واستلقت بجانبه. انقلب وقبل شفتيها بنعاس.

قالت:

– «سأحكي لك قصة.»

***

قبل ستة أشهر من تفتح زهرتها أخيرًا، سمعت آنا أندريفنا أغابوفا شائعات عن تزويجها من فاديم يوريفيتش كوفالتشوك. كان العام ٢٠٠٢، كانت في الخامسة

عشرة، تأخرت في البلوغ، وكانت الشقة القديمة لا تزال بئرًا من الظلال الحزينة، رغم مرور ما يقرب من خمس سنوات طويلة على وفاة والدتها. كان والدها قد تقاعد مؤخرًا من جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR). وعلى عكس العديد من ضباط الـ KGB السابقين الذين تجمعوا حول الرئيس الجديد، لم يترك والدها الخدمة من أجل الأعمال التجارية في التسعينيات: لقد بقي ليشق طريقه إلى الطابق التنفيذي الثالث في ياسينيفو. تقاعد في عام ٢٠٠٠، تذكرت آنا، بعد عامين من وفاة أمها.

من خلال معاشه التقاعدي والفساد المعتاد للبيروقراطي الروسي، وفر والدها لهم حياة مريحة. دبر الأموال لشراء «كونيزافود» (konezavod) مهجور، وهو منشأة سوفيتية لتربية الخيول، ستصبح لاحقًا «روس-فارم». لكنه كان جائعًا وتائهًا بعد وفاة والدتها، وألقى بنفسه في عالم الأعمال فور تقاعده. ورغم أنه لم يكن غنيًا، إلا أن أندريه أغابوف كان يتمتع بعلاقات سياسية وأمنية واسعة. وهكذا أصبح مقربًا من والد فاديم، يوري، المصرفي الناجح المرتبط ببوتين.

أخذها والدها في نزهة في الغابة بالقرب من المنزل القديم في المزرعة وسألها عن رأيها في فاديم. كان يكبرها بثلاث سنوات، ولم يكن صديقًا – ربما تحدثا مرة أو مرتين، رغم أنهما كانا يرتادان نفس المدرسة الدولية. كان جذابًا ومحبوبا. عائلته تملك المال. حتى حينها أدركت آنا أنهم فلاحون مقارنة بآل كوفالتشوك. فاديم، طالب السنة الثالثة عشرة الذي يستعد للجامعة، بدا وكأنه يشغل عالمًا مختلفًا عن آنا أندريفنا طالبة السنة الحادية عشرة التي لم تبلغ بعد. كانت أسئلة والدها بريئة بما فيه الكفاية. هل هو فتى لطيف؟ ما هي سمعته؟ لماذا لا تذهبين وتتحدثين معه في المدرسة؟ لم يكن لديها الكثير لتقوله؛ لم تكن تعرفه.

في الشهر التالي جاءت عائلة كوفالتشوك في زيارة.

كانت آنا في أكثر مراحل المخلوقات فظاعة، فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وذكرياتها من الجزء الأول من تلك العطلة تضمنت في الغالب عدم الاكتراث بأي شيء. كانت هادئة، وخجولة، ومنطوية. بعد سنوات، سيربط علماء النفس في الـ SVR هذا بوفاة والدتها. كانت والدتها الشخص الوحيد الذي شهدته يقف في

وجه والدها. إذا كانت آنا في الخارج معه والتقيا بأحد زملائه، كان الرجال دائمًا يتصرفون باحترام، يكادون ينحنون، ويضحكون على نكات كانت تعلم أنها ليست مضحكة لأن والدتها لم تكن تضحك عليها في المنزل، وأحيانًا تخبره ألا يقول أشياء كهذه في البيت. لكن ماما ماتت، وكانت آنيا مراهقة عابسة كانت ستكون سعيدة تمامًا بالتجهم حول «الداتشا» طوال عطلة نهاية الأسبوع، متجنبة عائلة كوفالتشوك ووالدها، وهائمة في الغابة لتقرأ كتابًا. تجاهلها فاديم. حسنًا. لم تهتم.

سمعت كلمة «زواج» لأول مرة من شفتي والدة فاديم.

بالطبع، لم يكن من المفترض أن تسمع آنا ذلك. كانت على صخرة مسطحة في الغابة، خلعت قميصها، سحلية تتشمس. كانت قريبة بما يكفي من ممر المشي للتصنت على محادثة غاضبة ومستترة بما يكفي خلف جذوع الأشجار والعليق لتبقى بعيدة عن الأنظار. اعتادت آنا على اللغة القاسية في السنوات التي تلت وفاة والدتها، حتى لو كان ذلك في الغالب غضب والدها الأرمل المذكى بالبراندي، والذي لم يفهم كم كان يحب زوجته إلا بعد وفاتها.

لكن والدة فاديم قالتها، سمعت آنا كلمة «زواج» واضحة كمنتصف ليل صيفي في بطرسبرغ، وكان من الواضح أن عائلة كوفالتشوك كانت متشككة بشأن هذا الاقتران. ظلت آنا مسطحة وساكنة على الصخرة أثناء مرورهم، حتى انجرفت المحادثة إلى السماء الساطعة ولم تعد تسمع المزيد. كان اليوم دافئًا، لكنها لم تشعر ببرد أشد من قبل قط. زواج؟ لم تستطع استيعاب لماذا يقترح والدها شيئًا كهذا.

عند مواجهته، لم ينفِ والدها الأمر. قال ببساطة إنه لم يتقرر شيء ومن فضلك كوني هادئة يا آنيا، أنتِ تثيرين مشهدًا. كانوا جميعًا في الأسفل على الشاطئ الحصوي بجانب البحيرة. طالبت بالتحدث مع والدها؛ فاقترح أن يأخذا نزهة. برز ذلك العرق في رقبته. أخبرته بما سمعت. تمتم لنفسه. ثم طقطق مفاصل أصابعه الكبيرة وأخبرها أن تتكلم. أخرجي ما عندك.

قالت:

– «سأختار زوجي بنفسي.»

لم يرد على هذا. بدلًا من ذلك سأل عما تريد آنا فعله بحياتها. كانت في الخامسة عشرة، ولم يسبق له طرح هذا السؤال من قبل. تفاجأت، لكنها كانت تعرف الإجابة.

قالت:

– «أريد أن أفعل ما فعلته أنت يا بابا.»

عند هذا توقف عن المشي وهز رأسه.

– «لماذا بحق السماء قد ترغبين في فعل ذلك يا آنيا؟»

– «رأيت الطريقة التي ينظر بها الناس إليك. إنهم يحترمونك يا بابا. أريد ذلك أيضًا.»

بدا أن الإجابة أفرغت الهواء منه. لم تعرف لماذا. يجب أن يكون متحمسًا لسماع ابنته الوحيدة تريد أن تتبعه، أليس كذلك؟

قال إن عائلة كوفالتشوك تعتقد أنها ليست اجتماعية. هسهس لها لتذهب وتتحدث مع فاديم.

وجدته وحيدًا على الشاطئ. كانت عيناها تتجولان أسفل صدره العضلي والمسار الرفيع من الشعر الداكن الذي ينسج طريقه من سرته لأسفل داخل سروال السباحة، عندما استدار ليواجهها، مستشعرًا نظراتها. حاول الابتسام. بدا ضجرًا.

سألته:

– «هل تركب الخيل؟»

أجاب:

– «نعم.»

– «هل تريد الركوب معي؟»

في ذلك الوقت كان لدى عائلة أغابوف حصانان. حصان آنا كان «أناستازيا»، فرس أندلسية بيضاء. والثانية كانت «صوفيا»، فرس بوديوني بنية محمرة. كانت خاصة بوالدتها. وثقت آنا بكلا الحصانين أكثر من معظم البشر، وأثار اهتمامها رؤية أن فاديم يزعجهم. وفاديم، رغم ادعائه ركوب الخيل، لم يبد مرتاحًا أيضًا. أسرجتهما وراقبته يكافح لامتطاء «صوفيا»، التي يبلغ ارتفاعها ستة عشر يدًا تقريبًا. قال إنه لا يحتاج لمنصةالصعود. كاد يسقط مرتين، شاتمًا، قبل أن يرفع نفسه بخرق، غارزًا قدمه اليسرى في جانب «صوفيا» القريب. استخدمت آنا منصة الصعود لأنها كانت قصيرة. وعاقلة. قادتهم إلى أحد المسارات في الغابة.

سأل فاديم:

– «سمعتِ ما يتحدثون عنه؟»

– «قليلًا.»

– «ما رأيك؟»

– «أعتقد أنه غباء.»

هز كتفيه.

– «أعتقد أنهم يريدون فقط رؤية ما إذا كنا سنتفق. سأذهب لأكسفورد العام المقبل. ستكون هناك فتيات إنجليزيات.»

ضحك.

انحنى كلاهما لتجنب جذع صنوبر سقط على شبكة من أغصان الشجر المتدلية فوق المسار.

سأل:

– «أين تريدين الذهاب للدراسة؟»

– «لومونوسوف. مثل والديّ.»

جعد أنفه.

– «هل تريدين العمل بعد الكلية؟»

– «سأنضم للـ SVR، مثل بابا.»

الآن ضحك، وكان الأمر أسوأ من مجرد الضحك على كلماتها، ضحك لأنه ظن أنها تمزح. قررت آنا أن الخيول كانت على حق. لم يعجبها فاديم كوفالتشوك. حاول تدارك الموقف عندما رأى أنها جادة.

قال:

– «ظننت أنكِ تمزحين.»

– «لماذا قد أفعل؟»

– «لا يوجد الكثير من الفتيات يعملن في الـ SVR.»

– «وماذا في ذلك؟»

– «مهلًا، انظري، أنا فقط أقول، ليس هناك الكثير. اهدئي. لا أحاول افتعال شجار.»

– «ماذا تحاول أن تفعل إذن؟»

تنهد.

– «انسِ الأمر.»

ركبا في صمت حتى تحولت الغابة إلى مرعى منخفض ومتموج. هنا، علمتها والدتها كيف تقود الخيل بأقصى سرعة . سحب فاديم لجام فرسه ليحاذيها.

سأل:

– «ربما سباق لأول تلة صغيرة؟»

– «لا أعتقد ذلك. أنت لا تعرف كيف تركب الخيل.»

صهلت فرسه وبدأت تجفل كأنها توافقها الرأي.

– «أول من يصل للتلة.»

ثم جذب اللجام بقوة وضرب بكعبيه في جانب الفرس.

غريزة آنا الوحيدة: لا تخسري. دفعت «أناستازيا» للركض وبدأت تضيق المسافة مع فاديم، الذي يسبقها الآن بثلاثة أو أربعة أطوال. كان يجهد «صوفيا» بشدة ولا يقدم أيًا من التشجيع الذي اعتادت الفرس توقعه. كانت والدتها سيدة لطيفة ومحبة؛ وقد شمت الفرس رائحة الخوف علي راكبها الحالي. إذا لم تثق به «صوفيا»، فلن تعطيه كل ما لديها.

بدأت الفرس تتباطأ نكايةً مع كل وكزة قاسية من فاديم لضلوعها. بدأت آنا تضيق المسافة. ثلاثة أطوال، ثم اثنان، ثم واحد. مسيطرة، فكرت، لأول مرة طوال عطلة نهاية الأسبوع. تموجت رياح الصيف الدافئة في شعرها وهما يحاذيان فاديم، الذي كانت عيناه تشتعلان بغضب عاجز. نظرت للأمام، بعيدًا عنه، ومع اتساع الفجوة، ازدادت شتائمه للفرس علوًا، وجعلت آنا تتساءل عما إذا كان يعنيها هي بتلك الشتائم. عندما شقا العشب وركضا فوق التلة كانت تبتسم ابتسامة عريضة. وكانت لا تزال تبتسم عندما أبطأت لتستدير. أرادت رؤية الهزيمة على وجهه – كانت تحب رؤية الناس يخسرون أمامها – لكن عندما وصل للتلة، خفضت فرسه سرعتها بسرعة وقامت بقفزة خلفية صغيرة (buck) ولم يكن فاديم مستعدًا، فانزلق مباشرة فوق عرفها وانسكب في العشب. ضحكت آنا، وهي تهرول نحو

الصبي فاديم حتى وجدت بقعة يحجب فيها وجهها المنتصر الشمس، ملقية بظلالها عبر عينيه.

***

عندما انتهت من سرد قصتها، أعادت رأسها للوسادة وأغمضت عينيها. مرت الدقائق ، الغرفة هادئة إلا من أنفاسهما، وكانت تكاد تغفو عندما قال لوكا:

– «أتمنى لو عرفتكِ حينها.»

ابتسمت آنا، وعيناها ما تزالان مغلقتين.

– «لقد رُحمنا بتجنيب بعضنا البعض في الصغر.»

ساد صمت مريح.

– «بماذا تفكرين؟» سأل وهو يمسد وجهها.

انفتحت عيناها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة شقية.

ضحك كما فعل عندما وضعت ملكه في وضعية «كش ملك»، وأسقط رأسه مرة أخرى على الوسادة.

– «أنتِ امرأة صعبة يا آنا أندريفنا.»

تدحرجت فوقه، تقبل شفتيه، عنقه، جبهته، شفتيه. عندما كان مستعدًا، سحبته لداخلها لتدع إحساسه يرتفع بداخلها. لم تكن هناك أسرار في جسده. أخبرها بالحقيقة. للحظة أمسكته هناك، محتجزًا في السكون. كانت خيوط الفجر الأولى ترسم صقيع النافذة عندما زحلقها لتستلقي على ظهرها. تعقدت ساقاها حوله. سرعان ما جعلها إيقاعهما دافئة. طرد البرد وترك خطًا رفيعًا من العرق على منبت شعرها وتجاعيد كتانية رطبة تلامس الوسادة. كان يتحرك جيدًا، متعتها تتصاعد بسرعة كبيرة، جسدها ينقبض، يستعد للانفراج في تلك التموجات المتدحرجة الجميلة. استجاب بثبات، ولطف، وحزم. عندما كانت تصدر صوتًا كان

يقبلها وشفتيه بطعم البيرة. وكان مرتبطاً بعينيها فقط، يراقب ما يفعله بها. تمسكت بتلك العيون. تساءلت عما يقوله جسدها له. ما إذا كانت هناك أسرار. ما إذا أخبره جسدها بالحقيقة.

الفصل الحادي والعشرون

سانت آيفز، كورنوال

كان المصطافون الذين استأجروا **كوخ بيزلي** يميلون إلى الانعزال. سيارات مستأجرة تأتي وتغادر طوال أسبوع إقامتهم، ومع أن أهل البلدة ضجرون في موسم الخمول أواخر الخريف، فقد حاول كثير منهم تتبع أخبار تلك المجموعة التي افترضوا أنها حفنة من أبناء لندن الأثرياء، قرروا القيام باستراحة أخيرة قبل أن يهبط برد الشتاء. صاحب متجر النبيذ، **شيلتون**، لاحظ أنّ محور تلك المجموعة كان الزوجين **ماكس** و**سيا**، إذ التقى بهما حين توقفا لشراء بعض المؤن. قالت له **سيا** حين سألها عن هدف زيارتهما: إنها عطلة قصيرة. أخبرته أنّها محامية في لندن، وكان في نبرتها مسحة لهجة لم يستطع تحديد مصدرها. أعجبته طريقة ثبات نظراتها، ومع ذلك شعر أنّ في شخصيتها شيئًا عصيًّا على الاقتراب، وهو أمر راقه أيضًا، وربما يفسّر لماذا بقي عازبًا في الحادية والخمسين برغم ميراثه الكبير ووسامته المقبولة.

في البداية ظن أنهما زميلا عمل. ولأنه رجل فضولي يفخر بتطفله، تسلل شيلتون ذات مساء خلفهما في المتجر، مدونًا أنواع النبيذ التي اشترياها ومستفسرًا عما إذا كان ماكس يعمل في نفس الشركة مع سيا. أقسم أنه التقط وميضًا من الذعر أو القلق في عيني سيا، لكنه لم يكن متأكدًا لأنه اختفى بالسرعة التي ظهر بها. وضع ماكس يده على كتفها. إنهما يتواعدان. هو من المكسيك. التقيا عبر صديق مشترك.

كانت هناك امرأة أخرى جاءت للمتجر مرة واحدة فقط. كانت قصيرة، بشعر أسود مجعد متطاير بجنون، ولم ترد على تحيته. اشترت حلويات فقط. طاقتها جعلت شيلتون غير مرتاح، مما جعله ثرثارًا. مفترضًا أن الحلويات لأطفالها، سأل عن عدد أطفالها الذين أحضرتهم معها لسانت آيفز. لم ترد المرأة. حاول شيلتون الابتسام، لكنه رأى أن عينيها الخضراوين اللامعتين لم تومضا إلا بالعنف.

***

قالت بروكتر عند عودتها للمنزل الآمن:

– «ذلك الرجل في متجر النبيذ مزعج كالبواسير.»

ألقت كيسًا على الطاولة، فتناثرت عبوات الحلوى الملونة. أومأت للفوضى قائلة إنها للجميع. فتح ماكس كيسًا من باب المجاملة.

وصلت بروكتر من لانغلي عبر مسار متعرج مر بأربع دول في منطقة شنغن. ألغت سيا حفلات عشاء العملاء واجتماعات العمل ورحلة لباريس. بعض الراحة والاستجمام، هكذا شرحت لبيني هاينز الفضولي – وغير السعيد. طار ماكس قادمًا من سان كريستوبال. ثلاثة أيام من المشي الموقوت بعناية على الشاطئ، والتسوق، والاسترخاء في سانت آيفز، بمساعدة فريقين للمراقبة المضادة، لم تسفر حتى الآن عن أي تلميح لمراقبين روس.

هناك عدد قليل فقط من البلدان في العالم التي لا يُنصح فيها لعميل غطاء غير رسمي (NOC) بالسفر ومعهم برمجيات اتصالات سرية مدمجة عميقًا في هواتفهم أو أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم. روسيا واحدة منها. لذا ظهر تقني في الكوخ وجرد الهواتف واللابتوبات والأجهزة اللوحية من البرمجيات. سيكونون في ظلام دامس (black) في روسيا. لا اتصالات مع الـ CIA أثناء رحلتهم، باستثناء خيط واحد: رسالة يومية لإثبات الحياة. سيتصل ماكس برقم هاتف خلوي من مونتيري موجود فعليًا في كنتاكي. رقم الهاتف يخص أحد وكلاء الشراء لـ «سان كريستوبال».

الوكيل كان ضابطًا في «موسكو إكس». ستتصل سيا بمساعدة تنفيذية في «هاينز دوسون» على خط تراقبه لانغلي.

التقى ماكس ببعض الأشخاص المشبوهين في أماكن مشبوهة، لكنه لم يكن أبدًا داخل مكان مثل روسيا، حيث ستكون المراقبة بطانية خانقة. شرحت بروكتر، التي خدمت في موسكو، كيف سيكون الشعور. سيكون لديهم الأشياء المعتادة ، قالت، غرفة النوم، الحمام، الخزائن، الممرات. ربما الإسطبلات وكل ذلك الهراء. بحق الجحيم، انظر لما فعلناه في المكسيك. لكن في روسيا سيكون الأمر أسوأ بمائة مرة. لن تكونا وحدكما أبدًا. وبالنسبة لأجهزة استخبارات الروسية الأمر لا يتعلق فقط بالمراقبة للفهم والتعلم. بل بالترهيب. جعلك تظن أنهم يسيطرون على كل شيء، لذا فهم يسيطرون عليك. إفزاعك حد الجنون لترتكب خطأً في الشارع أو شيء من هذا القبيل.

أدار أحد تقني بروكتر عرضًا توضيحيًا للأجهزة التي تستخدمها الخدمات الروسية. كاميرات مسطحة كالورق وبمحيط رأس دبوس، تعمل ببطاريات السترونتيوم بعمر افتراضي أطول بكثير من أي عملية استخباراتية. هذه الأجهزة ألصقت بملابس ضباط الـ CIA في موسكو، ولم يمكن انتزاعها، وكانت تتواصل عائدة للـ FSB بدفقات متقطعة يصعب كشفها. يمكن لصقها بملابسهم، أو حقائب السرج، أو حتى الخيول نفسها.

خلافًا للمكسيك، نبحت بروكتر، سيكون الروس حقًا على أرضهم، لذا يمكنهم رمي عدد كبير من المراقبين من لحم ودم في العملية. كل موظف في «روس-فارم» سيكون مخبرًا. موارد إضافية من الـ SVR أو الـ FSB ستدور على الأرجح حول العقار. إذا ذهبوا في جولة ركوب، أو ركبوا سيارة، ستكون عيون الروس عليهم.

أمضى شيخ بحاجبين أبيضين كثيفين أمسية في كوخ سانت آيفز. جده كان كونتًا في بلاط القيصر الأخير على ما يبدو. قدم دورة مكثفة في آداب وسلوكيات المجتمع الراقي الروسي. لم يُشرح ارتباطه بالـ CIA أبدًا. معظم ما قاله كان منطقًا سليمًا – انظر للناس في أعينهم، وضعية جيدة، لا تضع يديك في جيوبك، كل أكثر

مما ينبغي. لكن بعض المعلومات كانت مفيدة: لا تظهر باطن قدميك، أشر بكامل يدك (ليس بإصبعك)، الرجال يجب أن يستخدموا مصافحة تكسر العظام، لا تصفر الهواء للداخل (فأل سيئ)، اترك القليل من الطعام ـفي طبقك لتظهر أنك شبعت. بحلول نهاية الأمسية، شك ماكس أن الرجل ليس له صلة بالـ CIA على الإطلاق. تساءل، ـفي الواقع، عما إذا كانت بروكتر قد استأجرته من الإنترنت.

قضى ماكس وسيا ساعات ـفي مراجعة صور الأقمار الصناعية لـ «روس-فارم» والريف المحيط. حفظا طرق الهروب إذا اضطرا لذلك. اكتشف محلل يقظ سياجًا صغيرًا مدسوسًا ـفي الغابة بجانب حظيرة. كلاب. الركض كان على الأرجح فكرة سيئة. إذا وصلنا لتلك المرحلة، همست سيا لماكس، فنحن هالكون بالفعل.

ولأنه مرت سنوات منذ تلقى أي من الضابطين تدريبًا قتاليًا يدويًا، جلبت بروكتر مدربًا لتدريبهما. لصباح كامل، تدرب ماكس وسيا ـفي غرفة المعيشة، وبروكتر والتقنيون جمهورهم، يراقبون ببهجة خالصة. تخيلوا العناصر والأثاث الذي قد يكون ـفي كل غرفة بـ «روس-فارم» وتصوروا كيف يمكن استخدامه كسلاح. بعضها كان واضحًا: سكاكين المطبخ، أدوات البيطار، قضبان تحريك نار المدفأة. والبعض الآخر أقل وضوحًا. مقابض حقائب اليد، قال المدرب، ممتازة للخنق. أومأت بروكتر بعلم. ارمِ كرسيًا خشبيًا خفيفًا بقوة ضد جدار، تنكسر الساق، يصبح لديك هراوة. ربما تحصل حتى على بضع نهايات حادة هناك، قالت الرئيسة، مؤكدة الجملة بحركة طعن مقلقة.

كل يوم، سار ماكس وسيا على الشاطئ لتطوير نظام من الإشارات والكلمات المشفرة للتواصل تحت ضغط المراقبة. تمحور معظمها حول التحذير من الخطر، أو تفعيل طرق الهروب، أو تنبيه الآخر للتقدم مع آنا.

في الظهيرة الثالثة كانا على الشاطئ يسيران نحو القرية. كان الجو دافئًا بالنسبة لنوفمبر. نسيم معتدل يلامس ظهر ماكس، والمياه بلون الزبرجد المتلألئ. تبعثرت بضع عائلات عبر الشاطئ. طفلان يطيران طائرة ورقية صفراء كانا يصرخان ببهجة. ويداهما متشابكتان، والنبيذ ـفي اليد الأخرى، كان والداهما

يشجعانهما من كراسي الشاطئ. ماكس، غير مكترث للمشهد المبهج، كان يحاول قراءة سيا بدلًا من ذلك.

طوال إقامة سانت آيفز ابتسمت قليلًا، وضحكت أقل. ومضات الطاقة بينهما في المكسيك خفتت. مرت الوجبات بلا بهجة – لم تكن مشوبة بالغضب أو اللامبالاة، كما اعتقد، بل بالفراغ الذي خلفته رحلة سيا للداخل، عقلها يكنس كل شيء عدا الاعتبارات العملياتية، وجسدها يحفظ الطاقة للمهمة القادمة. ورغم أن شكوك فاديم ألقت لماكس مبررًا عملياتيًا نقيًا لاقتراح مشاركتها السرير، إلا أنه لم يلقِ حتى بتلميح. كان هذا جزئيًا لأنها انزلقت تمامًا داخل درعها. وكان هناك كبرياء يجب مراعاته أيضًا؛ جعبته للتأثير على قرار أليخاندرا كانت ممتلئة لكنه لم يطلق أي سهم منها، أراد إبقاء القتال من أجلها عادلًا ومتكافئًا، وقد فعل ذلك وخسر. لكنه استطاع النظر لنفسه في المرآة. أراد أخذ سيا فوكس للسرير بعد يوم على ظهر الخيل في «سان كريستوبال». ليس بعد محاضرات في مسرح عملياتي عفن. ما لم تطلب هي ذلك، بالطبع.

سأل:

– «كيف تشعرين؟»

– «أشعر أننا حفظنا الكلمات المشفرة.»

– «أعني بخصوص العملية.»

توقفت سيا للحظة ونظرت عبر المياه، يداها على خاصرتها.

– «بأن لدينا زاوية جيدة مع آنا. بأن لدينا فرصة.»

توقع التصميم، لكن صوتها حمل حدة أخرى. وظن أنه يعرف ما هي.

قال وهو يبتسم للأمواج:

– «يجب أن تفحصي عقلك.»

– «أطباء لانغلي النفسيون يعتنون بذلك. يقولون إنني بخير. ومهلًا، أنت هنا أيضًا، أليس كذلك؟ لذا دعنا لا نصبح رسميين بشكل ممل يا ماكس، لأنك علي عكسي أنا، يمكنك ببساطة العودة للمنزل. هل نسبر تلك الأغوار، هاه؟ هل تريد إخباري لماذا قلت لبروكتر إنك ستبقى، بينما تملك أسطولًا من الأعذار المعقولة للعودة للمزرعة؟»

– «لأنني أستمتع.»

كانت عينا سيا مثبتتين على نمط رقعة الشطرنج للطائرة الورقية باللونين الأصفر والأسود الساطعين. خصلات متفلتة من شعرها الداكن ترقص في النسيم. يداها على خاصرتها، أصابعها تنقر على جيوب معطفها. شفتيها متجمدتان في تلك الابتسامة الخفيفة. التقطت صخرة ورمتها في الأمواج.

ثم، ولأول مرة منذ أيام، ضحكت سيا.

***

أثناء استخلاص المعلومات ومناقشة عرض الرجل العجوز حول الإتيكيت الروسي، أعادتهم بروكتر إلى موضوع الخمر.

سألت بروكتر:

– «هل تدركان كمية الشراب التي سيجبرونكما على احتسائها؟ في المكسيك كان بإمكانكما التحكم في الأمر، على الأقل. أما في روسيا؟ مستحيل. سيغرقونكما بالمشروب طوال اليوم. سيتعين عليكما إدارة هذه العملية وأنتما في حالة سكر نصفي أو كامل. أحتاج إلى دليل على أنكما قادران على الأداء.»

أخرج تقني – مستمتعًا باللحظة – بضع علب من ألواح «كليف بار» (Clif Bars) من حقيبة ظهر.

قال:

– «مستوى الكحول في دمك تحدده متغيرات كثيرة. أحدها معدل التفريغ المعدي. تستغرق معدتك وقتاً لتفكيك البروتين والدهون، لذا نريد إبقاء تلك المواد في نظامك.»

زحلق العلبة تجاه سيا وماكس.

– «مكتب الخدمات التقنية (OTS) قام بتعديل هذه الألواح لكما. وصفة خاصة. تحتوي القطعة الواحدة على محتوى دهني يعادل أربعة شطائر "بيج ماك". استخدماها بحكمة.»

كما قدم التقني أكياسًا من مسحوق الإلكتروليت والفيتامينات يمكن خلطها بالماء.

ذهبت بروكتر إلى المطبخ وجمعت ثلاث زجاجات فودكا. قادتهما عبر طقوس الفودكا الروسية. قالت وهي تصب للجميع كأسًا:

– «لن يُخلط شيء مع الخمر. ستشربانها صرفة ومثلجة.»

بدأت قدم التقني تهتز بتوتر.

قالت بروكتر:

– «سيكون هناك "زاكوسكي" (مقبلات).»

ومرة أخرى، وكأنها إشارة متفق عليها، أحضر أحد التقنيين الذين تحولوا إلى نادلين طبقاً من المطبخ. كان هناك خيار مخلل، وملفوف، وفطر. سلطة طماطم وخيار. رنجة مملحة على شريحة خبز أسود.

قدمت بروكتر نخبًا بالروسية، لم يفهمه ماكس. شرب الجميع، ثم تناولوا حصة من الـ «زاكوسكي».

قالت بروكتر وهي تصب مرة أخرى:

– «يعتبر من الوقاحة عدم إنهاء الزجاجة.»

جرب ماكس أحد ألواح «كليف بار» المعدلة. لم يستطع سوى ابتلاع نصفه. فكر أن ذلك سيكون كافيًا، بما أنه يعادل شطيرتي «بيج ماك». أما سيا فبالكاد تحملت معدتها قضمة واحدة.

بعد الجولة الثانية، أخذ ماكس قطعة خبز وخيارًا مخللًا.

بعد الجولة الثالثة، جرب السمك.

بعد الجولة الرابعة، تناول المزيد من الخبز.

بعد الجولة الخامسة، أنهى لوح الـ «كليف بار» وكاد يتقيأ في فمه.

بعد الجولة السادسة، جرب قضمة من السلطة.

بعد الجولة السابعة، جرب الفطر واستمع إلى التقني يتقيأ في الحمام.

بعد الجولة الثامنة، جلس ونسي أن يأكل.

بعد الجولة التاسعة، كان هناك صوت شخير وأدرك أن سيا قد غابت عن الوعي على كتفه. كانت بروكتر على الأريكة المقابلة لماكس وسيا، تراقبهما، وتشرب الفودكا من الزجاجة مباشرة.

كان ذلك آخر ما تذكره.

الفصل الثاني والعشرون

سانت آيفز

استيقظ ماكس على جلجلة توقظ الموتى أحدثها التقنيون وهم يتعثرون للخروج من الكوخ. أحدهم، لما رأى ماكس ينتبه، لوح مودعًا. نظر حوله. كانت سيا نائمة، جالسة ومترنحة مستندة إليه. كانا لا يزالان بملابسهما.

دخلت بروكتر من المطبخ مرتدية بدلة رياضية مخملية حمراء. وكوب القهوة في يدها، وشعرها مبلل من الدوش، بدت الرئيسة نشيطة رغم استهلاكها لزجاجة فودكا كاملة وحدها.

قالت:

– «هزها لتستيقظ.»

وكز ماكس كتف سيا، لكنها لم تستجب.

نادت بروكتر وهي تفرقع أصابعها في الهواء:

– «أنتِ هناك يا هورتينسيا؟ يوو-هوو، هورتينسيا، يوو-هوو.»

تثاءبت سيا، وعيناها ما تزالان مغلقتين. شعر بها تنتفض معتدلة حين أحست أنها تستند إليه. ثم فتحت عينيها وأزاحت جسدها مبتعدة.

قالت بروكتر:

– «شاهدت لقطات المراقبة من المكسيك حوالي عشرين مرة. جدال فاديم وآنا، التخلص من حبوب منع الحمل، الجنس العنيف، كل الأجزاء التي تعرفونها. لكن هناك شيء واحد يجب أن نتحدث عنه.»

اعتدلت سيا في جلستها الآن.

منحتهم بروكتر ابتسامة العارفة.

– «أنتم تعرفون بالفعل. أنتم محترفون. لست مضطرة لقول أي شيء، لكنني سأقول القليل لأننا على وشك إرسالكم لعرين الدب.»

قامت بحركة مخلب غريبة بيدها.

– «وإذا لم أقل شيئًا واختفيتم، فسيبقى ذلك على ضميري للأبد. وضميري نقي ونظيف بشكل لعين. لا أخطط للسماح لكم بتلويثه.»

أخذت بروكتر رشفة طويلة من القهوة.

– «صديقنا فاديم لديه شكوك حول علاقتكم. على الأقل، كان لديه في المكسيك. ومرت أسابيع. الآن، اسمعوا، لا أريد أن أعرف شيئًا تافهًا. وبالتأكيد لا أريد لأي شيء– بما في ذلك هذه المناقشة – أن يظهر في أي نوع من البرقيات. قبل أو بعد سانت بطرسبرغ. مفهوم؟»

أومأ ماكس وسيا.

– «ما أريده هو حل. أصلحوا المشكلة. لا يمكننا السماح للمنحرفين الروس الذين يراقبون الكاميرات برؤيتكم في أسرة منفصلة، أو تمسكون أيدي بعضكم وكأنكم تعتقدون أن الشخص الآخر مصاب بفطر جلدي. لا أقول إنه يجب عليكما ممارسة الجنس. لكن عليكما التصرف كشخصين يرغبان في ممارسة الجنس. لذا، أخبراني، ما الخطة؟»

لوحت بروكتر بيدها تجاههم بحركة مسرحية.

قال ماكس:

– «ربما تدعي أنها في دورتها الشهرية. لا جنس.»

قالت سيا:

– «أوه، بحق الجحيم.»

التوى وجه بروكتر في ابتسامة ساخرة.

– «بالتأكيد يا "فاكيرو" (راعي البقر)، لمَ لا؟»

قالت بروكتر :

– «أوه انتظر، لنفترض أن اسمي هو إيغور الروسي اللعين وأنا الوغد المسكين الذي يراقب كل دقيقة من بث الفيديو من غرفتكم. يأتي فاديم إليّ ويسألني إذا كنتما تمارسان الجنس، ويقول إيغور الروسي اللعين: لا، يا ريس، لا، إنه ذلك الوقت من الشهر، وحاجباه السلافيان الكثيفان يرتعشان عند التلميح للحيض. وفاديم، الذي يبدو أنه، أولًا» – عدت بروكتر بأصابعها – «لا يحبك، وثانيًا، يعتقد أنك كاذب لعين... حسنًا، ماذا يفعل؟ سيفترض أن لديها سدادات قطنية أو فوطًا أو شيئًا ما، أليس كذلك؟ هل هي في القمامة؟ سيجعل أحدهم يتحقق من ذلك، رجل مسكين ينبش في القمامة اللعينة في رحلة بحث عن كمأة سدادات سيا الدامية. لا يجدها. ثم يفكر فاديم ربما أنها ترميها في المرحاض. تلك العاهرة تدمر نظام الصرف الصحي لديّ. يجعل إيغور الروسي اللعين يراجع أشرطة الحمام. هل تظهر سيا وهي ترمي السدادات في المرحاض؟ إذا لم تظهر الأشرطة ذلك، فلدى فاديم الآن خيط مثير للاهتمام لسحبه. لماذا كذبوا علي بشأن دورتها الشهرية، من بين كل الأشياء؟ عندها، أنت – ونحن – في ورطة، يا فاكيرو.»

زمّت سيا شفتيها في ابتسامة رفيعة.

– «الأزواج يمرون بيومين بدون جنس. سننام في نفس السرير. ونقوم بتمثيل أفضل.»

تحولت بروكتر لماكس. أومأ.

– «مثلما قالت.»

– «جيد. الآن عليّ اللحاق بطائرة.»

عانقت سيا، وصافحت ماكس، ثم جرت حقيبتها خارج الباب. كان هذا آخر اتصال لهم بالـ CIA قبل الدخول. حشرت بروكتر حقيبتها في الصندوق الخلفي. التفتت لماكس وسيا الواقفين عند المدخل.

قالت:

– «أنتما أفضل ما لدينا. وأنا فخورة بكما.»

***

في تلك الليلة استقرت عاصفة رعدية فوق سانت آيفز. كانا منفصلين معظم اليوم: يركضان، ويقرآن، ويأخذان قيلولة للتخلص من آثار الثمالة الرهيبة. قاد ماكس السيارة المستأجرة عائدًا من المدينة وسط مطر غزير. خرج لشراء الخبز والنبيذ. وكيس التسوق في يده، اندفع عبر الممر خلال المطر، وندم على ذلك.

تمزق الكيس المبتل عندما فتح الباب بعنف، وتبع ماكس زجاجة النبيذ وهي تتدحرج على بلاط البهو الحجري نحو غرفة المعيشة. وجد سيا تشاهد قطرات المطر تضرب النوافذ بجانبها. كانت ترتدي رداءً حريريًا أبيض مطبوعًا عليه نمر أسود. التفتت لتواجهه، وفي يدها كأس نبيذ فارغ. عيناها جادتان وباردتان.

قالت:

– «إذا وصلنا لتلك المرحلة، سيكون من المهم أن ينجح الأمر. وأن نعمل معًا بشكل جيد. أن يقضي أداؤنا فورًا على كل الشكوك.»

انحنى لالتقاط النبيذ، ووضعه على طاولة القهوة، وجلس على الأريكة. كانت تنظر خلاله مباشرة.

– «تلك خطة معقولة جدًا.»

أشار لكأس نبيذها. عندما ملأ كأسها ثم كأسه، جلست على الأريكة المقابلة ووضعت ساقًا فوق الأخرى، فانزلق الرداء عاليًا على فخذها كاشفًا عن ملابس داخلية بيضاء من الدانتيل، في تباين مذهل مع بشرتها السمراء، وابتلع الطعم بسعادة بنظرة لزجة، لأن سيا كانت تعرف تمامًا ما تفعله.

قالت بنبرة لا تزال معقمة وعملياتية:

– «تعجبك ساقاي.»

– «هذا سؤال سخيف.»

– «لم يكن سؤالًا. إذن، يا ماكسيميليانو، أخبرني. كيف تريد أن نلعبها؟»

شرب نبيذه، ثم نظر لساقها، التي كانت لا تزال معروضة بطريقة كان ينبغي أن تكون لعوبة لكنها بدت (طبية) بدلًا من ذلك.

– «كان فاديم متشككًا لأننا كنا نمثل. سيكون أسهل لو لم نكن نمثل. لو كان لدينا إيقاع.»

– «أو لو كان لدينا ممارسة فعلية للتمثيل.»

– «ممارسة. إيقاع. سمه ما شئتِ.»

– «لم تقم بأي خطوة أو تقترح شيئًا منذ وصلنا لسانت آيفز.»

– «هل هذا سؤال الآن؟»

– «إنه سؤال.»

– «ليس لقلة الاهتمام. كنتِ في عالم آخر منذ وصلنا هنا.»

– «نحن محترفون ولدينا عملية لنديرها.»

– «بالطبع. لكن يجب أن أقول إن متطلبات مهنتنا... ليست طبيعية، أليس كذلك؟» قال ببطء، يزن كلماته. «عملنا يفرض مطالب غريبة، حتى لو كانت أحياناً ممتعة.»

وقفت، وفكت الحزام، وتركت رداءها يسقط. ولحقت به ملابسها الداخلية على الأرض. كان تنفسها منتظمًا وغير مبالٍ. ورغم إعجابه بها، لم يدرك من قبل كم كانت ساقاها طويلتين. أدارت ظهرها لتريَه، مشيرة إلى شامة على ردفها الأيسر تحسبًا لسؤال ماكس لإثبات معرفته بجسدها. ثم استدارت لتواجهه، وذراعاها معقودتان على صدرها.

خلع كنزته الرمادية وانزلق من جينزه وسرواله الداخلي. جالت نظراتها حول جسده. اقتربت منه، وتوقفت على بعد خطوة، عيناها تحتضنان عينيه وهي تضع يدًا باردة على صدره وتمسح بأصابعها على جلده.

أخذته في قبضتها وسحبته أقرب حتى باتت شفتاهما على بعد بوصة، وعيونهما لا تزال متشابكة. شعر بحلمتيها، المتصلبتين من البرد، تضغطان في صدره. كانت عيناها جائعتين، وفي يدها، سرعان ما استجاب جسده واشتد.

داعب وركيها وفخذيها وجالت يده لتجدها مستعدة له بشكل رائع، لكن عندما قبل شفتيها كانتا ساكنتين وخاليتين من العاطفة. دفعها برفق نحو الأريكة، لكنها لم تتزحزح، إذ ثبتتهما يدها في مكانهما. وقبلته، قبلة مفتوحة، وبطيئة، ورطبة، لكنها انسحبت ورأى أن ابتسامتها كانت ملتوية ولسانها ينزلق على شفتها السفلى كأنها تذوقته لغرض شهادة مستقبلية. النظرة التي رمقته بها على طائرة بروكتر في «بالو ألتو» عادت لتومض الآن وتقول: سأكسرك، وربما أحظى ببعض المرح أثناء ذلك. كان ماكس قد مشى بقدميه إلى الفخ، والأسوأ من ذلك أنه سيسعد بالتعثر فيه مرة أخرى. وهي تعرف ذلك جيدًا.

كانت سيا تبتسم ناظرة لعمل يدها.

قال بالإسبانية:

– «يا إلهي، أنتِ امرأة شريرة.»

ثم، وهي ترفع نظرها لتلتقي بعينيه، ربتت سيا على كتفه ربتة رفاقية.

– «هذا يفي بالغرض.»

متسمرًا وغير راضٍ، راقبها تجمع رداءها وملابسها الداخلية بلامبالاة. أشرق محياها، وعندما ربطت حزام الرداء كانت تدندن لحنًا ناعمًا. ثم صعدت الدرج بخطوات خفيفة ونادت بـ «تصبح على خير» مفعمة بالحيوية من أعلى السلم، حيث أغلقت باب غرفتها برفق.

***

في الصباح التالي، استيقظ على صوت تكسر الأمواج البعيد وإعادة لمشهد سقوط رداء سيا على الأرض يُعرض خلف جفنيه. بينما كان يستحم ويحلق، أدرك ماكس أن شظايا من تلك التجربة الأخروية قد طبعت فيه الآن: نظرة «تعال وخذ نصيبك» في عينيها الرماديتين، الساقان الطويلتان، الرائحة الزهرية التي تحوم حول شفتيها. وأثناء ارتداء ملابسه، توقف مرتين بكسل ليتخيلها وهي تخلع رداءها.

مشيا على الشاطئ مرة أخرى قبل مغادرة «سانت آيفز». البرد كان قارصًا، لكن نفس العائلة كانت هناك، الأطفال يطيرون الطائرة الورقية الصفراء، والوالدان غارقان في الكراسي، والمعاطف، والنبيذ.

ركض الأطفال أمامهما، وخطرت له فكرة مع عبور الطائرة الورقية فوق رؤوسهم.

بالأمس ربما لم يكن ليفكر فيها، لكنه شعر بحس متنامٍ بالشراكة مع هذه المرأة المنغلقة. أراد لهما الفوز.

قال:

– «لدي شيء قد يساعدكِ في تجنيد آنا. شيء يلينها.»

أجابت سيا:

– «أخبرني.»

قال ماكس:

– «بينيلوبي. سنحضر فرس أمي معنا إلى روسيا.»

الفصل الثالث والعشرون

موسكو

ومضت الأضواء الزرقاء على سيارة المرسيدس بينما كانت سيارة تشيرنوف تشق طريقها بجموح عبر حي «روبليوفكا»، والسيارات تنفلق من أمامها كالماء. كان السائق ينسل بين المسارات، وأوتار يديه تنتفض من شدة قبضه على عجلة القيادة التي كادت تنكسر. كانت سلسلة القرى الممتدة على طول «روبليوفكا» ملاذًا للهروب من المدينة منذ أيام القياصرة من آل رومانوف. وعلى عكس وسط موسكو، لم يكن الهواء هنا ملوثًا برائحة حرائق الخث والبنزين. بل كانت رائحته تشبه رائحة المال. كان هناك مركز تسوق يضم وكالة لسيارات «بنتلي» ومتاجر «برادا» لتسلية النساء المحبوسات في حديقة الحيوان هذه. المنازل كانت مسورة وضخمة بشكل خرافي. القليل منها كان مرئيًا من الطرق الرئيسية، لكن عبر نوافذ المرسيدس، استطاع تشيرنوف تمييز منزل مطلي بلون وردي سكري، كأنه بيت دمية.

لو كان أي من سكان «روبليوفكا» أحمق بما يكفي أو فقيرًا ليمشي في مثل هذا الطقس المتجمد – وفي هذا الجيب المتلألئ لا يوجد مواطنون تنطبق عليهم هذه الأوصاف – لما كانوا ليعيروا انتباهًا لسيارة تشيرنوف الحكومية المسرعة.
فالعديد من كبار المسؤولين يمتلكون منازل هنا: رؤساء وزراء، وزير الدفاع، أباطرة النفط. كانت الـ KGB تمتلك يومًا جزءًا كبيرًا من المنطقة، وقد ورث خليفتها الرئيسي، الـ FSB، العديد من قطع الأراضي تلك. الجميع يستخدمون «الميغالكا»؛ الأضواء الزرقاء، عندما يسرعون.

انزلقت البوابة التي تحرس الطريق المؤدي إلى «الداتشا» الحكومية الخاصة بـ «الإوزة» لتفتح. وبتلويحة واحدة، انطلق سائق تشيرنوف متجاوزًا حفنة من ضباط خدمة الحماية الفيدرالية الواقفين للحراسة، هبوطًا في طريق ضيق تحيط به أشجار صنوبر شاهقة مكسوة بثلج حديث.

ترجل تشيرنوف إلى البرد ونظر نحو القباب الذهبية للكنيسة الصغيرة ذات اللون الكاكي المخضر التي بناها «الإوزة» في عقاره. كان تشيرنوف يرتدي حلة سوداء من ماركة «زينيا»، كما يفعل غالبًا في اجتماعاته مع «الإوزة». أصبح هذا النمط شائعًا في الجهاز بعد أن ارتدى «الخزيان» طرازًا مشابهًا أثناء إلقاء خطاب خلال احتفالات «يوم رجال الأمن» (التشيكا) في لوبيانكا. عبر ممرًا مفروشًا بالحصى ومحفوفًا بالأشجار نحو الكنيسة، حريصًا على السير في المنتصف لتجنب تلويث حذائه الخفيف في الوحل الثلجي الذي يغطي حواف الممر.

دفع باب الكنيسة فانفتح، واستقبلته ألواح الزجاج الملون الشاهقة فوق المذبح، تصور رفاقًا جنودًا يرفعون العلم السوفيتي فوق أنقاض ستالينغراد. عبر تحت قوس مزين بفسيفساء لمواطنين يحملون لافتة كُتب عليها «القرم لنا». وعلى القوس التالي مرر أصابعه على إفريز تحرس فيه مجموعة من الملائكة جنودًا روسًا يفرضون السلام على جورجيا المضطربة. انضم إلى «الإوزة» في مقعد معدني صُنع من دبابة «فيرماخت» ألمانية أذيبت بعد أن استولى عليها الجيش الأحمر أثناء دحر النازيين عن لينينغراد. ظل «الإوزة» صامتًا لفترة. كان الزعيم يعبث بشرود بقماش بنطاله، وأحيانًا يغمض عينيه، كأنه في صلاة، أو ربما ألم. انتظر تشيرنوف أن يتحدث «الإوزة».

قال «الإوزة» أخيرًا:

– «حان الوقت. لم يترك لنا خيارًا آخر.»

سأل تشيرنوف مندهشًا:

– «عمل انتقامي؟»

قال «الإوزة»:

– «لا، لا، لا.»

كان يحدق عبر الزجاج الملون الذي يحمل رسم المنجل والمطرقة.

أكمل قائلًا:

– «لدينا نبيل واحد مضطرب. لا داعي لإزعاج بقية القطيع. لا شيء عنيف. إنه جنرال سابق في الـ KGB بحق السماء. طبق القانون ليفهموا جميعًا كيف يركعون.»

لتدمير أغابوف، كان على سيده بالطبع مراعاة السياسة. لكن أخلاقيًا، وواقعيًا، لن تكون هناك حدود، ولا قيود. وكيف يمكن أن تكون هناك حدود، وروسيا هي مصدر الألوهية وهو سيف الدولة؟

***

تطلبت الاعتقالات جبالًا من المعاملات الورقية. ولحسن الحظ، كانت الوثائق التي تفهرس انحلال أغابوف الجنائي بسيطة الجمع؛ لأنه لا يمكن للمرء أن يعيش في روسيا دون خرق القانون – إنه غابة شائكة، متداخلة ومتناقضة، تجعل الجميع مجرمين. الحيلة تكمن فقط في العثور على القانون المناسب. كان تشيرنوف ينظر إلى أولئك الذين ليس لديهم سجلات جنائية رسمية كأمثلة مقلقة على إهمال الـ FSB وتقصيره. كان مولعًا بمثل الـ NKVD[30] في عهد ستالين: عدم وجود سجل جنائي لك ليس فخرًا لك. بل هو تقصير منا.

فتح تشيرنوف ملف القضية على جهاز الكمبيوتر الخاص به. لم يكن هذا علنيًا – بل كان محميًا بموجب مرسوم «امتياز أسرار الدولة» الذي يحجب الوثائق عن

---

[30] **المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية NKVD** / جهاز الشرطة السرية السوفيتي في عهد ستالين، والسلف الدموي لجهاز الـ (KGB). يقترن اسمه تاريخياً بحقبة "الرعب الكبير" ومعسكرات الجولاغ، ويُستحضر كرمز للكابوس الأمني والتصفيات الوحشية التي شكّلت أساس الدولة البوليسية الروسية.

المتهم، والمدعي العام، والمحاكم. لتغذية الملف، قام الـ FSB بتجميع تقارير تصف مخالفات أغابوف المختلفة. قلب تشيرنوف هذه الأوراق من مكتبه المتقشف المطل على لوبيانكا في صباح موسكوفي صافٍ وقارس، حيث حتى ضوء الشمس كان باردًا. في الملفات، راجع أدلة على اختلاس أموال الدولة، وصفقات «المرآة[31]» المعقدة داخل الذراع المالي للتكتل، واستردادات ضريبية مزورة. تضمنت بعض التسجيلات بين كبار حلفاء أغابوف إشارات مبطنة بشكل رديء لرشاوى لضباط من شرطة الضرائب الفيدرالية. لم يكن أي من هذا غير طبيعي؛ في الواقع، كان معروفاً بالفعل. لكن تشيرنوف كان لا يزال بحاجة للأوراق. حتى ستالين أصر على الأوراق.

اتصل بـ يفغينيا ييغوروفا، رئيسة محكمة مدينة موسكو. كانوا يلقبونها بـ «المرأة الحديدية»، لكن الأمر لم يكن كذلك دائمًا. ولإخضاع القاضية العجوز، كان تشيرنوف قد أخذ زوجها ذات مرة من منزله في عيد ميلاده لاصطحابه لشراء سيارة جميلة. وصفت ييغوروفا ذلك لاحقًا بأنه اختطاف. وصف يفتقر للإنصاف. قاده تشيرنوف إلى وكالة سيارات وأخبر الرجل المرتجف أن يختار أي سيارة. إنه عيد ميلاده في النهاية! وربت على ظهره بقوة.

تمتم الرجل:

– «ماذا لو لم أكن أريد سيارة؟»

قال تشيرنوف:

– «لا تريد سيارة؟ سنكون مصدومين – ومحطمين! – لأنك رفضت هدية عيد ميلاد.»

[31] **صفقات المرآة Mirror trades** / آلية لغسيل الأموال تعتمد على شراء أسهم بعملة محلية (كالروبل) في سوق ما، وبيعها فوراً في سوق أجنبي بعملة صعبة (كالدولار). تُستخدم هذه الحيلة لتهريب رؤوس الأموال الضخمة عبر الحدود بسرعة، متجاوزةً بذلك الرقابة المصرفية وقيود التحويل الرسمية.

مرر تشيرنوف يده على الغطاء اللامع لسيارة من الفئة السابعة سوداء كالفحم.

أكمل قائلًا:

– «هذه لطيفة. لن تفكر في رفض هدية من "الإوزة"، أليس كذلك؟»

أجاب صوت ييغوروفا المقطر عسلًا عند الرنة الثالثة. شرح تشيرنوف القضية. تحدث بمفاهيم، ونظريات. لم يستخدم أسماء بعد. ناقشا الأحكام المحتملة: حظر الأنشطة التجارية في القطاعات ذات الصلة، غرامة تبلغ عشرين ضعف مبلغ رشاويه، واثني عشر عامًا في معسكر سجن مع الأشغال الشاقة. عندما – أو إذا – خرج من سيبيريا، يمكن لأغابوف أن يعمل نادلًا ليسدد الفواتير القانونية.

سأل تشيرنوف:

– «ماذا تعتقدين أن الحكم يجب أن يكون؟»

سألت القاضية، بصوت ينم عن ضجر شديد:

– «ماذا تريده أنت أن يكون؟»

الفصل الرابع والعشرون

مزرعة «روس-فارم» للخيول

في زيارة آنا الأولى للأرض التي ستصبح لاحقًا «روس-فارم»، كانت الحظائر تتعفن والمساكن هياكل متداعية ومترهلة. نُقلت كل قطعة صالحة للاستخدام من خشب أو معدن أو بلاط في الأيام الأخيرة للتعاونية.

أحبت آنا المكان أكثر في ذلك الحين. احتفظت والدتها بالمزرعة المرممة، التي كانت مسكنًا قديمًا، صغيرة ودافئة. انتشرت قطع زراعة الخضروات في الأفنية التي امتدت لتندمج مع غابة **بتولا** مترامية الأطراف تتخللها جداول ومسارات للمشي. بنوا إسطبلًا لحصانيهما. امتلكت آنا ذكريات جميلة قبل أن تذبل الحياة. حينها، بالطبع، لم يكونوا يسمونها بذلك الاسم السخيف: «روس-فارم».

كان فاديم هو من أصر على تسوية المزرعة القديمة بالأرض. قالت إن ذلك هو الشيء الوحيد الذي لا تطيقه، الكثير من ذكريات ماما هنا. أرجوك، لسنا بحاجة للمنزل الكبير، ولا نحتاجه هنا.

قال فاديم: نحتاج مكانًا لاستضافة الرئيس عندما يأتي. نهدم المنزل القديم، ونبني واحدًا كبيرًا. سألها بتعالي لكونه يملك المعلومات السرية: «هل رأيتِ قصره في إيدوكوباس؟» أجابت: سمعت عنه، ولا أريد منزل أمي أن يتحول لقلعة مروعة. كانت تعلم أن «الخزيان» يحب ما يملكه الآخرون، يريده أكبر قليلًا أو أفضل. لديك منزل كبير، يجب أن يكون منزل بوتين أكبر. لديك خيول، هو يريد بضعة أخرى، ومن الأفضل أن تكون أسرع من خيولك.

لم يستمع فاديم لها. لم يستطع الاستماع. في تلك الأيام كان يتفحص ساعته دائمًا، يتجهم للتهديدات، يومئ برأسه باستهتار هنا وهناك، ثم يقول إنه مضطر للعودة لـ «بطرسبرغ» للاجتماعات. أخبرها أن هكذا يجب أن تكون الأمور. رغبات الرئيس وكل ذلك.

اقترح «الخزيان» الاسم بنفسه، كما زعم فاديم. اسم «روس–فارم». قال إن الاسم سيجلب اعترافًا دوليًا؛ للآذان الأجنبية سيبدو روسيًا دون تعقيد اللغة الروسية. بالكاد استطاعت نطق الاسم بصوت عالٍ.

الآن، لبضعة أيام، عليها التظاهر بأنها تهتم بشدة بهذا المكان. هناك جمهور؛ وليس فقط سيا وماكس.

جلست آنا في غرفة المعيشة أمام المدفأة المشتعلة مع فاديم وغريغوري، تقني الدعم العملياتي من الـ SVR المعار للعملية. كانوا يراجعون تغطية نظام الأمن الحالي ويقررون مكان وضع الكاميرات الجديدة. رأس دب محنط يترأس المحادثة من فوق المدفأة، عيناه الميتتان تنظران إليهم بلمحة من الإحراج. ارتفع صوت فاديم، وقدمه تطبل على الأرض. الحديث عن غرفة نوم ماكس وسيا جعله متوترًا.

أشارت آنا لغرفة نوم الضيوف على المخطط ولوحت بيدها، مقاطعة غريغوري.

– «فاديم، هل لديك كاميرات هناك؟»

دون إجابة، رفع قدميه على طاولة القهوة وبدأ يقلب في هاتفه. اختلست آنا نظرة للطاولة، أقدام حيوانات في نهاية أرجل الطاولة. كانت باهظة الثمن، توصية من المصممة الإيطالية التي استأجرها فاديم. اشتراها، كما تخيلت، قبل أن ينام معها.

قالت آنا:

– «يا عزيزي، أعلم أن هذا ماخورك، وكان كذلك منذ توقفت عن المساعدة هنا وعدت لموسكو. لكنها عمليتي، وأحتاج أن تخبرني ما إذا كان لديك كاميرا هناك بالفعل.» ونقرت بإصبعها على المخطط.

صفع هاتفه على الطاولة وشد أذنه.

– «نعم. لدي.»

– «أين؟»

– «واحدة في السقف فوق السرير.»

– «ممتاز. إذن واحدة أخري لن يضطر غريغوري لتثبيتها.»

مروا على كل غرفة في المخطط لتحديد ما إذا كانت تتطلب تسجيل صوت، أو فيديو، أو كليهما. المزرعة القديمة استبدلت في النهاية بهذا الهيكل الضخم لنزل صيد، مضاء ببريق مبتذل: كل شيء مغطى بالذهب والرخام والكريستال، ومبطن بالخشب الداكن. الغرف – وكان هناك الكثير منها – مكدسة بأثاث باروكي باذخ. كانت «روس-فارم» استعارة مظلمة لحياتها: رفاهية فائضة، تفتقر لأي مظهر للروح.

بدأ غريغوري وفاديم يتجادلان حول وضع الكاميرات داخل الحمام (الساونا).

قال غريغوري وهو يمرر يديه على المخطط:

– «البخار يمكن أن يكون قاسيًا على بعض الكاميرات. لكننا سنحتاج لاثنتين على الأقل داخل كل غرفة. يمكننا وضعها في الخشب. نجعلها تبدو كرأس مسمار. بسيط.»

كان غريغوري يشير لجانب النساء من الحمام وفاديم يتململ في مقعده مرة أخرى. قلبت آنا عينيها.

– «هل حمامات النساء مجهزة بالفعل يا فاديم؟»

ابتسم فاديم بابتسامة خبيثة لانعكاس صورته في حذائه الجلدي. ابتسمت آنا بود لغريغوري وضربت يدها على المخطط.

– «حسنًا، ما رأيكم في ذلك؟ لقد أنجزنا نصف العمل بالفعل!»

***

رفعت آنا سماعة الهاتف الموجودة في الصندوق الرمادي خارج مشرحة «كيريشي». سمح لها كبير الفاحصين الطبيين بالدخول، قابلها في الردهة، وقادها لمكتبه الرطب. كانت داشا تنتظر. المرأة كادت تتأهل للفريق الأولمبي الروسي في ٢٠١٢. تم اختيارها للمساعدة في هذه العملية بسبب مواهبها البدنية.

قال كبير الفاحصين الطبيين:

– «هناك خمسة متوفين حاليًا، خمسة خيارات، ما لم تخططوا لخلق بضعة خيارات أخرى.»

هددت شفتاه بابتسامة، لكن آنا لم تستطع تمييز ما إذا كان يمزح.

قالت داشا:

– «اثنان فقط مناسبان. كلاهما ذكر. بلا أقارب على علم. وليسوا بدينين جدًا.»

راجعوا صور كل منهم في الملفات.

أشارت آنا إلى كيريل أليكسيفيتش بوغدانوف.

– «هذا.»

سألت داشا:

– «لماذا هو؟ إنه أثقل قليلًا من الآخر.»

– «إنه وسيم. وأنتِ جميلة بما فيه الكفاية. الآخر قبيح جدًا ليكون زوجك.»

تأملت داشا:

– «ربما كان غنيًا؟ كان عاديًا لكنه يملك المال. فوربس. أخذني للتسوق، وأسكنني في شقة.»

سألت آنا:

– «هل يبدو لكِ وكأنه كان غنيًا؟»

قال كبير الفاحصين:

– «ربما تلبسينه بدلة غالية؟ تعطينه ساعة؟ تضعين عليه عطرًا لطيفًا. تجعلين رائحته غنية، لاخفاء رائحة مواد حفظ الجثث؟»

– «إنه وجهه. وجهه فقير. وليس وسيمًا جدًا.»

ساروا نحو المبردات. فاحت من الممرات رائحة الفورمالين والعفن. كانت هناك لافتات في كل مكان: (*يجب تسجيل خروج جميع أجزاء الجسم! يرجى وضع الجثث في الثلاجة بالقدمين أولًا!*). حتى أرضيات الممرات كانت تميل برفق نحو المصارف. كان كيريل على نقالة في أحد ثلاجات الجثث. أخرجه كبير الفاحصين وفتح سحاب الكيس. تدربت داشا على رفعه. كانت رافعة أثقال؛ كانت قوية ومتينة. استطاعت رفعه فوق خصرها. أعادت كيريل للنقالة وكأنها تفرد ملاءة كتان على طاولة.

قالت داشا متصنّعة وهي تمسد خده:

– «زوجي المسكين.»

أغلق كبير الفاحصين سحاب كيس كيريل ودفع به إلى الثلاجة.

قالت داشا:

– «رحل مبكرًا جدًا.»

***

عادت آنا إلى المزرعة لمراجعة القصر والأراضي مع فاديم بينما أنهى غريغوري ورجاله تركيب الكاميرات والميكروفونات. في قاعة السينما شاهدوا التقنيين يضعون الكاميرات في الشمعدانات الجدارية. في الخارج، تجولوا عبر إحدى الحدائق. كان رجلان على سلالم يعبثان بالأضواء الكاشفة المثبتة على جذوع الأشجار.

مشوا في امتداد الطريق المغطى بالثلوج المختار للعرض، وأشارت آنا لبضع أشجار بتولا عارية.

– «ضعوا الكاميرات الأكبر والأوضح في تلك،» قالت لغريغوري.

مروا بكلاب «الألزاس» النابحة. دست آنا يديها غريزيًا في جيوب معطفها. لم تكن تحب الحيوانات لأنها كانت تعض الموظفين أحيانًا؛ أحدها أرسل بستانيًا للمستشفى ناقص إصبعين. تاركين غريغوري ليعمل، سار الزوجان بتثاقل عائدين نحو المنزل.

قالت آنا:

– «سأحتاج لأكبر وقت ممكن معها. أفضل ما يمكنك فعله هو إشغال ماكس.»

– «لدي بضعة أفكار.»

دارا حول النافورة في الممر أمام القصر. فوقهم ارتفع تمثال لفحل يشب على قائمتيه الخلفيتين، أذناه وعرفُه المتدفق يمتدان نحو السماء بارتفاع الإفريز. في الصيف، يتدفق الماء من فمه. هذا المكان العبثي.

قالت:

– «من المهم يا فاديم، ألا تزرع أي من أفكارك الفوضى في علاقتهما. سيكون من الصعب تجنيد هذه المرأة إذا كانت علاقتها في محنة.»

تصلبت شفتي فاديم في ابتسامة ضيقة.

– «ولماذا قد تضع بضعة أيام هنا أي فوضي في تلك العلاقة؟»

التفتت إليه:

– «لا عاهرات. لا موظفات» – وضعت علامات اقتباس في الهواء حول الكلمه – «لخدمتك في الحمام. التوتر في علاقتهما لا يحقق شيئًا. أتفهم؟»

تجاهل هذا.

– «تطابقهما لا يزال غريبًا بالنسبة لي يا آنيا. ماذا يفعل معها؟»

راجعت آنا واجهة القصر المراقبة. فكرة أن أي اتحاد قد يكون أكثر من مجرد اقتران من أجل المال، أو السلطة، أو الجنس كانت غائبة بوضوح عن زوجها. لكنها لم تستطع المخاطرة بغضبه ومغادرته، لذا اكتفت بتوبيخه:

– «حبيبي، هل وجدنا أخيرًا امرأة لا تجدها جذابة؟»

– «إنها جذابة بما فيه الكفاية. لكن، مع ذلك... هما مهذبان أكثر مما ينبغي.»

– «سنراقبهما في غرفة النوم. لنتحقق.»

لم تختلف بالضرورة مع فاديم. كان هناك شيء غير طبيعي. لكن بالطريقة التي ستدير بها هذه العملية؟ حسنًا، الأمر ببساطة لن يهم.

– «جيد. وسأتصرف بلياقة. وسأحرص أن يتصرف ماكس بلياقة أيضًا. سنأخذ حمام بخار. وربما نذهب للرماية.»

– «فقط أبقه مشغولًا.»

قعقعت شاحنة داخلة للدائرة، وتوقفت عند أسفل الدرجات الرخامية. أنزل السائق النافذة.

قالت آنا:

– «مرحبًا داشا. هل سبب لك المزارع أي متاعب؟»

– «لا، لكنه سأل لماذا أردت الدم فقط.»

– «بماذا أخبرتهم؟»

دلت داشا إصبعين فوق أسنانها العلوية لتقليد الأنياب.

– «مصاصة دماء.»

الجزء الثالث

ZAKHVAT

الفخ

الفصل الخامس والعشرون

لا تُنقل خيول الفصائل الأصيلة – التي تناهز قيمتها ستة ملايين دولار – على متن الرحلات التجارية العادية من المكسيك إلى روسيا، كما أنها لا تسافر في رحلات مباشرة. لقد كان مسار الرحلة التي قطعها الحصانان سموكي جو وبينيلوبى أشبه بلعبة القفز بين المحطات؛ إذ نُقلا بالمقطورة من سان كريستوفر إلى مكسيكو سيتي، ومنها جوًّا إلى ميامي، ليقضيا يومين من الراحة في إسطبل للحجر الصحي خارج كورال غيبلز، ثم قفزة عبر الأطلسي إلى لندن للإقامة في إسطبل آخر واصطحاب سيا فوكس قبل الانطلاق في المرحلة الأخيرة إلى بطرسبرغ.

جُهّزت طائرة "بوينغ 737" المستأجرة لتناسب النقل الجوي للخيول؛ فقد حلت الحظائر محل المقاعد، وتدلت اللجم والسروج ومعدات الركوب من المواضع التي كانت مخصصة سابقًا للأمتعة العلوية، واستحالت رائحة الهواء المُعاد تدويره الكريهة إلى رائحة التبن والروث.

كان عدم مرافقة الخيول عند السفر يُعد نذير شؤم؛ فقبل ولادة ماكس، تخلف والده مرة عن السفر مع فحل ثمين باعوه لمؤسسة في ليكسينغتون، ففزع الحصان ولم تفلح المهدئات في كبحه، مما اضطرهم لقتل الحيوان الهائج في مكان ما فوق جنوب تكساس. ومنذ تلك الحادثة، دأبت عائلة كاستيّو على السفر مع خيولها.

كانت إجراءات الصعود إلى الطائرة تسير دائمًا على الوتيرة نفسها: تصعد الفرس بينيلوبى أولًا لتستقر في حظيرة عند ذيل الطائرة، ثم يقوم أحد السُوّاس بدهن أنف سموكي جو بمرهم "فيكس" بكثافة لمنعه من التقاط رائحة بينيلوبى،

ويُقاد بعدها إلى الطائرة ليستقر في المقدمة داخل حظيرة لا تطل على الفرس. ورغم أن سموكي جو كان حسن السلوك، لم يكن هناك مجال للمخاطرة؛ فأي محاولة تزاوج مفاجئة على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم لن تهدد شرف الفرس التي تعتز بها والدة ماكس فحسب، بل ستعرض هيكل الطائرة وحياة كل من عليها للخطر. حُقنت الخيول بمادة الزيلازين، وتناول ماكس والمكسيكيون مشروب الميسكال، بينما أخذت سيا قرص "أمبيين"؛ فالليلة السابقة كانت سهرة عمل شاقة في شركة "هاينز داوسون".

استيقظت سيا على ارتطام العجلات بالمدرج؛ كانت الطائرة تسير ببطء في ممرات مطار "بولكوفو" في سانت بطرسبرغ.

هرعت سيارتان سوداوان من طراز "رولز رويس" رباعية الدفع نحو الطائرة، وكانت إحداهما تجر مقطورة خيول. ارتطم سلم الطائرة بالبدن الخارجي، فمال ماكس نحو النافذة ليمسح المدرج بنظره، وعلى وجهه علامات التوتر.

فتح أحد المضيفين الباب، فأطل أحد الرجال من الخارج برأسه، وجال ببصره في الطائرة حتى استقرت عيناه على سيا، ثم ابتسم.

قال الرجل:

– "أهلاً بكم في روسيا. السيد والسيدة كوفالتشوك يعتذران لعدم تمكنهما من الحضور لاستقبالكم."

تجاوزه ضابط جمارك وسار بخطوات متثاقلة إلى داخل الطائرة. عادة ما تكون إجراءات فحص الوثائق مثيرة للأعصاب، لكن فاديم كان قد رتب وصولهم عبر ما يُعرف في روسيا بـ "الممر الأخضر"؛ مما يعني أن ماكس وسيا سيخضعان لفحص وثائق شكلي فقط. لم يفتش الضابط حقائبهما، ولم يفحص أجهزتهما الإلكترونية، بل اكتفى بمراجعة سريعة لجوازات السفر والتأشيرات، دون أن يلقي نظرة واحدة على شهادات تطعيم بينيلوبى أو سموكي جو. وبعد إيماءة مقتضبة، اختفى مسرعًا نحو دفء سيارته وانطلق باتجاه المبنى.

هزت رياح قارسة سلم الطائرة أثناء نزولهم، وكانت السماء عبارة عن غطاء رمادي فحمي يخنق الشمس. قاد السُوّاس الحصانين أسفل المنحدر وأدخلوهما في المقطورة المنتظرة. رفعت سيا غطاء رأسها المبطن بالفراء وانكمشت أكثر داخل معطفها الأسود.

لا اتصالات مع "لانغلي".

لا حصانة دبلوماسية.

لا طوق نجاة. كانوا وحدهم، يعملون في "المنطقة السوداء".

وفي خطر مميت. ومع ذلك، لم ترغب في أن تكون في أي مكان آخر.

***

كان هناك فاصل زمني مدته أربعة أشهر بين تركها لشركة "ليريك" وانضمامها لشركة "هاينز داوسون" في لندن. روت سيا للأصدقاء والعائلة قصة مفادها أنها ستقضي هذه الحرية المهنية العابرة في السفر؛ كيب تاون بالطبع، وبعض الأماكن للترفيه مثل روما، وربما مغامرة في ألاسكا.

سأستأجر سيارة تخييم، وأقودها هناك لانعزل عن العالم لشهر أو شهرين.

في الواقع، ذهبت سيا إلى شمال فيرجينيا للالتحاق ببرنامج TOTT، حين كانت عائلتها تظن أنها في ألاسكا. كان البرنامج يختص بـ "مهارات العمل الميداني للفئة المستهدفة الأولى"؛ إنه الدوري الممتاز، وبرنامج التدريب الأول الذي يُعطى للضباط السريين وضباط الحالة الذين سيتم نشرهم في أصعب الأهداف: روسيا، الصين، إيران، كوريا الشمالية، وبيلاروسيا. كانت الفصول صغيرة العدد، إذ لم يزد عدد المتدربين في دفعتها عن ستة أفراد. وقد قُبلت لأنهم توقعوا سفرها بانتظام إلى موسكو.

قضوا اليوم الأول في قاعة دراسية: المتدربون الستة، ومدرب خاص لكل واحد منهم. وُضعت سيا مع رجل مخضرم يُدعى جون، وكان أيضًا كبير المدربين في دورتها. واحد وثلاثون عامًا في الخدمة، قضاها في الغالب يزحف في أروقة "البيت الروسي"، بشعر ناصع البياض نتيجة إغراق الروس له بمادة اللومينول خلال إحدى جولاته في موسكو. كانت القاعة تقع في منزل مبني بالطوب الأحمر على الطراز الاستعماري في ضواحي العاصمة واشنطن.

قال جون:

– "هذا المكان لا يهم حقًا، لأنكم لن تجلسوا خلف مكاتب، بل ستكونون في الشارع."

نظر في عيونهم جميعًا بتمعن في ذلك الصباح الأول، ثم تابع:

– "معدل الرسوب في برنامج TOTT هو خمسون بالمائة. نحن نأخذ الأمر بجدية لأنني إذا نجّحتك وكنتَ أحمقًا، سيموت عميل. إذا صممتَ مسارًا رديئًا، سنرسبك. إذا لم تكتشف المراقبة، سنرسبك. وإذا ظننت خطأً أنك مراقب وألغيت المهمة، سنرسبك أيضًا. ونعم، إذا وثّقت أي شيء عن أي شيء بشكل غير صحيح، سنرسبك. الأمر كله يتعلق بأمن أصولنا البشرية؛ إنهم الأولوية الأولى، وسنتأكد من أنكم لن تتسببوا في مقتلهم عندما نطلقكم في الميدان."

لم يكن برنامج TOTT يشبه تدريبات القوات الخاصة البحرية (SEALs)؛ لم يكن تدريبًا بدنيًا عسكريًا، وإن كان جون ومدرب آخر قد قفزا في بعض الأوقات من شاحنة، ووضعا كيسًا في رأسها، واقتاداها إلى سجنهم الوهمي، الذي كان في الواقع سجنًا محليًا حقيقيًا في مقاطعة ماديسون بولاية فيرجينيا. هناك، نجح المدربون في محاكاة أجواء "الغولاغ" السوفييتي؛ فمن الزنازين المجاورة كانت ترتفع جوقة مستمرة من الصرخات، وتفوح رائحة كريهة اتضح لاحقًا أنها ناتجة عن عشرة أرطال من المحار تُركت لتتعفن خلف جهاز التدفئة.

قضت ثلاثة أيام في تلك الزنزانة، أحضروا خلالها متشردة تدعى لوسي – التي ربما كانت مدربة، ولم تكتشف سيا حقيقتها أبدًا – وهي امرأة مضطربة ظلت تصر، حتى الغثيان، على أن تعترف سيا بجرائمها لتوفر عليهم عناء وضع رصاصة في رأسها.

في كل ليلة خلال فترة التدريب، كانت تُحرم من النوم، ويصرخ جسدها طلبًا للراحة من الحركة شبه الدائمة طوال النهار؛ إذ كانت تقطع عادة عشرين أو ثلاثين ميلاً سيرًا على الأقدام أو بالدراجة في رحلات التخطيط أو الاستطلاع. لم يكن هناك وقت للطعام أبدًا، فكانت جائعة دائمًا.

كان هدف TOTT هو دفع قدرتهم على تعدد المهام إلى أقصى الحدود، وتعليمهم كيفية التلاعب ببيئاتهم المادية، وخلق فرص للقيام بأعمال عملياتية في أماكن يخضعون فيها للمراقبة المستمرة. كان ذلك يعني أن عقل سيا يعمل بطاقته القصوى لعشرين ساعة يوميًا، كل يوم، وهي تُعد وتخطط لمهام تبدو بسيطة في منطقة تغطي كامل مساحة العاصمة واشنطن وضواحيها. استأجروا لها شقة في "كلارندون"، وكان مكتبها الوهمي يقع في العاصمة بالقرب من "دوبونت". حاكى المدربون أدوات أجهزة الاستخبارات المعادية في أقسى بيئات العمل: بكين، موسكو، هافانا، مينسك، طهران. كانت شبكة كاميرات المراقبة التي تغطي العاصمة جزءًا من اللعبة.

شرح جون في اليوم الأول أن الجهاز قام بزرع أجهزة تنصت في شقتها، ووضع جهاز تتبع في سيارتها، وسيطروا على هاتفها وسحبوا كل شاردة وواردة من بيانات الاتصالات الخاصة بها.

كانت عمليات الاختطاف والاعتقال والاستجواب واردة الحدوث في أي وقت. تواترت الأساطير عن ضباط سابقين انهاروا باكين تحت أضواء غرف التحقيق، وعن أولئك الذين نجحوا في الهروب من فرق الاختطاف (التي لعب دورها عملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالي)، وعن آخرين هاجموا الحراس، والحمقى الذين وافقوا

على لقاء ضباط مكافحة تجسس معادين (قام المدربون بأدوارهم) فطُردوا فورًا من الدورة.

كان اليقين الوحيد هو أن TOTT سينتهي خلال ثمانية أسابيع، وأنهم إما سينجحون أو يرسبون. لم تكن هناك سوى هذين الاحتمالين فقط.

وهنا تعلمت سيا أن أساليب التجسس القديمة قد ولت واندثرت تمامًا.

وقف جون ممسكًا بهاتفه، والضوء الشاحب يتدفق عبر النوافذ القذرة، وقال:

– "يوجد هنا ما معدله اثنان وسبعون تطبيقًا، كلها تنفث غبارًا رقميًا، وتقترن بعشرات أجهزة الاستشعار والأبراج غير المرئية. الآن، لم يعودوا بحاجة للقبض عليك وأنت تنفذ مسار كشف المراقبة؛ بل يربطون كل هذه البيانات ببعضها ويقبضون عليك لاحقًا. ثم يقتلون عميلك."

تفرقوا بعد اليوم الأول. في TOTT، كان عليك أن تسير وحدك. وكان ذلك جيدًا؛ فهي بارعة حين تكون بمفردها.

في كل أسبوع، كان جون يأتي بمهمة جديدة إلى شقتها: اعثري على موقع لوضع بريد ميت، موقع للقاء خاطف، موقع للتخزين ثم ضعي عشرة آلاف دولار هناك، موقع للإشارة ثم ضعي العلامة. كانت تخطط، وتكتب التقرير، وتقدم خطتها لـ جون، ثم تنفذ العمل الميداني. أحيانًا كان جون يقاطعها، ويحاول مقاطعة تدريبها ليرى رد فعلها: "العميل غير وقت اللقاء أو مكانه"، أو "مهلًا، لدينا متطوع نحتاجك أن تقابليه الليلة!" وفي إحدى المرات، أمسكوا بها قبل عشر دقائق من وضع إشارة الإبلاغ، ووضعوا غطاء وسادة فوق رأسها. دفعتها مدربة شرسة بعنف، تاركة لوحة من الكدمات على معصميها وأضلاعها. ومرة أخرى، اقتيدت إلى سجن مقاطعة ماديسون، وهذه المرة قضت الليل مقيدة إلى جهاز التدفئة، تستنشق رائحة المحار المتعفن.

كانت مهمتها الأخيرة هي العثور على موقع لتنفيذ "تمرير خاطف" مع عميل في الحادي عشر من أبريل، عند الساعة 22:13، وتنفيذ العملية. ما مدى صعوبة ذلك؟

قامت سيا بالاستطلاع، وخططت، وفقدت خمسة باوندات من وزنها في ذلك الأسبوع الأخير لأنها لم تكن تأكل أو تنام، وكان قلبها يدق بعنف حتى وهي تبدو للعالم الخارجي هادئة، بل ومطمئنة. لا تعرق، لا ارتعاش، لا التفات للخلف، لا دوران للرأس بترقب. المحامون العاديون ذوو الحياة الرتيبة لا يمارسون فنون التجسس في الشوارع، ولا ينهارون وهم يسيرون في موسكو. إنهم مملون. وهي بدت مملة. لكن في عقلها، كانت هناك دائمًا حالة طوارئ قصوى.

في صباح يوم اللقاء المرتقب، لم تستطع سيا سوى أن تجبر نفسها على ابتلاع قطعة واحدة من الخبز المحمص الجاف في شقتها، قبل أن تستقل المترو متجهة إلى "دوبونت" حيث يقع "مكتبها"؛ ذاك المبنى الخرساني التابع لجامعة "جونز هوبكنز".

كان رأسها يموج بفوضى عارمة من فرط التركيز؛ عيناها تصنفان كل شاردة وواردة، وعقلها يدون ملاحظات عن كل ما يحيط بها، وكأنها ترسم خريطة للعالم بأسره. تناولت غداءها في مطعم مكسيكي شرق "كالوراما"، وأتبعته بفنجان قهوة من مقهى مجاور، متقمصة دور محامية عادية مملة تستمتع باستراحة غداء طويلة.

لكن سيا لم تكن محامية عادية، ولا حتى متدربة تقليدية. فلو كان الأمر بيد "العاديين"، لسيطر عليهم هاجس واحد:

إذا ظهرت في الموقع وأنا تحت المراقبة، سأُطرد فورًا. لن يكون الطرد من برنامج TOTT فحسب، بل ستحترق مهمتي الخارجية، وإذا أفسدت هذا الأمر، فقل وداعًا لمسيرتي المهنية.

أما سيا، فكانت من طينة أخرى؛ ففي ذلك اليوم، لم يشغل بالها سوى الفوز، وهزيمة جون وفريق مراقبته. لم يدر بخلدها احتمال الفشل ولو للحظة، ولم تره حتى كخيار بعيد الاحتمال.

عادت من المقهى إلى المكتب، لتلمح جون في الخارج جالسًا داخل سيارته، ينقر على شاشة جهازه اللوحي، ويهمس في سماعة أذن لاسلكية. مشهد يبدو "طبيعيًا"، لكنه كان المايسترو الذي يقود فريق الخصم، وكان عليها ألا تبدي أي إشارة تدل على أنها لاحظت وجوده.

قضت وقتها تتنقل بملل داخل المكتب حتى الخامسة مساءً، ثم قفلت راجعة إلى شقتها. لم ترصد أيًا من مراقبي جون في الشارع، لكن هذا لا يغير من الحقيقة شيئًا؛ فهم يسيطرون على هاتفها وسيارتها وشقتها، ويعرفون مكانها بدقة. وقد حانت اللحظة لتغيير قواعد اللعبة.

في المنزل، ارتدت ملابسها الرياضية، والتقطت حقيبة كانت قد جهزتها خلسة في عتمة خزانتها، ثم انطلقت إلى النادي الرياضي. طوال فترة التدريب، اعتادت زيارة هذا المكان يوميًا بعد العمل، حيث تودع الحقيبة – التي تحوي هاتفها المراقب – داخل إحدى الخزائن، ثم تمارس نشاطها؛ تارة ترفع الأثقال، وتارة تسبح، وتارة أخرى تركض.

وفي هذه الليلة، اكتفت برفع الأثقال لعشرين دقيقة، ثم خرجت للركض في الهواء الطلق وتحت نسائم الربيع. بلا هاتف، بلا سيارة، وبملابس تناسب الركض في الخارج: سروال يوغا، وسترة خفيفة، وقبعة رياضية. تذكرت درسًا قاسيًا من الأسبوع الأول حين كانت تستطلع مواقع الإشارة وهي ترتدي تنورة وبلوزة؛ حينها قال لها جون ساخرًا أثناء جلسة التقييم:

– "لا يمكننا أن نتخبط في وحل حديقة روك كريك ونحن نرتدي تنورة، أليس كذلك يا هورتنسيا؟"

كان مسار ركضها ليبدو عشوائيًا لأي مراقب، وكأنها ترتجله لحظة بلحظة، لكن الحقيقة أنها قضت أيامًا في هندسته؛ حفظت كل منعطف، ودرست كل وقفة لالتقاط الأنفاس، وعرفت موقع كل كاميرا مراقبة على طول الطريق.

واصلت عملية المسح الذهني أثناء ركضها: الوجوه، المركبات، الملابس، وأدق التغيرات في البيئة المحيطة؛ هنا منزل من الطوب الأبيض طُليت نوافذه حديثًا، وهناك زهور زُرعت لتوها أمام منزل آخر، وباب مرآب مفتوح اعتادت أن تراه مغلقًا. لقد ركضت عبر أجزاء هذا المسار عشرات المرات طوال فترة التدريب؛ في الصباح والمساء، تحت المطر وتحت الشمس، حتى أصبح لزامًا عليها أن "تشعر" بالشارع، وأن تدع كل جزء من "مسار كشف المراقبة" يخاطب حواسها، ويهمس لها إن كان "الخصوم" يطاردونها.

بعد ساعتين من الركض، وصلت إلى "كريستال سيتي" والحي الوارف المحاذي للحديقة حيث سيتم "التمرير الخاطف". لم تشعر طوال حياتها بهذا القدر من التناغم مع العالم؛ كل لون، وكل صوت، وكل رائحة كانت تمتصها حواسها وتعالجها وتصنفها. كانت في حالة من "التدفق" الذهني التام، تركض بثقة، وتيقنت أنها ستنتزع الفوز لا محالة.

العالم نابض بالحياة، وأنا أرى كل تفاصيله.

كانت قد صممت "منطقة استدراج" (PZ) بالقرب من الحديقة؛ وهي المنطقة التي ستقلب فيها الأدوار لتصطاد هي فريق المراقبة. كان ذلك بمثابة فحص أخير قبل اللقاء. خطتها لهذه الليلة كانت أن تتوقف، وتنظر داخل حاوية نفايات، ثم تقفز بداخلها؛ تصرف غريب يكفي لاستفزاز أي مراقب متخفٍ وكشفه.

خرجت سيا من الحي، وهبطت عبر شارع "الثالث والعشرين" بمحاذاة صف من المتاجر والمطاعم، ثم انعطفت يمينًا عائدة باتجاه الحديقة. زادت من سرعتها وهي تمر بجانب صيدلية، ونادٍ للتعري منخفض البنيان يبدو كأنه مطعم لحوم، لتصل أخيرًا إلى موقف سيارات مشترك بين محطة وقود ومطعم كباب.

وهناك، في قلب "منطقة الاستدراج" التي حددتها، كانت سيارتان سوداوان من طراز "سيدان" تقفان ومحركاتهما دائرة. إنهم رجال جون، أولئك الأوغاد الذين أفسدوا عليها حالة الانسياب الذهني، تمامًا مثل تلك الليلة التي كبلوا رأسها وضربوها. إذن، لا داعي للقفز في حاويات النفايات الليلة؛ فقد كشف الخصم عن نفسه مبكرًا متحديًا إياها أن تتصرف.

حسنًا، فلنبدأ اللعبة.

كانت قواعد اللعبة واضحة: عليك أن تتخلص من المراقبة دون أن يشعر المراقبون أنهم فقدوك. الفوز يعني تطويع البيئة المحيطة لتوفير بضع ثوانٍ خالية من العيون، تكفي لتنفيذ "التمرير الخاطف" والابتعاد بسلام.

هرولت نحو الحديقة التي اختارت موقعها بعناية جراح فائقة؛ أرض منخفضة قليلًا تشبه الوعاء، يحيط بها سياج من أشجار الصنوبر والتنوب. ينطلق ممران من موقف السيارات، يرتفع كلاهما للأعلى قبل أن ينحدرا نزولًا إلى قلب الحديقة، دون وجود مداخل من الجوانب الأخرى، وتغطيها إضاءة متفاوتة الشدة من مصابيح الشارع وأضواء ملاعب كرة القدم.

حسبت الأمر بدقة: إذا تمكنت من بلوغ قمة الممر قبل أن يترجل رجال جون من سياراتهم، فستمتلك عشر ثوانٍ – عشر ثوانٍ بالضبط – لإتمام عملية التسليم. وإذا تأخر العميل – وكان جون هو من يلعب دوره الليلة – فإنها ستلغي المهمة فورًا.

انطلقت عبر موقف السيارات، وصعدت الممر متسللة ببراعة وسط حشد من المراهقين المتسكعين بعد مباراة كرة قدم. وصلت إلى القمة تحت ظلال الأشجار، وحين تناهى إلى سمعها صوت إغلاق أبواب السيارات، حدثت نفسها:

هذه هي اللحظة. سأنتصر لا محالة.

اندفعت نزولًا عبر المنحدر إلى داخل الحديقة، وهي تعد تنازليًا من الرقم عشرة، ولمحت جون أمامها على الممر، قابعًا في العتمة.

فكرت: *إنه يحيا في الظلال، تمامًا مثلي.*

وحين أبطأت خطواتها لتلتقط شريحة الذاكرة وتدسها بسلاسة في جيب سترتها، كان عدادها قد تجاوز الرقم ثلاثة. في تلك اللحظة الخاطفة، ولأول مرة منذ انضمامها للاستخبارات المركزية، اجتاحها شعور غريب؛ حنين جارف لأيام خلت من شبابها، حين كانت تبلغ أقصى حدود ذاتها وتكتشف أن تلك الحافة الخطرة هي المكان الذي تشعر فيه بأنها على قيد الحياة حقًا.

تحت ذلك الغطاء الخانق، وأمام عين مراقبتهم التي لا تغفل، انتزعت موطئ قدم صغيرًا كفيلًا بأن يقلب الطاولة ويخسرهم المعركة برمتها. تلاقت هذه الأفكار لتشعل في داخلها نشوة نصر خالصة، شعورًا ستصفه لـ جون لاحقًا بأنها أحست وكأنها "إله"؛ متفردة، كليّة القدرة، ترى كل شيء، حارسة للأسرار كلها، والمنتصرة في جميع المعارك، من الآن وإلى الأبد. آمين.

الفصل السادس والعشرون

روس-فارم

منذ ساعاته الأولى في هذه الدنيا، عرّفته أمه على الخيل، وحين رحلت، قضى ساعاته الأولى دونها ممتطيًا صهوة جواد. لقد رافقته الخيول وهو بجوار الأصدقاء، والأعداء، والعشاق، وأناسٍ لم يعد يتذكر ملامحهم. وكان على ظهر حصان، يسير بجانب والده، في ذلك اليوم الذي ألمح فيه العجوز لأول مرة إلى علاقته بوكالة الاستخبارات المركزية (CIA). كان من النادر أن يجد ماكس مزرعة للخيول الأصيلة لا تروق له، ومن غير المسبوق أن يداهمه الشعور بالازدراء بمجرد بلوغ حدود المزرعة.

لكن شعورًا بالخلاء المقبض ضربه في اللحظة التي عبروا فيها البوابة الحديدية المتجهمة لمزرعة روس-فارم. كانت الجدران الحجرية الملوثة قد نُقشت بصور فحول هائجة ترمق القادمين بعيون ملؤها الكراهية، بينما تحرس الطريقَ أشجارٌ عارية كثيفة تحجب ضوء الشمس الواهن. وكلما توغلوا بالسيارة داخل المزرعة، ازداد الطريق إظلامًا، وبدت الأشجار وكأنها تلتوي في تشنجات متألمة. لم يلمح ماكس أي دليل على وجود رابط بين هذه المزرعة والعالم الخارجي خلف السياج؛ فلا حركة هناك، ولا ضجيج، ولا حيوانات. كانت الغابة ميتة، لولا رائحة خفيفة للدخان والبنزين تسبح في الهواء؛ رائحة تهديد لجيش غير مرئي يحتشد في الخفاء.

استسلمت الغابة، وحين لاح المنزل، استحال خواؤه خوفًا. فكر في قرارة نفسه: يجب أن نغادر.. يجب أن نبتعد. ولم يكن ذلك خشية أن يمسكوا به

كجاسوس، بل كان ثمة شيء آخر؛ شيء لا يستطيع تسميته إنما يشعر به فقط: غياب الخير، وطاقة مظلمة تنبض من القصر.

دارت السيارة حول نافورة خيول تضاهي القصر ارتفاعًا، وتوقفت عند أسفل درج رخامي. مد ماكس يده لمقبض الباب، فأدرك أن أصابعه قد تجمدت برغم عمل مدفأة السيارة.

كان فاديم وآنا في استقبالهم بقبلات مرحة داخل بهو كئيب. أراد ماكس أن يسأل: "ألا يمكننا البقاء في بيت الضيافة؟"، لكن الحقائب كانت قد اختفت، إذ حملها طاقم الخدم الصامت بعيدًا. بدت سيا – كما خُيّل إليه – متخففة من الأحمال، وغافلة عن ثقل هذا المكان.

أشرق وجه آنا حين رأت مقطورة الخيل؛ إذ كان جمع من سُياس الخيل في روس–فارم يحتشدون لاستقبال سموكي جو. إن وصول حصان تبلغ قيمته ستة ملايين دولار يعد حدثًا نادرًا، حتى بالنسبة لمؤسسة فاحشة الثراء مثل هذه المزرعة.

قالت آنا وهي تنقر خد ماكس بقبلة أخرى:

– "لُطفٌ كبير منكم أن تحضروها. طلبتُ منهم التوقف هنا قبل الذهاب إلى الإسطبلات؛ سأذهب لإلقاء التحية."

نزلت الدرجات الرخامية نحو البرد القارس. كانت المقطورة مغلقة ومدفأة لتلائم الشتاء، مع مقصورات منفصلة لكل حصان. فتحت آنا باب القسم الخاص بالفرس بينيلوبي وصعدت إليه. وقبل أن تختفي في الداخل، لمح ماكس شيئًا جعله يتساءل عما إذا كانت سيا تملك فرصة مع هذه المرأة رغم كل الصعاب؛ كانت آنا تبتسم.

صفق فاديم بيديه قائلًا:

– "ما رأيكم في جولة؟"

***

في ذلك المساء، راحت الرياح تضرب النوافذ بينما محت الغيوم القمر والنجوم. راقبت سيا من نافذة غرفة النوم ثلوجًا تتساقط باندفاع. كان البرد قارسًا لدرجة أن عرق جسدها أثناء الجولة قد تجمد مشكّلًا طبقة رقيقة على بشرتها بدلًا من أن يتبخر عبر ملابسها. ورغم أنها أخذت حمامًا ساخنًا، ثم اغتسلت بماء يغلي، إلا أنها ظلت تشعر بالقشعريرة وكأن دنسًا علق بها.

خطفت هاتفها من المنضدة الجانبية وكتبت رسالة "إثبات الحياة". في رسالة بدت كأنها بريد إلكتروني لمساعد تنفيذي في شركة هاينز دوسون، استفسرت عن عدة معاملات للعملاء، بما في ذلك معاملات لقطب شحن يوناني. ستُحول الرسالة إلى بروكتر، وسيكون ذكر اليوناني إشارة إلى أن كل شيء يسير وفق الخطة. انطلقت الرسالة، والتقطت سيا واحدًا من ألواح (كليف بار) التي عالجتها وكالة الاستخبارات لتتناوله. خرج ماكس من الحمام مستعدًا للعشاء، مرتديًا سترة داكنة بياقة عالية وسروالًا وحذاءً، بينما ارتدت هي فستانًا أسود وحذاءً عالي الكعب.

سارا في خط مستقيم نحو غرفة الطعام قدر استطاعتهما، مدفوعين بقناعة صامتة وواضحة بأن هذا ليس نوع البيوت الذي يُستحب استكشافه. كان التصميم محيرًا؛ ممرات متعرجة، وغرف بلا نوافذ لا تتصل بأروقة بل تقبع داخل غرف أخرى.

عند نهاية الرواق توقف ماكس، واضعًا يده على شفتيه. لم ينطقا بكلمة منذ غادرا غرفة النوم.

توقفت سيا وأصغت إلى همهمات خلف أحد الأبواب.

التقطت صوت صراخ فاديم، ثم رد آنا الصارخ. وقرع زجاجة ترتطم بكأس. تقلصت معدة سيا، ولم تدرِ للسبب تعليلًا. سوت فستانها واندفعت متجاوزة ماكس، لتدفع الباب الثقيل وتفتحه. كان ثمة رأس دب محنط معلقًا فوق المدفأة،

بينما وقفت آنا وفاديم أمام نار متأججة، والمشروبات في أيديهم، وقد قُطع جدالهما في منتصفه.

صاحت سيا بمرح:

– "يا إلهي، هل بدأتم الحفلة دوننا؟ نعتذر عن الاقتحام، لقد تهنا، صدقوا أو لا تصدقوا!"

بدأت الأمسية بجولة من طقوس الفودكا قبل الانتقال إلى غرفة الطعام. كانت ثلاث ثريات حديدية – تذكّر بأدوات التعذيب في القرون الوسطى – معلقة فوق طاولة بدت في عين سيا أطول من عشرين قدمًا، وتئن تحت وطأة كميات من الطعام جعلتها تشعر بالغثيان. تضمن العرض طبقًا يسمى "دجاج رودينا"، همست آنا لسيا بأنه كان يُعرف قبل الحرب بـ "دجاج كييف". جلس الزوجان قبالة بعضهما في أحد طرفي الطاولة. كان فاديم ثملًا تمامًا، يحث ماكس على مجاراته. كانت كؤوس النبيذ و(الستوبكي) المليئة بالفودكا تُملأ وتُعاد تعبئتها باستمرار. وفي كل جولة، يحضر الخدم كؤوسًا مثلجة جديدة. لا شك أن الكؤوس الفارغة، فكرت سيا، تُنقل بعيدًا لرفع البصمات وربما عينات الحمض النووي (DNA).

قال فاديم:

– "من الجميل أن يكون لدينا ضيوف من خارج روسيا على مائدتنا. لقد أصبحت هذه الزيارات نادرة بسبب الأكاذيب التي تُقال عن بلادنا. الدعاية المغرضة؟ يا إلهي."

جرع كأس فودكا وطلب كونياك. خمنت سيا أن التحول في نوع الكحول هو "الخطوة الانتحارية"، مما يعني أنه ينوي إما النوم خلال نصف ساعة أو الانتقال لتعاطي الكوكايين. لم تبدُ آنا مستمتعة.

تابع فاديم قائلًا:

– "على سبيل المثال، هذه القصة حول قيام الروس بتسميم المعارضين في بولندا. بعض أصدقائي توقفوا عن قراءة الصحف الغربية، لكنني ما زلت أقرأها؛ هذا مهم للأعمال. وهل تعلمون ماذا رأيت في (الفايننشال تايمز)؟ تسريبات من الـ CIA تزعم أن رئيسنا شخصيًا أمر بالهجمات."

هز فاديم رأسه وعبث بطعامه، ثم أضاف:

– "لن يتوقف الأمريكيون عن فعل أي شيء لتشويه سمعتنا. ما هو رأي المكسيك في هذا يا ماكس؟"

هز ماكس كتفيه، وسحب المزيد من الدجاج إلى طبقه قائلًا:

– "الخونة ينالون ما يستحقون."

ابتسم فاديم ابتسامة عريضة.

قالت سيا وهي ترمق آنا بنظرة استعطاف:

– "أرجوكم، نحن لسنا مهتمين بالسياسة."

رد فاديم:

– "في روسيا كل شيء سياسي. كل ما يهم على الأقل." ثم التفت إلى سيا: "حسنًا، وأنتِ ما رأيك؟"

مضغت سيا قطعة توست مغطاة بكبد الإوز، وتظاهرت بالتفكير في إجابتها، ثم قالت:

– "أعتقد أن روسيا هي من فعلت ذلك على الأرجح."

أطلقت ضحكة فاديم قطعة من البط الممضوغ لتقفز فوق طبقه. ابتسمت آنا بظلمة وهزت رأسها مطلقة صوتًا بلسانها استهجانًا. قال فاديم:

– "يا إلهي. حقًا؟"

أجابت سيا:

– "نعم. ولماذا لا أعتقد ذلك؟"

كانت تعليمات بروكتر للتعامل مع الروس واضحة: لا تظهري ضعفاً، وتشبثي بموقفك.

أكملت قائلة:

– "كما قال ماكس، الخونة ينالون ما يستحقون."

قبل أن يتمكن فاديم من الرد، فُتحت الأبواب ودخل جيش من طاقم المطبخ يحملون كعكة نابليون كبيرة وزجاجة فودكا طازجة تتصبب عرقًا في الثلج. شرحت آنا أن كل قطعة كعك تتكون من اثنتي عشرة طبقة ومصحوبة بحصان من الشوكولاتة؛ تمثال صغير للإمبراطور نابليون يمتطي جواده. انكسرت الساق الأمامية اليسرى لحصان سيا حين انزلق الطبق أمامها. أعاد الخدم ملء كؤوس الستوبكي.

وبينما استمر فاديم في الثرثرة، تناولت سيا قضمة من الكعكة وفكرت فيما سيفعلانه الليلة. لم تنظر إلى هذه المهمة يومًا على أنها وظيفة، بل كانت أشبه بحياة، ولأنها حياة، نادرًا ما فكرت في غرابتها. حياتك هي حياتك؛ أمر طبيعي. لكن سيا سمحت لنفسها الآن بلحظة لتتأمل جنون هذا الموقف، والمخاطرة التي تخوضها. لكن سرعان ما تبخر ذلك في دفقة من الأدرينالين، وركز عقلها استعدادًا للعبة القادمة.

قاطعت آنا حديث فاديم، قائلة إن عليهم جميعًا النوم:

– "لقد تجاوزنا منتصف الليل بكثير. أجسادهم تظن أن الصباح قد حل بالفعل."

كانوا يغادرون غرفة الطعام حين قالت سيا:

– "انتظروا. شيء واحد."

عادت بخطوات واثقة إلى الطاولة، التقطت حصان الشوكولاتة وقضمت رأسه. راقبت فم آنا وهو يلتوي في ابتسامة عارفة، وكأنها قبلت تحديًا غير معلن. لعقت سيا أصابعها وشبكت ذراعها بذراع ماكس للصعود إلى الطابق العلوي.

***

حين تعثرت خطواتها داخلةً الغرفة، لم تكن أفكارها تتمحور حول الرومانسية، بل – وبشكل جنوني – حول الأعمال الورقية. كان على ضباط الـ CIA كتابة برقيات لتوثيق اللقاءات الجنسية أو الحصول على موافقة للعلاقات مع الأجانب. ورغم أن ماكس كان ضابطًا أجنبيًا (FNO)، إلا أنه كان مواطنًا مكسيكيًا أيضًا، مما جعل البيروقراطية اللعينة تضع الأمر في منطقة رمادية.

تحررت من هذه المناورات الذهنية البيروقراطية وتفحصت ماكس. كان جالسًا على حافة السرير، صامتًا، فانزلقت بجانبه. جلسا هناك، يتبادلان النظرات للحظة مشحونة، يتشاركان إشارة لم يُخطط لها؛ لا براعة تجسس، ولا شيء عملياتي، مجرد شخصين يتواصلان بصمت بأنه قد حان الوقت لإنهاء شكوك الروس، وتسوية أي تناقضات ظهرت في علاقتهما، وأن كل ذلك يجب أن يجري تحت المراقبة، ليخلد للأبد في السجلات الأرشيفية لأجهزة الأمن الروسية.

كانت هناك مبررات عملياتية – حتى بروكتر قالت ذلك – لكن سيا شعرت أيضًا برغبة ماكس فيها في "سانت آيفز". لم تفعل هذا منذ وقت طويل، بسبب العمل وكل شيء، وشعرت بالكبت، وكأنها تحرم نفسها. وهذا ما كانت تفعله حقًا: لقد تمكنت من التوقف في جلسة تدريبهما فقط لأنها كانت متوترة للغاية استعدادًا لهذه الرحلة وأرادت التغلب عليه، لفرض بعض السيطرة، وكان ذلك كافيًا لكبح جماح رغبتها. لكنها الآن كانت ترسل إشارات بالرغبة التي تسري في عروقها. وكل أسباب التوقف بدت حمقاء من الناحية العملياتية. أنزل ماكس ملابسها الداخلية

إلى كاحليها، وراح يقبل ساقيها، ثم أمسكت بشعره بقوة لتوجهه، وكان ينبغي أن يكون هناك تحليق، وانعدام للوزن.

لكن رغبتها تلاشت. نظرت لأسفل إلى ماكس. وحول الغرفة. الكاميرات كانت في كل مكان، والمنزل ثقيل الوطأة، وهي مع رجل هو في النهاية زميل مهني. والمراقبون سيجلسون معهم على الإفطار غدًا، يعالجون صداع الكحول، متعجرفين بمعرفة أنهم شاهدوهما يمارسان الجنس. انطفأ المفتاح بداخلها. أرادت أن تتسلل تحت الأغطية. بدلًا من ذلك، رفعت فستانها للأعلى واستلقت على السرير.

بدا أن أحد مصابيح السقف يختلس النظر إليها، ففكرت أن هذا هو المكان الذي ستضع فيه الكاميرا. أشاحت بوجهها، لم تستطع منع نفسها، لم تستطع النظر إلى المراقبين. كانت تريده، لكنها لم تستطع النظر إليه الآن. كانت عيناها مغمضتين حين بدأ. شعرت في البداية وكأنه إحراج كوني قد لا تتخلص منه أبدًا.

لكن بينما كان يواصل، عادت شهيتها. كان قويًا، يتحسس ما يحبه جسدها، وسمحت سيا للستار بين المسرح والواقع أن ينزاح قليلًا. وضعت يديها على كتفيه، وعلى صدره. تبادلا القبلات، وأحبّت طعمه، وكيف كانت رائحته مزيجًا من الأرز والملح. كان التدفق جميلًا؛ ذراعان واثقتان احتضنتا ظهرها ورأسها وأبقتاها قريبة، وتلامست جبهاهما برفق، وراقبته عيناه عن كثب فرأت أنه غارق في اللحظة، وسرعان ما غرقت هي أيضًا.

بعد قليل دفعته للخلف وربتت على السرير. استلقى، وانزلقت فوقه. أرجعت رأسها للخلف لتبعد الشعر عن عينيها، وبدأت تتحرك، وسرعان ما سرت فيها كهرباء مألوفة. فتح فمه، لكنها ضغطت بإصبعها على شفتيه.

همست:

– "لا.. ليس بعد."

***

عبر اللون الأخضر للرؤية الليلية للكاميرات الست الموصولة بغرفة سيا وماكس، شاهدت آنا وفاديم فعلًا يذكّر بركوب حصان يعدو بقوة. كانت هناك نوبات متكررة من الألفاظ الجريئة؛ وثلاث مرات قبضت سيا على كتفيه وأرجعت رأسها للخلف وارتجفت. جعل ذلك آنا تفتقد لوكا.

سألت فاديم:

– "هل تعتقد أن تلك المشاعر حقيقية؟"

هز فاديم كتفيه:

– "إن لم تكن كذلك، فهو أداء مقنع."

– "حسنًا، ما رأيك فيهما الآن؟"

مرة أخرى، هز كتفيه.

استقرت أفكار آنا على كاميرا فاديم المثبتة في السقف. تدحرج تعليق ساخر إلى طرف لسانها، لكن حين التفتت لقوله، كان فاديم قد اختفى.

الفصل السابع والعشرون

روس–فارم

في الصباح التالي، اختفى الرجال قاصدين "الحمّام"، بينما قامت سيا وآنا بربط مقطورة الخيل بسيارة دفع رباعي من طراز "رولز رويس"، وحمّلتا الفرس بينيلوبي وفرسًا أخرى لجولة على الحافة الشرقية للمزرعة. كانت بعض الأشجار قد سقطت – حسب قول آنا – فسدّت الممرات القريبة من المنزل والإسطبلات. شقتا طريقهما عبر مرعى تكسوه التلال بهرولة خيول بطيئة، تحت سماء كئيبة مثقلة بغيوم تحجب ضوء الصباح الشاحب.

كان لزامًا أن يبدو هذا الحديث سلسًا وطبيعيًا، رغم أن سيا قد خططت لكل كلمة فيه وتدربت عليها مسبقًا في "سانت آيفز". سارتا في صمت لفترة، اغتنمتها سيا لتقييم آنا، فأدركت أن ماكس كان محقًا بشأن علاقة المرأة الروسية بفرسها بينيلوبي؛ إذ لانت نظرات آنا وملامحها منذ الإفطار. بدا لسيا أن العالم بأسره يزداد رقة كلما ابتعدتا بخيولهما عن القصر. تفرست سيا في السرج ومعدات الركوب، متسائلة عن المكان الذي أخفوا فيه أجهزة التنصت، ثم طردت الفكرة من رأسها. لا يهم.. على الأقل ليس بعد.

كذبت سيا قائلة:

– "المزرعة جميلة."

ردت آنا وهي تهمس لفرسها:

– "إنها كذلك، شكرًا لك."

ابتسمت سيا وسألت:

– "هل تفهم الروسية؟"

ضحكت آنا، مما باغت سيا، فالضحك عملة نادرة لدى هذه المرأة. قالت:

– "أنا أقوم بتعليمها."

في "سانت آيفز"، ألقى بروكتر تحديه الصريح: "التجنيد المشترك"، رقصة ثنائية تعمل فيها كل امرأة على استدراج الأخرى. كان يقول: أحب عمليات التجنيد المشترك مع الروس، لأنهم إذا قبلوا المواعدة، فإنهم يكملون العلاقة للنهاية. ولهذا السبب ترفض الأجهزة الروسية ذلك إذا علموا أن الطرف الآخر من الـ CIA. إنهم يخرجون معنا للعشاء، وسرعان ما يخلعون سراويلهم المجازية، كاشفين كل شيء. إذن، كيف تجلبهم إلى الطاولة؟ حسنًا، تبدأ بدعوتهم.

قالت سيا:

– "خلال الرحلة إلى هنا، أدهشني أنني لا أعرف الكثير عن عائلتك. ربما تخبرينني القليل عنهم؟"

راقبت سيا المرأة الروسية عن كثب وهي غارقة في التفكير. توقفتا عند قمة تلة تطل بمنظر مهيب على وادٍ يمتد في الأسفل، حيث شق لسان من الأرض المفتوحة صفوف الأشجار. وجهتا الجياد نزولًا عبر الجانب البعيد من المرتفع الثلجي، وصوت الحوافر يقرمش فوق الثلج. هيأت سيا عقلها لتوثيق كل كلمة، وكل وقفة، وكل ما يُترك دون قول.

قالت آنا وهي تحدق في الأفق البعيد:

– "العائلة.. والدي ضابط سابق في الـ KGB، ويعمل الآن في التجارة. إنه يجسد كل ما تتوقعينه: متسلط، وداهية، ومخادع، وغالبًا ما يكون طيبًا."

ربتت آنا على سرج بينيلوبي، فقالت سيا:

– "والدي هو من علمني ركوب الخيل. هل فعل والدك ذلك؟"

دمدمت آنا:

– "بل أمي من علمتني. رحلت وأنا صغيرة. بالنسبة لي، الحياة انقسمت إلى موسمين: موسم مع أمي، وموسم بدونها. كانت تشجعني وتخرج أفضل ما ڤي. كانت روحها مضيئة. الكثير من الروس لا يذكرون تلك الفترة إلا كزمن للفوضى، لكنها بالنسبة لي تعني الفرح أيضًا. تعني أنا وأمي على صهوة جواد. لم تكن مثل أبي، أو آل كوفالتشوك، أو أي منهم حقًا. لم تكن تشبهني حتى.. كانت مختلفة."

سألت سيا:

– "ماذا تعنين؟"

ضحكت آنا. وبدا وكأن الكلمات تحوم حول شفتيها لكنها لم تخرج. واصلتا الركوب لبضع دقائق، ولم يقطع الصمت سوى صوت الحوافر تخوض ڤي الثلج غير المتماسك. كان الهواء مشبعًا برائحة الخشب ومسك الخيول، وفكرت سيا أن كل هذا كان يمكن أن يكون جميلًا لولا حقيقة أنهما ڤي حلبة مصارعة رملية، تدور كل منهما حول الأخرى وبيدها سكين.

سألت سيا:

– "كيف كانت والدتك مختلفة؟ لا أقصد التطفل."

أمسكت آنا باللجام وتأملت السماء، وكأنها تتوقع هطول الثلج. كانتا محاطتين بالأشجار حين قالت:

– "هل تشعرين أحيانًا أنك مجرد قطعة على رقعة شطرنج يلعب بها شخص آخر؟ يتم تحريكك ليفوز غيرك؟ أمي لم تكن كذلك. لم تلعب ألعابهم."

قالت سيا:

– "أظن أن الجميع يشعرون بذلك أحيانًا."

ومضت في ذهنها فكرة سريعة وغير مرحب بها عن الـ CIA وبروكتر، لكنها تابعت:

– "جدي قال إنه سيتكفل بمصاريف دراستي الجامعية بشرط واحد: أن أدرس القانون. أراد محاميًا في العائلة. ووالدي كانت لديه تلك الفكرة البائسة بتسمية بناته بأسماء الزهور. هورتينسيا؟ تباً، لقد كنت ألعب لعبة شخص آخر منذ يومي الأول."

– "ما اسم شقيقتك؟"

– "ديزي."

ابتسمت آنا ابتسامة خبيثة.

قالت سيا:

– "هل هذا هو الوضع مع فاديم؟ هل تلعبين لعبته؟"

تلاقت العيون، وكل منهما تقيس الأخرى. كان جلد وجه آنا مشدودًا، وبرز عرق ينبض في عنقها وكأنها تطحن أسنانها غيظًا. أشاحت الروسية بوجهها أولًا.

قالت آنا:

– "أراد والدي جمع المال بعد وفاة أمي، لذا ساعدته في عقد شراكة مع آل كوفالتشوك عبر زواجي من فاديم. كانت لعبة أبي، وليست لعبتي. وفاديم يحب نساءه مطبقات الأفواه مشرعات السيقان، لذا..."

عضت شفتها السفلى ولاذت بالصمت.

قالت سيا:

– "لستِ بارعة جدًا في لعبته، أليس كذلك؟"

خيم ظل على عيني آنا وقالت:

– "ولكن أي لعبة أخرى توجد لتُلعب؟"

– "لعبتك الخاصة."

قربت آنا فرسها بينيلوبي من سيا وقالت:

– "لا وجود لشيء كهذا."

لكن بريق عيني المرأة الروسية فضح كذبها. كانت هناك حياة أخرى في الداخل، وهي التي تدير الأمور.

تقدمت آنا بضعة أمتار للأمام، وساد الصمت أرجاء الغابة.

أحيانًا تترك الأمور لتهدأ، فكرت سيا، وأحيانًا تنتظر.

***

لعنت آنا نفسها لأنها انفتحت في الحديث، ولأنها ثرثرت عن عائلتها. لم تكن تفعل ذلك أبدًا، مع أي أحد، حتى لوكا. وبدلًا من اختراق سيا واكتشاف رغبة في حماية حبيب، أو حاجة للمال أو الجنس أو السلطة، أو– ما هو أفضل – إدمان غريب ومشين، بدت آنا وكأنها تحفر نفقًا داخل نفسها. أرادت إيقاف هذا والركوب فقط. الركوب وحسب. تركت إحباطها يتردد صداه في عقلها، ثم تخيلت أنها تعالج هذا الإحباط بميتة روسية مخزية تليق به: إلقاؤه من فوق مبنى ليموت على الرصيف في الأسفل. لديها عملية لتديرها، وعائلة لتحميها، وفريسة لتصطادها.

مسحت آنا على عرف بينيلوبي لتصفية ذهنها. بدأ الثلج يتساقط بكثافة. توقيت مثالي.

صاحت:

– "يجب أن نعود."

***

حثتا الخطى نحو الإسطبلات، ورؤوسهما منخفضة لمواجهة الثلج بعيون ضيقة نصف مغلقة. وازت آنا جوادها بجواد سيا حين خرجتا من بين الأشجار، ودفعتا الخيل للعدو في المرعى المفتوح.

بعد دقائق، تخلفت آنا بمسافة جواد خلف سيا.

ثم سمعت سيا صرخة واستغاثة مكتومة.

حين التفتت، رأت بينيلوبي بلا فارس، وآنا ممددة بلا حراك فوق الثلج. أوقفت سيا حصانها وترجلت. كانت آنا جالسة تمسك أسفل ظهرها وتشتم.

قالت بالإنجليزية:

- "سقطت في حفرة لعينة."

ازداد هطول الثلج كثافة. مسحت سيا عينيها بإحباط؛ فالإصابة تعني وقتاً أقل على السرج، ووقتاً أقل لاستدراج الروسية.

- "هل يمكنك الركوب؟"

وقفت آنا، وسارت بضع خطوات متعثرة، وأطلقت المزيد من الشتائم. هزت رأسها ونظرت حولها:

- "نحن قريبتان من السيارة. والجو أدفأ من الأمس رغم الثلج. فلنمشِ."

قادتا الحصانين نحو سيارة الرولز رويس. أدخلت سيا الجوادين إلى المقطورة وربطتهما، ثم أغلقت بوابة المقطورة وتوجهت لباب الراكب. كانت آنا قد سبقتها للمقعد.

سألت آنا وهي تتألم:

- "هل يمكنك القيادة؟ تشنجات ظهري تقتلني."

– "بالطبع."

قادت سيا السيارة عبر المسار المتعرج الذي سرعان ما ضاق ليلتقي بالطريق الرئيسي المؤدي للمنزل. كانت آنا تئن وتتحرك في مقعدها مع كل مطب، تفتش جيوبها وهي تشتم بالروسية.

قالت سيا وهي تنحني فوق المقود محاولة الرؤية عبر الثلج:

– "حاولي البقاء ثابتة."

– "هاتفي.. لا بد أن هاتفي في حقيبة السرج. هل يمكنك الاتصال بماكس ليخبر فاديم بطلب الطبيب؟ أحتاج لمن يفحص ظهري."

تحسست سيا جيب سترتها بحثًا عن هاتفها، وزادت سرعة السيارة بينما بدأت البحث عن اسمه في جهات الاتصال، وعيناها مثبتتان على الشاشة.

فجأة، استشعرت شبح شكل ما أمامها في الطريق.

صرخت آنا.

ودوى صوت ارتطام قوي.

قفز شيء ما فوق غطاء المحرك ليرتطم بالزجاج الأمامي؛ كتلة من شعر داكن، معطف أسمر، ووجه رجل متقلص من الألم. تجمدت سيا للحظة تراقب المشهد يتداعى. تناثرت دماء على الزجاج. تدحرج الرجل فوق السقف. ضغطت سيا المكابح بكل قوتها. ومن خلال المرآة الخلفية، رأت الرجل يتدحرج ويسقط من جانب الراكب. صهلت الخيول بذعر. وكان الزجاج الأمامي مخضبًا بالدماء.

همت بالخروج من السيارة، لكن الرولز رويس انزلقت للأمام حتى ضغطت المكابح مرة أخرى وتذكرت وضع ناقل الحركة في وضع التوقف. تعثرت خارجةً إلى الطريق. كان الرجل ممددًا بلا حراك، ووجهه منكب في بركة من دمائه. كانت هناك امرأة تضع رأسه في حجرها، تتأرجح بين النحيب والصراخ بالروسية.

يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي، بدأت سيا تتمتم.

خرجت آنا من السيارة تعرج، وهي تهمهم بكلمات روسية. التقطت المرأة هاتفها، طلبت رقمًا، وعادت تصرخ بالروسية.

صاحت سيا:

– "مات؟ هل هو ميت؟"

جثت بجانبه في الثلج، لكن المرأة، التي كانت لا تزال تعوي في الهاتف، دفعتها بعيدًا. دفعتها سيا بدورها، محاولة إخبارها أنها تريد قياس نبض الرجل. لكن المرأة كانت في حالة هستيرية – حاولت سيا مرتين أخريين التأكد مما إذا كان الرجل حيًا، ومرتين أخريين أبعدتها المرأة بقوة. كانت المرأة تصرخ في هاتفها وتوجه صراخها لآنا. تهاوت سيا فوق الثلج بجوار السيارة بينما تحدثت المرأة مع آنا.

تساقطت الدماء على أحد الإطارات مشكّلة مسارًا أحمر يتدفق من سقف السيارة.

تك.. تك.. تك.

كان الدم غزيرًا، وكأن الارتطام قد فجّر جسد الرجل. أصدر الدم الدافئ صوت هسهسة وبخارًا وهو يعانق الثلج البارد.

تك.. تك.. تك.

استدعت صفارات الإنذار غريزة التحرك، والهروب من موقع الهدف. سيارة إسعاف.. كيف وصلوا بهذه السرعة؟ قفز مسعفان من السيارة. فحصا نبض الرجل، ورأت هزات رأسيهما تشير إلى الأسوأ. كانت المرأة تروح وتجيء، تتمتم وتشتم وتشير إلى سيا وآنا. ألقى أحد المسعفين غطاءً فوق الجثة، ووضعوها على نقالة.

ثم وصلت سيارة شرطة. اقتربت آنا من السيارة واضعة يديها فوق رأسها.

مررت سيا إصبعها عبر الدم المسفوك على الطريق. بدا حقيقيًا. أرادت النهوض، لكن ساقيها رفضتا الحركة.

بعد دقائق، وصلت سيارة شرطة ثانية. تبادلت آنا وضابط الشرطة الجديد حديثًا روسيًا سريعًا كطلقات الرشاش، وكانت تشير تارة من السيارة إلى سيا، وتارة إلى الرجل. ثم انفصل الشرطيان ليتحدثا جانبًا، وجلست آنا بجوار سيا.

قالت آنا:

– "الأول من شرطة المرور، والثاني من الشرطة الجنائية. سيأخذنا إلى قسم الشرطة في القرية الواقعة خارج المزرعة مباشرة."

سألت سيا:

– "هل يمكنك التحدث إليهم؟ أخبريهم أنه كان حادثًا."

أومأت آنا:

– "لقد فعلت." التفتت نحو الجثة المغطاة بالملاءة. "أعرف هذين الزوجين. يعيشان بجوار حدود المزرعة تمامًا، ودائمًا ما يتسللان إلى الداخل."

دار رأس سيا. كانت تشعر بالذعر والغثيان حين رأت الرجل الميت، لكن شعورًا مختلفًا بدأ ينهشها الآن. شعور لم تعتد عليه. الخوف. أيًا كان ما يريدونه، ستعطيه لآنا. لا بد أن الأمر بيد آنا. لا يمكنها الذهاب لقسم شرطة. يا إلهي، لا يمكنها دخول قسم شرطة في روسيا.

عاد أحد الضباط وأخبر آنا أن عليهما الركوب في سيارة الدورية، وأن شخصًا سيأتي من المنزل لأخذ الخيول. قالت آنا إنها واثقة أن الإجراءات ستكون روتينية، وأن كل شيء سيكون على ما يرام. تحدثت آنا مجددًا مع الضابط بالروسية ثم

همست لسيا بأنه وافق على مجيئها معهم للترجمة. انزلقت سيا إلى داخل السيارة، وأوصد السائق الأبواب.

جلست آنا بجوارها في الخلف. توقف الزمن عن السريان بإيقاعه الطبيعي. لم تدر سيا إن كانت الرحلة قد استغرقت دقيقة أم ثلاثين. كانت الروسية تربت على فخذها بيد متصلبة. ربما تحاول آنا أن تبدو مطمئنة، فكرت سيا، لكن شيئًا في حركتها بدا باردًا ومشؤومًا.

ربت.. ربت.. ربت.

بدت اليد وكأنها تقول: افعلي ما آمرك به يا فتاة.

ربت.. ربت.. ربت.

قلّبت سيا في ذهنها مخارج مختلفة: رشوة جيدة ربما، أو أن تقنع آنا الشرطة بإطلاق سراحها. وفي كل الاحتمالات، كانت تحت رحمة آنا.

وهذا، كما أدركت الآن، كان الأمر المرعب حقًا.

الفصل الثامن والعشرون

روس-فارم

توقفت السيارة أمام مبنى مكوّن من طابقين مشيّد من الكتل الخرسانية.

لم يكن هناك ضوء في النوافذ، ولا لافتة، ولا سيارات مصفوفة في الساحة المفروشة بالحصى.

هل هذا هو قسم الشرطة حقًّا؟

قادها الضابط إلى مكتب يحتوي على طاولة، وجهاز حاسوب، وكراسي معدنية غير متطابقة. التقط صورة لـ سيا، ثم شرع يملأ استمارة وردية ببياناتها الشخصية بمساعدة آنا التي تولت الترجمة. طلب الضابط من آنا إحضار وثائق سيا ومتعلقاتها من المزرعة: جواز السفر، وتأشيرة الدخول، ورخصة القيادة البريطانية، والهاتف، والحاسوب. أخذ بصماتها، ودوّن روايتها عن الحادث، وكان يغادر الغرفة مرارًا لإجراء مكالمات هاتفية خافتة الصوت.

بعد إحدى تلك المكالمات، اقتادهما إلى غرفة جديدة، باردة وتفوح منها رائحة العفن، بجدران خرسانية ترشح رطوبة، وطاولة وكراسي من المعدن المتهالك المخدوش.

أدركت سيا فورًا أن هذه غرفة استجواب؛ فهي تحمل نفس طابع نماذج محاكاة TOTT في مقاطعة ماديسون بفرجينيا.

أين بقية ضباط الشرطة؟ لا شيء هنا يوحي بالرسمية، ولكن هل هذا أمر جيد؟ ربما. من يدري؟ إنها في روسيا.

كان بإمكانهم فعل ما يحلو لهم بها، سواء أكان الأمر رسميًا أم لا. بدت برودة الغرفة وكأنها تتسلل لتستقر في عظامها.

بعد مكالمة صاخبة ارتفع فيها الصوت في الرواق، انضم الضابط إليهما عند الطاولة، ممررًا يديه في شعره بتوتر رجل يتعرض لضغوط من رؤسائه للحصول على نتائج. طلب من سيا إعادة سرد شهادتها، وحين انتهت، تحدث الضابط مؤكدًا جملته الأخيرة بالضغط بإصبعه على ظهر الهاتف الخلوي الملقى على الطاولة، وأشار لآنا كي تترجم.

ولكن قبل أن تنطق، طُرق الباب. اختفى الضابط في الرواق، وتناهت إلى سمع سيا أصوات خافتة، ووقع خطوات، وأصوات إيصاد أبواب غير مرئية.

ثم دخل رجل آخر الغرفة. طويل القامة، بعينين ميتتين، يرتدي بدلة داكنة أنيقة، وشعره الأشقر مصفف بعناية وملاصق لجمجمته. كان قميصه مكويًا، وربطة عنقه معقودة بإتقان. تحدث مع آنا لدقيقة، ثم أشار لها بالترجمة.

بدأت آنا حديثها قائلة:

– "هذا هو النقيب إيفانوف من جهاز الأمن الفيدرالي FSB".

امتصت الحروف الثلاثة الهواء من صدر سيا.

تابعت آنا:

– "يقول إنه يتفهم أنكِ موجودة في **روس-فارم** بصفتكِ ضيفتنا الخاصة، وأن ما حدث كان حادثًا عرضيًا. لكنه يود التحدث معكِ بشأن أمر ظهر عندما أجرت الشرطة تدقيقًا روتينيًا حول جهة عملك. إنه يرغب في التحدث إليكِ هنا، الليلة".

فُتح الباب، ودخل ضابط الشرطة الثاني حاملًا حقيبة يدها وحقيبتها من المزرعة. وضع حاسوبها المحمول وهاتفها على الطاولة. صرفه ضابط الـ FSB، ثم تحدث إلى آنا قبل أن يشير لها مرة أخرى لترجمة ما قال.

قالت آنا:

– "لقد وصل إلى علم النقيب إيفانوف أمر هام. يقول إنكِ إذا ساعدته في العثور عليه، فسنبقي قضيتكِ بعيدًا عن المحاكم. قد نتمكن من حل الأمر وديًا؛ دفع تعويض للزوجة، وشيء من هذا القبيل".

حدقت سيا في الحاسوب المحمول. لقد كان الحاسوب هنا، في روسيا، لهذه اللحظة بالتحديد. هذا يمنح سيا ورقة للمساومة. استطاعت أن تسحب نفسًا عميقًا ملأ رئتيها مرة أخرى؛ وبدأت يدها المخدرة تحمرّ وتستعيد قليلًا من الدفء.

سمحت تلك المساحة لفكرة عابرة أن تومض في ذهن سيا:

لن أخبر "بروكتر" بالقصة كاملة.

كانت هذه هي نوعية الكوارث التي قد تتسبب في تجميد نشاط العميل وإعادته إلى الوطن، ليخضع لجلسات نصف شهرية مع أطباء النفس الميدانيين، واختبارات كشف الكذب، ورجال أمن بعيون جامدة يتحرقون شوقًا لمعرفة حقيقة ما جرى. إنها نهاية مسيرة مهنية واعدة.

ثم، ورغم أنها كانت تعرف الإجابة مسبقًا، سألت سيا لأنه كان من الغريب ألا تفعل:

– "ماذا يريد من الحاسوب؟"

ترجمت آنا للنقيب إيفانوف، الذي شرح الأمر، ثم لوّح لآنا تلويحة مقتضبة أخرى.

قالت آنا:

– "الوصول إلى وثائق ومراسلات شركة هاينز دوسون. إنه يعتقد أن ملفاتكِ قد تحتوي على معلومات تكشف عن أنشطة مالية غير قانونية قام بها أعضاء كبار في الحكومة الروسية وعدد من رجال الأعمال البارزين. وهو يتفهم الطبيعة غير المعتادة لهذا الطلب، لكنه يرجو منكِ فك كلمة مرور الحاسوب وإرشاده عبر الملفات المعنية".

همست سيا بالإنجليزية:

– "أنتِ تعملين معهم، أليس كذلك؟ أخبريني ما الذي يحدث يا آنا، أرجوكِ. ما هذا؟ أنا لا أفهم ما يجري".

نهر ضابط الـ FSB آنا بحدة، فأومأت برأسها ورفعت يدها مقاطعة.

قالت:

– "أرجوكِ يا سيا، لا توجهي لي أحاديث جانبية بالإنجليزية. تحدثي إلى النقيب إيفانوف".

سألت سيا:

– "ماذا سيحدث إذا لم أتعاون؟"

تجاذبت آنا أطراف الحديث مع إيفانوف حول ذلك. وانتهى النقاش بمشادة صراخ طويلة لم تبدُ طبيعية تمامًا في نظر سيا.

قالت آنا وهي تصرّ على أسنانها:

– "يقول إنكِ إذا لم تتعاوني، فإن الـ FSB سيشجع الشرطة الجنائية على متابعة التحقيق. سيسجنونكِ في كيريشي الليلة، وفي بطرسبرغ بعد ذلك. سيصادرون جواز سفركِ، ويتركون النظام القضائي يأخذ مجراه".

قالت سيا:

– "آنا، لا بد أنكِ قادرة على فعل شيء ما".

بعد المزيد من الثرثرة مع إيفانوف. هزت آنا رأسها وقالت:

– "قد أتمكن من المساعدة مع تقدم سير القضية، لكن في الوقت الحالي هذا هو عرض النقيب. أنا آسفة".

فتح ضابط الشرطة الأول الحاسوب ووصله بالكهرباء. وأحضر الثاني أكوابًا من "الستايروفوم" يتصاعد منها البخار ومملوءة بالشاي. راقبت سيا الحاسوب وهو يقلع وحدقت في الشاشة التي تطلب كلمة المرور. لم تتحرك.

صرف إيفانوف رجال الشرطة، وقال بالإنجليزية:

– "اذهبا".

انتظرت.

قال شيئًا بالروسية لآنا، ثم أشار إلى سيا. قربت آنا كرسيها أكثر. تلك العيون الزرقاء الباردة لم تفارق عيني سيا.

وعرفت سيا حينها أن هذه هي النسخة الحقيقية لآنا، النسخة التي لمحتها سابقًا أثناء رحلتهما بالسيارة. النسخة العميقة. كان كيانًا باردًا ومرعبًا، لكنه يتحدث بصوت مهدئ، ويعد بفعل كل ما يلزم لمساعدة سيا على الخروج من هذا المأزق مع الـ FSB.

فكرت سيا: آنا تتظاهر بالترجمة لضابط الـ FSB. أم أن الأمر صحيح؟ من المسؤول هنا؟

ارتجفت يد سيا اليسرى. لم تستطع الشعور بالدفء. بدأ طنين يتردد في أذنيها وبالكاد استطاعت سماع الأسئلة.

بدأت آنا ببيان مفاده أن الـ FSB يعتقد أن شركة هاينز دوسون ساعدت العديد من رجال الأعمال الروس في إنشاء حسابات بنكية أجنبية في الخارج، في

انتهاك لضوابط رأس المال التي يفرضها "الكرملين". وجاءت علامة الاستفهام مصحوبة بحاجب مرفوع تجاه سيا.

سمعت سيا نفسها تقول:

– "نعم، هذا صحيح".

تابعت آنا أن الـ FSB مهتم بشكل خاص بأنشطة وشركاء رجل يدعى فاسيلي بلاتونوفيتش غوسيف. المعروف باسم "غوس" (الإوزة).

– "لقد ناقشنا أمره باقتضاب في المكسيك. هل تعرفينه باسم (الإوزة) يا سيا؟"

قالت سيا:

– "نعم، نعم، أعرفه. سأخبركم بكل ما تريدونه عنه".

وبينما كانت شفاه آنا تتحرك، كانت سيا تحدق عبر الطاولة، وعاد الطنين يملأ أذنيها، ولم تسمع أي شيء على الإطلاق لفترة من الوقت.

قالت آنا:

– "ميخائيل ليادوف (ميكي)؟"

بدت الروسية محبطة، وكأنها كررت الاسم عدة مرات بالفعل.

– "ماذا؟"

– "هل تعرفين ميخائيل ليادوف؟ قيل لنا إنه يطلق على نفسه اسم (ميكي) في لندن".

– "أعرفه. إنه ميكس. هو أحد العملاء".

كانت يدها اليسرى ترتجف مرة أخرى. ضغطتها بقوة في فخذها لعلها تتوقف. وبدلًا من ذلك، ومثل دمية متحركة، تسببت حركتها في ارتعاش فخذها بالكامل.

قالت آنا:

– "سرق (الإوزة) كمية كبيرة من الذهب. كمية أكبر من أن يتم تجاهلها".

– "فهمت".

يدي، فكرت سيا. *لا أستطيع إجبارها على التوقف عن الارتجاف.*

أصبحت فجأة واعية برمش عينيها المستمر. كان تنفسها صعبًا، وكل سحبة هواء من رئتيها تخرج قسرًا وبألم عبر قصبة حلقها التي تزداد ضيقًا.

قالت آنا:

– "لكنكِ تعرفين ذلك بالفعل بالطبع. ميكي ليادوف يساعد (الإوزة) في نقل الأموال إلى الخارج ثم غسلها. وشركة هاينز دوسون تؤسس الهيكل القانوني لذلك. الوثائق بحوزتكِ، أليس كذلك؟ عقود التأسيس والنظام الأساسي؟ مخطط للنظام بأكمله؟ الحسابات البنكية؛ المواقع، الأرصدة، معلومات التحويل، وربما بيانات تسجيل الدخول للبعض منها؟ قوائم الأفراد المصرح لهم بالدخول للحسابات؟ يقول النقيب إيفانوف إنه يريد كل ذلك. ستعطينه كل شيء، الليلة، وفي المقابل يُسمح لكِ بمغادرة روسيا".

– "آنا، أرجوكِ، سيتم شطبي من النقابة. أنا –"

تلا ذلك عرض مطول ومترجم لبدائل أكثر قسوة: تحقيقات جنائية بقيادة الـ FSB، سجن ليفورتوفو، معسكر عمل في سيبيريا.

كررت آنا كثيرًا عبارة "أوراق رسمية"، وذكرت بلهجة قاطعة أكثر من مرة أن المناقشات المستقبلية سيترأسها ضباط من الـ FSB "ليسوا أصدقاء لعائلتي". بدأت خدعة أن إيفانوف هو من يمسك بزمام الأمور تتلاشى. شعرت أن آنا هي

المسؤولة، لكنها لم تكن متأكدة تمامًا، وفي ظل عدم اليقين هذا، طاف عقلها في أماكن مظلمة. لقد لعبت آنا هذه الجولة بقسوة. لم يجلب التدريب أي راحة ولا حتى شبه خطة. تأمل عقلها احتمالات الفشل لا النصر. وكان رفيق سيا القديم – تلك المطرقة التي تدق في صدرها – صامتًا بشكل مقلق. حاولت سيا أن تنكمش أكثر داخل معطفها، لكنها لم تستطع الحصول على الدفء، مهما ارتجفت أو فركت كتفيها وذراعيها.

في النهاية، سجلت الدخول إلى الحاسوب.

قالت:

– "سأفعل كل ما تريدون".

أعطتهم كل شيء: المخابئ السرية للنقود التي كانت يومًا ما ذهب أندريه أغابوف. إمبراطورية مالية ضخمة بعثرتها سيا فوكس، ومكتب هاينز دوسون، والمصرفيون السويسريون في مهب الرياح الأربع.

أرتهم الحسابات القليلة التي تملك توكيلًا رسميًا عليها، والتي يمكنها نظريًا تحريك الأموال منها بنفسها دون تفويض.

"للطوارئ"، هكذا كان ميكس قد قال. "في حال احتجنا لإنجاز شيء ما بسرعة".

فكرت: لم أشعر ببرد كهذا قط.

أحيانًا كانت أصابعها ترتجف وهي تشير إلى الشاشة. طلبت معطفًا أثقل، أو ربما بطانية، وظنت أن آنا طلبت من الشرطي الأول إحضار واحدة، لكنه لم يفعل قط.

لن أشعر بالدفء مرة أخرى أبدًا. الشتاء مدفون في صدري.

ظلت يد سيا اليسرى ترتجف طوال الليل، لم تستطع إيقافها، وبدأت آنا تفقد صبرها لأن الأصابع المرتعشة جعلت الكتابة صعبة. لاحظت سيا أنه طوال ذلك الوقت، كانت آنا تجلس بظهر مستقيم كالسهم. ظهر تلك اللعينة الصغيرة كان سليمًا تمامًا، وسقوطها عن الحصان لم يكن سوى تمثيلية متقنة.

تلاشى أمل إقناع هذه الروسية المختلة بالتعاون مع الـ CIA وتحول إلى خيال سخيف مع انكشاف كل دولار ويورو وروبل.

يا لكِ من حمقاء لعينة يا هورتينسيا، حدثت نفسها، *لتصديقكِ أن ذلك كان ممكنًا.*

غالبًا ما خيم ظل على عيني آنا، وكان لدى سيا شعور غامض بأن الروسية محبطة، أو ربما لم تكن تعرف ماذا تفعل الآن بعد أن حصلت على ما أرادت.

وبينما كانت سيا تمنحهم كل شيء، خطر لها أنه برغم أن يدي آنا ظلتا طوال الأمسية متشابكتين بتهذيب فوق الطاولة، فإنهما كانتا – مجازًا – مُطبقتين حول قصبتها الهوائية، تعتصران الحياة منها تمامًا.

الفصل التاسع والعشرون

روس-فارم

بعد أن انتهتا من الأمر، وعقب نقل سيا إلى المنزل الرئيسي لتعود متدثرة إلى غرفتها في الطابق العلوي، خرجت آنا من المبنى الإداري القديم. كانت ثمة سيارة إسعاف يدور محركها في ساحة الانتظار، وهناك وجدت آنا داشا تجلس خلف المقود وعلى وجهها ابتسامة عريضة، بينما تلطخ معطفها العسكري الكبير بخطوط من الدماء.

سألتها لاعبة الجمباز:

– "كيف كان أدائي؟"

أجابت آنا:

– "رمية مثالية... عشرة من عشرة".

سألت داشا:

– "هل استخدمنا دماء أكثر مما ينبغي؟ وربما الكثير من البالونات؟"

ردت آنا:

– "كانت الكمية مناسبة تمامًا... كان الأمر مثاليًا".

كانت مسألة البالونات تلك مقززة حقًا؛ فقد ملأتها داشا وشكلتها في هيئة قلادة يمكن دسها تحت معطف الراحل كيريل. تلاشت ابتسامتها وبدا عليها الإعياء

قليلًا، ولا شك أن الرائحة النتنة لدم الخنزير التي تملأ الشاحنة لم تساعدها على التحمل.

***

في مكتب **روس–فارم** بالطابق الأول، راحت آنا تمسح رفوف الكتب بنظرات تائهة، لتستقر في النهاية عند الخزانة الضخمة حيث يحتفظ والدها ببعض أسلحته المثيرة للاهتمام. كانت الخزانة مفتوحة دائمًا؛ فقد شرح لها والدها ذات مرة أنه لا يوجد أطفال في الجوار، فلِمَ العناء؟ ثم أضاف آنذاك واضعًا الملح على الجرح: "مع أنني سأكون ممتنًا لو وجد عذر يدفعني لإغلاقها. أو ربما عذران صغيران".

مررت يدها فوق الحقيبة التي تحوي مسدس أحمر الشفاه، وتذكرت تلك الليلة التي تدربت فيها على الرماية معه، الليلة التي أقحمها فيها في هذه الفوضى. أغلقت خزانة الأسلحة، وأدارت مقعدها لتواجه النافذة وتتأمل المساء.

سيا. لقد تملّكها الخوف بعد الحادث المُدبّر، لكنها سرعان ما استعادت ثقتها، باستثناء تلك الرعشة في يدها.

بدا الأمر لآنا تمثيلًا محضًا.

ليس أداء محامٍ في قاعة محكمة، بل أداء شخص مُدرّب على هذا النوع من الضغوط.

شخص مثلي.

فُتح باب المكتب. قلبت عينيها بتلقائية ظنًا منها أنه فاديم.

قال والدها:

– "آنيا، ما لدينا هنا؟"

– "بابا".

جلس والدها، ولا بد أن تعابير وجهها قد باحت بما في عقلها، لأنه قطب جبينه سائلًا:

– "ما الخطب يا آنيا؟ أخبريني".

لم تكن قد فتحت فمها بعد حين أومأ بذقنه نحو النافذة. غمر ضوء المصابيح الأمامية النافورة الموجودة في الدوار. أحصت ست سيارات. أضواء زرقاء تومض تحت الشبكات الأمامية. إنه جهاز الأمن الفيدرالي (FSB).

قال والدها:

– "هل تنتظرين ضيوفًا؟"

***

حين انسلّت سيا إلى الغرفة، نمّ صوت ماكس المتهدج عن معرفته بوقوع خطب ما، لكنه عندما سألها عن أمسيتها مع آنا، اكتفت بالقول:

– "قضينا وقتًا رائعًا... ومبهجًا".

(مررت لها المعلومات عن (الإوزة)).

ما لم يستطع ماكس سؤاله هو كيف حدث ذلك، ولا لماذا كانت يد سيا اليسرى ترتجف بشكل لا يمكن السيطرة عليه بعد هذه الأمسية "المبهجة". كانت الرموز الكلامية ركيكة، وقد أقسمت سيا بشتى الأيمان لضابط الأمن الفيدرالي المزعوم – عبر آنا – أنها لن تخبر ماكس بما حدث، وبالتأكيد لم يكن بوسعها فعل ذلك الآن، وهما داخل "الوطن" وتحت وطأة كاميرات روس-فارم.

أغمضت سيا عينيها الآن لتظهر للكاميرات أنها نائمة كضيفة عاقلة، وإن كانت منهكة، لكن عقلها كان يعمل بلا توقف. لقد نُسفت هذه العملية تمامًا وذهبت إلى الجحيم. لقد مارست الجنس أمام الكاميرات، ثم أطبقت آنا عليها الخناق. ومن كان ذلك الرجل الميت على أية حال؟

استلقت بجوار ماكس – المستيقظ هو الآخر– عاجزة عن قول كلمة واحدة عن أي شيء بسبب أجهزة المراقبة، وتلك العيون الزجاجية اللزجة للكاميرات الملتصقة بجلدها. بدا وكأن الغرفة نفسها تزحف من حولها، وجدرانها الخشبية الداكنة تضغط على السرير. تخيلت الفارس المغولي في اللوحة المعلقة فوق الخزانة، وهو يلفظ أنفاسه بطريقة بشعة، ويدير رأسه ليبتسم لها.

فتحت عينيها على وكزة من ماكس. أضواء مصابيح في الدوار الأمامي. توجها إلى النافذة. وللحظة، رفت جفون سيا في حيرة. ست سيارات. أضواء زرقاء، وصافرات الإنذار الواضحة – مركبات حكومية – ربما الأمن الفيدرالي. لماذا قد يعودون؟

يا إلهي، عربة ترحيلات.

همست لماكس، ناسية أمر الميكروفونات:

– "نحن في عداد الموتى".

نحن ميتون. هذا هو نوع الأماكن التي يموت فيها الناس.

ثم انفصلت سيا عن جسدها. كانت تجلس على مظلة السرير تراقب نفسها وهي تتعثر نحو المنضدة الجانبية وهاتفها. بجانب ماكس، كانت تجهز إشارات الطوارئ لبروكتر، وتعبث بالأرقام، متسائلة عما إذا كان ينبغي عليهما كسر النوافذ والقفز بدلًا من ذلك.

نحن لسنا مرتفعين بما يكفي، سنحطم أقدامنا اللعينة وحسب.

كافحت للتركيز على الأرقام، لكن عينيها كانتا تقفزان في أرجاء الغرفة، بحثًا عن مكان جيد لتعليق حبل مشنقة مصنوع من ملاءة السرير.

***

أضاءت المصابيح الأمامية التي تقود سيارة تشيرنوف تمثالًا حجريًا عملاقًا لحصان يلتف حول الدوار، واستقرت على رجل يخطو بحذر داخل شعاع الضوء. رفع يده ليحمي وجهه ولوّح لسيارة تشيرنوف المتقدمة بالمرور. تطايرت الثلوج تحت الإطارات.

انحنى الرجل نحو نافذة السائق. رفع تشيرنوف أوراق اعتماده.

قال تشيرنوف:

– "أحتاج للتحدث مع أندريه بوريسوفيتش. علمتُ أنه هنا الليلة".

سأل الرجل:

– "من أنت؟"

– "المقدم كونستانتين كونستانتينوفيتش تشيرنوف. إدارة الأمن الداخلي. وأنت فاديم يوريفيتش كوفالتشوك؟"

– "نعم".

– "أخبرني أين أندريه بوريسوفيتش".

– "لماذا أنت هنا؟"

أجاب تشيرنوف:

– "شأن يخص الدولة... شأن إلهي. أين هو؟"

نقر حذاء تشيرنوف الثلج المتساقط. أزاح فاديم جانبًا ونظر إلى المنزل المظلم. كان الثلج يتوهج فوق السطح، والدخان يتصاعد مما لا بد أنه خمس أو ربما ست مداخن.

– "أين هو؟"

أشار فاديم نحو غرفة مضاءة بمصباح في الطابق الأول وقال:

– "في المكتب".

سحب تشيرنوف نفسًا باردًا، ثم زفره نحو السماء.

الفصل الثلاثون

روس-فارم

غادرت السيارات الحكومية بعد خمس عشرة دقيقة بالضبط، فأعادت سيا هاتفها إلى المنضدة الجانبية.

وفجأة، تناهى إلى مسامعها صوت ارتطام أثاث يُقلب في الغرفة بالأسفل، تلاه تهشم زجاج، ثم دوي مكتوم لسقوط المزيد من قطع الأثاث، وصياح آنا ومن بعدها فاديم.

وحين خفت ضجيج العراك ثم تلاشى، افترضت سيا أن المعركة انتقلت ببساطة إلى غرفة نومهما في الجانب القصي من الطابق الثاني، عبر متاهة أخرى من الممرات، بعيدًا عن مجال السمع.

أرسلت سيا رسالة نصية إلى آنا. كانت هي و ماكس مستيقظين تمامًا على السرير، وكل كلمة تستحق أن تُقال كان من المستحيل النطق بها بصوت عالٍ. وحين لم ترد آنا على الرسالة بعد فترة، انقلبت سيا على بطنها ودفنت وجهها في الوسادة.

***

انتقَت آنا موطأ قدميها بعناية لتتحاشى الزجاج المهشم، وشظايا الخزف، وتلك الفوضى العارمة من الكتب الديكورية التي ألقتها أرضًا. تفحصت واحدًا منها،

وقد صُمم غلافه ليبدو كنسخة من الطبعة الأولى لرواية "الحياة والمصير" لجروسمان، التي حظرها النظام السوفيتي.

يا للمفارقة، فكرت في نفسها. إن نسخة روس-فارم مجرد صندوق أجوف مطلي للزينة.

ألقت بالكتاب فوق أحد الرفوف المقلوبة.

لقد اعتقلوا "بابا".

في تلك الليلة، حصلت آنا من سيا على أدلة تثبت سرقة "الإوزة"؛ كانت تملك الحسابات والمبالغ واليقين بأن الـ "خُزيان" لا يعلم شيئًا. ولكن ما الفائدة الآن، بغياب "بابا" الذي كان سيوصل الرسالة إلى الخزيان، ومع سيطرة جهاز الأمن الفيدرالي الواضحة على "الإوزة"؟

لقد جعلتها مباريات الشطرنج الخاسرة التي لا تُحصى تألفُ هذا الشعور: ذلك الانقباض في المعدة حين تدرك أن خسارتك حتمية.

لكن في الشطرنج يمكنك الاستسلام.

أما الآن، فلم تكن تدري ماذا تفعل.

وهل كان فاديم متورطًا؟ هل أخبرهم أن "بابا" سيكون هنا؟

لا بد أنه فعل، حدثت نفسها. لم تكن تملك دليلاً، لكنها كانت تعلم.

لا ينبغي أن أصعد إلى غرفة النوم، قالت لنفسها. لكن قدميها كانتا تسوقانها بالفعل إلى الأعلى. يجب أن أنام قليلاً وأفكر في الأمر. لكن يدها كانت تعتصر مقبض الباب. يجب أن أعود أدراجي. لكنها أدارت المقبض وفتحت الباب.

تسلل ضوء القمر الشاحب عبر النافذة. وحين أغلقت آنا الباب خلفها، غزت أنفها أبخرة الفودكا، ثم رائحة عرق رجولي ممتزجة بعبق الخزامى المنبعث من المعطرات الكهربائية التي تحاول عبثًا إخفاء رائحة العفن. كان فاديم جالسًا على

حافة السرير. اعتادت عيناها على العتمة؛ كان لا يزال بملابسه. رفع زجاجة إلى شفتيه وحدق أمامه، بينما وقفت آنا ساكنة عند الباب.

قالت:

– "لقد أخبرتهم أنه في المكتب. وأخبرتهم بمكاني، أنا... زوجتك."

زمّ فاديم شفتيه، وازدرد ريقه بصعوبة محدثًا صوتًا خشنًا، ثم تجرع رشفة من الفودكا وقال:

– "ما الذي ترمين إليه يا آنيا؟ ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟ أن أقاتل جهاز الأمن الفيدرالي بمفردي؟ كفي عن هذا."

– "لدينا مواد في هذا المنزل يرغب "الإوزة" برؤيتها. لقد فتحتَ لهم البيت، ثم وقفتَ على الدرج ولم تحرك ساكنًا. هل أنت من أحضرهم إلى هنا؟ هل ساعدتهم؟"

ابتسم ابتسامة غريبة كاشفًا عن أسنانه، وقال:

– "ما الذي تقولينه يا آنيا؟"

وقف وترنح خطوة نحوها.

تقدمت لمواجهته، وعلى شفتيها ابتسامة متجهمة. كانت رائحة الخمر تفوح منه نفاذة قوية؛ كان غارقًا فيها.

كرر قائلاً:

– "يا آنيا ، ما الذي تقولينه؟"

نظرت مباشرة في عينيه وقالت:

– "أقول يا فاديم إنك جبان وخائن لعائلتنا."

اندفع نحو ذراعها، فراوغته ولكمته في أنفه. وجهت ضربة لأذنه. لم تستطع السيطرة على نفسها فصفعته على الأخرى. تراجعت إلى الخلف. وضع يده على أذنه النابضة بالألم، والأخرى كوّرها فوق فمه ليلقّف الدم النازف من أنفه.

ثم هجم عليها. حاولت تفاديه بخطوة جانبية لكنها لم تكن سريعة بما يكفي، إذ أمسك بها من سترتها ودفعها بقوة نحو الحائط. ركلته في ساقه، وسددت ركبتها إلى منطقة حساسة، وعضت عنقه. عوى من الألم، متراجعًا ليضغط على مكان العضة. بحثت آنا عن سلاح. ساعة منبه على المنضدة الجانبية. انتزعت السلك من الجدار وحاولت تحطيم الساعة فوق رأسه. أخطأت هدفها؛ وأصابت كتفه، فسقط على السرير.

همست بفحيح غاضب:

– "توقف. توقف أيها المجنون."

كانت قبضتاها مرفوعتين، تتأرجح مثل ملاكم. تلاقت عيناهما للحظة، ولم يعجبها ما قرأته فيهما.

اهربي.

اتجهت صوب الباب. كانت يدها تحكم قبضتها على المقبض حين شعرت بألم حاد في مؤخرة جمجمتها. اندفع رأسها إلى الأمام، وسمعت صوت ارتطام عظمي لجبهتها بحافة الباب، وفي اللقطة التالية رأت ألياف السجاد، ولم تعد تسمع إلا بأذن واحدة لأن الأخرى كانت محشورة في البساط. التقطت الأذن الموجهة للسقف وعد فاديم البارد بأنه سيوفر على وجهها الإحراج.

اجتاح الألم معدتها.

ثم ضلوعها.

ثم فخذيها.

صرخت، وتأوهت، وشتمت. أمالت رأسها لترى ما يحدث. كان فاديم جالسًا فوق ساقيها، يلكمها بإيقاع منتظم، وكل ضربة تنزل تحت مستوى كتفيها. حاولت رفع ذراعها، فأبعدها بضربة عنيفة. حاولت الانقلاب، كسلحفاة تنسحب داخل صدفتها. ثبت كتفيها، مبقيًا إياها مكشوفة. تعلقت عيناها بالسقف المذهب وتساءلت عما إذا كانت ستموت. انفجر الألم على جلدها، حافرًا أنفاقًا عميقة في العضل والعظم. فكرت في لوكا ووالدتها والفرس "بينيلوبي"، وتخيلت أنها تمتطي الحصان، والريح تعبث بشعرها.

وبأقصى سرعة لركض الخيل، انطلقت آنا بجيادها نحو الظلام.

الفصل الحادي والثلاثون

مزرعة روس-فارم

حين كانت سيا في العاشرة من عمرها، داهمتها سيارة وهي تسير بمحاذاة إحدى الطرق الريفية الممتدة على طول المزرعة؛ إذ كانت حينها تستمع للموسيقى عبر مشغل الأقراص الخاص بأختها، فلم تسمع أزيز السيارة ولم ترَ قدومها قط. ففي دقيقة كانت منتصبة القامة، وفي التالية سُحقت جسدًا هامِدًا في خندق جانبي عاجزة حتى عن فتح عينيها. لسنوات طويلة، انحسر ذلك الرعب وتلاشى من حياتها، حتى عاد الليلة.

والآن، كلما أغمضت سيا عينيها، تراءى لها الدم الذي يغطي زجاج سيارتها الأمامي، ويد آنا تربت على فخذها في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة.

إن هذه العاهرة تابعة لجهاز SVR. إنها واحدة منهم. أنا متأكدة الآن.

لقد كانت آنا تتلاعب بها منذ البداية؛ فهي نسخة روسية من سيا نفسها.

نهضت سيا لاستخدام الحمام والقلق يعتصرها، وما إن عادت لتندس في فراشها حتى سمعت طرقًا على الباب.

***

بحلول الوقت الذي استعادت فيه آنا وعيها، كان فاديم قد توارى عن الأنظار، وكانت معدتها عبارة عن لطخة غاضبة من الاحمرار القاني والبقع البيضاء. استطاعت تحريك ذراعيها وساقيها، لكن كلما حاولت الجلوس صرخت أحشاؤها

ألمًا وانهارت قواها. راحت تحدق في السقف المطلي بماء الذهب، وتتابع الأسود والملائكة وحيوانات الإلكة وهي تتراقص على الجص المزخرف.

ماذا الآن؟

غاصت في أعماق ذاتها بحثًا عن ملاذ من الألم، عن حكمة، أو عن أي علامة قد ترشدها إلى بر الأمان. تخيلت آنا أنها تمتطي جوادها إلى جانب والدتها في الحقول، وكان الوقت صيفًا. كان العشب أخضر يانعًا، وتمتد بعض رقعِهِ لتلامس أوراك الفرس. ركبتا في صمت حتى استنفد غضب آنا نفسه، وأصبح بمقدورها أخيرًا أن تتكلم. أخبرت والدتها عن اعتقال أبيها، وعن فاديم، وعن لوكا، وعن تلك الجنوب إفريقية الغريبة، سيا، التي أثار تعاملها مع حادث السيارة المفتعل كل أنواع الشكوك في عقل آنا التآمري.

تساءلت أمها:

– "هل يمكنك الاستمرار في العيش هكذا يا آنيا؟"

– "لن أفعل."

– "لن تفعلي؟ أم لا تستطيعين؟"

– "كلاهما."

– "ما العمل إذن؟"

قالت آنا إنها لا تعرف.

عقبت والدتها قائلة:

– "يدك ضعيفة يا آنيا، وأنتِ تعرفين ذلك. ماذا تملكين الآن بعد اعتقال والدك؟ لقد جُردتِ من كل شيء، أليس كذلك؟"

أشارت والدتها نحو مدخل غابة البتولا، حيث كانت السماء تكدس غيومًا داكنة نذيرًا بعاصفة، والرياح تزداد شدة. حمحمت الفرس، وقد بدأ القلق يدب فيها.

سألتها أمها:

– "ماذا عن سيا؟ أتعتقدين أنها أكثر من مجرد محامية؟"

سحبت الأم ياقة معطفها اتقاءً للريح، وربتت على حصانها، ثم أمسكت باللجام وعقدت ذراعيها في حجرها.

– "لا أعرف حقًا من هي يا أمي."

هزت والدتها رأسها مبتسمة:

– "بلى، أنتِ تعرفين. تعرفين بالضبط ما هي، لكنكِ ببساطة ترفضين قول ذلك بصوت عالٍ، حتى لنفسك. وهذا لا بأس به. ولكن، ماذا تظنين أن تلك المرأة تريد؟"

حمحم حصانها مرة أخرى، فمسدت آنا عرفه وهي تفكر.

أجابت:

– "معلومات. ربما عن المال، أو البنك، أو جهاز SVR. قد ترغب في أشياء كثيرة، لستُ أدري."

قالت أمها:

– "هذه بداية يا آنيا. بداية جيدة. أفترض أنها قد تكون مهتمة أيضًا بمعرفة المزيد عن **الإوزة**، ألا تظنين ذلك؟ قومُها – إن كانت كما تظنين – لا يحبون **الإوزة**، أليس كذلك؟ من أرسلوها يريدون أشياء معينة، ونحن نريد أشياء معينة. أتساءل عما إذا كنا نتشارك عدوًا واحدًا. والآن سأسأل مجددًا: كيف يمكنها مساعدتك؟"

فكرت آنا ـ في ذلك وهي تسير بفرسها خلف والدتها عبر حقل ذهبي شاحب.

رمشت آنا، وأشاحت بنظرها عن السقف المذهب، وجاهدت للوقوف على قدميها. عند إطار الباب، توقفت لتستنشق نفسًا عميقًا، فكان الألم حادًا كأن ضلعًا انغرز ـ في رئتها، وربما كان الأمر كذلك فعلًا. وسط ضباب الألم، ارتدت معطفها وقبعتها وقفازيها ووشاحها، ثم سارت عبر الردهات، تتوقف أحيانًا لتستند إلى الجدار أو لتمسك بطنها.

عند باب سيا، أخذت آنا نفسًا مجهدًا، ثم طرقت الباب بخفة.

***

تسلل ضوء الفجر الأول الشاحب عبر النافذة، وسمعت سيا طرقة أخرى.

ثم أخرى.

فتحت سيا الباب.

كانت آنا محنية الظهر، تمسك صدرها بذراعها اليسرى، وعرجت إلى داخل الغرفة وهي تحدق ـ في ماكس، الذي كان جالسًا الآن على السرير.

سألت سيا:

– "آنا، ماذا حدث؟"

– "ارتدِ معطفك. سنخرج ـ في جولة."

كررت سيا سؤالها:

– "آنا، ما الذي حدث؟"

– "احضري أغراضك اللعينة يا سيا."

انزلق جسد سيا في سروال ضيق (ليغينغ)، وجينز، وسترتين صوفيتين، ومعطفها الطويل. تبادلت النظرات مع ماكس وهي في طريقها للخروج، متسائلة عما إذا كان سيرسل إشارة الطوارئ؛ إذ لم يكن هناك وقت للتخطيط.

سارتا إلى الإسطبلات، وتوقفت آنا مرتين لتضغط بيدها على بطنها، أو لتئن، أو لتلتقط أنفاسها. وجهتهما آنا نحو مقصورة الفرس بينيلوبي. أيقظ وصولهما الفرس من نومها العميق وهي مستلقية، فنهضت ودسّت رأسها عبر الطوق الموجود في الباب. وضعت آنا يدها على خطم الفرس، ثم أسندت وجهها عليه.

قالت آنا:

– "لا أستطيع الركوب وحدي. وأعتقد أننا صغيرتان بما يكفي لنركب معًا. إنها فرس ضخمة، ووزني أقل من خمسين كيلوغرامًا. هل سبق لكِ الركوب دون سرج؟"

أومأت سيا برأسها.

قالت آنا:

– "جيد. خذينا إلى الغابة."

– "لا بد أن الحرارة عشر درجات تحت الصفر في الخارج، أنا–"

قاطعتها بحزم:

– "إلى الغابة. هذا ليس طلبًا."

***

قادت سيا الفرس "بينيلوبي" في سير بطيء، لأن ضوء الفجر كان بالكاد يتشكل، ولأن حركات الفرس كانت تجعل آنا تصرخ ألمًا في بعض الأحيان. لكن، هل كانت تلك الصرخات حقيقية؟ أم مجرد عرض تمثيلي آخر؟ وجهتهما آنا عبر المراعي المغطاة بالثلوج والطرق المحروثة. جلست الروسية أمام سيا على كتفي

الفرس القويتين. لقد مر أكثر من عشرين عامًا منذ ركبت سيا خيلًا بلا سرج، وشعرت بالقرب من بينيلوبي؛ بدفء ظهر الفرس وملمس جلدها على ساقيها. كانت رائحة شعر آنا مالحة، وعنقها تظهر عليه كدمة حمراء بشعة. رفضت آنا الإجابة عن أسئلة سيا حول ما حدث، لكن الكدمة جعلت التخمين سهلًا.

أوقفت سيا الفرس؛ أرادت أن ترى عيني آنا في هذه اللحظة، لكن لم تكن هناك طريقة للترجل – ولم تكن سيا واثقة من قدرة آنا على الصعود مرة أخرى. توقفتا عند مدخل الغابة، حيث كانت أشجار البتولا تتسامق عاليًا. أغمضت سيا عينيها واستنشقت الهواء البارد.

قالت سيا:

– "آنا، أستطيع رؤية الكدمة على عنقك."

ردت آنا:

– "توغلي أكثر بين الأشجار."

واصلتا السير عبر أشجار البتولا، واقتحمتا ثلوجًا عميقة كادت تلامس قدمي سيا المتدليتين.

قالت آنا أخيرًا:

– "ابتعدي عن الطرقات. توجد كاميرات."

سألت سيا متظاهرة بالغباء:

– "كاميرات؟"

ضحكت آنا بسخرية:

– "أرجوكِ يا سيا. يا إلهي. ماذا أحضرتِ معك من الإسطبل؟"

– "لجامًا وعنانًا."

– "لا شيء آخر؟ لا حقائب؟"

– "لا. آنا، ما الذي–"

صرخت آنا متألمة وهي تمد يدها اليمنى للخلف لتلمس سيا. مررت يديها فوق بنطال سيا الجينز، ودست أصابعها داخل معطف سيا وفوق السترة الصوفية.

– "أين هاتفك؟"

– "تركته في غرفتي."

– "هل في جيوبك أي شيء؟"

– "آنا، ما الذي يجري؟"

كررت سؤالها:

– "هل معكِ أي شيء في جيوبك؟"

– "لا. لا شيء."

مالت آنا بجذعها إلى الخلف، فتوقفت الفرس.

– "أحتاج أن أرى عينيكِ يا سيا."

أمسكت سيا بالمرأة الروسية برفق، وأدارتها حتى أصبح ظهر آنا ممددًا فوق عرف الفرس. صرخت آنا مرة واحدة فقط، ثم سحبتها سيا للأعلى حتى أصبحتا جالستين على ظهر الحصان، بلا سرج، وركبتاهما تتلامسان، وجهًا لوجه. تململتا وتدافعتا لتعديل وضعيتهما، بينما كانت آنا تشتم من فرط الألم.

ثم فكت آنا أزرار معطفها وقالت:

– "ارفعي سترتي قليلًا."

كانت بشرة آنا الحليبية قد اختفت، وحلت محلها رقع متداخلة من الكدمات الحمراء الملتهبة التي تغطي بطنها. سحبت سيا السترة للأسفل برفق، فجفلت آنا.

قالت سيا:

– "تبًا له. هل يمكنكِ الذهاب إلى الشرطة؟"

نظرت إليها آنا بإشفاق وقالت:

– "يوجد رجال شرطة في روسيا، لكن لا يوجد أمان. ليس من شخص مثل فاديم."

بدأ الضوء يملأ غابة البتولا، ووجدت سيا نفسها تفقد خيط السيناريو والخطة، وبدا كل شيء بعيدًا جدًا. هل كانت آنا تختلق هذا كله؟

قالت آنا:

– "أود إجراء مناقشة صريحة معكِ يا سيا. سأبدأ أنا. لقد دبرنا حادث السيارة، وأظنك تعرفين ذلك. ضابط الـ FSB الذي تحدث إليكِ، حسنًا، إنه يعمل لديّ. لصالح عائلتي."

همست سيا:

– "لصالح SVR؟ أم FSB؟"

لوت آنا شفتيها لكنها لم تجب، وتابعت:

– "عائلتي في حرب مع **الإوزة**. إنه رجل قوي، مدير سابق لـ FSB، والآن رئيس مجلس الأمن، لكنك تعرفين ذلك. كنت أحاول العثور على الأموال التي سرقها منا. الأموال التي ساعدته شركتكِ على إخفائها. الليلة أمر باعتقال والدي. هل رأيتِ السيارات؟ هل سمعتِ أي شيء؟ بالطبع فعلتِ."

– "أجل، فعلت."

– "نحن نخسر الحرب، أخشى ذلك. أنا أخسر. لقد سرقونا، وحرمونا من الوصول إلى رئيسنا. أخذوا والدي. وزوجي يوسعني ضربًا، وربما يعمل معهم أيضًا. من المحتمل أن **الإوزة** قد عقد صفقة معه ليبيع عائلتي."

– "لماذا تخبرينني بهذا يا آنا؟"

– "لأنني أعرف من تكونين."

– "ومن أكون؟"

ربتت آنا على الحصان وقالت:

– "نحن متشابهتان، ألسنا كذلك؟ بطريقة ما؟"

رفعت سيا حاجبها.

قالت آنا:

– "أوه أرجوكِ. أنتِ وأنا نتبارز منذ فترة الآن. أفترض أننا يمكننا الاستمرار في ذلك، لكنني غاضبة جدًا. ومتعبة. ونفدت خياراتي. ما أدركته هذا المساء، خلال محادثتكِ الصغيرة مع الضابط الممثل التابع لي، هو أنكِ لستِ محامية. مستحيل. أو، للدقة، لستِ مجرد محامية. أنت محامية بقدر ما أنا موظفة بنك. أي، جزئيًا. أو لا على الإطلاق، حسب وجهة نظرك للأمور. ما لم أستطع فهمه هو لماذا ترسل **لانغلي** شخصًا مثلكِ إلى روسيا. كنت في حيرة. ثم أدركت. طُعم. كنتِ تعرفين ما أريده، وكنتِ ستسمحين لي بالحصول عليه إذا أتاح لكِ ذلك فرصة لجرّي إليكِ. وبدلًا من ذلك، نظفتُ أنا سنارتكِ. هل أصبتُ في معظم ذلك؟"

أثناء التدريب يخبرونك ألا تكشف غطاءك أبدًا دون موافقة رسمية من لانغلي. تحافظ على استمرار الكذبة، ولا تفصح أبدًا عما تكون.

لكن آنا عرفت حقيقة سيا. والآن عرفت سيا حقيقة آنا. الأكاذيب ستخاطر بجعل آنا تفلت من الصنارة. ومع ذلك، لم تثق سيا بهذه العاهرة الذكية.

قالت سيا:

– "دعيني أرى الكدمات مرة أخرى."

رمقتها آنا بنظرة باردة.

تابعت سيا:

– "لقد ألقيتِ بجثة على الزجاج الأمامي لسيارة وحاولتِ ابتزازي. أريد التأكد من أنها ليست مكياجًا أو طلاءً. أو ربما يجدر بي أن أسأل عن حال ظهركِ بعد سقطتكِ البسيطة سابقًا، حين لم تكوني قادرة على القيادة؟"

فكت آنا أزرار معطفها ورفعت سترتها مرة أخرى. مررت سيا إصبعها فوق اللحم الأحمر المتقرح، فجفلت آنا. وكزت سيا ضلعًا، فصرخت آنا وشتمتها بالروسية، وعيناها تلمعان بالغضب. حاولت سيا التفكير في سبب لهذه المسرحية المتقنة. فكرت أنه لو شك رؤساء آنا في أن سيا تابعة لـ CIA، لكانوا اختطفوها ببساطة. وجود آنا هنا، واقتيادها لهما إلى الغابة بعيدًا عن الكاميرات والميكروفونات، يوحي بأن سيا ربما انتزعت نصرًا إعجازيًا من بين فكي المؤامرات الروسية.

سألت سيا:

– "ماذا تريدين؟"

قالت آنا وهي تزرر معطفها:

– "أريد التحدث مع شخص من جهازك. شخص رفيع المستوى. أعتقد أننا نتشارك عدوًا واحدًا. يمكنني تقديم معلومات عن هذا العدو."

قالت سيا وهي تنتقي كلماتها بحذر:

– "وإذا كان لدي جهة اتصال، فماذا سأخبر هذا الشخص عن قدرتكِ على السفر؟"

– "إذا كان لديكِ جهة اتصال، سأقول إنني أستطيع السفر في الأسابيع القليلة المقبلة. لدي أسباب عملياتية. لكن الرجال الذين اعتقلوا والدي يضيقون الخناق. يجب أن يكون الأمر سريعًا وفعالًا."

سألت سيا، وهي لا تكاد تصدق أنهما وصلتا إلى هذه النقطة:

– "هل تتزلجين؟"

– "أفعل، لكن قد يكون الأمر صعبًا في الوقت الحالي."

ولوحت آنا بيدها فوق بطنها المكدوم بابتسامة متهكمة.

سألت سيا:

– "هل يمكنكِ اختلاق سبب للسفر إلى سويسرا؟ ربما بضعة أيام لعمل مصرفي، وتضيفين إليها بعض الوقت الشخصي في النهاية."

جالت عينا آنا نحو طائر يرفرف بين الأشجار وقالت:

– "هذا ممكن."

– "توجد قرية صغيرة في منطقة يونغفراو تدعى جيميل فالد. هل تعرفينها؟"

ابتسمت آنا ابتسامة باهتة:

– "أعرفها."

***

عادت سيا إلى غرفتها ووضعت رأسها على الوسادة.

سيأتون في أية دقيقة، قالت لنفسها وهي تدفن وجهها عميقًا في ريش النعام. لم يغالبها النوم قط. وحين التفتت لتنظر إلى ماكس، كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما.

في الصباح، استحمت وحزمت أمتعتها، وتبادلت إشارة سريعة مع ماكس حول نجاحها. (محادثة رائعة في جولتنا الليلة الماضية. رائعة حقاً). كانت كل خلية في جسد سيا تتوق للفرار- من هذا المنزل، من هذه المزرعة، ومن روسيا. لكن كان هناك مشهد أخير في هذا المسرح الملتوي: فطور الوداع. ويدها على مقبض الباب، وكلها ترتيب وابتسام واستعداد لمواجهة العالم، وضع ماكس ذراعه حول كتفها وجذبها لعناق. قبل جبينها. جعلها العناق تشعر بالخفة؛ وللحظة ساكنة، لم تفكر في اعتقالها، ولا في آنا، ولا فيما فعلوه.

كان طاهي "روس-فارم" والمطبخ يعملون طوال الليل، خلال المكيدة، والاعتقال، والضرب. في غرفة الطعام الفسيحة، اكتشفت سيا بيضًا مسلوقًا، وسلمونًا مجففًا، وكمأً أبيض (تفاخر أحد الخدم بأنه نُقل جوًا صباح ذلك اليوم من إيطاليا)، وكعكة جبن بالزبيب، من بين أطباق أخرى لم تتعرف عليها سيا قط لأنها وماكس سألا عن مكان آنا وفاديم، فأوضح الخادم، للأسف، أن عائلة كوفالتشوك قد استُدعيت إلى "بطرسبرغ" في عمل ولن يتمكنوا من الانضمام إليهم هذا الصباح. وقال الخادم إن طائرتهم الخاصة جاهزة وتنتظر في "بولكوفو". نظرت سيا حولها، تتوقع خروج رجال أشداء من الجدران بهراوات وتعابير صارمة وأمر استدعاء عاجل إلى سجن "ليفورتوفو".

قال ماكس:

- "سنفوت الإفطار إذن."

لم تكن سيارة "الرولز رويس" التي استقبلتهم في الممر الدائري تجر مقطورة الخيول. وقفوا في البرد عند قمة الدرج الرخامي، يتبادلون النظرات، ويتناقشون حول الاعتراض؛ فـ "بينيلوبي"، في النهاية، ظلت في الإسطبل. كان السائق يهرع بالفعل بإنزال حقائبهم على الدرج. نظر ماكس إلى هاتفه واستدار عائدًا نحو المنزل عندما لمست يد سيا كتفه. هزت رأسها. أرجوك. قالت عيناها، أرجوك استمع.

تمتم ماكس:

– "روسي لعين."

وبصق على الأرض. دس الهاتف في جيبه، وألقى نظرة أخيرة نحو المنزل، ثم ركبا السيارة.

سمحت سيا لنفسها بنظرة عبر النافذة الخلفية: إلى تمثال الفحل الشامخ المغطى بثلج خفيف، وإلى المنزل نفسه، بنوافذه التي لا تزال يقظة ومتربصة، وواجهته التي تضغط بثقلها وكأنها قد تنهار فوق السيارة الهاربة. أغمضت سيا عينيها بينما كانوا ينزلقون عبر الغابة، وحين تجاوزوا البوابة الضخمة، شعرت بشيء عميق بداخلها يتحرر، وكأنها كانت تحت الماء لأيام وطفَت لتوها لتستنشق أول أنفاسها الكاملة من الهواء. طوال الوقت كانت تنتظر الأضواء الزرقاء. سيفعلونها في اللحظة الأخيرة، أخبرت نفسها. سينتظرون حتى النهاية، لإطالة أمد المعاناة. كانت الرحلة المذعورة إلى المطار صامتة.

على مدرج مطار "بولكوفو"، أنّت محركات الطائرة لتدب فيها الحياة، ومن مقعدها سمعت سيا طياري الميثاق المتخصصين في نقل الخيول، وهم في حيرة وغفلة، يشرحون أن هذا سيكون أول مسار لهم دون حصان. اتصل ماكس بفاديم مرتين، ومرتين حثته هي "أرجوك دع الأمر يمر"، ومرتين تحول الاتصال مباشرة إلى البريد الصوتي. راقبت سيا الرعشة المستمرة في يدها اليسرى بذهول مظلم. لم يحدث هذا أبدًا. أبدًا. لكنها كانت هناك، تهتز. ضغطت على أصابعها بقوة، ثم حررتها. لا تزال ترتجف. حين غادرت العجلات أرضية المدرج، راحت تمسح المكان بحثًا عن سيارات المطاردة، وهي تقبض على أصابعها مجددًا. انتقلت الاهتزازات إلى جفنها.

عندما مالت الطائرة فوق الماء، بحثت سيا في السماء عن طائرات مقاتلة روسية، وحين لم ترَ أيًا منها – وجفنها اللعين يرفرف مثل ستارة زنبركية – جلست للحظة أبدية، ويدها على صدرها وكأن الضغط قد يبطئ دقات قلبها. وحين عرفت أنهم صاروا أخيرًا في المجال الجوي الفنلندي أي أنها تجاوزت نقطة الخطر

الواقعية، تراجعت سيا مارة بالمقصورات الفارغة إلى الحمام، ودفنت رأسها بين يديها في إرهاق نفسي وارتياح بعد توتر شديد.

همست لنفسها:

– "يا إلهي. يا إلهي."

الفصل الثاني والثلاثون

سانت آيفز

في تلك الليلة الأولى للعودة إلى سانت آيفز، أفرط الاثنان في الشراب حتى الثمالة؛ لا على طريقة الحفلات الصاخبة، بل بذلك الأسلوب البائس لأولئك الذين يشربون في الحانة نفسها لكن كلٌّ في عزلته التامة. لم يكن ثمة بهجة ولا احتفال، كان مجرد أمر لا بد من فعله وحسب. في اليوم التالي، أخبرت الساعة سيا بأنها فتحت عينين ملتهبتين ومحتقنتين بالدم لأول مرة عند الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة ظهرًا. وبعد ساعة، تمكنت من الجلوس. وبعد ساعة أخرى، غادرها شبح الغثيان. كان الكوخ هادئًا؛ ولا يزال باب غرفة ماكس مغلقًا. وبينما كانت الشمس الساطعة تضرب الستائر وأمواج البحر تلطم الصخور، فتحت سيا باب ماكس ووجدته يبتسم بوجوم للسقف وعيناه مغلقتان.

قال دون أن يفتح عينيه:

– "صباح الخير."

أجابته:

– "بل مساء الخير، في الواقع. لقد أطلنا النوم."

– "لقد نمنا القدر المناسب. هل وصلت أرتميس بعد؟"

– "لا، وهذا جيد. لأننا بحاجة إلى التحدث."

خرجا للهرولة لطرد الكحول من جسديهما وتصفية ذهنيهما. هبطا عبر البلدة نحو شاطئ الميناء "هاربور بيتش". كشف انحسار الجزر عن امتداد من الرمال والصخور شكّل جسرًا إلى "بورتمينستر"، مما أتاح لهما قطع ميل على الشاطئ قبل الالتفاف والعودة. كانت هرولة بطيئة ومصحوبة بلهث الأنفاس، لكن سيا دفعتهما للاستمرار حتى أتما خمس دورات، وتصبب جلدها عرقًا تفوح منه رائحة الشراب. بعد ذلك، عقدا سترتيهما الواقيتين من الرياح حول خصريهما، وسارا بتثاقل على الشاطئ البارد بينما كان وقت الظهيرة يمضي ببطء. وجدا بقعة مناسبة وجلسا على الرمل. كانت الموسيقى الكلاسيكية تصدح من إحدى الفيلات الفيكتورية الجاثمة على المنحدر المشجر، وخيوط الدخان تتصاعد من المداخن.

راقبا طيور النورس والشنقب حتى اقترب منهما رجل عجوز يرتدي سترة قماشية ملطخة ويتوكأ على عصا كثيرة العقد، وسألهما إن كانا بخير. أي طاقة تلك التي كانا يبثانها حتى اضطرت العجوز للسؤال؟

أجابت: "نعم، أنا بخير"، وأومأ ماكس برأسه. مضى الرجل في سبيله. وحين أصبح مجرد نقطة في الأفق، قال ماكس أخيرًا:

– "أخبريني."

فأخبرته. سردت كل تفصيل، وكل قصاصة من المحادثات. كل ما فعلته، وما فُعل بها في روسيا. لم تكن تخطط لأن تكون صادقة إلى هذا الحد. وبالتأكيد لم يكن هناك جدوى من إخبار ماكس بأشياء لن تخبرها لـ بروكتر، لكنها لم تستطع منع نفسها. وفي النهاية، التفصيل الوحيد الذي أغفلته هو يدها المرتعشة، التي لا تزال تختلج حتى الآن في سانت آيفز.

عندما انتهت من سرد النقاش الذي دار مع آنا في الغابة، أطلق ماكس صفيرًا وضرب على كتفها. لوّح بقبضته وقال:

– "نعم يا سيا. يا للروعة، نعم."

تقبلت التهنئة بتكشيرة ونظرة خاطفة إلى يدها المرتجفة التي دستها بسرعة تحت ساقها. لقد كان ثمن النيل من آنا باهظًا.

ماكس، وهو الذي يعمل منفردًا بطبعه، فهمها بشكل غريزي. حدق في الأمواج وسأل:

– "ماذا تريدين أن تخبري بروكتر؟ كيف يجب أن نصيغ التقرير؟"

***

كيب تاون.

هورتينسيا روز فوكس، فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، مددت جسدها مسطحًا في خندق مترب، تنتظر مرور المصابيح الأمامية فوق رأسها. مر أسبوعان على الرحلة السنوية إلى جنوب إفريقيا، ولا تزال، كما يقول جدها، في "مرحلة التأقلم". كانت المدينة هادئة ومسترخية، وتشبه إلى حد كبير منطقة "بيغ بيند". كانت أيضًا تصارع اللغة – كما يحدث في كل صيف – فتخلط الضمائر، وتتعثر في دحرجة حرف الراء، وتبدل الأزمنة. وجدت أن حديثهم بطيء ببطء المدينة نفسها، وحين كانت سيا تتدرب مع جدها أو أمها، كانت تسرع في الكلام فتتراكم أخطاؤها اللغوية. كانت متعبة، رغم علمها أنها بعد بضعة أسابيع ستعود لتحلم بلغة أمها "الأفريكانية". كانت تدرك أيضًا أنها تبدو غريبة وغبية، مما جعلها متوترة وغاضبة، وهذا بدوره جعلها متهورة.

وهو ما يفسر سبب وجودها وحيدة، في هذا الخندق، في مزرعة شخص غريب في عتمة الليل الدامس.

مسحت أضواء المصابيح الكروم الموجودة بالأعلى وانحرفت نحو الطريق المؤدي بعيدًا عن المنزل الرئيسي للمزرعة. زحفت سيا بين الكروم ووقفت محنية الظهر حتى لا يبرز رأسها كثيرًا. كانت الليلة صافية؛ والقمر ساطعًا على دربها؛ فتساءلت إن كان أحد سيلمحها. عبرت كرم العنب وهي تشعر بزهو الفخر. لم

تشعر بالقلق، ولم تتعرق، وكان تنفسها منتظمًا. لم تكن هناك لحظة في حياتها أكثر حيوية أو تدفقًا بالحياة من هذه اللحظة. لم تسأل نفسها ولو مرة واحدة لماذا تفعل هذا الشيء المجنون؛ كانت تعرف السبب بالفعل، وتدرك أن لا أحد سيفهم ذلك. العواقب لم تكن غامضة، بل كانت ببساطة غير ذات صلة؛ مجرد احتمال باهت في نهاية نفق لن تدخله. ملأت رائحة شجيرات الكيب اللاذعة الهواء، وارتفعت قمم الجبال المظلمة فوق المزرعة ذات السقف القشي الجملوني، وحفت الكروم بذراعيها في نسيم لطيف. كان الضوء يتسلل من بضع نوافذ في المزرعة. كان ينبغي لذلك أن يجعل سيا تتوقف، لكنه بدلًا من ذلك زاد من حدة التحدي ورفع مستوى الأدرينالين الذي بدا وكأنه يتخثر في عروقها ويتكور في مؤخرة حلقها.

أفضت حافة الكرم إلى مرج متموج أمام المنزل: المكان الأول الذي قد تخرج فيه الأمور عن السيطرة. ومع ذلك، قالت لنفسها: لا أبالي كثيرًا إن حدث ذلك. كانت تعلم بوجود أجهزة استشعار وأضواء هنا؛ فقد رأتها أثناء استطلاع المزرعة، التي لحسن الحظ لم تكن محاطة بسياج خارجي. عقبات طفيفة، ستتجاوزها ركضًا.

عدّت: واحد، اثنان، ثلاثة...

ثم انطلقت تعدو عبر المرج نحو بستان من الأشجار، وعيناها تتنقلان بين الأرض والأشجار والمنزل. أضاء مصباح في المزرعة، كاشفًا إياها بضوء أبيض. أشاحت بوجهها. "طقطقة" – مصباح آخر ألقى بضوئه على العشب. ركضت أسرع، وغاصت في البستان، واحتمت خلف شجرة، وأدركت أنها تبتسم. التقطت أنفاسها، تستمع إلى سكون الليل حتى انطفأت الأضواء. ثم انخفضت إلى الأرض وزحفت للأمام لتلقي نظرة على الباب الأمامي للمزرعة، الذي كان يُفتح الآن بصرير خفيف. خرج رجل، يحدق في الليل. التفت رأسه هنا وهناك. وقف ساكنًا للحظات. ثم دخل وانبعثت الأضواء مرة أخرى.

كانت خارج نطاق أصابع الضوء تمامًا، آمنة في ظلمة الأشجار. ظهر الخيال مرة أخرى على الشرفة وهو يصفر، فرفرف قلب سيا. كلب؟ لم تعتقد بوجود كلب.

سيمزقني إربًا، فكرت، ماذا أفعل؟ دست رأسها في التراب وأدركت مرة أخرى أنه رغم تسارع دقات قلبها، كانت أفكارها صافية، ولم تكن تتعرق. أنا في الظلام، فكرت، أنا مخفية. لكن يبدو أن الرجل كان يصفر لنفسه، أو لليل، لأنه لم يظهر أي كلب. انطفأت الأضواء. دخل الرجل وأغلق الباب. كان ينبغي أن أشعر بالارتياح، فكرت، لكنني أشعر بنفس الشعور. أشعر بالتوازن.

نفضت سيا الغبار عن نفسها، وانحدرت عبر منحدر منخفض بين الأشجار. كانت الإسطبلات تقع عند سفح تلة تنحني فوق الحظيرة مثل موجة توشك أن تتكسر. لم تكن الأبواب مرئية من المنزل الرئيسي، لكن من الواضح أن هناك شخصًا مستيقظًا وسيرى أي أضواء. فكرت سيا في هذه المشكلة مع ترقق كثافة البستان وظهور الإسطبلات. ستة مقصورات، خشب قديم. حصانان جميلان. فلتذهب الأضواء إلى الجحيم، فكرت. شقت طريقها إلى الصخرة التي رصدتها قبل ثلاثة أيام حين استطلعت المكان. التقطتها.

والحجر في يدها، ركضت أسفل المنحدر نحو الإسطبلات. ومض الضوء العلوي واشتغل. لم تنتظر حتى، بل هوت بالحجر على القفل الضعيف، تضرب، وتحطم، وتطرق حتى استسلم المزلاج الذي يمسكه، وانتزعت البراغي من الخشب، وسقط القفل بجلبة على الأرض. أزاحت الباب وسارت نحو مقصورة الفرس التي ركبتها قبل أسبوع واحد، في وضح النهار، وبموافقة وترحيب كاملين من أصحاب المزرعة. كانت تثق بالفرس. استيقظ الحصان من نومه الخفيف وراقب سيا وهي تتحرك بسرعة لوضع العدة. قادت الحصان من الإسطبلات، برفق ولكن بثقة، وقفزت إلى السرج بوضعية ويقين أخبرا الحصان أنها تعرف بحق الجحيم ما تفعله. انطلقت صاعدة الطريق، نحو مفترق حيث ستنعطف بعيدًا عن المنزل وتخطط للركوب، جامحة وحرة، عبر حقل على الحافة الشمالية للكرم. لكن محركًا دبت فيه الحياة عند المنزل. والآن بدأت المزيد من الأضواء تشتعل.

حثت سيا الفرس على العمل، لا بقسوة بل بقوة لطيفة. حافظت على الاتصال من العنان إلى الشكيمة. ليس كثيرًا، فقط ضغط كافٍ للتحكم. ضغطت بساقيها

على ضلوع الفرس. انطلق الحصان في عدو سريع نحو المفترق. تحركا بسرعة، وانعطفا يسارًا، ولا تزال المصابيح الأمامية غائبة، وأفكار سيا لا تزال صافية، والليل مثالي لأنها ستنجو بفعلتها. التفتت لترى سيارة تبدأ بالنزول من المنزل. لكنها كانت بعيدة تمامًا عن أضوائها. لا يمكنهم رؤيتي، فكرت. نظرت لترى ما إذا كانوا سيتجهون إلى الإسطبلات أم سيتبعونها على الطريق.

اختاروا الإسطبلات.

انطلقت سيا تعدو بالفرس إلى داخل المرعى.

لبضع دقائق مترفة، اغتسلت سيا بضوء القمر، تتذوق طعم انتصار المجرم الذي لا يحتاج لرحمة ولا عفو لأنه لن يُمسك به أبدًا.

ثم حشحش شيء ما تحت سياج قريب. عض الحصان المذعور على الشكيمة وانطلق في ركض جنوني، كاسرًا سيطرتها عليه. كانت هذه المرة الوحيدة التي شعرت فيها بالخوف تلك الليلة. لاحقًا، عند عودتها إلى "بيغ بيند"، كانت ستتدرب على كبح جماح حصان جافل، لكن في تلك الليلة في كيب تاون لم تكن تملك الكثير من الممارسة، وعجز عقلها وعضلاتها عن العمل معًا لاحتواء الفرس.

حين كان ينبغي عليها أن تشد العنان الأيسر بقوة، وتسحبه نحو ركبتها لتدفع الحيوان إلى الدوران في دائرة أبطأ لتبديد سرعته واستعادة السيطرة، شدت سيا بدلًا من ذلك بلا جدوى على كلا العنانين، وبقوة غير كافية لتهدئة الفرس الجامحة التي كانت تمزق المرعى المفتوح بسرعة مرعبة. في غضون ثوانٍ، جمحت الفرس، وقذفت سيا لترتطم بأرض الحقل بعنف شديد جعلها تظن أنها سمعت صوت تكسر العظام.

انطلقت الفرس هاربة نحو المنزل. تمددت سيا على الأرض تتساءل إن كانت تستطيع المشي. كان جانبها الأيسر متجلطًا. ضلوع مرضوضة أو مكسورة، لم تكن تعلم. بدت ذراعاها وساقاها تعمل، لكن مسافة الأميال الثلاثة للعودة إلى مزرعة جدها بدت مستحيلة. لفترة من الوقت، انتظرت فقط أن يجدها المزارع.

أدركت أن المشكلة كانت في الواقع أسوأ حين فكرت فيها أكثر. لقد ركبت بعمق داخل المرعى؛ ستكون المسيرة إلى مزرعة الجد أطول ببضعة أميال مما مشته في وقت سابق تلك الليلة. وستكون مسيرة بطيئة، أدركت ذلك وهي تقف. قد تصل إلى المنزل قبل بزوغ الفجر، لكن أختها ستكون مستيقظة، جالسة تكتب في الكوخ الذي تتشاركانه خلال الصيف. هل ستشي بها ديزي؟ لم تفعل ذلك في المرة السابقة. ولا في المرة التي سبقتها.

عرجت في طريقها إلى المنزل: عبر المرعى، والكروم، وغطاء الأشجار حيثما وجدته. إنه لأمر غريب، فكرت، كم أشعر بشعور جيد رغم أنني محطمة. قطعت الميل الأخير على الطريق وهي تلهث، وحواسها متيقظة، تعلم أنه لو قاد المزارع سيارته هنا ورأى فتاة متسخة تركض وتمسك جانبها الأيسر، حسناً، سيتوقف وسيطرح أسئلة وربما يستدعي الشرطة. انعطفت صاعدة الممر الطويل المورق نحو مزرعة جدها، ثم انحرفت يسارًا لتعبر الجسر الصغير الممتد فوق الجدول. عبر ستارة من الأشجار، ظهر كوخ الضيوف الصغير، الأضواء مضاءة، وأختها اللعينة مستيقظة ومتنبهة وبلا شك مضبوطة بدقة على إيقاع أخلاقيات الأمور. كان التسلل بلا جدوى، لذا دفعت سيا الباب وفتحته بقوة. كانت ديزي تجلس عند المكتب في الغرفة المشتركة. لم ترفع أختها نظرها، ولم تتكلم. كانت تخربش في دفتر ملاحظاتها. في الحمام، فحصت سيا كدماتها. حمراء متقرحة، لكنها لم تظن أن شيئًا قد كُسر. استحمت وبدلت ملابسها بأخرى نظيفة، وفي غرفة نومهما وجدت ديزي تجلس على سريرها في ضوء الصباح.

سألت أختها بالإنجليزية:

– "ماذا كان هذه المرة؟ سيارة أخرى تركت المفاتيح بداخلها؟"

أجابت سيا بالأفريكانية:

– "لا تقلقي بشأن ذلك يا ديزي. لم أسرق شيئًا."

ضاقت عينا ديزي كشقين صغيرين وقالت:

– "أها. صحيح."

– "أنا جادة."

– "ألا تعتقدين أن الأمر غريب؟"

– "ربما."

– "هل تفكرين في الأمر أصلًا؟"

– "ليس كثيرًا."

ارتمت ديزي بظهرها على السرير ضاحكة:

– "تبدين كمريضة نفسية. تعرفين ذلك، أليس كذلك؟"

– "شيء ما يحدث لي عندما نأتي إلى هنا يا ديز."

قالت ديزي:

– "هذا هراء. أنا أعلم يقينًا أنكِ سرقتِ أشياء في الوطن. من متجر بورتر. أشياء تافهة. علكة. مكسرات. مياه معبأة."

قالت سيا، وهي تتحول إلى الإنجليزية دون وعي منها:

– "وهذا وطن أيضًا. لدينا وطنان، لذا ليس لدينا أي وطن."

حدقت في أختها بغضب لكنها لم تنكر السرقة من متجر بورتر. وماذا لو فعلت؟

قالت ديزي:

– "أكيد، مهما يكن يا حبيبتي. مهما يكن."

سألت سيا بالأفريكانية:

– "دايز، هل ستخبرين ماما وبابا؟ أو جدي؟"

كانت ديزي عند دفترها، تخربش.

– "لن أخبر أحدًا."

سألت سيا:

– "إذن ماذا تكتبين؟"

– "لا شيء."

أغلقت ديزي الدفتر، وحشرته في الدرج، وذهبت إلى الحمام للاستحمام.

استمعت سيا إلى صوت تدفق الماء ورمقت المكتب بنظرة. قد أضطر لسرقة ذلك الدفتر، فكرت.

***

التفتت سيا عن الأمواج لتنظر إلى ماكس.

– "إليك كيف أعتقد أننا يجب أن نصيغ تقرير روس-فارم."

قالت إن هناك عناصر من الزيارة يُفضل تركها في الظل، بعيدًا وبمنأى عن برقيات المراسلات. محاولة ابتزاز آنا والجنس التمثيلي قفزا فورًا إلى الذهن. قالت إنه لا فائدة من مشاركة ذلك إذا أردنا البقاء في الميدان. لا مكان ليعيدوا تعييننا فيه على أي حال – لا يمكننا مجرد تغيير المكاتب مثل بيادق لانغلي. وبالتأكيد لا توجد أي ميزة إذا ظنوا أننا على وشك جعل آنا تتجاوز الخط وتقدم شيئًا مفيدًا. قالت سيا إن التوازن دقيق. يجب أن نقول الحقيقة، لكن ليس كلها. نحن لا نريد أن نكذب، الأمر ببساطة أن هناك تفاصيل دخيلة يُفضل تركها على أرضية غرفة المونتاج، لمصلحة الجميع. لأنه كيف يمكنهم أن يفهموا كيف كان الأمر هناك بالنسبة لنا، حقًا؟ الضغط الذي واجهناه. قالت إننا اتخذنا قرارات في اللحظة بناءً على المعلومات التي كانت لدينا. بالإضافة إلى أن احتمالات حصول لانغلي على

معلومات استخباراتية من الروس تناقض قصتنا هي صفر تقريبًا. آنا تدير هذا الأمر بشكل غير رسمي. قالت سيا إنها لن تنبس بكلمة عبر الهاتف. لن تكون هناك اعتراضات لاتصالات تحكي قصة مختلفة.

لم تكن سيا تعرف كيف سيتلقى ماكس هذا، لكن بينما كانت تتحدث، وهي تراقب عينيه وجسده بحذر، بدأت تؤمن بأنهما ربما لم يكونا مختلفين جدًا. وأنه، مثلها، ثمة شيء يدق داخل صدره – وإن لم يكن متضخمًا بنفس القدر – يدفعه للأمام، ليس بالرغم من الخطر، بل بسببه.

استمع ماكس؛ وظل صامتًا. وحين انتهت سيا، قال:

– "لو اكتشفت بروكتر الأمر يومًا، ستكون العواقب وخيمة. خاصة بالنسبة لكِ."

قالت سيا:

– "وكيف ستكتشف؟ نحن الوحيدان اللذان يعرفان. إذا أخبرناها، سيتوقف كل شيء."

قال ماكس:

– "وأنتِ تريدين للأمر أن يستمر."

– "أعتقد أننا يمكننا الفوز. لكن أخبرني برأيك."

– "أوه، يمكننا الفوز. ليس لدي شك في ذلك. لكن هل يستحق الأمر المخاطرة؟"

هز كتفيه، والتقط عودًا.

– "لست أدري."

راح ماكس يخربش بالعود على الرمل. هل يعرف ما يريد؟ تساءلت سيا. كان بإمكانه العودة إلى مزرعته، لكن شيئًا ما كان يبقيه هنا، ورغم أنها شعرت بانجذابه إليها، لم تظن أن ذلك يمكن أن يكون السبب الوحيد. ربما، فكرت، هو لا يريد العودة إلى الوطن.

واستطاعت حينها أن تشعر بأنه يثق بها، وهي تثق به. وكانت تلك فكرة غريبة حقًا. ربما كان جسدها يعرف ذلك منذ فترة، لكن هذه كانت المرة الأولى التي يستطيع عقلها إرفاق كلمات بذلك الشعور، ولو كانت امرأة مختلفة تمامًا، في مهنة ومكان وبلد مختلفين مع رجل مختلف، لربما قالت ذلك. لكن بدلًا من ذلك، تذكرت سيا سرير "روس-فارم"، ولم تكن قد استطاعت بعد تحديد أي درج يجب أن يحوي المشاعر المتجمعة بداخلها، والتي راحت في الأيام التالية تتقلب من الخزي إلى الإنكار، ثم القبول الجليدي، وصولًا إلى رغبة دفينة تبدأ الدورة من جديد.

وقف ماكس، ونفض الرمل عن سرواله، ومد يده ليُنهضها.

- "أريد استعادة حصاني. لنكتب التقرير كما تقولين."

مدت يدها الوحيدة الثابتة وقالت:

- "شكرًا."

وسحبها ماكس للأعلى.

في رحلة العودة سيرًا، اشتريا قهوة خفيفة كالماء من مقهى تعصف به الرياح. ظهر الكوخ في الأفق وهما يلتفان حول المسار أعلى التل. كانت سيارة "بريوس" زرقاء رابضة في الممر. لقد وصلت بروكتر.

الفصل الثالث والثلاثون

سانت آيفز

توقفت الرئيسة لشراء بعض المؤونة، وشكرًا للرب أن معظمها كان جاهزًا للأكل. وجداها في المطبخ، تسحب صينية طعام من الفرن اللافح بيدين عاريتين تمامًا، ودون أن تبدي أدنى بادرة ألم. الشيء الوحيد الذي أبدت انزعاجها من المالك الفضولي للمتجر في سانت آيفز. كان ميل الرجل للتطفل، حسب تقدير بروكتر، يجعله على حافة أن يكون "مهووسًا جنسيًا" (على حد تعبيرها). ولكن من منظور الطهي، فقد أرشد بروكتر توجيهًا حسنًا؛ إذ كانت هناك أوعية مليئة بمعكرونة "بوكاتيني" الطازجة، وصلصة طماطم كثيفة القوام، وكرات لحم مقلية مقرمشة، وسلطة قرع وجزر مرشوشة بالحمص واللوز المحمص.

كان المالك "المنحرف" قد اقترح شرب بضعة زجاجات من نبيذ "كيانتي" مع الطعام. لكن بروكتر صرحت بأنها حين تتصرف برقي، فإنها تميل للنبيذ الأبيض، ولذا صبت لنفسها كأسًا من خليط أبيض حلو المذاق ابتاعته أيضًا. لم تبالِ الرئيسة بكون هذا المشروب خيارًا مريعًا مع المعكرونة؛ كما لم يزعجها – على ما يبدو – ملصق السعر الذي يحمل رقم ثلاثة جنيهات إسترلينية (والذي لا يزال ملصقًا على الزجاجة)، ولا الملصق الملون بألوان فاقعة الذي تظهر عليه عائلة أسماك كرتونية. لاحظت سيا أن ماكس يحدق في الزجاجة بينما كانت بروكتر تصب المشروب.

على مائدة الطعام، أفلتت بروكتر كرة لحم من يدها فجأة فتدحرجت على الأرض مخلفة وراءها أثرًا من الصلصة. التقطتها ثم أكلتها مباشرة. وقالت وفمها ممتلئ بالطعام:

– "إذن، أخبراني بكل شيء."

قالت سيا:

– "بالطبع، من أين أبدأ؟"

استهلت حديثها بذكر "الضغط الخفيف" الذي مارسته آنا، ثم اندفعت تسرد تفاصيل اعتقال والد آنا، والضرب، ورقصة الخيول الختامية حيث خرجت منتصرة. إذا كانت بروكتر متحمسة، فلم يظهر ذلك عليها؛ إذ انصب تركيزها في الغالب على كرات اللحم التي كانت تلتقط بقاياها من بين أسنانها بين الحين والآخر. وحين انتهت سيا، جلست بروكتر للحظة تحرك نصف كرة لحم مأكولة بشوكتها وتديرها حول وعائها.

سألت الرئيسة:

– "بمَ ضحيتِ في النهاية؟"

رفعت بروكتر نظرها عن الوعاء، وراحت تراقب لغة جسد سيا بتلك العينين الخضراوين اللامعتين.

أجابت سيا:

– "أعطيتها الحاسوب وشرحت لها هيكلية الشؤون المالية لشركة «الإوزة». بينت لها كيف حولوا الذهب إلى نقد وأين مكانه الآن."

– "وماذا عن الضغط؟"

كذبت سيا قائلة:

– "كان لطيفًا. آنا تلعب – أو كانت تلعب – معي لعبة طويلة النَفَس. أظنها كانت تريد معلومات عن شركة «ليريك» أيضًا، وعن هاري هاميلتون وكل تلك الأمور. في الظهيرة الأولى التي خرجنا فيها لركوب الخيل، أخبرتني أن «الإوزة» ورجاله يضيقون الخناق على عائلتها. وسألت إن كان بوسعي المساعدة، فقلت إني سأفعل، ولكنني بالطبع لا أستطيع خرق القانون."

قالت بروكتر:

– "بالطبع، هذا بديهي."

– "ثم ألمحت آنا إلى أنني إن لم أساعد، فقد أتعرض للاعتقال. لم تقل كلمة اعتقال صراحة، لكنه كان ضمنيًا. فتعاونتُ معها، وشرحتُ الأمور."

قالت بروكتر وهي تضع كرة لحم كاملة في فمها:

– "ثم يُعتقل الوالد، ويشبعها الزوج ضربًا، ونصبح أمام لعبة جديدة تمامًا. يا للهول."

وبعد أن تمكنت من ابتلاع ما في فمها، سألت:

– "ألم تقل قط إنها تابعة لـ SVR أو FSB؟"

– "ليس بتلك الكلمات. ألمحت إلى SVR، لكنها لم تؤكد."

– "وأنتِ لم تذكري CIA قط؟"

– "كلا. لكنها تعرف. وكما قلت، طلبت أن يقابلها شخص من جهازي. شخص رفيع المستوى."

استدعى ذلك نخرةً من بروكتر، التي كانت تلف المعكرونة على شوكتها وتلتفت نحو ماكس سائلة:

– "وماذا جعلك فاديم تفعل؟"

قال ماكس:

– "شرب، ساونا، وتكرار للأمر ذاته. لكن الجو كان مشحوناً. إنه غاضب لأنه دفع مبلغاً مبالغاً فيه ثمناً للفحل، وقد اختفى متوجهاً إلى بطرسبرغ اللعينة في الصباح الأخير، وترك تعليمات لموظفي «روس–فارم» بالتحفظ على فرسي."

سألت بروكتر:

– "أفترض أنك اتصلت به منذ ذلك الحين؟"

– "صحيح. تجاهل مكالماتي في الصباح الذي غادرنا فيه روسيا. وحين وصلنا إلى هنا، أجاب. أخبرني أنه ظن أن الفرس كانت مشمولة في البيعة. وهذا هراء محض. لكنه يمنحه مخرجاً كي لا يضطر لتسمية الأمر سرقة. فاديم كوفالتشوك وغد حقير. إنه يتحمل هذه المسرحية لأنها عملية خاصة بآنا، وأنا أضمن أن شخصاً من طرفهم تحدث معه ليلتزم الهدوء. لكن كان عليه أن يرد لي الصاع مقابل الوقت العصيب الذي أذقته إياه في المكسيك. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك معه."

سألت بروكتر:

– "ما اسم الفرس؟"

قال:

– "بينيلوبي. كانت فرس والدتي."

قالت بروكتر:

– "أنا آسفة لذلك. سنذكر الأمر لآنا في سويسرا، لنرَ إن كان بإمكانها المساعدة في تحريك الأمور."

قال ماكس:

– "نفوذها على ذلك المعتوه لا يتجاوز نفوذي."

ردت بروكتر:

– "رغم ذلك، سنحاول."

ثم بفظاظتها المعهودة، ضربت الطاولة بيدها لتعلن تغيير الموضوع وقالت:

– "حدثاني عن المزرعة المقززة والمراقبة المكثفة. لا تغفلا أي تفصيل مهما صغر."

نقبت الرئيسة قليلًا في تلك التفاصيل، حتى إذا وصل ماكس إلى منتصف الموجز حول عشائهم مع فاديم وآنا، صبت بروكتر لنفسها كأسًا عملاقًا من النبيذ الأبيض المفرط في الحلاوة وأشارت برأسها نحو غرفة النوم سائلة:

– "هل عادت شكوك فاديم الجنسية؟"

وكما اتفقا على الشاطئ، تركت سيا المجال لماكس ليتولى الإجابة.

قال:

– "لقد قدمنا أداءً أكثر إقناعًا."

أومأت بروكتر برأسها وقالت:

– "آها.. حسنًا."

ثم رمقتهما بنظرة فاحصة:

– "هل تشعران بالارتياح لمجريات الأمور؟"

أجاب ماكس بنعم.

سألت بروكتر:

– "هورتنسيا؟"

قالت وهي تنظر في وعائها:

– "أشعر بالارتياح. إنه لا يشك في شيء. لا أحد يشك."

قالت بروكتر:

– "حسناً."

وأغلقت الموضوع.

في المطبخ، شرحت سيا خطة الاتصالات البدائية التي وضعتها مع آنا وهما على صهوة الجياد في الغابة. كانتا ستقابلانها في سويسرا. قالت الرئيسة إنها تريد النظر في روح آنا الروسية الباردة، لترى إن كان بإمكانهم صنع شيء جميل سويًا. كان البريق في عيني بروكتر الخضراوين يوحي بأن آمالها المعقودة على القضية تتجاوز مجرد استغلال الشبكات المالية لفاديم كوفالتشوك لغرض جمع المعلومات الاستخباراتية. حدست سيا أن هناك لعبة أكبر تجري هنا، وأن الرئيسة تكتم أوراقها.

خلال مسيرتها المهنية، تعلمت سيا أن المرء غالبًا لا يرغب في رؤية الصورة الكاملة. حيوانات الـ CIA كانت تريد أكبر قدر ممكن من المعلومات لأن المعرفة – وكلما كانت أكثر سرية كان أفضل – هي السلاح المفضل في المعارك البيروقراطية. أما بالنسبة للعميل المنفرد المتخفي غير الرسمي (NOC) في الميدان، فالمعرفة تعني مزيدًا من الأسرار التي قد تزل بها الألسن تحت تأثير السكر أو النشوة أو في غرفة استجواب روسية. كان حوض أسماك المقر الرئيسي مكاناً آمناً للسباحة؛ أما عملاء الغطاء غير الرسمي فيبحرون في المحيط المفتوح. والمحيط المفتوح أمام سيا فوكس قد تحول إلى دوامة هائجة. ومع ذلك، فقد نزفت من أجل هذه القضية. لذا خطت خطوة حذرة نحو الأمواج.

سألت سيا:

– "ماذا نريد منها أن تخبرنا؟"

والأهم من ذلك:

– "ماذا نريد منها أن تفعل لنا؟"

قالت الرئيسة ببطء:

– "حسناً، يعتمد الأمر نوعًا ما على قراءتكِ لدوافع آنا هنا. ماذا تريد حقًا؟"

فكرت سيا للحظة ثم قالت:

– "آنا في موقف صعب. زوجها يضربها، ووالدها في السجن، وهناك مؤامرة أخرى تلاحق إمبراطورية أعمال عائلتها وتهدد مكانتها في المجتمع. وفي أعماق ذلك كله تقبع امرأة عنيدة لا تعرف كيف تغادر الميدان دون أن تهزم خصمها أو تُهزم هي نفسها. إنها تريد الفوز. وأعتقد أنها تهتم بكيفية تحقيق هذا الفوز. هذا الأمر يعنيها."

قالت بروكتر، ولم يكن سؤالًا حقيقيًا:

– "إذن هي لا تطلق الرجل وتهرب فحسب، لأنها تريد أن تهزمه، وتهزم «الإوزة»، وهكذا دواليك."

قالت سيا:

– "أعتقد ذلك. إنها سترى في الهروب من روسيا هزيمة. وكذلك الأمر بالنسبة لطلاق فاديم، مما سيضعف موقفها السياسي ويجعل مساعدة والدها أكثر صعوبة. لكنها ليست حمقاء. إنها تفضل الفوز بطرق ملتوية على أن تخسر. وعدم فعل أي شيء سيعني الخسارة."

قالت بروكتر:

– "إذن إليكم الأوراق مكشوفة على الطاولة. آنا أغابوفا لا تريد المال. حسناً. إنها تريد التحكم في البيئة المحيطة بها. هذا جيد، لأننا قد نخرج ببعض الأفكار حول كيفية «إعادة خلط» تلك البيئة لتتماشى بسعادة أكبر مع مصالح جمهوريتنا

العظيمة. إنها ترغب في رؤية جمجمة زوجها تُعصر حتى آخر قطرة. حسنًا، ربما نأخذ بعض أموال بوتين ويُلصق الاتهام بزوجها. تود تصفية بضعة أعداء لوالدها. حسنًا، ونحن نود رؤية انقلاب في موسكو، حتى لو لم يكن حقيقيًا. نرفع مستوى جنون الارتياب، ونسفك قليلًا من الدماء. نحن نتجه بتهور نحو الستالينية على أي حال، فلماذا لا نحظى ببعض المرح في الطريق؟ قولي لي، هل هناك لعبة أيديولوجية هنا يا عزيزتي؟ ربما تكره النظام، وتريد نخر الأعمدة من الداخل، ومساعدة العم سام العجوز في رمي بضعة مفكات في تروس الآلة لأن، حسنًا، سام العجوز رائع ومنارة للأمل وكل ذلك الكلام المعسول؟"

قال ماكس مقاطعًا:

– "إنها وطنية روسية."

لوحت بروكتر بيدها في الهواء بازدراء قائلة:

– "هم دائمًا وطنيون. دائمًا. لقد أدرتُ وطنيين سوريين. ووطنيين روسًا. وسعوديين. وفرنسيين. دائمًا يحبون بلادهم. السؤال هو ما إذا كانوا يريدون تغيير بلادهم."

قالت سيا:

– "لا أظن أن آنا تريد نوعًا جديدًا من روسيا. لا أعتقد أنها تكترث بطريقة أو بأخرى لبوتين أو النظام. هي لا يعجبها ما حدث في أوكرانيا، لكنها لن تحرك ساكنًا لتغييره. إنها لا تؤمن بأن روسيا يجب أن تكون ديمقراطية. ولا أظنها تعتقد أن ذلك احتمال وارد أصلًا. بالنسبة لآنا، روسيا هي هكذا فحسب. الفساد لا يزعجها على الإطلاق. بل أظن أنها لن تسميه فسادًا. إنه «بيزنس»، هكذا تسير الأمور في البلاد. وهي ترى نفسها خارج كل ذلك، بالمناسبة. إنها ثرية على الورق، لكنها لا تهتم بالمال. إنها تعمل. إنها نحلة عاملة. مثلي."

تدفقت الكلمات الأخيرة منها عفويًا، مما جعل بروكتر ترفع أحد حاجبيها.

تجاهلت بروكتر – أو لم تلاحظ – ومضة الغضب في عيني سيا، وقالت:

– "إذن يا هورتنسيا، لم تجيبي على سؤالي البسيط. ماذا تريد آنا أندريفنا أغابوفا حقًا؟"

شبكت سيا يديها عند خصرها. يدها اليسرى اللعينة كانت لا تزال ترتجف، وإن كان ذلك أقل حدة مما كان عليه في الطائرة أو على الشاطئ.

قالت:

– "تريد أن تحرق كل شيء. أن تلعب لعبتها الخاصة."

أطلقت بروكتر صيحة عالية وقالت:

– "تلك، يا عزيزتي، امرأة يمكنني العمل معها."

***

في تلك الليلة، أبرقت بروكتر رسالة عاجلة إلى ادارة مكافحة التجسس، وسرعان ما تلقوا اسمًا رمزيًا. في جميع المراسلات الرسمية داخل قنوات التعامل المقيد، من الآن فصاعدًا وإلى الأبد (آمين)، ستُعرف آنا أندريفنا أغابوفا – المصرفية، والزوجة الصابرة، والابنة المثقلة بالهموم، والخيالة، وضابطة SVR المحتملة تحت غطاء غير رسمي، والمتآمرة المستقبلية، والجاسوسة، والخائنة – باسم: جي تي / بيرسيفوني. GT/PERSEPHONE

بيرسيفوني.

أطلقت الرئيسة – التي كان ولعها بالأساطير الإغريقية يغذّي شكوك سيا بأن الرموز لم تكن في الواقع تُولّد عشوائيًا – ضحكة شيطانية عند سماع الاسم. قالت إنه مثالي. مثالي لدرجة اللعنة.

لاحقًا، في غرفتها وهي في الفراش، بحثت سيا عن الأسطورة.

بيرسيفوني. ملكة العالم السفلي. إلهة الموتى، والحياة، والحبوب، والدمار. كانت هناك قصص وتفسيرات عديدة. القصة التي راقت لسيا أكثر من غيرها تقول إن الإلهة كانت تحكم الطبيعة؛ ففي تلك الرواية، كانت تخلق وتدمر.

فكرت سيا أن هذا يبدو وصفًا دقيقًا، بينما كانت أحلام اليقظة تتكاثف لتتحول إلى نوم. قضية "بيرسيفوني" ستصنع اسمها، كان هذا مؤكدًا. وإن لم تكن حذرة، فإنها ستدمرها.

الفصل الرابع والثلاثون

واشنطن

لم تكن بروكتر تؤمن بسلطة الألقاب، ولا كانت تقيم وزنًا لتلك الأبهة المزعومة التي تحيط باجتماع في "غرفة العمليات" مع نائب المدير برادلي ومستشار الأمن القومي جيمس بايبر. لكن برادلي أصر على حضورها. قال إن المعلومات الاستخباراتية تخصها – وهي كذلك فعلًا – وإنه بحاجة إلى دعمها في حال تاه بايبر في التفاصيل الجانبية أثناء النقاش، وهو أمر اعتاد فعله.

تبعت بروكتر برادلي إلى داخل الجناح الغربي ونزلت السلالم خلفه. كانت قائمة الطعام المعلقة عند "مقصِف البحرية" تعلن عن حساء سرطان البحر، وبدا ذلك خيارًا شهيًا للغاية. أفضت السلالم إلى تلك الدهاليز منخفضة السقف التي تضم قاعات المؤتمرات وتُعرف مجتمعة باسم "غرفة العمليات". وللمصادفة، قادتهما سكرتيرة ذات مظهر أمومي وقور إلى القاعة الرئيسية؛ وهي مساحة لطالما رأتها بروكتر ضيقة وكئيبة بعض الشيء، حتى بمقاييسها هي. كان السقف منخفضًا، والمقاعد ضخمة تلتهم المساحة المخصصة للقدمين.

انضم برادلي إلى بايبر عند الطاولة الرئيسية، بينما اتخذت بروكتر مقعدًا في صفوف الخلفية، ودست حقيبتها السوداء المؤمّنة تحت الكرسي. لم تكن الحقيبة تحوي أي أوراق، بل حشَتْها بلفائف من بسكويت "ريتز" لدرء صداع آخر النهار. راح بايبر يتفحصها وكأنها كائن فضائي غريب الأطوار. همس برادلي: "بحق السماء يا أرتيميس، نحن ثلاثة فقط". قلبت عينيها بضجر، وسحبت أحد المقاعد الجلدية العملاقة إلى الطاولة وارتمت عليه. كان الكرسي أكبر من اللازم، مما

أشعرها بأنها ضئيلة الحجم. تبادل بايبر وبرادلي المجاملات المعتادة، في حين انفصلت بروكتر عن الواقع.

كان بايبر محللًا قديمًا للشؤون الأوروبية من مكتب الاستخبارات والأبحاث في وزارة الخارجية. التقته بضع مرات عندما كان مديرًا أول لأوروبا في مجلس الأمن القومي قبل عشر سنوات. وتذكرت أن بايبر كان غريب الأطوار بشكل يثير الحنق. لمحت علبة من المناديل المبللة أمامه على الطاولة، فتذكرت ولازمته العصبية.

وكأنه تلقى إشارة، أخرج بايبر زجاجة معقم لليدين من جيب بنطاله وسكب كمية سخية منها على يديه. إنها لمعجزة أن هذا الرجل لم يفرك جلده حتى التلاشي خلال الجائحة. كان قصير القامة، مفتول العضلات، ذا شعر مقصوص بعناية، ونظارات "هيبستر" سميكة، ووجه طفولي وجدته مستفزًا؛ ذلك الفم الغريب الذي يتحرك بطرق تثير غضبها. لقد نشأ في أروقة الخارجية، وعمل في الملف الأوروبي، ثم غادر مجتمع الاستخبارات ليلعب السياسة. كان في نظر بروكتر تجسيدًا حيًا للفشل من جميع النواحي.

قال بايبر:

– "المقال الموسوم بالشريط الأحمر عن روسيا في الموجز اليومي للرئيس نال بعض الاهتمام هذا الصباح. أردت مناقشة بضعة أسئلة طرحها الرئيس حول خياراتنا."

كان ديبمان قد حاول إجبارها على قراءة المقال، لا لشيء إلا لأنه استند إلى بعض المعلومات التي قدمتها آنا خلال زيارة "روس–فارم". لكن بروكتر رفضت. كانت تتأمل، فضلًا عن أن المحللين يستخدمون لغة بلهاء لدرجة أنها تعجز دائمًا عن فهم ما يحاولون قوله. كانت المذكرة أمام بايبر؛ ألقت بروكتر نظرة على عنوان مقال الموجز الرئاسي: "روسيا: ظهور بوادر تكتلات داخل الدائرة المقربة لبوتين".

فكرت في سرها: في الواقع، هذا عنوان جيد جدًا.

قال بايبر:

– "إن وثيقة التفويض الموقعة بعد غزو أوكرانيا تمنحنا مساحة واسعة للتحرك من منظور العمليات السرية. بالطبع، تركنا فيها الكثير من قيود «هل تسمحين لي يا أمي» لضمان ألا تنفلتوا أنتم يا صبيان «لانغلي» وتتهوروا مع السيد بوتين."

رسم بايبر ابتسامة غريبة موجهة لبروكتر، ثم تابع:

– "لكن كما قلت، بدأ الرئيس يسترسل في الحديث هذا الصباح أثناء قراءة هذا المقال. سحبني جانبًا بعد الاجتماع وطلب مني أن أطرح عليكِ سؤالًا."

قاطعت بروكتر قائلة:

– "ما هو؟"

كان رأسها يؤلمها. فكرت في تناول بسكويت "ريتز"، لكنها عدلت عن الفكرة. صوته صاخب جدًا. يا للخسارة.

سوّى بايبر دفتر ملاحظاته على الطاولة ورتب ثلاثة أقلام بحيث تكون المسافات بينها متساوية تمامًا، وقال:

– "أراد الرئيس أن يعرف ما إذا كان أي من المصادر المذكورة في مقال هذا الصباح قادرًا على مساعدتنا في تأجيج الوضع الداخلي لبوتين أكثر. أعلم أننا فكرنا في هذا الأمر بعد أوكرانيا. أنتم كتبتم بعض الأفكار، ونحن في الغالب لم نفعل شيئًا."

كلمة "شيئًا"، كما رأت بروكتر، كانت تفسيرًا مهذبًا للواقع. لقد قدم قسم "موسكو إكس" قائمة بخيارات رائعة، لكنها جميعًا قوبلت بالتجاهل.

سأل برادلي:

– "هل تغيرت الشهية للمخاطرة؟"

قال بايبر:

– "ربما. تشجع الرئيس بظهور علامات التصدع داخل نظام بوتين. إنه يريد عمليات حقيقية لتوسيع تلك الشقوق. هذه كلماته. سؤالي هو ما إذا كان لديكم الوصول اللازم للقيام بذلك. المصدر في مقال الصباح كان مثيرًا للاهتمام، وجعلني أفكر أننا ربما نمتلك مدخلًا هنا."

فرك برادلي فكه وقال:

– "لدي أنا وأرتيميس بضعة أفكار. أشياء قد نفكر فيها إذا أردنا حقًا استفزاز فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين."

وضع برادلي يده على مذكرة الموجز اليومي والتفت إلى بروكتر؛ فهي من ابتكرت المفهوم في نهاية المطاف.

قالت بروكتر:

– "تمهيد: هذه الفكرة لا تتعلق بجعل روسيا دولة صديقة، أو ديمقراطية، أو أيًا كان. هذا ليس مطروحًا. لم تكن هناك فرصة لذلك حتى في التسعينيات، فما بالك بالآن؟ مستحيل. ما يجب أن نطمح إليه بدلًا من ذلك هو روسيا منقسمة. ضعيفة. منغلقة على ذاتها. يريدون مهاجمة جيرانهم؟ يريدون تقسيمنا؟ حسنًا، أقول تباً لهم، نحن أيضًا نجيد هذه اللعبة. هذه الفكرة تتمحور حول الفوضى."

أخذت وقتها في شرح المفهوم والعمليات الداعمة له، مطعّمة حديثها بتشبيهات تاريخية وجنائية لإثبات سوابقه المنطقية. كانت واحدة من تلك الأفكار التي تبدو ذكية حين تكون ثملًا، وتظل ذكية بعد أن تصحو. ذكية قبل أن يخدّرك الروس وينشروا صورًا لجسدك في كل أنحاء الويب، وتظل فكرة قوية بعد بضعة أشهر. فكرة جيدة لدرجة اللعنة. إبداعية، لكنها ليست بناءة. بل العكس تمامًا. أخبرت بروكتر بايبر كيف يمكن لـ "بيرسيفوني" أن تكون حجر الزاوية. شرحت دوافع

بيرسيفوني للعمل مع الوكالة وكيف تتماشى تمامًا مع الفوضى العارمة التي يأمل قسم "موسكو إكس" في صبها على "الوطن الأم" روسيا.

نقر بايبر بقلمه على دفتره وقيّم بروكتر بفضول حذر، وكأنها نُقلت بالحافلة إلى غرفة العمليات من حديقة حيوان، أو ربما من مصحة عقلية.

قال بايبر:

– "لنقل إن بوتين نجا من كل هذا."

تدخل برادلي قائلًا:

– "وهو ما سيفعله على الأرجح."

رمق بروكتر بإحدى نظرات الاستنكار التي اعتادت توقعها حين تندمج في الحديث.

تابع بايبر:

– "نعم، حسنًا، نجا. لكنه أصبح مغلول اليدين. يضطر لقضاء وقت أطول في تدعيم جبهته الداخلية. هل سيشك فينا؟ هل أخفينا بصماتنا؟"

قالت بروكتر:

– "بالطبع سيشك فينا."

قال برادلي:

– "يا رجل، بوتين يعتقد بالفعل أننا ندير عمليات كهذه. هذا الأمر متأصل في عقليته المصابة بجنون الارتياب."

سأل بايبر:

– "ولكن كيف سيرد إذا فعلنا ذلك حقًا؟"

قالت بروكتر:

– "برأيي، أطلق العنان لخيالك حتى ما دون الأسلحة النووية وحرب برية ضخمة أخرى، هذا هو الحد الأقصى."

رفع بايبر يديه مستسلمًا وقال:

– "إذن لماذا بحق الجحيم نفعل هذا؟ نضربه، فيضربنا، وستدور الدائرة وتتوسع ولن تنتهي أبدًا. أو تنتهي بظلام دامس لكلا البلدين."

قالت بروكتر:

– "حسنًا، أفترض أننا يمكننا الاستمرار في تركه يظن أننا فاشلون. أننا منزوعو الرجولة وسندعهم يفعلون ما يحلو لهم. يفتكون بأوكرانيا. يشوون أدمغتنا بالموجات الدقيقة..."

قاطعها برادلي هنا:

– "أرتيميس، شكرًا لك. إليك المسألة يا جيمس. العقلية الروسية تعتمد على الوخز والنكز واللكم حتى يحصلوا على رد فعل. سيذهبون إلى أقصى مدى نسمح لهم به. إذا سمحت لي، نحن بحاجة لرسم خط أحمر، ولكمهم في المقابل، لإجبارهم على إعادة تقييم نهجهم. قد تكون هذه وسيلة للقيام بذلك."

كان لدى بروكتر تشبيهها الخاص، فقالت:

– "أنا أرى الأمر بهذه الطريقة يا رفاق. نحن نلعب لعبة مع الروس حيث يقف الطرفان مواجهين لبعضهما. كل بضع دقائق يوجه لنا الروسي لكمة. على الكتف. في الضلوع. في المناطق الحساسة. في الوجه. في أي مكان."

جعد بايبر أنفه، وكبح نصف عطسة، ثم نظف يديه مرة أخرى وسأل:

– "ماذا لو لم نلكمهم؟"

أجابت بروكتر:

– "سيظلون يلكموننا. هذا هو الشيء الذي لا نستوعبه. سيظلون يلكموننا بحق الجحيم يا رجل. ويفعلون ذلك بقوة، ويركزون على الأجزاء الرخوة لأنهم يستطيعون الإفلات بفعلتهم، ولأن ذلك يمتعهم."

سأل بايبر:

– "وإذا لكمناهم في المقابل؟"

– "حينها سيلكموننا ردًا على ذلك. ربما بقوة أكبر. وربما أقل. وربما، فقط ربما، يتوقفون عن استهداف المنطقة الحساسة والوجه. سيلكمون الكتف بضع مرات. وتلك ضربات يمكننا تحملها."

قال بايبر:

– "إذن أفضل تشبيه لديك للعلاقات الأمريكية الروسية يا آنسة بروكتر، هو شخصان يلكمان بعضهما في عراك بلا نهاية؟"

– "هذا رأيي بالضبط."

وقفت لتلتقط قطعة حلوى من الجرة الموجودة على الطاولة ثم انزلقت عائدة إلى مقعدها. كان وجه برادلي قد تجهم، وراحت يده تنقبض وتنبسط بتوتر.

نقر بايبر بأصابعه على الطاولة مفكرًا، ثم قال:

– "إد، سنكلف «مجموعة المحامين» بالعمل على صياغة «مذكرة إخطار» لمنحك الصلاحيات لإنجاز هذا الأمر وحماية رجالك. وثيقة التفويض الحالية لن تغطي هذا المدى. سنخطر «مجموعة الثمانية[32]» بالطبع، لكن أعلمني بمجرد أن

[32] **مجموعة الثمانية (G8) The Group of Eight** / منتدى سياسي ضمّ الدول الصناعية الكبرى، وشكّل انضمام روسيا إليه في التسعينيات رمزاً لدمجها في النظام العالمي الغربي. إلا أن ضم القرم عام 2014 أدى إلى طرد موسكو وعودة المجموعة إلى صيغة "السبعة (G7) "، مما يجسد نهاية شهر العسل السياسي وعودة القطيعة مع الغرب.

يبدأ الكونغرس في التململ وسأجري بعض الاتصالات لمنع نحو مائتي موظف مراهق من الاطلاع على الأمور الحساسة."

ثم وقف لينهي الاجتماع.

لحسن الحظ، انشغل برادلي بملف القراءة المسائي في طريق العودة إلى لانغلي. التهمت بروكتر لفافة كاملة من بسكويت "ريتز" بينما كانت السيارة تسرع بمحاذاة نهر بوتوماك. ومع تجمع الظلام خارج نوافذ سيارة "سوبربان"، استمتعت بروكتر بحلم يقظة ملون على وقع الموسيقى العميقة والغنية لـ "بحيرة البجع" لتشايكوفسكي. كان خيالها يتمحور مرة أخرى حول الفوضى في موسكو: احتجاجات، حرائق، مكبرات صوت تصدح، دبابات تجوب الجادات الستالينية. وبينما كانت السيارة تتدحرج لتدخل مجمع القيادة، غفت بروكتر للحظة على وقع الصورة الفاتنة لغوغاء يجتاحون الكرملين ليضرموا فيه النيران.

الفصل الخامس والثلاثون

موسكو

بعد ستة أيام من الاعتقال، زارت آنا والدها في سجن بوتيركا. هذا الحصن المنيع المبني من الطوب الأحمر، الذي كان سجناً منذ عهد الإمبراطورة كاثرين، والذي احتجز فيه ذات يوم دزيرجينسكي – مؤسس الـ "تشيكا" والبذرة التي أنبتت الـ "كي جي بي" – قبل أن يفر وسط فوضى الثورة. وكأي بلشفي مخلص، ما إن وصل جاسوس السلطة ذاك إلى الحكم حتى بنى جهازه على صورة جهاز القيصر، وراح يملأ بوتيركا بأعداء الدولة الجديدة. تغير الخصم، لكن الأساليب ظلت كما هي.

أشاحت آنا بنظرها عن صورة دزيرجينسكي المعلقة بميل فوق الباب، وحاولت أن تطرد من ذهنها صدى الصراخ والهمهمات المتسربة من الغرفة المجاورة. أولئك الذين يعتقلهم جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) لجرائم سياسية، مثل أبيها، عادة ما يُحبسون في سجن "ليفورتوفو". لكن «الإوزة» اختار بوتيركا عمداً، كما أدركت آنا؛ فهو جزء من نظام السجون العام ولا يخضع لسيطرة الـ FSB. وهذا يعني القتل، والاغتصاب، والمخدرات، وحراساً يتقاضون رشاوى من عصابات السجن. صحيح أن ثروة والدها وفساد الحراس قد يضمنان له زنزانة خاصة وتلفازاً وحماماً، لكن «الإوزة» رتب الأمر في بوتيركا ليوصل رسالة لوالدها مفادها أنه في أي لحظة قد "يُقتل" – حرفياً – عقاباً على وقاحته.

صارت الأبواب تئن وهي تُفتح، وتدفق صراخ من الغرفة المجاورة إلى الداخل. اقتاد حارس والدها المكبل بالأغلال إلى الطاولة. وضع يديه على المعدن البارد وابتسم.

تركهم الحارس وحدهم، باستثناء الكاميرات والميكروفونات. كانت بشرة أبيها أكثر شحوبًا، وتجاعيده أعمق، وعيناه أكثر فراغًا. وكان أنفه لا يزال معوجًا من ضربة تشيرنوف.

قالت وهي تحاول جاهدة أن تبتسم:

– "تبدو بخير يا أبي."

ضحك قائلًا:

– "يا إلهي، من الجيد رؤيتك يا آنيا."

وضعت يدها على يده. كان القيد باردًا للغاية.

همست:

– "أنا آسفة. أنا آسفة جدًا."

تجهم وجهه ليقمع أيًا كان ما أراد صراخه. اختلس النظر نحو كاميرا تومض في الزاوية وبدأ ينقر بقدمه بجنون على الأرضية الخرسانية وقال:

– "لا أصدق أنه فعلها."

كانت آنا تود مناقشة الاستراتيجية، واختبار حدسها بشأن التحركات القادمة، لكن الكاميرات جعلت ذلك مستحيلًا. وكانت تعلم أنه لن يوافق أبدًا على ما تخطط للقيام به. لقد وُضعوا في موقف "كش ملك"، ولم يكن أمامها خيار آخر، لكنه لن يرى ذلك. سيغذيها بترهات حول وجود حركة أخرى دائمًا. لكنها كانت كذبة.

في بعض الأحيان لا يوجد ما تفعله سوى قلب الطاولة. هل أنت على وشك الخسارة؟ اقلب الرقعة وانظر ما سيحدث.

تخيلت رقعة شطرنج معلقة في الهواء، وفكرت في لوكا وتساءلت عما إذا كان بإمكانها الهرب معه. أن تأخذ بعض المال وترحل. إلى أين سيذهبان؟ أي دولة ستقبل روسيًا بارزًا اعتُقل والده لتوّه بتهم فساد؟

لم تدرِ ماذا تقول له. حدق كل منهما في الآخر وجالا بنظرهما في أرجاء الغرفة وهما يستمعان لعويل جارهما غير المرئي. نظر والدها إلى الجدار نظرة العارف. لقد كان في تلك الغرفة، وفي كلا الموقفين. إنه يفهم أماكن مثل بوتيركا. وعندما توقف الضجيج، استقرت عيناه عليها. كانت آنا ترتدي سترة ثقيلة بياقة عالية لتغطي الكدمات، التي تحولت الآن إلى خليط قبيح من الأزرق والأسود والأصفر الشاحب. لم يستطع والدها رؤيتها، لكنه استشعر شيئًا ما.

سأل:

– "هل آذوكِ؟"

هزت رأسها نافية، لكنها وجدت نفسها ترغب في البكاء. دعت في سرها ألا يلاحظ ذلك. تفحصها بنظراته ثم هز أغلاله، فأصدرت رنينًا على الطاولة المعدنية.

قال:

– "لسبب ما، كنت أفكر في حفلة أقيمت في لندن منذ زمن بعيد. أعتقد أنها كانت في يوم الاستقلال، لأن الجو كان حارًا ورطبًا للغاية. كنتِ ربما في التاسعة أو العاشرة. هل تعرفين عمَّ أتحدث؟"

قالت آنا:

– "كلا، لا أظن ذلك."

ظلت نظرات والدها مثبتة عليها حتى مع تصاعد الصراخ في الغرفة المجاورة مجددًا.

تابع قائلًا:

– "حسناً، إنها قصة بسيطة، لكنها مسلية. لي على الأقل. كانوا قد جلبوا عدة مبردات مليئة بالمثلجات والآيس كريم للاحتفال. وكان هناك طابور. طابور خبز سوفيتي حقيقي من أجل الحلوى. كنتِ تنتظرين وحدك. وكان هناك صبي، ابن شخص ما في المحطة الاستخباراتية أو السفارة، بصراحة لا أتذكر. لكنه اقتحم الطابور ووقف أمامك مباشرة."

افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة.

أكمل والدها:

– "رأيتكِ تأخذين خطوة جانبية مترددة إلى اليسار. ثم سددتِ له لكمة صاعدة صغيرة لكنها متوحشة في ضلوعه."

قام بتمثيل الحركة في الهواء، فخشخشت السلاسل.

– "دون تبادل كلمات، ودون تحذير. كاد يسقط، ثم استدار ورأى أنكِ الفاعلة. هل تذكرين الآن؟"

قالت آنا بعد لحظة صمت:

– "بعد أن ضربته، طلب مني الصبي أن أتركه وشأنه، وقال إنه يستطيع فعل ما يحلو له."

ضرب والدها الطاولة بقبضتيه ابتهاجًا وقال:

– "إنها تتذكر حقاً. وماذا قلتِ بعد ذلك لتجعليه يهرب ذليلًا؟"

قالت:

– "لم أقل شيئًا."

ابتسم والدها.

تابعت:

– "أنا فقط كسرتُ أنفه."

ضرب الطاولة مجددًا وهو يضحك بفرح:

– "وكنت فخورًا بكِ يا آنيا. فخورًا لدرجة اللعنة. حسنًا، إليكِ حكمة من رجل عجوز يتذكر مشاهدة ابنته تقاتل وغدًا صغيرًا منذ زمن بعيد."

توقف ليبتسم نحو الكاميرا ثم أكمل:

– "عندما يقلل أحدهم من احترامك، تضربين ردًا على ذلك. نحن في خضم المعركة يا آنيا. لقد لعبتِ ألعاب الأولاد حين كنتِ فتاة. وكامرأة، ما زلتِ تلعبين مع الرجال. أنتِ من أصر على ذلك. إذا كنتِ تريدين الاستمرار في اللعب، فعليكِ بالقتال. لا شيء غير ذلك."

كان يحدق مباشرة في الكاميرا. لم يستطع منع نفسه. ابتسم الأب، ثم التفت إليها مجددًا وتابع:

– "سأجعل المحامين يعدون أوراقًا تمنحكِ توكيلًا رسميًا للسيطرة على «روسيا الصناعية» نيابة عني، ولإدارة حصصي في البنك. كل شيء. لضمان ألا يتم تمزيقنا، ولإبقاء القرارات داخل العائلة. أريدك أن تسيطري على الأمور. لن تديري الشركات فعليًا، لكنني سأضمن عدم إمكانية بيعها أو شرائها دون موافقتك. على الأقل وأنا في هذا المكان."

– "ماذا تريدني أن أقول لهم يا أبي بخصوص العرض؟"

قال وهو يشيح بنظره عنها ليوجه الرسالة مباشرة للكاميرا فوق الباب:

–("Ot tyurmy i ot sumy ne zerekaisya.") لا تأمن غدر الزمن، فالسجن والفقر قد يصيبان أي أحد.

وأضاف:

– "الجواب هو: لا."

***

في مكتب صديق والدها القديم ـفي ياسينيفو، النائب الثالث لمدير جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR) ماكسيموف، نظرت آنا عبر أشجار الصنوبر نحو موسكو، وشعرت بجسدها يرزح تحت وطأة هذه المدينة ـفي الشتاء. توفيت والدتها في فبراير، وهذا الشعور أعادها إلى ذلك الشتاء الأسود. كان ماكسيموف، مسندًا يده على كرشه، يميل بظهره إلى الخلف وينقب ما بين أسنانه باليد الأخرى. كان يقرأ تقرير آنا عن العملية ضد سيا. آخر مرة كانت فيها ـفي هذا المكتب كانت للبدء في التحضير لتلك العملية.

عندما انتهى، مسح ما أخرجه من فمه ـفي ساق بنطاله وانضم إليها على الطاولة.

قال:

– "يمكننا التحدث بحرية هنا. كيف حاله وصموده؟"

– "بخير."

لم تكن ترغب ـفي الحديث عن والدها.

مسد ماكسيموف ربطة عنقه الحمراء فوق بطنه وقال:

– "عملت مع والدك لأكثر من عقدين، ولم أره يستسلم مرة واحدة."

– "إنه رجل فخور."

مال ماكسيموف عبر الطاولة وقال:

– "وعنيد أيضًا. أنا أعرفكِ. لقد حسبتِ خطوات هذه اللعبة مسبقًا يا آنيا. هل تعتقدين أن عليّ رفع هذا التقرير إلى «الخزيان»؟"

– "كلا."

– "ولماذا لا؟"

– "حسناً، كبداية، هل يمكنك الحصول على موعد معه؟"

ابتسم ماكسيموف:

– "حسناً، هذا يعتمد. بدون «الإوزة»؟"

– "بدون «الإوزة»."

قال ماكسيموف:

– "كلا. لا أستطيع. والدك كان قادرًا أحيانًا على الحصول على تلك اللقاءات المنفردة. لكن الآن..."

دخل مساعد يجر عربة عليها طقم الشاي. ملأ ماكسيموف كوبه حتى الحافة بالسكر ثم غمره بالشاي الأسود. ملأت آنا كوبها وأخذت رشفة. كانت الأكواب البيضاء العظمية قد نُقش عليها شعار الدولة الروسية: نسر ذهبي برأسين. طائر مسخ ينظر للشرق والغرب في آن واحد، ويطير ضد نفسه.

فكرت آنا: أنا هذا الطائر... أنا كل الروس.

بينما كان ماكسيموف يحرك المزيد من السكر في كوبه، بدأت آنا السير على الحبل المشدود.

قالت:

– "هناك قضية في جنيف أتولاها. مصرفي. لقد أجلت زيارتين إلى هناك منذ أن أقحمني أبي في هذا الأمر."

وأشارت إلى التقرير.

نفخ ماكسيموف البخار عن سطح الشاي وقال:

– "أعلم بشأن القضية. ماذا عنها؟"

– "يجب أن أذهب لرؤيته في جنيف."

قال وكأنه لا يريد معرفة سبب كذبها:

– "فهمت."

– "سأذهب لمقابلته، لكني قلقة من أن يشك «الإوزة» في هذا السفر."

– "ما الذي تطلبينه يا آنيا؟"

– "أريد أثرًا ورقيًا في القنوات التي تعلم أن جهاز الأمن الفيدرالي سيطلع عليها. برقيات تنبه الإدارة الخامسة بتواريخ والغرض من سفري إلى سويسرا."

أخذ رشفة وأصدر صوتًا بشفتيه تلذذًا، فارتطم كوبه بالطاولة بقرقعة عالية. مسح بضع قطرات مسكوبة بمنديل. راقبها ماكسيموف للحظة، واستطاعت أن ترى الأسئلة تومض في عينيه، لكنه قال في النهاية:

– "اكتبي أنتِ البرقيات. وسأحرص أنا على تعميمها."

الفصل السادس والثلاثون

فولز سيتي، أوريغون / بالو ألتو

على مهبط الطائرات في مجمع "ليريك" ببالو ألتو، سارت أرتيميس بروكتر بثبات وسط التيارات الهوائية العنيفة المنبعثة من مروحية مطلية بالكروم. كانت الإضاءة الداخلية الخافتة والتشطيبات الخشبية الفاخرة تدعوها للانضمام إلى إحدى المساعدات التنفيذيات لـ هاري هاميلتون الجالسة بالداخل. كانت المرأة تعرف بروكتر بصفتها إحدى المستشارات الأمنيات لهاري.

صاحت بروكتر: "يا لها من مروحية لعينة!"

أجابت المرأة بينما كان الطيار يغلق الباب: "السيد هاميلتون ليس في المقر الرئيسي للأسف، لكنه يرغب في انضمامك إليه في الموقع لتناول العشاء."

– "أين الموقع؟"

– "أوريغون. غابة للأخشاب."

أطلقت بروكتر صيحة ساخرة: "أكيد، لمَ لا؟"

غفت بروكتر على وقع اهتزاز المروحية وهي تشق طريقها نحو السماء، ولم تستيقظ إلا على وكزة من المرأة في كتفها. كانوا قد هبطوا في فسحة وسط الغابة.

كانت أجنحة خيمة بيضاء ترفرف في مواجهة آلات قطع الأشجار المتوقفة. وفي الداخل، كانت الطاولة تئن تحت وطأة وليمة شواء. زجاجات فودكا "تيتوس" كانت تُبرد في سطل قمامة تحول إلى دلو للثلج. لمحت بروكتر وعاءً من القصدير

مليئًا بنقانق الذرة (كورن دوغ)، وهي التي لم ترفض نقانق ذرة قط في حياتها. التقطت عدة قطع، وملأت كوبًا بلاستيكيًا شفافًا بالفودكا، وبدأت تلتهم النقانق.

كانت تنهي الثالثة، وشمس الأصيل آخذة في المغيب، عندما وصل هاري. أشعل ثلاثة سيجارات وبدأ يملأ طبقه. عرض عليها كوكتيلًا، فناولته كوبها الفارغ. عقد حاجبيه دهشة من حجم الكوب الكبير، ثم رفعهما استغرابًا عند رؤية أعواد النقانق الثلاثة التي جردتها بروكتر تمامًا.

قال: "تلك الأكواب الكبيرة مخصصة للكولا."

أجابت بروكتر: "أجل، أعرف ما هي مخصصة له."

ملأ الكوب بفودكا "تيتوس" وناولها إياه، ثم جلس وبدأ يأكل.

قالت بروكتر:

– "كنتُ للتو في هونغ كونغ. قمت بزيارة قصيرة لشركة وساطة عملات مشفرة مشبوهة تدعى «بوليكوين للاستثمار»."

غمزت له وأشارت بسبابتها وإبهامها كالمسدس نحوه عند ذكر الاسم المريب. كانت "بوليكوين" شركة خاصة لتداول العملات المشفرة مدعومة من هاميلتون، وكان هاري يظن أن تورطه فيها سر.

رمق هاري بروكتر بنظرة باردة وقال: "وكيف كان ذلك؟"

– "كان لطيفًا جدًا يا هاري. طريقة رائعة لبيع وشراء كتل كبيرة من العملات المشفرة دون أن يعرف الناس ما تنوي فعله. ومن الغريب أن هذا هو نوع الأشياء التي أصبحت تثير اهتمامي مؤخرًا."

ابتسم هاري وهو يمضغ، ومسح أصابعه بمنديل، ثم أخذ رشفة طويلة من الفودكا وقال:

– "الشيء الذي طالما احترمته فيك يا أرتيميس، هو أنك لا تراوغين."

قالت بروكتر:

– "صحيح، صحيح. لست مراوغة. لم أُتهم بذلك قط."

قال هاري:

– "إذن، صديقاي العزيزان أرتيميس وإد طلبا مني في الأشهر القليلة الماضية شراء خيول سباق من إسطبل مكسيكي. والآن أعلم أنكِ كنتِ في هونغ كونغ تتشممين حول متجر العملات المشفرة المفضل لدي."

– "ماذا يجعلك تفكر يا هاري؟"

– "أفكر في أنني أتمنى لو كنت أعرف ما الذي يجري بحق الجحيم."

وضعت بروكتر الفودكا جانبًا وقالت:

– "إليك الزبدة. نحن بصدد إطلاق شريحة صغيرة لطيفة من المكائد. سنضع بعض الروس السيئين في مأزق حقيقي. سنورطهم قليلًا. الورطة التي تجعلك تمشي مثل راعي بقر لبضعة أيام."

سأل:

– "من هو الطرف المتألم في هذا التشبيه؟ في الواقع، لا تجيبي. سآخذ كأسًا آخر."

نهض من كرسيه ببطء والكوب الفارغ بيده. مالت بروكتر بكوبها نحوه، فملأه مرة أخرى حتى الحافة. فكرت: يبدو أنني سأغط في نوم عميق في المروحية المتجهة لسان فرانسيسكو.

سأل هاري وهو يعود بالمشروبات:

– "هل يمتلك هذا الروسي أجهزة استخبارات تحت تصرفه؟"

قال عبوس بروكتر دون تنطق: حاول مرة أخرى يا رجل.

قلب هاري عينيه وجلس.

قالت بروكتر:

– "أنت الرجل الذي لا غنى عنه يا هاري. أعلم أنك تعرف ذلك. والآن، هل أنت مستعد لسماع ما أريده؟"

– "نعم، بحق السماء."

حدقت بروكتر فيه بنظرة ثاقبة وقالت:

– "أريدك أن تشتري عملات مشفرة من «بوليكوين». بكميات ضخمة."

– "كم؟"

– "لا أعلم بعد. لكن الكثير. ربما مئات الملايين."

قال وهو يمسح الشحوم عن يديه:

– "يا للهول يا أرتيميس."

لاحظت بروكتر قدميه تنقران الأرض، وكان يفرك مفاصل أصابعه على شفتيه كما يفعل عندما تتحرك مشاعره وتسيطر عليه فكرة ما.

قال:

– "أفترض أن هؤلاء الروس سيجدون طريقهم إلى «بوليكوين» في مرحلة ما."

لم يكن سؤالًا. مررت بروكتر إصبعها حول حافة الكوب ولم تنبس ببنت شفة.

ابتسم هاري:

– "كم عليّ أن أتوقع استعادته؟"

– "بافتراض أن سوق العملات المشفرة لن ينهار تمامًا خلال الأشهر القليلة المقبلة، يجب أن تستعيد معظمها. بل قد تجني القليل من المال. لكن إذا سارت

الأمور في الاتجاه المعاكس، فسنجد طريقة لتعويضك عن بعض الخسارة. الميزانيات السوداء، حسناً، إنها تساعد. الله يعلم أنها تساعد. الآن، كلانا يعلم أن العملات المشفرة خدعة كبيرة، إنها مخطط «بونزي[33]» في نهاية المطاف، أليس كذلك؟ لا قيمة حقيقية لها. أنت تتداول مع «بوليكوين» يا هاري، لأنه، حسناً، هناك مال يمكن جنيه قبل أن ينهار كل شيء. لكن ذلك لا يزال بعيداً بعض الشيء، لذا لدينا وقت لتنفيذ هذا الأمر، وإدارة عمليتنا الصغيرة، وتخرج أنت بالمال من الجانب الآخر. أنا لا أمول الأمر بهذه الطريقة لأنني مغرمة بالعملات المشفرة. أنا فقط بحاجة لطريقة لتبخير كومة من المال، وإخراجها من أسواق العملات بسرعة حقيقية، ولا يهمني كثيرًا ما ستكون قيمتها في الجانب الآخر. ما يهمني فقط هو أن أستطيع نقلها وإخفاءها."

نظر هاري إلى سقف الخيمة ونقر بأصابعه على الطاولة.

أضافت بروكتر:

– "شيء آخر. إذا وافقتَ عليه، أعدك برسالة لطيفة من الرئيس وحفل في لانغلي لشكرك على خدمتك. ميداليات ودروع وأشياء تافهة لا يمكنك إخراجها من المبنى. لا مجد لك بالطبع. لكنك ستعرف ما فعلته. وأعتقد أن هذا ما يهمك يا هاري. كان بإمكانك أن تكون مليارديرًا بسيطًا يحب شراء الغابات وشرب نبيذ بملايين الدولارات على يخته بينما يسهر مع نساء أجمل منه بكثير. لكنك لست ذلك الرجل. أنت هارولد هيبورن هاميلتون. لست وطنيًا موسميًا، ولا جنديًا لأوقات الرخاء. أنت تحيا من أجل هذا. ومثلي تمامًا، سئمت من الروس الذين يتغوطون على الولايات المتحدة الأمريكية."

تفرس كل منهما في الآخر للحظة. في البعاد، زمجر محركُ جرّار لتدب فيه الحياة. تكسرت زجاجات الفودكا واستقرت في الدلاء مع ذوبان الثلج.

[33] **مخطط «بونزي Ponzi scheme** / نظام احتيالي يوهم المستثمرين بأرباح خيالية، ويعتمد في سدادها على أموال المشتركين الجدد بدلاً من أي نشاط تجاري فعلي. يرمز المصطلح إلى البناء الهش القائم على الخديعة، الذي يبدو لامعاً وناجحاً من الخارج ولكنه محكوم بالانهيار الحتمي بمجرد توقف تدفق الضحايا.

أخذ هاري نفسًا عميقًا وهز رأسه وكأنه يدرك أنه أحمق كبير. مد كأسه فوق الطاولة. وقرعته بروكتر بكأسها.

ناقشا التفاصيل اللوجستية على وقع جولة أخرى من "تيتوس". ثم ترنحت بروكتر عائدة إلى المروحية وأقلعت متجهة إلى بالو ألتو.

***

في صباح اليوم التالي، سارت بروكتر من فندقها في بالو ألتو إلى مبنى مهجور لشركة "وي وورك" (WeWork) في مجمع مكاتب وارف الظلال. كانت اللافتات تعلن أنه متاح للإيجار، وهو ما لم يعد صحيحًا. فقد قامت شركة "إتش إل كيه سوليوشنز"، وهي واجهة تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، بتأمين عقد الإيجار. كان المبنى يحمل كل سمات "منشأة المعلومات الحساسة المفصولة" (SCIF) التجارية: هيكل مستقل، وصلات ألياف ضوئية ممتازة، ومساحة وفيرة للأجهزة.

لكن المنشأة كان بها بعض العيوب أيضًا. فقد وجدوا فضلات، ثم اكتشفوا في النهاية الجناة: حيوانات الراكون. السقف كان يسرب الماء. وعثروا على إبر حقن محشورة في آلة إسبريسو بحجم فرن تجاري. ظنت بروكتر أن أحد الجدران الخرسانية المكشوفة قد شوهه المخربون، حتى أدركت أن الرسالة تقول: "اسعوا لتكونوا أفضل، معًا". دعاية لشركة "وي وورك". أمرت الفريق بطلاء ذلك الشعار باللون الأسود. ولتكتمل الصورة، كان المسبح الفارغ خلف المبنى يبدو كأحد الأماكن التي استخدمتها طالبان لتنفيذ الإعدامات.

أدخلت الرمز ودخلت. سارت متعرجة عبر ممر ودخلت غرفة أخرى. كانت هذه مساحة عمل مفتوحة في أيام "وي وورك"، مليئة بمكاتب رخيصة لما تخيلته بروكتر حشدًا كبيرًا من "إخوان التكنولوجيا" المغرورين. الآن أصبحت مركز القيادة لبنات أفكار بروكتر العملياتية. ألقت حقيبتها على طاولة وراحت تراقب فريق التقنيين وهم يتحركون بنشاط. كان رجل يرتدي سروالًا قصيرًا وصندلًا وقبعة "ميكي ماوس" يحدق داخل محمصة خبز وعينه مغلقة، ويكشط سكينًا بداخلها.

باستثناء جورج، لم تكن بروكتر تعرف اسم أي منهم. ولم تسأل أبدًا عما تخيلته خلفياتهم الغريبة. كان حدس جورج لا يخطئ حين يتعلق الأمر بـ "المهووسين"، وقد اختار جورج هؤلاء بعناية. لكن، يا إلهي، هؤلاء الفتية كانوا شاحبين كالموتى. بشرتهم تكاد تكون شفافة. فكرت بروكتر أنهم كالروبيان. وخطر لها أن تركب بضعة أضواء تسمير لتبقيهم على قيد الحياة فترة كافية لإنجاز المهمة.

فتحت بروكتر علبة "جولت" (Jolt) وتمشت إلى الزاوية الأخرى من الغرفة، حيث تجمع رجال العمليات المالية (FINO). كانوا ثلاثة مصرفيين سابقين يتحدثون لغة المصرفيين. تذكرت بروكتر أحدهم من خلال البرقيات، كان عميلًا متخفيًا أدار بنكًا قذرًا في جزر كايمان. كانوا يرتدون ملابس مثل المصرفيين الحمقى. أحدهم كان يرتدي بدلة مخططة بالفعل.

طرقت بروكتر باب مكتب مغلق. جاءها الصوت من الداخل: "مشغول لدرجة اللعنة."

– "هذا هو نوع السلوك الفظ الذي ألقى بك في «قفص التأديب» في المقام الأول يا سنيك."

دفعت بروكتر الباب فانفتح. تجهم رجل قصير مفتول العضلات يرتدي قميص بولو أحمر ضيقًا عندما ارتطم بابه بالحائط. كان اسمه المستعار المضحك في البرقيات جيرالد بي سنيكرسون. والجميع يناديه سنيك. لم تكن بروكتر تعرف اسمه الحقيقي. كان سنيك ضابط عمليات كبيرًا بسجل تجنيد مجيد ونزعة إدارية مريعة بنفس القدر. ومثل بروكتر، كان يقضي وقته في " قفص التأديب ". كان رئيس محطة في ستوكهولم، يدير فريقًا من ضباط الحالة الذين جندوا عددًا مذهلًا من الإيرانيين. المشكلة كانت أن سنيك كان ينام مع بعض ضباط الحالة، وإحداهن كانت متزوجة.

قالت وهي تتجرع آخر رشفة من "جولت" وتجلس:

– "اسمح لي بالدخول. كنت في الجوار. أعمل على زاوية العملات المشفرة. فقلت أن مر بنفسي وأرى كيف يسير الانتقال."

قال وهو يستعيد رباطة جأشه، لكنه لا يزال منزعجًا بوضوح من ظهور بروكتر المفاجئ:

– "جيد، إنه جيد. لقد حصلنا في الغالب على المواهب التي نحتاجها."

واستعرض القائمة. وعدته بروكتر بأنها سترسل ديبمان، محلل "موسكو إكس" الخاص بها.

وضعت علبة "جولت" الفارغة على مكتبه، وطلبت منه تشغيل أداة وينكلفوس.

– "أعطني عرضًا توضيحيًا."

قبل عشرة أشهر، زرعت عملية مشتركة بين الـ CIA ووكالة الأمن القومي دودة في قطعة من المعدات يستخدمها جهاز الأمن الفيدرالي الروسي لمراقبة الاتصالات السلكية واللاسلكية الروسية. منحت الأداة الـ CIA القدرة على جعل الـ FSB يرى أشياء في البيانات لم تحدث أبدًا. هل تريد أن يبدو الأمر وكأن ضابط حالة يسير في مسار كشف المراقبة قد جلس خاملًا في مقهى لمدة ساعتين؟ أو أن مجموعة من كبار المسؤولين المقربين من بوتين سافروا جميعًا إلى نفس "الداتشا" في الوقت نفسه، ربما في جوف الليل؟ كانت وينكلفوس هي الحل. وقد استُخدمت حتى الآن باعتدال؛ فلانغلي كانت تخشى ألا تملك سوى بضعة فرص قبل أن يربط الـ FSB الخيوط ببعضها ويكشف البرنامج الخبيث.

توجهوا عبر الغرفة الرئيسية نحو مكتب جورج في الزاوية، واصطحبوا الرجل ذي قبعة "ميكي ماوس" في طريقهم.

قالت بروكتر: "أرني يا جورجي."

بدأ جورج وشاشاته الست تومض بالحياة:

– "إذن، لنقل إننا اخترنا خمسة متآمرين لتلفيق التهم لهم. هناك ثلاث طرق يمكننا بها رشهم بغبار رقمي دامغ: معاملات مالية مشبوهة، اتصالات مشبوهة، وسفر مشبوه داخل روسيا. لابتوب فاديم، إذا تمكنا من الدخول إليه، سيساعد في الشق المالي. وأداة وينكلفوس هي الحل للاتصالات والسفر."

سأل الرجل ذو قبعة ميكي ماوس:

– "ما الذي نريد من بوتين أن يصدقه بالضبط؟ أعني، ما مدى الجدية التي نريد منه أن يأخذ بها التحدي؟"

التفتت إليه بروكتر والذهول يكسو وجهها، وكأنها افترضت أنه عاجز عن الكلام وكان تفضل بقاءه كذلك. ارتسمت ابتسامة تماسيح على شفتيها لتكشف عن معظم أسنانها.

قالت:

– "الفكرة هي جعل بوتين يظن أن زمرة صغيرة خبيثة قادمة لانتزاع التاج، وأن قلة من النبلاء يجهزون لتعليق رأسه على رمح للعرض على أسوار الكرملين. نريده أن يرى أن هذه الزمرة تجتمع، وتتآمر، وتوزع أموالًا لشراء الصمت. الهدف هنا يا برايان" – كانت ترتجل، ولا فكرة لديها عن اسمه – "ليس مجرد نفثة دخان، بل حريق من الدرجة الخامسة يوحي بأن الانقلاب وشيك، إشارة تجعل بوتين يقتلع ألواح الأرضية بحثًا عن الخونة. سيكونون وهميين بالطبع، لكنهم حقيقيون جدًا في مستنقع عقله المحموم بالستيرويدات وأدوية السرطان."

تمتم المدعو برايان:

– "إذن هو مصاب بالسرطان فعلًا."

وضعت بروكتر يدها على كتفه وقالت وهي تعتصرها حتى أصدر أنينًا:

– "هذه أسئلة جيدة حقًا يا برايان. مجرد روس أغبياء أثرياء وأقوياء يقتلون بعضهم البعض، هذا هو اسم اللعبة."

أومأ برايان – واسمه في الحقيقة كريس – بقلق وتراجع خطوة بطيئة وعفوية بعيدًا عن بروكتر.

أخذ جورج رشفة من مشروبه وتابع:

– "لذا، سنقرر عقد بضعة اجتماعات كبيرة لهذه المجموعة. أماكن وأوقات يكونون فيها جميعًا معًا، بحيث بمجرد أن يبدأ الـ FSB في التنقيب، سيبدو الأمر مريبًا."

قالت بروكتر: "أرني."

فتح جورج خريطة لموسكو. أشارت بروكتر إلى بقعة على طول طريق "روبليوفكا".

قالت: "هناك. قصر «الإوزة»."

نقر جورج على الموقع.

– "ولنقل إنه يسافر إلى هناك من مكتبه."

رسم جورج سلسلة من الطرق من الكرملين إلى فيلا «الإوزة». أدخل أوقات الانطلاق والوصول. أدخل رقم الهاتف والتاريخ وضغط زر الإدخال. ظهرت خريطة جديدة. كانت النقاط الزرقاء تمثل أبراج الاتصالات التي التقطت إشارة الهاتف على المسار المزيف.

نقر جورج على الشاشة وقال:

– "هذا مبسط لأننا لم ننشئ كل البيانات المزيفة بعد، لكنه سيظهر لأي وحدة من الـ FSB تحقق في الأمر أن هذا الهاتف سافر من وسط موسكو إلى روبليوفكا في منتصف ليل العشرين من ديسمبر."

صاحت بروكتر وهي تصفع ظهر جورج بقوة جعلته يصرخ:

- "يا لك من عبقري جميل!"

ثم قالت بحماس وقد بدأت الأمور تحلو لها:

- "تأكد من تضمين كل ما تحتاجه منها في برقية العمليات. لدينا فرصة واحدة في سويسرا، ثم سترحل."

الفصل السابع والثلاثون

موسكو / جنيف / غيملفالد

نامت آنا بعمق، واستيقظت مبكرًا دون الحاجة إلى منبّه. وبينما كانت لا تزال ترتدي منامتها الحريرية، تناولت إفطارًا وحيدًا مكونًا من خبز الجاودار المحمص والقهوة السوداء في شقتها بمنطقة أوستوجينكا، وهي تقلب أخبار الهاتف بذهن شارد. ثم توجهت بخطوات هادئة إلى الحمام، حيث خلعت سترة المنامة برفق لتتفحص تلك الكدمات ذات اللونين الأخضر والأصفر الشاحبين التي لطخت ضلوعها. مررت أصابعها على معدتها، فوجدت أن عضلاتها أمست أقل إيلامًا مما كانت عليه بالأمس، فابتلعت أربعة أقراص من الإيبوبروفين مع كوب من الماء.

فتحت خزنتها وسحبت منها جواز السفر السياحي الذي ستستخدمه في رحلتها إلى جنيف. لقد غادر العديد من الروس البلاد خلال العملية العسكرية في أوكرانيا ولم يعودوا قط؛ فنانون، وكُتّاب، وراقصات باليه، وصحفيون، وأكاديميون. وكثيرون غيرهم مستعدون للقتل من أجل الحصول على جوازات سفرها وتصاريح السفر الحكومية لمغادرة "الرودينا" (الوطن الأم). لكن فكرة الفرار لم تخطر ببالها ولو لمرة واحدة. وكيف لها أن تفعل؟ ولوكا لا يزال هنا.

لم تقوَ نفسها على التقاط الهاتف المخصص للتواصل معه، والذي كان يقبع أيضًا خلف باب الخزنة الموصد.

***

واصلت آنا نومها على متن الطائرة المتجهة إلى جنيف. وهناك، التقت بالمصرفي السويسري الكئيب لتناول الغداء في فندق بو ريفاج. ناقشا تعاملاته مع السلطات المالية الأمريكية، ووجهة نظر واشنطن بشأن العقوبات المفروضة على روسيا. استمر المصرفي في الثرثرة بصوت رتيب حول اليخوت الروسية المتناثرة في موانئ البحر المتوسط، والتي توقع أن تُحجز. فكرت في أن تقاريرها ستكون ذات أهمية مؤكدة لجهاز SVR، والأهم من ذلك، أنها ستقلل من احتمالية أن يضغط عليها أي شخص بشأن اليومين الإضافيين اللذين ألحقتهما بنهاية الرحلة. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، حصلت على جلسة طلاء للأظافر، ثم غلبها النعاس في غرفتها بعد كأسين من النبيذ.

في صباح اليوم التالي، قامت بجولة متعرجة عبر وسط المدينة وعلى طول الماء، حيث كان طقس جنيف الدافئ ملاذًا لطيفًا من قبضة شتاء موسكو القاسية. تأملت عمود الماء المقوس المنبعث من النافورة في وسط البحيرة، وهو يضخ رذاذه عاليًا نحو السماء الملبدة بالغيوم.

ارتدت آنا تنورة طويلة وحذاءً شتويًا مع سترة من الكشمير ومعطف أبيض لم ترتده في موسكو منذ سبتمبر. اشترت زوجًا جديدًا من أحذية "لوبوتان" من شارع "رو دو رون"، وتوقفت لاحتساء قهوة طويلة، ثم عادت ببطء إلى فندق "بو ريفاج" سالكةً طريقًا متعرجًا تضمن بضع انعطافات عكسية، وهو أسلوب كان سيُعد استفزازيًا للغاية في عرف أي ممارس لمهارات التجسس الميداني. وخارج متجر في شارع السوق، لمحت آنا رجلًا يركب دراجة "فيسبا"، خُيِّل إليها أنها رأته في وقت سابق من اليوم بالقرب من النافورة. افترضت أنه جزء من فريق المراقبة المضادة الخاص بهم، لكن هل يُحتمل أن يكون تابعًا لـ SVR أو جهاز FSB؟ فكلاهما لديه أسباب لمراقبتها. حفظت ملامحه في ذاكرتها مؤقتًا؛ فلديها مزيد من الوقت للتأكد.

في غرفتها بالفندق، حزمت حقيبتها وجلست على حافة السرير تفكر في العودة السريعة إلى موسكو. وتساءلت مرة أخرى:

هل ثمة طريق آخر؟

ومرة أخرى، لم تستطع تخيل أي سبيل.

كانت قد قطعت وعدًا على نفسها ألا تزور الحي القديم، ولكن بعد خمس دقائق وجدت نفسها تتصل بمكتب الاستقبال لطلب جدول مواعيد الحافلات.

قال الموظف بالفرنسية:

– "آنسة أغابوفا، هل تسمحين لنا بنقلك في سيارة؟"

وبلغتها الفرنسية المكسرة التي مارستها هنا خلال سنوات زواجها الأربع الأولى، وسنوات عملها الأربع الأولى في فرع بنك روسيا المغلق حاليًا في جنيف، أوضحت أنها تفضل الحافلة. لطالما استقلت الحافلة. فأصدر الهاتف تنهيدة معدنية طويلة.

على متن الحافلة، استسلمت آنا لأحلام اليقظة. تخيلت أن لوكا هنا، وأنهما يشربان القهوة فوق ملاءات مجعدة تحت ضوء الصباح المائل.

وكأن فاديم لم يكن موجودًا.

وكأن جهاز SVR لم يكن موجودًا.

كانت الحياة مجرد حقول مشمسة ورياح دافئة.

لكن الحلم تلاشى فجأة مع صرير المكابح.

كانت القرية تضج بالحياة وقت الغداء. اشترت شطيرة دافئة بالزبدة والسلامي من مخبز اعتادت زيارته يوميًا في حياتها القديمة. كانت تعشق خبزه، ولسبب ساذج ما، توقعت أن يكون طعمه مبهجًا، لكنه بدلًا من ذلك أعادها إلى ذلك الموسم الكئيب، فصار جافًا في فمها. ألقت الشطيرة في سلة المهملات وواصلت سيرها نحو الفيلا. عشر غرف نوم، وإطلالات شاسعة على البحيرة وجبال جورا. كان فاديم هو من اختارها. كانوا روسًا أثرياء، شبابًا وطموحين.

هنا، فكرت ذات مرة، هنا يمكننا حل كل شيء. هنا يمكننا العثور على طريقنا إلى الحب.

من خارج البوابة الأمامية، استطاعت رؤية نوافذ غرفة نومهما القديمة، ونوافذ الغرفة التي سرعان ما أصبحت غرفة نومها الخاصة. هنا، في جنيف، قررت أن سرير الزوجية الذي يشاركها فيه طاقم متنوع من النساء المبتذلات لا يستحق الحماية. كانوا قد توقفوا عن ممارسة الحب في الغالب، وكانت قد بدأت سرًا في تناول حبوب منع الحمل لحماية رحمها في حال حاول فاديم الاقتراب منها. وهنا أيضًا لوّح ماكسيموف بوظيفة SVR، وحينها رفضت العرض مراعاةً لوالدها ولفاديم، ولصوت "الابنة البارة والزوجة الصالحة" الذي كان قويًا آنذاك، حريصةً على إرضاء الرجال في وجوههم، رغم أن أتون المقاومة كان يضطرم بالفعل في داخلها.

كانت آنا تأمل أن تمنحها زيارتها الآن يقينًا بصحة خياراتها، لكن الأمر بدا وكأنها تتلصص على حياة امرأة ميتة، فعادت من منزلها القديم وهي أشد غضبًا على نفسها مما كانت عليهم.

رجعت إلى القرية واستقلت الحافلة التي، في تمام الساعة 3:07 مساءً، كانت دقيقة تمامًا في موعد انطلاقها إلى وسط جنيف. استعادت حقيبتها من "بو ريفاج" وأنهت إجراءات المغادرة في مكتب الاستقبال.

سأل الموظف:

– "إلى أين الوجهة التالية يا آنسة أغابوفا؟"

أجابت:

– "بضعة أيام من التزلج."

***

كان يوم الجمعة يوم عمل تقليديًا مرهقًا حتى وقت متأخر في شركة هاينز دوسون. عشرات المكالمات مع العملاء، ومقابلات قليلة مع موظفين محتملين، ومراجعات للوثائق؛ تلك الطاحونة المستمرة التي تفرم المساعدين في قاع هذا الهرم الوظيفي. شجرة عيد الميلاد المتلألئة، التي وُضعت مبكرًا جدًا في نوفمبر، لم تجلب سوى القليل من البهجة؛ بل كانت تذكيرًا بأن العالم خارج الشركة ربما يترقب موسم الأعياد بفرح، بدلًا من الكدح في ما يشبه "معسكر عمل" بملابس فاخرة. لاحظ أحد المساعدين في فريق سيا أن رئيسته، التي عادة ما تكون هادئة للغاية، تبدو متوترة بشكل ملحوظ. كانت ترسل الكثير من الرسائل النصية أثناء الاجتماعات، وشعرها المصفف بعناية بدا أشعث قليلًا، وكانت إحدى يديها ترتعش.

فكر المساعد: لعلها تتعاطى الكوكايين. والله يعلم أن الجميع بحاجة إلى الطاقة.

في الثانية والنصف صباحًا، طرق باب مكتب سيا ليخبرها أنه أرسل إليها كل ما طلبته وأنه ذاهب إلى المنزل. كانت رئيسته جالسة هناك تحت ضوء شاشة حاسوبها، تحدق في الشاشة بغرابة، شاردة الذهن تمامًا. طرق المساعد الباب مرة أخرى فاعتدلت سيا في جلستها.

غمغمت قائلة:

– "ما الأمر؟"

قال:

– "أرسلت لك ملفات شركة الأخشاب، هل أنتِ بخير؟"

أجابت دون أن تدير رأسها لتنظر إليه:

– "نعم، نعم. مجرد تعب. كما نحن جميعًا."

قال المساعد:

– "بالتأكيد. تصبحين على خير يا رئيسة."

كانت هناك عشرات الرحلات المباشرة من لندن إلى جنيف، لكن نمط سفر سيا إلى سويسرا كان يتطلب التمويه: مراحل متعددة ووسائل نقل مختلفة، واستخدام النقد كلما أمكن. في الصباح، حزمت حقيبة بمعدات شتوية واستقلت قطار "يوروستار" إلى باريس، ثم قطار "TGV Lyria" إلى جنيف، ومنها إلى إنترلاكن حيث قضت الليلة. وفي صباح اليوم التالي، استقلت قطارًا مطليًا باللونين الأزرق والذهبي شق طريقه ببطء صعودًا إلى يونغفراو. وبينما كان القطار يهدر داخل الجبال، كانت سيا تقاوم الرغبة في النوم. هدأت يدها اليسرى، لكنها كانت تكافح للتخلص من الإعياء.

مر القطار بمحاذاة كنائس جبلية وشاليهات خشبية ذات مصاريع ونوافذ مزينة باللونين الأحمر والأخضر. وجرّت حقيبتها إلى فندق "شتاوباخ" في لوتربرونن، حيث سجلت دخولها، وأفرغت أمتعتها، ووضعت هاتفها المحمول وحاسوبها المحمول في الخزنة؛ إذ لم يكن بالإمكان اصطحابهما معها إلى الاجتماع.

كان ذلك يوم افتتاح سوق عيد الميلاد في لوتربرونن. اشترت سيا كوبًا من الشوكولاتة الساخنة وجلست على مقعد، مجبرة عقلها على التركيز في الاجتماع. كان جون، مدربها القديم، قد سألها ذات مرة عن عدد العمليات ذات المعنى التي يعتقد أن الضابط قد يحظى بها في حياته. خمنت هي خمسًا. فصحح لها قائلًا: واحدة، واحدة فقط ستحدث الفارق حقًا. وكانت تعلم أن هذه هي عمليتها. من الكنيسة الجبلية ذات البرج المخروطي أسفل الشلالات، صدحت أربع دقات لطيفة للأجراس. حافلتها ستصل قريبًا.

كانت الراكبة الوحيدة. ورغم أن الرحلة لم تتجاوز خمس عشرة دقيقة، بادرت سائق الحافلة قائلة:

– "أيقظني في شتيشيلبيرغ."

رمقها بنظرة باردة، وكأنه لم يفهم لغتها الفرنسية التي كانت أكثر من مقبولة. جلست في مقعدها وانغلق الباب بصوت هسهسة.

استيقظت على السائق وهو يوكز كتفها، ويتمتم بشيء حول الجدول الزمني. بدا محبطًا، وكأن هذه لم تكن محاولته الأولى لإيقاظها.

ترنحت وهي تنزل من الحافلة، ثم صعدت إلى تلفريك "شيلثورنبان"، وتأرجح الصندوق الزجاجي صاعدًا نحو السماء. كانت رحلة الحافلة والتلفريك بمثابة آلية توجيه لما أصبح مسارًا للكشف عن المراقبة استمر عدة أيام. كانت وحيدة في الحافلة، ووحيدة في التلفريك. وكانت وحيدة في القطارات. قد يكون جسدها يصرخ طلبًا للراحة، لراحة لا تنتهي، لكنها لن تجلب أي أعداء إلى هذا الاجتماع. لن تخذل آنا.

كانت غيملفالد قرية زراعية تتربع على الخانق عاليًا فوق قاع الوادي، طريق واحد متعرج تتناثر حوله منازل خشبية، ولا يمكن الوصول إليها إلا بالتلفريك. كانت أكوام الحطب العالية والمرتبة مكدسة استعدادًا للشتاء. ساد القرية هدوء عميق ومطبق وجدته سيا مثيرًا للقلق. لا سيارات، لا محركات تهدر، فقط الرنين البعيد لأجراس البقر معلنًا حلول الليل. مرت بقطيع صغير يرعى بينما كان الضباب يلتف حول القرية.

سرعان ما أصبح الضباب كثيفًا لدرجة أن سيا كادت تصطدم باللافتة. توقفت على بعد قدمين منها، وقرأت المكتوب: "نُزُل الجبل". لكنه لم يعد نزلًا منذ سنوات؛ بل صار الآن مكانًا مدرجًا على "Airbnb"، استأجره مستخدم مقيم في ألمانيا تدفع له وكالة الاستخبارات المركزية لتأمين الحجوزات في القارة لمدة ليلتين. طابقان من الخشب الداكن، يقع مباشرة على حافة الجرف. كان الدخان يتصاعد من المدخنة ووهج ذهبي دافئ يتراقص على النوافذ. نفضت سيا حذاء المشي المغطى بالثلوج على البساط ودفعت الباب لفتحه.

كانت بروكتر تجلس القرفصاء وهي تذكّي النار. ارتدت الرئيسة بنطال جينز أبيض وحذاءً شتويًا أبيض مكسوًا بالفراء مع شرابات، وسترة بيضاء فضفاضة خيطت على أكمامها كرات صوفية غريبة وزغبة. وكان هناك رجل افترضت سيا أنه خبير جهاز كشف الكذب يراقب بروكتر بتوتر وهي تعتني بالنار.

قالت بروكتر وهي تتفحص سيا من أعلى لأسفل:

– "حسنًا يا عزيزتي، يبدو عليكِ الإعياء الشديد."

الفصل الثامن والثلاثون

غيملفالد

كان لتخطيط هذا المسار غاية عظمى تعلو فوق كل اعتبار: تقليص احتمالات اعتقال آنا أو إعدامها رميًا بالرصاص عند عودتها إلى "الرودينا" (الوطن الأم). وللتأكد من أن مواطنيها لا يتعقبونها، قام فريق مراقبة مضادة تابع لوكالة الاستخبارات المركزية، مكون من عشرة أفراد، بتتبع خطواتها منذ مغادرتها جنيف. وفي وهج نيران المدفأة، أخبرت بروكتر سيا أن الفريق يعتقد أن ساحة آنا "نظيفة" تمامًا. وكان أحد عملاء الدعم التابعين للوكالة قد ترك تعليمات وعنوان المنزل الآمن في غرفة آنا بفندق جنيف في ذلك الصباح؛ ولضمان انضباطها، ظلت آنا تحت مراقبة الوكالة في كل دقيقة منذ تلك اللحظة، على أن يستمر تتبعهم لها حتى وصولها إلى لوتربرونن.

تضمنت التعليمات أيضًا عدة مطالب محددة، مثل: "في لوتربرونن، استقلي حافلة البريد رقم 7:08 المتجهة نحو شتيشيليبيرغ شيلثورنبان". كان بعض العملاء قيد التطوير يميلون إلى تحدي السلطة عبر تجاهل التوجيهات، وهي طريقة سهلة ومزعجة للتظاهر بأنهم يمسكون بزمام الأمور. ومنذ عملية مزرعة الروس، أكد محللو "موسكو إكس" صحة العديد من تقارير آنا؛ فهي تقدم نتائج ملموسة، لكن هل ستستمر في ذلك؟ لم يتوقع أحد السيطرة المطلقة عليها، ولكن إذا كانت الوكالة ستعيد إرسال آنا إلى داخل روسيا لتكون حجر الزاوية في عملية محفوفة بمخاطر مذهلة كهذه، فإن الوكالة تريد أكبر قدر ممكن من الإثبات – حتى لو كان بسيطًا – على أنها ستلتزم بالتعليمات البسيطة. وهذا ما كان بوسعها تقديمه.

***

استقلت آنا الحافلة الصفراء القذرة في لوتربرونن في تمام الساعة 7:08 بدقة، لتهتز العربة وهي تشق طريقها عبر قاع الوادي نحو شتيشيلبيرغ.

ما الذي تفعلينه؟

رددت هذا السؤال على نفسها مرارًا وتكرارًا وهي تحدق من النافورة في المنحدرات الحادة الشاهقة في الأعلى.

إن القفز من أحد تلك المرتفعات قد يكون أسهل من المضي في هذا الطريق.

عندما توقف التلفريك بصرير معدني في غيملفالد، خطت آنا إلى الهواء المنعش، فاستنشقت رائحة القش والطين واللسعة المعدنية للثلج الجديد. كانت الأصوات الوحيدة المسموعة هي رنين أجراس البقر وهمهمات قادمة من فندق يقع على بعد بضع مئات من الأمتار صعودًا على التل. كان النزل القديم ملفوفًا بالضباب. ورغم علمها بوجوده على حافة الخانق، إلا أنها لم تستطع رؤية الأسفل، ناهيك عن رؤية القمم ووجوه الصخور عبر الوادي. بالكاد استطاعت تمييز اللافتة.

قرعت الأجراس، وكأنها تعلن خيانتها.

قالت بصوت مسموع:

– "لا، ليس الأمر كذلك. إنه ردي عليهم."

دفعت الباب لتفتحه، فتبعتها عاصفة صغيرة من الثلج إلى الداخل.

كانت سيا تحتسي القهوة على الأريكة، وبجوارها جلست امرأة مفتولة العضلات ذات شعر أسود مجعد، أشارت لغة جسدها إلى أنها هي من تتولى القيادة. نهضت المرأة ذات الشعر المجعد لتحية آنا؛ كانت قصيرة القامة للغاية، ولها عينان خضراوان تشعان طاقة.

قالت بصوت أجش وبلغة روسية لا تشوبها شائبة:

– "مرحبًا يا آنا. اسمي لولو. أعمل كثيرًا في الشأن الروسي. لقد حدثتني سيا كثيرًا عنك. كم من الوقت لديكِ؟"

أجابت آنا:

– "لدي المساء وصباح الغد حتى موعد الغداء. هاتفي في غرفتي بالنزل."

قالت المرأة التي تسمي نفسها لولو:

– "جيد. قد نخيم جميعًا هنا الليلة إذن. هذا يمنحنا مزيدًا من الوقت. لدينا الكثير لنفعله. الكثير جدًا."

ثم انتقلت لولو إلى الإنجليزية وسألت:

– "هل عثرتِ على الطريق إلى هنا بسهولة؟ نعلم أنك محترفة، لكننا بحاجة للسؤال. أنتِ تعرفين كيف تسير الأمور."

قالت آنا وهي تسكب القهوة من وعاء في المطبخ وتتخذ مقعدًا على الأريكة:

– "باستثناء مراقبة فريقك لي، كانت الرحلة جيدة تمامًا."

ثم ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها وهي تضيف:

– "ماذا تعنين بكلمة 'محترفة'؟"

بدت لولو وكأنها تحاول الابتسام، وقالت بنبرة مشمئزة:

– "أعني أنه، بالنسبة لمصرفية، يبدو أنك تعرفين جيدًا كيف تديرين دفة الأمور."

أومأت آنا برأسها. إجابة مقبولة.

سألت سيا:

– "كيف وصلتِ إلى هنا؟"

شرحت آنا مسارها، رغم علمها أنهم يعرفونه مسبقًا. كانت واثقة من أنهم أخضعوها للمراقبة المضادة منذ جنيف.

سألتهم:

– "وأنتم؟"

وصفت الامرأتان من وكالة الاستخبارات المركزية طريقهما إلى غيملفالد. راق الأمر لآنا؛ حذر ومحافظ. ليسوا مجرد هواة. هذا جيد.

تابعت لولو قائلة:

– "أخبرتني سيا عما حدث في المزرعة. وعما فعله زوجك. أنا آسفة لذلك. نريد إيجاد طريقة للمساعدة، ونعتقد أن لدينا بعض المصالح المشتركة. أردت أيضًا أن أنقل لكِ أننا أُعجبنا بشدة بالمعلومات التي مررتِها إلى سيا حول الرجال المحيطين بوالدك وببوتين. هذا هو نوع المعلومات الذي يجده عملاؤنا ساحرًا."

انحنت لولو للأمام وبدأت تعبث بجلد ظفرها، مثبتة نظرها عليه وهي تتحدث:

– "لكن منظمتنا تعمل حاليًا في وضع يمكن وصفه بإنصاف بأنه 'عجز في الثقة' مع شعبك. لم تبقَ أي حدود على الإطلاق. أعلم أن لديك أجندة خاصة للتحدث معنا. ونحن أيضًا لدينا بعض الأفكار التي قد تكون مدمرة لخصومنا المشتركين. ونود التحرك بسرعة. أريدك أن تخضعي لجهاز كشف الكذب حتى نتمكن من تسريع بناء الثقة. لستِ مجبرة على ذلك، يمكنك المغادرة، ولكن إذا رحلتِ، حسنًا، سننتهي هنا."

مالت آنا بكرسيها الخشبي للأمام لتلتقط بضع حبات من اللوز من علبة على طاولة القهوة، وقالت:

– "قبل أن أفعل ذلك، أريد أن أعرف ما الذي يدور في أذهانكم. يجب أن تعلما كليكما، ويجب أن تخبرا منظمتكما..." – قالتها باشمئزاز– "... أنني لست مهتمة بسقوط بوتين أو تغيير الحكومة الروسية."

أومأتا بالتفهم، لكن الأمر بدا لآنا وكأنه إيماءة جوفاء. كيف لهما أن تفهما حقًا؟ كيف يمكنهما معرفة ما يعنيه ذلك بالنسبة لها؟

تابعت آنا:

– "لقد أديرت الحرب في أوكرانيا بشكل سيئ. لكن ليس لدي أي رغبة في رؤية روسيا تركع على ركبتيها. ليس لدي أي اهتمام بتغيير النظام لأنني، وبكل صدق، لا أؤمن بأن هناك نظامًا آخر ممكنًا. ستكون هناك وجوه جديدة، وأسماء جديدة تُطلق على المؤسسات، لكن لا شيء سيتغير حقًا. ولن أخبركم عن منظمتي، يجب أن تدركوا هذا الآن. إنها خط أحمر. تريدون الهيكل التنظيمي؟ تريدون مني وضع شيء في كمبيوتر مكتبي؟ تريدون معرفة العمليات في أمريكا؟ لا. لن أشارك ذلك. أنا لست خائنة لروسيا، ولن أتحول إلى واحدة."

تجعد وجه لولو وهي غارقة في التفكير.

سألت سيا:

– "ربما تخبريننا ماذا تريدين يا آنا؟"

– "أريد المساعدة في التخلص من أعدائي. «الإوزة». وربما زوجي."

قالت لولو:

– "مفهوم. ولدي فكرة حول كيفية القيام بذلك. لكن لدي سؤال لك: هل أنتِ منفتحة على مساعدتنا في الوصول إلى كمبيوتر زوجك؟"

– "لأي غرض؟"

– "أريد أن أرى أين توجد الأموال. وربما أرغب في تحريك بعضها."

– "أموال من؟"

ابتسمت لولو وقالت:

– "هيا، كوني واقعية."

قالت آنا:

– "والدي يمتلك جزءًا كبيرًا من ذلك البنك. يمتلكه منذ وفاة والد فاديم. لن أسمح لكم بتدميره. إذا كنت سأساعدكم، فعليكم إخباري بما تفعلونه."

سألت لولو:

– "والدك يمتلك حصة جيدة من بنك روسيا، أليس كذلك؟"

– "أنتِ تعرفين هذا."

– "وكم سيمتلك عندما ينتهي «الإوزة» من عملية الابتزاز التي يقوم بها؟"

طوت آنا ذراعيها. مالت لولو أقرب ووضعت يدها برفق على معصم آنا.

– "لدينا ثمن هنا يا آنا. نحتاج إلى المال لكي تنجح فكرتنا الصغيرة. وأعتقد أنه يجب أن يأتي من البنك. ولكن إليكِ ما يمكنني أن أعدك به: لن يتم تتبع أي من هذا إليكِ أو إلى والدك. سنلصق التهمة بأعدائنا المشتركين."

سحبت آنا ذراعها وقالت:

– "ربما تحاولين الإيقاع بي."

ضحكت لولو، وقالت إنها مصابة بالبارانويا.

تحولت آنا إلى الروسية وانقضت عليها بالكلام:

– "بارانويا، هاه؟ انظري ماذا فعلت عقوباتكم بروسيا!"

ضربت بكفها على طاولة القهوة وتابعت:

– "لقد عاد الناس العاديون للعيش مما تزرعه أيديهم من بطاطس كما فعلوا في الأيام التي تلت انهيار الاتحاد السوفيتي. سفرنا مقيد. نحن منبوذون في أوروبا. الروسي الصالح يجب أن يكون مرتابًا بشأن نواياكم يا لولو، لأنكم تكذبون تمامًا كما نكذب نحن."

رفعت سيا يدها لتهدئة الموقف:

– "ربما نعفي بعضنا من الخطب العصماء؟ ونلتزم بالإنجليزية؟ الجدال غير مثمر، ألا تعتقدين ذلك؟ كلنا نريد الأشياء نفسها هنا."

هزت آنا رأسها وأصدرت صوتًا رافضًا بلسانها.

– "لا يا سيا، نحن لا نريد ذلك. ليس حقًا. يمكنني أن أسألكِ لماذا تريدين مساعدتي في تصفية بعض الحسابات. هل ينبغي لي أن أسأل ذلك؟ لا أعتقد أنني سأفعل، لأنني لا أريد معرفة الحقيقة. أو ربما ينبغي لي أن أسأل، لأنكِ ستكذبين عليّ ببساطة، هاه؟ ستلقين إليّ ببعض الهراء لكي أنضم إليكم. ربما أوصلكِ أنتِ أيضًا بجهاز كشف الكذب الليلة؟"

أخذت آنا رشفة كبيرة من القهوة، ثم أصدرت صوتًا بشفتيها وأخرجت لسانها تقززًا.

– "هذا فظيع. سأعد الشاي."

في المطبخ، بحثت عن غلاية. وبينما كانت تنحني للعثور عليها في خزانة سفلية، سألت بصوت عالٍ:

– "هل تسجلين هذا الاجتماع؟"

نادت لولو من غرفة المعيشة:

– "لا. لكِ كلمتي."

دمدمت آنا بصوت خافت. ملأت الغلاية من الحوض ووضعتها على الموقد.

كلمة لولو لا تعني شيئًا.

عادت إلى غرفة المعيشة وسألت:

– "ما مدى شهرة اسمي داخل منظمتكم؟"

أجابت لولو:

– "حوالي خمسة أشخاص. في نطاق ضيق وسري للغاية."

بدأت الغلاية تصفر. ظلت آنا واقفة وهي تمسك بظهر الأريكة.

– "أنا وطنية. لا أعتقد أنكم تدركون هذا حقًا. ربما لأنكم أمريكيون فأنتم عاجزون عن الفهم. لا يهمني أن بوتين يحكم بلادنا. النظام الروسي كان دائمًا هكذا. شخص واحد في القمة، والجميع يأخذون ما يستطيعون. النشطاء والمتظاهرون لا يعنون لي شيئًا. أنا وطنية روسية..."

رفعت لولو يدها مقاطعة:

– "كما قلت، أنا لا أحاول إلباسك زي مشجعة أمريكية. صدقيني، أعلم أنك لا تساعديننا لإنارة طريق الديمقراطية في الرودينا. ما رأيك في هذا: اسمعيني للنهاية. سأخبرك بفكرتنا، التي تمت الموافقة عليها من حيث المبدأ من قبل أعلى المستويات في منظمتي. ندردش حولها. وإذا أعجبك ما سأقوله، تخضعين لجهاز البوليغراف، ثم ندخل في التفاصيل مع كأس من الكونياك ومشروب سويس ميس."

وجدت آنا كيسًا من الشاي الأسود. طفا ثم تشبع بالماء وغاص أخيرًا بينما كانت تنقعه. عادت إلى غرفة المعيشة وقالت:

– "أخبريني بما يدور في خلدك."

شرحت لولو الفكرة في خطاب كان عدوانيًا ومحمومًا وجريئًا لدرجة جعلت آنا تتساءل كيف يمكن لعقلها الأمريكي أن يلد فكرة كهذه. فكرت آنا أن ما سمعته

يشبه "مؤامرة روسية" أصيلة. استمعت آنا، وكانت تومئ برأسها أحيانًا، وتضيق عيناها أحيانًا أخرى في قلق بالغ. لم تقاطع بسؤال واحد أو تعليق.

عندما انتهت لولو، دفعت آنا فنجان الشاي الفارغ جانبًا وقالت:

- "هاتوا جهاز كشف الكذب. الآن."

الفصل التاسع والثلاثون

غيملفالد

كان خبير كشف الكذب متواريًا في الطابق العلوي. وحين نادته لولو، نزل متمهلاً بخيلاء، وقدّم نفسه باسم موريس. كان رجلاً ضخم البنية، بشعر بني أشعث، مدّ إليها يدًا باردة رطبة وابتسم ابتسامة خجولة، ثم قال مخاطبًا آنا:

– "يا آنسة أغابوفا، سنُجري لكِ الفحص سريعًا، وننتهي منه قبل موعد شراب الشنابس. تفضلي من هنا."

كانت غرفة النوم العلوية تطل على الوادي، لكن الضباب حجب الرؤية تمامًا من وراء النافذة. أشار موريس إلى كرسي خشبي يتوسط سريرين مفردين، فجلست. ألقى هو بجسده على أحد السريرين وراح يضرب على مفاتيح حاسوبه المحمول، ثم دَسّ أنبوبين لقياس التنفس حول صدرها، ولفّ سوار قياس ضغط الدم حول ذراعها اليسرى، ووضع مجسات استشعار على سبابة يدها اليمنى وإصبعها الأوسط لقياس الاستجابة الجلدية؛ أي العرق الذي قد يرشح من مسامها خلال هذه الرحلة المشحونة بالمشاعر.

طلب منها الاسترخاء، وللمفارقة، شعرت باسترخاء حقيقي. تذكرت أنها تجاذبت أطراف الحديث ذات مرة مع ضابط عمليات من جهاز الاستخبارات الخارجية الروسية (SVR) كان قد أدار قضايا أمريكية، بما في ذلك تجنيد ضابط دعم مبتدئ في الـ CIA سرق وثائق لصالح "الوطن الأم". أخبرها زميلها آنذاك أن إخضاع ضباط الاستخبارات لجهاز كشف الكذب أمر شائك لسببين: الأول أنهم

يعرفون ما ينتظرهم، والثاني أن الخداع طبع أصيل فيهم؛ إذ يبالغون في تصوير نفوذهم وسعة اطلاعهم طمعًا في مكافآت أكبر ومدفوعات ضمان مجزية.

هذه لعبة. وبمقدوري الفوز في الألعاب.

اتفقا على القواعد الأساسية، وحددا المؤشرات المرجعية، واستعرضا الأسئلة. ثم بدأ موريس:

س: هل اسمكِ آنا أندريفنا أغابوفا؟

ج: نعم.

س: هل تشغلين منصب مدير إداري في بنك روسيا؟

ج: نعم.

س: هل أنتِ ضابطة في جهاز استخبارات روسي؟

ج: نعم.

س: هل رؤساؤكِ، أو أي شخص آخر في روسيا، على علم بهذا اللقاء؟

ج: لا.

س: هل أُرسلتِ إلى هذا اللقاء بأمر من جهاز استخبارات روسي؟

ج: لا.

س: هل لديكِ القدرة على الدخول إلى حاسوب زوجكِ؟

ج: نعم.

س: هل تنوين تقديم معلومات صادقة لمنظمتنا؟

ج: نعم.

[انتهى فحص كشف الكذب. الساعة 8:47 مساءً بتوقيت وسط أوروبا]

نزعت آنا المجسات عن أصابعها المتعرقة وسوار الضغط الخشن عن ذراعها. كان موريس قد هرول خارجًا للتحدث مع لولو وسيا.

هل كذبتْ؟

أزعجها أنها لا تعرف الإجابة على وجه اليقين.

عندما عاد موريس، أخبرها أن عليهم إعادة الكَرّة.

سألته:

– "أي الأسئلة هو المشكلة؟"

أجابها:

– "جميعها."

أعادا الفحص مرة أخرى. غادر بعدها، وكان غيابه هذه المرة أطول. بدأ التعب يتسلل إلى آنا، وأدركت أن هذا هو الهدف بالضبط.

عاد موريس حاملاً أحد كراسي المطبخ. قلبه وجلس عليه، ثم سحبه ليقترب منها مسافة أكثر مما ينبغي، وحشر بطنه الممتلئ مقابل ظهر الكرسي. عقد ذراعيه وحدّق متجاوزًا آنا نحو الرمادي المحتشد خارج النافذة. كانت رائحة أنفاسه تشبه رائحة حانة عند مطلع الفجر.

سأل بحدة:

– "آنسة أغابوفا، هل أخبرتِ أحدًا بشأن هذا اللقاء؟"

– "لا."

– "لا أحد؟"

– "لا أحد."

– "لا أحد من عائلتك؟ والدك، زوجك، كلبك؟"

– "ليس لدي كلب."

– "أحد ما في البنك؟"

– "لا."

– "عشيق؟"

– "لا."

– "عشيقة؟"

ردت بتهكم:

– "ألديك ميول منحرفة يا موريس؟"

عبس موريس وقال:

– "عشيقة؟"

– "لا."

– "أي شخص داخل الـ SVR؟"

قطبت أنفها وقالت:

– "لا."

– "الـ GRU؟"

– "لا."

– "الـ FSB؟"

– "لا."

أعادا تشغيل جهاز كشف الكذب مرة أخرى.

عندما انتهوا، طلب منها موريس أن تنتظر في مكانها. جمع حاسوبه المحمول وغادر. فكت آنا الأنابيب، وانتزعت مجسات الأصابع، وحلت السوار. تمددت على أحد السريرين وأغمضت عينيها.

هل عليّ أن أقلق؟ لست متأكدة حتى إن كنت قد كذبت.

***

كانت بروكتر وسيا تدخنان عند إحدى طاولات التنزه في الفناء الأمامي. تعمّدت سيا اتخاذ وضعية تُخفي ارتعاش يدها عن رئيستها، وكانت قد أحرقت سيجارتين بالفعل طلبًا للدفء، وهي الآن في الثالثة. جرّ موريس خطاه الثقيلة إلى الخارج. سحبت بروكتر النَفَس الأخير من سيجارتها وسحقتها في الثلج، ثم قالت:

– "حسنًا يا مو؟ هات ما عندك."

جلس إلى الطاولة ورفع غطاء رأسه، ثم قال:

– "أعتقد أنها تصدق حين تقول إنها لم تخبر أحدًا عن هذا اللقاء. إنها تُبقي الأمر سرًا."

قالت سيا:

– "هذا جيد، يمنحنا ورقة ضغط."

سألت بروكتر:

– "هل لا يزال مؤشر الكذب يرتفع في السؤال الآخر؟"

أشعلت سيجارة أخرى وسحبت غطاء سترتها الصفراء بلون الموز فوق رأسها، ثم حشرت يديها في جيوبها، تسحب الدخان وتنفثه والسيجارة مطبقة بين أسنانها.

أجاب موريس:

– "هذا صحيح، إنها تبدي انزعاجًا مستمرًا كلما سُئلت عن قول الحقيقة."

علقت سيا:

– "مخاطر المهنة."

دمدمت بروكتر:

– "لكنك لا تعتقد أن موسكو تعلم بوجودها هنا؟"

– "لا يمكن الجزم بالطبع، هذه الأمور يجب أن تكون..."

قاطعته بحدة:

– "موريس، لا أريد حديث المحامين هذا. قبل بضعة أسابيع اضطررت لتعديل قرار عمل سري لعين بصلاحيات قاتلة، وكان المحامون يركبون ظهري مثل عقارب صغيرة تمتطي ظهور أمهاتها. لست مهتمة. أريد فقط أن أفهم ما إذا كنت تعتقد أن موسكو تعلم بوجودها هنا."

– "لم يعد هذا السؤال يستثير أي استجابة فسيولوجية."

قلبت بروكتر عينيها وسألت:

– "ما رأيك يا سيا؟"

رمت سيا سيجارتها ومددت ساقيها قائلة:

– "أعتقد أن لدينا ما يكفي للمضي قدمًا. لدينا معلومات استخباراتية مؤكدة، ودافع تم التحقق منه، ومادة معقولة لاعتماد المصدر. نتيجة كشف الكذب مقبولة جدًا. الأمور ليست مثالية، لكنها تستحق المخاطرة."

قالت بروكتر:

– "الوضع يشبه سروالاً داخلياً مستعملاً؛ ليس نظيفاً، لكنه يفي بالغرض. وعندما يجد الجد، لا يكون أمامك خيار آخر."

نفرت الرئيسة السيجارة نحو الظلام، ثم قالت:

– "لنبدأ العمل."

الفصل الأربعون

غيملفالد

صبّت بروكتر القهوة والشاي، بينما صعد موريس للنوم في الطابق العلوي. ألقت سيا بضع حطبات أخرى في الموقد، وجلسن في غرفة المعيشة يغالبن النعاس، ويحاولن استخلاص كل دقيقة، وكل معلومة ممكنة من آنا أغابوفا.

كان ملف «بيرسيفوني» حاضرًا بقوة؛ إذ أعدّ محللو "موسكو-إكس" في الـ CIA قائمة طويلة من الأسئلة حول جهاز الاستخبارات الخارجية الروسية (SVR): العمليات الحالية، الأولويات، والهيكل التنظيمي. قرأت بروكتر الأسئلة على مسامع آنا بلهجة احتفالية، ثم أطعمت النار بالأوراق ورقة تلو الأخرى، وقالت:

– "لا شيء يخص منظمتكم.. هذا يناسبنا تمامًا."

مع انقضاء ساعات الليل ببطء، شرحت آنا ما تعرفه عن "الإوزة" وحلفائه. غطّى الحديث أصدقاء فاديم وأعداءه، وكذلك أصدقاء والدها وأعداءه.

وعلى رشفات الكوب الثالث من القهوة، أعادت سيا الحديث إلى موضوع فاديم، سائلة:

– "كم يبلغ حجم الأموال التي يديرها؟"

– "لا أعرف. مئات الملايين. ربما أكثر."

– "ولمن تعود ملكيتها، بالضبط؟"

– "هل أنتما على دراية بمفهوم (الأوبشاك Obshak)؟"

هزت سيا رأسها نفيًا، بينما أومأت بروكتر بالإيجاب.

شرحت آنا:

– "إنه صندوق للنقود السائلة.. خزينة مشتركة للعصابة الإجرامية. القادة يعرفون ما يملكون، لكن لا شيء يُحفظ بأسمائهم. هذه هي الهيكلية التي تدار بها الأموال التي بحوزته. إنه يشرف على وعاء يمتلكه بوتين وآخرون من زعماء النظام بشكل جماعي. إنهم يقتاتون على السيولة النقدية القادمة من البنك وأقطاب الصناعة. هناك صناديق (أوبشاك) أخرى، أنا واثقة من ذلك، لكن فاديم يدير هذا الصندوق تحديدًا."

سألت بروكتر:

– "هل يقوم بهذا العمل من البنك؟"

هزت آنا رأسها قائلة:

– "الأموال مصدرها البنك، لكن بمجرد استقطاعها، يفضلون إبقاءها منفصلة. البنك لديه أنظمة، وعمليات تدقيق، ومديرو تكنولوجيا معلومات، وضباط احتياط نشطون من جهاز الأمن الفيدرالي (FSB). ليس الأمر أن أحدًا سيجرؤ على الاعتراض، فهي أموال الرئيس في النهاية، لكن من الأفضل إدارة كل شيء بعيدًا عن الأنظار. يملك فاديم حاسوبًا محمولاً في المنزل يستخدمه لأعمال (الأوبشاك). إنه في شقتنا ببطرسبرغ، داخل خزنة في خزانة ملابس غرفة النوم. والوصول إليه قد يكون ممكنًا."

سألت بروكتر:

– "والآن، كيف سيتم ذلك؟"

شرحت آنا التفاصيل. فكرت سيا أن احتمال تعرض آنا لإطلاق نار وارد جدًا، أو أنها قد تطلق النار على فاديم أثناء العملية لمجرد الرغبة في ذلك. بدأت بروكتر تسكب قليلاً من الكونياك في قهوتها، وراحت تنقر بقدمها بينما آنا تتحدث، وقد بدا عليها الاستمتاع.

سألت آنا:

– "بمجرد أن أصل إلى الحاسوب، ما الذي تريدون مني فعله؟"

تولت سيا الشرح. استعرضن البرنامج الذي أعده تقنيو الـ CIA لاستخدامه عبر وحدة تخزين خارجية، وكيف يجب على آنا إخفاء آثارها الرقمية على حاسوب فاديم، وكيفية التعامل مع بصمات الأصابع.

غطت آنا كوبها بيديها عندما اقتربت بروكتر بزجاجة الكونياك.

قالت بروكتر وهي تسحب الزجاجة:

– "روسية ترفض الكحول؟ يا للعجب."

قامت آنا بحركة بذيئة بيدها تجاه بروكتر، التي ضحكت وهزت رأسها بأسف قائلة:

– "المزيد لي إذن."

قالت سيا وهي تسعل:

– "تعويضًا عن مخاطرتكِ.. نود أن نقدم شيئًا."

ردت آنا بحزم:

– "لا أريد شيئًا. وعلاوة على ذلك، إذا كنتم تحاولون تعويضي بالمال، فلن تقدروا على دفع ثمني."

حاولت سيا مرة أخرى:

– "أنتِ تستحقين شيئًا مقابل المخاطر التي تخوضينها."

كانت محاولة ضعيفة، لكنها أرادت شيئًا يُشعر "لانغلي" بأن لديهم ذرة سيطرة هنا.

هزت آنا رأسها:

– "لا مال. ولا حتى حساب ضمان في جزر البهاما. هل تفهمين؟ أريدك أن تكتبي في البرقية أنني رفضت المال. أريد فقط إيقاف الإوزة وتوريط زوجي."

قالت بروكتر:

– "حسنًا يا عزيزتي، حسنًا. لنراجع بعض الواجبات المنزلية."

دفعت سيا إليها ورقة كانت بروكتر قد أحضرتها، تحوي قائمة بكل التفاصيل التي تسعى الـ CIA لمعرفتها عن "الإوزة" والرجال المحيطين به: عناوين، شركاء، رسائل بريد إلكتروني، أرقام هواتف. حفظت آنا قائمة الرغبات تلك عن ظهر قلب، ثم ألقت بالورقة في النار.

عندها قالت بروكتر:

– "لنتحدث عن الاتصالات."

تثاءبت سيا ونظرت إلى ساعتها: الثالثة وثماني دقائق فجرًا. أخرجت بروكتر حاسوبًا محمولاً من حقيبة ظهرها. كان طراز "آسوس ASUS"، مطابقًا تمامًا للجهاز الذي حملته آنا إلى المكسيك، حتى في تلك الخدوش السوداء المتموجة أعلى الغطاء.

نظرت إليه آنا كما لو كان قنبلة.

قالت بروكتر:

– "أفترض أن هذا يشبه كثيرًا حاسوب السفر الذي حملتِه إلى المكسيك. أليس كذلك؟"

مررت آنا أصابعها عليه وقالت:

– "صحيح."

أردفت بروكتر:

– "هذا الجهاز مزود بما نسميه نظام الاتصالات السري (Clancomm). هل أنا محقة أيضًا في افتراض أن حاسوب السفر الخاص بكِ لا يحتوي على أنظمة اتصالات؟"

– "هذا صحيح."

– "هل هو حاسوب تابع للـ SVR أم شخصي؟"

– "شخصي."

– "جيد. هل هذا الحاسوب الشخصي موجود في حقيبة هناك بمنتجع التزلج؟"

– "نعم."

– "هل عليه أي شيء مهم؟"

– "لا. لكنكم تعرفون ذلك بالفعل."

ابتسمت بروكتر:

– "جيد. ارميه في حاوية قمامة، أو ادفنيه في الجبل. لا يهم. فقط تأكدي من أن تلك النسخة لن تعود إلى روسيا الأم."

ثم أومأت برأسها نحو سيا.

قالت سيا:

– "سأريكِ كيفية استخدامه."

تدربن بتصميم صارم، لأن الأمر كله يعتمد على الذاكرة العضلية، وستكون آنا عمياء داخل روسيا إذا نسيت خطوة واحدة. تسلسل من ثلاثة وعشرين مفتاحًا: حروف، أرقام، ورموز. تسلسل عشوائي لا منطق فيه، ومن الصعب تذكره. أمضت آنا ساعة كاملة في حفظ ذلك التسلسل الأول.

قالت بروكتر التي عادت للقهوة تحسبًا لضوء الفجر:

– "إذا نسيتِ هذا الجزء، ستصبحين في ظلام دامس. لن نتمكن من رؤية الكلمات الجميلة التي تكتبينها لنا."

تابعت سيا الشرح:

– "بمجرد دخولكِ إلى القسم المخفي، تفتحين مستند (Word). مستندًا فارغًا. ثم تدخلين تسلسلاً آخر. عشرة مفاتيح."

أمضين بعض الوقت في التدرب على ذلك. أدى التسلسل إلى استحضار زر مخفي، نقرت عليه سيا للتوضيح.

صاحت بروكتر:

– "ها قد تم! أنتِ في الداخل. الرسائل تسافر إلينا في كتل مشفرة."

كان فك آنا يرتجف وهي تقول:

– "نظامنا مشابه. لكنه أقل تعقيدًا بقليل."

أضافت بروكتر:

– "شيء أخير بخصوص الاتصالات."

أخرجت علبة صغيرة من حقيبتها وناولتها لـ آنا. فتحتها فوجدت تمثالاً لحصان.

– "ما هذا؟"

أجابت بروكتر:

– "جهاز ترحيل اتصالات. ضعيه في مكتبك بالبنك. أمام نافذة. على الحافة مثلاً. لديكِ مكتب في بطرسبرغ، أليس كذلك؟ ونوافذ؟ نفضل بطرسبرغ على موسكو."

– "نعم. ولكن لماذا؟ ما هو هذا الشيء؟"

كررت سيا:

– "جهاز ترحيل اتصالات."

بدت آنا غير مقتنعة، وهي تقلب التمثال بين أصابعها وتتحسس الشق الموجود في قاعدته.

تجمد وجه بروكتر في نظرة ميتة موجهة لـ آنا. كان لدى الرئيسة قدرة غريبة على أن تبدو مرعبة في بعض الأحيان.

– "كما قالت هورتينسيا، إنه جهاز ترحيل. تضعينه في مكتبك ببطرسبرغ أمام النافذة. ولا تعبثين به. وإلا فلن ينجح أي شيء، وسيُبقى الإوزة، وللأسف، بعيدًا عن متناول منظمتنا اللعينة. مفهوم؟"

حدقت آنا بتركيز في بروكتر، كما لو كانت تزن تحديًا. ثم دست التمثال في حقيبتها.

***

حملن كؤوس الكونياك إلى الشرفة الثلجية المطلة على الوادي. كان الضباب قد انقشع، والسماء التي تسبق الفجر صافية مفروشة بنجوم متلألئة. توهجت القمم الصخرية الوعرة ووجوه الجبال المكسوة بالثلج عبر الوادي تحت ضوء القمر. ومن حين لآخر، كان يصلهن رنين أجراس الأبقار وثغاء الأغنام من بعيد. ارتشفن الكونياك وحدقن في النجوم. كان والدها يحب القول إن سماء الليل تجعلنا ندرك مدى ضآلتنا. لكنها الآن لم تفعل شيئًا سوى جعل سيا تشعر بالتعب. كانت جفونها ثقيلة عندما قالت بروكتر:

– "سأذهب لأغفو قليلاً. لنكمل هذا بعد الإفطار."

سمعن وقع خطوات بروكتر وهي تدخل، وصوت الباب المعدني وهو يصر على مفصلاته. كادت سيا أن تغفو في مقعدها حين قالت آنا:

– "شممت رائحة سجائر أثناء فحص كشف الكذب. هل دمرتِ العلبة بالكامل أم بقي لديكِ القليل؟"

فتحت سيا عينًا واحدة. كان وجه الروسية يقول إنها تريد التحدث. في غرفة المعيشة، جمعت سيا بقايا السجائر وولاعة بروكتر، ثم عادت إلى الشرفة وأشعلتا السجائر.

هزها الدخان لتستيقظ. ألقت سيا بعقب سيجارة في الوادي وأشعلت أخرى. أطلقت الروسية سحبًا طويلة من الدخان سحبتها الرياح بعيدًا فوق الوادي.

قالت آنا:

– "في عجلة هروبكِ من المزرعة، تركتِ خلفكِ حصانًا. حصانًا أحبه كثيرًا."

– "هل يمكنكِ إقناع فاديم بإعادتها؟"

– "لست متأكدة أنني أريد ذلك. ولدينا سمكة أكبر لنشويها."

صححت سيا:

– "لنقليها."

لوّحت آنا بيدها باستخفاف تجاه الوادي وأخذت نفسًا طويلاً من سيجارتها، ثم قالت:

– "أنا أراجع الخطوات في ذهني. أخبريني إذا أخطأت في شيء."

استندت سيا إلى الدرابزين وقالت:

– "تمام."

– "أمنحكم الوصول إلى حاسوب فاديم. وتأخذون بعض المال."

نظرت آنا إلى سيا.

– "هذا صحيح."

– "تنقلون المال إلى حسابات أخرى. وبعضه يختفي."

– "ما زال صحيحًا."

– "ثم ماذا؟"

– "ماذا تعنين؟"

– "أخبريني ما الذي سيقدح زناد الفوضى؟"

ألقت سيا سيجارتها في الوادي. كان لديها واحدة أخرى تطل بنصفها من العلبة، لكن حلقها الملتهب جعلها تعيدها مكانها. مدت آنا يدها، فسلمتها سيا العلبة والولاعة. أشعلت آنا واحدة أخرى وسحبت نفسًا طويلاً وعميقًا، ثم كررت:

– "الزناد."

قالت سيا:

– "لا نعرف الإجابة بعد. الأمر يعتمد على ما نجده داخل حاسوب فاديم."

– "بمعنى؟"

– "من يراقب معاملاته. من سيرى حركة الأموال ويدق ناقوس الخطر."

– "وماذا لو لم يكن أحد يراقب؟"

– "يبدو هذا مستبعدًا، أليس كذلك؟"

هزت آنا كتفيها:

– "لو كنت أنا الرئيس، ربما لا أرغب في أن يراقب ضباط FSB متوسطو المستوى أحد رجال أموالي. ما أفكر فيه يا سيا، هو أنه إذا تبين أن لا أحد يراقب زوجي العزيز، فقد يقع العبء على زوجته سيئة الحظ لتدق ناقوس الخطر. وأنا، كما تعلمين، أفتقر إلى الأصدقاء في روسيا. قد لا يستمعون إلي."

– "لننتظر حتى نرى ما في الحاسوب، ثم نعبر ذلك الجسر."

– "لا تعجبني هذه الإجابة يا سيا."

ألقت آنا السيجارة من الشرفة واتجهت إلى الداخل قائلة:

– "أراكِ بعد بضع ساعات."

***

استيقظت سيا على رائحة دهن محترق. كانت شتائم بروكتر تتصاعد من المطبخ ومعها الدخان. ارتدت بنطالاً رياضيًا ونزلت لتجد الرئيسة تكشط شرائط متفحمة لما كان يومًا لحم مقدد. كانت بروكتر ترتدي قميصًا أسود بلا أكمام، وبينما هي منحنية فوق الموقد بظهرها، تمكنت سيا من رؤية تسعة نجوم بسيطة موشومة في صف واحد عبر عضلات ظهرها العريضة، تعلوها عبارة " IN HONOR" (للشرف) محفورة بالحبر. جدار تذكاري شخصي على جلدها. كانت سيا قد لمحت الوشم من قبل، لكنها لم ترَ الصف كاملاً قط، ولم تكن حمقاء بما

يكفي لتسأل عنه. وهذا الصباح لن يكون استثناءً. أشارت ساعة الميكروويف إلى 9:46 صباحًا. ربما بقيت ساعتان.

كانت آنا تجلس في الشرفة تحت سماء شتوية صافية. ارتدت سيا سترة وملأت كوبًا بالقهوة السوداء وانضمت إليها. جلسن في صمت مريح حتى نادتهن بروكتر إلى الداخل. فكرت سيا أن الإفطار لم يبدُ رائعًا؛ لحم مقدد محترق، قهوة خفيفة كالماء، وفطائر مطاطية ولدت من علبة خليط مهترئة.

دمدمت بروكتر:

– "لا يوجد شراب (سيروب) لعين، آسفة لذلك."

أجبرت سيا نفسها على ابتلاع بضع قطع من اللحم المقدد التي نجت من أسوأ ألسنة اللهب، لكنها اكتفت غالبًا بارتشاف القهوة. ظل طبق آنا كما هو لم يمس. ملأت كوبًا ثانيًا من القهوة مع كومة سخية من السكر، وألقت الملعقة بضجيج على الطاولة، ثم نكزت الكوب تجاه سيا وقالت:

– "كنا نتحدث قبل بضع ساعات عن الزناد لكل هذا. لدي فكرة."

قالت بروكتر:

– "أخبرينا."

قالت آنا:

– "ماكسيموف، النائب الثالث لمدير الـ SVR. إنه حليف مقرب لعائلتي. بالمعلومات الصحيحة، يمكنه التدخل لدى الرئيس. قد يكون قادرًا على إجبار الـ FSB على التحقيق، وإجراء تحليل لأرقام الهواتف والتحويلات المصرفية، على سبيل المثال. يجب أن نتأكد، في النهاية، من وصول المعلومات إلى ماكسيموف."

وافقت بروكتر:

– "هذا يناسبنا. لنعتمد ذلك حاليًا."

التفتت آنا لتتفقد ساعة الميكروويف:

– "يجب أن أذهب قريبًا."

وضعت بروكتر يدها على كتف آنا:

– "قبل أن تفعلي، دعينا نراجع الأمر كله مرة أخرى، فقط للتأكد."

أولاً استحمت آنا، وغيرت ملابسها، وجرت حقيبتها إلى الطابق السفلي. ثم جلسن في غرفة المعيشة. كان الضباب قد عاد ليغلف القرية، حاجبًا ضوء الشمس.

دخلت آنا إلى قسم الاتصالات السرية (Clancomm) على الحاسوب الجديد. مرة تلو الأخرى.

وصفت الخطة الخاصة بحاسوب فاديم، والموقع الإلكتروني الذي ستزوره بمجرد حصولها على حق الوصول.

كررت المعلومات التي ستجمعها عن قائمة كبار المسؤولين التي قدمتها بروكتر وسيا.

رفعت تمثال الحصان وشرحت أنها ستضعه في المكتب بمقر بنك "روسيا" في سانت بطرسبرغ. مكتبها ذو النوافذ الكبيرة.

حزمت آنا الحاسوب والتمثال في حقيبتها. صافحت بروكتر وعانقت سيا. ثم استدارت للمغادرة، وسارت فوق المسار الثلجي نحو الطريق الوحيد في القرية، حتى اختفت سترتها البيضاء في الضباب.

قالت بروكتر:

– "تلك العاهرة باردة كالصقيع."

ردت سيا:

– "إنها تريد الفوز.. هذا جل ما تبتغيه."

تناهى ثغاء الأغنام من أسفل التل، وعادت المرأتان إلى داخل المنزل.

همست سيا:

– "ولديّ شعور غريب بأنها ستتسبب في مقتل نفسها."

الفصل الحادي والأربعون

موسكو

كان لوكا قد سبقها إلى طاولتهما في مطعم "جان مارتيل"؛ وقد رتب رقعة الشطرنج، وقطع الليمون شرائح، وراح ينقر بخفة على الخبز الأسود وقطع الرنجة الزيتية الممزوجة بالبصل والبطاطس المسلوقة. عندما رآها، افتر ثغره عن ابتسامة عريضة، لكنها لم تلاحظ، بل جلست مباشرة وأدارت الرقعة لتلعب بالقطع البيضاء، ثم دفعت بيدقها الأول إلى الأمام. أسندت ذقنها على كفيها، واختزلت عالمها كله في تلك الرقعة وكأس الكونياك. كانت الليلة تريد كونياك، وشطرنج، ولوكا.. ربما بهذا الترتيب. لم يكن هناك شيء آخر في تلك اللحظة يمكن أن يشعرها بالتحسن. وهذا كل ما أرادته: أن تشعر بالتحسن.

على مدى جولتين، أجهزت عليه وعلى معظم الزجاجة بسرعة. لعبا جولة ثالثة، ففازت، ولا تزال تعمل بجد على الزجاجة. قال لها بتوتر: "كلي شيئًا يا آنيا، ستمرضين". ردت عليه ألا يفسد عليها مزاجها. لعبا مرة أخرى. كانت مجزرة. ربما لم يكن يحاول؟ صرخت بذلك في وجهه. عبس ثلاثة رجال يجلسون خلف لوكا في وجهها.

نهرتهم قائلة:

– "اهتموا بشؤونكم."

ثم أشارت إليهم بحركة بذيئة.

بدأت تتحدث عن زجاجة أخرى، لكن لوكا كان يلملم قطع الشطرنج. وقفت مترنحة نحوه، تطالبه بجولة أخرى. الزجاجات خلف البار دارت وتلألأت أمام عينيها. استندت إلى طاولة لتستعيد توازنها، وأمسكت بكتف لوكا، لكن العالم ظل يميل.

من رحلة الترنح تلك بين مطعم "جان مارتيل" وشقتها، لم تتذكر سوى شظايا: سقوط رقعة الشطرنج، لوكا وهو يبحث في الثلج عن القطع، انزلاقها وسقوطها على الرصيف المتجمد، رائحة العادم الكريهة التي تسربت من إحدى فتحات الصرف إلى أنفها. كان ليل موسكو دخاناً. بلا نجوم. بلا قمر. دخان فقط.

في الصباح، وجدت نفسها منكمشة بين الملاءات بملابسها الداخلية. كانت رائحة القهوة تملأ الشقة. أين سترتها؟ وقميصها؟ يا إلهي، لقد رأى الكدمات اللعينة على بطنها. تباً. جلست وأمسكت رأسها المتألم للحظات. عين واحدة فقط استجابت للضوء وانفتحت. أين بقية ملابسي؟ تسللت على رؤوس أصابعها إلى الحمام، فوجدت سترتها وقميصها معلقين على الرف ليجفّا.

قال لوكا واقفاً عند باب الحمام وفي يده كوب قهوة سوداء:

– "لقد تقيأتِ عليهما."

ارتدت السترة لتغطي الكدمات. احتسيا القهوة ببطء وصمت في غرفة المعيشة، بينما حاولت آنا تجميع ذكريات الليلة الماضية. كانت غاضبة من نفسها لأنها جاءت لرؤيته أصلاً؛ فقد أقسمت أن تنتظر حتى تشفى الكدمات.

سألها لوكا:

– "آنيا، هل ستخبرينني بما حدث؟"

أشاحت بوجهها عنه لتنظر من النافذة وقالت:

– "لا شيء."

– "آنيا، أرجوكِ. أعلم أن بيننا قواعد، لكن أرجوكِ، أنا أحبكِ. أخبريني بما حدث. هذه المرة فقط."

أخذت رشفة تحدٍّ من قهوتها.

– "آنيا، أعلم أنهم فعلوا بكِ هذا. هو فعل بكِ هذا. أرجوكِ، تحدثي معي فقط. أنتِ هنا في أمان. أنا أحبكِ."

نظرت في عينيه. زرقاوان مثل عينيها، لكنهما دافئتان. كرهت نفسها.

قالت:

– "سقطت عن حصان."

ثم أغمضت عينيها لأنها لم تتحمل رؤية وجهه. لو فعلت، لبكت، وهي لن تبكي من أجله.

سمعت وقع خطوات، ثم صوت الباب يغلق. عندما فتحت عينيها، كان قد رحل.

***

حتى لو كان لوكا فيدروف ضابط عمليات مدربًا في الـ SVR أو FSB، لما لاحظ شيئًا مريبًا في البداية أثناء مسيره السريع في شارع "كل العطلات". كانت عيناه مثبتتين على الرصيف، وقد غادر شقة آنا بخطى أسرع بكثير من المعتاد، حتى بالنسبة لموسكوفيٍّ متوتر يغالب ريحًا قارسة. كان غاضبًا، وبدا ذلك واضحًا حتى لأصغر المراقبين الذين يتتبعونه. لو قام لوكا بتوقفات وانعطافات متعددة على مدى ساعات، ولو كان رجلاً مختلفًا بتدريب مختلف، لربما لاحظ في النهاية الفريق المكون من ستة رجال يتعقبه حتى شقته. كل واحد منهم كان يحمل كاميرات دقيقة مخبأة في أزرار المعاطف وطياتها.

أدرك الجميع أن الفيديو لم يكن ضروريًا تمامًا من وجهة نظر المراقبة. فقد حصلوا بالفعل على وجهه في عدة صور التقطت الليلة الماضية، سواء خارج "جان مارتيل" أو من إحدى النقاط الثابتة في شقة فارغة مقابل "عش غرام" ابنة أغابوف. تم تمرير صورته عبر قواعد بيانات الـ FSB. وحصلوا بالفعل على عنوانه، وجهة عمله، وسجلات هاتفه. لا، الفريق تتبع لوكا فيدروف وسجله لأن الرئيس أراد خيارات. فالناس، عندما يواجهون بفيديوهات صُوّرت سرًا لهم، يميلون للشعور برعب شديد.

نحن نؤيد الإرهاب المنظم، هكذا قال "التشيكيون" ذات مرة، ويجب الاعتراف بذلك بصراحة.

وكما فعلوا طوال الأسبوعين الماضيين، سلم فريق المراقبة الأشرطة وتقريرًا مكتوبًا ومختصرًا إلى مكاتب "لوبيانكا" التابعة لمديرية الأمن الداخلي، حيث أودعها كاتب لدى تشيرنوف. كان تحديد موقع الشقة صعبًا بعض الشيء على رجال تشيرنوف لأنها لم تكن باسم آنا، ولا باسم والدها، ولا باسم أي من شركاء العائلة التجاريين المعروفين. كانوا يعرفون شقة "أوستوجينكا" بالطبع. وكان لديهم هاتف آنا وكل ذرة غبار رقمي ينفثها، لترصده أبراج الهواتف ومئات أجهزة الاستشعار غير المرئية في جميع أنحاء موسكو. كان تحديد نمط حياتها أمرًا بسيطًا.

كانت لديهم أيضًا مكالماتها ورسائلها من خلال نظام الجمع الشامل للـ FSB. وما اكتشفه مراقبو تشيرنوف بسرعة هو أن هناك فترات عرضية – عادةً أمسية وصباح اليوم التالي – تترك فيها آنا هاتفها في شقة "أوستوجينكا" لتجتاز المدينة في مسار معقد لكشف المراقبة ، مما ينم عن معرفة دقيقة بالشوارع والحدائق وتغطية كاميرات المراقبة داخل "حلقة الحدائق". في البداية لم تكن الفرق المتنقلة كبيرة بما يكفي لمجاراتها؛ كانت ماهرة وصبورة جدًا في الشارع، وأحيانًا بعد عدة ساعات كانت تتلاشى في ليل موسكو. في إحدى المرات عادت بلا مبالاة إلى شقة "أوستوجينكا"؛ اعتقد تشيرنوف أنها ألغت اللقاء لأنها رصدت مراقبتهم.

إلى أين تذهبين يا آنيا، بدون هاتفك؟

اتضح أنها ارتكبت خطأً واحدًا قبل أسابيع.

بفضل الوصول إلى هاتفها، راجع تقنيو الـ FSB سجل مكالماتها للبحث عن أي خلل. وجدوا رقمًا اتصلت به مرة واحدة من شقتها. من ذاك؟ مرروا الرقم عبر سلسلة من قواعد بيانات شركات الاتصالات واكتشفوا أن الهاتف الذي اتصلت به كان موجودًا في شقة "أوستوجينكا" نفسها عندما أجرت المكالمة. لقد اتصلت بنفسها. شك تشيرنوف في أنها اتصلت بالهاتف الثاني الغامض باستخدام الأول لتسمع رنينه. ربما كان الهاتف مفقودًا تحت وسادة الأريكة. تساءل عما إذا كانت ثملة حينها.

خطأ واحد، كان هذا كل ما يحتاجونه.

أجروا تحليلاً تاريخيًا للهاتف الثاني واكتشفوا أنه يقبع في شقتها بـ"أوستوجينكا". لم يغادر موسكو. لكن في الليالي التي تركت فيها آنا هاتفها الأساسي هناك، سافر هذا الهاتف الثاني معها. وكان يبيت في مبنى سكني مدسوس في متاهة بمنطقة سكنية قديمة بالقرب من "نوفوكوزنيتسكايا"، نجت من لينين وستالين وبريجنيف وبوتين، ومن مشاريع "تحسين المدينة" (blagoustroistvo) التي جرفت الكثير من موسكو القديمة لتستبدلها بناطحات السحاب والبوتيكات والمتاجر الفاخرة. أظهرت السجلات الضريبية أن الشقة مملوكة لشركة وهمية غريبة مسجلة في سيشيل.

منذ هذا الاكتشاف، دخل فريق من "السابعة عشرة" – مديرية البحث والعمليات في الـ FSB – الشقة وزرعها بالكاميرات والميكروفونات.

صب تشيرنوف المزيد من الشاي الأسود. أيقظته طرقة على الباب من انشغاله بالتقارير.

نادى:

– "ادخل."

ألقى دانييل، أحد مساعديه، كومة من الأوراق على المكتب وجلس بجوار النافذة. كان يضع عود أسنان بين أسنانه ويديره بأصابع طويلة ونحيلة. كان برتبة رائد، لكن وجهه الطفولي بدا وكأنه لم يتجاوز العشرين.

قال:

– "تقارير من أحد رجالنا في (ياسينيفو). لقد سحب البرقيات. السفر كان شرعيًا. وموافقًا عليه. ذهبت إلى جنيف. تدير قضية اقتصادية هناك. يبدو أنها عادت للعمل."

دمدم تشيرنوف. أشار دانييل إلى تقارير المراقبة على المكتب وسأل:

– "هل شاهدت الفيديو بعد؟"

– "فيديو عشيقها وهو في الشارع؟ نعم."

– "لا، الفيديو الذي صورناه بعد مغادرته. داخل الشقة."

رفع تشيرنوف حاجبًا:

– "ليس بعد. لماذا؟"

أدخل دانييل إحدى وحدات الذاكرة في حاسوب تشيرنوف ونقر للتقديم. شرح أن معظم الأمسية كانت آنا أغابوف مريضة، وحبيبها يحاول مواساتها. أظهرت الشاشة الحبيب واقفًا، وآنا مكومة على الأريكة. لم يبدُ أن شيئًا يحدث.

قال دانييل:

– "نحتاج للصوت يا زعيم."

ألغى تشيرنوف كتم الصوت.

كان عشيقها يسألها عما حدث لها. تذكر تشيرنوف أن تقرير الليلة الماضية أشار إلى مفاجأة لوكا فيدروف المسموعة عند رؤية شيء ما على صدر آنا. ثم كانت تتقيأ في الحمام وزوايا التصوير سيئة. لكن عندما أخبرت آنا لوكا أنها سقطت عن حصان، نهض وغادر.

للحظة، ساد السكون الشقة. الصوت الوحيد كان ضربات مباراة هوكي في الفناء بالأسفل.

ثم بدأت آنا أندريفنا أغابوفا في البكاء. أذهل الصوت تشيرنوف؛ كان ناعمًا بشكل مدهش لامرأة قاسية مثلها، ضابطة عمليات، حتى لو كانت تنتمي إلى الـ SVR المترف. إنها ابنة أندريه أغابوف ووريثته. بكت لمدة دقيقتين وإحدى وثلاثين ثانية. ثم نهضت ودخلت الحمام. أوقف دانييل الفيديو.

قال تشيرنوف لـ دانييل:

– "يا إلهي.. إنها تحبه. قد لا تعرف ذلك حتى. لكنها تحبه."

كان دانييل يبتسم ابتسامة عريضة. وقف تشيرنوف لينظر إلى الميدان بالأسفل. كان ثلج خفيف يهطل على ساحة "دزيرجينسكي".

قال دانييل:

– "والناس يفعلون أشياء من أجل الحب يا زعيم."

فكر تشيرنوف في ذلك وقال:

– "نعم، يفعلون، أليس كذلك؟ أشياء غبية، أشياء شجاعة، أشياء عنيفة. لكنهم يفعلون شيئًا دائمًا. إنه أمر لا مفر منه."

الجزء الرابع

TYAZHELYI

الكبار

الفصل الثاني والأربعون

موسكو / سانت بطرسبرغ

بعد أربعة أيام من عودتها من سويسرا، قادت آنا سيارتها إلى «ياسينيفو» لتقديم الإيجازات؛ فاجتمعت مع «القسم الخامس» حول المعلومات الاستخباراتية التي قدمها عميلها في جنيف وحول خطة العمليات للمرحلة القادمة، واجتمعت مع ماكسيموف للحديث عن والدها، ومع غريغوري وتقنيي «الخط أو تي» (Line OT) في المبنى الملحق حيث بدأ كل شيء، وذلك لإغلاق العملية غير الرسمية ضد سيا فوكس رسميًا. مُررت الوثائق عبر آلات الفرم المعززة بالحمض، ومُسحت بيانات الهواتف والحواسيب، ووُضعت المعدات في الصناديق. ألقت تحية المساء على غريغوري في وقت متأخر، موضحة أنها ستتولى إغلاق المكان بنفسها. أعدت الشاي وجلست في مكتبها ترتشف كوبها الثالث، حين أدركت أخيرًا أنها باتت وحيدة.

كان غريغوري قد نقل معدات المراقبة من «روس-فارم» في حقائب بلاستيكية سوداء وصناديق مشروبات كرتونية، وكُدست معظمها في مكتبه الرطب بانتظار إعادتها إلى مخزون «الخط أو تي». هل سيثير غريغوري ضجة حول بضعة عناصر مفقودة؟ استبعدت ذلك؛ فالمعدات تتعطل أو تُفقد طوال الوقت. فتحت باب مكتبه مواربةً، فبانت الصناديق مكومة في الزاوية.

لم تكن قد أولت المعدات اهتمامًا يُذكر في وقت سابق لثقتها بغريغوري، ولأن جانب المراقبة في العملية كان بسيطًا؛ إذ كانوا يعملون في مزرعة عائلتها داخل «رودينا». أما الآن، فقد راحت تقرأ بعناية البطاقات والأوصاف الملصقة على

الصناديق والحقائب. تجاوزت صناديق الكاميرات التي تتطلب أعمالًا كهربائية، فلن يكون لديها وقت لتمديد الأسلاك أو حفر الثقوب. تحركي. وصلت إلى صندوق يحمل ملصقات واعدة توضح الطرازات والكميات:

XRV-22-A —(15)

كاميرات بحجم رأس الدبوس ذات مادة لاصقة مناسبة لمعظم الأسطح (خشب، رخام، حجر، بلاستيك، ألمنيوم، فولاذ، إلخ). عمر البطارية: من أربع وعشرين إلى ست وثلاثين ساعة.

PLM- 1700 —(6)

محركات أقراص صغيرة متصلة بكتلة متشابكة من الأسلاك تمنحها مظهر قنديل البحر. يمكن توصيل الطراز 1700 بالهواتف والحواسيب المحمولة لاستقبال البيانات من الكاميرات.

كانت قد استخدمت هذه المعدات من قبل. هذا سيفي بالغرض. تحركي.

أضاء خيط النور المتسرب عبر المدخل مكان عملها. حشرت أربع كاميرات بحجم رأس الدبوس وواحدًا من محركات قنديل البحر في حقيبة يدها. تحركي. سارت فوق الأرضيات المتهالكة المقشرة، وخرجت إلى البرد العاصف عبر الممرات المؤدية إلى موقف السيارات. صرّت أشجار الصنوبر بفعل الرياح، بينما كانت محطة الطاقة تصدر أزيزًا وتنفث الدخان. إذا سألوا، سأخبرهم بالحقيقة. تحركي. وبينما كانت تمشي، ولسبب ما، راودها خيال الهرب من روسيا مع لوكا. ماذا سيقول لو طلبت منه ذلك؟ كانت تعلم أنه سيوافق. لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على التفكير في السبب، ناهيك عن قوله. دفعت تلك الأفكار بعيدًا لتركز على نصوص دورها، وعلى المسرحية التي تعيشها. حدثت نفسها قائلة: أنا أراقب زوجي، وهي تخوض في الثلج المتسخ نحو صف بعيد في موقف السيارات الجنوبي الشرقي لـ «ياسينيفو». تحركي.

***

حدقت آنا في الخزنة داخل شقتها في «أوستوجينكا»، فبادلها الهاتف والحاسوب المحمول النظرات ذاتها. ست مكالمات فائتة من لوكا، ورسالتان صوتيتان. رغبت في معاودة الاتصال به، لكنها أدركت أنها لو رأته لأخبرته بما تنوي فعله، وحينها سيفسد كل شيء. كان يتملكها أيضًا شعور بنزعة لتدمير الذات والتفاهة، ففكرت أنه نظرًا لروعة العلاقة معه، ربما يجدر بها خنقها قليلًا، لترى إن كانت ستنجو. ألقت الهاتف مرة أخرى في الخزنة.

التفتت إلى الحاسوب المحمول. وبحركات سريعة، لم ترتكب فيها سوى خطأ واحد في تسلسل لوحة المفاتيح، فتحت قسم اتصالات الشبكة (clancomm)، وأرسلت سلسلة من أرقام الهواتف والعناوين المحفوظة في ذاكرتها إلى سيا والمرأة التي تطلق على نفسها اسم لولو. كانت آنا قد استخلصتها من دليل للكرملين زوده بها ماكسيموف دون طرح الكثير من الأسئلة. قال صوت بداخلها: إن السيدات من وكالة الاستخبارات المركزية. ردت على الصوت قائلة: اصمت، بحق السماء. أحتاج إلى الهدوء.

وضعت أحمر الشفاه، وطبقت شفتيها اللتين اصطبغتا بلون أحمر فاقع أمام انعكاس صورتها. فتحت حقيبة مستحضرات التجميل لتتأكد من وجود الحبة الضرورية بداخلها. تحققت مرة أخرى من أن معدات غريغوري مستقرة بأمان في حقيبتها. التقطت الصندوق الذي يحتوي على تمثال الحصان الذي قدمته لها لولو، وتساءلت: ما هذا الشيء بحق الجحيم؟ أخبرتها غريزتها البدائية أن تحطمه، لكنه استقر في الحقيبة بدلًا من ذلك.

تجولت نحو غرفة المعيشة، وبكل هدوء اتصلت بـ فاديم، وكأنه لم يبرحها ضربًا قبل أسبوعين حتى كادت تفقد وعيها. لم تفكر في تلك الليلة الآن؛ بل أجبرت نفسها على استحضار بعض الذكريات الجميلة. إجازات شهر العسل في باريس والبحر الأسود، حين كانا أحمقين آمنا بأن حواف زواجهما الحادة ستلين مع الوقت. وبينما كان الهاتف يرن، استدعت بضعة مواقف لممارسة الحب معه كانت

ممتعة. باريس: الستائر تتموج في غرفة فندق قرب «البانثيون»، والنسيم يلامس جلدها المتعرّق. ثبتت عقلها عند تلك الذكرى.

قال بصوت مباغت:

– "آنيا، كيف حالك؟"

أجابت:

– "أنا بخير. أتصل لأنني كنت أفكر في الأمور. أفكر في كل شيء حقًا. ولا أريد مناقشة ما حدث. ولا كلمة. كنت غاضبة بشأن والدي. قلت أشياء جارحة لأنني كنت غاضبة. أنا قادمة إلى «بطرسبرغ» اليوم. سأكون في المكتب لبعض الوقت. ثم فكرت أننا قد نتناول العشاء معًا. في «بالكين» ربما؟ يمكننا فقط أن نتحدث".

***

كان اليوم قارس البرودة لكنه مشرق، وسماء «بطرسبرغ» صافية وزرقاء، لذا مشت آنا إلى فندق «روسيا» من محطة قطار «موسكوفسكي». تجاوزت البنك لتتمشى جنوبًا لبضع بنايات بمحاذاة نهر «نيفا» المغطى بالثلوج والموشى بالجليد، وتوقفت لتشاهد جسر القصر المتحرك وهو يرتفع. برز حرف (Z) الكبير المرسوم بالأبيض والأزرق والأحمر على أسفل الجسر وهو يشمخ نحو السماء. بدا أن الحرب قد جندت حتى الجوانب السفلية للجسور. قطبت آنا أنفها، وحشرت يديها في معطفها، ثم سارت عائدة شرقًا باتجاه البنك، ذلك المبنى الكلاسيكي الجديد الضخم في ساحة «راستريلي». عند وصولها، جرت حقيبتها حول الساحة وهي تستجمع شجاعتها. رفعت نظرها نحو أبراج الكاتدرائية البيضاء والزرقاء، ثم خفضته نحو الأكشاك القليلة المتهالكة التي تبيع الفاكهة والمجلات. قبل الحرب، كانت الساحة لتعج بالسياح، أحيانًا حتى في الشتاء. أما الآن، فهناك أكشاك رديئة مزينة بصور الجنود القتلى، وممرّات لم يُرشّ عليها الملح [34]، وشرذمة من

[34] في البلدان الباردة، عندما يسقط الثلج أو يتكوّن الجليد على الطرقات والممرات، يقومون برشّ الملح عليها ليذيب الجليد ويمنع الانزلاق.

المتسولين والسكارى ينامون في صناديق، ملتصقين بالكاتدرائية لكسر حدة الرياح البحرية.

دَلفت إلى البنك بخطوات حازمة. أطلت الرؤوس من المقصورات عندما دخلت مكتبها بخطى واسعة. لوحت لسكرتيرتها النحيلة بصرف النظر، وأغلقت الباب. مسحت الغبار عن لوحة المفاتيح وشغلت الحاسوب.

سحبت طاولة لتضعها تحت النافذة المطلة على ساحة «راستريلي». كدست عليها شمعتين قديمتين من مكتبها، ولوحة لمتزلجين على جليد نهر «نيفا» – لم تكن لديها أدنى فكرة عمن وضعها هنا؛ ربما كانت مزروعة بأجهزة تنصت، حسبما تعلم – وتمثال الحصان المريب الخاص بـ لولو، الذي يشب على قائمتيه الخلفيتين. وجهت القائمتين الأماميتين المرفوعتين نحو الساحة، ثم التقطته لتمرر أصابعها على الشق الموجود في قاعدته. أعادته إلى الطاولة واسترخت في مقعدها، تنقر بأصابعها ببطء على المكتب.

***

في ذلك المساء، داخل شقة «كوتوزوف» المطلة على النهر، صبت آنا كأسًا من النبيذ وتجولت بشرود وكأنها تتفقد منزلًا جديدًا، مراجعةً أماكن كاميرات المراقبة مقارنة بمواقعها الأصلية. هل ركّب فاديم دفعة جديدة، أم غطى بعض الثغرات؟ كانت قد اطلعت على المخططات؛ وبدا أنه هنا لم يختر إخفاء الكاميرات فوق الأسِرّة. سيكون هناك مجال للمناورة في الغرفة الرئيسية.

بدأت بغرفة الملابس. كان أحد رفوف أحذيتها بمستوى الخزنة التي يحتفظ فيها بالحاسوب المحمول. عثرت على زوج من أحذية «جيمي تشو» السوداء يطابق لون الكاميرا، ووضعته على الرف المواجه للخزنة. ألصقت إحدى الكاميرات بحجم رأس الدبوس على الحذاء الأيسر. ثم سحبت كرسيًا، ووقفت على أطراف أصابعها لتلصق كاميرا أخرى على مصباح المسار الموجه نحو المكتب في غرفة النوم. وضعت واحدة أخرى على ضوء ينير اللوحة التجريدية المعلقة فوق سريرهما –

سريره. كانت لوحة صارخة وعنيفة؛ بقع حمراء قاسية متناثرة كمسرح جريمة على قماش. وبينما كانت تقف على أطراف أصابعها فوق الكرسي، أرجعت رأسها بضعة أقدام عن مصباح المسار. لم تكن الكاميرا ظاهرة.

همست بصوت مسموع:

– "أنا أراقب زوجي. لأنني زوجة غيورة وهو يخونني".

بعد إدخال محرك «قنديل البحر»، فتحت حاسوبها المحمول للتحقق من زوايا الكاميرات حين سمعت ضجيجًا. الباب؟ هل عاد فاديم مبكرًا؟ ربما لا شيء. حشرت الحاسوب في حقيبتها ومشت إلى غرفة المعيشة. تفقدت المطبخ، وغرف النوم، والطابق السفلي. حتى إنها فحصت الخزانة الأمامية. فكرت: أنا أفقد صوابي، لا يوجد أحد هنا.

كانت الكاميرات قد أرسلت الملفات بالفعل إلى محرك الأقراص المتصل بحاسوبها. عند فتح أحد الملفات، حصلت آنا على رؤية واضحة للسرير. وأظهر الآخر المكتب. كانت الجودة عالية، حتى عندما قربت الصورة. وضعت الحاسوب على المكتب وبدأت تطبع رسالة بريد إلكتروني تجريبية لنفسها. كان فاديم سريع الطباعة. راحت تنقر المفاتيح أسرع فأسرع حتى أصبحت الرسالة التجريبية هراءً؛ خليطًا من الحروف والأرقام. ضغطت زر الإرسال ورأتها تصل. ذهبت إلى الباب لتتسنم صوت فاديم. صمت. عادت إلى غرفة النوم لتجد ملفًا جديدًا قد نزل على المحرك. فيديو لها وهي تطبع على الحاسوب. قربت الصورة ورأت يديها على المفاتيح. تدربت آنا على تجميد الفيديو لحظة ضغط أصابعها على لوحة المفاتيح، ثم التكبير لترى الحروف والأرقام والرموز المحددة التي ضُغطت. وإذ شعرت بالرضا، وضعت الحاسوب في حقيبتها.

ارتدت آنا فستانًا من الساتان الأبيض وحذاءً أسود من الجلد المدبوغ يصل للركبة. تجولت نحو غرفة المعيشة لتستمتع بمنظر شامل ومبهج لنهر «نيفا»

المتجمد. لم ترَ وجهه منذ أن ضربها. هل ستتمكن من السيطرة على نفسها؟ نعم، قالت لنفسها، بالطبع ستفعلين.

تحققت مرة أخرى من حقيبتها الصغيرة للتأكد من وجود زجاجة الأسبرين التي تحتوي على حبة واحدة ليست أسبرين. ولم تكن حبوب منع الحمل الخاصة بها. كان «فلونيترازيبام». مخدر اغتصاب. أغلقت سحاب حقيبتها ودخلت غرفة المعيشة في الوقت المناسب لسماع طقة القفل. انتظرت أمام البار الرطب كـ «زوجة صالحة»، مرحبة به بابتسامة عريضة عند دخوله الشقة. كان يحمل باقة عملاقة من الورود. هي لا تحب الورود. ارتطمت حقيبته بالأرضية الخشبية الصلبة. أجبرت تلك الابتسامة على البقاء مرسومة، وأسنانها البيضاء تلمع ببريق لزوجها العزيز.

قال:

– "آنيا، أنا آسف جدًا".

ذهبت إليه، وضغطت بإصبعها على شفتيه، وقبلت خده.

قالت:

– "إنها جميلة. استعد أنت. سأضعها في الماء".

في المطبخ، قصت آنا سيقان الورود وغمرتها في مزهرية كريستالية. صبت كأسين من الكونياك، وناولته واحدًا بينما كان يخرج من غرفة النوم. قرعا الكأسين.

قال وهو مشتت الذهن بشيء على هاتفه:

– "أحتاج للقيام ببعض العمل قبل العشاء".

اختفى عائدًا إلى غرفة النوم بعد أن طبع قبلة على خدها. وقفت آنا بجوار النوافذ الكبيرة تنظر إلى النهر. أصدرت خزنته صفيرًا. وطقطقت لوحة مفاتيحه.

عكست الشمس الساطعة على الزجاج ابتسامتها الرفيعة والخبيثة.

***

في مطعم «بالكين»، شربا المارتيني وضحكا ويضحكون تحت ضوءٍ ذهبي دافئ يغمر البار. تناولا جبن «البوراتا» مع شرائح الفجل وسلطعوناً مع شرائح الشمندر وكافيار «بيلوغا». ارتشفا شامبانيا «بورل آند كروف» فاخرة. تناولا فطائر الخنزير البري وتحدثا عن الرحلات القديمة، وأنهيا زجاجة من نبيذ «بيلفون-بيلسييه» مع غولاش الثور وشريحة لحم «شاتوبريان»، وأخبرته آنا بكل شيء عن القضية وقالت إنها آسفة لكل شيء. وضع يده على يدها. تحدثا عن القيام برحلة، ربما مرح آخر على شواطئ البحر الأسود؟

دست آنا الـ «فلونيترازيبام» في كأس نبيذه عندما ذهب إلى الحمام. وعندما عاد سألته عن سؤاله.

قالت:

- "آخر مرة كنا هنا، كان لديك سؤال لي. ما هو؟ أرجوك، أخبرني".

كان ثملًا الآن، وأرسل تذكيرها موجة من الغضب عبر وجهه. تجرع نبيذه وبدا وكأنه يحدق فيها لفترة طويلة. فكرت: ثلاثون دقيقة حتى يبدأ مفعول المخدر. ربما أقل قليلًا.

قال:

- "أردت أن أعرف لماذا ترفضين إنجاب أطفالي".

وضعت يدها على يده وهزت رأسها.

قالت:

- "لقد كنتُ حمقاء صغيرة. غاضبة. أحاربك بدلًا من أن أحارب معك. ربما نجرب طريقة مختلفة. ربما نبدأ الليلة؟"

- "لكنكِ..."

كذبت قائلة:

– "لم أتناولها منذ المكسيك".

– "آنيا، ما الذي حدث؟"

قالت:

– "لنعد إلى البيت. دَعنا الليلة نكون زوجًا وزوجة على سبيل التغيير".

***

فقد فاديم وعيه على أرضية غرفة النوم. سحبته آنا بصعوبة إلى السرير، وجردته من ملابسه تمامًا، ثم كومت ثيابه فوق كرسي، ووضعت هاتفه على المنضدة الجانبية.

حدث الأمر بسرعة: فتح حاسوبها المحمول، العثور على الملفات الصحيحة، مشاهدتها لتدوين كلمات المرور، والتحقق المستمر للتأكد من أنه نائم. كانت أنفاسها خيطًا رفيعًا ومتقطعًا؛ كل سحبة هواء تتطلب منها جهدًا واعيًا. رمز الخزنة أولًا. أربعة أرقام. يوم ميلاده. سهل. ثم الحاسوب المحمول. أصعب؛ سلسلة عشوائية من الحروف والأرقام والرموز. اضطرت لمشاهدة الفيديو عدة مرات ودونته على قصاصة ورق لأنه كان أطول من أن تحفظه بسرعة. لم يستخدم البصمة الحيوية، شكرًا لله.

استعادت الكاميرات بحجم رأس الدبوس من الخزانة ومن أضواء المسار. الكاميرا المثبتة على اللوحة ستكون صعبة قليلًا. انسلّت بخفة فوق السرير، حذرة ألا تهز زوجها المخدر، وانتزعتها من الإطار.

دست كل شيء في حقيبتها وارتدت زوجًا من قفازات «النتريل». ثم وقفت هناك، تناقش نفسها للحظة حول إعادة هذا الشيء برمته إلى الصندوق. فكرت في لوكا والهرب. ثم تذكرت زوجها وهو يضربها حتى فقدت الوعي. وتشيرنوف وهو

يهشم أنف والدها في مؤخرة عربة الترحيلات أثناء الاعتقال. تحركي. حملت قصاصة الورق التي تحوي كلمة المرور ودخلت غرفة الملابس.

فتحت الخزنة وأخرجت الحاسوب، أدخلت كلمة المرور فأخطأت. قالت: تبًا. تبًا. تبًا. تبًا. حاولت مرة أخرى. نجحت. كانت أصابعها تقطر عرقًا داخل القفازات. لاحظت آنا أنها تبتلع ريقها بصعوبة. حلقها جاف وخشن كالجحيم. كان هذا كل ما استطاعت التفكير فيه. ابتلعي، اللعنة. كانت أصابعها تعوم داخل القفازات. هل سيتسرب الماء إلى لوحة المفاتيح؟ في متصفح الويب، وكما اتُفق مع سيا ولولو في سويسرا، طبعت كلمات: "Maktoum" و "Godolphin" و "GQ". ظهر المقال الذي ذكرته سيا. نقرت عليه، وراحت تمرر الشاشة لأسفل حتى وجدت إعلانًا منبثقًا جعل صدرها ينقبض ويضيق. عطر كلايف كريستيان المصنوع من الكزبرة الروسية. "ماذا تشترين لفاديم؟" كانت سيا قد سألتها بجوار المدفأة في الكوخ الجبلي. وأجابت هي أخيرًا: "كولونيا". زجاجة كولونيا بلا أي تفكير في كل عيد ميلاد.

حام مؤشر آنا فوق الإعلان المنبثق. ثم نقرت عليه. بالنسبة لها، بدا صوت النقرة كدوي طلقة مسدس.

تذكرت قول لولو:

– "هذا كل شيء. بسيط".

أخذها المتصفح إلى صفحة «كلايف كريستيان». لبضع ثوانٍ اكتفت بالتحديق في الشاشة. فكرت: لقد فعلتها. لقد فعلتها حقًا، بحق الجحيم. مسحت سجل الساعة الأخيرة، وأغلقت المتصفح، وأعادت إغلاق الحاسوب داخل الخزنة.

يا إلهي، ماذا فعلتِ؟ عضت شفتها وكنست الفكرة من دماغها.

استمعت آنا إلى شخير فاديم للحظات وتأملت جسده العاري. ربما أتوقف هنا؟ في العادة كانت لا ترغب إلا في البعد عن فاديم. لكنها لا تستطيع إيذاءه عن بعد.

أطفأت آنا الأنوار. وقفت للحظة عند الباب، وعيناها تعتادان على الظلام. من الحمام، التقطت منشفة صغيرة. خلعت حذاءها. فستانها. ملابسها الداخلية. انزلقت إلى السرير وأخذته بين يديها وبدأت تشده داخل المنشفة. تبخرت من هذه الغرفة، صاعدة إلى السماء، إلى السموات، إلى عالم آخر بعيد. فكرت: هذه الذراع وهذه اليد لا تخصاني. إنهما لشخص آخر.

عندما انتهى الأمر، مسحت آنا بالمنشفة ما بين ساقيها. فكرت: هنا قد تفقدين صوابك، بينما كان طعم الحمض يلعق حلقها، لكنها ابتلعته مرة أخرى. ألقيت المنشفة في الحوض ليعثر عليها في الصباح. وبجسدها العاري، انزلقت بجانبه تحت الملاءات، متوقعة ألا يزورها النوم أبدًا. رائحة جسده وملمسه الترابي العفن سحبت في البداية خيوط الغثيان إلى قصبته الهوائية. لكن النوم جاء، وبسرعة كبيرة، وكانت آخر فكرة واعية لآنا هي أنها لم تشعر بأي من الخوف أو الذنب الذي توقعته. بدلًا من ذلك، شعرت بالسلام.

الفصل الثالث والأربعون

سانت بطرسبرغ / روس-فارم

تنهد باب الشقة وهو يُغلق. كانت آنا وحيدة في السرير، تضغط جسدها فوق تلك البقعة اللزجة التي جعلت معدتها تتقلب. أعدت الشاي. كانت هناك رسالة نصية واحدة من فاديم أُرسلت قبل عشر دقائق: وجه مبتسم يغمز. اشتد فكها، وحذفت الرسالة. فتحت الحاسوب المحمول الذي عادت به من سويسرا، ودخلت إلى قسم «كلان كوم» (clancomm)، وأرسلت رسالة تفيد بأن محطة ترحيل الاتصالات باتت في مكانها، وأنها نقرت على الإعلان المنبثق، وتنتظر المزيد من التعليمات.

مع كوب الشاي الثاني، رن هاتفها. رقم مجهول. تجاهلت الاتصال، وتمددت مستلقية على بطنها فوق سرير في إحدى غرف الضيوف، تتساءل كيف ومتى ستتمكن من العودة لعملها الحقيقي في «جهاز الاستخبارات الخارجية» (SVR). هل ستتمكن من ذلك أصلًا؟ ماذا لو واصلت الكفاح فحسب، وقامت بعملها الحقيقي؟ كانت هناك قضايا تحتاج لإدارة في سويسرا، واليونان، وفرنسا. سألها الصوت العالي في رأسها: وتتركين أباكِ يتعفن؟ اتصل الرقم المجهول مرة أخرى. هذه المرة أخذت رشفة من الشاي وأجابت.

قال الصوت:

– "آنا أندريفنا، هل تتذكرينني؟"

هبطت معدتها، وتكوّر الشاي في فمها. وحين تمكنت من الابتلاع، قالت:

– "أذكرك، أيها المقدم".

– "أود التحدث معكِ يا آنيا. هل تسمحين لي بمناداتك آنيا؟"

– "نحن نتحدث الآن بالفعل".

– "ليس هكذا. قابلينا في مزرعتك؟"

كررت قولها:

– "نحن نتحدث الآن".

مصمص شفتيه وضحي ضحكة خافتة لكنها تحمل وعيداً.

– "لا، لا. تعالي لرؤيتنا في مزرعتك. نحن هنا بالفعل. لمَ لا تأتين الآن؟"

– "أستطيع المجيء في وقت لاحق هذا المساء".

– "فهمت".

ساد صمت، ثم صوت استنشاق، وحفيف الهاتف وهو ينتقل من أذن لأخرى.

– "والآن، يا نقيب آنا كوفالتشوك..." — لعنه الله، فكرت آنا — "... سأخبرك كيف تسير الأمور. أنتِ في سانت بطرسبرغ الآن. والطريق إلى «روس-فارم» يستغرق ساعتين. سأكون كريماً وأمنحك ثلاث ساعات. ومقابل كل ساعة تأخير، سأقطع ساقاً من هذا الحصان المكسيكي الذي أعرف أنكِ مغرمة به. ما اسمها؟ بينيلوبي؟"

ثم انقطع الخط وسمت السكون.

***

حدث شجار سخيف مع سائق فاديم السمين اللعين حول سيارة الـ «مرسيدس» المزودة بأضواء الطوارئ الزرقاء، قبل أن تلقي حقيبتها في السيارة

وتركب وتتأكد من وميض الأضواء، ثم انطلقت من المرآب تحت الأرض وعويل صفارات الإنذار يدوي ويصرخ. كانت الإطارات الشتوية تخوض وتطرطش عبر الثلج والجليد بينما طارت جنوبًا بمحاذاة نهر «نيفا»، حيث المصانع والشقق الكئيبة تشرخ السماء الرصاصية لهذا المكان المتجمد اللعين الذي ابتلعهم جميعًا، ممتدًا بلا توقف إلى الأبد ودون نهاية.

على الطريق السريع 105، قادت السيارة بركبتيها بدل يديها بينما أشعلت سيجارة «دانهيل» وفتحت النافذة قليلًا لتنفث الدخان في الريح العاتية. تجاوزت السيارات بسرعة جنونية، مطلقةً البوق واللعنات، بينما بدأت الكتل الخرسانية والمباني السكنية البنية والمداخن التي تنفث الدخان تتلاشى لتفسح المجال للغابات الروسية الشاسعة من البتولا والصنوبر، والتلال البنية المنخفضة المغطاة بالثلوج التي راحت تنبسط أمام زجاج سيارتها نحو الأبدية. فكرت: *ربما تقتلينه*، وهي تقذف عقب السيجارة من شق النافذة وتنحرف فجأة — كادت تصطدم مرة أخرى، تبًا! — لتتحاشى سيارة تسير ببطء سلحفاة تزيد بضعة كيلومترات فقط عن الحد المسموح. اللعنة! ضغطت بقوة على البوق وهي تسرع متجاوزة إياها. لكنها كانت تريد أكثر من موت واحد، وخشيت أنها بمفردها لن تستطيع تحقيق سوى موت واحد.

***

عند بوابة «روس-فارم»، أشار لها حارس الأمن المرتعد نحو الإسطبلات. في الداخل، كان تشيرنوف يراقب سائسًا حذرًا وهو ينظف بينيلوبي بالفرشاة خارج مربطها. صهل الحصان عند اقتراب آنا. ثم رأت الإوزة. كان العجوز يرتدي قبعة «أوشانكا» وسترة منتفخة من ماركة «لورو بيانا». تذكرت أن فاديم يملك المعطف نفسه؛ وسعره يتجاوز 10,000 يورو. أما غطاء الرأس فكان نسخة «برادا» من قبعة الشتاء الروسية التقليدية. مثل معظمهم، لم يكن يبدو كالشيطان. كان تشيرنوف يرتدي بدلة زرقاء داكنة تحت معطفه الكبير. قميصه الأبيض مكوي

بعناية، ورائحة عطره تفوح بالحمضيات، وربطة عنقه معقودة عقدة «ويندسور» كاملة ومثالية. فكرت أن ما بدوا عليه حقاً، هو هيئة أبيها. رجال أعمال.

ابتسم لها تشيرنوف، ومد يده التي لم تصافحها. لم يستدر الإوزة لمواجهتها، بل ظل يراقب السائس وهو ينظف بينيلوبي.

قال:

– "لا أعرف سوى القليل عن الخيول. لكنها حيوانات جميلة. ونبيلة".

التفت إليها قائلًا:

– "الجو ليس باردًا جدًا بالنسبة للأسبوع الأول من ديسمبر، وقد جلبنا أحذيتنا الطويلة. لنتمشى قليلًا، هاه؟"

***

استبدل الجميع أحذيتهم المسطحة أو الخفيفة بأحذية طويلة، ومن الإسطبلات انسلوا عبر الطريق الموحل مبتعدين عن المنزل الرئيسي. سارت آنا بمحاذاة الإوزة، بينما تخلف تشيرنوف بضع خطوات خلفهما. فتحت آنا بوابة تؤدي إلى مرعى. قالت: يوجد ما يكفي من الثلج والعشب هنا، يمكننا تجنب الطين. دخلوا الحقل وأغلق تشيرنوف البوابة خلفهم. كانت الرياح قد اشتدت، تضرب بقوة على طبقة الثلج، وتقذف شظايا الجليد العرضية في عينيها.

بعد فترة، قال الإوزة:

– "منذ توليت مجلس الأمن، لم أعد أزور «بطرسبرغ» بقدر ما أرغب، لكني أشتاق إليها. نشأتُ في سكن مشترك قديم على بعد بضع بنايات فقط من قصر يوسوبوف. لا أضواء في الممرات، وصندوق بريد مطلي بالأخضر، تمامًا مثل أي شخص آخر. أبوك وأنا، ذهبنا للمدرسة نفسها. رقم مائتين وأحد عشر. لعبنا الهوكي معًا، وتعاركنا، ولاحقنا نفس الفتيات. وانتهى بنا المطاف في المدرسة

العليا للـ «كي جي بي» في موسكو. عدنا إلى لينينغراد وخدمنا معًا. بحق الجحيم، لقد عرفت عائلة أغابوف طوال حياتي".

توقف عن المشي، ثم سأل:

– "هل تحدث والدك كثيرًا عني يا بنيتي؟"

– "بما يكفي، كما أظن".

عاد الإوزة بنظره إلى الأفق وهو يبتسم بتكلف.

– "لقد أحببت والدتك يا آنيا. وتحطمتُ عندما سرقها أندريه مني. لكني لا أحقد عليه الآن. لا شيء من هذا يتعلق بغالينا. إنه عمل. أنتِ مصرفية. أنتِ أشياء أخرى أيضًا، لكنك مصرفية. يجب أن تفهمي هذا يا بنيتي. إنه عمل. وعمل مهم؛ فما هي روسيا الآن سوى قلعة تحت الحصار؟ لدينا مهمة خاصة في هذا العالم. ولا يمكننا إنجاز تلك المهمة إذا انكمشت روسيا على نفسها أو إذا كُسرت أجزاؤها. يجب أن أعترف أن عناق «رودينا» (الوطن الأم) يمكن أن يكون خانقًا. الشيشان، بيلاروسيا، أبخازيا، أوسيتيا الجنوبية، أوكرانيا. الأمر ليس سهلًا. يا إلهي، ليس من السهل الحفاظ على تماسك العالم الروسي. الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي من خلال القوة ,والسطوة. وهذا يعني أن «البويار» (النبلاء) يجب أن يكونوا موالين. المركز، دولتنا، تتطلب موارد في هذه الأوقات العصيبة. يجب أن ننمو، يجب أن ننتصر، أنتِ ترين هذا، أليس كذلك؟ نحن بحاجة لخطوط إنتاج والدك للإلكترونيات، والروبوتات، والأسلحة، بحق السماء، للدفاع عن العالم الروسي. لقد ساعد والدك في توحيد التدفقات النقدية قبل عشرين عامًا. إنه يعرف، يا إلهي إنه يعرف. جلس معي في الكرملين قبل اعتقاله مباشرة ورأيت أنه يعرف. لكنه عنيد. أراه في عينيك. أنتما عنيدان مثل بعضكما. والدتك كانت عنيدة. جميلة وذكية، لكن عنيدة. الحكومة احتاجت الذهب يا بنيتي. لكن أباكِ أعمى. هل تعلمين ماذا قال لي عندما زرته في سجن «بوتيركا»؟ قال إنها ملكه. ملكه يا آنيا! يا إلهي، إنها ليست

ملكه. كل هذا..." — وأشار بيده حول الحقول المتموجة — "... كل هذا لروسيا. إنه..."

قاطعته قائلة:

– "يا فاسيلي بلاتونوفيتش، هل روسيا هي التي تتربح من أصول والدي وشركاته؟ أم أنت؟"

لمعت عينا الإوزة. هز رأسه ناظرًا إلى الأرض.

– "لكن لا فرق يا بنيتي. لا فرق على الإطلاق. ألا ترين هذا؟"

مشوا لعدة دقائق لم يتحدث فيها سوى الريح. توقفت آنا عند المرتفع المنخفض حيث ألقى الحصان بفاديم، قبل كل تلك السنوات.

– "ماذا تريد؟"

استدار ليواجهها مباشرة، وأخرج يده اليمنى العظمية من جيبه، ورفع إصبعين.

قال:

– "الأشياء ذاتها التي أردتها من والدك. ستبيعين لنا «روسيا الصناعية» وأسهمه في البنك بخصم كبير".

أنزل إصبعًا واحدًا.

– "وستبيعيننا عقاراتك. موسكو، بطرسبرغ ، وهذه المزرعة".

أنزل الإصبع الثاني.

قذفت هبة ريح الثلج عبر وجهها. مسحت عينيها.

قال وهو يستدير عائدًا:

– "هذه نهاية تمشيتي. أنا رجل عجوز".

نادت خلفه:

– "هذا ما يريده «الخزيان»؟"

التفت الإوزة إليها بابتسامة. وخلفه، كان تشيرنوف يبتسم أيضًا.

قال الإوزة:

– "عليك سؤاله بنفسك".

حدقت في حافة غابة البتولا وهي تتمايل وتتكسر في الريح. كانت درجة الحرارة تنخفض بسرعة، ومعها الشمس.

سأل الإوزة:

– "ما هو جوابك يا بنيتي؟"

قالت آنا:

– "دعني أكمل بقية التمشية لأفكر".

رفع يديه باستسلام وانطلق نحو المنزل. عندما وصلوا، مر "الإوزة" بجوار سيارته المصفحة من طراز «مايباخ» وصعد الدرج الرخامي إلى القصر. تبعته آنا عبر البهو، حيث وضع قبعة الأوشانكا تحت ذراعه، ثم إلى غرفة المعيشة، وكان تشيرنوف يتبعهم ككلب وفيّ. أخذ الإوزة يدفئ نفسه بالنار، وهو يفرك يديه قائلًا: "الدورة الدموية فظيعة". كانا قد دخلا وهما يرتديان أحذيتهما الموحلة. هذا الغراب العجوز العظمي وكلبه الهجومي يدوسان هنا كالحيوانات. فكرت آنا: هذا أسوأ من الابتزاز. هذه قلة احترام. أنا امرأة متفهمة، لكن هذا كثير جدًا، حتى بقواعد لعبتنا الشيطانية الصغيرة. كشط الإوزة بعض الطين على الموقد.

وبينما كان يواجه النار ويكشط حذاءه الآخر، قال الإوزة:

– "سمعت أنك لا تحبين هذا المكان. وأنهم هدموا المنزل القديم من أجل هذه القلعة الجديدة. معظمنا نحن القدامى فضلنا تدمير مبانينا. لا نهتم بالذكريات. أنت محظوظة لامتلاكك مكاناً يحمل ذكريات حلوة".

مسح الغرفة بنظره، مستمتعًا، ثم قال:

– "جوابك يا بنيتي".

– "إذا وافقت، ماذا سيحدث لأبي؟"

أطرق الإوزة رأسه، ومصمص بلسانه.

– "المدعي العام سيقدم قضيته. والقاضي سيحكم. الأمر في يد القانون".

ضحكت آنا. يا إلهي، القانون.

قالت:

– "حسناً يا فاسيلي بلاتونوفيتش، هذا مخيب للأمل، لأنك أنت من يصنع القانون".

– "يا بنيتي، لا أعتقد أنك تفهمين ما سيحدث إذا رفضتِ طلبنا".

– "لكنني أعرف ما سيحدث إذا وافقت".

رمش الإوزة، وجالت عيناه نحو تشيرنوف، ثم عادت إلى آنا.

– "حقًا؟ أعلم أن والدك طلب منك أن تقولي لي لا، وأتفهم أنك في موقف صعب. لكنه منحك السلطة للتحدث نيابة عنه أثناء وجوده في السجن. يجب عليك ممارسة تلك السلطة الآن. استخدمي حكمك السديد، لأننا بعد هذا لن نسأل، أو نفاوض، أو حتى نحث. بعد هذا لن يكون هناك سوى العقاب. هل تفهمين يا بنيتي؟"

لم تكن آنا تستمع إليه بعد الآن؛ كانت تنظر إلى آثار الطين. كانت تسرع نحو البهو لطردهم للخارج. فتحت الباب الأمامي. هجم الشتاء للداخل، لكنها لم تشعر به. وضع الإوزة قبعته، وهو يثرثر عن روسيا، وعن والدها، وعن حسن التقدير، ولم تكن تسمع أيًا من ذلك، كانت تنظر فقط إلى آثار الأقدام اللعينة، وكانوا عند رأس الدرج الرخامي عندما بدأت في قياس المسافة، وكان تشيرنوف على الهاتف يتحدث مع شخص ما عن الإسطبلات وعن هدية، و الإوزة يتمتم بأن هذا خطأ يا بنيتي، لا تكوني غبية، لكنها لم تستطع منع نفسها، فكرت في فعل ذلك بالإوزة نفسه لكنها قلقت من أنه سيموت حرفيًا وحينها سيفسد كل شيء.

بدلًا من ذلك، التفتت إلى الجانب وركلت تشيرنوف ركلة سريعة وخاطفة خلف ركبته. سقط متدحرجًا على الدرج الرخامي كجذع شجرة، وأصدر نخرة أو اثنتين عندما ارتطم رأسه بالرخام. توقف بجوار الإوزة في كومة من الثلج المتسخ أسفل الدرج. نظر العجوز إلى تشيرنوف، ثم رفع نظره إليها في دهشة. وقف تشيرنوف. وضع يده على جرح غائر في جبهته. نظر إلى الدم على أصابعه. وضحك. فكرت آنا: تلك العيون. إنها تلمع بالفرح.

قال الإوزة:

– "لا تكون الحرب حربًا إلا إذا كان لديك أسلحة وجنود. وأنتِ يا بنيتي، لا تملكين أيهما. لكن إن كان هذا ما تريدينه. حسنًا، ليكن. إنه العقاب إذًا".

كان السائق، وعيناه تجحظان من رأسه، قد فتح أحد الأبواب الخلفية لسيارة المايباخ. اختفى الإوزة داخل السيارة.

عرج تشيرنوف حول الجانب الآخر من المركبة. ابتسم لها: ابتسامة عريضة، متلهفة، وطفولية. عنفها جعله يشعر بالنشوة.

قال:

– "هناك هدية لكِ. في الإسطبلات".

***

ركضت. كان باب الإسطبلات مفتوحًا على الشتاء. في الداخل، نادت بأعلى صوتها، لكن لم يجب أحد من السواس. أغلقت الباب انزلاقًا. كانت الخيول تثير جلبة فظيعة؛ صهيل وصرخات وتلك الزئيرات البوقية المؤرقة، وتضرب بمؤخراتها أبواب المرابط. ذعر. الحيوانات رأت شيئًا ما. هذه الهدية، أيًا كانت، أو ربما مجرد وجود تشيرنوف ورجاله. كان هناك شيء خاطئ.

هرولت عبر الممر، تتفحص كل مربط حتى وصلت أخيرًا إلى مربط بينيلوبي. كان المربط فارغًا. ثم، وعبر فتحة الباب، رأته.

على أرضية المربط كان هناك صندوق طويل مغلف كهدية. بطول ساق حصان تقريبًا. فكرت: يا إلهي، أرجوك، يا إلهي، لا.

فتحت آنا باب المربط. أطلق حصان آخر نداءً بوقيًا مروعًا، فارتجفت وسقطت على ركبتيها بجانب الصندوق، المغلف بعناية وإحكام بورق سميك كريمي اللون ومربوط بشريط أحمر ساطع. كانت هناك ملحوظة صغيرة مدسوسة تحته. زئير آخر. فتحت الملحوظة وأسنانها تصطك.

كانت فارغة.

قلبت البطاقة الورقية. ربما كانت رؤيتها مشوشة بالدموع لدرجة أنها لم تستطع رؤية الكلمات. لكن لا، كانت فارغة. وضعتها في القش، وانزعت الشريط، وبدأت في فك تغليف الصندوق. رسم خط رفيع من الدم على الورق بينما كانت تعمل. من أين جاء ذلك؟ كان أحد أصابعها ينزف. لعقت الجرح. ارتجف الإصبع على لسانها.

قشرت الورق عن الصندوق الخشبي ووقفت، تنظر لأسفل، ولأول مرة تركت حقيقة ما فعلته تتسرب إلى إدراكها. ربما تتراجعين عن كل شيء. ربما تعتذرين. وتنسحبين وتدعيهم يفوزون.

كان غطاء الصندوق مسمرًا. التقطت صندوق أدوات البيطار من إحدى الخزائن. كانت ترتجف بشدة لدرجة أنه ارتطم بالأرض محدثًا جلجلة. تناثرت الأدوات، وصهلت الخيول وحمحمت. عثرت على سكين وعادت به إلى المربط. حشرت النصل في الفجوة بين الخشب وراحت تنزع الغطاء حتى استجاب بصرير. كانت بالكاد تستطيع التنفس. رفعت الغطاء مرة أخرى.

قفز الغطاء وانخلع.

نظرت إلى الداخل.

كان الصندوق فارغًا.

سقطت سكينها في القش، ولحقت بها آنا.

الفصل الرابع والأربعون

بالو ألتو / بورسيلفيل، فيرجينيا

منحت المعلومات الاستخباراتية التي جمعتها بيرسيفوني، بالإضافة إلى الغنيمة المستخلصة من حاسوب فاديم، هيكلًا ملموسًا لأضغاث أحلام بروكتر؛ فالمؤامرة التي كانت بلا ملامح اتخذت الآن شكلًا مباركًا، وصار بين يديها حسابات، وأسماء، وعناوين. باتت تملك أفكارًا يمكن للمحامين ذوي الوجوه الشاحبة ومستشار الأمن القومي المصاب بالوسواس القهري أن يقبلوها الآن أو يرفضوها. استقلت بروكتر طائرة الدرجة الاقتصادية (المقعد الأوسط، على مسافة خمسة أقدام من باب المرحاض) لزيارة الفريق في بالو ألتو.

في ليلتها الأولى، دعت بروكتر الفريق إلى بوفيه بيتزا Cicis لرفع معنوياتهم قليلًا. استغل جورج، كبير التقنيين، غياب سنيك للضغط من أجل اعتماد الاسم الحركي للفريق؛ تواصل بصريًا مع كل شخص، ثم أومأ لبروكتر إيماءة جادة وقال:

– "نريد أن نطلق على أنفسنا اسم تروجانز TROJANs."

كادت بروكتر تبصق قطعة "مارشميلو" من بيتزا الحلوى التي كانت تأكلها، وقالت:

– "على اسم الواقي الذكري؟"

أجاب جورج مرتبكًا:

– "لا، مثل حصان طروادة."

قالت إحدى الفتيات التقنيات، نورا – أكان هذا اسمها؟ –:

– "لأن هذه خدعة كبرى."

ردت بروكتر:

– "يا رفاق، في النهاية، الطرواديون سُحِقوا على يد الإغريق. هل أنتم جادون؟"

أصروا على اسم TROJANs، فتركتهم بروكتر يفعلون ما يريدون، رغم أنها لم تستطع طرد صورة الواقيات الذكرية من ذهنها. جن جنون سنيك عندما أخبرته؛ قال إن أولئك "المهووسين الملعونين" ظلوا يزعجونه بهذا الأمر لأسابيع. لماذا كانت تعبث في شؤونه؟ لكن هذا كان بيت القصيد؛ يجب إبقاء المرؤوسين متيقظين دائمًا، أدركت بروكتر ذلك، لا بد من استعراض العضلات أحيانًا، والإنفاق ببذخ على بوفيه بيتزا، لإظهار من هو الزعيم. وإلا سيطالبون برأسك كما يفعلون مع ملوك فرنسا.

***

مثل أي عميل مراقبة من لحم ودم، طاردت البرمجية المزروعة في حاسوب فاديم هدفها لفهم نمط حياته، ونقاط ضعفه، وقلبه المظلم. كان مسجل ضربات المفاتيح يرسل ملفات مضغوطة إلى فريق TROJANs كل صباح. رأوا ما يكتبه في سجلات العمل على القرص الصلب. حصلوا على كلمات المرور، وسجلات البحث. وصل الفريق إلى آلاف الوثائق القانونية: عقود التأسيس والأنظمة الأساسية، ومخططات الشركات الوهمية والحسابات المقابلة لها، ورزم من المراسلات مع شركات المحاماة. قالت بروكتر لـ برادلي:

– "هذا الهراء المثير للضجر هو بالضبط ما نريده."

لم يحمل حساب واحد، ولا وثيقة واحدة، اسم بوتين. كان ذلك ليكون ضربًا من الجنون.

في ظهيرة واحدة، قامت نورا – التي ربما كانت ألمع العقول في هذا الفريق الغريب – باحتساء صندوق كامل من مشروب Jolts ونفذت الخدعة الجوهرية للعملية. كان على فريق TROJANs إخفاء أنشطتهم عن فاديم مع ترك خيوط يمكن للمحققين سحبها لاحقًا. صممت نورا نسخة طبق الأصل من حاسوب فاديم كما كان قبل وصول وكالة الاستخبارات المركزية إليه. أصبح هناك الآن حاسوبان يحملان البيانات نفسها: الحاسوب المحمول في سانت بطرسبرغ، والنسخة الموجودة على جهاز نورا في بالو ألتو. ثم بنت نورا طبقة لا يستطيع فاديم الرؤية من خلالها؛ فبينما كانت أنشطة فاديم مرئية لفريق TROJANs، ضمنت هذه الطبقة ألا تكون أنشطة نورا مرئية لفاديم. وعندما ينتهون، ستقوم نورا بتدمير النسخة الموجودة على حاسوب فاديم واستبدالها بنسختها الخاصة.

بعد تأمين الوصول، بدأ الفريق بربط نسخة مزيفة من فاديم بالعالم الحقيقي للعملات المشفرة. أنشأ فاديم (نورا) حساب ProtonMail لمراسلة وسطاء خاصين وللبحث في مختلف فئات العملات المشفرة: Bitcoin، وDogecoin، وEthereum. كانت نورا قد اعترضت في البداية قائلة:

– "من بحق الجحيم لا يعرف كل هذه الأمور أصلًا؟"

قالت بروكتر:

– "فاديم رجل من رجال المؤسسة التقليديين. لا يعرف شيئًا عن الكريبتو. إنه من النوع الأرستقراطي. ربما يرتدي ملابس تشبه أزياء إخوتنا هنا."

وأشارت إلى رجل ذي شعر داكن من قسم العمليات المالية (FINO) يرتدي بدلة بنية فاتحة.

وجهت بروكتر نورا إلى متجر خاص لتداول العملات المشفرة في هونغ كونغ، يُدعى Polycoin Investments. قالت بروكتر:

– "ستعملين معهم لإجراء التداولات. لديهم صلات بعمليات التعدين الكبرى، ويتوسطون ‌في صفقات لكبار اللاعبين ‌في الكريبتو: المؤسسات الضخمة، والمكاتب العائلية، والحيتان. Polycoin هو مكانك."

اشتم مصرفيو FINO رائحة المال. وكما أوضح لها المحامون مئة مرة، فإن العبث بالحسابات المصرفية أمر خطير للغاية، لأن كل معاملة مالية ‌في العالم الغربي تقريبًا تتم تسويتها ليلًا عبر نيويورك. كانت وزارة المالية قد استشاطت غضبًا ‌في الاجتماعات المشتركة الأولية، متذمرة من أن أفكار بروكتر "الجميلة" ستدمر الثقة العالمية ‌في الدولار والنظام المصرفي الأمريكي. لكنهم توصلوا إلى حل وسط: لم تستطع بروكتر سرقة القدر الذي ترغب فيه، وكان على وكالة الاستخبارات المركزية أن تكون متأكدة تمامًا ممن تسرق.

أُلحق ديبمان واثنان من لغويي قسم موسكو بالمصرفيين. ‌في الصباح، كانت بروكتر تحضر الدونات، وفي المساء فطائر "بوب تارتس" بالبطيخ. تتبع رجال FINO شبكة بوتين المالية على خريطة شبكية بيضاء؛ امتدت خطوط بألوان وسماكات مختلفة كشبكة عنكبوت بين العقد. وعلى الجانب الأيمن، ألصق سنيك صورة لبوتين وهو يسقط على الجليد خلال مباراة هوكي. وفي الأعلى، خربشت بروكتر كلمة بيرسيفوني: أوبشاك (Obschak). صندوق النقد. الوعاء المشترك الذي تستخدمه العصابة الإجرامية للرئيس الروسي.

خلال إحاطة ‌في وقت متأخر من الليل، قال ديبمان إنهم حصلوا أخيرًا على ما تريده بروكتر: لقد كشفوا عما يعتقدون أنه 684 مليون دولار من أموال بوتين النقدية تحت إدارة فاديم. كان لديهم أرقام الحسابات، ومعلومات تسجيل الدخول لهذه الحسابات ‌في أكثر من اثني عشر بنكًا. ما يقرب من النصف كان داخل روسيا، ‌في بنك روسيا نفسه. صعب المنال. كتبت نورا كودًا لأتمتة رسائل البريد الإلكتروني والمعاملات التي ستطلق يوم الحسم "V-Day" (يوم فاديم). يوم القيامة النهائي، حين يدس فريق TROJANs حصان طروادة الخاص بهم ‌في الشريان الرقمي لـ "الرودينا".

كانت بروكتر تزداد ارتيابًا بشأن التسريبات، نظرًا لعدد موظفي "الكابيتول هيل" وأتباع البيت الأبيض المطلعين على برنامج العمليات السرية. كتبت عرضها النهائي بخط اليد على ورق قانوني أصفر بخط غير مقروء، وحزمت الورق في حقيبة مقفلة، وجمعت حقيبتها من مكتب وي وورك القديم حيث كانت تنام. جمعت فريق TROJANs وأخبرتهم بمدى فخرها بهم، ثم طارت إلى فرجينيا لرؤية برادلي.

***

هبطت بروكتر في مطار دالاس، لكنها نسيت أنه كان يوم السبت، فطلب منها برادلي المجيء إلى منزله الريفي في بورسيلفيل. كان اثنان من ضباط الحماية الأمنية (SPOs)، ولا شك أنهما يشعران بملل قاتل وغارقين في أكواب من القهوة الرديئة، يجلسان بلا عمل في سيارة "سوبربان" سوداء عند نهاية الممر. لوحت لهما بروكتر وهي تمر مسرعة بسيارتها الـ "بريوس". أدخلتها أنجيلا برادلي. كانت باردة بعض الشيء، حتى مع تلك اللهجة الجنوبية الجذابة، واستنتجت بروكتر – بالنظر إلى أحذية ركوب الخيل وملامحها التي يكسوها الغضب – أن زيارتها قد أفسدت على الأرجح صباحًا سعيدًا على ظهور الخيل. وبما أن هذه العملية كانت على وشك الاصطدام بعطلة عيد الميلاد، حسنًا، قدرت بروكتر أن هذا الإزعاج سيكون قريباً أقل مشاكل الجميع شأنًا. خرج برادلي من القبو، وأومأ بصرامة لأنجيلا وكأنه قد دهس كلبهم للتو، ثم سكب كوبين من القهوة وقادهما لأسفل إلى منشأة المعلومات الحساسة (SCIF)، التي كان يسميها "الصندوق". ناول برادلي بروكتر كوبًا يحمل شعار سفارة دمشق. وظيفتها الأولى كرئيسة، قبل مائتي عام كئيب. حييا الضابط المسؤول عن حراسة القبو، وأدخل برادلي الرمز ليدخلا الصندوق.

كان الصندوق عبارة عن نصف قبو إد القديم، وهي غرفة معيشة محولة كانت بناته يشاهدن فيها الأفلام ويتبادلن القبلات مع أصدقائهن من المدرسة الثانوية. الآن انقسمت الغرفة إلى شطرين؛ النصف الذي بقي غرفة معيشة كان يحتوي على كرسي استرخاء واحد من نوع La-Z-Boy، بينما احتوى قسم المعلومات

الحساسة على مكتب، وكرسيين، وحاسوب، وتغذية بصرية من نظام أمن المنزل، وهاتف مؤمن. جلسا متواجهين، وركبتاهما تكادان تتلامسان.

قالت بروكتر:

– "خلاصة القول هي أننا نراقب ما يقرب من سبعمائة مليون دولار من أموال بوتين النقدية الخاضعة للإدارة. لقد أعطتنا بيرسيفوني المعلومات التي نحتاجها لترك فتات خبز يلفق التهمة لمجموعة من المتآمرين. محللو قسم موسكو يعتقدون أن الأمر منطقي، ويتماشى مع التقارير المتاحة، وليس فقط التدفق القادم من بيرسيفوني."

ناولته ورقة صفراء عليها الأسماء. حدق فيها قائلًا إنه لا يستطيع قراءة شيء "ملعون". انتزعتها بروكتر وقرأت الأسماء بصوت عالٍ. قالت إن هناك الإوزة واثنين من أتباعه، وفاديم، وبضعة عقداء لديهم وحدات حول موسكو، وبعض كبار المسؤولين في جهاز الأمن الفيدرالي (FSB).

ردد برادلي الأسماء ببطء وهدوء، وكأنه يخشى أن يحسد العملية. ارتشف قليلًا من القهوة، وسأل:

– "من هو تشيرنوف؟ لم أسمع به."

قالت بروكتر:

– "كونستانتين كونستانتينوفيتش تشيرنوف، مقدم في مديرية الأمن الداخلي. عميل سابق في وحدة (فيمبيل) [35] ينفذ المهام القذرة لصالح الإوزة. تقول بيرسيفوني إنه فتى سيئ للغاية. أحد هؤلاء الفاشيين الجدد من جماعة (روما الثالثة) الذين يخلطون روسيا، والرب، وأنفسهم معًا في مزيج مقزز واحد. المحامون لن يمانعوا بشأنه."

---

[35] وحدة «فيمبيل (**Vympel / Вымпел**)» هي **قوة خاصة روسية شديدة الاحتراف** تأسست في عهد الاتحاد السوفييتي عام 1981، وكانت تابعة لجهاز **الـKGB** ، ومهمتها الأساسية تنفيذ العمليات الأكثر صعوبة وحساسية

أومأ برادلي بالموافقة وقال:

– "قصّي عليّ حكاية المؤامرة."

فعلت بروكتر، مازجة الأسماء، وسفريات مخدوعة بفضل أداة وينكلفوس، ومعاملات مالية، ومحادثات مفبركة من قِبل الـ CIA على تطبيق مراسلة، لتشكل توافقًا مذهلًا للظروف لا يمكن أن يشير إلا إلى مؤامرة ضد فلاديمير بوتين تنفذها مجموعة صغيرة من النخبة الروسية. المتآمرون الذين ستلفق لهم الوكالة التهمة يملكون المال، ولديهم الاتصالات الصحيحة داخل الحرس الإمبراطوري، والجيش، والأجهزة الأمنية. ومعظمهم نشأوا معًا في بطرسبرغ. سيأمر بوتين بالاعتقالات. سيكون مقتنعًا – بل مجبرًا – على إطلاق النار على الناس في مؤخرة الرأس، اختتمت بروكتر.

شبك برادلي أصابعه وفكر للحظة، ثم قال:

– "سنحتاج إلى الحصول على تصريح بصلاحيات القتل للآخرين. لا يمكننا أن نتحذلق في هذا الأمر. إذا فعلنا ذلك، فمن المحتمل أن نتسبب في مقتلهم جميعًا."

قالت بروكتر:

– "هذا هو بيت القصيد اللعين نوعًا ما، أليس كذلك؟"

حك خده الخشن. يبدو أن الرجل كان يخطط للاسترخاء في عطلة نهاية الأسبوع هذه، دون حلاقة وعلى ظهر الخيل بجانب زوجته.

غَيّر برادلي الموضوع:

– "كيف تسير أمور الغسيل في هذا الجانب؟"

كان قد قبل أيضًا المصطلحات الجنائية الأكثر دقة لما كانوا يفعلون. أما محامو وزارة العدل الأكفاء للغاية – وبالتالي المتوترون بشدة – الذين وقعوا على

الصلاحيات الجديدة فلم يفعلوا. سمى المحامون السرقة "سحبًا غير طوعي"، وجانب العملات المشفرة سلسلة من "المستجمعات المالية" – وهي طريقة مراوغة لوصف المكان الذي ستخفي فيه الـ CIA الأموال بعد سرقتها.

قالت بروكتر:

– "الغسيل يسير على ما يرام. هاري يشتري عقودًا طويلة الأجل في البيتكوين عبر وسيط، Polycoin Investments، يدعمه هو في الخفاء. فاديم، أو بالأحرى نسختنا الدمية منه، في مناقشات مع الوسيط المذكور حول شراء بعض الكتل الكبيرة. وهاري بدأ حسب الأصول يلمح إلى أنه قد يرغب في التخلي عن عملاته. نحن نحرك الخيوط على جانبي هذه الصفقة، والوسطاء في المنتصف لا يدركون شيئًا، وسعداء بجمع رسومهم الدسمة."

سأل برادلي:

– "كم المبلغ الذي التزم به هاري حتى الآن؟"

– "حوالي مائتي مليون، والعد لا يزال مستمرًا."

صفر برادلي قائلًا:

– "ذلك الرجل وطني حقًا."

قالت بروكتر:

– "بالفعل. لكنه سيسترد كل شيء. ما لم ينهَرْ مخطط (بونزي) للعملات المشفرة في الأشهر القليلة القادمة."

– "وهل نشعر بالارتياح لإبقائه بعيدًا عن مرمى نيران البنادق الروسية عندما ينتهي هذا؟"

أجابت بروكتر:

– "نعم. المهووسون يبنون لنا (خلاطًا) خاصًا بنا. لن يعرف الروس أبدًا أن هاري كان على الطرف الآخر."

أوضحت بروكتر أن "الخلاطات" تخفي مسار العملات المشفرة من محفظة إلى أخرى. ستشتري النسخة الدمية لفاديم العملات من وسطاء هونغ كونغ، وسيقوم التقنيون بإرسال العملة عبر الخلاطات ثم تفتيتها إلى عشرات المحافظ، كلها مفصولة عن الإنترنت. بوف. اختفت. التحقيق الروسي سيصل إلى طريق مسدود في هونغ كونغ.

سأل برادلي:

– "كيف هو وضع المقبرة؟"

كانوا قد أطلقوا لقب "المقبرة" على "المستجمع" النهائي. المثوى الأخير لأموال بوتين. رفعت بروكتر صندوقًا أسود مسطحًا بحجم الهاتف المحمول تقريبًا: كان محفظة تشفير للتخزين البارد مفصولة عن الشبكة (Air-gapped). تسللت ابتسامة إلى وجه برادلي.

– "ماذا بحق الجحيم ينبغي أن نفعل بها عندما ننتهي؟"

قالت بروكتر:

– "ما رأي المحامين؟"

– "ما زالوا يتجادلون."

قالت بروكتر:

– "صوتي يذهب لخيار أن أحتفظ بها أنا. فأنا موظفة حكومية لا تتقاضى ما يكفيها."

طرقت أنجيلا باب الصندوق وقالت إنها خارجة، وقد تعود متأخرة. قال لها: "أحبك يا عزيزتي". لا رد. هز برادلي رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة. شرب المزيد من القهوة. تفحص ساعته.

– "ماذا أيضًا؟"

حاولت بروكتر أن تبتسم قائلة:

– "أنجيلا رحلت يا رجل. لديك اليوم بطوله مع صديقتك القديمة أرتميس."

وقف، وتمطى، وأخبرها أنه يجب عليها الخروج من هنا فورًا.

قال برادلي وهما يصعدان الدرج:

– "أتعلمين يا أرتميس، لقد بدأتِ تفكرين مثل الروس. هذا ببساطة أكثر شيء تآمري عملت عليه منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا. مثير للإعجاب."

قالت:

– "شكرًا إد. شهادة تعني لي العالم كله إذ تأتي منك."

الفصل الخامس والأربعون

موسكو

انتظرت آنا تَغيُّر الإشارة الضوئية. كانت ترتدي معطف "دوبليونكا" من علامة بالنشيغا مبطناً بفرو المنك، وقد ابتاعت الملابس الداخلية السوداء المزركشة وهي تفكر فيه. وقفت عند الناصية بجوار امرأة متماسكة البنيان في منتصف العمر، جادت على آنا بابتسامة باهتة، بينما كان دبوس شعار "Z" المثبت على ياقة معطفها يلمع تحت شمس الشتاء الساطعة. تغيرت الإشارة، فعبرت آنا الشارع بخطوات حثيثة تاركة المرأة خلفها. انحرفت مبتعدة عن الجادة الرئيسية نحو متاهة الأزقة والممرات القديمة المتعرجة، باتجاه شارع "كل العطلات"، وبذلك اقتربت من نهاية مسارها. كان يغمرها يقين بأن لا أحد يتبعها.

انعطفت عند إحدى الزوايا – بحركة مستفزة تمامًا، متلكئة للحظة عابرة كي تتفحص ما إذا كان هناك من يراقبها – ثم دَلَفت إلى حديقة دافئة تبعد بضعة مربعات سكنية عن شقتها. وهناك، رأت اللوحة.

تسمرت مكانها. ورفعت بصرها نحو عينيه الزرقاوين.

بارتفاع ثلاثة طوابق، وخلفية زرقاء ساطعة، كان الرئيس فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين يشمخ في الخلفية، مؤديًا التحية لثلاثة جنود في المقدمة يرفعون العلم الروسي فوق ماريوبول؛ المدينة التي تحطمت، بالطبع – كما قيل لجميع الروس بحزم – على يد النازيين الجدد أثناء انسحابهم منها. صرّت آنا على أسنانها. كانت قد سمعت عن حملة وزارة الثقافة، لكن مرت أشهر منذ أن دخلت

الحي من هذا الاتجاه، ولم تكن تعلم أنهم رسموا واحدة قريبة جدًا من شقتها. نظرت آنا إلى بوتين، الذي بادلها النظرات مباشرة. لن تسلك هذا الطريق مرة أخرى. سارت عبر الحديقة، شاقة طريقها في الممرات التي أُزيل عنها الثلج، منصتة إلى الأطفال وهم يلعبون ويضحكون لأنهم لا يفهمون حقيقة العالم.

في شقتها، وضعت رقعة الشطرنج المغلفة كهدية على الطاولة. ساورتها الشكوك بأن تشيرنوف وفريقه قد زرعوا كاميرات أو ميكروفونات في شقتها بشارع أوستوجينكا. كانت تشعر براحة أكبر وهي تشغل هذا الحاسوب المحمول من هنا، عادة داخل الخزانة. أغلقت الباب، وأشعلت الضوء، وجلست على الأرض. بعد إدخال تسلسل لوحة المفاتيح، سحبت رسالة من سيا.

1. يرسل عملاؤنا تحياتهم بخصوص العناوين، ومعرّفات البحث، والمعلومات الشخصية التي قدمتِها. شكرًا لكِ.

2. يطلب محللونا رد فعلكم وملاحظاتكم على مسودة تبادل الرسائل وتحديد مواقع الاجتماعات.

3. ردًا على سؤالكم بخصوص التدابير الأمنية المنشورة على حاسوب زوجك المحمول؛ يعتقد محللونا أن برمجيات التجسس – التي يرجح أن جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) قد زرعها – توفر بيانات حول المعاملات، وما إلى ذلك. بمجرد بدء العملية، نتوقع أن يبلغ جهاز الأمن الفيدرالي عن وجود تباينات، مما يستلزم اتخاذ إجراء.

4. نود التخطيط للخطوات التالية بعد انتهاء العملية، بما في ذلك ما يتعلق بسلامتك الجسدية. هل أنت قادرة على السفر مرة أخرى في الأسابيع المقبلة؟ إذا كان الأمر كذلك، يرجى تقديم التواريخ والموقع وسنبدأ في التنفيذ.

تضمنت الرسالة المرفقة تبادلًا خياليًا بين مجموعة من مدبري الانقلاب. كانوا، وفقًا لبيان السياق، يرتبون لاجتماع في فيلا يملكها أحد أصدقاء طفولة الإوزة، وهو رسام مشهور أصبح الآن ثريًا بشكل فاحش وغامض. قرأت آنا التبادل، ورأت أنه يبدو جيدًا جدًا. من الواضح أن متحدثًا روسيًا أصليًا قد صاغه.

أجرت بضعة تعديلات مقترحة ثم بدأت تفكر في السفر. المواجهة مع الإوزة وتشيرنوف جعلتها على حافة الهاوية. إذا غادرت، هل يمكن أن يسحبوا جواز سفرها أو يمنعوها من العودة إلى الوطن؟ خاصة إذا سافرت في مهمة لجهاز الاستخبارات الخارجية (SVR). ولكن كيف للمرء أن يعرف؟ كتبت ردها، مشيرة إلى أنها سترسل رسالة قريبًا بالتواريخ والمواقع. أنهت برقيتها بسؤال: متى ستبدؤون العملية؟ دست الحاسوب في درج الخزانة، وغيرت ملابسها، وتمددت بعرض السرير.

في الليالي التي تلت ركلها لتشيرنوف وإسقاطه الدرج، ومنذ أن وجدت ذلك الصندوق الفارغ اللعين في إسطبلات روس-فارم فقط لتلمح الفرس بينيلوبي تهرول عبر أحد المراعي الثلجية بعد دقائق، كانت تستلقي على السرير ليلًا، والنوم ذكرى بعيدة، تفكر في النقلات والنقلات المضادة كما لو كان الأمر لعبة شطرنج كبرى. كانت تستطيع استشراف خمس نقلات للأمام قبل أن تذوب السيناريوهات في تكهنات مشوشة. كيف تتغلب على الإوزة وتشيرنوف وتظل محتفظة بكرامتها، وحياتها، ومهما تبقى من مستقبلها؟ كيف تفوز؟ لأنكِ يجب أن تفوزي. في الألعاب، الفوز نتيجة وحيدة. أما في الحياة، فالفوز هو ما تقرر أنت أنه فوز.

لكن مخيلتها منحت آنا رحمة برؤية للنصر، ومنحها جمال تلك الرؤية الثقة في المخاطر الرهيبة التي تكبدتها للوصول إلى هنا. كانت تعلم أنها في منتصف اللعبة، وقد اتُّخذت قرارات لا يمكن التراجع عنها. لكن الخيارات كانت موجودة دائمًا، والمسارات البديلة متاحة دومًا. في اللحظات المظلمة، كانت تتأرجح بين قتلها بنفسها وبين مجرد ركوب سيارة مع لوكا والقيادة خارج "الرودينا" (الوطن الأم). الرحيل، وترك كل شيء خلفها عداه. ولكن، وهي تتقلب بقلق في ملاءات سريرها، والنقلات والنقلات المضادة تتسابق في ذهنها، كان هذان الخياران يقودان دائمًا إلى أماكن أكثر ظلامًا. تموت بسرعة، وبشكل بشع، داخل روسيا. أو تموت ببطء، وبشكل بشع، خارج روسيا. والدها مات في معسكر اعتقال. وكانت دائمًا تخسر

لوكا. أحيانًا يُقتل بالرصاص، وأحيانًا يختفي. كانت تلك أفكارًا مؤلمة. كانت غاضبة من نفسها لحبها له؛ فقد جعل ذلك الألعاب أكثر تعقيدًا.

ثم، وفي شقتها الجميلة، وهي ممددة على سريرها، مزق شعور مقلق أحلام اليقظة. كانت قشعريرة خفيفة من الطاقة تسري على طول عمودها الفقري.

عرفت هذا الشعور منذ أيام الأكاديمية. ضاق عالمها ليقتصر على الغبار الراقص عبر ضوء الشمس المائل بعد الظهيرة، ولسانها الذي يمسح سطح أسنانها. في المطبخ، غلت الماء للشاي، مستغلة الزوايا لمسح بعض نوافذ الشقق عبر الفناء. بدت فارغة، لكنهم لن يكونوا أغبياء لدرجة أن يُكشفوا بهذه السهولة. دخلت غرفة المعيشة، تنقع كيس الشاي، وتمشي جيئة وذهابًا فوق السجادة الوثيرة أمام المدفأة. ملمس السجادة استدعى أفكارًا عن العرق والنشوة المتصاعدة وشرب البيرة معه في لحظات الاسترخاء، ووجه لوكا المتورد قليلًا من حرارة العمل. نظرت الآن إلى أصابع قدميها وهي تتحرك في السجادة وأخذت رشفة من الشاي، فانتصب الشعر على رقبتها وذراعيها كجنود متأهبين، وسمحت لعقلها بالتفكير في الاحتمال المروع بأنهم يعرفون بشأن هذا المكان.

بشأن لوكا.

دار رأسها، ولم تستطع التركيز أو استيعاب الكثير، لكنها أدركت أن كل شيء يجب أن يبدو طبيعيًا لهم. أشياء سيئة تحدث عندما تعلم فرق المراقبة أنك تعلم. تفقدت ساعتها، وحاولت تخيل طريق إلى حانة جان مارتل يسمح لها بالتحقق من وجود مراقبة. لكن لم تكن هناك مسافة أو وقت كافٍ للمعرفة حقًا. بالتأكيد هم يراقبون اتصالاتها، ولكن هل وصلوا إلى الهاتف الثاني؟ هل حصلوا على الحاسوب المحمول؟ تساءلت: من هما سيا ولولو؟ هل يعملان لصالح الإوزة؟ أطاحت البارانويا الجامحة عقلها عن مداره. ارتدت آنا معطفها، وأخذت حقيبتها وفيها رقعة الشطرنج المغلفة، وغادرت الشقة.

كانت تنوي الاعتذار الليلة. ستعطيه الرقعة في "جان مارتل" – اشتريتها من "غوم"، عند الكاونتر نفسه حيث التقينا، هكذا خططت لتقول – ثم عند العودة إلى الشقة ستتركه يفك غلافها عنها وهي ترتدي الملابس الداخلية ويجلسان أمام النار حتى لا يكون بالإمكان أن يصبحا أقرب مما هما عليه. وعندما ينتهيان، ستستلقي على ذلك الفرو، عارية ومتعرقة بمتعة، وطعم البيرة على شفتيها، وستطلب زيارة شقته ومقابلة عدد من أصدقائه. كان قد عرض ذلك مرات عديدة بالطبع، لكنها كانت ترفض: بحق الرب، القواعد يا لوكا، القواعد، وكان يبتسم دائمًا بلطف، ولكن بحزن، ويتجاوز الأمر.

الآن، لم تكن آنا تشعر سوى بالخوف.

سارت بسرعة فوق أرصفة بلاط "بليتكي" الثلجية الوعرة. الأحجار كانت متشققة، بارزة، أو غائرة في فوضى، إذ لم يعد في ميزانية المدينة مال لإصلاحها كل ربيع. كادت تتعثر مرتين. ورغم أن رأسها كان متجهًا للأمام، كانت عيناها تدوران في كل الاتجاهات، تتفحصان الزوايا بحثًا عن أي حركة سريعة، أو صرير مكابح، أو مركبات متوقفة وعجلاتها مائلة نحو الشارع. لم تكن المسافة طويلة. لم ترَ أو تسمع شيئًا غريبًا. هذا لا يعني شيئًا، ويعني كل شيء. لكن تلك الوخزة اللعينة ظلت باقية، تسري على طول ظهرها. البيولوجيا تخدش سطح شيء سيدركه عقلك قريبًا.

في "جان مارتل"، نظرت إلى النادل مباشرة وحاولت الابتسام بود.

سألها:

– "المعتاد؟"

قالت:

– "نعم. وأنا آسفة.. بخصوص المرة السابقة."

رفع يده، واستدار، وأخذ زجاجة من الرف. ومن خزانة سفلية أخرج طبقًا، ونفخ عنه الغبار، ومشى متثاقلًا نحو الثلاجة. وضع ليمونة في الطبق، وغرس سكينًا فيها، وزلقها عبر المنضدة إليها. قبض على البار بيدين مكتنزتين وطأطأ رأسه.

قالت آنا:

– "شكرًا لك.. شكرًا."

رتبت الكونياك، والليمون، والكأسين على طاولتهما وألقت معطفها على كرسي. بسطت الهدية على الطاولة، وحين جلست كانت تتصبب عرقًا وتلف خصلة شقراء من شعرها باضطراب. تفقدت ساعتها، وزلقت يدها على الزجاجة، ثم سحبتها بسرعة. أحضر النادل خبزًا أسود. حاولت أخذ قضمة، لكن البلع كان تحديًا. دفعت الخبز بعيدًا. تفقدت ساعتها مرة أخرى. لقد تأخر. ليس أمرًا غريبًا، قالت لنفسها، أحيانًا يتأخر لوكا. تأخر في المرة السابقة.

انتظرت. ترنح بضعة سكارى إلى الداخل واحتلوا أماكنهم عند البار. في المرة التالية التي نظرت فيها، كان أحدهم قد وضع رأسه على الطاولة. والآخر يجادل النادل. هل رأتهما من قبل؟

اتصلت بلوكا. لا إجابة.

لم تستطع التفكير في شيء سوى كم أصبحت متعرقة. متعرقة وباردة. كانت ترتجف. ارتدت المعطف، ونظرت إلى الهدية، وشعرت فجأة بموجة من اليأس، عميقة ومظلمة لدرجة أنها بدت وكأنها كل ما تبقى منها.

اتصلت بلوكا مرة أخرى. لا إجابة. هذه المرة تركت رسالة تطلب منه الرجاء أن يعاود الاتصال بها.

عند البار، تبادل السكيران الأماكن. الذي كان نائمًا بات يجادل النادل الآن. ورفيقه انهار فوق الطاولة.

ربما سيجارة لتصفية ذهني.

في الخارج، جلست على المقعد وأشعلت سيجارة "دانهيل" بأصابع مرتجفة. كان الفناء هادئًا. بدأت الأضواء تشتعل بينما كان الليل يتجمع فوق موسكو. في إحدى النوافذ رأت وميض شجرة رأس السنة. أحرقت ثلاث سجائر في هياج سريع خالٍ من المتعة. وعوت صفارات الإنذار في البعيد.

عادت آنا إلى طاولتها. كان كلا السكيرين يجادلان النادل الآن. وزوجان في إحدى طاولات الزاوية ينقران في أطباق الرنجة والخبز الأسود. بدا لها أن الرجل ينظر إليها بغرابة. ربما. مررت إصبعها فوق شفتها العليا، ولاحظت أنها تلمع بالعرق. مسحته في معطفها.

اتصلت بلوكا مرة أخرى. لا إجابة. تفقدت ساعتها.

دست الهدية والكونياك في حقيبتها وتجاوزت السكارى لتدفع للنادل. قالت:

– "إذا مرّ من هنا، أخبره أنني في الشقة."

قال:

– "سأفعل."

ثم تفحصها بقلق:

– "هل أنتِ بخير؟"

– "أنا بخير تمامًا."

– "هل تخلّف لوكا عن موعده؟"

– "لا أدري."

خرجت إلى ليل الشتاء، وصفارات الإنذار لا تزال تولول. صوتها يعلو وهي تسير باتجاه الشقة. تعثرت فوق بروز متموج من بلاط "بليتكي" المشوه، وكبحت

سقوطها بيديها قبل أن تتدحرج في كومة من الثلج الأسود. انزلقت محتويات حقيبتها في الطين المتجمد. تفحصت رقعة الشطرنج. الورق تمزق. ونصف شريط الزينة تلطخ بالطين. مسحته بكمها لكن ذلك لم يؤدِ إلا لتبقع الورق. شتمت مرة أخرى.

المزيد من صفارات الإنذار. نظر إليها عابر سبيل، عبس بوجهه، وواصل سيره. حشرت آنا رقعة الشطرنج نصف حشرة في حقيبتها، وانتزعت زجاجة الكونياك من الثلج، وعدلتها فوق حجر رصيف بين ساقيها. وبينما لا تزال جالسة، اصطادت هاتفها من الحقيبة واتصلت به مرة أخرى.

لا إجابة.

وقفت وهي تشتم، وقذفت زجاجة الكونياك نحو الشارع، لكنها لم تنكسر. نزلت إلى الطريق ورفعت يدها لسيارة قادمة كي تتوقف، لكن السائق ضغط على البوق، ومضت مصابيحه الأمامية، فقفزت هي إلى الجانب في اللحظة الأخيرة وصرخت بينما انطلقت السيارة مسرعة. ثم التقطت الكونياك وحطمت الزجاجة بشكل قاطع. هزت امرأة عجوز على الرصيف رأسها وكأنها تقول "أطفال سكارى ملاعين". طقطق حذاء آنا فوق الزجاج المكسور، وضمت حقيبتها بقوة إلى جسدها وتركت المرأة خلفها.

شمت رائحة الدخان قبل لحظات من انعطافها نحو شارع "كل العطلات". كانت أضواء زرقاء وحمراء تتراقص على بقعة من الجليد في الطريق، وعلى الزجاج الأمامي لسيارة متوقفة، وفي النوافذ المظلمة لمبنى الزاوية.

عندما التفتت حول الزاوية رأت شاحنات الإطفاء، وغزا دخان لاذع أنفها. ليس دخان خشب. بل دخان كيميائي خبيث. كانت ألسنة اللهب تهرب من النوافذ.

نوافذي.

عمود كثيف من الدخان يرتفع فوق شقتها.

ركضت نحو الشاحنات.

كانت الخراطيم تتدفق نحو الشقق المجاورة. ربما فقدت وعيها للحظة، لأنه عندما استطاعت التفكير مجددًا كانت تجادل أحد رجال الإطفاء وكان هناك اثنان آخران يقفان بالجوار. انتابها شعور زاحف بأنها ضربت أحدهم، لأنه كان يفرك فكه ويتمتم بأنها مجنونة. ظل يردد: "الحريق كان كبيرًا جدًا، وساخنًا جدًا، وصلنا متأخرين للغاية. لا يوجد أحد في الداخل. لا يمكننا إنقاذ شقتك. يجب أن نمنع النيران من الانتشار."

ربما ظنوا أنها ثملة. الكونياك كان متناثرًا على حذائها وبنطالها، وعيناها زائغتان، وهناك هدية مهترئة مربوطة بشريط طيني تطل من حقيبتها المتسخة. تركوها وشأنها. تحرك رجال الإطفاء هنا وهناك، وشاحنات تغدو وتروح، وحشود خفيفة تتجمع وتتفرق.

ظلت شقتها تحترق وقتًا طويلًا.

عندما استحالت النيران إلى جمر وصار القصر أخيرًا هيكلًا أسود، التفتت لترى رجلًا عجوزًا محني الظهر يقف بجانبها يتفحص المنزل الميت. كان يرتدي معطفًا عسكريًا أسود وقبعة "أوشانكا" رثة ونظارات مستديرة بإطار سلكي. بدا وكأنه هرب للتو من صورة فوتوغرافية لستالينغراد. كان يقبض على طرد طويل تحت ذراعه.

سأل:

– "هل كان منزلك؟"

قالت:

– "نعم."

لمعت عيناه خلف النظارات السميكة، وبلل لسانه شفتيه. فكرت أن الطرد كان بطول الصندوق الذي تركوه في إسطبلات "روس-فارم" تقريبًا. ربما أقصر، كان من الصعب التحديد في الظلام. جعلتها طاقته ترغب في الهرب. شعرت وكأنها تلك الخيول المسكينة المحاصرة في إسطبلاتها.

شيء ما قطر من زاوية الطرد. سقطت قطرة أخرى على الأرض. تق.. تق.. تق. بقع حمراء على الثلج. هل كان هذا الرجل في إسطبلاتها؟

دفع الطرد بين يديها، والدم يقطر من الزاوية، يبلل قفازيها. لاحظت الآن كم هو قصير القامة، أقصر منها حتى، لأنه اضطر لرفع الطرد كي يطال ذراعيها. كان يلعق شفتيه، ويضغط الورق المبلل ضد جسدها، ولسانه يبرز قليلًا، وعيناه تلمعان بتركيز. والطرد المبلل في يدها، تراجعت خطوة للوراء.

قال:

– "أرسلني تشيرنوف لأخبركِ بهذا: كانت هناك تضحية. وسارت الأمور بشكل سيء يا آنيا. سارت بشكل سيء لأنكِ لم تستمعي. أحيانًا تكون التضحيات حلوة، وأحيانًا تكون روسيا رحيمة، لكن ليس دائمًا. ليس دائمًا، يا مساكين. وأحيانًا تكون هناك رسالة في التضحية، لكن هذه المرة لا توجد. الرسالة في هذه التضحية هي العقاب فقط."

ثم عدل نظارته، واستدار، ومضى مبتعدًا.

***

لم تعلم آنا كم مرة سقطت في طريق العودة إلى "أوستوجينكا"، لكن في مرحلة ما كانت شفتها قد انشقت وأصيب خدها برضوض بسبب الجليد. عندما فتحت شقتها، توقعت نصف توقع أن ترى الشيطان العجوز الصغير هناك. أغلقت الباب خلفها ومسحت المكان بعينيها؛ بضع كتل من الضوء تترقرق عبر النوافذ الكبيرة

إلى بئر الظلال الذي كان غرفة معيشتها. على الأقل، بدت فارغة. كانت أنفاسها متقطعة.

تهالكت على الأرض وبدأت بفك غلاف الطرد. هل ذبح أولئك الحيوانات بينيلوبي؟ ربما هذا هو شعور الصدمة، لأن الأشياء تحدث فحسب وأنا لا أستطيع استيعاب شيء. كانت تطفو فقط، لا تستطيع التفكير، بالكاد تدرك أين هي. سحبت الورق للخلف.

جلد هذا الحصان أبيض.

هذا جلد بشري.

ذراع بشرية.

ذراع لوكا.

***

بعد أن تقيأت، وبعد أن بكت، وبعد أن قلبت أرفف الكتب وحطمت طاولة القهوة إلى شظايا ومزقت الصور العقيمة من على الجدار وركلت ثقوبًا في الجص، ذهبت آنا إلى غرفة النوم وجلست على كرسي لبقية الليل، وعيناها الزرقاوان الباردتان تلمعان بالكراهية.

الفصل السادس والأربعون

موسكو / الطريق إلى روس-فارم

ومع بزوغ الفجر، كفّنت ذراع لوكا بغلاف بلاستيكي ووضعتها فوق الثلج داخل حوض الاستحمام، ثم أحكمت تغطية الحوض بالبلاستيك نفسه، وأغلقت باب الحمام وحشرت قفازات "النيتريل" في شقوق الباب لمنع تسرب أي رائحة. لم تكن واثقة مما يجب فعله غير ذلك.

إن رجال تشيرنوف يزرعون أجهزة التنصت في هذه الشقة، هكذا حدثت نفسها، وهم من سيتولى الأمر.

ثم انهمكت تفرك بلاط المدخل حيث سقطت منها اللفافة في الليلة السابقة؛ فلم تكن راغبة في ترك دماء لوكا واضحة على الأرضية هكذا.

وفي حمام الضيوف، اغتسلت لتزيل آثار الدماء عن يديها وعن شفتها المشقوقة، ثم وضعت مساحيق التجميل بحذر لتخفي الكدمة التي تعلو خدها، وارتدت ملابس نظيفة.

سحبت من الخزنة الموجودة داخل غرفتها ظرفًا محشوًا بعملة اليورو، واختارت حقيبة يد أخرى، ثم غادرت واستقلت المترو متوجهة إلى جامعة موسكو الحكومية. تجولت في الحرم الجامعي والأحياء المجاورة لساعات عدة، حتى أقنعت نفسها بأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء مراقبتها جسديًا. كانت تعلم أن هاتفها مراقب بالطبع، وكذلك الشقة، وعلى الأرجح وضعوا جهاز تتبع في سيارتها. إنهم يعرفون مكانها، فما الداعي لتتبع خطواتها؟

راحت آنا تشق طريقها وسط الحشود باحثة عن الملامح المناسبة: طالبة شابة، لا يبدو عليها الثراء، وديعة، ذكية، وعيناها توحيان بسرعة التأثر.

وخارج قاعة المحاضرات، اقتربت خلسة من شابة ترتدي معطفاً أبيض من طراز "دوبليونكا"، لا يتجاوز عمرها العشرين. ابتسمت لها بإشراق وقالت بصوت حازم:

- "مرحبًا. هل أنتِ ذاهبة إلى المحاضرة؟"

أجابت الشابة مندهشة:

- "بعد بضع دقائق."

ثم توقفت عن المشي وضيقت عينيها متسائلة:

- "هل أعرفكِ؟"

هزت آنا رأسها قائلة:

- "لقد نسيت هاتفي في شقتي، فهل يمكنك مساعدتي؟"

- "حسناً، بالتأكيد."

بدأت الشابة تعبث في حقيبتها.

وضعت آنا يدها على ذراع الشابة بلطف ولكن بسلطة واضحة، وقالت:

- "هل يمكنك شراء هاتف لي؟"

دب الخوف في أوصال الشابة، فتجمدت ذراعها في منتصف الطريق داخل الحقيبة ولم تتحرك.

وبخفة شديدة، دسّت آنا ظرف النقود من جيب معطفها إلى حقيبة الشابة المفتوحة، وقالت عيناها بوضوح: انظري.

فتحت الشابة الظرف مواربة، فاتسعت عيناها لرؤية النقود التي تزيد قليلًا عن ألفي يورو، وامتزجت في نظرتها مشاعر الخوف والإثارة على حد سواء.

سألتها آنا:

– "اشتر لي هاتفًا، لا أريد (آيفون)، فإشارته سيئة وكل هذه التفاصيل التي تعرفينها. ربما هاتف (نوكيا) قديم؟ لا أريده هاتفًا ذكيًا، بل من النوع القابل للطي. واحتفظي بالباقي لنفسك."

رددت الشابة وهي تعض على شفتها:

– "أحتفظ بالباقي؟"

تابعت آنا:

– "نعم. ومقابل احتفاظك بالباقي، ستفككين الهاتف بعد شرائه: بطاقة الاتصال، والبطارية، وكل شيء. فككيه خارج المتجر وضعي كل القطع في الكيس، ثم تعودين به إليّ. هل تفهمين؟"

– "نعم."

– "هل تعرفين متجر إلكترونيات قريبًا من هنا؟"

– "يوجد واحد بالأسفل قرب شارع لينينسكي. علي مسافة قصيرة مشيًا."

– "وهل ستلحقين بمحاضرتك؟"

تحققت الفتاة من الوقت في هاتفها وأومأت برأسها.

قالت آنا:

– "حسنًا، ما رأيك؟"

كادت أسنان الفتاة المسكينة تخترق شفتها السفلى من شدة التوتر، وسألت:

– "أعود به إليك هنا؟"

هزت آنا رأسها رافضة:

– "لا. يوجد زقاق صغير خلف المبنى المقابل للساحة."

وأشارت برأسها ثم أردفت:

– "أحضريه هناك. وشيء آخر... تأكدي من شحنه لبضع دقائق على الأقل قبل مغادرة المتجر."

أمضت آنا عشرين دقيقة تجوب أرجاء الحرم الجامعي بخطوات ثقيلة للتأكد من خلو المكان من المراقبين؛ ولما لم تعثر على أحد، قابلت الفتاة في الزقاق وتسلمت منها الكيس الذي يحوي قطع الهاتف.

عادت إلى المرآب أسفل شقتها، واستقلت سيارتها من طراز "رينج روفر" واتجهت شمالًا خارجة من موسكو. وبعد ساعة من القيادة، توغلت عميقًا في الغابات الروسية اللامتناهية، وركنت السيارة على جانب الطريق. وضعت هاتفها الـ (آيفون) في درج القفازات، وبعد أن تأكدت من خلو المكان من حولها، حملت الكيس بقطع الـ (نوكيا) وسارت وسط الغابة.

بعد عشر دقائق وصلت إلى فسحة صغيرة، وركّبت الهاتف، ثم طلبت رقمًا كانت قد حفظته عن ظهر قلب مع سيا في سويسرا. لم يكن حلًا دائمًا، لكن حاسوبها المحمول قد ضاع وتلاشى في الحريق.

وكما توقعت، لم يجب أحد. جاءها صوت روسي يفيد بأن شركة كي إل بي لخدمات الشحن تعتذر عن عدم الرد، ويرجى ترك رسالة ليقوم أحد الموظفين بالاتصال فورًا.

في رسالتها، أوضحت آنا أن ثمة مشكلات واجهت الشحنات، وأنها لن تتمكن من السفر للقاء العملاء لحل تلك المشكلات، وتمنت لو كانت هناك طريقة أفضل

للتحدث إلى "الناس الطيبين" في شركة كي إل بي لخدمات الشحن، لكن "حادثًا مؤسفًا" قد وقع. هذا كل ما تملكه الآن. وأوضحت أن زيارة من "الأصدقاء" قد تكون مفيدة لإصلاح مشكلة الاتصالات، وأشارت إلى أنها لن تحتفظ بهذا الرقم طويلًا؛ ربما ليس أكثر من ثلاثين دقيقة. أغلقت الخط، ونفضت الثلج عن جذع شجرة وجلست تحدق في الأشجار.

بعد خمس عشرة دقيقة، اتصل رجل قال إن اسمه أناتولي. وسأل عما إذا كانت آنا ستحتفظ بهذا الرقم مستقبلًا، فأجابت بالنفي.

سألها:

– "هل يمكننا استخدام بريدك الإلكتروني المصرفي؟"

أجابت:

– "لا أظن ذلك. مشاكل تقنية."

قال أناتولي:

– "فهمت."

ساد صمت قصير ثم سأل:

– "إلى أين تتجهين بالضبط؟"

– "المزرعة."

– "فهمت."

قالت آنا:

– "أريد رؤيتها. هل تفهم؟ أخبرني أنك تفهم يا أناتولي."

– "أنا أفهم."

تابعت آنا:

– "يجب أن يأتوا في أقرب وقت ممكن. سيحضرون معهم المعدات، لكن الأهم من ذلك كله أن يحضروها هي. أريد أن أنظر في عينيها وأطرح بضعة أسئلة. إذا هبطوا في مطار بولكوفو ربما أستطيع ترتيب الأمور. يجب أن تأتي معه، وإلا سيبدو الأمر مريبًا. ليأتوا ومعهم أخبار جيدة عن حصان، أو صفقة بيع. يمكنهم اختلاق شيء ما."

عرض عليها:

– "ربما تسافرين أنتِ لرؤيتنا؟"

هسهست بصوت حاد:

– "لا. تباً. أخبرتك أنني لا أستطيع. ليس الآن. قل لي أنك تفهم."

– "أنا أفهم."

أغلقت الخط. فككت الهاتف ووضعت مكوناته في الكيس، وعادت أدراجها بصعوبة نحو سيارتها.

خارج مدينة كيريشي، توقفت آنا عند محطة وقود وأخذت هاتف الـ (نوكيا) إلى الحمام. تحققت من المقصورات لتتأكد من أنها وحدها، ثم حطمت الهاتف إلى فتات، ولم تتوقف إلا لترمي القطع في المرحاض وتدفق المياه.

وعندما انتهت، واصلت طريقها. إلى روس–فارم.

الفصل السابع والأربعون

لانغلي

أثارت إشارة الطوارئ التي أرسلتها بيرسيفوني حالة من الهياج المحموم في الطابق السابع بمقر وكالة الاستخبارات المركزية؛ فالجميع أراد أن ينهش قطعة من الكعكة. كانت بروكتر قد استماتت لإبقاء الدائرة ضيقة، لكن شهية المدير كانت قد انفتحت، وحين يتذوق المدير شيئًا، فهذا يعني عقد اجتماعات؛ تلك النوعية من الاجتماعات التي يتجلى فيها فجأة حشود من البيروقراطيين التافهين الملتصقين بمكاتبهم، ليدونوا الملاحظات ويشاركوها مع منظماتهم الفرعية عبر قوائم بريد إلكتروني واسعة النطاق، لدرجة أنها قد تشمل عمال الصيانة ذوي السترات الخضراء الذين يراقبون أطقم التنظيف غير المصرح لها أمنيًا وهي تعمل على صيانة المراحيض.

صرخت بروكتر عبر الهاتف:

– "هذا ما يحدث يا إد... سيحصل عمال المراحيض المعتوهون على هذه المعلومات الاستخباراتية. سنرى اسم بيرسيفوني الحقيقي ملطخًا على صفحات الجرائد بحلول الوقت الذي أنتهي فيه من التقيؤ بعد الاجتماع. وسيكون تقيؤًا ناجمًا عن القرف يا إد؛ سأتقيأ اشمئزازًا وحنقًا. هذا الاجتماع ليس إلا كومة من اللحم البشري المكدس، بكل بساطة. يجب أن نقلص هذه القائمة لتقتصر عليّ وعليك، وربما المدير. علينا أن نجعل الأمر شبيهًا بتلك الاجتماعات الحاسمة في أفلام الجاسوسية حيث لا يتجاوز عدد المشاركين في العملية ثلاثة أشخاص كحد أقصى."

كان برادلي قد أغلق الخط في وجهها.

وقفت بروكتر الآن في ردهة الطابق السابع خارج قاعة مؤتمرات المدير. كان هناك حشد يناهز العشرين شخصًا ينتظرون انفتح الباب، حيث استطال اجتماع تحديثات مكافحة الإرهاب بعد الظهر أكثر من اللازم.

كان برادلي هو من فتح الباب أخيرًا، وقال:

– "المدير لن يتمكن من الحضور. أنا من سيدير الجلسة. ليدخل الجميع."

استولت بروكتر على مقعد بجواره. تدفق حشد الردهة إلى داخل الغرفة الصماء الخالية من النوافذ، يملؤون المقاعد الجلدية الضخمة حول الطاولة الطويلة، والكراسي الخلفية غير المتناسقة المصطفة عند الجدران. سحب أحد المحللين – يا للجرأة الوقحة، يجلس على الطاولة الرئيسية! – نقاط الحديث من ملف وكأن أحدهم قد طلب إيجازًا بائسًا عن روسيا. كان الجدار خلف مقعد برادلي مكتظًا بالساعات، لكن خلافًا لمعظم الساعات في المقر الرئيسي، كانت الأرقام الحمراء في قاعة مؤتمرات المدير متزامنة بدقة تامة.

وقبل أن يتمكن برادلي من فتح فمه، انبرت أرتميس أفروديت بروكتر تلقي خطابًا لم يطلبه أحد. أعلنت أنه لن يكون هناك محاضر للاجتماع، ولا نسخ نصية. تمكن أحد محللي قسم "موسكو إكس"، الجالس في الصفوف الخلفية بالزاوية بعيدًا عن ناظريها، من تدوين بعض الملاحظات خلسة، لكن سرعان ما تملكه الرعب فلم يجرؤ على توزيعها لاحقًا. ولو فعل، لكان زملاؤه قد حظوا بخطبة تتوعد بالأذى الجسدي والوظيفي والعاطفي والنفسي والروحي لأي شخص يكرر ولو كلمة واحدة من هذه المناقشة. وحين انتهت، افتتح برادلي الاجتماع وطلب من بروكتر توضيح الموقف.

استهلت بروكتر الحديث عن إشارة الطوارئ التي أرسلتها بيرسيفوني عبر الوسيط. قالت:

– "وتعرفون ماذا؟ أنا أصدقها. الفتاة كانت منتجة، وقد تجاوزت الكثير من الخطوط، ولدينا نتائج نظيفة تمامًا من جهاز كشف الكذب، وعلاوة على ذلك، هي تستمع إلينا حقًا. لقد التقط عميل داعم – دون علمه، متظاهرًا بأنه سائح في ساحة راستريلي – صورة لتمثال الحصان في مكتب بيرسيفوني بالبنك. التمثال لا يفعل شيئًا بالطبع، إنه مجوف، لكنه اختبار، وقد اجتازته. فعلت ما طلبت منها فعله في سويسرا. وقد أكد التقنيون أن جهاز الاتصال السري (clancomm) الخاص بها غير نشط، لذا فإن إشارة الطوارئ تبدو منطقية."

أقرت بروكتر بأنه من الوارد دائمًا أن أمرها قد كُشف، وأن "سكان الكهوف" المترهلين المتصببين عرقًا من جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) هم من يسيطرون على الطرف الآخر من هذه الاتصالات، لكنها تساءلت مستطردة:

– "لماذا يتكبدون عناء تعطيل نظام الاتصال السري واستخدام الوسيط؟ يبدو أمرًا غير ضروري. لدينا أيضًا تسجيل لنداء استغاثة بيرسيفوني. يقول اختصاصي نبرات الصوت في الخدمات الطبية إنها تبدو غاضبة أكثر منها خائفة، وهو ما أعتبره دليلاً ينفي وقوعها تحت سيطرة معادية."

قال برادلي:

– "حسنًا يا أرتميس. لنفترض أننا نصدق بيرسيفوني. ولكن ما الذي سنجنيه من إرسال أحد ضباطنا أو كليهما إلى الداخل الآن؟ لدينا الكثير لنخسره – تمامًا كما في المرة الأولى – ولكن الآن، مع تعاون الروسية، ما العجلة؟ إن زرع جهاز كمبيوتر داخل روسيا ليس نزهة، ولكن يمكننا في النهاية إيصال حاسوب محمول جديد لـ بيرسيفوني دون تعريض رجالك للخطر مرة أخرى."

عقبت بروكتر قائلة إن هناك بضع مشكلات تشوب وجهة نظر "الانتظار والترقب" تلك:

– "إحداها أن بيرسيفوني ترس ضروري في هذه العملية؛ في الواقع، هي الترس الرئيسي. معلوماتها تجعل الأمر ممكنًا، ويجب أن نكون في تواصل فوري

معها عندما نبدأ لأننا بحاجة لمعرفة كيف تسير الأمور أو إن كنا بحاجة لتعديل الخطط. المشكلة الثانية والأكبر في خيار الانتظار، هي أنه يترك بيرسيفوني وحيدة ومعلقة. هناك جانب عاطفي رخو هنا، لا يمكن إنكاره. لدينا عميلة على الأرض داخل روسيا تقدم المعلومات، وتريد أن تعرف ما إذا كانت تحركاتنا ستدمر حياتها. ولدينا أشخاص يمكنهم السفر إلى روسيا. في الواقع، لدينا منصات مصممة لمثل هذا السفر."

أضافت بروكتر:

– "نحن مدينون لـ بيرسيفوني بأن نمنح الأمر محاولة."

وبهذا أومأت برأسها لـ برادلي إشارةً إلى أنها انتهت.

فكر برادلي للحظة، شابكًا يديه وموجهًا رأسه نحو السقف، ثم التفت إلى بروكتر وقال:

– "لن أقول نعم أو لا اليوم. أريد مقابلة العملاء السريين (NOCs). رتبي الأمر."

الفصل الثامن والأربعون

سان كريستوبال

راقب ماكس مُهرًا صغيرًا قلقًا يقضي حاجته في الرمل، بينما تحلّق حوله حشد من وكلاء الخيول الأصيلة والمستشارين الأمريكيين، الذين تفرقوا في أرجاء حلبة العرض في سان كريستوبال؛ لمعاينة تلك الخيول التي آثر ماكس حجبها عن مبيعات كنتاكي لتكون حكرًا على هذا المزاد الخاص. قاد أحد السواس مُهرًا كستنائيًا نحو الحلبة، ففتح ماكس سجل البيع وبدأ مدربه في سرد المزايا: النسب، ثم التكوين الجسدي؛ القوائم، وضوح العضلات، بنية العظام، وطول العنق مقارنة بالرأس. راق لـ ماكس ذلك التناسق في القوائم، بينما انهمك الوكلاء في التدوين بدفاترهم بحماسة محمومة.

دخل مهر ك بلون بني محمر يتهادى في مشيته. كان له اسم بالفعل: السيد أخطبوط. أشار ماكس لأحد مدربيه ليتبادل الحديث مع بعض الوكلاء.

ركل ماكس التراب الذي بللته أمطار خفيفة هطلت في الصباح الباكر. إن مشهد رجاله، وهذه المهور الحولية، والضباب العالق فوق أرض أجداده؛ كل ذلك أثار القلق في نفسه. لم يذق طعم السكينة منذ عودته إلى سان كريستوبال؛ فالنوم كان مضطربًا، وصدره يعتصر انقباضًا. بدت الحياة أكثر هشاشة، وكأن عاصفة هوجاء كانت تتجمع ببطء حول عالمه، وها هو الآن – أخيرًا – يرى بوضوح مخيف كتلة سوداء من سحب الرعد تزحف نحو مزرعته. دخل مُهر آخر إلى الحلبة بخطوات واسعة ورشيقة.

جميل، هكذا فكر، نبيل.

منذ اليوم الذي أُطلع فيه على سر العائلة، تم إعداد ماكس ليعتبر سان كريستوبال ووكالة الاستخبارات المركزية (CIA) شريكين متبادلين؛ فما هو صالح لأحدهما صالح للآخر. وكانت تلك الدفقات الصغيرة من الأدرينالين – الناتجة عن توجيه الـ CIA نحو صيد ثمين أو زرع فيروس مخيف في حاسوب أحد الأهداف – بمثابة مكافآت على الخدمة، ليس لـ لانغلي فحسب، بل لـ سان كريستوبال نفسها.

لكن ما تعرضت له سيا في روس-فارم أعطاه لمحة مسبقة عما قد يفعله الروس العازمون إذا حُشروا في الزاوية، وجعله يتساءل عما إذا كانت هذه العملية لم تعد مجرد ضخ للأدرينالين في خدمة الوكالة ومزرعته، بل أصبحت دعوة إلى مِقصلة الجزار. كان يعلم أن المخرج بسيط: أن يقول "لا، لقد انتهيت". ولن تمنعه الـ CIA.

على العشاء، استمع ماكس إلى الوكلاء وهم يسردون القصص؛ عن القوارب، والسيارات، والفلل، والبنادق، والفراء، والساعات، وبائعات الهوى، والقفز بالمظلات، والكوكايين، والهيروين. كانت نكاتهم تهبط بثقل الجثث على الرصيف. وفي منتصف حكاية ملتوية عن مطاردة دب في ألاسكا تحت تأثير السكر، رفع ماكس هاتفه الذي كان يهتز واعتذر لضيوفه. أعلن قائلًا:

– "لدي بعض الأعمال يجب أن أنجزها، أراكم في الصباح."

احتسى ماكس مشروب الـ "مِسكال" وتفقد الرسائل الواردة من بروكتر. كانت هناك رسالة واحدة فقط، برقية عاجلة له ولـ سيا.

1. أطلقت "بيرسيفوني" إشارة طوارئ في 13 ديسمبر. في محادثتها مع "الوسيط"، طلبت اجتماعًا عاجلاً وجهًا لوجه في "روس-فارم"، مشيرة إلى أنها لا تستطيع السفر خارج روسيا.

2. نطلب اجتماع تخطيط في منشأة التحضير العملياتي "كاتفيش" بعد ظهر/مساء يوم 18 ديسمبر. يرجى التأكيد في أقرب وقت ممكن. تحياتنا.

تجول بلا هدف في المكتبة وبيده كأسه. تصفح المجلد الجلدي الذي يضم كل حصان وسلالة منذ تأسيس سان كريستوبال، وفكر فيما قد يظنه والده وجده به. أمر سخيف، فكّر في نفسه، أن أمنح الأسلاف حق التصويت الآن. لقد عاشوا حياتهم، واتخذوا خياراتهم، وهذه هي رقعته هو من الأرض. ماذا عسى العجوز أن يقول أصلًا؟ تساءل عن ذلك. ثم أطفأ ماكس أنوار المكتبة، وارتدى معطفه، واتجه نحو "المُصلى"؛ ضريح والده الحي.

لعدة دقائق، تبادل الحديث مع أحد الموظفين، بينيتو ممتلئ الوجه، الذي كان مناوبًا للحراسة منذ نوبة غضب والده أثناء زيارة الروسي. أشعل بينيتو سيجارة "مارلبورو" وعرض واحدة على ماكس. لمَ لا؟ إنها ليلة تليق بذلك. دخنا في هدوء الظلام حتى ومض ضوء من غرفة نوم والده في الطابق الثاني. كان الوقت متأخرًا، ورأس ماكس يسبح في المِسكال، لكنه دلف إلى الداخل رغم ذلك.

كان أثاث "المُصلى" القديم حديث العهد – فقد جدده لوالده قبل عامين – لكنه كان يحمل رائحة كرات العث والغبار والبول القديم التي تلتصق بأولئك الذين يعيشون دوامة الحياة الأخيرة. كان الماضي يزين الكوخ: حليّ رخيصة، صور عائلية، تذكارات من أمجاد الإقطاعيين القدامى. لم يقو ماكس على النظر إلى أي منها. قفز صاعدًا الدرج. انبعث خط وحيد من الضوء من الغرفة ليمتد على أرضية الممر. كان صوت صنبور المياه يتدفق، وكان والده يغني.

De esos caballos

Que vende usted

Ninguno me gusta

Coma el que se fue

جذبت الكلمات خيطًا محاكًا بعمق في نسيج السنين، وعاد ماكس طفلًا في الرابعة، يتظاهر بأنه يحلق ذقنه بجوار والده، بينما يصدح العجوز بأغاني الأطفال عن الخيول.

Hágase pa’cá

Hágase pa’llá

Que mi caballito

Te derribará

تعال إلى هنا

تعال إلى هناك

لأن حصاني الصغير

سيُسقطك أرضًا

خطا ماكس إلى بقعة الضوء. كصبي، كان يجد العجوز عصيًا على الوصول؛ بعيدًا ومنغلقًا، سريع الغضب وبطيء الابتسام. وكرجل، تمنى ماكس لو كان لديهما مزيد من الوقت، ومزيد من الفرص. نادى قائلًا:

– "أبي، أبي، إنه أنا، ماكسيميليانو."

طرق الباب عدة مرات ودفعه برفق لينفتح. أطل العجوز بوجه نصف محلوق من الحمام وابتسم. سقطت كتل من معجون الحلاقة على الأرض.

قال الأب:

– "بني. اجلس، اجلس."

جلس ماكس بهدوء على حافة السرير وراقب العجوز وهو يحلق.

قال والده:

– "رأيت رجالًا يتجولون معك في الأنحاء اليوم. من هم؟"

كان هذا أكثر سؤال متصل بالواقع يطرحه والده منذ شهور. كان الأمر مفاجئًا.

قال ماكس:

– "وكلاء ومستشارون. من كنتاكي."

– "هل دفعتك الوكالة لذلك؟"

ما هذا؟

أجاب ماكس:

– "لا، هذا جزء من العمل اليومي المعتاد. مزاد خاص. أنا أعمل على شيء آخر مع الوكالة."

سُمع قعقعة ماكينة الحلاقة على الخزف، وصوت شطف الشفرة بالماء.

– "إذن، ما هي خطة الوكالة؟"

جفف والده وجهه بالمنشفة، ثم صفع وجنتيه بسائل "أكوا فيلفا". كانت الزجاجة الباهتة توحي بأن سائل ما بعد الحلاقة قد صُنع قبل أن يضل عقل الأب سبيله. إلى متى سيستمر هذا الصفاء؟ ماذا يجب أن يقول ماكس؟ لم يكن يعرف؛ حاول فقط أن يبقي الحوار مستمرًا.

– "أستهدف رجلًا يدير مزارع خيول لصالح الرئيس الروسي. كما أنه يساعد في إخفاء الأموال. كنا نعمل عليه للوصول إلى بعض تلك الأموال."

صفر والده وقال:

– "«كنا نعمل»؟ بصيغة الماضي؟"

– "كانت زوجته هي المدخل الأفضل."

جفف والده يديه وارتدى رداءً منقوشاً بالأحرف الأولى من اسمه. التقط من المنضدة الجانبية نسخته الأولى من رواية المؤامرة المغولية، وهي رواية جريمة سوداوية تدور أحداثها في مكسيكو سيتي. كانت إحدى الروايات المفضلة للعجوز. غاص في مقعد قراءة جلدي متشقق كان يزين مكتب جده يومًا ما، ووضع نظارة القراءة، وفتح الكتاب على صفحة بدت عشوائية. راح يصفر المقطع الأخير من الأغنية القديمة وهو يقرأ.

تعال إلى هنا

تعال إلى هناك

لأن حصاني الصغير

سيُسقطك أرضًا

هل رحل؟ بهذه البساطة؟

– "أبي؟"

بدت الغشاوة التي كانت تتشكل على عينيه تنقشع قليلًا. انزلقت النظارة لأسفل أنفه وهو ينظر لأعلى.

قال وهو يرمش ويضع إصبعه في أذنه:

– "آه نعم، الروسي. ماذا ستفعل بشأنه؟"

– "نعتقد أن لدينا طريقة للوصول إليه."

– "جيد، جيد." ثم صمت لحظة وأضاف: "لكن من هم «نحن»؟ ألست وحدك؟"

– "الأمر معقد."

ضحك والده ضحكة عميقة هزت بطنه. جعل ذلك ماكس يبتسم؛ فلم يتذكر أن والده ضحك بهذه الطريقة من قبل.

قال والده:

– "أنا رجل عجوز، إلى أين أنا ذاهب؟ احكِ لي القصة."

أخبره ماكس عن بروكتر، وسيا، وآنا، وفاديم. من البداية وصولًا إلى ما هو عليه الآن، والتي أمل أن تكون النهاية. أخبر والده بمخاوفه – على المزرعة، وعلى مستقبله.

قال والده:

– "أتعلم، كان هناك وقت في منتصف الثمانينيات قلقنا فيه من أن بعض عملياتنا في السعودية قد كشفتنا. كنت أنا وجدك قد حصلنا على إمكانية الوصول إلى بعض أفراد العائلة المالكة، واعتقدت الـ CIA أنهم ربما اكتشفوا أمرنا. تحدثنا عما سيحدث. هل سيتواصلون مع مكسيكو سيتي للتحقيق؟ هل سيدفعون لشخص ما ليحرق المزرعة؟ أم سيتركون الأمر يمر؟ في النهاية مر الأمر، لكن كان علينا التفكير في اليوم الذي سينكشف فيه مشروعنا المشترك الصغير للنور."

– "وماذا قررتما؟"

عادت تلك الضحكة العميقة مجددًا.

– "حسنًا، تلك كانت المشكلة. لم تكن هناك إجابة جيدة أبدًا. بالطبع، كانت الوكالة سترتب دائمًا لإقامة في أمريكا تحت حمايتهم، لكننا لم نرغب في ذلك قط. هذا هو الوطن. لا مكان للهرب. قررت أنه إذا وجد أي شخص هذا المكان يومًا ما، فسأجلس ببساطة على الشرفة وبيدي مسدس وأنتظر. لا شيء آخر يمكن فعله يا ماكسيميليانو. لقد اتخذنا خياراتنا."

قال ماكس:

– "رغم ذلك، يمكنني الانسحاب."

مرر والده أصابعه على الغلاف المهترئ للرواية.

– "نعم يا ماكسيميليانو، أفترض أنك تستطيع. إذن، لمَ لا تفعل؟"

– "ربما سأفعل."

– "ما الذي يمنعك؟"

فكر ماكس: وما هي الإجابة؟ عندما أصبح واضحًا أنه لا يستطيع صياغة الكلمات، ابتسم والده وقال:

– "عندما أخبرني جدك عن الـ CIA، أدركت أنني دُعيت إلى عالم سري لم أكن أعلم بوجوده حتى. كنت دخيلًا طوال الوقت، ثم فجأة، بوم، صرت يومًا ما في الحلقة الداخلية، وعيناي مفتوحتان على مصراعيهما للألوان النابضة بالحياة في ذلك العالم الرمادي. كانت لديك النظرة ذاتها عندما غادرنا لانغلي بعد زيارتنا الأولى، منذ زمن بعيد. نحن متشابهان في هذا الأمر يا ماكسيميليانو. تعتقد أنك إذا قلت لا، فسيتم نبذك. ستصبح خيالًا مكسيكيًا بلا وجه. مدنيًا."

أومأ ماكس برأسه قائلًا:

– "حتى لو كان الأمر أحيانًا مجرد هراء متخيل، تعجبني فكرة أن العالم يتحرك أحيانًا لأنني أشد الخيوط سرًا."

غمز له والده قائلًا:

– "أنا أيضًا يا بني. تلك الدغدغة في الخصيتين. هذا ما كان يعيدني دائمًا، ويجعلني أخاطر، وأقول نعم لـ لانغلي."

– "لا أريد أن أكون المدني الذي تنحى جانبًا ليترك سيا ولانغلي ينهيان المهمة."

– "هل هناك شيء بينك وبين سيا هذه؟"

– "لا أعرف. قراءتها صعبة. إنها معقدة."

– "وكذلك كانت أليخاندرا غارزا سادا."

ابتسم والده بمعرفة رجل كان مطلعًا تمامًا على الحقب السابقة للعلاقة، ولكن ليس على تاريخها الحديث الأكثر كآبة.

تابع قائلًا:

– "علاقة متقطعة في المدرسة الثانوية. ومتقطعة في الجامعة. ومتقطعة بعد عودتك إلى المنزل. أحبتك، وتلاعبت بك، وتركتك، ثم عادت تركض إليك، أو جذبتك إليها مرة أخرى. وهكذا دواليك. وهل تذكر ما قالته والدتك، ها؟ ابحث عن فتاة بسيطة وطيبة تعتني بك يا ماكسيميليانو. وبدلًا من ذلك طاردت أليخاندرا غارزا سادا، صاحبة الساقين الطويلتين الجميلتين والعينين الماكرتين. يبدو أنك تستمتع بالنساء المعقدات."

– "هل تعتقد أنه ينبغي عليّ العثور على فتاة بسيطة وطيبة يا أبي؟"

– "أنا لم أفعل."

– "أنت وجدت أمي."

– "وكيف تصف والدتك يا بني؟"

ابتسم ماكس، ثم مسح عينه. جلسا في صمت طويل، يبتسم كل منهما للآخر، وذقن الأب ترتجف بتناغم مع الجلد المحيط بعينيه.

قال والده أخيرًا:

– "أنت تحترم سيا.. كشريكة؟ كمحترفة؟"

– "يعجبني لعب اللعبة معها."

أضاءت عينا والده؛ صفق بيديه ووضع نظارة القراءة مرة أخرى.

– "إذن العب يا بني. العب."

فتح الكتاب على صفحة بداية جديدة وعاد للصفير. جعل اللحن ماكس يفكر، ليس في الأيام المنقضية لطفولة هانئة لم تكن ملكه حقًا، بل في تلك الأيام العادية قبل أن يتحدد مساره، عندما كان غافلًا عن الخيارات التي صُنعت بالفعل، وعن الساعات التي كانت تمضي ببطء بينما العجوز يحلق ذقنه.

عندما توقف الأب عن الصفير، نادى ماكس اسمه، لكن النظرة الزجاجية كانت قد استقرت في عينيه، وزمجر والده لـ بينيتو كي يغادر. قال: "أنا رجل عجوز، أحتاج أن أرتاح يا بينيتو. أحتاج أن أرتاح."

في طريق خروجه، قبل ماكس جبين والده، ومع كل خطوة نزلها على الدرج، كان يدندن الأغنية القديمة عن الخيول.

الفصل التاسع والأربعون

وادي نابا – كاليفورنيا

لم يكن مسموحًا بوجود أي غبار رقمي، ولا مسارات سفر، ولا أرقام تسجيل طائرات تربط بين ماكس، وسيا، وبروكتر، وبرادلي. احتاج ماكس وسيا إلى غطاء للتمويه من أجل السفر إلى نقطة الاجتماع؛ إذ لم يكن لدى سيا، على سبيل المثال، أي سبب يدعوها للسفر إلى العاصمة واشنطن. ولو اكتُشف أمرها، لتساءل الروس عن سبب رحلة جوية من هيثرو إلى دالاس، ولشرعوا بعدها في التنقيب.

في المقابل، امتلك ضباط وكالة الاستخبارات المركزية غطاءً لرحلة إلى الطرف الشمالي من وادي نابا، وتحديدًا إلى مزرعة صغيرة يملكها شخص يُدعى هاري هاميلتون، وتؤوي حاليًا ثلاثة خيول نُقلت خلال زيارة حديثة إلى سان كريستوبال. استقل برادلي وبروكتر طائرة "بومبارديبه" مستأجرة مملوكة لواجهة تابعة لفرع الطيران في الوكالة لم يُكشف غطاؤها بعد، بينما استقل ماكس طائرة سان كريستوبال الخاصة. أما سيا، فقد سافرت على متن رحلة تجارية من هيثرو، مرتبةً بضعة اجتماعات في شركة "ليريك" لتبرير الرحلة أمام بيني هاينز. وتولى فريق مساعديها في لندن تغطية بقية أعباء عملها المنهكة لبضعة أيام.

وصلت سيا إلى المزرعة وهي تغالب إرهاق السفر الناتج عن فارق التوقيت في منتصف الصباح، ولحق بها ماكس بحلول الغداء. بعد قيلولة قصيرة على أريكة في غرفة حُوّلت إلى مكتب، شغلت سيا حاسوبها المحمول وفتحت سجل البرقيات الواردة.

كانت هناك رسالة واحدة. سطر الموضوع: تهانينا!

لقد تمت ترقيتها إلى الدرجة الوظيفية الرابعة عشرة (GS-14).

درجتها الرابعة عشرة. أمر جلل، وسابق للجدول الزمني بنحو عامين. جاء في البرقية أن مجلس مراجعة أدائها قد أُطلع على النقاط البارزة في عملية تجنيد "بيرسيفوني" وقرر ترقيتها خارج الدورة المعتادة، وبأثر فوري. كانت "الرؤوس" والغنائم هي ما يهم؛ وقد حصدت رأسًا روسيًا أشقر ذا أهمية بالغة. كانت سيا تشعر بالإثارة تجاه ترقياتها السابقة؛ ليس بسبب المال - فالرواتب الحكومية كانت هزيلة لدرجة تثير الضحك - بل لأنها كانت درجات في سلم تصعده. كانت الترقيات تعني أنها تنتصر، والنصر يجلب نشوة دافقة.

أين ذهب ذلك الشعور الآن؟

وجدت ماكس في الخارج عند حفرة النار.

قالت له:

- "لدينا بعض الوقت حتى يصلوا. لنذهب إلى مكان ما؟"

***

ذهبا لاحتساء شراب في مطعم بالقرب من كاليستوغا يُدعى "نادي ستيفز الاجتماعي". كانت القاعة الرئيسية طويلة، ذات أسقف عالية، ومقاعد جلدية مجنحة، وجدران مكسوة بألواح صفراء، مما أضفى عليها طابعًا يشبه نُزلًا في مخيم صيفي. استقرا على طاولة في زاوية هادئة وطلبا كأسين من النبيذ. شربا لبعض الوقت في صمت يليق بزوجين يعانيان من إرهاق السفر ويتشاركان وجبة.

قالت:

- "لقد تمت ترقيتي. عرفت ذلك للتو."

- "رائع. تهانينا. تستحقين ذلك بجدارة."

رفع كأسه محييًا، لكن كأسها ظل ثابتًا على الطاولة. أنزل كأسه وسأل:

– "ما الخطب؟ ألستِ سعيدة بذلك؟"

– "هل أبدو سعيدة؟"

– "لا تبدين سعيدة. هل تدركين أنك تبدين كذلك؟"

– "لم أكن أعرف ما إذا كنت أبدو سعيدة أم لا."

– "لكنك لا تشعرين بالسعادة؟ لماذا؟ ماذا قالوا؟"

– "قالوا إن «بيرسيفوني» صيد ثمين. وقد نُسب الفضل لي."

– "إذن أين المشكلة؟"

– "لست متأكدة."

توقفت نادلة لتتفقد طلباتهما، فلوح لها ماكس بالانصراف.

قالت سيا:

– "سأحكي قليلًا. وأنت استمع فقط، حسنًا؟"

– "ليس لدي مكان آخر أذهب إليه."

– "أجل، أنت عالق هنا."

قال:

– "كلانا عالق. وعمَّ سنتحدث على أي حال؟"

– "صحيح. بالضبط. القضية؟ لا، شكرًا. إذن سأحكي."

انفرجت شفتاها عن ابتسامة مترددة بدت وكأنها تقول: «حسنًا، لنفعل هذا». سألت:

– "هل سبق لك أن سرقت شيئًا؟"

– "ظننت أنني سأستمع فقط."

– "هل هذه «نعم»؟"

تصلب جسده في كرسيه وقال:

– "حسنًا، أظن أن الأمر يعتمد على الظروف."

قالت: "لا، اسمع، أنا لا أتحدث عن سرقة المعلومات. أتحدث عن أشياء مادية: سيارات، نبيذ، خيول".

سأل: "خيول؟".

قالت: "سرقت خيول. مرة واحدة. خلال صيف في كيب تاون. لا، هذا خطأ. مرتين. مرة في كيب تاون ومرة في تكساس. كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. على أية حال، الجزء الغريب هو أنني لم أحتفظ بأي شيء أبدًا. ليست هذه هي النقطة. سأحكي لك قصة: رجل يمتلك المزرعة المجاورة لمزرعتنا كان لديه شاحنة بيك آب كبيرة من طراز «كينغ رانش». سوداء. ونظيفة للغاية على عكس معظم مركبات المزرعة. لا مبرد بداخلها، لا بنادق، لا قمامة. نظيفة تمامًا. كان يغسلها. لم يكن للأمر أي معنى بحق الجحيم، لكنه كان يغسلها طوال الوقت. ذلك الرجل، كان اسمه ماسترسون، لم يسمح لأحد بقيادتها. كنت ترى تلك السيارة على طريق المقاطعة فتعرف أن ماسترسون خلف عجلة القيادة. الجميع يتركون المفاتيح في سياراتهم لأنه لا توجد جريمة حقًا في منطقة بيغ بيند. وبدأت أفكر، سيكون من الممتع أخذ الشاحنة في جولة صغيرة. لكنني كنت أعلم أن عليّ أن أكون ذكية وإلا سيكتشف الأمر. لعدة ليالٍ وأنا في سريري، أفكر فقط. كيف أصل إلى السيارة. كيف أجرد محتوياتها الداخلية. كيف أنظفها بعد ذلك."

سأل ماكس:

– "عداد المسافات؟"

وضعت إصبعًا على أنفها وقالت:

– "لم أستطع حل تلك المعضلة دون رفعها وقيادتها للخلف مثل فيلم «فيريس بيولر». لم يكن لدي الوقت. وتعرف ما الذي فكرت فيه بشأن ذلك؟"

– "أن ذلك أعجبك."

– "بالضبط. أعجبتني فكرة أن يظل هناك خيط صغير عالق. كان بإمكاني الابتعاد وأنا شبه متأكدة أنه لن يعرف. لكن ليس كليًا. أحببت تلك الضربة في عروقي. جعلتني أشعر بشعور جيد."

سأل ماكس:

– "هل فعلتِها؟"

قالت:

– "دورة لمسافة ميل واحد. عدلت المقعد والمرايا، ثم أعدتها كما كانت. مسحت الغبار ببضع زجاجات مياه وخرقة جلبتها معي. ركنتها في المكان المحدد الذي وجدتها فيه. وعدت إلى السرير قبل الفجر، حتى لو كانت أختي قد ضبطتني."

– "هل أخبرتِ ماسترسون يومًا؟"

ضحكت وقالت:

– "أتعرف كيف يكون الحال عندما تلعب الغميضة، وتكون جالسًا هناك في خزانة والباحث يدخل الغرفة، ينظر حوله، يحاول العثور عليك، وأنت تراه، لكنه لا يراك. أنت في الظلال. حسنًا، هكذا كان الأمر. أنا هناك في الظلام مع أكبر سر في العالم ألعب اللعبة الوحيدة التي تهم. وأنا الفائزة. شعرت بذلك عندما أدرت العمليات. شعرت بذلك بعد الترقيات. والآن؟ لا شيء. ولا أعرف السبب."

أنهت كأس نبيذها، وقالت وهي تتفقد ساعتها:

– "هذا كل شيء. لا يزال لدينا بضع ساعات. كأس أخرى؟"

طلب ماكس الفاتورة. ولاحظ طوال الوقت أنها كانت تبقي يدها اليسرى مدفونة في جيبها أو بعيدة عن الأنظار تحت الطاولة.

دفعت سيا كأس النبيذ الفارغ نحوه وقالت:

– "ما زلت عطشى."

وصلت النادلة بالفاتورة. وضع ماكس النقود في الحافظة الجلدية ونهض.

سأل وهو يرتدي سترته:

– "هل ستأتين؟"

لم تتحرك.

– "إلى أين؟ العودة؟ لا. أخبرتك. أحتاج كأسًا آخر."

قال:

– "هيا، لدي فكرة."

***

كان ازدحام عشاء الجمعة في نادي ستيفز الاجتماعي يميل برواده نحو الشيخوخة، مما يعني أن منصة خدمة صف السيارات كانت تغرق في العمل مبكرًا، عادة في موعد لا يتجاوز الخامسة والربع. امتد طابور من السيارات ذات المحركات الدائرة من موقف السيارات إلى الشارع. أبواق متقطعة. ورؤوس تهتز باستياء ووجوه عابسة كانت تستقبل عامل الصف عندما يسلم الزبائن تذاكرهم. العمل الجيد يعني عادة إكراميات مجزية، لكنهم الليلة كانوا مضغوطين ويعانون نقصًا في الموظفين. والضيوف لا يدفعون إكراميات عندما يضطرون للانتظار كل هذا الوقت.

نظر إلى صف الزبائن المنتظرين لسياراتهم. الأولى كانت امرأة طويلة بشعر داكن. وخلفها رجل لاتيني، يصرخ في هاتفه ويتمشى على طول مقاعد الفناء. وخلفه نحو ستة أشخاص. سمعه يتحدث إلى شركة خدمة الصف، طالبًا المزيد من العمال. هل كان أحد المديرين؟ لم يكن العامل متأكدًا. فمعدل دوران الموظفين كان مرتفعًا في ستيفز.

سأل العامل المرأة ذات الشعر الداكن:

– "هل تمت مساعدتك يا سيدتي؟"

كانت عيناها الرماديتان الضبابيتان مثيرتين للاهتمام. فتح باب سيارة "جي واغن". التالي كانت سيارة "بنتلي فلاينج سبير" حمراء. سيارة السيد هندرسون. زبون دائم. بخيل في الإكراميات، لكنه كان ليركن تلك السيارة مجانًا.

قالت المرأة:

– "نعم، أنا بخير. فقط أنتظر."

ما تلك اللكنة؟ لم يسمعها العامل من قبل. سلم صاحب الـ "جي واغن" تذكرة، وركب السيارة، وركنها في الموقف المجاور. ركض عائدًا إلى ستيفز ووجد العامل الآخر يسرع لركوب سيارة "بورش باناميرا" بيضاء. كانت البنتلي قد اختفت.

نادى على العامل الآخر:

– "هل أحضرت سيارة السيد هندرسون بالفعل؟"

رفع الرجل يديه في الهواء وركب البورش. إنها ليلة من تلك الليالي.

كان المدير اللاتيني قد دخل إلى الداخل. والمرأة ذات اللكنة الجميلة قد غادرت. أنزل سائق سيارة "ماكلارين S720" سوداء النافذة وصاح:

– "مهلًا يا سيد، أنا أنتظر منذ خمس عشرة دقيقة. هل ستركن السيارة أم ماذا؟"

هرع العامل ليفتح باب السائق. انتزع الرجل تذكرته بعبوس. هذا سيء، فكر العامل وهو يقود السيارة مبتعدًا. الإكراميات ستكون بائسة الليلة.

***

وصل بروكتر وبرادلي عبر الممر في الجزء الخلفي من شاحنة سوداء بلا نوافذ كانت قد نقلتهما من حظيرة الطائرات في مطار مقاطعة نابا. هرعا إلى داخل المزرعة بينما كانت الشمس تطلق آخر أشعتها فوق الأفق. رفع ماكس وسيا، الجالسان على طاولة المطبخ، رأسيهما بما اعتقدت بروكتر أنهما ابتسامتان زائفتان، ومحاولات فاشلة لإخفاء توترهما من هذا التطفل السابق لأوانه. فالبرقية المرسلة من مكتب إد كانت قد توقعت وصولًا متأخرًا عن ذلك بكثير.

كان هناك شيء غير طبيعي، كانت تشعر به. كانت بروكتر لتقول إنهما كانا يعبثان معًا، لكن لم يكن هذا هو الأمر تمامًا. لقد تعلمت قراءة الإشارات بعد أن فاتتها مرة واحدة، لفترة وجيزة، في حياة سورية بعيدة مع ضابط حالة جيد اتخذ بضعة قرارات سيئة. ما جعل قراءة بروكتر للموقف في هذه الغرفة أكثر غرابة هو أنها كانت تعلم أنهما يمارسان الجنس، أو على الأقل بعبارات عامة. هي فقط لم تعتقد أنهما كانا يفعلان ذلك اليوم. أمر محير، لكنها كانت تعلم أنهما يخفيان شيئًا ما.

صافحهما برادلي وجلس. بدأ قائلًا:

– "زوجتي أنجيلا تدير مزرعة خيول للهواية في شمال فيرجينيا. من بين كل الأسرار التي أخفيتها عنها، قد تكون شراكة الـ CIA مع سان كريستوبال هي الأكثر تدميرًا لو ظهرت للنور. إنها من المعجبين بك يا ماكس، وأعتقد أنها ستقتلني لو علمت أنني التقيت بك. أو ستجبرني على شراء حصان."

قال ماكس:

– "أسعارنا معقولة جدًا. هي مرحب بها في أي وقت."

رد برادلي وهو يلمع بابتسامة المُجنِّد تلك التي تظهر أسنانه، وبدأت نبرته ترن بالطاقة، مجهزًا لخطابه:

– "فاديم كوفالتشوك قد يعارض ذلك الرأي."

راقبته بروكتر وهو يوجه تركيزه نحو كلا الضابطين ويقول:

– "عمل ممتاز في تطوير هذا الأمر. لا تشوبه شائبة. ستكون هذه دراسة حالة في «المزرعة The Farm[36]» خلال عام، ليس لدي أدنى شك. أنا فخور بكما. المدير يرسل شكره وتقديره. وهذه رسالة شخصية؛ فقد نظر إلي مباشرة في عيني هذا الصباح وقال لي أن أخبركما. دون هراء. لقد جلست في محادثات ودية من قبل مع بعض كبار الضباط الذين كانوا يسمعونني كلامًا معسولًا نفاقًا، وصدقاني، هذه ليست واحدة من تلك المرات. الرئيس يقرأ كل قصاصة استخبارات تنتجانها. لكننا الآن عند مفترق طرق. وأريد أفكاركما حول كيفية لعب هذا الدور."

تحدثوا لمدة ساعة عن "بيرسيفوني" والقضية. لزمت بروكتر الصمت في الغالب. كانت قد قالت ما لديها في الطابق السابع. ورغم أنها كانت تستمتع بسحق مرؤوسيها بقدر ما يستمتع أي مدير في الوكالة، شعرت بروكتر أنه من المهم في هذه اللحظة منح ضباطها مساحة للتحدث. لتدعهم ينالون الفضل. كانت تعلم أن لديهم مخاوف بشأن القضية، وبرادلي – بارك الله فيه، رغم أنه لم يكن مضطرًا – سيسأل عنها. لكنهم لن يجيبوا بصدق لأنه نائب المدير، وهناك أشياء كثيرة في هذا العالم لا يمكنك ببساطة قولها لرئيسك، مهما كانت أهميتها. نحن نعبث معًا، على سبيل المثال. أو، أفضل أن تُبتر قدمي على أن أطأ بها الأراضي الروسية مرة أخرى.

---

[36] **The Farm** هو اسم غير رسمي لـ **مركز التدريب الأساسي للـ CIA** واسمه الحقيقي **كامب بيري** ويقع في ولاية **فيرجينيا**

قال برادلي أخيرًا:

– "نود الموافقة على هذا، بناءً على توصية بروكتر ومحادثتي معكما الليلة. تم إطلاع البيت الأبيض؛ وهم يشاركونني مخاوفي بشأن المخاطر لكنهم يشعرون أن المكاسب المحتملة تفوقها. أريد أن أعرف موقفكما من هذا. لأنه من المتصور أن ندع «بيرسيفوني» تنتظر وحسب."

وعندها قفزت سيا، دون توقف أو تردد:

– "لا. يجب أن ندخل. لنجعل «بيرسيفوني» مستعدة ومتأهبة."

رأت بروكتر برادلي يرفع حاجبًا، بشكل غير ملحوظ تقريبًا، قبل أن يلتفت إلى ماكس.

قال ماكس:

– "أنا أوافق. يجب أن نفعلها."

نقل برادلي نظره من أحدهما للآخر في صمت لزج، منتظرًا تحفظًا أو مراجعة. لم يأتِ أي منهما.

ضرب الطاولة بيده وقال:

– "أنتما الاثنان و«أرتميس» ستخوضون في التفاصيل خلال بضعة أيام في سانت آيفز، بمجرد أن ننتهي من ترتيبات التمويه والجانب التقني في لانغلي."

وقف برادلي وصافحهما مرة أخرى.

– "أنتما تديران عملية تحدث مرة واحدة في العمر. دعوني أقل فقط، مرة أخرى، شكرًا لكما. شكرًا لما تقومان به. من أجل التضحية. أنا فخور بأن أدعوكما زملاء وأصدقاء."

عانقت بروكتر سيا؛ وصافحت ماكس. ثم خرجوا من المزرعة.

وعندها رأت بروكتر ذلك.

مركونة في الممر الحصوي، على الجانب الآخر من الشاحنة، في نقطتها العمياء أثناء الدخول.

سيارة "بنتلي" حمراء.

عادت بروكتر أدراجها إلى المزرعة قائلة:

– "مهلًا يا إد، أعطني ثانية."

كان ماكس وسيا لا يزالان عند الطاولة.

قالت بروكتر:

– "هناك مركبة باهظة الثمن بشكل فاحش في الخارج. هل كنتما تعلمان ذلك؟"

تطوع ماكس قائلًا:

– "سيارتي المستأجرة."

ضاقت عيناها الخضراوان بشك. كانت تعرف عن ميول "هورتنسيا" الصغيرة بالطبع. فـ بروكتر كانت ضابطتها ؛ وقد قرأت تقاريرها النفسية. لكن الآن؟ يا للهول، التوقيت سيء.

سألت:

– "إذا خرجت إلى هناك، هل سأجد أوراق الاستئجار في صندوق القفازات؟ ربما ملقاة بإهمال على أرضية مقعد الراكب؟ أو محشورة في حامل الأكواب اللعين؟ ربما ينبغي أن ألقي نظرة؟"

بدأت سيا بالدفاع:

– "«أرتميس»، نحن..."

لكن دافعها تلاشى وتوقف لأن بروكتر كانت تسكتها بالفعل، ورأس الرئيسة يتمايل للأمام مع كل دفق هواء تنفخه عبر الإصبع الذي وضعته على شفتيها.

قالت بروكتر:

– "ششش. ششش. ششش. اخرسي. تمامًا. اللعنة. شكرًا. فقط أعيدي الشيء اللعين بسرعة، يا هورتنسيا. حسناً يا عزيزتي؟"

أومأت سيا وقالت حسناً.

ثم التفتت بروكتر إلى ماكس.

– "لقد استنفدت كذبتك المجانية الوحيدة يا صديقي. الآن، هناك أشياء لا أريد معرفتها بالطبع. وأنا أفهم أنك حالة خاصة يا ماكسيميليانو، وأنك على عكس صديقتنا هورتنسيا هنا، يمكنك الابتعاد. بحق الجحيم، يمكنك أن تقول لي «لا» وليس هناك الكثير الذي يمكنني فعله حيال ذلك. لكن هذا لا يعني أنه يمكنك الكذب عليّ. عندما أطرح عليك سؤالًا، أتوقع الحقيقة. على سبيل المثال، أنا أعلم أنكما تمارسان الجنس، لكنني لا أسأل. ليس عليكما إخباري. استخدما حكمتكما. نحن ندفع لكما مقابل حكمتكما اللعينة. في النهاية، كل ما أملكه هو حكمتك وشرفك وحماسك الوطني. لا شيء أكثر. إذا كذبتَ علي مرة أخرى، سأرسل قطاع طرق إلى سان كريستوبال. سأحرق المكان عن بكرة أبيه. مفهوم؟"

– "نعم. مفهوم."

تواصلت بصريًا بشكل مكثف ومقلق مع كلا الضابطين، ثم قالت:

– "أراكما في سانت آيفز."

ثم كانت في الخارج، تغلق باب الشاحنة المنزلق. كان برادلي يعمل على كتاب قراءة مسائي. بدأ السائق في التحرك عبر الممر الحصوي نحو طريق المقاطعة.

سأل برادلي:

– "هل كل شيء على ما يرام؟"

قالت بروكتر وهي تربط حزام الأمان:

– "كل شيء تمام. وعلي ما يرام."

تمتم برادلي ورأسه لا يزال مدفونًا في الكتاب:

– "لماذا بحق الجحيم توجد سيارة بنتلي مركونة هنا؟"

قالت بروكتر:

– "سيارة كاستيو المستأجرة. أثرياء أوغاد يا إد. أنت تعرف كيف تسير الأمور."

الفصل الخمسون

موسكو / سانت بطرسبرغ

توارى الحمّام في عقار الإوزة بضاحية روبليوفكا خلف ستار كثيف من الأشجار، بالقرب من الحظائر التي يحتفظ فيها بكلاب المالينو البلجيكية. نبحت الكلاب في وجه تشيرنوف وهو يسير بمحاذاة الإوزة شاقّين طريقهما عبر الهواء الصقيعي؛ كانت الكلاب – فيما يبدو – لا تفتأ تنبح كلما رأت تشيرنوف.

اجتازا غرفة الشاي وصولًا إلى منطقة تبديل الملابس، حيث التقطا قبعات من اللباد، ومناشف، وأردية معلقة على أوتاد مثبتة بالجدار.

انزلقا داخل الأردية وعادا إلى غرفة الشاي حاملَين القبعات والمناشف، ليجدا أن كبير الخدم قد ترك صينية من شاي النعناع. تخلصا من الأردية استعدادًا للساونا، وجلسا بضع دقائق في صمت، لا يستر جسديهما سوى قبعات اللباد، قبل أن يتحركا بتثاقل نحو غرفة مجاورة تضم حمامات ومسبحًا باردًا.

تقلصت ملامح الإوزة وهو يغمس جسده في الماء البارد. وحين لم يبقَ سوى رأسه فوق السطح، ضرب الماء بيده وقال:

– "لم أكن أريد حربًا مفتوحة. أندريه وابنته... كلاهما أحمقان عنيدان لعينان."

غاص تشيرنوف أعمق داخل الحوض. كان يعي برودة الماء، لكنه لم يختبر ذلك الشعور كما يختبره الآخرون.

تابع الإوزة قائلًا:

– "وتلك التسجيلات من سجن بوتيركا؟ يا إلهي! أندريه يسخر منا، ويأمر ابنته الوحيدة برفض مطالبنا. انطلقي واقتلي نفسك يا حبيبتي. ألقِ بنفسك طعامًا للكلاب. بابا يحبك. لطالما كان هكذا."

نضح بعض الماء على وجهه وكأنه يحاول الاستيقاظ، ثم أردف:

– "والابنة مثله تمامًا. إنها والدها ذاته؛ دون ذكورة الرجال، لكنها تملك نفس الفحولة والصلابة. تلك النظرة في عينيها الليلة التي تعاملنا فيها مع صديقها؟ جنون مطبق."

حك إبهامه على عنقه وهو يلعن عائلة أغابوف.

خرج الإوزة ببطء من المسبح وتبعه تشيرنوف إلى الساونا. جلسا ورؤوسهما مطأطأة للحظة، فقال الإوزة:

– "لقد شِختُ يا صديقي. الشتاء لُحم في مفاصلي وبات جزءًا منها."

تدحرج العرق مثل حبات الخرز على رأس تشيرنوف الأصلع. بعد ذلك غطسا مرة أخرى في المسبح. فرد تشيرنوف ذراعيه على حافة الحوض وانتظر الإوزة ليكمل حديثه؛ فقد اعتاد انتظار الرئيس خلال سنوات جهادهما المقدس معًا، وكان تشيرنوف يجيد الانتظار.

ثبت الإوزة نظراته عليه وقال:

– "نحتاج إلى آنا لإتمام بيع نظيف لأعمال أغابوف التجارية، لكنها لن تمنحنا ذلك. نحتاج إلى الأوراق اللازمة لبناء قضية ترسلها إلى سيبيريا مع والدها العجوز. ولهذا الغرض، يمكننا الاستعانة بشخص من دائرتها. أحضر لنا ما نحتاج إليه بشكل نظيف وسريع، كي لا يتسبب الاعتقال والمحاكمة وإصدار الحكم في

إثارة الذعر بين الـ (بويار).، إجراءات غير رسمية، لكنها أوامر تأتي مباشرة من القمة."

أومأ تشيرنوف برأسه وسأل:

– "ما القواعد؟"

قال الإوزة:

– "لا دماء. على الأقل ليس دماء آنا."

تجه الإوزة نحو غرفة تغيير الملابس وتبعه تشيرنوف.

أخرج الزعيم ورقة من جيب ردائه المعلق وحشرها في يد تشيرنوف. بضعة أسطر على ورقة صفراء رطبة مخصصة للكتابة القانونية. ملاحظات هامشية. بلا توقيعات. فقط خط يد الإوزة وملاحظات الـ (خزيان).

قرأ الرسالة.

وفي الحمام، مزقها إربًا وألقاها في المرحاض وسحب الطرد.

تقديرًا لخدمته في واحدة من وحدات (فيمبل) التي حررت مئات الرهائن من براثن الإرهابيين الشيشانيين في المدرسة رقم واحد في بيسلان، مُنح تشيرنوف وسام الشجاعة. وخلال حفل التكريم في لوبيانكا، لم يذكر الرئيس تلك الإحصائية المزعجة التي تفيد بأن 333 شخصًا، بينهم 186 طفلًا، قُتلوا خلال فوضى عملية الإنقاذ.

بعد أكثر من عقدين، كان تشيرنوف لا يزال يتمتع بالمزايا المتبقية لذلك الوسام، مما أتاح له العيش بمستوى يفوق إمكانيات معظم ضباط الاستخبارات الروس. لم يكن يدفع إيجارًا لشقة موسكو التي يقطنها. وكان يقود سيارة مرسيدس مصفحة وفرتها الدولة. وكان بإمكانه قضاء العطلات في منتجعات FSB

المغلقة. فالـ FSB، مثل KGB من قبلها، دولة داخل الدولة؛ هم نبلاء روسيا التابعون للـ (خزيان).

ولكن، ورغم أن تشيرنوف كان يعيش ويعمل وسط بريق موسكو، إلا أنه ذُهل عند رؤية شقة فاديم كوفالتشوك على رصيف كوتوزوف ـ في بطرسبرغ. بدت الشقة من الشارع وكأنها تمتد على طول المبنى، وتتمتع بإطلالات كاسحة على نهر نيفا وقلعة بطرس وبولس.

هكذا إذن – حدّث تشيرنوف نفسه – كان شعور آل رومانوف.

لا يحمل ضباط FSB شارات، لكن هوية تشيرنوف الشرطية كانت كافية ليفتح طاقم الحراسة الضخم الواقف بالأسفل الطريق؛ أطفأ الفريق المسؤول عن الكاميرات الأمنية أجهزتهم استجابةً لمذكرة المدعي العام؛ وفُتح الباب لخبير الأقفال. دلف تشيرنوف إلى الداخل وأخذ نفسًا عميقًا، وتبعه مساعداه، أركادي ودانييل.

كانت الشقة تعبق بروائح عطور نسائية صارخة ومسك رجالي. رائحتها – فكر تشيرنوف – تشبه رائحة الجنس.

أجرى جولة سريعة. المكان يمتد على ثلاثة طوابق، مع شرفات تبرز من غرف النوم ـ في الطابقين الثاني والثالث. عبث تشيرنوف ـ في ركن المشروبات، والتقط زجاجة فودكا يعلوها غطاء بصلي الشكل مطعم بنقوش ذهبية معقدة.

قال أركادي:

– "هذه مشهورة يا زعيم. وصفة القيصر. مصفاة عبر الماس والذهب، وربما عبر فروج نساء آل رومانوف."

ضحك أركادي، فقال تشيرنوف:

– "دعنا نكتشف ذلك."

ورغم أن الوقت كان لا يزال في منتصف الصباح، ملأ كأسين صغيرين بفودكا القياصرة، ووضعهما على الطاولة في منطقة الجلوس.

كان تشيرنوف يهم بالجلوس على إحدى الأرائك حين لمح بقعة عليها. ربما كانت شحمًا، لكن المرء لا يمكنه التأكد أبدًا. آثر الجلوس على كرسي من الخيزران في منطقة تطل على نهر نيفا المتجمد. كان الصباح مشرقًا، والمتزلجون على الجليد ينتشرون كنقاط صغيرة فوق النهر. اهتز هاتف دانييل، فقال:

– "إنه في الطريق من البنك الآن."

مر الوقت في صمت لم يقطعه أخيرًا سوى رنين هاتف دانييل، الذي قال:

– "إنه بالأسفل."

فتح أركادي الباب الأمامي.

دخل المصرفي، وقد بدت عيناه في البداية جوفاويتين من الحيرة، ثم اشتعلتا بالغضب. كلهم يملكون هذه النظرة، وهذا الوجه، في مثل تلك اللحظات. أنتم متطفلون – قالت عيناه – وجودكم هنا غير قانوني.

ألقى حقيبة جلدية نحو الحائط وطالب بمعرفة المسؤول، حتى استقرت عيناه على تشيرنوف وتمتم:

– "أوه."

نظر كل منهما للآخر لبرهة. أشار تشيرنوف إلى الفودكا وقال:

– "اجلس واشرب نخبًا معي يا فاديم يوريفيتش."

– "من الفودكا الخاصة بي. يالك من مراعٍ للمشاعر."

– "تفضل، اجلس."

– "ماذا تريد؟"

– "أريدك أن تجلس وتشرب معي."

قال فاديم:

– "أحتاج لإجراء مكالمة."

– "لن تكون هناك أي مكالمات يا فاديم يوريفيتش."

سحب فاديم الهاتف من جيبه قائلًا:

– "ما لم يكن لديكم المزيد من الأوراق اللعينة للاعتقال، فسأجري مكالمة."

بدأ يضغط على مفاتيح الهاتف، لكن أركادي أطبق على رقبته بذراعه قبل أن يتمكن من الاتصال. تلوى فاديم، لكن دانييل أمسك بساقيه. لكمه أركادي في وجهه، وبدا أنها لكمة قوية، لأن الضربة أدت إلى تناثر رذاذ من الدم من أنفه على سجادة مخططة بجلد الحمار الوحشي. تجرع تشيرنوف الفودكا الخاصة به، وأفرغ كأس فاديم على الأرض. النبلاء دائمًا يثيرون الجلبة، ويهددون بالاتصال بشخص ما، ويستخدمون لغة بذيئة. تباً لـ (بويار).

ساق دانييل فاديم المتلوي أمامه دافعًا إياه إلى الطابق العلوي، وجره بقوة نحو شرفة في الطابق الثالث تطل من غرفة نوم فارغة. أزاح أركادي الباب الزجاجي. تصاعد صراخ فاديم مجددًا مع هبوب الرياح القارسة، وتذوق تشيرنوف كرة لذيذة من اللعاب المالح تتدحرج في مؤخرة فمه.

مسح أركادي بقعة دم من أسفل أنفه وتمتم:

– "الأغنياء لا يكتفون بالشرب وحسب، دائمًا ما يسببون لنا المتاعب."

كان فاديم ينتحب عندما رفعه تشيرنوف من كاحليه ليدليه من الشرفة، ووجهه متجه نحو النهر. تلوى محاولًا الإمساك بساقي تشيرنوف لكنه تلقى ركلة بدلًا من ذلك. تدلى بجسد مرتخٍ، متمتمًا مرارًا وتكرارًا: "أرجوك لا".

نادى تشيرنوف عليه بصوت عالٍ ليسمعه فوق عويل الرياح:

– "لقد عرضت عليك شرابًا يا فاديم يوريفيتش. والآن..."

عوى فاديم:

– "لا تفعل ذلك. سأتكلم. سأفعل ما تريد. فقط ارفعني. لا تفعل ذلك."

خفض تشيرنوف جسد فاديم ليؤرجحه نحو النافذة بالأسفل كما لو كان كرة هدم. راح فاديم يلعن، ويصرخ، ويتوسل الرحمة. صدمه تشيرنوف بالنافذة السفلية مرة أخرى، ثم رفعه لأعلى بحيث تأرجح رأس فاديم عند كاحليه.

قال تشيرنوف:

– "لطالما وجدت النهر جميلًا في الشتاء، لكن هل تريده أن يكون آخر شيء تراه؟ بالطبع لا. أنت تريد أن تموت في فراشك كرجل عجوز. سأسأل مرة أخرى. مرة واحدة فقط. إذا أعطيتني الإجابة الخاطئة، سأدعك تنزلق وليتولَّ الرب أمرك. هذا كل شيء. التحدي سيكون رهانًا كبيرًا. أنا أعني ما أقول، وأنا أتحدث باسم الرب وباسم روسيا، وسوف تجيبني. الآن، يا فاديم يوريفيتش، هل تشرب معي نخبًا؟"

ملأ تشيرنوف كأسين آخرين بفودكا القياصرة وأحضرهما إلى مكتب داخلي. لم يكن يريد لفاديم أن يفكر في القفز من النافذة؛ فبعض الناس لا يريدونك أن تسقطهم، ثم بعد بضع دقائق من الحديث يقفزون من تلقاء أنفسهم. جلس تشيرنوف متربعًا خلف المكتب، وجلس فاديم في مقعد المتوسل. كان وجهه ممتقعًا خاليًا من اللون، باستثناء قشور الدم الجاف حول أنفه.

ارتجف فاديم وحدق في الفودكا التي لم يمسها. جال تشيرنوف ببصره في الأرجاء. لا أوسمة. ولا صورة واحدة لزوجته أو عائلته. رجل غني لا يملك شيئًا.

شرب تشيرنوف الفودكا وأمر فاديم بأن يفعل المثل. أخذ الرجل رشفة ضعيفة وأعاد الكأس إلى المكتب بقرقعة.

استهل تشيرنوف الحديث قائلًا:

– "قدّم سيدي عرضًا لزوجتك لبيع أعمال عائلة أغابوف وحصصهم في البنك. لكنها رفضت. كان علينا معاقبتها في النهاية. كان لديها حبيب.. وأخشى أنها ضحت به."

راقب تشيرنوف وجه فاديم الشاحب كالشبح وهو يحمرّ قبل أن ينظر إلى الأسفل، مبديًا اهتمامًا بالأرضية. فرك رأسه، وأمال ظهره على الكرسي.

قال تشيرنوف وهو يضع بضعة سنتيمترات من الفودكا الخاصة به:

– "ألم تكن تعرف بأمر الحبيب؟ فهمت."

مرر أصابعه عكس اتجاه عروق خشب المكتب. لا ذرة غبار.

– "إنك تمسك بأوراق خاسرة.. ألا يبدو الأمر كذلك لك أيضًا؟"

كان فاديم يمرر لسانه على أسنانه، وعض شفته.

تابع تشيرنوف:

– "دعني أشرح لك كيف أرى الأمور. نحن نجعل من أندريه أغابوف عبرة. تضحية مقدسة للشعب الروسي. وابنته العنيدة – زوجتك، التي كانت تمرح مع رجل آخر خلف ظهرك – ترفض الخضوع. هناك قوى عميقة تعيد تشكيل الهياكل التي تدعم هذه الحكومة، وأندريه أغابوف لم ينحنِ. إنه نبيل سيء. الـ (بويار) في موسكو دفعوا للمغول. وأصحاب العقارات في الأرياف دفعوا لقياصرة رومانوف. وأندريه أغابوف يدفع للكرملين. والإوزة يتحدث باسم الكرملين. لكن أندريه يرفض الاستماع. وما الذي يجلبه أندريه لهذه المعركة؟ ابنته. يا إلهي، إنه يقحم ابنته الوحيدة. زوجتك. لا يمكنه الفوز. أندريه في السجن. إنه حصان ميت. ولاؤك المستمر لآل أغابوف، يا فاديم يوريفيتش، كوفئ بزوجة خائنة، وقد ينتهي بك المطاف ساقطًا من نافذتك أنت شخصيًا. نهاية مؤسفة لشاب واعد وطموح مثلك."

أخذ فاديم رشفة صاخبة من الفودكا وحرك فكّه، ثم قال:

– "ماذا تريد مني؟"

– "أريد من زوجتك أن تقول نعم. لقد قدم الإوزة أفضل عروضه. يجب عليك إقناعها. تحدث معها بالمنطق."

ابتسم فاديم ابتسامة مظلمة وقال:

– "ستقول لكم نعم أسرع مما ستقولها لي. تخميني هو أنكم ستحتاجون لقتل زوجتي لكسر شوكتها."

قال تشيرنوف:

– "آنا أندريفنا امرأة صلبة بالتأكيد. هل لهذا السبب أقحمها والدها في هذه الفوضى من الأساس؟"

تململ فاديم في مقعده، ورفع الفودكا إلى شفتيه قائلًا:

– "لقد أراد منها أن تجد المال الذي سرقه الإوزة."

ضرب تشيرنوف المكتب بقبضته. جفل فاديم، وأسقط كأسه. أشار تشيرنوف إليه وصاح بصوت هادر:

– "لا! السرقة كانت لتكون الكلمة المناسبة لو كان المال ملكًا لكم. حاول مرة أخرى."

تأتأ فاديم وهو ينحني نحو ركبتيه ليعدل وضع الكأس ويمسح السائل المسكوب:

– "نحن، أعني هي، تبحث عن الذهب، المال المأخوذ من بنك روسيا."

– "كيف كانت زوجتك تبحث عنه؟"

فرك فاديم صدغه وقال:

– "عثرت آنا على شخص في الخارج يعرف مكان إخفاء المال. وكيف تم إخفاؤه."

– "من؟"

– "محامية مقيمة في لندن. هورتينسيا فوكس. تعمل لصالح الشركة التي استأجرها ميخائيل ليادوف، المسؤول المالي لـالإوزة في المملكة المتحدة، لإنشاء الشركات الوهمية والحسابات. زوجتي تعمل عليها."

– "وكيف تعمل عليها؟"

استمع تشيرنوف إلى تفاصيل الطُعم، والرحلة إلى المكسيك، وزيارة شركة (روس-فارم)، والمعلومات التي قدمتها هورتينسيا فوكس حول شؤون الإوزة المالية. وبينما كان فاديم يتحدث، كان يمسد برفق بأصابعه أنفه المتورم.

أنصت تشيرنوف باهتمام ويداه متشابكتان في حجره.

– "هل تملك زوجتك هذه المعلومات الآن؟"

– "نعم."

– "بماذا كان يفكر أندريه في المقام الأول؟"

أغمض فاديم عينيه وسحب نفسًا طويلًا عبر فتحتي أنفه وقال:

– "آمن أندريه بأن الطريقة الوحيدة لإثبات أن الإوزة سرق، إحم، أخذ الذهب وأخفاه عن الرئيس، هي العثور عليه. أو تحديدًا، العثور على المال الذي تحول الذهب إليه. حينها سيقدم ذلك الدليل إلى الـ (خزيان). أندريه عميل سابق في الـSVR، وآنا في الـSVR، ولديهم اتصالات ونفوذ خارج البلاد. اعتقد أندريه أنه سيكون من الأسهل عليهم إثبات أن المال خارج روسيا بدلًا من إثبات أنه ليس داخلها. هذا ما أراد فعله."

قال تشيرنوف:

– "زوجتك تملك هذا، ومع ذلك لم تفعل شيئًا به؟"

– "صحيح. إنها تتكتم عليه."

– "لماذا؟"

– "كان الدليل أضعف مما أملت، ووالدها اعتُقل، ولم تظن أنها تستطيع حتى تقديمه للرئيس دون أن يعلم الإوزة. لم تعتقد أن ذلك سيحقق الغرض."

– "الذي كان؟"

– "أن يتراجع الإوزة."

كان فاديم يعض شفته، غارقًا في التفكير. بدا وكأنه يتعافى من وطأة العمل الشاق، فاعتدل في جلسته ووضع ساقًا فوق الأخرى وراح ينفض الوبر عن بنطاله كما لو كان يتحمل اجتماع مجلس إدارة ثقيل الظل. لم يكن الدم المتيبس على أنفه والفودكا المسكوبة سوى الدلائل الوحيدة التي تشير إلى عكس ذلك. كل ما حدث منذ حادثة النافذة كان احترافيًا نوعًا ما. وراحة فاديم المتزايدة جعلت تشيرنوف غير مرتاح.

قال تشيرنوف:

– "ستعطيني ما تملكه زوجتك. المعلومات التي حصلت عليها من المحامية."

– "أنا لا أملكها."

نهض تشيرنوف، واندفع عبر الطاولة، وأمسك بكتفي فاديم، وحطم رأسه بالمكتب. تدحرج فاديم إلى الأرض فاقدًا الوعي. نقر تشيرنوف بأصابعه على الطاولة. صفر للحظة. وعندما لم يتحرك فاديم، تجول تشيرنوف في غرفة المعيشة واختار زجاجة فودكا أخرى. سكب لنفسه كأسًا وعاد إلى المكتب ليجد فاديم

منكمشاً على نفسه وهو يئن. جلس تشيرنوف على الكرسي، وشبك أصابعه على شكل هرم ليستانف النقاش.

قال تشيرنوف:

– "أنت لا تملك المعلومات. هل يمكنك الحصول عليها؟"

قال فاديم بصوت مختنق:

– "لا أعرف حتى مكانها. لديها حياة منفصلة. إنها ضابطة استخبارات، كما تعلمون بالتأكيد، ولا تعيش هنا."

قال تشيرنوف:

– "سيدي لا يريد شجارًا معك يا فاديم يوريفيتش. نحن نلاحق عائلة أغابوف فقط. نريد محوهم من التاريخ، ليصنعوا الأحذية في مدبغة سيبيرية أو ينقبوا عن خام اليورانيوم في جبال الأورال. أرجوك، عد إلى مقعدك. أريد أن أنظر إليك."

كافح فاديم للنهوض وهو يمسك برأسه، وعقله بلا شك يدور، متسائلًا عما إذا كانت هذه الخيانة قد تنتهي بتصفية زوجته. وهو الأمر الذي اشتبه تشيرنوف في أن فاديم قد يجده جذابًا.

عندما جلس فاديم، تابع تشيرنوف بهدوء:

– "زوجتك تدير المحامية في لندن، أليس كذلك؟"

أومأ فاديم.

– "إذن ستقنع آنا باستدراج المحامية للعودة إلى داخل روسيا. وستكون أنت عصفور الكناري الصغير داخل القفص، الذي يغرد حين تأتي."

الفصل الحادي والخمسون

مزرعة "روس-فارم"

في واحدة من غرف المعيشة المتعددة في روس-فارم، كانت آنا غارقة بعمق داخل الأريكة المخملية، وإلى جانبها زجاجة براندي أرميني، بينما تصدح موسيقى فرقة "كوين" من المشغل الأسطواني؛ كانت ثملة جدًا لدرجة أنها لم تكن واثقة من عنوان الأغنية. طوال الأسبوع الذي تلا الحريق، كانت تخيم في "روس-فارم" وتعاقر الشراب؛ إذ لم يعد هناك مكان آخر تذهب إليه، ولا شيء آخر تفعله. وكانت تنتظر سيا.

سبح عقلها المُشبع بالبراندي نحو لوكا. ذراعه. ماذا فعلوا به أولًا؟

دفنت صرخة في وسادة مخملية. لن تتذكره بهذه الطريقة؛ ممزقًا إربًا على يد روسيا، وعلى يد أعدائها. وعلى يدها هي.

طردت آنا تلك الأفكار، وبدلًا من ذلك استجمعت بقايا طاقتها الخائرة لتبني صورة عذبة واحدة لابتسامة لوكا المبهجة، المنتشية بنصر حديث تحت أضواء مصابيح جان مارتيل. بدأ العالم يتشظى وهي تحاول إعادة بنائه في مخيلتها داخل شقتها القديمة. توقفت الموسيقى، وظل القرص الدوار يدور مع صوت احتكاك الإبرة عبر الشمع الصامت. كانت هي أيضًا تدور، أسرع فأسرع، وساورها قلق من أن عقلها قد لا يقوى أبدًا على رسم وجهه مرة أخرى. استسلمت، ودار العالم ودار حتى تلاشى تمامًا.

***

انفتحت عيناها على فاديم وهو يداعب أحد كلاب الألزاس، بينما كان رأسها مشدودًا كالبالون المنتفخ أكثر من اللازم. أمال الكلب رأسه نحوها. ما اسم الكلب؟ سحب فاديم يده وبدأ ينقر بشوكته في طبق من البيض. أصابها منظر الطعام ورائحته بالغثيان. أغمضت عينيها، ودسّت وجهها في الوسائد. لم تره منذ العشاء في بطرسبرغ. لماذا جاء إلى المزرعة الآن؟ ولماذا توجد كدمة على رأسه؟

قال فاديم:

– "هل دُعي أحد غيرنا لهذه الحفلة؟"

ضحكة مكتومة غير واثقة، وصوت احتكاك الشوكة بالطبق. كادت تتقيأ، وضغطت نفسها أعمق في الوسائد.

قالت:

– "لا أستطيع رؤيتك وأنت تأكل."

تنهيدة، وقرقعة طبق، وحفيف ورق. عندما فتحت عينيها، كانت صحيفة مطوية تحجب البيض كما لو أنها تفرض رقابة عليه. استقر الكلب قرب الموقد.

قال فاديم:

– "كنت أفكر في السعي لشراكة مع سان كريستوبال. ترتيب أوسع نطاقًا، يتجاوز عملية الشراء لمرة واحدة للفحل سموكي جو."

حاولت الجلوس. كان عقلها يتحرك وكأنه غارق في الصمغ؛ أفكار تجاهد بقوة لكنها لا تصل إلى شيء. قالت:

– "شراكة.. لماذا؟"

قال فاديم:

– "من أجل سلالته. لنحصل على الفرصة الأولى قبل الأمريكيين أو البريطانيين أو أي شخص آخر. هذا يعطينا ميزة. كنت أفكر أن ندعو ماكس وسيا للعودة بضعة أيام لمناقشة الأمر. ويمكنه أيضًا استعادة الفرس التي تركاها خلفهما. تلك التي تعتنين بها."

كان يبتسم بلطف. ثمة خطب ما، لكنها لم تستطع تحديده. الأمريكيون يستعدون للرد على توسلها لعودة سيا إلى روسيا – أو يدرسون الأمر على أقل تقدير. هل هي صدفة أن فاديم يقوم بهذا العمل نيابة عنها الآن؟ استعادت ذلك الشعور الملحّ الذي انتابها في أعقاب اعتقال والدها، بأن زوجها قد لعب دورًا ما في خيانة الإوزة. بأمر مَن يحدث هذا؟

سألت:

– "ما الذي حدث لك؟"

وضع يده برفق على جبهته وابتسم كأنه نسي أمر الكدمة تمامًا.

– "ارتطمتُ بباب. آنا، أعرف أنكِ تعانين من آثار السُكر، لكن ركزي لدقيقة. ما رأيك في دعوتهما للعودة؟"

وضعها فاديم في موقف "كش ملك". لم تتوقع هذا. وفي حالتها المشوشة تلك، أدركت أنها لم تعد قادرة على رؤية اللعبة وهي تتكشف أمامها. لم تكن واثقة من قدرتها على التخطيط لخطوتها التالية.

اعترضت آنا قائلة:

– "لست واثقة من أن سيا سترغب في العودة. حادث السيارة المؤسف، الابتزاز. المشاعر السيئة وكل ذلك."

سأل فاديم:

– "هل تريدين رؤيتها؟"

قالت آنا بحذر:

– "أفترض ذلك. هناك أمور قد تكون مفيدة فيها. لديها وصول مثير للاهتمام في شركة ليريك التقنية."

سأل فاديم:

– "هل تظنين أنها أخبرت ماكس؟ عن الحادث؟"

قالت آنا:

– "لا أعرف. لقد هددت بأننا سنتقدم لشركة المحاماة دليلًا على أنها عرّضت وثائق العملاء للخطر إذا أخبرت مخلوقًا. لكنها عادت إلى لندن. وهو صديقها الحميم في النهاية."

هز فاديم كتفيه وقال:

– "حسنًا، لا بد أنكِ أرعبتها حد الموت، لأنني أظن أنها حافظت على كلمتها. تلقى ماكس مكالمتي هذا الصباح بشأن الشراكة. وبدا متحمسًا للحديث. بل وكان ودودًا للغاية."

سألت:

– "ما الذي ترمي إليه؟"

– "أود أن يأتي ماكس إلى هنا لمناقشة العمل. في أقل تقدير، قد يغريه استعادة حصانه... ما اسم ذلك الشيء اللعين؟"

قالت آنا:

– "بينيلوبي. وليست لدي أي نية لإعادتها."

كان صوت آنا حادًا، يرن في أذنيها وكأن الكلمات ليست كلماتها. ذكر بينيلوبي استحضر صورة الصندوق في الإسطبل... ثم الطرد الدموي في شقتها.

أرادت أن تبكي، لكن ذلك سيمنحه المتعة، ولا شيء يثير اشمئزازها أكثر من ذلك. أجبرت كل شيء على الهبوط. أسفل، أسفل، أسفل.

لوح بيده في الهواء غير مبالٍ وقال:

– "حسناً. لا حصان إذن. عمل فقط. ربما نطلب من سيا المجيء أيضًا، بما أننا – أو أنكِ – تملكين بعض السيطرة عليها؟"

أغمضت آنا عينيها، وعقلها يصارع من أجل الثبات. هل رتبت سيا ولولو الأمر ليتواصل ماكس مع فاديم، خالقين ذريعة لسفرهم؟ ربما كانت هذه طريقتهم الذكية لترتيب زيارة.

سألت آنا:

– "ماذا عن عطلة نهاية هذا الأسبوع؟"

الفصل الثاني والخمسون

سانت آيفز

عادوا ليلتئم شملهم في كوخ سانت آيفز، غير أن اجتماعات التخطيط الأولى التي صُبغت بقدر من الحماس، استحالت في هذا الجمع إلى أجواء جنائزية؛ فالليل غائم، والهواء رطب قارس البرودة، ومحاولات بروكتر الحثيثة لإقناع أضواء زينة عيد الميلاد في الفناء بالوميض كما ينبغي باءت بالفشل. اتشح الجميع بالسواد – بمحض الصدفة بالطبع – لكن ذلك لم يساعد في تحسين المزاج العام. تحلقوا حول طاولة حديدية استعمرها الصدأ، متدثرين بمعاطفهم اتقاءً لصفعات رياح البحر المباغتة.

بدت الزعيمة غير عابئة بتقلبات الطقس؛ إذ اكتفت بارتداء سترة جلدية سوداء مفتوحة السحاب. أما سيا، فنفثت أنفاسًا حارة لتدفئة كفيها المتجمدتين، ثم دست يدها اليسرى المرتجفة في جيب معطفها.

تصدّرت مكالمة فاديم التي أجراها مع ماكس قبل يومين جدول أعمالهم؛ تلك الدعوة التي وجهها للزوجين للعودة إلى روس-فارم. أوضح ماكس أن نبرة فاديم كانت غريبة، بل مغرقة في التملق والاعتذار عن سوء التفاهم الذي حدث مع بينيلوبي في المرة السابقة، واحتفاظه بالحصان. اقترح عودتهم لاستلام الفرس ومناقشة الأعمال. وعلق ماكس قائلًا إن من الغريب أن يخوض فاديم محادثة كاملة دون أن يبدو وغدًا.

تابع قائلًا:

– "والأغرب من ذلك كله، عرضه إعادة حصاني."

قالت سيا:

– "ربما حثته آنا على ذلك واستمع لها؟ إنها بالتأكيد طريقة نظيفة لاستعادتنا بعد أن أطلقت إشارة الطوارئ."

رفع ماكس حاجبًا وقال:

– "ليس فاديم من النوع الذي يستمع."

تدخلت بروكتر قائلة:

– "ربما أبرحته ضربًا. الفتاة لديها أسبابها، والرب أعلم."

اخترقت هبة ريح الفناء، فقالت الزعيمة: "لندخل لنتحدث عن أجهزة الاتصال". وفي تلك اللحظة، طفت فكرة مقلقة داخل ماكس: هل ينبغي إخبار بروكتر عن العملية التي نفذتها آنا ضد سيا خلال زيارتهم الأخيرة؟ وتحديدًا إلقاء جثة على الزجاج الأمامي لسيارة مسرعة بغرض الصدمة والابتزاز والسيطرة. لكن سيا آمنت بصدق آنا، وهو كان يصدق سيا في الغالب، أما ذلك الجزء الذي لا يزال يحمل بعض التساؤلات بداخله، فقد أقنع نفسه بأنهم أخضعوا الروسية لجهاز كشف الكذب في سويسرا على أية حال، لذا فهي نظيفة على الأرجح.

طوال الاستعدادات لجولة أخرى في "الرودينا" (الوطن الأم – روسيا)، ترددت كلمات والده بلا توقف في ذهنه: نحن متشابهان في هذا الأمر يا ماكسيميليانو. تظن أنك إذا رفضت، فسوف تُطرد. فارس مكسيكي مجهول الهوية. مجرد مدني.

والآن، أخفيا – أو أخفى هو – معلومات عن بروكتر وعن وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). لقد خطا خطوة مصيرية إلى الأمام. والتراجع سيتطلب اعترافًا، والاعتراف يستوجب العقاب. وتوقع أن العقوبة ستكون النفي؛ سيقطعون صلته بالخدمة.

سيصبح مدنيًا.

لكن فكرة جديدة راحت تصارع ذلك الخوف القديم المألوف: للمرة الأولى، بدت الحياة المدنية جذابة بشكل غريب، كأنها نداء حوريات البحر. ربما يقضي وقتًا أطول في النادي بـ مونتيري، ويصطحب فتاة لطيفة لرؤية المزرعة، يركبان الخيل ويشاهدان السباقات، وفي النهاية يثبت خطأ والده العجوز– ويسلم سان كريستوبال لابن يفلح الأرض ويعرف سلالات الخيول، كما فعل هو. هل سيساعده الانسحاب من الوكالة على تكريم والده وجده؟ أم سيخذلهم؟ لم يكن يعرف. لكنه كان واثقًا من أمر واحد: التراجع يعني خذلان سيا.

وظلت فكرة التراجع والاعتراف تلح عليه، والمشاعر المُلحّة هي أثقل ما يكون في الأيام التي تسبق رحلة أخرى إلى روس–فارم.

***

في الأفلام، تعمل تكنولوجيا التجسس دائمًا دون عوائق. لكن الحاسوب المحمول المحمل ببرنامج (ClanComm) الذي جلبته بروكتر بشق الأنفس من لانغلي أبى أن يعمل. حاولت الزعيمة لبضع دقائق الوصول إلى القسم وتشغيل الفحوصات. وحين فشلت المحاولة الثالثة، قالت: "أيها المهووسون الملاعين"، بينما كانت سيا تقرأ التسلسل بصوت عالٍ للتأكيد، وبروكتر تضرب المفاتيح بغضب متصاعد. أرسلوا برقية عاجلة إلى لانغلي وجاء الرد سريعًا: أمهلونا بضع ساعات. صرخت بروكتر بذهول: "ساعات؟ بحق الجحيم؟ وكالة الاستخبارات الأفضل في العالم، يا للمهزلة."

المهمة التالية: الإخفاء. أخرجت بروكتر حقيبة سرج من سيارتها المستأجرة ووضعتها بقرقعة على طاولة القهوة في غرفة المعيشة. قالت إن سرج الهدية نفسه في طريقه حاليًا من لندن إلى لانغلي. قام فرع التجهيزات والمعدات الفنية (OTS) بنقش شعار "روس–فارم" على جلد الحقيبة البني المحمر: حصانان يشبّان في اتجاهين متعاكسين، وتعلو رأسيهما ثلاثة تيجان؛ في تحية للنسر الروسي مزدوج

الرأس. حصل الفرع على الجلد من مدبغة في مونتيري. أوضحت بروكتر طريقة فتح الحجرة المخفية في إحدى الحقيبتين؛ جذبة لمشبك معين تحرك بكرة مخفية تحرر مسمارًا، ثم تضغط الأصابع على ثلاثة أزرار معدنية خفية. فرقعة خافتة، ثم يُسحب لوح جلدي للكشف عن حجرة مجهزة لحاسوب "أسوس" الصغير البديل.

تدربت سيا لفترة، يساورها القلق من أن يدي آنا قد تكونان أصغر من أن تضغطا الأزرار، حتى فعلتها بروكتر ثلاث مرات بكفيها الصغيرتين. لكن لا شيء يترك للصدفة، لذا أرسلت سيا برقية أخرى إلى لانغلي، تطلب هذه المرة قياسًا دقيقًا ليد آنا استنادًا إلى فيديو المراقبة من سويسرا، ليقارنوا يد آنا بيد بروكتر.

بينما كانوا ينتظرون الإجابات، التقطت بروكتر ملفًا ورقيًا وقالت: "لنعد إلى الشرفة، لنستنشق بعض الهواء النقي".

***

قالت بروكتر: "خطة الإجلاء". وثبتت ورقة على طاولة الفناء بحجر مفكوك من قاعدة الجدار الصخري؛ كانت صورة بالأقمار الصناعية لأراضي "روس-فارم".

- "نعمل على هذا منذ أسابيع. أنتما وآنا لديكم الآن مسارات هروب (زحف الدب – BEAR CRAWL) سبعة وثمانية وتسعة. كان لا بد من مراجعة شاملة نظرًا للمراقبة المريبة خلال زيارتكما الأخيرة."

أشارت بروكتر إلى ملصق أزرق مثبت في أقصى الطرف الشمالي من عقار المزرعة.

- "هذا أفضل ما يمكننا فعله دون المخاطرة بإشعال حرب عالمية ثالثة. المكان ضخم، لذا فإن تمركز أصول الدعم في مكان قريب أمر شائك. لكن هنا..." – وضربت بقبضتها على الخريطة – "... هنا يمكننا وضع شيء ما أثناء إقامتكم. تحسبًا للظروف."

سألت سيا وهي تشير إلى حيث ضربت بروكتر بقبضتها:

– "ماذا يوجد هناك؟ لقد تجولت بالحصان في تلك المنطقة مع آنا. لم أرَ أي مبانٍ أو طرق. مجرد غابة."

قالت بروكتر وهي تتتبع بإصبعها مسارًا على الخريطة:

– "خط نقل كهرباء. يمتد بموازاة الحافة الشمالية للعقار. هناك ستتمركز أصول الدعم؛ فريق (العقرب – SCORPIONs). لديهم شاحنة تعود فعليًا لشركة (روسيتي لينينيرغو)، شركة توزيع الطاقة في المنطقة."

سأل ماكس:

– "ماذا تعنين بـ (تعود فعليًا) لشركة الطاقة؟"

قالت بروكتر:

– "أعني أن لديهم شاحنة، وإذا اعترضهم أحد، فستجتاز الشاحنة الفحص الأمني. فريق (العقرب) فنلنديون من كاريليا. وطنهم الكاريلي مقسم بين روسيا وفنلندا، على بعد حوالي عشر ساعات بالسيارة شمال روس-فارم. يمكنهم التحرك داخل وخارج روسيا ويكرهون الروس اللعناء. أمر في غاية الروعة."

عادت الزعيمة إلى الخريطة:

– "سيوقفون شاحنة على طريق الخدمة هذا. هم لا يعرفون أسماءكم، ولم يروا صوركم، لكنهم يعلمون أنه إذا ظهر أي شخص عند شاحنتهم وطلب (تذكرة للشمال)، فعليهم تهريبه فورًا. ويمكنهم أيضًا قطع التيار الكهربائي إذا لزم الأمر."

عكفوا على دراسة الخرائط، وتناقشوا حول المسارات بالسيارة، وسيرًا على الأقدام، وعلى ظهور الخيل. قد يشكل الثلج عائقًا، لذا سيحزمون أحذية طويلة وسترات ثقيلة.

اتفقوا على شفرة؛ استخدام كلمة "شجن" (Melancholy) في أي إشارة إلى لانغلي.

قالت سيا:

– "إذا وقعنا ـ في مأزق، فلن نتمكن من الوصول إلى خط الكهرباء ذاك."

تدفقت الرياح عبر الفناء، مبعثرة خصلات شعرها الأسود على وجهها ورأسها، فأزاحتها جانبًا.

قالت بروكتر، وعيناها تتنقلان بينهما:

– "أعرف."

رفرفت حافة الخريطة مع الريح، فتابعت:

– "لذا، لا تقعوا ـ في المشاكل."

***

بينما كانوا لا يزالون ـ في انتظار تسلسل لوحة المفاتيح من لانغلي، فتحوا زجاجة نبيذ "ريسلينغ" وتناولوا دجاج "تيكا ماسالا" من علب كرتونية. وبين رشفات سخية من النبيذ، قررت سيا طرح السؤال الذي كان ينهش صدرها منذ سويسرا:

– "أيتها الزعيمة، ماذا تظنين أنه سيحل بـ بيرسيفوني عندما ينتهي كل هذا؟"

نحت بروكتر الطعام جانبًا، ودست يديها ـ في سترتها، وراحت تراقب سعف النخيل يلتوي ويتمايل ـ في مهب الريح. مالت علبة تيكا ماسالا فارغة مع النسيم.

قالت:

– "سيكون مصيرًا قاتمًا. لن يملك الروس أي دليل مادي ضدها، عكس فاديم. لكنهم بالتأكيد لن يهتموا لذلك. سيكون لديهم الكثير ليناقشوه معها، ولن يكون النقاش لطيفاً للغاية. هي تدرك ذلك بالطبع؛ ـ في مكان ما داخل رأسها

المريض تعي العواقب تمامًا. ومع ذلك، قد ترغبين في التشديد على ذلك مرة أخرى عندما ترينها. سيكون الإجلاء خيارًا منطقيًا للغاية حين تحين اللحظة."

استمعوا إلى هدير الأمواج البعيد. تفرست بروكتر في وجه كل منهما للحظة. غريب – فكرت سيا – أن أرى عدم اليقين يومض في تلك العينين الخضراوين.

ثم تلاشى الوميض. تابعت بروكتر:

– "في كل الأحوال، سيركز تحقيق جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) الحتمي عليكما. مرة أخرى، لن يملكوا دليلًا ماديًا، لكن الشكوك ستساورهم. بحق الجحيم، لقد وطدتما علاقة مع فاديم وآنا في الأشهر التي سبقت الانهيار. هناك نهايات كثيرة محتملة، لكن أعتقد أنه سيتعين علينا توخي الحذر في التبعات اللاحقة. هذه العملية ليست نصف حامل، بل حامل بالكامل. وأنتما المسؤولان."

كان ماكس ينبش في بقايا وجبته، ونظراته الحادة تخترق قاع العلبة الكرتونية. بدا لسيا مطأطئ الرأس، مركزًا وعاقد العزم، وكأنه في تلك اللحظة مضطر لتقليص العالم بأسره ليناسب تلك العلبة وإلا التهمه. رفعت سيا بصرها نحو سماء الليل، وفكرت في مدى استمتاعها بـ سانت آيفز قبل هذه العملية، وكيف أنها – إذا عبرت إلى الضفة الأخرى بسلام – لن تعود إلى هنا أبدًا.

***

كانت برقيتان بانتظارهم على جهاز سيا. تضمنت الأولى قياسات يد آنا؛ وأكدت مسطرة باهتة أن يدي بروكتر أصغر من يدي آنا، وهي حقيقة كانت حاسمة من الناحية التشغيلية بقدر ما كانت مصدر إزعاج للزعيمة، التي تمتمت بأن يديها تعملان بشكل ممتاز، شكرًا لكم. واعتذرت البرقية الثانية عن تسلسل لوحة المفاتيح المعطوب وقدمت تسلسلًا آخر، نجح هذه المرة. "أوف"، قالت بروكتر، "أوف بحق الجحيم".

تطلب الحفظ ساعة مرهقة. أخذوا استراحة لتناول كأس آخر من الريسلينغ ثم حاولوا مجددًا، واحدًا وثلاثين مرة، حتى أتقنوه. رددت سيا التسلسل بصوت عالٍ على مسامع بروكتر ست مرات أخرى، مؤدية الاختبار بينما كانت الزعيمة تنهي علبة ثانية من الدجاج وتقضي على أربع قطع من بسكويت السكر.

حلت الساعة الثانية صباحًا. كانت بروكتر راضية، مستيقظة تمامًا ومتوترة رغم النبيذ وأمامها قيادة لمدة خمس ساعات إلى هيثرو للحاق برحلتها إلى الولايات المتحدة. جرت الزعيمة حقيبتها بقرقعة أسفل الدرج وإلى المطبخ، حيث كان ماكس وسيا ينظفان المكان.

قالت بروكتر:

– "هذه العملية صار لها حياة خاصة بها الآن. وربما هي التي تديرنا. سنتورط جميعًا حين تندلع الفوضى ـفي موسكو. والجزء الأصعب هو أنه لا يهم حقًا ما نفعله من الآن فصاعدًا. لو قررنا جميعًا التقاعد والانضمام إلى سيرك لعين، فستظل بصماتنا على هذا الأمر. أنتما كنتما داخل روسيا، وكنتما مع آنا وفاديم ـفي المكسيك. واسمي يملأ البرقيات ـفي لانغلي. نحن جميعًا ـفي هذا الأمر الآن. شئنا أم أبينا. لقد اتخذنا جميعًا تلك الخطوات الصغيرة إلى الأمام. ولا مجال للعودة."

قالت سيا:

– "البيت الأبيض يمكنه إيقافها. سحب القابس."

سألت بروكتر:

– "هل تنصحين بأن يفعلوا ذلك؟"

دست سيا طبقًا ـفي غسالة الأطباق. وبدأت بتنظيف كأس نبيذ. وضعته ـفي الحوض. واستدارت لتواجه الزعيمة.

– "لا، لا أنصح بذلك."

نظرت بروكتر إلى ماكس: "يا زعيم؟"

هز رأسه نفيًا.

قالت بروكتر:

– "ولا أنا."

صافحتهم وعانقتهم. "استمروا. اقتربنا من النهاية". ثم دفعت الزعيمة حقيبتها خارج الباب وتلاشت في ظلمة الليل.

***

استدعى رحيل الزعيمة هطول أمطار غزيرة. انتفض ماكس مستيقظًا على صوت الرعد، ثم ظل يستمع للعاصفة، وعيناه مسمرتان بالسقف، يفكر في اللاشيء وفي كل شيء، وعقله عاجز عن الثبات على فكرة لأكثر من بضع ثوانٍ.

لم يكد صرير الباب المفاجئ يصل أذنيه حتى كان جالسًا، وظهره مسندًا إلى اللوح الأمامي المتهالك للسرير. أضاء وميض البرق هيئة سيا في المدخل. كانت ترتدي ملابس رياضية وقميصًا قطنيًا. وذراعاها معقودتان أمام صدرها.

نحزت حلقها وسألت:

– "هل أنت مستعد؟"

وكما أصبح الحال في العمليات، كانا يعملان معًا بتناغم. كان يتوقع حركاتها، وأين تريد يديه وكيف يتحرك معها. استتشعر تمامًا، بمجرد انزلاقها إلى السرير، أنها تريد إبقاء قميصها عليها، وأنها لم تنجرف معه في قبلته، رغم أنها بادلته المحاولة الأولى والوحيدة. سألها: ماذا تريدين؟ فأجابت بأن تسلقت فوقه. كان يعلم أنها تحب أن يشبك يديها، وأحيانًا كان يسند كتفيها لتتمكن من تحريك وركيها لامتطاء الموجة. لم يكن الأمر قسريًا، ولا حتى ميكانيكيًا. لكنه لم يكن

شغوفًا. حتى وهي تعتليه، وجلدهما يتلامس ويتلصق بالعرق، كانت بعيدة جدًا عن تلك اللحظة. وبينما كان رأس سيا يرتد للوراء، ووركاها يتمايلان، وركبتاها ترتدان، والسرير يصر، راودته فكرة غريبة بأنه يلعب الآن دور واضع واقي الشمس، أو حكاك الظهر، أو مغلق سحاب الفستان. ممتع إذا كنت تحب الفتاة، نعم، وهو يحبها، لكن قبل وفوق كل شيء: دور عملي. هذه الفتاة لديها أمور عليها تجاوزها.

بعد ذلك، بقيا متشابكين على السرير يستمعان للعاصفة. كانت رائحة الهواء عذبة.

همست قائلة، كاسرة حاجز الصمت:

– "لا أصدق أننا نفعل هذا."

لم يتضح ما إذا كانت تعني الأمر جسديًا أم عملياتيًا.

قال:

– "وأنا كذلك."

كانت إجابته صالحة للحالتين.

ورأى في الضوء الخافت أن عينيها تدعوانه إلى بيتها، إلى المنزل الفوضوي الذي يمثل عقلها؛ كانت لفتة ازدادت حميمية بسبب حالتها تلك. ألقِ نظرة، قالت عيناها. وتفرس هو في الأرضيات المخدوشة، والطلاء المتقشر، والأطباق المكدسة على المنضدة. قيّم وضع امرأة تقف في غرفة المعيشة، ويداها في وسطها، وتهز كتفيها كأنها تقول: حسنًا، هذا هو الوضع. هل ستبقى أم ترحل؟

فكر ماكس في قول أشياء كثيرة. لكنه بدلًا من ذلك، أمسك يدها ليتتبع خطوط كفها، وتدحرجا ليواجها النافذة التي تضربها الأمطار، حتى تشابكا معًا بلا كلمات تحت الأغطية، بانتظار أن يتحلل عواء العاصفة ويذوب في النوم.

الجزء الخامس

PREDATEL

الخيانة

الفصل الثالث والخمسون

سانت بطرسبرغ / روس-فارم

بينما كانت الطائرة تهوي نحو المدرج في بولكوفو، عاودت الرعشات سريانها في يد سيا اليسرى بعد توقف قصير ساد خلال الساعات الأولى من الرحلة. كانوا يستقلون طائرة من طراز "داسو فالكون X7" بضيافة فاديم، الذي أرسل الطائرة لتقلهم من لندن؛ كبادرة صلح. اختلست سيا النظر إلى المقصورة العلوية حيث تقبع الحقيبة، تلك التي تحوي خرج السرج، الذي يخفي بدوره الحاسوب المحمول؛ ذلك الجهاز الذي سيتسبب في سجنهم وتعذيبهم، وربما إعدامهم رميًا بالرصاص، إذا ما قرر موظفو الجمارك في بولكوفو أن أموال عائلة أغابوف لم تعد صالحة، أو أنها – في نهاية المطاف – ليست كافية.

حررت المضيفة مزلاج الباب، فتدفق الشتاء إلى الداخل، وغرد الطيار بصوت غير مسموع عبر مكبر الصوت، ولا شك أنها كانت عبارة مشتقة من "مرحبًا بكم في سانت بطرسبرغ!". ارتدوا معاطفهم، وسحب ماكس الحقيبة التي تحوي خرج السرج، بينما جمع المضيفون الحقائب الأخرى والسرج نفسه، ثم تدفقوا جميعًا من الطائرة إلى الدرج بحماس يشبه حماس المدانين حديثًا لحظة وصولهم إلى السجن. تسلم موظف جمارك بملامح جامدة وثائقهم على المدرج، فرسمت سيا ابتسامة عريضة وحاولت تجاهل شعور الذعر وكأنها تُدفن حية. وبعد نظرة سريعة على أوراقهم، ثم تحديق طويل وقاسٍ، أومأ موظف الجمارك إيماءة مقتضبة، وأعاد جوازات السفر إلى ماكس لأن يدي سيا كانتا محشورتين في جيوب معطفها.

كانت سيارة مرسيدس سوداء وحيدة تنفث عادمها على الساحة التي تعصف بها الرياح. وقف فاديم و آنا في الخارج، دون أي سائق في الأفق. لمسة شخصية.. أمر غريب، بل ومثير للاضطراب. ألقى المضيفون حقائبهم والسرج المغلف في الخلف. جعلت رؤية الروسيين سيا ترغب في الهرب، لكنها ابتسمت ابتسامة واسعة ولطيفة، متقمصة دور الضيفة الممتنة والمترقبة. وفورًا، انخرط الجميع في تبادل الأكاذيب.

قال فاديم لماكس وهو يضرب كتفه ضربة خشنة:

– "من الرائع عودتكما."

صافح ماكس يد فاديم الباردة الخالية من الدماء، قبل أن يطبع قبلات على وجنتي آنا، ورد قائلاً:

– "وأنا أيضًا يا فاديم، وأنا أيضًا."

قالت سيا وهي تقاوم الرعب:

– "يا إلهي يا آنا، تبدين رائعة، رائعة حقًا."

ثم تبادلت القبلات مع كلا الروسيين. لكن كذبة آنا كانت الأعظم بينهم جميعًا؛ إذ قالت:

– "أهلاً بكما في سانت بطرسبرغ."

ثم أردفت:

– "مرحبًا بكما في روسيا."

***

التقطت سيا رائحة الدخان والوقود الخفيفة المنذرة بالشر بينما كانت سيارة المرسيدس تسرع عبر البوابات المسننة لتدخل الطريق المكسو بالأشجار الكثيفة المظلمة، والمؤدي إلى المنزل الرئيسي.

وما إن خرجوا من بين الأشجار وظهر القصر أمامهم، حتى ضُربت سيا برعب بدائي لم تختبره من قبل. لم تكن هناك إثارة أو نشوة؛ لم يكن هذا ابتهاج مدمني الأدرينالين، بل كان الرعب الأسود للأسير المقيد ومعصوب العينين الذي يُلقى به في قبو رجل مجنون.

هرع الحمالون نزولًا على الدرج لجمع الحقائب. وجههم ماكس لنقل السرج المغلف إلى كشك الفرس "بينيلوبي". غادرت سيا السيارة، متفاجئة من قدرة جسدها على اتخاذ كل خطوة. جلست على أريكة دائرية ضخمة في إحدى غرف المعيشة تستمع إلى نخب فاديم بالشمبانيا، وتتبادل أطراف حديث عقلاني، محاولة عبثًا تجاهل الغثيان الذي بدا وكأنه يزحف عبر جسدها. فقدت الإحساس بالوقت؛ وبدا العالم وكأنه يدور فقط حول هذا المنزل. انتشلها من شرودها وكزة حادة من آنا، التي كانت تتفحص ساعتها، وقالت:

– "إذا أردنا الخروج لركوب الخيل اليوم يا سيا، يجب أن نذهب الآن. السماء صافية، ولم يتبق لدينا سوى ساعات قليلة من الضوء."

قالت سيا، ربما بصوت أعلى مما ينبغي، وهي تثبت نفسها على الكرسي:

– "لدي شيء ما... إنه في الطابق العلوي."

ترنحت صاعدة إلى غرفة النوم، حيث رفضت النظر إلى الأشياء المظلمة: الفارس المغولي المحتضر في اللوحة، والسرير العملاق حيث أدوا عرضهم أمام الكاميرات. كانت قد أحضرت شريطًا أحمر لتزيين السرج، لكنها جعلت اللاصق زلقًا بأصابعها المتعرقة فلم يلتصق. تخلت عنه، وعادت إلى غرفة المعيشة بالحقيبة دون زينة. أخبرت آنا أن السرج نفسه ينتظرها في الإسطبلات، لكنها لم تستطع

الانتظار لتعطيها الحقيبة. كانت الغصة في حلق سيا متضخمة لدرجة أنها لابد كانت مرئية.

قالت آنا وهي تمرر أصابعها بخفة فوق شعار روس-فارم:

- "إنه جميل."

اختبرت الروسية حجم الجيب بزجاجة مياه من الفولاذ المقاوم للصدأ أحضرها خادم من المطبخ، وقالت:

- "بل ممتاز."

في الإسطبلات، وضعت سيا العدة على فرسها. ثم وضعتا السرج الجديد على بينيلوبي. تصاعد الذعر في صدر سيا بينما كانت آنا، القابضة بإحكام على سكين البيطار، تشق شعار "روس-فارم" المحفور على جلد خرج السرج.

حدثت سيا نفسها:

إنه غير متصل بجهاز الإخفاء على أية حال، أنا متأكدة أن الأمر سيكون بخير. يا إلهي، أرجوك اجعل الأمر يمر بسلام.

عملت آنا بالنصل فوق الجلد المزخرف حتى تمكنت من تمزيق بضع قطع، طامسة الشعار. نفضت تلك القطع فوق كومة من الروث، وداستها بقدمها في الوحل وبصقت على تلك الفوضى. وبإشارة منها لصرف سائس اقترب منهما، قادت آنا بينيلوبي خارجة من الحظيرة بينما تبعتها سيا بفرسها.

امتطتا السرجين وهرولتا شمالًا، باتجاه غابة البتولا وخط الكهرباء الذي لم ترد سيا التفكير فيه. اختفى القصر والحظائر خلفهما، وحلت محلهما حقول ترتدي معاطف من الثلج والجليد عصفت بها الرياح. كانت شمس الشتاء الضعيفة، التي أشرقت منذ ساعات قليلة فقط، ستبدأ رحلة هبوطها خلال بضع ساعات أخرى. وجهتا الفرسين نـزولاً عبر تل متموج، نحو فم الغابة. ركبتا في صمت فوق بقع من

الأرض السوداء المتجمدة، وتحت أشجار البتولا والصنوبر المقطوعة. تعرجتا بجانب جدول تجمد ليتحول إلى جليد أخضر. كان هذا طريقًا مختلفًا عن جولة سيا السابقة المشؤومة عبر "روس–فارم"، لكنه مع ذلك استحضر تلك الذكرى المروعة بتفاصيلها البراقة.

هل يمكنها الوثوق بآنا؟ وهل هما مراقبتان؟

بعد ساعة من الركوب، بدأت سيا تتساءل عن ذلك.

***

راقب تشيرنوف المرأتين وهما على صهوة الجوادين عبر البث المباشر لطائرة استطلاع مسيّرة تابعة لجهاز الأمن الفيدرالي (FSB)، وهي من طراز Orbiter UAV تم شراؤها من الإسرائيليين قبل عقد من الزمان. لم تكن جديدة، لكنها قادرة على حمل الكاميرات وأجهزة الإرسال المطلوبة، ومحركها الكهربائي هادئ، ويمكنها الوصول إلى ارتفاع يناهز عشرة آلاف قدم والتحليق لأكثر من ثلاث ساعات. كان ذلك أكثر من كافٍ لتصوير جولة الخيل الغريبة هذه.

أحضر تشيرنوف العديد من الضباط إلى المزرعة – مشغلي الطائرة بدون طيار، وفريق مراقبة صغيرًا، و دانيل و أركادي للمساعدة في بعض المهام الثقيلة إذا لزم الأمر. استولوا على مبنى إداري قديم عند طرف المزرعة، وهو عبارة عن كومة من الكتل الخرسانية بعيدًا تمامًا عن المنزل الرئيسي. كان تشيرنوف قد فكر في اعتقال الجميع فور وصولهم إلى بولكوفو. والآن يتساءل عما إذا كان يجب عليه انتزاعهم عن ظهور الخيل.

لكن الأمر القذر المتعلق بالحبيب غيّر رأي تشيرنوف في آنا أغابوفا. كانت امرأة صلبة. من النوع الذي لا يعترف، حتى عندما تتطلب ذنوبها ذلك. قد يحبسها، وربما يقتلع أصابع قدميها وأظافرها، لكن في النهاية سيكون ذلك بلا جدوى. بعض الناس لا ينحني ببساطة. وكانت آنا واحدة من هؤلاء. لو ساقها بسرعة إلى سجن بوتيركا، وأجبرها على مشاهدة تقطيع أوصال والدها، لكانت ستخبره ببرود أن

يذهب للجحيم. راجع تشيرنوف، مرارًا وتكرارًا، لقطات المراقبة لشقتها في أوستوجينكا في الليلة التي اكتشفت فيها ذراع عشيقها. الكراهية الخالصة في تلك العيون. لقد رأى مثلها من قبل: في الشيشان، وبيسلان، وسوريا. من الصعب صدّ كراهية كهذه. سيرى ما الذي تدبره مع المحامية، ثم سيقوم بخطوته.

توقفت المرأتان عند مدخل غابة البتولا. وبينما كانت الطائرة تحلق في دوائر، راجع تشيرنوف الخريطة. استقر إصبعه على الطريق الأقرب للخيول. سيكون الأمر صعبًا على الميكروفونات الموجهة. شغّل جهاز اللاسلكي واتصل بفريق المراقبة معطيًا الإحداثيات، وقال:

– "اسلكوا الطريق الشمالي. إنه يحاذي أسفل التلال. سيكون هناك خط كهرباء في الأعلى."

***

أوقفت آنا الفرس بينيلوبي، وتوقفت سيا بمحاذاتها. كانت آنا مثبتة نظرها على بركة متجمدة في الفسحة التي أمامهما. صهلت الفرس، وتسطح القش الميت قرب البركة بفعل الرياح. سألت سيا:

– "أين أقرب طريق؟"

أشارت آنا بذقنها شمالًا، نحو التلال، وقالت:

– "لنذهب أعمق داخل الغابة."

هرولتا لبضع دقائق وسط أشجار البتولا التي تزداد كثافة. ثم أوقفتهما آنا.

قالت سيا:

– "لدينا أجهزة اتصال جديدة لكِ."

ترجلت عن الفرس، فصدر صوت قرقعة الثلج تحت قدميها. راقبت آنا بفضول بينما اقتربت سيا من بينيلوبي.

نظرت سيا لأعلى نحو آنا وقالت:

– "عليكِ أن تترجلي."

بابتسامة باهتة، امتثلت آنا. فتحت سيا أحد جيوب خرج السرج، وأخرجت الأكواب القابلة للطي المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ، وعدلت الحزام، وضغطت على المشابك الثلاثة. أشارت لآنا لتنظر إلى الداخل. حركت سيا اللوحة الجلدية السائبة التي لا تزال داخل الجيب، ثم سحبتها للخلف لتكشف عن الحاسوب المحمول.

قالت سيا:

– "نفس الجهاز السابق."

سألت آنا:

– "كيف يُفتح الجيب المخفي؟"

أرتها سيا الطريقة. حدقت آنا في الحاسوب، وعضت شفتها ثم أغلقت الجيب.

قالت سيا:

– "تسلسل لوحة المفاتيح مختلف. مشاكل تقنية. نحتاج أن نتدرب."

***

سأل تشيرنوف مشغل الطائرة المسيّرة:

– "أتستطيع الحصول على رؤية أفضل؟"

أجاب المشغل:

– "سأحاول. إنهما في عمق الأشجار."

تواصل تشيرنوف لاسلكيًا مع فريق المراقبة. قال القائد:

– "الصوت رديء. إنهما بعيدتان نوعًا ما."

قال تشيرنوف:

– "مرر الصوت على أية حال."

نقر للدخول إلى البث المباشر الذي يُرسل إلى الحاسوب. كانت آنا تتحدث: "مسافة... تحكم..."، ثم انقطع الصوت لبضع ثوانٍ. سمع المحامية تقول: "مرة أخرى... حرف الجي... إدخال...". واستمر الأمر على هذا المنوال. تشويش أزيز، وكلمات غير مفهومة. حك رأسه الأصلع. يا له من أمر غريب.

ضيق عينيه محدقًا في بث الفيديو على حاسوب المشغل، وسأل:

– "ماذا تفعلان؟"

– "لا أستطيع التحديد. إنهما واقفتان بجانب الخيول. ربما تشربان شيئًا."

***

بعد خمس عشرة محاولة، اعتقدت آنا أنها أتقنت الأمر. فتحت الجيب وأغلقته مرة أخرى لتتأكد. مسحت على ضلوع بينيلوبي وكتفها، وهي تحدق شمالًا، نحو التلال.

أرسلت التلال تلك الرعشات الكهربائية الصغيرة لتسري أسفل عمودها الفقري. طقطقت فكها وامتطت بينيلوبي ونظرت لأعلى نحو شمس الألمنيوم الشاحبة. كانت سيا تبدأ المسير شمالًا، نحو فم الغابة والمراعي المفتوحة.

نادت آنا وهي توجه بينيلوبي جنوبًا:

– "لنذهب من هذا الطريق. المكان جميل هنا."

توغلتا أعمق في الغابة، متسللتين حول البركة نحو سفح تل مكدس بالأشجار والصخور. كان هناك نتوء صخري وعر عند قاعدة التل. ترجلتا، وظنت آنا أنها رأت يد سيا ترتجف عندما ربتت على حصانها. هل لاحظت سيا أيضًا شيئًا مريبًا؟

سكبت آنا البراندي في الأكواب. انحنيتا تحت النتوء الصخري وجلستا على الصخور ونظرتا لبعضهما البعض للحظة. شعرت آنا بوميض من الرفقة مع هذه المرأة؛ فهما مرتبطتان بالآليات الكئيبة لما وضعتاه قيد الحركة.

همست سيا:

– "هل لديكِ أحد هناك؟"

قالت آنا:

– "لا."

جلس تا في صمت. تكسر غصن في المسافة البعيدة. ثم ظنت آنا أنها سمعت أنينًا منخفضًا يكاد لا يُدرك. ربما في السماء. قالت آنا:

– "لا أظن أن أحدًا يمكنه سماعنا هنا. لكن لا ينبغي أن نطيل البقاء."

تصلب وجه سيا وقالت:

– "لو رآك أحد وأنت تتدربين..."

تجرحت آنا البراندي في رشفة واحدة حارقة، وقالت:

– "إذًا نحن في عداد الموتى."

***

قال دانيل:

– "ما رأيك يا زعيم؟"

كان فريق جهاز الأمن الفيدرالي يحدق في بث الطائرة التي تحلق دائريًا. لقد اختفت المرأتان بين الصخور.

انبعثت طقطقة خالية من الكلمات من الميكروفونات الموجهة.

تمتم دانيل وهو يقطب أنفه:

– "ربما هما عاشقتان. موعد غرامي بين الصخور المكسوة بالثلوج. زوجها يكرهها، وهي تكرهه، من يدري؟"

الآن، اعتقد تشيرنوف أنه عثر على شيء أكثر إثارة للاهتمام بكثير من محامية لعوب تبيع أسرار رئيسها لمنافس. ما لم تكونا عاشقتين – وهو لم يصدق ذلك للحظة – فلم ير أي سبب لهذا الانحراف إلى الغابة. لديهم حمام البخار، لديهم القصر، لديهم روسيا كلها. لا، هذه الجولة لم تكن منطقية. كان هذا أكثر من مجرد بحث أغابوف وابنته عن أموالهم المفقودة. بدا الأمر شريرًا، وآثمًا.

بدا وكأنه خيانة عظمى.

الفصل الرابع والخمسون

روس–فارم

كانت آنا تدحرج حصاة ملساء بين أصابعها، قبل أن تلقي بها على الأرض.

سألت:

– "متى سيبدأ الأمر؟"

أجابتها سيا:

– "أسبوعان، وربما ثلاثة."

– "هذا وقت طويل جدًا. ماذا تنتظرين؟"

– "المزيد من المعلومات. حين تسجلين الدخول إلى الحاسوب ستجدين رسالة بانتظارك تحوي بعض الأشياء الإضافية التي نحتاجها؛ عناوين، وأرقام هواتف. لقد تباحثنا طويلًا مع محامينا حول ما يمكننا وما لا يمكننا فعله، وضد من. لدينا بضعة أهداف جديدة."

أومأت آنا برأسها، لكن وجهها كان متغضنًا بالاضطراب. قالت لسيا:

– "انظري إليّ. انظري جيدًا."

نظرت سيا في عيني آنا.

قالت آنا:

– "أنا أفعل هذا لأنني أريد لـ الإوزة أن يموت أو يضمحل نفوذه. أريد لأبي أن يتحرر، وأريد لـ فاديم أن يرحل. الأمر بسيط. هل يمكنكِ أن تضمني لي أن هذه العملية ستحقق ذلك؟"

– "أستطيع أن أضمن لكِ وضع معلومات تدينهم في أيدي كبار المسؤولين الروس. أما الباقي؟ أرجوكِ يا آنا، أنتِ تعلمين مثلي تمامًا أنه لا توجد ضمانات."

بدت آنا وكأن في جعبتها أسئلة، لكنها لم تطرحها. كانت الطيور السوداء تحدث حفيفًا بين الأشجار. هل كان هناك شيء ما هنا معهما؟

همست سيا:

– "أريد مناقشة خطة الإجلاء معكِ."

قاطعتها آنا بحدة:

– "قلت لكِ لا في سويسرا. لا تضغطي عليّ في هذا الأمر مرة أخرى يا سيا."

كانت سيا مندمجة في الحديث لدرجة أنها لم تلاحظ إلا الآن تلك الرعشة اللعينة تعود لتضرب يدها اليسرى. ضمت يدها على شكل قبضة.

روسية غاضبة.

في ذلك الصمت المربك، خلعت آنا قبعتها لتحك رأسها. لم تلاحظ سيا ذلك في وقت سابق، لكن تحت الضوء رأت بضع خصلات رمادية مجدولة في شعرها الأشقر. بدت وكأنها خاوية من الداخل، وقد حفرت الظلال أخاديد تحت عينيها.

قالت سيا بصوت خافت:

– "آنا، هل حدث لكِ شيء؟"

اشتعلت عينا الروسية. وللحظة طويلة وثقيلة لم تنبس آنا ببنت شفة، ثم قالت:

– "لقد سلبوا مني شيئًا."

همست سيا:

– "أخبريني ما هو، ومن الفاعل؟ أرجوكِ. الوقت ضيق جدًا."

قالت آنا:

– "كان لي حبيب. قتله الإوزة. وقتله كلبه تشيرنوف. جميعهم قتلوه."

حملت الرياح كلمات آنا بعيدًا. فكرت سيا في التوجه إلى الطائرة؛ أن تستقل سيارة وتتجه مباشرة إلى بولكوفو.

وقفت آنا وقالت:

– "والآن، أنا متأكدة من أنكِ تتساءلين عما إذا كانت معلوماتي صحيحة. ربما تظنين أنني أعاني من ضائقة عاطفية، مجرد فتاة صغيرة محطمة."

ركلت آنا صخرة بقدمها وتابعت:

– "قولي لأطبائك النفسيين أن يغربوا عن وجهي نيابة عني، اتفقنا؟ لم أكن يومًا أكثر يقينًا بشيء في حياتي كما أنا الآن. طريقنا واضح."

حدثت سيا نفسها:

سأعود إلى المنزل، وأجمع ماكس. سنقول إن أمرًا طارئًا قد حدث. سنقول إن والده مات. سنقول أي شيء للوصول إلى المطار.

قالت سيا، منتقية كلماتها بحذر المحامين:

– "آنا، أنا آسفة للغاية. آمل أن يساعدكِ عملنا معًا في العثور على بعض السلام."

امتعض وجه آنا، وقالت:

– "لقد عرفت الحب مرتين في حياتي. من أمي، ومنه. والآن كلاهما رحل. سُلِبوا مني. هناك حسابات يجب تسويتها. أنا أبحث عن أشياء يا سيا، لكن السلام... حسنًا، السلام ليس واحدًا منها. السلام يعني أنهم سينتصرون. وأنا أريد الفوز."

***

اتجهتا شمالًا نحو المرعى باتجاه الإسطبلات. وفي الغسق المتجمع، رسمت التلال العالية ظلالًا باهتة عبر الحقول. لمع شيء ما في السماء، طيف ينزلق عبر الغيوم الرمادية التي تشبه الكتان.

وعندها، وأخيرًا، أدركت سيا الأمر.

شعرت بالحرارة والبرودة في آن واحد. كان بإمكانها شم رائحة العرق تتحدر على ضلوعها.

كان الليل يهبط عندما علقتا السرج واللجام. أخرجت الخيول رؤوسها من حظائرها. سحبت سيا آنا بقوة إلى داخل كشك الفرس "بينيلوبي". رمقتهما الفرس بنظرة تساؤل وهي تمضغ علف المساء. جذبت سيا أذن آنا إلى فمها وهمست:

– "إنهم يراقبوننا. نحتاج إلى خطة يا آنا. الآن."

***

كانت الطائرة المسيّرة تحوم فوق الرؤوس، ملتقطة صورة المرأتين وهما تسيران من الإسطبلات إلى المنزل. تحول تشيرنوف إلى البث القادم من داخل المنزل. صعدت المحامية إلى غرفتها وشغلت الدش، بينما ذهبت آنا إلى مكتب في الطابق الأول لا تغطيه الكاميرات.

بلياد. اللعنة.

عاد بلقطاته إلى المحامية. كان الهاتف في يدها، ويدها الأخرى تتدلى تحت ماء الدش تختبر حرارته.

قالت سيا:

– "مرحبًا روندا، هذه سيا. أهلًا، نعم، كل شيء جيد هنا. الجو كئيب قليلًا بسبب الطقس لكن الصحبة رائعة. رائعة حقًا. أتصل من أجل الموجز حول اجتماعات أكتون هذا الصباح. كوني لطيفة وأعطني أبرز النقاط؟"

استمعت المحامية، وطرحت بضعة أسئلة. ثم خلعت ملابسها ودخلت تحت الدش.

قلب تشيرنوف إلى الكاميرات التي تغطي الرواق خارج المكتب. كان الباب مغلقًا. وآنا في الداخل. ما الذي كانت تفعله؟

الفصل الخامس والخمسون

بالو ألتو

هطل مطر خفيف على بالو ألتو، لكن فريق "طروادة" كان قد غطى نوافذ مركز قيادة "وي وورك" بالورق، فلم يكن لدى أحد أي فكرة عما يجري بالداخل. حُشرت علبة فارغة من حلوى عرقسوس "ريد فاينز" في سلة المهملات، وعُرض بديلها بفخر على طاولة بجانب كوب عملاق من القهوة بنكهة الكرز وبضعة أكياس من حلوى "تويزلرز". كان مضرب بيسبول بروكتر الموقع مستندًا في زاوية مظلمة. التقطته ومشت نحو الضوء الأزرق المتوهج لشاشة حيث جلس سنيك واضعًا يديه على فمه في شكل مثلث وقور. ضغط على زر التشغيل.

– "مرحبًا روندا، هذه سيا. أهلًا، نعم، كل شيء جيد هنا. الجو كئيب قليلًا بسبب الطقس لكن الصحبة رائعة. رائعة حقًا. أتصل من أجل الموجز حول اجتماعات أكتون هذا الصباح. كوني لطيفة وأعطني أبرز النقاط؟"

خلال المحادثة التي استمرت دقيقتين وخمس وعشرين ثانية، أشارت سيا عبر كلمات مشفرة خرقاء إلى أنهم تحت مراقبة معادية، وأطلقت إشارة البدء بخطة الإجلاء.

فكرت بروكتر:

كان صوتها مشدودًا للغاية.

منهكًا.

التفت يدا بروكتر الصغيرتان بإحكام حول مقبض المضرب المصنوع من خشب الدردار.

فكرت في الاتصال بـ برادلي، لكنها قررت العدول عن ذلك في الوقت الحالي. تجرعت نصف كوب القهوة بنكهة الكرز، ومسحت فمها. لم يكن أي من هذا منطقيًا.

قالت لسنيك:

– "اجعل فريق العقرب يخرج من مكمنه. وأخبر أولئك الفنلنديين اللعناء أن يستعدوا لاستقبال ثلاثة أشخاص."

الفصل السادس والخمسون

روس-فارم

أغلقت آنا باب المكتب في الطابق الأول من روس-فارم بقوة. ساد السكون أرجاء المنزل، إذ بدا أن ماكس و فاديم لا يزالان في الحمام البخاري. تحركت بسرعة، وهي لا تعلم حجم الفريق المهاجم ولا نواياهم.

لا بد أن المراقبين هم من رجال تشيرنوف. إنهم يعملون مع فاديم.

حدثت نفسها بذلك، ثم تساءلت:

كيف لا يكونون كذلك وهم يملكون صلاحية الوصول للكاميرات؟

كان للمكتب باب آخر يفضي إلى ممر متعرج يؤدي إلى موقف سيارات الموظفين المفروش بالحصى، حيث تُترك المفاتيح عادة داخل السيارات. اتصلت بفاديم، لكن لا مجيب؛ تحوّل الاتصال مباشرة إلى البريد الصوتي.

ذاك الوغد.

فتحت خزانة الأسلحة على مصراعيها، وبينما كانت تتأكد من تفعيل وضع الأمان، دكّت مخزن الذخيرة في مسدس MP-443 وحشرته في جيب معطفها الـ"دوبليونكا". والتقطت مخزناً إضافيًا من باب الاحتياط. عثرت على رصاصة عيار تسعة مليمترات سائبة في أحد الصناديق، فلقّمت بها مسدس أحمر الشفاه وخبأته في الجيب الداخلي عند صدر معطفها. لم يكن في هذا السلاح زر أمان، فوجهت فوهته إلى الأسفل بعيدًا عن جسدها.

غادرت المكتب بخطوات حثيثة عبر الردهة وصولًا إلى ساحة الحصى. وجدت سيارة لاند كروزر، لكنها كانت مغلقة. وأخرى كذلك. ثم لمحت سيارة بي إم دبليو سوداء غير لامعة، نُقش شعار روس-فارم باللون الذهبي على بابيها الأماميين. كانت مفتوحة، والمفاتيح في حامل الأكواب.

التهديدات تحيط بي من كل جانب، لكنهم يراقبون وينتظرون. ينتظرون ماذا؟ الحركة وحدها ستجيب عن هذا السؤال.

داست على دواسة الوقود، فانحرفت مؤخرة السيارة "بي إم دبليو" على الممر الجليدي. قررت أن تتفقد وجود أي مراقبة، ثم تعود لأخذ سيا وماكس إذا تأكدت من نظافة الطريق أو استطاعت صنع فجوة للهروب. انطلقت نحو الطريق الشمالي. لا أثر لأي تتبع، ولا أضواء، ولا حواجز. في غضون دقائق، وجدت نفسها وحيدة على الطريق المظلم، حيث تلوح أشجار البتولا والصنوبر على الجانبين كأنها منحدرات صخرية عملاقة. اتصلت بفاديم مرة أخرى. البريد الصوتي. كشفت أضواء السيارة الأمامية عن غزالين يندفعان عبر الطريق. تفحصت المكان بحثًا عن المزيد، وعيناها تنتقلان بسرعة بين الخندق وحافة الطريق.

ثارت عاصفة ثلجية مفاجئة. وضعت آنا الهاتف جانبًا وأطبقت يديها على المقود لعدة كيلومترات. حاولت تحليل المشكلة في ذهنها، لكن لا شيء كان واضحًا.

لا أستطيع رؤية نهاية اللعبة.

كان الثلج يتساقط كثيفًا ومتسارعًا، حتى عجزت عن رؤية الطريق اللعين أمامها.

وفجأة، بينما كانت تعتلي مرتفعًا، انعكست الأضواء الأمامية في عينين ذهبيتين متوهجتين. ضغطت المكابح بقوة وأطلقت العنان للبوق. قفز اثنان من الغزلان مبتعدين، لكن الثالث لم يفعل. ارتطمت السيارة بالغزال الذي أعماه الضوء، وطرحته أرضًا.

تمتمت آنا:

- "تبًا.. تبًا."

عادت بالسيارة إلى الخلف وخرجت عن الطريق الخالي. لم تنفتح الوسائد الهوائية، ولم تضئ أي إشارات تحذيرية. كان المحرك يهدر ونظام التدفئة يعمل. حاول الغزال الوقوف فسقط. حاولت أنثى الغزال النهوض مرة أخرى، لكن إحدى ساقيها الخلفيتين كانت مهشمة. لم تجد موطئ قدم، فسقطت مجددًا. نظرت آنا ناحية الأشجار.

أدركت آنا أنه لن يكون هناك وضوح.

من الآن فصاعدًا، الأمر متروك للحدس والغريزة فقط.

مدت يدها داخل معطفها ممسكة بالمسدس، وتتحسس وزنه بين كفيها الصغيرتين. يوم دفنوا أمها، قال والدها إن الموت هو الحرية. ظنت حينها أنه يهذي - وهو ممتلئ بتلك الأفكار- لأنه كان يتشبث بمرارة بألم هذه الحياة. مالت رأس الغزالة نحو السيارة.

الموت هو الحرية.

سمعت صوت أبيها يتردد في أذن طفلة صغيرة لم تعد تعرفها.

همست وهي تنظر إلى عجلة القيادة:

- "بيزديتس."

فليذهب كل شيء إلى الجحيم.

فتحت الباب وترجلت والسلاح في يدها. سرعان ما غطت رقاقات الثلج المنتفخة معطفها. وبينما كانت تمشي نحو الحيوان، أصغت السمع لتلتقط صوت محرك يقترب، لكنها لم تسمع سوى أنفاس الغزالة المتقطعة والمجهدة، وصوت خطواتها هي وهي تسحق الثلج.

***

من علٍ، مخترقة غطاء السحب لتحصل على رؤية واضحة، التقطت طائرة المراقبة المسيّرة صورة لآنا وهي تتفقد إصابات الغزال المنازع. وضعت يدها على رأسه وانحنت لتهمس في أذنيه المرفوعتين. ولولا كثافة الثلج، لربما رصدت الطائرة عينيها المغمضتين للحظة، وكأنها في صلاة.

***

نظرت آنا في عيني الغزالة الخائفتين، اللتين كانتا تلمعان بالبلل تحت الثلج المتساقط. مررت أصابعها برفق من أنف الغزالة صعودًا عبر خطمها وحتى رأسها.

ثم، وكأنها ترى رقعة الشطرنج من زاوية جديدة، وكأنها سارت قُدمًا عبر الزمن، تشكلت خطوات آنا التالية في ذهنها؛ بقعة يابسة في أفق بعيد، هي نهاية اللعبة. مسدت آنا رأس الحيوان وقالت:

– "أنا آسفة لأنني استغرقت وقتًا طويلًا لأقرر."

ربما كان الموت حرية حقًا.

لكن آنا لن تحظى بمثل هذه الرحمة.

سأنتصر. سأعيش.

تراجعت آنا للخلف، وألغت تأمين السلاح، وأطلقت ثلاث رصاصات على رأس الغزالة. دوت الطلقات بين أشجار البتولا. سكن صدر الغزالة، واصطبغ الثلج تحت رأسها باللون الأحمر مع تدفق حياتها خارجه.

ظهر ضباب أحمر في الثلج بعيدًا خلف الغزال، ووميض أزرق متقطع. وبينما كانت تستدير، سمعت هدير محرك ينساب عبر العاصفة، وسرعان ما ظهرت سيارة سوداء تعتلي المرتفع المنخفض خلفها. توقفت السيارة بجوار الغزال. هرع

رجلان منها، شاهرين سلاحيهما. رفعت سلاحها ببطء فوق رأسها، ثم وضعته في الثلج ورفعت يديها مستسلمة.

الفصل السابع والخمسون

روس-فارم/ بالو ألتو

لم يكن حمام البخار في روس-فارم، حاله كحال المزرعة نفسها، مكانًا يسهل العثور فيه على الراحة. كان ماكس قد طلب رؤية بينيلوبي، وربما القيام بزيارة إلى سموكي جو، لكن فاديم أصر على أن يستهلا وقتهما بجلسة بخار.

قال فاديم:

- "سيكون الأمر مريحًا؛ فالحرارة ستُهدّئ أذهاننا قبل أن ننتقل للحديث في العمل."

لكن الساونا كانت حارقة لدرجة أن ماكس لم يحتمل البقاء فيها سوى دقائق معدودة. أما حوض الغطس المتجمد، فقد امتص الهواء من رئتيه وجعل رجولته تنكمش كثمار تين ذابلة. كان فاديم يبدو مركزًا تارة، وعيناه ملتصقتان بهاتفه ينقر عليه ويمرر الشاشة، وتارة أخرى يبدو شاردًا، والهاتف يرن ويرن دون إجابة أو اهتمام. ومنذ دخلا حمام البخار، لم يتبادلا كلمة واحدة. وفي جولتهما الثالثة داخل الساونا، رش ماكس مغرفة من الماء فوق الصخور المتراكمة أعلى الموقد المصنوع من الحديد الزهر.

وبينما كان يحدق نحو غرفة المسبح الكئيبة، استند ببطء على المقعد الذي أصدر صريرًا، ثم طقطق بلسانه كاسرًا حاجز الصمت:

- "أين الفتيات يا فاديم؟"

أجابه:

– "أصرت آنيا أن ألتزم حسن السلوك. لأجلك أنت، كما أظن."

– "إنها امرأة مراعية."

– "ليس معي."

جاءت نبرته باردة رتيبة، وكأنه يصف عطلاً في جهاز مطبخ.

سأله ماكس:

– "لماذا دعوتني إلى هنا يا فاديم؟"

– "لنتحدث في العمل."

– "لم نتحدث كثيرًا."

– "تحدث إذًا."

– "الفرس، بينيلوبي. ستعود إلى سان كريستوبال. هذا الحصان هو عملنا الأول والوحيد الذي سنناقشه."

عبر الهواء الساخن، ومن وضعية إسناد ذقنه على باطن كفيه، رمق فاديم ضيفه بنظرة تحمل تسلية بائسة.

– "دع المحامين يتدبرون الأمر. يمكننا أن نكون عقلانيين، أليس كذلك؟ بل وحتى محترمين. سباق الخيل رياضة الملوك في نهاية المطاف. والشجار أمر لا يليق بمقامنا يا ماكس."

كان ماكس يبتسم، لكن الدعابة لم تصل إلى عينيه.

– "القتال، على ما أعتقد، هو كل ما تبقى لنا."

انتزعت هذه الجملة ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان فاديم، قبل أن تخفيه سحابة بخار تصاعدت من الصخور. وحين انقشعت السحابة، كان الروسي ينظر برأسه نحو الأرض.

– "هل يمكنني إخبارك بشيء أجده مثيرًا للاهتمام؟"

بصق ماكس، وحدق في فاديم.

تابع فاديم:

– "أنا لم أنشأ في هذه المزرعة. ومع ذلك، حتى أنا أعرف متى تقترب العاصفة. أشعر بها قبل أن يرصدها الرادار. لم أكبر في الأرض كما فعلتَ أنت في سان كريستوبال، لكن لدي رابط بهذا المكان، وهو يتحدث إليّ. أعلم، على سبيل المثال، أن عاصفة ثلجية قادمة. عاصفة هوجاء ستصل الليلة. وأقسم لك أنني لم أهتم ولو قليلاً بتقارير الطقس اليوم. الضغط يتغير. الهواء يزداد رطوبة ويحمل نكهة معدنية خفيفة. هل يمكنك تذوقها؟ أو شمها؟ أخبرني يا ماكس."

– "نحن في غرفة بخار لعينة يا فاديم. حواسي ليست مضبوطة بهذه الدقة."

ضحك فاديم بظلامية وهو ينظر لركبتيه.

– "أنت تريد ركوب بينيلوبي اليوم، نعم؟ ذكرت سابقًا رغبتك في الذهاب إلى الإسطبلات؟"

– "ربما ليس مع قدوم عاصفة ثلجية."

أحكم فاديم المنشفة حول خصره، وعبر الغرفة ليجلس بصرير المقعد بجوار ماكس.

وقال:

– "من الحكمة ألا تركب الخيل في الطقس القاسي."

أمسك بكتف ماكس، ثم ضرب بكفه المبللة على أسفل ظهره العاري.

– "ولأنك حكيم يا ماكس، أتساءل لمَ عدت."

– "أنت دعوتني."

ارتجفت يد فاديم بانفعال.

– "نعم، نعم، بالطبع. لكن كلانا يعلم أن هناك أشياء تطفو تحت السطح. أشياء أعمق من مجرد دعوة بسيطة، وهي بالطبع لم تكن بسيطة. قوى غير مرئية، لكنها حقيقية للغاية. وقوية. أقوى منا. نحن مجرد بيادق يا ماكس. نحن عرض جانبي في هذه القضية برمتها. على الأقل الآن. ربما لم نبدأ من هنا، لكنني أخشى أن هذا هو المكان الذي انتهينا إليه."

حدق فاديم أمامه مباشرة، وعيناه تبارزان عقد الخشب في الجدار.

– "تحدث بوضوح يا فاديم."

– "لدي قصة جيدة عن نابليون، هل تريد سماعها؟"

– "لا."

– "ربما تكون ملفقة، لكني أحبها نوعًا ما. سُئل ذات مرة عن الصفة التي يقدرها أكثر في جنرالاته. هل تعلم ماذا قال؟"

تردد صوت رنين معدني في غرفة المسبح. وتبعه همهمات.

كرر فاديم:

– "هل تعلم؟ هل سمعتها؟"

خطوات أقدام. وأصوات.

ألقى فاديم مغرفة أخرى من الماء على الصخور، فغغى ضجيج البخار على الأصوات.

– "تبًا يا فاديم، لا. لم أسمعها."

– "قال نابليون إنه يفضل أن يكون جنرالاته محظوظين."

مرر فاديم يديه عبر شعره الأملس، وتصلبت شفتاه في ابتسامة متجهمة.

تابع قائلاً:

– "لقد كنتُ محظوظًا لأنني جربت ضيافتك في المكسيك قبل أن تزورنا هنا في روس–فارم. أنت من سفك الدم أولاً، كما يقولون، خلال ليلتنا القصيرة تحت المطر. لكنك فعلت ذلك دون أن تعرف شكل المعركة، والمدى الذي قد أذهب إليه لأنتصر. لقد ارتكبت خطأً، وإن كنت لا أدري كيف كان لك أن تعرف. والآن قد عدت. من أجل حصان؟ مستحيل. أنت تكرهني لأنني استوليت على فرس والدتك، لكنك هنا لتلك الأسباب الأعمق، تلك الأشياء غير المرئية التي تظن صديقتك سيا أنها مخفية عني. وعنا. إنها فتاة سيئة يا ماكس، فتاة سيئة للغاية. ومحامية محتالة تلعب لعبة مزدوجة خطيرة نوعًا ما، ألا تظن ذلك؟ تخفي الأموال لمنافسي عائلتنا ثم تحاول إخفاء أموالنا. تلعب على كل الحبال. لكن ما هي لعبتها الحقيقية؟ لدي أفكار. ونظريات. لكن مهما كان الأمر، فقد تجولت عائدًا إلى شبكتي..."

بدأ فاديم يحرك أصابعه كأرجل العنكبوت زاحفًا نحو ساق ماكس.

– "...كما تجولتُ أنا ذات مرة داخل شبكتك في سان كريستوبال. هؤلاء النساء، هاه؟ يا لها من رفقة فاسدة نعيش وسطها. يا إلهي، أحيانًا أفكر أنه ما كان يجب عليّ أن أتزوج أبدًا، بل أن أتنقل من عاهرة لأخرى. كان ذلك ليكون ثمنًا أقل وحشية مما دفعته لزوجتي، تلك الشيطانة ذات القلب غير المكتمل. إنها من فصيلة النساء اللواتي يرين معاركهن دائمًا عادلة، لذا فهي مطالبة بالقتل في سبيل

قضاياها. تقتل من تشاء. قد تقتلنا جميعًا إن اضطرت لذلك. وربما تفعل يا صديقي، ربما تفعل."

توقفت أصابع العنكبوت، وتحولت إلى أنياب تلدغ الهواء، ثم انسحبت لتساعد في إخراج المخاط من أنفه.

تدحرجت همهمات عند الباب المغلق. نظر فاديم إلى ماكس، الذي قابله بنظرات قاسية غير رامشة.

– "أعد إليّ حصاني اللعين."

قال فاديم:

– "الجو حار بشكل لا يطاق هنا."

نهض وفتح الباب. اندفع صوت الأصوات وصوت خوض الأحذية في الماء ورائحة الأسمنت البارد. أُغلق الباب بقوة، واختفى فاديم، ولم يبق سوى نبضات قلب ماكس تضرب في صدغيه.

تجمد ماكس للحظة، والرعب يملأ حلقه.

همس:

– "يا إلهي... يا إلهي."

وضع رأسه بين يديه. سحب نفسًا طويلاً من الهواء الحارق عبر فتحتي أنفه. أحكم ربط المنشفة حول خصره. ثم وقف مستقيمًا وخرج من غرفة البخار وانتفض متوقعًا ضربة. لكن لم تكن هناك ضربة، ولا كيس فوق الرأس، ولا طلقة نارية، ولا حرقة نصل يُغرس في جسده.

لم يكن هناك سوى رجلين يقفان بجوار فاديم.

كانا يرتديان سترات بقلنسوات مبطنة بالفراء وأحذية ثقيلة، وتوحي عيونهما القاسية الميتة بأنهما قد يكونان عمال مناوبة في خط إنتاج مسلخ. هذا هو عملهم. وهذا مجرد يوم آخر في العمل.

وقف ماكس مكانه. عقد فاديم المنشفة حول خصره، وشدها ليتأكد من إحكامها.

قال فاديم:

– "أنا لست معتادًا على العنف يا ماكس. مجرد مشاجرات قليلة في المدرسة، ولم أقتل سوى شخص واحد. عابرة سبيل في سانت بطرسبرغ. صدمتها بسيارتي. حادث عرضي تمامًا."

قال ماكس:

– "حصاني.. أريد الحصان اللعين."

– "عندما ينتهون منك، سأقوم بذبح فرسك، أو فرسي، كما يجدر بي القول. وإذا كنت لا تزال حيًا، فستشاهد ذلك يحدث. سيقوم طهاتي بتجميد لحمها، وفي كل أسبوع، وربما كل يوم، سأتناول المزيد منها. أنا لا أهتم كثيرًا بلحم الخيل، لكني سأستمتع بهذه القطع. أنا..."

تنهيدة معدنية ثقيلة. ثم انقطعت الكهرباء.

وللحظة، سكن العالم.

إذا رفعت إشارة الطوارئ، كما قالت بروكتر في سانت آيفز، سنجعل فريق "العقارب" يقطعون الكهرباء. سنعمي الكاميرات.

لعنات روسية ووقع أقدام.

حفيف سترات، ونخزات غاضبة.

تحرك.

ثم سُمعت نقرة، وراح ضوء مصباح يدوي يمسح الغرفة.

كان ماكس يركض نحو الباب عندما أعلنت نقرة شريرة ثانية عن وصول ألم لا يُوصف. تيبست عضلاته واشتعلت. سقط على الأرض الخرسانية، وسرعان ما انحنت أشباح فوقه. كانت الغرفة مظلمة، ورؤيته مشوشة، وكل وتر وعضلة تشتعل ألمًا، وكان يشاهد الأسلاك تتدلى من صدره تحت وهج المصباح اليدوي.

ناداه صوت فاديم من الظلام في الأعلى، ثم توالت نوبات الألم في ضلوعه وصدره، واستطاع شم رائحة عرق الرجل، والشعور بوجه الروسي يحوم فوق وجهه مباشرة. سحب الرجلان فاديم بعيدًا واختفى في عمق الغرفة.

سمع فاديم يعوي في الظلام:

– "إنها شريحة لحم.. بينيلوبي أصبحت شريحة لحم يا صديقي."

صوت ارتطام باب.

أنفاس ساخنة على وجهه. ثم زمجرة كلمات روسية غاضبة و...

***

أخذوا سيا بعد أقل من دقيقة من انقطاع الكهرباء. رجلان. ركلا باب غرفة النوم، وتمكنت هي من قذف طاولة جانبية نحو أحدهما قبل أن تسمع نقرة المسدس الصاعق. بعدها تشنجت، وخدُر جسدها، وغابت عن الوعي.

الآن، استيقظت سيا وهي تُسحب، وكان الظلام داخل الكيس الذي يغطي رأسها حالكًا كما كان في المنزل أو في كهوف عقلها اللاواعي. كانوا يحملونها.

هل يمكنها إرسال إشارة استغاثة إلى آنا؟ أو إلى لانغلي؟

لكي تحجب الخوف، تشبث عقلها بتلك المعضلة وهم يرتطمون بها بجدران الممر. لم تكن لديها أي أفكار. ألقى بها حاملوها على أرضية صلبة. سُمع صوت مفتاح كهربائي لكن لم يظهر ضوء. المزيد من اللعنات. ظلام. صمت. تساءلت عما فعلوه بماكس. انقلبت على جنبها وانتظرت الموت.

***

سحقت بروكتر علبة "جولت" الفارغة بين يديها ورمتها نحو سلة المهملات، فأخطأتها بمسافة بعيدة. كان سنيك يتصل بـ برادلي عبر دائرة الفيديو الآمنة (SVTC)، وهو يشتم لأن الاتصال ينقطع باستمرار. أسندت بروكتر مضرب البيسبول إلى المكتب، وفتحت علبة "جولت" أخرى، وضربت الطاولة بكفها صائحة بـ جورجي إن كان جاهزًا، يا رجل، علينا أن نتحرك بحق الجحيم، وبسرعة.

لو وضع أحدهم جهاز قياس ضغط الدم على ذراع "الرئيسة" في تلك اللحظة، لعُذر إن هو هرع عبر الردهة باحثًا عن جهاز صدمات القلب. وحتى بروكتر، التي كانت مثل حيوان بري متناغمة مع إيقاعات جسدها دون وعي حسي بوجودها، تساءلت عما إذا كان قلبها اللعين سينفجر كحبة عنب دُهست بالأقدام.

كان التقنيون يجهزون مصفوفة الهواتف. تجرعت علبة المشروب دفعة واحدة.

تمتم جورج:

– "نحن جاهزون. هذا الاتصال سيبدو وكأن المطعم يحاول تأكيد حجزها للأسبوع القادم. اسمه... سانت بيثاني."

قرأ الاسم من وثيقة يقلب أوراقها.

جزت بروكتر على فكيها وتدربت بصمت على جملها بصفتها مسؤولة الحجوزات في "سانت بيثاني". وحين اطمأنت، طلبت الرقم. تحول مباشرة إلى البريد الصوتي. ضربت سماعة الهاتف بقوة في مكانها.

صرخت في التقني:

– "تبًا. جهز خطة بديلة لـ كاستيّو. تلك التي تبدو وكأنها فيلا والده."

كانت في قمة توترها، ورغم وجود عدة تفسيرات منطقية – نظريًا – لعدم استجابة ضباطها لثلاث إشارات تطلب إثبات الحياة، إلا أنها لم تعتبر أيًا منها مقنعًا. ليس بعد مكالمة سيا. التهمت بروكتر بضع قطع من حلوى "تويزلرز" وهي تفكر في الخيارات. أعاد مضرب البيسبول ذكريات جميلة لأسلوب إدارتها الأكثر حركية في الميدان. اشتاقت لبندقية "موسبرغ" المحجوزة تلك. الآن هي حبيسة البلاد مع مجموعة من المهووسين بينما يعبث الروس بضباطها. إنها لعنة "صندوق العقاب". كان مضربها زلقًا بالعرق في بالو ألتو، بدلاً من أن يكون هناك، مبللاً بدماء الروس. كان سنيك يشتم شاشة الاتصال المرئي. الاتصال بـ لانغلي لا يزال مشوشاً.

كان ذلك كافيًا. وضعت بروكتر كيس الحلوى برفق على الطاولة. وكشطت قطعة من الطين الجاف عن وجه الدمية واهو المبتسم. ثم تجولت نحو السبورات البيضاء والمضرب على كتفها.

حدقت في صورة فلاديمير بوتين وهو يسقط على الجليد خلال مباراة هوكي.

اتخذت وضعية قتالية جيدة، ثبتت قدميها، وأرجحت المضرب بقوة مباشرة نحو الصورة. اختفى وجهه المنتفخ اللعين. وتناثرت شظايا الورق والسبورة في كل مكان. ثم انتقلت للعمل على إحدى شاشات التلفزيون حتى تشققت وسقطت عن الجدار. رأت تلك الصورة لبوتين وهو يقبل بطن صبي صغير، ملصقة مباشرة على مكتب، فذهبت إلى هناك وحطمت تلك الصورة أيضًا حتى الجحيم. أصابت بعض أجزاء المكتب والكمبيوتر، لكن ذلك كان حادثًا عرضيًا. كان التقنيون ورجال العمليات المالية يصرخون ويهرعون بحثًا عن ساتر. لم تسمع شيئًا. والمضرب على كتفها، استدارت نحو سنيك.

قالت:

– "أخبرني عندما تصل إلى المدير الكبير. سأكون في مكتبي أتأمل."

***

سمعت سيا صرير الباب وهو يفتح، لكنها لم ترَ سوى ظلام الكيس. شعرت بأيدٍ خشنة تسحبها للأعلى، ثم سيقت خارج الغرفة في الظلام. لم يتحدث أحد. تلووا عبر متاهة من الممرات.

الحركة قد تخلق فرصًا. للإشارة، أو القتال، أو التفاوض. إنهم يريدون شيئًا ما. فهي لا تزال حية في النهاية. ووجدت أن هذا الأمر بحد ذاته مثير للقلق.

ربما كانوا رجال فاديم. ربما سيسلمونها لجهاز الأمن الفيدرالي (FSB). ربما هم أنفسهم من جهاز الأمن الفيدرالي. بدا ذلك الاحتمال الأقرب. أجلسوها على كرسي ونزعوا الكيس. رفت بعينيها؛ وتشنج جسدها انتظارًا للألم.

كان ماكس مقيدًا على كرسي أمامها. تبادلت عيونهما نظرات الحيرة والرعب، ثم حاولت سيا تحديد موقعها. مدفأة على يمينها، ورأس دب معلق فوقها. وفي الظلال رأت ملامح بيانو. وستائر سميكة تؤطر النوافذ المضاءة بضوء القمر. حركت أصابع قدميها على الحجر البارد.

كان فاديم يراقب رجلين يكومان ورق الجرائد. كان يفرك مفاصل يديه بحمى؛ ويحك حول عينيه؛ ويملس شعره مرارًا وتكرارًا وكأنه عاجز عن تسوية خصلة متمردة. لم تكن هذه طاقة رجل يمسك بزمام الأمور.

سألت سيا بحدة:

– "أين آنا؟"

لمحها فاديم بنظرة خاطفة. قالت :

– "أين هي؟ إنها زوجتك يا فاديم."

بدا وكأنه قد يضربها، ولكن بينما كانت تهيئ نفسها لتلقي الضربة، استدار فجأة بعيدًا نحو المدفأة.

غادر الرجلان. وعادا بحطب ووعاء بنزين. رتبا الخشب بشكل متقاطع وحشرا الورق المكرمش في الفجوات. سكب أضخمهما البنزين على الحطب وألقى عود ثقاب. مالت سيا بجسدها بعيدًا عن ألسنة اللهب المتصاعدة. قام الرجل الأصغر بإذكاء النار باستخدام قضيب حديدي. بينما ألقى الضخم بضعة جذوع أخرى في اللهيب. كان فاديم يتمتم مع نفسه على الأريكة.

يا إلهي، أين آنا؟ فكرت سيا. نظر ماكس إلى سيا، ثم اخترقت نظراته جسدها لتنظر إلى شيء خلفها. كان وهج النار يتراقص عبر وجهه المبلل بالعرق.

ثم شعرت بيدين على كتفيها، وصفعة ودية على الكتف الأيمن.

مر رجل فارع الطول بخطوات واسعة، وعكس رأسه الأصلع ضوء النار. سحب كرسيًا بمسندين من جانب الأريكة ليشكل حلقة من المقاعد حول المدفأة. كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة، بلا ربطة عنق. خمنت أن حذاءه من نوع "برونيلو كوتشينلي". كان لدى بيني هاينز الزوج نفسه.

قال بالإنجليزية:

– "هورتينسيا فوكس. و ماكسيميليانو كاستيّو. أهلاً بكما في روسيا."

عرفت سيا هذا الوجه؛ كان أحد ضباط جهاز الأمن الفيدرالي الذين اقترحت آنا توريطهم بجانب الإوزة.

تشيرنوف. المقدم كونستانتين تشيرنوف. مديرية الأمن الداخلي. في إحدى البرقيات بعد سويسرا، قالت آنا إنه "شخص غريب الأطوار".

إنه مؤمن حقيقي، هكذا كتبت. يعتبر نفسه كاهنًا. وروسيا هي إلهه.

الفصل الثامن والخمسون

روس-فارم

التقط أحد الضباط مسدس آنا من فوق الثلج. وقال الآخر:

- "يريد تشيرنوف التحدث معكِ.. في المنزل."

أخضعوها للتفتيش؛ بحثوا في ساقيها وذراعيها وداخل معطفها، لكن مسدس أحمر الشفاه خفي عليهم. جلس أحدهم بجوارها في المقعد الخلفي للسيارة، وانطلقوا في صمت.

كانت مصابيح الصوديوم المعلقة على أشجار الصنوبر الشاهقة المحيطة بالممر مطفأة، ولم يلمع أي ضوء فوق الإسطبلات أو مضمار السباق. هل قطع تشيرنوف الكهرباء؟ تناهى إلى سمعها نباح مضطرب من حظيرة الكلاب الألزاسية.

سألت:

- "لماذا الأضواء مطفأة؟"

لم يجبها الرجلان.

دخلت السيارة الدائرة المرورية، والتفت حول النافورة. لمحت وهج نار برتقالية يتراقص عبر نافذة غرفة المعيشة، بينما غرق باقي المنزل في الظلام. قادها ضابط جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) من مرفقها خارج السيارة. التصق الثلج بوجهها وذاب سائلاً على خديها إلى فمها. تحدث شريكه عبر الجهاز اللاسلكي وعاد إلى السيارة. كاد الضابط أن ينزلق وهو يصعد الدرجات الرخامية، فاستند

إلى ذراع آنا ليتوازن. وبينما كان يقودها عبر الباب، تفحصت آنا كاميرا المراقبة المثبتة بالأعلى، متسائلة عما إذا كان أي من هذا سيعمل.

***

"أنتِ محامية، أليس كذلك؟"

كان هذا أول ما سأله تشيرنوف بإنجليزية ذات لكنة ثقيلة. وسمعت سيا نفسها تجيب: نعم، أنا كذلك.

طلب منها: أخبريني ماذا أعطيتِ آنا أغابوفا. ففعلت. صعد رجاله إلى الطابق العلوي وسحبوا الهواتف والحواسيب من الحقائب، ثم أحضروها للأسفل وأجبروها على فتحها. أخبرته كيف تعمل مع ميكي ليادوف في لندن، وكيف تخفي الأموال. ثم سأل تشيرنوف عن جولة سيا مع آنا بعد الظهر. قال: الأرقام، الحروف.. سمعت أشياء غريبة في تلك الغابة وأريدك أن تشرحيها لي. لقد كنتما هناك لفترة طويلة.

سأل:

– "عما كنتما تتحدثان؟"

أجابت:

– "عن المعلومات التي أعطيتها لها بخصوص أموال الإوزة."

– "ماذا بالتحديد؟ أعطني مثالًا."

***

كان تشيرنوف يؤمن إيمانًا راسخًا بسطوة العنف، لكنه لم يكن ساديًا؛ فمشهد الدماء لم يمنحه سوى القليل من الإثارة، ولم يكن بحاجة لإلحاق الألم ليتلذذ بالسلطة على الآخرين. لطالما شعر بذلك. لكنه مارس العنف بحماس شديد، وقضى على مئات الأشخاص في أزمنة وأماكن وطرق شتى، حتى نضج إيمانه هذا.

كان يدرك فوائده، ويدرك حدوده أيضًا. وهناك بالفعل حدود عند استجواب ضابط مخابرات مدرب. يمكنه تعذيب المحامية حتى تعترف، لكنها بلا شك ستحجب أجزاء من المعلومات القيمة، وستعترف بأكاذيب، وستبقى خيوط غير مكشوفة، وسيظل المتآمرون المذنبون بلا عقاب بشكل يثير الجنون.

بيد أن العنف قد يُعجّل بالاعتراف. والآن، مع دخول زاوية التجسس في المعادلة، توصل تشيرنوف إلى مبرر بيروقراطي كئيب لتسريع الأمور: الاعتقالات المتعددة بتهم التجسس ستثير اضطرابًا في "لوبيانكا" و"ياسينيفو"، مما يخلق حالة من الهياج ستجذب "الخُزيان". ولم يكن تشيرنوف يريد أن يسبح "الخُزيان" نحو قضية تجسس طويلة الأمد تتورط فيها كومة من الذهب هُرِّبت خارج "الوطن الأم" (الرودينا) دون علمه ومشاركته الكاملة. اعتراف سريع هنا، في هذه الغرفة المضاءة بالنار، سيقطع الكثير من الأشواك البيروقراطية عند عودة تشيرنوف إلى موسكو.

قال تشيرنوف:

– "لقد سألت.. ما الذي ناقشتِه بالتحديد مع آنا أندريفنا خلال جولتكما في وقت سابق اليوم؟"

بدأت المحامية في الثرثرة. هراء حول الحسابات. فوضع إصبعه على شفتيها.

قال:

– "أعرف أن آنا جمدت هذه العملية منذ أسابيع. لا داعي للحديث عن كل ذلك إذا كانت قد أسقطت العملية، أليس كذلك؟ ما رأيك أن نبدأ ببساطة: ستخبرينني عن وكالة الاستخبارات التي تخدمينها. وإذا لم تفعلي، فستسوء الأمور لصديقك هذا."

وضع يده على رأس المكسيكي. بعثر شعره ثم شدّه بقوة بين أصابعه. هوى بقبضته على فكه، مسندًا الرأس كي لا ينهار، ثم ضربه مرة أخرى. وتلاها بأخرى. كانت المحامية تصرخ الآن. هذا الجزء يستحضر الصراخ دائمًا.

***

كانت سيا تصرخ، لكن صراخها لم يفلح في طمس صوت تحطم قبضة تشيرنوف على فك ماكس، الذي كان يلعن والدة تشيرنوف بوابل من السباب الإسباني المتسارع. كان قميص سيا غارقًا في العرق، وشعرها كتلة مبللة تتدلى أمام عينيها. بعد فترة خفت صوتها؛ واكتفت بالمشاهدة، عاجزة عن الصراخ.

في دورات سيا الأولى، قبل دهر من الزمن، شرح المدربون كيفية إدارة الاستجواب. قالوا إن الأمر يختلف تمامًا بالنسبة لعميل "الغطاء غير الرسمي" (NOC). لا جواز سفر دبلوماسي. لا حصانة. إذا قُبض عليك، فلا أمل لك في الخروج. لماذا قد يطلقون سراحك؟ وأثناء احتساء الجعة بعيدًا عن مسامع الآخرين، زرع أحد المدربين أفكارًا مبتكرة للانتحار في الأسر. لديك ملاءات وعارضة سقف؟ اشتق نفسك. ربما يتركونك وحدك لبضع ثوان مع شيء حاد؟ اقطع معصميك. كانت الفكرة الفضلى لدى سيا الآن هي إلقاء نفسها في النار.

توقف تشيرنوف عن ضرب ماكس. وجلس مرة أخرى ليواجهها، والعرق يسيل من رأسه.

– "أخبريني ما حقيقتك يا هورتينسيا."

أنا لا أعرف، فكرت. حتى أنا لا أعرف إجابة ذلك.

سحب تشيرنوف كرسيه مقتربًا من سيا.

– "سي آي إيه (CIA)؟ استخبارات بريطانية (SIS)؟ ألمانية (BND)؟ أراهن على السي آي إيه. هيا يا هورتينسيا، لقد سمعت أشياء غريبة في تلك الغابة. أنتِ تديرين آنا، أليس كذلك؟ أنا نافد الصبر لأسمعك تقولينها."

قالت سيا:

– "أنا محامية. محامية تخدم عملاء روسيين. لا شيء أكثر."

مسح العرق عن رأسه المرتجف.

– "هورتينسيا، أرجوكِ، كوني ذكية في هذا الأمر. الليلة، سأعتقلك أنت وصديقك وآنا. ستذهبون جميعًا إلى ليفورتوفو. سيحطمونكم، وينهكونكم حتى تقولون الحقيقة. أنا أسدي إليكِ معروفًا بتسريع الأمور بقليل من الخشونة. دعينا ننهي الأمر بسرعة، ما رأيك؟"

– "أنا محامية. لست جاسوسة."

– "سوف أؤذيه مرة أخرى ما لم تخبريني بالحقيقة. هل تفهمين؟ أنا لا أريد ذلك. أنا محقق. لا أجد متعة في هذا. لكنك تتركينني بلا خيارات. ما حقيقتك يا هورتينسيا؟"

يا إلهي، فكرت، أرجوك سامحني يا ماكس. أرجوك سامحني.

قالت بصوت مخدر:

– "أنا محامية. لا شيء أكثر. أرجوك. أرجوك لا تؤذه."

طقطق تشيرنوف أصابعه، ثم تحدث بالروسية لأحد رجاله الذي غادر الغرفة. جلسوا لعدة دقائق وكأنهم حول نار مخيم، يستمعون لفرقعة الخشب. عاد الرجل بحقيبة جلدية وفتحها على طاولة القهوة الخشبية. كانت حقيبة إسعافات ميدانية. كان والدها يحتفظ بواحدة في شاحنته في المزرعة. ثبت تشيرنوف عينيه على النار.

قال تشيرنوف:

– "لسنوات عديدة، كنت جنديًا. خدمت في وحدة خاصة تابعة لجهاز الأمن الفيدرالي نسميها (فيمبل). لست متأكدًا مما يعادلها لديكم في أمريكا. ربما قوة دلتا؟ في عام 2015 أُرسلت في سوريا، حلب. لم يمض أسبوعان حتى أسرتني

مجموعة إرهابية مع ثلاثة من رجالي. باغتونا ونحن نيام في مبنى تفوح منه رائحة الدم والغبار والبراز. لم يكونوا، كيف تقولون.. قطاع رؤوس. لا اهتمام لديهم بفيديوهات الذبح. وضعونا في حفرة للتفاوض على مبادلة ببعض رفاقهم. لم أخرج إلا بعد أن أنقذتني وحدتي بعد ثلاثة أشهر."

نكز تشيرنوف النار، ومسح بيده الأخرى رأسه المبلل بالعرق.

– "في الظلام، غالبًا ما فكرت في جدي. نشأ في قرية خارج ستالينجراد. هربت العائلة عندما وصل النازيون. ساروا لأيام عبر السهوب المفتوحة مع لاجئين آخرين. بلا طعام، وقليل من الماء. قصف مستمر من طائرات (الشتوكا) النازية، وصافراتها تصرخ بقدومها وقدوم الموت. وجدوا مأوى مع قلة من الناجين في المستنقعات. كان لجدي ثلاث شقيقات. الصغرى لم تتوقف عن البكاء، فخشيت العائلات أن يُكتشف أمرهم ويُقتلوا بسبب ضجيجها، فأخذتها أمها إلى المستنقع، بينما توسلت الأخت ألا تُغرق، باكية بأنها لن تطلب الطعام مرة أخرى أبدًا. لم تعد الطفلة. كنت صغيرًا عندما سمعت هذه القصة لأول مرة، صغيرًا جدًا على ما أظن، لكن في تلك الحفرة السورية فهمت معناها أخيرًا. الله بعيد. والعالم بلا معنى لأن فعل خلقه بحد ذاته كان خطيئة."

انتفض تشيرنوف من شروده والتقط سكينًا ذا رأس معقوف غير حاد. وركع عند قدمي ماكس.

– "بعد شهر تقريبًا، وأظن بعد تعثر المفاوضات، شعر خاطفونا أن الحاجة تدعو لتقديم برهان. شيء يثبت أنهم رجال قساة وجادون. بحلول الوقت الذي وصلت فيه المساعدة، كان رجالي قد ماتوا منذ زمن، وكان الخاطفون قد كسروا ظهري وقطعوا بعض أجزائي."

ثم نقر تشيرنوف على إصبع قدم ماكس الصغير الأيمن.

– "بدأوا من هنا."

نظر إلى سيا وقال:

– "أخبريني ما حقيقتك يا هورتينسيا."

قالت وأسنانها تصطك:

– "أنا محامية."

هز رأسه يائسًا.

ثبت الرجلان كتفي ماكس. وقرب تشيرنوف النصل المعقوف من الإصبع. تململ جسد ماكس في الكرسي. تمتم: توقف! توقف! توقف! توقف! (!Para !Para). توترت ساقه محاولة الفكاك من القيود. وتلوت قدمه على الأرض. أمسكها تشيرنوف مثبتًا إياها، وأعاد السكين إلى موضعه.

أنا هنا، أنا هنا، قالت عينا سيا ذلك، لكن ماكس لم يكن ينظر إليها.

غرز تشيرنوف السكين في الإصبع، ولسانه يتدلى فوق شفته بتركيز.

صرخ ماكس:

– "توقف! أيها الوغد اللعين!"

برزت العروق الدقيقة في رقبة ماكس ناتئة عبر جلده. دار النصل المقوس مرة، مرتين، ثلاثًا حول الإصبع حتى انصل عن القدم بصوت قرمشة رطبة صغيرة.

– "أيها الروسي اللعين يا ابن العاهرة!"

ثم جاء تدفق للدم وسيل آخر من الشتائم الإسبانية التي شابتها تأوهات وشهقات، حتى أنها لم تبدُ لسيا ككلمات.

التقط تشيرنوف الإصبع وتفحصه. ثم ألقاه في النار.

سقط رأس ماكس للأمام فاقدًا الوعي. ورسم خيط رفيع من دمه مسارًا على الموقد الحجري.

صرخت سيا:

– "ماكس، استيقظ.. هل تسمعني؟ استيقظ."

ضربها تشيرنوف على رأسها وكأنها كلب شارد. حاولت البصق في وجهه، لكن فمها كان جافًا. ورن طنين معدني في أذنيها. تحدث تشيرنوف بالروسية بصوت بدا قادمًا من مسافة بعيدة. سكب رجل الأمن القصير كوبًا من الماء على ماكس. وصفع وجهه، آمرًا إياه بإنجليزية مكسرة أن يستيقظ.

ثم سمعت صوت امرأة مكتومًا.

الفصل التاسع والخمسون

مزرعة روس-فارم

حاولت آنا أن تستوعب المشهد برمته؛ نارٌ تزمجر في الموقد، وماكس وسيا مقيدان إلى المقاعد. بدا «المكسيكي» في حالة يرثى لها، إذ مال رأسه إلى الجانب، وتلطخ وجهه بالدماء. كان تشيرنوف يحمل سكيناً، بينما تهاوى فاديم جالسًا على الأريكة، وإلى جانبه جلس اثنان من رجال تشيرنوف التابعين لجهاز الأمن الفيدرالي (FSB). بدا زوجها هو الآخر أسيرًا. ما هو دوره في كل هذا؟

توقف مرافقها التابع للأمن الفيدرالي بعد خطوات قليلة داخل الغرفة ليعلن عن وجوده لتشيرنوف، الذي وضع السكين الملوثة على الطاولة. قادها المرافق إلى عمق الغرفة، فنهض الرجلان الجالسان على الأريكة، وتبادلا مع تشيرنوف والمرافق همسات وتمتمات ونمهمات غامضة، حتى توصلوا إلى تفاهم ما، فغادر الرجل الغرفة. دبت الحياة في محرك سيارة بالأسفل في الساحة، ثم تحركت مبتعدة لتتلاشى في المدى.

فاديم، وتشيرنوف، ورجلان من رجاله. لا يزال عددهم كبيرًا، هكذا فكرت.

قال تشيرنوف:

- "آنا أندريفنا".

كان قد اتخذ مقعدًا ليمسح قطرات دم شاردة عن حذائه الخفيف، وظل مركزًا على مهمته وهو يخاطبها، ثم أضاف:

– "كنتُ أسأل هورتينسيا لتوّي عن جهاز الاستخبارات الذي تخدمه".

استقرت نظرات آنا على النيران المتأججة خلف تشيرنوف.

تابع تشيرنوف حديثه:

– "جئتُ بحثًا عن إجابات بخصوص أموال روسيا، لكنني عثرتُ بدلًا من ذلك على مؤامرة أعظم بكثير. إن تصرفكِ الغريب اليوم كافٍ لحبسك بالطبع، لكنني سأكون ممتنًا لاعترافك. أنتِ – أكثر من غيرك – تعلمين أن الأمور ستكون أيسر عليكِ إن اعترفتِ".

رفع نظره عن حذائه وتنهد، ثم أردف:

– "لكنكِ لستِ امرأة اعتادت الطرق السهلة؛ فالأمر دائمًا معكِ في غاية الصعوبة".

للحظة خاطفة تكاد لا تُدرك، أغمضت آنا عينيها ولاح لها طيف لوكا. فتحت عينيها.

اطردي كل ضعف. تقمّصي الدور. سيكون هذا هو السبيل الوحيد للنجاة من سجن ليفورتوفو.

قالت بصوت حازم:

– "أنتَ مخطئ تمامًا. لقد كنتُ أدير عملية ضد ضابطي الاستخبارات المركزية الأمريكية هذين لعدة أشهر. وقد علمتُ أنهما يتعاونان مع زوجي ومع مجموعة صغيرة من كبار المسؤولين الروس لنهب خزائن الدولة. لقد بدأت الاستخبارات المركزية عمليتها بالفعل، والأموال توشك على التسرب من الحسابات بينما نتحدث الآن، وهم يخططون للهروب من روسيا الليلة".

أمال تشيرنوف رأسه، وكأنه يشعر بالشفقة، كما لو أنها فقدت عقلها. لمعت عيناه بذاك اليقين الذي لا يمتلكه إلا الأغبياء أو المجانين.

سمعت فاديم يصرخ:

– "ماذا؟"

التفتت إلى زوجها؛ كان عابسًا، وقد تجعد وجهه من شدة الارتباك.

قالت آنا:

– "أعرف ذلك لأن فاديم أخبرني. لقد أصرّ على أن آتي معه".

أطلق أحد الضباط على الأريكة ضحكة مكتومة.

واصلت آنا:

– "ولكن حدث خلاف حول المال".

وقف تشيرنوف وقال:

– "آنا أندريفنا، كفى هراءً. أعلم أنكِ تعملين لصالح «هورتينسيا». إنها تابعة للاستخبارات المركزية، أليس كذلك؟ هل التقيتها في سويسرا؟"

خطت خطوة بطيئة نحوه، متجاهلةً دافعًا قويًا للهروب.

متر واحد فقط. أحتاج أن يقترب أكثر.

خطت خطوة أخرى. بات بوسعها الآن شم رائحة الدم وجلد حذاء تشيرنوف، لكنه كان لا يزال بعيدًا بعض الشيء.

بصقت في عينيه.

رمش مرتين، ومسح وجهه المبتسم بكه، ثم تقدم خطوة واسعة ورفع يده ليصفعها، لكن أصابعها كانت بالفعل داخل جيبها تطبق على الأنبوب المعدني. ارتطمت راحة يده بوجنتها بصفعة قوية. كان قريبًا للغاية، يكاد يطبق عليها، لكنها حررت الأنبوب وحشرته بقوة قبالة قلبه، وأدارت راحة يدها في الحركة الأخيرة،

فسمعت نقرةً، ثم دوي انفجار، واشتعلت أصابعها نارًا وابتلت بالدماء في آنٍ واحد. انهار جسده الهامد، مثبتًا إياها فوق الأريكة.

تحسست آنا حزام تشيرنوف بحثًا عن سلاح. وعندما وجدت مسدسًا، سحبته بسلاسة من جرابه، ووضعته بإحكام على صدغ أقرب ضابط أمن، وضغطت على الزناد. لطخت الدماء والأشلاء غطاء المصباح. حاول الضابط الأصغر حجمًا أن يسحب مسدسه، لكنه ضرب السلاح من يدها، فطارت من فوق الأريكة وارتطمت بالأرض متدحرجةً نحو الظلال.

لمحت آنا سيا تزحف بكرسيها نحوه. بدأت آنا تتملص من تحت جثة تشيرنوف، ثم سمعت صوت ارتطام حين ألقت سيا بنفسها على ساقي رجل الأمن المتبقي، فتعثر وسقط للأمام عائدًا بجسده على الأريكة. تحررت آنا من ثقل تشيرنوف وانقضت على السكين الموجودة فوق الطاولة. أطلق ضابط الأمن رصاصة طائشة مرت مرتفعة وأطارت شظايا حجرية من الموقد. وقبل أن يتمكن من تثبيت تصويبه، وثبت عليه آنا، دافعةً النصل المعقوف نحو صدره، تضغط وتدير حتى غاص السكين حتى المقبض. تجمد جسده من الصدمة. سحبت النصل ثم غرزته بقوة في قلبه. الآن، تلاشت الحياة من عينيه، وقرقرت الدماء فوق شفتيه، فتدحرجت هي بعيدًا عن الأريكة، وقلبها يقرع بعنف داخل صدرها.

كان فاديم جالسًا هناك، يرمش بعينيه دون حراك.

إنه الغزال، هكذا فكرت آنا، تجمد تحت الأضواء الكاشفة.

نهضت والتقطت مسدس ضابط الأمن، وجذبت فاديم إلى الأرض من شعره. غرزت مقدمة حذائها في ضلوعه، ثم ركلته مرة أخرى. ومرة أخرى، بقوة أكبر، لأن ذلك منحها شعورًا رائعًا. لم تتوقف إلا لأن ذلك لم يكن جزءًا من مسرحيتها.

انزلق فاديم مبتعدًا، وانكمش جسده بمحاذاة الأريكة، ثم رفع يديه مستسلمًا، وقال بصوت متحشرج:

– "آنيا... بحق الجحيم، ماذا تفعلين يا آنيا؟"

نظرت إليه مباشرة. كان هناك كل شيء ليُقال، نصف عمر من الانتقام يمكن أن يُنال، ومع ذلك شعرت بسلام في الصمت. كان ذنبه هو مكافأتها. لم تكترث إن كان سيعاني أم لا.

نظرت إليه من علٍ، وخفضت المسدس نحو رأسه.

***

بحث فاديم في عيني آنا خلف فوهة المسدس، وقد أخبرتاه بكل شيء.

قال:

– "لقد انتصرتِ".

***

أطلقت آنا النار على جبين زوجها.

تركت المسدس ينزلق من بين أصابعها ليرتطم بالأرض بجلجلة معدنية. وفي خضم تقييمها للموقف، شعرت أن أذنيها قد تعطلتا عن العمل. كانت شفاه سيا وماكس تتحرك، لكنها بدت مجرد حلقات نابضة بلا صوت. نظرت إلى جسد فاديم الممدد بلا حراك. كان ثمة ثقب صغير دامٍ في رأسه. انتهى الأمر. تحركي. ماذا بعد؟

عندما عاد الصوت يصدح من جديد، سمعت نفسها تردد جملها بحرفية تامة:

– "فاديم، أرجوك لا تفعل هذا، يا فاديم".

أطلقت صرخة بدائية نحو النار حتى نفد الهواء من صدرها، وارتجفت ساقاها فهوت على ركبتيها. صرخت مرة أخرى حتى صدّقت أخيرًا أنه تركها هنا لتحترق.

قالت آنا وهي تؤدي دورها:

– "حدث شجار، وسيطر عليّ فاديم".

صاحت سيا:

– "آنا، بحق الجحيم ما الذي يحدث؟"

– "حاول فاديم إقناعي مرة أخرى بالرحيل. رفضتُ. حدث شجار. ضربني فاديم بقسوة. كان غاضبًا.. وسكرانًا. أنتما قلتما إنه يجب علينا المغادرة قبل أن يلاحظوا اختفاء أي أموال. كان فاديم يشرب. شرب كثيرًا. وحدث شجار".

التقطت آنا سكيناً من عدة الإسعافات الميدانية، وقطعت الحبال المقيدة لساقي سيا ومعصميها، وكررت:

– "حدث شجار".

قطعت آنا قيود ماكس. كافح للوقوف، فساعدته سيا على النهوض. خرجت آنا عن الشخصية لتشرح المشهد.

قالت:

– "سأمنحكما فرصة للبدء، وطريقة لتحريك العملية. لكنكما ستستمعان إليّ. ستفعلان بالضبط ما أقوله، وإلا قتلتكما أنتما الاثنين. ستسلكين الطريق الذي ناقشناه في الإسطبلات يا سيا. ستحاولين. وستأخذين فاديم معكما. جثته هي المفتاح. عليكما أخذها مهما كان الثمن. ستخبرين جماعتك ببدء تحويل الأموال فورًا. ابدأوا العملية. خذا هواتفكما وأرسلا الإشارة الآن. تحركا بأقصى سرعة ممكنة".

قالت سيا:

– "يمكنكِ المجيء معنا يا آنا.. يمكننا الذهاب معًا".

– "لا. لن أفعل".

أشارت عبر الجثث لكنها لم تقو على النظر إلى فاديم، وتابعت:

– "سترحلان مع فاديم. عندما تعودان إلى أمريكا، ستجدان طريقة لإقناع موسكو بأنه كان عميلكم وأنه قد أُعيد توطينه. هذا هو الطريق الوحيد. ستحصلان على فرصة لإنجاح العملية".

سأل ماكس:

– "وماذا ستجنين أنتِ؟ سيقتلونكِ. ألا ترين؟ سوف تموتين".

سمحت آنا لنفسها بنظرة خاطفة إلى زوجها الميت، وقالت:

– "سأفوز أنا. خذا الجثة. يجب أن تأخذا الجثة. لن أموت. إلا إذا لم تقوما بدوركما".

تبادلت سيا وماكس نظرات قلقة ومذعورة. ركضت سيا إلى الطابق العلوي لجلب الهواتف.

قالت له آنا:

– "توجد سيارات مركونة في الساحة خارج المكتب. ستجد واحدة مفاتيحها بداخلها".

عادت سيا بالهواتف وحقيبة تحوي ملابسهم الشتوية. ارتدوا السترات والقبعات والقفازات. تقيأ ماكس وهو يحشر قدمه المهشمة في الحذاء. أشاحت آنا بوجهها بعيدًا.

الفصل الستون

مزرعة روس-فارم

سحب ماكس وسيا الجثث ليرفعاها فوق الأريكة الملطخة بالدماء. صنعت آنا شعلة باستخدام قميص الضابط القتيل ومحراك الموقد، وكومت المعاطف والوسائد حول الموتى. لم تكن قد انتبهت من قبل إلى غزارة تعرقها، لكنها باتت الآن تتذوق قطرات مالحة تسيل بانتظام من شفتيها؛ تجعل أصابعها زلقة، وتنسكب داخل عينيها. التقطت مسدسًا من أحد ضباط الأمن الفيدرالي القتلى. لم تتعرف على طرازه، وكان هذا هو المغزى تمامًا.

أحد مسدسات فاديم، هكذا حدثت نفسها، هذا المسدس يخص فاديم. ودسته في جيب معطفها.

انتزعت آنا مجموعة من الستائر، وأغرقت كل شيء بما تبقى من وقود. غمرت أرفف الكتب والبيانو؛ وسحبت كل غطاء من الخزانة لتكومها فوق أريكة أخرى في غرفة جلوس تقع في الطرف الأقصى من الطابق الأول. ومن المرآب، جمعوا عبوات إضافية من الوقود، وسكبوها على السلالم وأرفف الكتب والستائر. صبت آنا البنزين في غرف النوم التي بُنيت لأطفال لم يُولَدوا قط، وعبر المكتبة، وداخل المكاتب ذات الرائحة العفنة في الطابق الثاني. فتحوا النوافذ ليسمحوا بتدفق الهواء لتغذية الحريق. وفي المحصلة، أقاموا أربع محارق موزعة في أرجاء المنزل؛ إذ لم يكن هناك متسع من الوقت للمزيد.

أضرمت النار في كومة الحطب بغرفة المعيشة بينما كان ماكس وسيا يجران جثة فاديم خارج الغرفة. سرت ألسنة اللهب فوق الأجساد المكدسة. أشاحت بوجهها بمجرد أن اشتعلت النيران في ملابس تشيرنوف. كان الثلج يتوهج بجمال أخاذ تحت ضوء القمر.

يا للروعة، هكذا فكرت.

ثم قرّبت الشعلة من أسفل الستائر، فالتهمت النار المخمل وبدأت تزحف عبر السقف، تنهش الطلاء السميك والقوالب الزخرفية.

***

لم يكن تشيرنوف يجيب على هاتفه. حاول مُشغّل طائرة المراقبة المسيّرة التابعة للأمن الفيدرالي الاتصال بأركادي، لكن بلا جدوى. أخيرًا، تمكن من التواصل مع فريق المراقبة القابع داخل شاحنة خارج المبنى الخرساني.

قال مشغل المسيّرة:

– "لقد غادر شخصان المنزل لتوّهما، والدخان يتصاعد من النوافذ. هل نستدعي إدارة الإطفاء؟"

رفض رئيس فريق المراقبة – الذي يفوقه رتبة – ذلك بشدة، قائلًا:

– "لا.. لا يمكننا السماح بوجود مدنيين حمقى يركضون هنا".

وأقرر أن يتدخل هو وفريقه، وسيطلبون تعزيزات من مدينة كيريشي. سمع مشغل المسيّرة محرك الشاحنة خارج المبنى الإداري يزمجر لتعمل، ثم انطلقت مسرعة نحو القصر الذي أظهرت تغذية الكاميرا بوضوح أنه يحترق بالفعل.

***

انتشرت النيران بسرعة فاقت كل خيالات آنا. ملأ الدخان حلقها ومنخريها، وشعرت بالحمق لأنها انتهى بها المطاف في الجانب الأقصى من غرفة المعيشة، بعيدًا عن الباب. شعرت بخفة في رأسها، وبأن العالم قد فرغ من الهواء، وفكرت:

سأموت هنا.

كانت الحرارة لا تُطاق، وبدا وكأن جلدها وشعرها ينبعث منهما الدخان، وتساءلت عما إذا كانت النيران قد أمسكت بها هي الأخرى. سقطت على الأرض؛ حيث الجو أبرد قليلًا، وبات بوسعها التنفس والسعال لتقذف من صدرها الدخان الخانق. زحفت نحو الباب. كان المكان هادئًا، هادئًا بشكل مرعب؛ مجرد فحيح وفرقعة وطقطقة خفيفة، بلا انفجارات ولا تحطم.

سأموت في صمت، حدثت نفسها. أنا حتى لا أصرخ.

حينها سمعت سيا تصرخ باسمها. صوت تحطم زجاج. ثريا تستسلم للجحيم المستعر وتسقط. مصباح ينفجر. كانت آنا تزحف على بطنها فوق الأرض بحثًا عن هواء نقي، لكن الدخان بدأ يهبط للأسفل، وصارت رؤيتها نفقية ضيقة. تهشم المزيد من الزجاج، وأنّ السقف وهو يلتوي. زحفت أسرع. هواء... لا يوجد هواء. لم تعد قادرة حتى على الزحف. ضغطت بوجهها على الأرض وحاولت استنشاق الهواء عبر الخشب الصلب الذي يغلي.

قالت:

سأموت يا لوكا. سأموت الآن.

رأت سيا توقف آنا عن الحركة.

صرخ ماكس من البهو:

– "سيا، علينا الذهاب! هيا يا سيا، هيا، تحركي".

خطت سيا خطوة نحو البهو، ولكن بينما كانت تفكر في ترك آنا للنيران، ألقت بنفسها فجأة على الأرض اللعينة وبدأت تزحف. لم يكن هناك سوى الدخان، ورئتاها تتوسلان طلبًا للهواء. تحسست طريقها بحثًا عن آنا. وضعت يدها على معدن ملتهب، فسحبتها بسرعة، ثم عاودت التحسس. الأرضية... لا شيء سوى الأرضية التي تغلي. ثم شعرت بيد، بشعر، بكتف. أمسكت بتلك اليد وبدأت تزحف للخلف جارّةً آنا معها حتى وصلتا إلى ممر ضبابي. كان الجو لا يزال ساخنًا، لكن الرؤية أصبحت ممكنة، وملأ الهواء رئتيها. ظلتا تختنقان على الأرض لدقيقة. وحين تقيأت آنا، ضحكت سيا، لكن عقلها المحروم من الأكسجين لم يدرك السبب.

قالت سيا:

– "نحتاج إلى وقت.. امنحينا وقتًا".

مسحت آنا خيطًا من القيء عن كمها، وأومأت برأسها.

نهضت سيا ومدت يدها لـآنا التي أمسكت بها، وسحبتها سيا لتقف.

قالت آنا:

– "الآن.. وقت الكارثة".

***

دمعت عينا آنا، واستقر الدخان الكيميائي عميقًا في جوفها، يكاد يلامس معدتها. شعرت برغبة دغدغت حلقها للتقيؤ مجددًا، لكنها لم تستطع سوى السعال والاختناق والبصق. كان صوتها خشنًا كالحصى حين صرخت:

– "الآن اهربي يا سيا.. اركضي.. اركضي.. اركضي!"

انهارت كتلة من السقف في غرفة المعيشة.

يا إلهي، فكرت، هذا البيت المحترق جميل.

عندما التفتت آنا خلفها، كانت سيا قد اختفت.

راقبت آنا النيران وهي تمرح وترقص. تموجت سحب اللهب على هيكل السقف، وتوهج الحريق باللونين البرتقالي والأبيض الناصع؛ أنقى بياض رأته عيناها قط. ستمحو هذه النار هذا المنزل، وستسلب زوجها وتشيرنوف شرفهما، وستلتهم عالمها المحتضر.

ولكن يا إلهي، تلك الحرارة.. لم تشعر بشيء كهذا من قبل، ونحن في عز الشتاء الروسي. تعثرت متراجعةً نحو البهو حيث الدخان أقل كثافة، وسحبت مسدس الضابط القتيل من معطفها.

رددت جملتها مخاطبةً النيران:

– "أطلق فاديم عليّ النار أثناء الشجار.. وتركني أموت في الحريق".

غرزت فوهة المسدس في كتفها، حريصةً على تجنب العظام والأربطة. أطبقت جفنيها بقوة، ثم ضغطت آنا على الزناد.

الفصل الحادي والستون

مزرعة روس-فارم

أدركا أن فرق الأمن الفيدرالي (FSB) ستملأ المكان حول هذه السيارة في غضون أقل من ساعة؛ لذا مدّد ماكس جسد فاديم في المقعد الخلفي، ولف رأسه المهشم ببطانية. لم يكن يرغب في انتشار الدماء في كل مكان، ما قد يشي بأنه ميت. ركضت سيا خارجة من الباب الأمامي نزولًا عبر الدرجات الرخامية. كان وجهها مغطى بالرماد، وشعرها متناثرًا ومحروقًا. للحظة، ضاق عالم ماكس لينحصر في التفاصيل الصغيرة: الصقيع المتلألئ على الزجاج الأمامي، وكتلة من الورق المكرمش في حامل الأكواب، وأظافر سيا المطلية بالأحمر والمخدوشة وهي تنزلق إلى مقعد الراكب، وتلتفت لتفحص جثة فاديم.

انحرفت السيارة بعنف فوق الجليد بينما كانا ينطلقان بسرعة تجاوزًا للحظائر والمنشأة البيطرية ومضمار السباق.

فكر ماكس:

لقد فقدتُ حصان أمي اللعين إلى الأبد... تباً لهؤلاء الروس الملعونين.

كان التيار الكهربائي لا يزال مقطوعًا – والحمد لله – ولم يكن ثمة ضوء سوى وميض القمر المتقطع، وتوهج الثلج، وألسنة اللهب المتصاعدة من سطح القصر خلفهما. وكلما ارتطمت السيارة بحفرة، كانت ساقا فاديم الهامدتان تتأرجحان بلا حياة في المقعد الخلفي.

عند مفترق الطرق، حاول ماكس استحضار صور الأقمار الصناعية والخطوط الحمراء السميكة التي تحدد مسار خطة الهروب«زحف الدب» (BEAR CRAWL). ضغط على المكابح، فاندفع الألم صاعدًا من قدمه عبر ساقه. اليسار... كان شبه متيقن أن عليه الاتجاه يسارًا. أم تراه مخطئًا؟

قالت سيا:

– "إلى اليسار".

انعطف يسارًا. ودفع السيارة لتسير بسرعة جيدة على طريق مستقيم يؤدي إلى عمق الغابة، باتجاه التلال الواقعة شمال المزرعة وخط نقل الكهرباء. صعد ماكس ببطء فوق مرتفع ليتجنب ترنح مؤخرة السيارة، لكن على الجانب الخلفي الجليدي من التل، انزلقت السيارة لتستقر في خندق ضحل. دارت العجلات، ودارت، وظلت تدور دون طائل.

قالت:

– "نحن بعيدان جدًا، لا يمكننا قطع هذه المسافة سيرًا".

أجاب ماكس:

– "علينا أن نحفر".

سقط من السيارة وارتمى على الأرض. راحا ينبشان الثلج من تحت الإطارات بأيديهما؛ كتل جليدية ضخمة، كل حفنة منها كانت تخدر يدي ماكس عبر القفازات. جرف الثلج حتى قبلت العجلات الأرض البنية المتجمدة، واشتعلت أصابعه من شدة البرد.

عادا إلى السيارة. وجه مقدمتها للأمام نحو الطريق، فانزلقت مجددًا، لكنه منعها من الانحراف للسقوط في خندق آخر. تشبث بعجلة القيادة بيديه الحمراوين المتقرحتين. كان الثلج يتساقط كثيفًا وسريعًا، ولم يستطع منع السيارة من

الانزلاق. حاول هو وسيا التوصل معًا لما إذا كانت خطة آنا قد تنجح، لكن الحديث كان شاقًا؛ فالسيارة تتأرجح وتنزلق، والرجل الميت يرتج في الخلف، وفكه هو نفسه مشروخ، وقدمه اللعينة تنزف.

قالت سيا:

– "لا يمكننا السماح لهم بالإمساك بنا".

كانت أصابعها بيضاء وهي تتشبث بقوة بمقبض الأمان العلوي بينما تجتاز السيارة مطبًا.

سأل ماكس:

– "هل يحمل فاديم مسدسًا؟"

تراخت سيا نحو الخلف لتبحث في جيوب فاديم، ثم قالت:

– "لا... تباً. تباً. تباً".

قال:

– "إذن، سيتوجب علينا إجبارهم على قتلنا".

انتهى الطريق عند سياج خشبي متهالك أسفل التل. لم يكن بوسعه بعدُ تمييز خيال خط نقل الكهرباء في الأعلى. كان يتوقع في أي لحظة سماع أزيز شفرات المروحيات، ونباح كلاب «الألزاس»، وصياح ووقع أقدام فريق المطاردة.

قال ماكس:

– "سأحمل أنا فاديم".

حدق صعودًا نحو التل المظلم، وتمتم:

– "يا إلهي".

الفصل الثاني والستون

مزرعة روس-فارم

وقفت آنا وسط عتمة الإسطبلات. وعبر النافذة، رأت مصابيح أمامية تلتف كالأفعى حول التمثال عند المنزل. سيارتان. وشاحنات صغيرة. ترجل منها ثمانية رجال. رأت أحدهم يتحدث عبر جهاز لاسلكي، بينما أجرى آخر مكالمة بهاتفه. حاولوا فتح ثلاثة أبواب على الأقل، لكن النيران كانت قد استشرت لدرجة منعتهم من الدخول، فوقفوا بدلًا من ذلك يحدقون في الحريق بذهول. كان عددهم أكبر من أن تقتلهم جميعًا. وعلى أية حال، لم يكن بوسعها التعتيم على الأمر. أزاحت الباب بما يكفي لمرور حصان.

عند اقتراب آنا، حمحمت بينيلوبي وأخرجت رأسها من فتحة باب حظيرتها. ربتت على خطم «بينيلوبي» وحاولت وضع العدة. كانت ذراعها اليسرى تتدلى بلا حراك إلى جانبها. جرت آنا مقعدًا بجوار الفرس، وبصعوبة بالغة وضعت السرج واللجام. ثم، بيدها اليمنى، رفعت يسراها المرتخية نحو اللجام وأطبقت أصابعها عليه. صرخ كتفها ألمًا، وتراقصت نقاط بيضاء أمام عينيها. أمسكت باللجام وتمكنت من التلوّي، ووجهها لأسفل، لتعتلي ظهر «بينيلوبي». وبينما أنفها يضغط في شعر عنق الفرس، رفعت جسدها لتستقيم. تحسست معطفها بحثًا عن الهاتف والمسدس. لا يزالان هناك، الحمد لله. حثت «بينيلوبي» على الركض نحو عتمة الليل.

كانت النيران الآن تعيث فسادًا في نوافذ الطابق الثاني. ووصلت بعض الألسنة إلى السقف.

اتصلت بـماكسيموف. لا إجابة، لكنها تركت رسالة صوتية عاجلة تشرح أحداث المساء وتحذر من الخطر المتجمع.

ثم وجهت آنا الفرس للركض شمالًا. نادت تودع المنزل المحتضر:

– "أنت ميت.. أنت ميت".

ضغطت بيدها على الشكل المطمئن للمسدس. ومهيأةً نفسها لألم كتفها، حثت «بينيلوبي» نحو التلال، مقتفيةً آثار الإطارات عبر الثلج الجديد. فكرت آنا في الطريقة التي ستجعلهم يصدقون بها أنها حاولت قتل سيا. أشار الأنين المنخفض للمروحيات إلى أن شخصًا آخر ربما سيقوم بذلك بالفعل.

***

في البداية سمعت سيا طنينًا خافتًا وسط البياض العاصف، لكنه سرعان ما غرق وسط تمتماتهم وشتائمهم وحفيف الأحذية عبر الثلج الجديد. كافحا صعودًا في الطريق، متعرجين عبر المنعطفات نحو قمة التل التي بدت وكأنها لا تقترب أبدًا. لكمت هبات الرياح جانب التل وقذفت رذاذًا معميًا في وجه سيا. سار ماكس بتثاقل في المقدمة حاملًا فاديم على ظهره. عندما هدأت الريح، تحول الطنين إلى صوت خفقان مروحيات غير مرئية. تغلغل البرد في عظامها، وخدرت قدماها وأصابعها. نفد الأدرينالين. رغبت في الاستلقاء. نادى ماكس من الأمام، ولم يظهر سوى طيفه بالكاد عبر العواصف الثلجية. جرجرت سيا قدميها عبر الثلوج المتراكمة. كانت السماء البيضاء الشاسعة مضاءة فقط بجمرات المنزل البعيدة.

عندما لحقت به، وجدت ماكس جاثيًا على ركبتيه، وجثة فاديم بجانبه. كانا على حافة منحدر سحيق. أشار ماكس للأسفل. في البداية لم ترَ سيا سوى البياض. ثم خفت العاصفة ورأت سيارة الـ«بي إم دبليو» المهجورة. وحصانًا. يمتطيه خيَّال. رفعت آنا ذراعها نحو سيا، ثم انطلقت رصاصة حلقت نحو السماء. سقطت سيا للخلف في الثلج. وزحفت بجوار ماكس.

سألت سيا:

– "لماذا تطلق النار علينا؟ هل هذا جزء من مسرحيتها؟ بحق الجحيم، ماذا يحدث؟"

لم يجب ماكس. كلاهما كان في ذلك المنزل الليلة، ويدركان تمامًا عبث محاولة التنبؤ بما ستفعله تلك المرأة.

كان يجدر بي تركها تموت في الحريق، فكرت سيا. كان يجدر بي الهرب وحسب.

زاحفين بعيدًا عن الحافة، نهضا، ورفع ماكس جثة فاديم على كتفيه، وعادا للتسلق مرة أخرى.

الفصل الثالث والستون

بالو ألتو

– "مرحبًا روندا، أنا سيا، أردت فقط إخبارك أننا عائدون في وقت أبكر قليلًا مما توقعنا. نحن نغادر الآن.. تباً يا ماكس. [صراخ غير مسموع، همهمات]. آسفة لذلك يا «روندا». نحن نمشي الآن وقد تعثرتُ، هل تصدقين ذلك! نحن في طريقنا لمقابلة الأصدقاء. سنصل خلال دقائق. نحن ثلاثة، وحسنًا، سأكون ممتنة جدًا لو أخبرتِهم الآن ليكون كل شيء جاهزًا، أنا... [تسع ثوانٍ من الشتائم المتتابعة، صرخات وصياح غير مسموع]. آسفة على ذلك يا «رون»! حسنًا، نعم، يرجى التأكد من جاهزيتهم، لأننا مصرون جدًا على المغادرة فورًا ومع الأصدقاء. أحتاج للتحدث مع لولو فورًا، رسائل مهمة وما إلى ذلك، فاجعليها تتصل بالأصدقاء الآن كي أتمكن من التحدث معها قليلًا عندما أراهم؟ الآن، مفهوم؟ شكرًا!"

[أنهت «س. فوكس» المكالمة الساعة 2:47 صباحًا بتوقيت موسكو].

لوّح بروكتر لـجورج، الذي أوقف الصوت. كان سنيك يشعل سيجارة داخل مركز القيادة. لم يشتكِ أحد، أو حتى يبدو أنهم لاحظوا.

سأل بروكتر:

– "كم مضى على هذا التسجيل؟"

أجاب «جورج»:

– "ست دقائق. التأخير القياسي".

قال بروكتر:

– "إنهم أحياء. يا لحلاوة الخوخ، إنهم أحياء".

هزّ بروكتر كتفي «جورج» حتى سقطت نظارته، وصرخ:

– "أوصلوني بفريق «العقرب» (SCORPIONs). الآن. وفورًا.. بحق الجحيم".

الفصل الرابع والستون

مزرعة روس-فارم/ بالو ألتو

لم يسمع بيكا جوهاني (بي جي) صوت أخيه الصغير آرفو قط، لكن الكلمات لم تكن ضرورية لإدراك مدى غضبه من الأمريكيين. فوقهما امتدت حبال خطوط نقل الكهرباء، وعلى بعد مائة متر أمامهما كانت المحطة الفرعية التي قاما بتخريبها في وقت سابق من المساء. التفت «بي جي» عن أخيه المحبط وشغّل مساحات الزجاج. مع كل مسحة، كان بوسعه تمييز الوهج الخافت للحريق ولطخات صفارات الإنذار، الزرقاء والحمراء، تومض حول اللهب. كانت «لانغلي» قد طلبت منهم قطع الكهرباء. وقد فعلا. ثم اشتعلت النيران في المنزل.

كان آرفو لا يزال يتحدث بلغة الإشارة.

قال «بي جي»:

- "لا تشتكِ لي".

وصلت رسالة عبر برنامج الاتصال السري المثبت على هاتف آرفو. دفع آرفو الشاشة في وجهه.

لولو: اصمدوا. ثلاث طرود لتخزينها. اتصل بي عند وصولها.

أرفقت رقم هاتف في هلسنكي. تمتم «بي جي»:

- "رعاة بقر أمريكيون".

انتظرا. التهم آرفو ثلاث تفاحات بسرعة جعلت «بي جي» يقلق من أن يختنق. ثم جاء صوت المراوح. حدق عبر الزجاج الأمامي لكنه لم يرَ شيئًا. مروحيتان، وربما ثلاث، لم يكن متأكدًا. كانت تحوم بالقرب من المنزل.

فكر «بي جي»: إذا كانت لديهم كاميرات تعمل بالأشعة تحت الحمراء، فسنموت.

ألقى آرفو بقايا التفاحة على الأرض وأشار لـ«بي جي».

قال «بي جي»:

– "لا أعتقد أن لدينا حتى هذا القدر من الوقت".

أومأ آرفو برأسه، وعاد لمراسلة المرأة عبر البرنامج – أو هكذا افترض «بي جي» أنها امرأة. لسبب ما، تخيل «لولو» فتاة شقراء طويلة الساقين من راكبي الأمواج في كاليفورنيا. لم يزر أمريكا قط، لكن الصورة تناسبت مع الرسائل المتقلبة والمفعمة بالحيوية، والموحية أحيانًا، التي يتلقونها منها. حطم آرفو لوحة القيادة بقبضته العملاقة. عرف «بي جي» أن «لولو» تصر مجددًا على الانتظار.

قال «بي جي»:

– "أخبرها أننا بحاجة إلى مكافأة إن كنا سنفعل ذلك. مكافأة كبيرة".

أشار بإبهامه نحو الجزء الخلفي من الشاحنة وأضاف:

– "سيكون هناك ثلاثة أشخاص في الخلف. إذا أوقفنا الروس ومزقوا هذه الشاحنة تفتيشاً، فقد انتهينا يا «آرف»".

نقر آرفو بغضب على هاتفه.

***

في تلك اللحظة، كانت الشقراء الكاليفورنية الفتية التي تخيلها «بي جي» تضرب بقبضتها على مكتب مستعمل من مكاتب «وي وورك»، وتخطئ بالكاد علب حلوى «تويزلرز» و«ريد فاينز». كانت الأرقام الحمراء الساطعة على الساعة تشير إلى 3:02 صباحًا بتوقيت سانت بطرسبرغ. وقفت بروكتر فوق كتف «سنيك»، يستوعب الرسالة الواردة من «العقارب».

قال «سنيك»:

– "الفنلنديون الملاعين يبتزوننا".

ردت بروكتر:

– "قل لهم موافقون على المال اللعين. ونصف مليون أخرى عندما يخرجون من هناك وينعمون بالدفء في حمامات الساونا خاصتهم".

***

دوّى صوت طلقة نارية واحدة في الهواء.

تبادل الأخوان النظرات. خطى «بي جي» نحو العاصفة الثلجية وفتح إحدى المقصورات الجانبية للشاحنة. أخرج البندقية القديمة طراز «إم/28–30» وعلقها على كتفه. كانت ملكًا لجده يومًا ما. اعتاد هو وآرفو استخدامها لصيد الطرائد. وكان جده قد استخدمها لصيد السوفييت خلال حرب الشتاء[37]. حشر مسدسي «ماكاروف» في جيوبه. فتح باب الكابينة وناول واحدًا لآرفو.

كان «بي جي» يكره الروس. قُتل جده بقذيفة سوفيتية في «كولّا»، ومؤخرًا، تعرضت إحدى المغاسل التي يمتلكها هو وآرفو على الجانب الروسي من الحدود

---

[37] **حرب الشتاء The Winter War** / صراع عسكري (1939–1940) صمدت فيه فنلندا الصغيرة ببراعة أمام الغزو السوفيتي الهائل وسط صقيع قاتل. تُستحضر تاريخياً كرمز للمقاومة المستحيلة (داوود ضد جالوت)، حيث كبّد الفنلنديون "العملاق الروسي" خسائر بشرية مروعة وفضحوا هشاشة جيشه رغم تفوقه العددي الساحق.

لابتزاز من مجموعة ضباط أمن فيدرالي (FSB) استولوا على نصف أرباحهم السنوية. راقته فكرة قتل رجال الأمن الفيدرالي.

قال:

– "سألقي نظرة".

والبندقية معلقة على كتفه، سار بجهد نحو النقطة التي يصل فيها الطريق إلى قمة التل، متخذًا موقعًا بين مجموعة من أشجار التنوب. عند بداية الطريق، لم يرَ شيئًا سوى الثلج الأبيض، وأحيانًا، الظلال الشبحية لأشجار البتولا والصنوبر. عصفت الرياح، ولكن بين هبة وأخرى، سمع أصوات صفارات الإنذار تعوي قرب المنزل. بعد بضع دقائق، ارتفعت أصوات من أسفل الطريق. ثبت البندقية على غصن ومسح المكان عبر المهداف الحديدي الصغير. ظهرت امرأة أولاً. زمجر المحرك وزاد سطوع المصابيح الأمامية. لقد رآها آرفو أيضًا.

غمر آرفو المرأة بضوء المصابيح، لكن «بي جي» لم يتمكن بعد من رؤية وجهها بوضوح. لم تبدُ روسية بالنسبة له، وبالتأكيد ليست شرطة أو أمنًا فيدراليًا. كانت تلوح بيدها. وتصرخ. تلاشت كلماتها في مهب الريح.

حصر رأسها بين فكّي مهداف بندقيته.

الفصل الخامس والستون

مزرعة روس-فارم

كانت آنا تهمس لبينيلوبي وهما تصعدان جانب التل ركضاً، وتتلويان عبر المنعطفات الجبلية، بينما يكسو الثلج معطف الفرس. كانت آنا قد تسلقت هذا المسار من قبل، وتذكرت أن الأمتار الأخيرة منه شديدة الانحدار، وضيقة، ومكتظة بالأشجار؛ لذا ستكمل الطريق سيرًا على الأقدام. ركزت كعبيها في ضلوع بينيلوبي فزادت الفرس من سرعتها. كان هطول الثلج يتباطأ.

جيد، هكذا فكرت، سيرى محققو الأمن الفيدرالي آثاري. وسيعثرون على الرصاصات المطلقة من مسدسي.

عند انعطافها في أحد المنحنيات، تمكنت للحظة من تمييز المنزل المتوهج بالنيران. ثم، بعد منعطف آخر، رأت أمامها نهاية الطريق المفتوح.

ثم اجتاحها بياض تام، ولثوانٍ قليلة تلاشى كل شيء.

واصلت السير بجهد، وطاقتها تتلاشى حتى في ذروة هوسها. كانت ذراعها اليسرى تتأرجح كورقة في مهب النسيم. لم تعد تشعر باللحم هناك؛ كان باردًا، بلا ألم، وكأنه لم يعد جزءًا منها. بيدها اليمنى، اصطادت هاتفها من جيب معطفها وفتحت سجل المكالمات. حدقت في رقم ماكسيموف، وهي ترمش بينما تصفع رقاقات الثلج وجهها.

موجة بياض أخرى.

أوقفت الفرس ونظرت إلى الأسفل.

لن أشعر بالألم إن سقطت على كتفي، فكرت.

حاولت أرجحة ساقها اليمنى فوق مؤخرة بينيلوبي. لم ترفعها عاليًا بما يكفي، فارتطمت بالفرس وسقطت في كتلة الثلج، فانتزع الارتطام الهواء من صدرها. بقيت في الثلج حتى تمكنت رئتاها من الامتلاء مجددًا. وببطء، نهضت على قدميها.

اتصلت برقم منزل ماكسيموف، وتركته يرن ثلاث مرات، ثم أغلقت الخط. أسقطت الهاتف.

عندئذٍ، وبينما بدأت العاصفة الثلجية تخف قليلًا، رأت ماكس عند قاعدة المرتفع الشديد. كان يحمل فاديم على ظهره، ويكافح للصعود.

وجهت المسدس نحو ماكس. انحرفت بتصويبها قليلًا إلى اليمين. وضغطت على الزناد.

***

تجمدت قدما ماكس، لكن إصبع قدمه كان يشتعل ألمًا مع كل خطوة. أزيز رصاصة أخرى مر بجواره. كانت ضرباتها الطائشة قريبة للغاية، وهي تطلق النار وسط عاصفة ثلجية.

– "أيتها الروسية الحقيرة!"

غرز قدمه في الثلج، ثم سقط للأمام، فهوى جسد فاديم فوقه. دحرج الجثة عنه وجلس هناك مذهولًا، حتى سمع سيا تصرخ من أعلى التل، ثم سمع فرقعة وصوت ضغط الهواء يمر بجوار أذنيه. قريبة جدًا، تباً. أمسك ذراع فاديم وسحبه سحبًا الآن، ثلاث جذبات قوية حتى سقط ماكس مرة أخرى وانزلق أعمق في الثلج الناعم.

غرز قدميه بقوة.

شد وجذب ودفع فاديم حتى شعر بمجموعة أخرى من الأيدي تبدأ في السحب، وانزلق جسد فاديم صعودًا ليصل إلى الحافة. انزلق ماكس مرة أخرى، ودوّت طلقة أخرى. كانت سيا تنزلق نحوه. كانت تصرخ بشيء عن تذكرة للشمال. ترددت صرخاتها ما بين الإنجليزية والأفريكانية. وقف ماكس مترنحًا، فأمسكت بمعطفه وسحبته لأعلى، ولمح عينيها المنهكتين، قبل أن ينهارا فوق بعضهما البعض عند قمة المسار.

الفصل السادس والستون

مزرعة روس-فارم

راقب بي جي أخاه آرفو وهو يحشر ضابطي الاستخبارات المركزية داخل الشاحنة بينما خيمت موجة بياض أخرى على التلال. كانت المرأة تصرخ بخليط من إنجليزية سريعة غاضبة ولغة أخرى لم يستطع أي من الفنلنديين تمييزها، ناهيك عن فهمها. كان الرجل قد فقد وعيه. سحبه الفنلنديان إلى الشاحنة أولاً، ثم الجثة الهامدة، التي بدت له روسية الملامح.

على الأرجح هو العميل، المسكين، حتى وإن كان روسيًا.

تساءل عما إذا كان مطلق النار أسفل الطريق قد قتله. تواصلوا مع لولو عبر الهاتف وأعطوها للمرأة ذات الشعر الأسود. سمع طلقة نارية أخرى من أسفل التل.

مسدس يدوي، هكذا قدّر.

عاد إلى موقعه بين الأشجار ونظر عبر فوهة بندقيته، نحو المكان الذي اعتقد أن بداية الطريق تقع فيه. كان العالم أبيض، لا يضيئه سوى مصابيح الشاحنة. عندما انكسر الجدار الأبيض، استطاع رؤية امرأة قصيرة تقف على الحافة. رسم صدرها في مهداف بندقيته وأفرغ الهواء من رئتيه، مستعدًا لإطلاق النار. كانت تنظر إلى الشاحنة. هدأت الريح، وساد الصمت التلال، وكانت يداه ثابتتين. كان بجانبها مسدس. أيًا كانت، فهي تتعقب ضباط الاستخبارات المركزية. أطر بي جي رأسها داخل مهدافه. من هذه المسافة، لن يخطئ.

***

جعلت الشاحنة الخدمية آنا تبتسم.

أذكياء.

كان رجل ضخم يجر ماكس خلف المركبة. كانت سيا تصرخ، لكن لغتهم كانت غريبة عليا، وحملت الرياح كلماتها بعيدًا.

أستطيع شم رائحة الحريق حتى هنا في الأعلى، فكرت آنا. الدخان الحلو لذاك المنزل الميت.

دوى صوت فرقعة بندقية. هل أُصيبت؟

وجدت نفسها مكبة على وجهها.

بدأ الدفء يسري في جسدها.

أنا دافئة جدًا، فكرت، أكثر من أن أموت في الثلج.

الفصل السابع والستون

بالو ألتو / واشنطن

دبت الحياة في شاشة بحجم 292 بوصة – تم شراؤها بتكلفة باهظة من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين ومع ذلك كانت صورتها مشوشة ومقطعة بشكل مؤسف – على جدار مركز قيادة «وي وورك» لتكشف عن غرفة العمليات بالبيت الأبيض. وقف بايبر وبرادلي بجانب الرئيس، الذي كان توتره ملموسًا حتى عبر الشاشة. يبدو أنه قد سُحب من عشاء مع عائلته في مقر إقامته، وكان ينبش في طبق يحوي شيئًا يشبه الدجاج المقلي. قدم برادلي إيجازًا لأحداث الليلة. دفع الرئيس الطبق جانبًا بنظرة مزجت بين الاشمئزاز والاضطراب.

ثم شغل برادلي تسجيل مكالمة سيا مع بروكتر. كان يصف طريق الإجلاء عندما قاطعه الرئيس:

– "كم من الوقت حتى يعبروا الحدود؟"

أجاب برادلي:

– "أسابيع. المخاطرة كبيرة جدًا لمحاولة عبور رسمي. خاصة إذا نفذت بيرسيفوني تهديدها. سيتوارون عن الأنظار لفترة".

قال الرئيس:

– "هذه فوضى عارمة بشكل لا يُصدق. ما الذي تفعله «بيرسيفوني» هذه بحق الجحيم؟"

لم يملك أحد إجابة على ذلك، ولا حتى بروكتر. التزمت الصمت.

عصر بايبر معقم اليدين في كفيه، وقال:

– "دعوني أتأكد من أنني فهمت الأمر. هناك مراقبة عدائية من الأمن الفيدرالي الروسي (FSB) على رجالنا في المزرعة. هذه المدعوة سيا تمرر جهاز كمبيوتر إلى «بيرسيفوني». يعودون إلى المنزل. يتم خطف رجالنا، واستجوابهم..."

قاطعته بروكتر:

– "وقطعوا إصبع قدم أحد رجالنا".

امتعض وجه الرئيس وهو ينظر للدجاج.

تابع بايبر بنبرة تحليلية باردة:

– "حسناً، قاموا بتعذيب رجلنا. أين كانت «بيرسيفوني» أثناء كل هذا؟"

قالت بروكتر، وقد بدأت تفقد صبرها اللعين:

– "بعد تأكيد المراقبة، وضعت سيا و«بيرسيفوني» خطة للإجلاء. هذه الخطة... حسناً، يجب أن أنوه أنني أحصل على مقتطفات مشوشة من سيا لأن المكالمة الهاتفية معها للتو جرت من داخل مقصورة في شاحنة خدمات ترتج فوق طرق غير معبدة وسط عاصفة ثلجية، وهي محشورة بين جثة والضابط مقطوع الإصبع، وقد شهدت لتوها سلسلة جرائم قتل في المنزل والأمن الفيدرالي يطاردهم. فقط لأضعكم في الصورة. على أية حال، يبدو أن هذه الخطة تضمنت توجه «بيرسيفوني» إلى غرفة في المنزل اعتقدوا أنها غير مزودة بكاميرات، وأخذ سيارة لمحاولة تأكيد المراقبة أو تضليلها، ثم استخدام تلك السيارة لتهريب الثلاثة نحو نقطة الإجلاء. هذا ما كانت «بيرسيفوني» تحاول فعله".

قال بايبر:

– "حسناً، بغض النظر، من الواضح أنه لا ينبغي لنا المضي قدمًا. ماذا تتعاطي «بيرسيفوني» لتظن أننا سنبدأ العملية الآن؟ الليلة؟ هذا جنون".

نقّب الرئيس في جلد الدجاج على الساق. لم تقطع بروكتر كل هذا الطريق لتسمح للمماطلة السياسية والتأمل في السرة بأن يدمرا عملية ممتازة. والأسوأ، أن يُداس على التضحية التي قدمها ضباطها. لمع في ذهنها انفجار في قاعدة «خوست»، وبندقية تطلق النار داخل السفارة بدمشق، وتهشم زجاجة فوق رأس ذلك الوغد في دوشنبه. انفجرت كل ذكرى كفقاعة في دماغها، ثم نهضت ورفعت بلوزتها الوردية النيون فوق ظهرها واستدارت لكي يتمكن الرجال في غرفة العمليات من رؤية النجوم التسع الموشومة في صف واحد عبر عضلات ظهرها. سمعت رنين شوكة الرئيس وهي تسقط على الطاولة.

تمتم برادلي بصوت خافت:

– "أرتميس، يا إلهي..."

قالت:

– "سبعة منها من «خوست[38]». واثنتان عندما كنت رئيسة المحطة في دمشق وعمّان. أضع النجوم بعد أن أنتقم لرجالي. وإذا لم نبدأ هذا التحرك، حسناً أيها السادة، فإننا نعبث بالمعلومات التي عمل ضباطنا بجد لجمعها. مساهمتهم ستذهب أدراج الرياح. لأننا نعلم جميعًا أن المجد لا ينتظر هذين الاثنين. ما ينتظرهما قد يكون نجمتين مجهولتين على الجدار، ثم على ظهري. ثم، انتهى الأمر. الفناء. وتعرف ماذا يا سيدي الرئيس؟ هذا لا يناسبني بحق الجحيم. أنا أهتم بقاعدتين: اجمع المعلومات، واحمي عميلك. حسناً، لقد فشلنا فشلاً ذريعًا في الثانية. لكن يمكننا تحقيق الأولى. الطريقة الوحيدة للانتقام لهما هي إنهاء ما بدآه.

[38] **خوست Khost** / مدينة بأفغانستان ضمت قاعدة "تشابمان" التابعة للاستخبارات المركزية الأمريكية(CIA) ، والتي شهدت عام 2009 هجوماً انتحارياً نفذه عميل مزدوج وأسفر عن مقتل سبعة ضباط. يرمز الاسم في الذاكرة الأمنية الأمريكية إلى "اليوم الأكثر دموية" للوكالة منذ عقود،.

خذوا المال اللعين وأطلقوا شرارة مؤامرتنا الصغيرة. ولنرَ ما سيحدث في موسكو. نحن مدينون لهذين الاثنين بما لا يقل عن ذلك".

استدارت لتواجه الشاشة. كان الرئيس قد رفع يده إلى فمه. نظر إلى برادلي، وإلى بايبر، ثم استقرت عيناه على بروكتر. وأومأ برأسه.

– "أوصلي الفريق بالخط. وبحق السماء يا آنسة بروكتر، أنزلي بلوزتك اللعينة".

***

لم يكونوا جميعًا مستيقظين، لذا داست بروكتر عبر غرف النوم تصرخ، وتشعل الأضواء، وتهز الحمقى الشاحبين من أغطيتهم بأسلوب جنوني يشبه الاستيقاظ في معسكر اعتقال. تجمعوا أمام شاشة المؤتمرات المرئية.

بدأت بروكتر:

– "عندما نبدأ هذا، سيقوم برنامج يوم القيامة الصغير خاصتنا، منتحلاً صفة «فاديم كوفالتشوك»، بطلب شراء ما قيمته ثلاثمائة وخمسة وأربعون مليون دولار من عملة البيتكوين عبر بورصة في هونغ كونغ. هذه الأموال مصدرها عشرات الحسابات في ولايات قضائية حول العالم. وبشكل منفصل، سيتم تحويل أموال تتراوح بين عدة مئات من الآلاف وعشرات الملايين من الدولارات من الحسابات التي يديرها فاديم إلى الحسابات الخاصة لسبعة أفراد داخل الاتحاد الروسي – جميعهم رأيتموهم ووافقتم عليهم يا سيدي الرئيس. يشمل هذا فاسيلي غوسيف، المعروف بـ«الإوزة»، وأحد مساعديه ويدعى تشيرنوف، ومدير الأمن الفيدرالي، ونائب رئيس الحرس الوطني الروسي (Rosgvardia)، وثلاثة عقداء نعتقد أنهم سيقودون الوحدات التي سينشرها الجيش في موسكو في حال حدوث انتفاضة. أما منصة «وينكلفوس» (WINKELVOSS) الخاصة بنا، والتي تم إطلاعكم عليها أيضًا، فستنثر الكثير من الغبار الرقمي الضروري لإقناع المحققين بوجود مؤامرة".

توقفت بروكتر لحظة، ثم أضافت:

– "ثم ننتظرهم ليبدأوا في قتل بعضهم البعض".

سأل الرئيس:

– "كم من المال تعتقدين أنه سيتحرك فعليًا؟"

قالت بروكتر:

– "لا أعرف. أقل مما اعتقدنا في الأصل. سيكون الأمن الفيدرالي في شقة فاديم في غضون ساعات، وسيكون شخص ما داخل ذلك الكمبيوتر المحمول، وداخل الحسابات التي يعرفونها، محاولاً إبطال الأمور".

قال الرئيس:

– "ابدأوا العملية".

سمعت بروكتر شخصًا يتمتم: *يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي*، خذ *نفسًا عميقًا*، ثم سمعت صوت الكتابة على لوحة المفاتيح.

***

بدأت الفوضى في واشنطن، وارتدت بين «بالو ألتو» وهونغ كونغ، لتنفجر أخيرًا في موسكو.

جلست بروكتر طوال الليل مع التقنيين المنهكين ورجال العمليات المالية، ومع بزوغ الفجر كانت رائحة أماكن العمل تعج برائحة فطائر «بوب تارتس» المحروقة ورائحة الكولونيا التي تستسلم لرائحة العرق. تم تجميد العديد من المعاملات. لم تنتقل أي من الأموال المحفوظة في «بنك روسيا»، على سبيل المثال، إلى هونغ كونغ لشراء العملات المشفرة. لكن العديد من التحويلات المصرفية الأخرى تمت الموافقة عليها حسب الأصول. كانت فيروسات «حصان طروادة» قد توغلت عميقًا في حياة فاديم لدرجة أن الأمن الفيدرالي كان يكافح بشدة لاقتلاعها.

في وقت متأخر من بعد الظهر، قلبت بروكتر التلفزيون المتصل بالأقمار الصناعية على قناة «روسيا-1» الحكومية.

كانت هناك أربع راقصات باليه بملابس بيضاء يتواثبن في تنورات قصيرة على وقع الموسيقى الغنية الشاعرية التي تصاحب أحلام بروكتر المحمومة.

كان الروس يعرضون البرنامج الذي رافق وفاة القادة السوفييت: بريجنيف، أندروبوف، تشيرنينكو.

كانت هي البالية نفسها التي عُرضت في حلقة متكررة لمدة ثلاثة أيام أثناء محاولة الانقلاب على غورباتشوف في عام 1991.

«بحيرة البجع» لتشايكوفسكي.

ابتسمت بروكتر.

الفصل الثامن والستون

لانغلي

ستظل أرتميس أفروديت بروكتر تذكر دومًا تلك الأيام الأربعة المجيدة من شهر ديسمبر، بكل ما حملته من فوضى، وستحفظ لها مكانة خاصة في قلبها.

كانت تتابع عبر تطبيق "تيليجرام" (Telegram) مقاطع فيديو التقطها هواة، تظهر الدبابات والمدرعات متكدسة حول مقر جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) في لوبيانكا. بدا تمثال "فيليكس الحديدي" المُعاد نصبه وكأنه يحدق – بقلق رأته بروكتر مشوبًا بشيء من الاحترام المُكره – في تلك المؤامرة المتشابكة التي تتكشف فصولها حوله. ورصدت كاميرات الهواتف المرتعشة دبابات رابضة في الساحة الحمراء، وعناصر متشحة بالسواد تجوب الكرملين. وثمة مقطع فيديو يظهر مروحيات تابعة لوحدات مكافحة التجسس العسكري تحلق نحو قواعد جوية في منطقة موسكو.

وتلقت وكالة الاستخبارات المركزية تقارير غير مؤكدة تفيد بأن وحدات عسكرية بأكملها قد اعتُقلت وشُحنت شرقًا في عربات القطارات. كما أكدت صور الأقمار الصناعية وعمليات التنصت أن الفوضى التي ضربت العاصمة قد أصابت تحركات القوات الروسية داخل أوكرانيا بشلل تام وتخبط شديد.

أما الكرملين، فقد لاذ بالصمت المطبق.

وراح المحللون يتكهنون بأن بوتين قد انسحب إلى فيلته في إيدوكوباس، أو ربما إلى أحد المخابئ الرئاسية في جبال الأورال. والحقيقة أن الوكالة لم تكن تملك أدنى فكرة عن مكانه.

وتأججت الاحتجاجات المناهضة للحكومة في موسكو وسانت بطرسبرغ – وهي التي غابت طويلًا منذ الأيام الأولى للحرب في أوكرانيا – إذ استشعر الروس الضعف وسط حالة عدم اليقين. اتسعت رقعة المظاهرات – حيث كشفت صور الأقمار الصناعية أن بعضها ضم عشرة آلاف شخص – حتى قمعت قوات مكافحة الشغب ذوات القبعات السوداء إحداها في ساحة بولوتنايا بالذخيرة الحية. وبحلول اليوم الرابع، لم يتبقَ سوى أشد المتظاهرين حماسًا، بعد أن نالت منهم عمليات إطلاق النار وموجة برد قارس ضربت البلاد في ديسمبر.

ومع ذلك، ظل الكرملين صامتًا.

واصل الروبل الروسي انهياره، بينما حلّق سعر "البيتكوين" عالميًا خلال أيام التداول الأربعة. ولم يربط بين الحدثين سوى قلة من المعلقين، وحتى هؤلاء اكتفوا بالتكهن بأن المستثمرين قد يكدسون أموالهم في العملات المشفرة – في خطوة غريبة – كتحوط ضد المخاطر الواضحة والمتزايدة للاضطرابات العالمية.

وفي صبيحة يوم عيد الميلاد، تلقت الوكالة أخيرًا معلومات استخباراتية (SIGINT) تؤكد ما كان يردده رموز المعارضة والمجتمع المدني الروسي منذ يوم أو يومين: فاسيلي بلاتونوفيتش غوسيف، المعروف بـ "الإوزة"، حليف بوتين القديم وسكرتير مجلس الأمن القوي، قد اعتُقل. وأُودع سجن ليفورتوفو.

وفي ليلة عيد الميلاد، ألقى بوتين خطابًا.

بدا شاحبًا، ووجهه أكثر انتفاخًا من المعتاد. وكدأب الطغاة حين يحدقون في وجه شعب يتململ، دعا بوتين إلى الهدوء. ألقى باللوم على "جهات أجنبية" في التحريض على مؤامرة ضد روسيا وممثليها المنتخبين شرعيًا. لم يبتسم، وكانت طرفات عينيه نادرة. كان يرتدي ساعة "ريتشارد ميل توربيون" (سعر التجزئة:

583,000 دولار) ذات جمجمة ذهبية مرسومة عليها تشير إلى تاريخ الرابع والعشرين من ديسمبر، أي اليوم السابق. ربط الهجوم على روسيا بـ الولايات المتحدة، وبالقومية الأوكرانية (رغم أنه لم ينطق كلمة أوكرانيا ولو لمرة واحدة)، وبالنازية، دامجًا إياهم جميعًا في زمرة واحدة معادية لوجود روسيا ورسالتها الخاصة في العالم. ولمّح إلى مزيد من عمليات التطهير في الأمة، وعن أمجاد غير محددة تنتظرها.

انقطع بث خطاب بوتين في منتصف مونولوج غاضب عن المتظاهرين (الذين وصفهم بـ "المتعاونين" فقط) في تمام الثامنة مساءً بتوقيت موسكو. وكما أشارت ساعته، كان الخطاب مسجلًا مسبقًا ليناسب الجدول الليلي للقناة الأولى (Channel 1)، لكن بوتين أطال الحديث. وعلمت الوكالة لاحقًا أن النسخة الأصلية امتدت لاثنتين وسبعين دقيقة، متجاوزة الوقت المخصص باثنتي عشرة دقيقة. وبعد الخطاب، اختفى بوتين. ولم تعلم الوكالة وجهته؛ أهي دهاليز الكرملين، أم منزله في موسكو، أم ضيعته على البحر الأسود.

قرأت بروكتر كل قصاصة استخباراتية ترد من المراكز العالمية الإثني عشر المعنية بالشأن الروسي. وما تكشف أمامها، لسرورها، كان صورة لفوضى عارمة. فقد أطلق تحقيق الأمن الفيدرالي في التحويلات المصرفية وسجلات الهاتف الخاصة بـ فاديم كوفالتشوك موجة من الاعتقالات. أُفرغ سجن ليفورتوفو من نزلائه السابقين لاستيعاب المتآمرين المزعومين. مات العديد منهم أثناء مقاومة الاعتقال، بمن فيهم عقيد في الشرطة العسكرية قُتل في منزله أمام شجرة كريسماس السنة الجديدة.

غير أن الأمن الفيدرالي بدأ يطلق سراح السجناء ببطء شديد بعدما اتضح أن كثيرين منهم لا علاقة لهم بمحاولة الانقلاب. ومع ذلك، قدم مصدر جديد نسبيًا ما اعتبره "الرئيس" قراءة دقيقة للحالة الذهنية للرئيس الروسي: إنه يعتقد أن "الإوزة" وفاديم كوفالتشوك ومجموعة من المتعاونين ذوي النفوذ حاولوا الإطاحة به.

كتبت بروكتر لـ برادلي في ملاحظة أرفقتها بالتقرير:

روسيا تنكفئ على نفسها. الدب يلتهم رأسه.

وماذا عن فاديم كوفالتشوك؟ ذلك المصرفي الغامض الذي كان في قلب الانقلاب المتوهم لم يتصدر عناوين الأخبار، لكن اسمه ورد في تقارير استخباراتية عدة واردة من مصدر روسي يُدار من محطة باريس. زعم المصدر أن فاديم قد هُرِّب خارج روسيا. فتش الأمن الفيدرالي كل شبر في البلاد. وكُلفت محطات الاستخبارات الخارجية الروسية (SVR) في جميع أنحاء العالم بتقصي أثره. زعم المصدر قائلًا:

لا أحد يعرف، لكن الجميع يتساءل: أين فاديم كوفالتشوك؟

زارت بروكتر برادلي في مكتبه في ظهيرة يوم شتوي موحل من شهر يناير للحصول على موافقة بشأن إجابة الوكالة عن هذا السؤال.

كان وقت الانصراف قد حان لجمهور الموظفين التقليديين. تدفقت حركة المارة في الطابق السابع حولها كالماء وهي في طريقها لمقابلته. لم تكن تحمل سوى صندوق أسود مسطح. عُلقت عليه بطاقة صغيرة تشير إلى حصولها على موافقة أمنية لحمل هذا الجهاز الإلكتروني داخل المبنى. أشار لها برادلي بالدخول. مسحت بيدها على قاذفات "ستينغر" و"جافلين" تبركًا بجلب الحظ، ثم جلست إلى الطاولة.

دفعت بمحفظة التخزين البارد عبر الطاولة نحو برادلي. "المقبرة".

ابتسم برادلي وقال:

– "حسنًا، ماذا تريدين أن تفعلي بها؟"

أجابت:

– "أريد زورقًا سريعًا. وربما تشتري أنت لـ أنجيلا ذلك الحصان من سان كريستوبال قبل أن ينهار سوق العملات المشفرة؟"

ضحك برادلي وقال:

– "أي شيء في حدود ما يسمح به المحامون؟"

– "ليس تمامًا."

– "أنا واثق أنكِ ستجدين مخرجًا ما".

أعاد المحفظة إليها. وضعتها بروكتر في جيبها.

سأل:

– "فاديم؟"

– "أجل".

– "قرأتُ ملاحظتك يا أرتميس. لست متأكدًا من موافقتي عليها".

– "ولمَ لا بحق الجحيم؟"

ابتسم قائلاً:

– "حسنًا، أولاً، لماذا قد نُقحم أنفسنا رسميًا في جنون موسكو هذا؟"

– "لقد قرأت التقارير يا إد، إنهم يظنون بالفعل أن لديهم أدلة قوية. بوتين يلومنا علنًا. لقد سمعتَ خطابه".

– "وما الذي نجنيه بالضبط من ترسيخ هذه الفكرة داخل الكرملين؟"

– "نمنح بيرسيفوني فرصة للعبور إلى الضفة الأخرى".

سوّى برادلي ربطة عنقه وحك رأسه. قال:

– "بعد ما حدث، لا أعتقد أن هناك رغبة في ذلك. على أية حال، هي غالبًا في عداد الموتى".

قالت بروكتر:

– "أمران يا إد، ثم سأخرس. أولاً، عملية بيرسيفوني هي التي مكنت حدوث كل هذا. حرفيًا لم يكن أي من هذا ممكنًا بدونها. نحن مدينون لها".

قال برادلي:

– "هراء يا أرتميس. نحن لا ندين لها بشيء. لقد أفسدت العملية وربما حاولت قتل ضباطنا".

أقرت بروكتر:

– "قد يكون هذا صحيحًا، لكنها أنقذتهم أولاً. لولا تدخلها لكانوا في عداد الموتى. مدفونين في قبور مجهولة في تلك المزرعة الشيطانية. ثم إن كاستيّو كان متأكدًا تمامًا أنها تعمدت أن تخطئه حين أطلقت النار عليه أثناء الإجلاء".

لم يرد برادلي.

– "وما هو الأمر الثاني؟"

قالت بروكتر:

– "ثانيًا، جهاز الاتصال الميداني الذي أعطيناه لها لا يزال يعمل. لم تدمره بيرسيفوني. كان بإمكانها فعل ذلك بسهولة. اللعنة، لقد امتطت ذلك الحصان عبر نصف المزرعة بحثًا عن كاستيّو وفوكس. كانت حقيبة السرج تلك أول شيء كنت سألقيه في النار، لكنها لم تفعل".

قال برادلي:

– "إنها ميتة، أو على الأقل يبدو أن الفنلنديين يعتقدون ذلك. لقد أطلقوا النار عليها".

قالت بروكتر:

– "أعرف، أعرف. لذا ليس لدينا ما نخسره بالمحاولة. أسوأ الاحتمالات هو أن ننتهي حيث نحن الآن: بيرسيفوني خارج المشهد، والروس يحمّلوننا مسؤولية تدمير أمورهم".

– "لا أحد في الإدارة يؤمن للحظة أن بيرسيفوني تستطيع العودة إلى اللعبة. بايبر، رئيس أمريكا .. وربما حتى أنا".

– "حسناً".

هزت بروكتر كتفيها بلامبالاة.

– "ولكن يا إد، للإنصاف، أنت قلت (ربما). ماذا يتوجب على فتاة أن تفعل لتنتزع كلمة نعم؟"

كان برادلي يقرأ البطاقة المطبوعة بجدوله اليومي، وقد انعقد حاجباه في توتر. تنهد وقال:

– "ما هو اقتراحك؟"

***

في عتمة مكتبها بوحدة موسكو إكس، أسندت بروكتر مضرب البيسبول إلى المكتب لتفسح مجالًا للخزنة. كانت بعض بقايا الطلاء وتوقيع جيم ثومي الثمين قد تضررت، لكن خشب "وي ورك" الحبيبي الرديء كان قد تضرر بشكل أسوأ بكثير. قام اثنان من عمال الصيانة بجر الخزنة الجديدة إلى الداخل. أوضحا لها كيفية تغيير الرمز السري، وهما يلقيان نظرات حذرة نحو المضرب. ملأت كومة صغيرة من الأوراق ثم انصرفا.

فتحت بروكتر الخزنة وغيرت الرمز المكون من ستة أرقام إلى تاريخ ميلاد فلاديمير بوتين: **100752**. وعلى الجدار الداخلي الخلفي، ألصقت صورة لبوتين وهو يسقط على الجليد أثناء مباراة هوكي. كانت قد طبعت نسخة جديدة بعد

تدميرها للمكتب بالمضرب في بالو ألتو. وفرشت أرضية الخزنة بنسخة مطبوعة من تلك الصورة العارية التي كانت قد حشرتها في بنطال أنطون قبل أن تفر من غرفة فندق دوشنبه. تلك التي كانت تبرز أنوثتها القاسية.. وقوتها الصامتة.

أخرجت بروكتر المحفظة من جيبها ووازنتها على راحة يدها.

تمتمت بروكتر وكأنها تتلو تعويذة:

– "مائتان وخمسة وعشرون مليونًا، وثلاثمائة واثنان وعشرون ألفًا، وأربعمائة وسبعة عشر دولارًا وواحد وستون سنتًا".

مبلغ تافه من أموال بوتين. لكن حين ارتد إليه، صنع الفارق كله.

قبلتها. ثم، بحذر كي لا تحجب صورتها الشخصية، وضعت المحفظة جانبًا، وأغلقت الخزنة برفق.

الفصل التاسع والستون

كاريليا

تألقت أضواء الشفق القطبي كشرائط خضراء تتهادى في كبد السماء.

قبل ساعات من بزوغ الفجر الأول، انطلق شخصان ينتعلان أحذية الثلج من الكوخ قاصدين المرج الواقع على الجانب القصي من البحيرة. كانت كاريليا أشبه بكرة ثلجية صامتة في قمة العالم، أرضًا من مياه متجمدة؛ بحيرات، وبرك، وجداول. قال بي جي إن الحقول والمروج تغدو في الصيف زمردية اللون، والمياه بلورًا أزرق. أما الآن، فقد شُد دثار أبيض بإحكام فوق كل شيء. كان أنقى مكان وطئته قدماها قط، هواء بارد ونقي لدرجة أن الأنفاس في أيامهم الأولى كانت حادة، بل ومؤلمة تقريبًا. لكن الآن، وهي تنزلق فوق الصقيع بحذائها الثلجي، شعرت سيا بأنها أقوى مما كانت عليه منذ أسابيع. نظرت إلى ماكس الذي يتقدمها، فلاحظت أن خطواته باتت أطول وأكثر ثباتًا مما كانت عليه قبل بضعة أيام فقط.

***

طُبعت الأيام القليلة الأولى بميسم البؤس والانتظار العاجز الذي يصاحب القصف المدفعي، وقضوا وقتهم في قبو بارد مفروش بحشايات نوم قذرة ويحوي حوضًا صدئًا. كانت الجدران الخرسانية ترشح رطوبة كأنها تبكي. وتتدلى من السقف مصباحان كهربائيان بسلاسل رفيعة. كان الفنلندي الأبكم يُحضر الماء، والخبز الأسود، والنقانق، وصندوقًا بلاستيكيًا مليئًا بالضمادات والمراهم لقدم ماكس. وعلموا أن بي جي هو الأخ الأكبر حجمًا والأصغر سنًا، وأن آرفو هو الأبكم.

في تلك الليلة الأولى في القبو، زحفا عاريين تحت الأغطية طلبًا للدفء، وانتظرا أن يخلع جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) الباب عليهما. كانت سيا تشرئب بعنقها أحيانًا نحو السقف وتظن أنها تسمع صوت محركات مروحيات. لم يكن الزمن يتحرك إلا عبر الأرقام الخضراء لساعة رقمية. في تلك الساعات الطويلة، لم يكن وضع الوسادة فوق أذنيها ليطمس صوت المروحيات التي لم تكن موجودة؛ ولم يكن دفن أنفها في الوسادة المهترئة ليخمد رائحة الدخان الذي تصاعد منذ زمن من مزرعة الروس؛ ولم يكن إغماض عينيها ليمحو صورة تشيرنوف وهو يبتر إصبع قدم ماكس.

***

بعد ثلاثة أيام، وحين أشارت الساعة إلى وقت متأخر من المساء، ظهر آرفو في الطابق السفلي حاملاً ملابس ثقيلة وحفاضات للبالغين. أشار بإلحاح إلى معصمه، حيث يفترض أن تكون الساعة. نظرت سيا إلى علبة الحفاضات. وكانت تلك المرة الوحيدة التي رأت فيها آرفو يبتسم.

لم تناسبهم المقاسات سوى الحفاضات. لذا، مرتديةً معطفًا فضفاضًا، وسترة ضيقة، وقبعة عملاقة، وقفازات أطفال، صعدت سيا الدرج ودخلت المرآب. كان البرد قارسًا ينهش العظام. جلس بي جي خلف مقود سيارة دفع رباعي. ذكرتها رائحة العادم بالحريق في مزرعة الروس، فتسارعت دقات قلبها. أراهم آرفو الحجرة المخفية أسفل صندوق السيارة الخلفي. كان بداخلها زجاجات مياه، وأنابيب أكسجين، وعبوات بسكويت. وضع إصبعه بوقار على شفتيه، فدخلوا إلى المخبأ.

قادوا السيارة لساعات. تلبد شعر سيا بالعرق؛ وخدرت أصابع قدميها. بالت في الحفاضة. أطبق الظلام عليها حتى استسلمت وأخذت جرعات من الأكسجين لتستعيد توازنها. ضغط ماكس بجبينه على جبينها، فتحسست يده وأمسكتها. كانت جائعة لكنها خشيت أن تتقيأ إذا أكلت. تحول الطريق المعبد إلى حصى وحجارة.

وأخيرًا، توقفت السيارة. سُمعت طقطقة القفل. رفعت سيا بصرها، فتدفق ضوء مبهر وهواء متجمد إلى الحجرة الآسنة. رمشت بضع مرات، فرأت طيفًا يقف فوقهم. ومن ورائه قمم أشجار مكللة بالثلج وسماء زرقاء متألقة. كان الطيف هو آرفو. والعالم يلفه الصمت. قطب أنفه من الرائحة المنبعثة من الصندوق، ثم أشاح بوجهه ومد يدًا غليظة ليرفعها.

قالت سيا:

– "آسفة بشأن الرائحة."

***

كان الكوخ يربض على شبه جزيرة تتوغل داخل بحيرة متجمدة. احتوى المطبخ الصغير على مدفأة حطب، وثمة غرفة نوم واحدة. كانت عوارض السقف منخفضة جدًا لدرجة اضطرتهم لحني رؤوسهم تجنبًا للارتطام. أزاحت سيا الستائر المعلقة بحبال، فلم ترَ أي كوخ آخر على البحيرة. لا شيء يتحرك بين الأشجار أو على الجليد. جر آرفو وبي جي صناديق المؤن إلى الداخل – طعام، وماء، وأعواد ثقاب، وحقيبتا إسعافات أولية، ووسائل إشعال، وصحف، وبندقيتان، وذخيرة، وكتب (كلها بالفنلندية أو الروسية). خلف الكوخ، أزاح بي جي مشمعًا ليكشف عن كومة من الحطب. أشعلوا النار وجلسوا على مقاعد مهتزة حول المدفأة يدفئون أيديهم.

قال بي جي مشيرًا عبر النافذة:

– "كاريليا."

سألت سيا:

– "روسيا أم فنلندا؟"

تجهم وجه آرفو.

قال بي جي وهو يحك ذقنه الخشنة:

– "روسيا. ربما لبضعة أسابيع أخرى. الضغوط شديدة. لولو تقول إنه لا توجد خيارات جيدة على الحدود الآن. السيارة مخاطرة كبيرة. لا غواصات. لا طائرات. لولو تعمل على حل الأمر. انتظرا هنا. في أقصى، أقصى الشمال. وحدكما. سنعود. أربعة، ربما خمسة أيام. مع المزيد من الإمدادات."

***

جافاها النوم العميق حتى الليلة الرابعة. في منامها، رأت سيا أنها تمتطي حصاناً هاربة من مزرعة الروس وهي تحترق. حثت الحصان على العدو لسباق ألسنة اللهب. شعرت بلفح الحرارة على ظهرها. ثم تحولت المزرعة الروسية فجأة إلى مزرعة فوكس القديمة في بيغ بيند، وكانت تدوس بحصانها الأعشاب وشجيرات الكريوزوت والصبار في الأرض التي كانت تسميها وطناً ذات يوم. أرض مفتوحة وقاسية وحرة. كان حصان وحيد ينتظر على قمة التل، وقد رسم قمر الصحراء حدوده بوضوح. ركضت نحوه.

عندما استيقظت، كان ماكس يعد القهوة.

قال:

– "هل أنتِ مستعدة للمشي؟"

***

انزلقا في ملابسهما الشتوية وأحذية الثلج وشقا طريقاً حول البحيرة. كان السكون يلف المكان كالموت، لا يقطعه سوى قرمشة أحذيتهما وهي تضغط الثلج. تحركت بسرعة، مستمتعة بالحرارة في عضلاتها وتعطش رئتيها للهواء النقي. بعد ساعة، وصلا إلى بقعة على الجانب الآخر من البحيرة تطل على الكوخ. أزاحا الثلج عن صخرتين وجلسا لتناول ألواح "الجرانولا" التي أحضراها.

خطت سيا بقفازها في الثلج لترسم حرف "S". ثم "I". ثم "A". ومررت حذاءها فوق الحروف لتمحوها.

فكرت: ربما يجب أن التزم الصمت فقط. لكن سرعان ما انطلق لسانها بالحديث.

قالت:

– "إذا خرجنا من هنا، سيشددون الخناق علينا لشهور. أجهزة كشف الكذب. فحوصات نفسية. جلسات استخلاص معلومات لا تنتهي. كابوس حقيقي. سيكون التفكير مستحيلاً حينها. لذا، أنا أفكر الآن."

سأل ماكس:

– "في ماذا؟"

سعلت وقالت:

– "في أنني لم أعد أعمل بشكل صحيح. في أنني ربما لا أعرف من أنا".

ضحكت. كان سماع ذلك بصوت عالٍ ضربًا من الجنون. بدأت تكوّر كرة من الثلج.

تابعت قائلة:

– "عندما وصلنا إلى مزرعة الروس، شعرت بشيء لم أشعره في حياتي قط. التسلل في الظلال لم يعد فجأة مثيرًا. كان مرعبًا. تساءلت عما يوجد هناك أيضًا. عما إذا كان شيء ما يطاردني. ما زلت أشعر بذلك."

راقبته وهو يميل بجذعه للأمام، وفمه ينفرج قليلاً، يزن الكلمات. لكنها لم تخرج. انتظر.

خلعت القفاز عن يدها اليسرى ورفعتها عاليًا.

– "هذا جديد. على سبيل المثال."

راقبت أصابعها وهي ترتجف للحظة. ثم أعادتها إلى القفاز وواصلت العمل على كرة الثلج.

واستطردت:

– "وأتساءل عما إذا كانت يدي ترتجف لأن جسدي يعرف شيئًا يجهله عقلي: وهو أنني لا أعرف من أنا. هل أنا محامية أم عميلة سرية؟ نعم لكليهما. هل أنا أمريكية أم جنوب أفريقية أم بريطانية؟ نعم مرة أخرى. هل كُشفت هذه العملية أم كانت نجاحًا باهرًا؟ نعم، ونعم. هل تلاعبنا بـ آنا أم تلاعبت هي بنا؟ نعم. هل أنا مخادعة أم وطنية شريفة؟ نعم ونعم. وهكذا دواليك. بصدق، لم أعد قادرة على التمييز. أعلم أنني أهرب من شيء ما، لكنني لا أعرف ما هو."

ألقت كرة الثلج نحو شجرة.

– "هذا هو الأمر. الموضوع ليس نظيفًا. ولن يكون أبدًا."

***

راقبها ماكس وهي تصنع كرات الثلج.

الأمر ليس نظيفًا. منذ قيامة مزرعة الروس، كان ماكس يمني النفس بسيناريوهات خيالية يعود فيها منتصرًا إلى سان كريستوبال وكأن شيئًا لم يحدث. حلم أحمق.

لقد عرّض سان كريستوبال للخطر. ووضعها على المقصلة. ولكن هل كان الخيار بيده؟

فكر: ربما لو قلت لا شكرًا لـ هويت ولوكالة الاستخبارات، لما كنا هنا. ربما لو أخبرتُ بروكتر أنني انتهيت بعد الزيارة الأولى لمزرعة الروس. ربما لو كنت

مستعدًا للبقاء خارج الحلبة، والاسترخاء، والاستمتاع بالحياة المدنية. وترك سيا، والوكالة، وسكان العالم السري يترنحون ويدورون وحدهم. ربما حينها...

ما لم يكن "ربما" هو أن الأمر لم يعد يهم. لقد قُضي الأمر. كبت ماكس كل شيء في أعماقه لدرجة أنه فوجئ عندما بدأ يتحدث.

كانت سيا تنفض الثلج بكسل عن شجرة أخرى بكرة ثلجية.

قال:

– "قضيت عمري كله في بناء سان كريستوبال. عائلتي، ورزقي، كل شيء هناك. أعرف كل حصان في تلك المزرعة. كل حيوان بلا استثناء. كنت أحاول تكريم المكان. أنا..."

تصلب فكه بشدة لدرجة ظن معها أن أسنانه قد تتهشم. حدق بعيدًا عبر البحيرة. جلست سيا على الصخرة ووضعت يدها على ظهره.

قال بهدوء بعد لحظة صمت:

– "فليذهب كل شيء إلى الجحيم."

قالت سيا:

– "سيعرضون علينا إعادة التوطين في الولايات المتحدة، كما تعلم. في حالتي لن يكون الأمر موضع تساؤل. لكن سيكون لديك خيار."

أجاب:

– "ليس تمامًا. هناك شيء واحد فقط يمكنني فعله."

– "ما هو؟"

– "العودة إلى وطني."

التقط غصناً ساقطاً وهشمه على ركبته. ثم قذف بالأشلاء نحو الأشجار.
وبينما كانا يراقبان الثلج ينزلق عن أشجار التنوب، سمع ماكس طقطقة غصن ووقع خطوات في الثلج.

الفصل السبعون

كاريليا

ثمة شيء كان يشق طريقه مصحوبًا بقرقعة عبر الأحراش المكسوة بالثلج صعودًا من خط الساحل. أحذية ثلجية؟ رَبَضَا خلف الصخور للمراقبة. تكسرت المزيد من الأغصان. انخفضا بجسديهما أكثر، حتى كادا يغوصان في الثلج.

حبس ماكس أنفاسه. كانت يد سيا اليسرى ترتجف، وأصابعها تقرع الصخر وكأنها شوكة رنانة. أغمضت عينيها.

ارتفع وقع الخطوات.

ظهر حيوان يتهادى على قوائمه الأربع. كان دبًا بنيًا ضخمًا، تنفث خياشيمه البخار وهي تشمخ لتشم الهواء. تحفز ماكس لصد هجوم محتمل. شم الدب الأرض، ودس أنفه في الثلج باحثًا عن شيء ما، ثم رفع رأسه ناظرًا إلى ماكس وخطمه مغبر بالبياض. حدقا في بعضهما البعض للحظة ثقيلة.

ثم مضى الدب في سبيله.

***

لقّم ماكس المدفأة المحتضرة بمزيد من الحطب. وغلت سيا الماء لإعداد القهوة. فرشت على لوح التقطيع قطعة من الخبز الأسود، ونقانق الأيائل المجففة، وكتلة من الجبن الفنلندي تفوح منه رائحة الجبن السويسري. كان الجبن متجمدًا، لكنهما أتيا على الخبز والنقانق كلها في صمت مريح جمع بينهما. أعاد ماكس ملء

كوبي القهوة. كان واثقًا أن سيا لم تأكل بهذه الشهية منذ الحريق. وحين شبعا، التقط ماكس أحد الكتب الفنلندية وارتمى على الأريكة.

قال وهو يقلب الصفحات بلا هدف:

– "تبًا لـ بي جي وآرفو. لا يوجد كتاب واحد بالإسبانية أو الإنجليزية."

ضحكت سيا. كانت تقف عند رف الكتب، تتفحص المجموعة غير المفهومة. بدت سترتها ذات الرقبة المتهدلة سيئة القياس عليها، لكن بنطال الجينز كان ملائمًا تمامًا. ضبطته يختلس النظر إليها حين استدارت. وهذا أيضًا جعلها تبتسم.

انضمت إليه على الأريكة، وشبكت يدها بيده. قبلها. طوق رأسها بين كفيه وراح يفرك صدغيها ومؤخرة عنقها. ودونما حاجة للكلام، أدركا ضرورة التحرك ببطء، لفسح المجال لجسديهما المنهكين كي يستعيدا عافيتهما. قبل عنقها، وأذنيها. بينما تخللت أصابعها شعره.

نهضت فجردها من ثيابها؛ وفعلت هي الشيء ذاته معه، لكن بحذر، مراعية قدمه المصابة. نظرا إلى بعضهما في ضوء الظهيرة الذي لا يرحم. بلا ثياب، بلا ظلال، بلا أقنعة. رأى ماكس شاماتها، وجروحها، وكدماتها، وساقيها الطويلتين الجميلتين. رآها بتمامها. ذكرته اللحظة بذلك الكوخ القديم في سانت آيفز. بداية هذه المسرحية، قصة حب مثلاها أمام الجمهور. الآن غادرا خشبة المسرح. ورحل الجمهور منذ زمن.

راقب عينيها وهما تتفحصانه، صعودًا وهبوطًا، توازنان الأمور. وفعل هو الشيء نفسه.

بدت اللحظة وكأنها قد تميل في أي اتجاه. خطت خطوة صغيرة نحوه، وخطا هو نحوها.

أخذت بيده، ووجدا نفسيهما على الأريكة يتبادلان القبلات واللمسات. بدت بشرة سيا مختلفة عما يتذكره.

فكر: أكثر نعومة. جديدة عليّ.

جلسا للحظة وقد تلاصقت جباههما وأنوفهما، ينصتان لأنفاسهما.

أكانت هذه النهاية أم البداية؟

همست سيا في أذنه:

- "فيمَ تفكر؟"

انفرج فوه.

أطبقته بقبلة وجذبته إليها قائلة:

- "اصمت وأخبرني."

***

طوال سبعة عشر يومًا، لم يتبدل الجدول. في الصباح يتجولان بأحذية الثلج حول البحيرة. الغداء في الكوخ. وفي وقت مبكر من بعد الظهيرة يأخذان قيلولة، وأحيانًا يمارسان الحب ويقطعان الحطب قبل حلول الظلام. أصبح حلمها بمنزل المزرعة المحترق طقسًا ليليًا، دائمًا ما ينقطع قبل أن تصل إلى الحصان تحت ضوء القمر.

لم يكسر الروتين سوى زيارات الفنلنديين. أحضر بي جي مواد قراءة مناسبة في اليوم السابع: روايات إنجليزية، ومجلات، وصحفًا. وحين سأل ماكس عما إذا كانت لولو ترغب في التحدث معهما، هز آرفو إصبعه نافيًا. وشرح بي جي الأمر: "كيف تظن أنهم أمسكوا ببن لادن؟ الهواتف. لا فتات رقميًا هنا". أخبرهم بي جي أنهم سيغادرون بمجرد أن تشعر لولو بأن عبور الحدود آمن، وأنهم لا يتراسلون مع لولو إلا من أماكن أبعد جنوبًا. لم يكن يعرف كم سيطول الأمر.

في اليوم التاسع، أجبرت سيا نفسها على تصفح نسخة قديمة من صحيفة "نيويورك تايمز" بتاريخ 27 ديسمبر. في الصفحة الأولى، في النصف العلوي، كان

هناك مقال بعنوان "ليلة السكاكين الحمراء؟ أدلة جديدة تسلط الضوء على الانقلاب الفاشل في موسكو". وضعت الصحيفة جانبًا حتى المساء، حيث استخدمتها لإشعال المدفأة.

***

في اليوم السابع عشر، عاد ماكس وسيا من جولتهما الثلجية على وقع نباح الكلاب واكتشاف زلاجتين مركونتين بجوار شاحنة بي جي. كانت كلاب الهاسكي تسترخي فوق أكوام الثلج. وستائر الكوخ مسدلة. خرج آرفو حاملًا أوعية كبيرة من الماء للكلاب.

في الداخل، رأت سيا أن الكوخ قد رُتب: طويت الملاءات، واختفت قطع ملابسهم القليلة. وكانت حقيبة قماشية تقبع عند الباب.

قال بي جي:

– "هدأت الأمور. نعرف رجال المناوبة على الحدود. سننطلق اليوم."

كان المخطط تهريب ضابطي الاستخبارات المركزية إلى فنلندا مخبأين في مقصورات داخل الزلاجات. ناولهما آرفو أكياسًا من الحبوب وزجاجتي ماء. ومن الشاحنة جمع بي جي المعدات: مسدس، مناظير، بطانيات، خيمة، ومبردًا. ألقت سيا نظرة أخيرة على الكوخ. كانت الأيام هنا بسيطة. ومملة. لن تكون أيامها مملة لفترة طويلة قادمة، وذلك ما أحزنها. حشرهم الفنلنديون داخل المقصورات في الزلاجات، وعلقت المعدات في الخارج. إذا صادفوا أحدًا، سيبدو الأمر وكأن الفنلنديين يمارسون رياضة التزلج بالكلاب للصيد في الغابة.

شقت الزلاجة الجليد والثلج تحتها وهي تندفع مترنحة. انزلقوا لساعات. تساءلت سيا: أين الحدود؟ الحدود الروسية اللعينة.

أخيرًا، أبطأوا. سمعت ثرثرة روسية، صوت بي جي وصوتين غريبين. توقفوا. المزيد من الحديث، هذه المرة بحدة أكبر. أغمضت عينيها بقوة. أصغت إلى دقات

قلبها. وضع شخص ما يده على الزلاجة فوقها. زادت الثرثرة. وتوتر الجو. شيء ما يخشخش فوقها. ستقاتلهم إن فتحوا المقصورة. ستقتلهم أو تجبرهم على قتلها. ماذا كان لدى بي جي على الزلاجة؟ بنادق، سكاكين، أعمدة خيمة.

فكرت: إذا فُتحت هذه المقصورة ولم أتعرف على العيون التي تحدق بي، سأغرس أصابعي فيها. ويا إلهي، قلبي.

المزيد من الثرثرة.

ثم ضحكة. والمزيد من الروسية.

تسارعت الزلاجة. وضعت يدًا مرتجفة على فمها.

***

بعد ساعة أخرى، غمر الضوء المقصورة. رمشت سيا ونظرت حولها. ثلج، أشجار تنوب، وكوخ آخر. يكاد يكون مطابقًا للأول، لكنه مكون من طابقين.

قال بي جي وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

– "فنلندا".

منكبة على الموقد، وفي حالة من الاضطراب الشديد، كانت أرتميس بروكتر، المتشحة بسترة "باركا" أرجوانية فاقعة، في خواتيم محاولة كارثية لإعداد القهوة. انسكب البن المطحون على الأرض، وسال دبس القهوة على جانب مدفأة الحطب. كان كوب بروكتر ملطخًا بالبقع. وحين رأت سيا وماكس، صفعته بقوة على الموقد وعانقتهما عناقًا حارًا. ضمت سيا بقوة، وقالت إن فخرها بها يفوق الوصف واللعنة.

أشارت بروكتر لآرفو وبي جي بمنحهم دقيقة. جلس ضباط الاستخبارات المركزية الثلاثة على الأريكة والكراسي. تحدثت بروكتر عن أحداث موسكو، وأموال بوتين، وعقلية الحصن التي تسيطر عليه.

استمعوا إلى فرقعة النار، بينما فكرت سيا وماكس في حقيقة أن الروس، بل بوتين نفسه، قد يضعون قريبًا جائزة مقابل رأسيهما. الغريب أن ذلك لم يشعر سيا بأي شيء على الإطلاق.

وأخيرًا أصدرت بروكتر حكمها. الحكم الذي توقعته سيا وخشيت منه منذ سانت آيفز. تغيرت لغة جسد "الرئيسة"، لكن يُحسب لها أنها لم تجمل الكلام. لم تراوغ. ولم تقدم أملًا زائفًا.

استهلت بروكتر حديثها قائلة:

– "أجرينا مراجعة شاملة منذ تلك الليلة في مزرعة الروس، ولا توجد أي وسيلة تمكننا من مواصلة دعم غطائكما. لقد احترق تمامًا. سيا، سنعيد توطينك في الولايات المتحدة. اسم جديد، وكل شيء جديد. ستتصلين بـ هاينز دوسون وتخبرين بيني أنكِ ستخرجين. انهيار عصبي. شيء درامي. سنرسل فريقًا لتنظيف شقتك".

وبهذا، ومختومًا بإيمائها الصامت، انتهت المسيرة المهنية اللامعة لـ سيا فوكس كعميلة شابة ذات غطاء غير رسمي (NOC). قطار من الإنجازات، المضيئة والمتقلبة في آن، المثيرة والمرعبة، قد انحرف عن مساره وتحطم. كان القطع حادًا لدرجة أنها لم تستطع استجماع الطاقة لصياغته في كلمات، ناهيك عن استيعاب تداعياته. ربما كانت الصدمة. أو ربما التجاهل الأعمى أو الارتباك. لكن أيًا كان الأمر، في تلك اللحظة لم تشعر سيا فوكس بشيء. لم تقل شيئًا. ولم تفعل شيئًا.

تهاوى جذع خشبي في النار.

التفتت بروكتر إلى ماكس وقالت:

– "لقد وضعنا حزمة من الإجراءات الأمنية الإضافية في سان كريستوبال. لا اهتمام روسي بالمكان حتى الآن. العرض نفسه مطروح لك ولوالدك. إعادة توطين.

أسماء جديدة. راتب. الحزمة الكاملة. أنا أعرض الأمر. يجب أن أعرضه. هذا جزء من اتفاقنا معك ومع عائلتك."

قال:

– "سأعود إلى سان كريستوبال. لا يمكنني العيش في أي مكان آخر."

سألت بروكتر:

– "هل أنت مستعد للموت هناك؟ إذا وجدت عين فلاديمير الشريرة طريقها إليك؟"

– "ما رأيك أنتِ يا أرتميس؟"

تلاقت نظراتهما بثبات حتى خُيل لسيا أن بروكتر وماكس قد تفاهما.

دمدمت بروكتر:

– "كما قلت. كان عليّ أن أعرض الأمر."

اختلج وجه ماكس. أومأ لبروكتر، ثم نهض وخرج.

راقبت بروكتر وسيا النار وهي تشتعل.

سألت بروكتر بنبرة لا تخلو من اللطف:

– "كنتما تعرفان كل هذا، أليس كذلك؟"

قالت سيا:

– "أجل. لكننا لم نسمعه منكِ بعد."

أعادت سيا ملء قهوتها ونظرت عبر النافذة. كان ماكس يتجاذب أطراف الحديث مع بي جي وآرفو، اللذين كانا يربطان الكلاب وينظمانها في فريقين لسحب الزلاجات.

أفلتت سيا الستارة.

همست بصوت خافت:

- "وآنا؟"

هزت بروكتر رأسها.

- "لا نعرف. لقد كلفنا المصادر الروسية التي نثق بها. نحاول الحصول على قائمة السجناء في ليفورتوفو لنرى ما إذا كانت فيها. أو سجلات المشارح حول المزرعة. لا حظ حتى الآن."

قالت سيا:

- "بي جي يظن أنه أطلق النار عليها."

قالت بروكتر:

- "حسناً، ليس لدينا معلومة استخباراتية واحدة تأتي على ذكرها. حية أو ميتة. ما رأيك أنتِ في ذلك؟"

- "ماذا تعنين؟"

كررت بروكتر:

- "أعني، ما رأيكِ أنتِ في ذلك، يا هورتينسيا؟"

مع التشديد على الاسم اللعين. كانت بروكتر تحدق فيها.

فكرت سيا في آنا كثيرًا منذ تلك الليلة في المزرعة، وفي كل مرة كانت تفعل ذلك، كان عقلها يدور في دوامة. من كانت آنا أندريفنا أغابوفا؟ عميلة؟ مسؤولة تشغيل؟ صديقة؟ عدوة؟ كلهن. كانت تلك المرأة كلهن.

قالت سيا:

– "آمل أن آنا وجدت نصرها. حتى لو كانت ميتة."

بدا ذلك كافيًا لبروكتر، التي أخذت رشفة من القهوة، وأومأت برأسها دون أن تنبس ببنت شفة.

تبع بي جي آرفو إلى داخل الكوخ. وتسلل آخر ضوء للشفق عبر الباب خلفهما.

كان آرفو يتحدث بلغة الإشارة، وأصابعه تتحرك باستعجال.

***

كانت أقرب بلدة، حيث سيستقبلهم الفنلنديون وكتيبة كاملة من ضباط الوكالة، تبعد ساعة عن الكوخ، وكان الوصول إليها بالزلاجات أكثر مباشرة منه بالسيارة. كان عليهم الركوب مرة أخرى داخل المقصورات، ليس للسرية، بل لضيق المساحة. ركبت بروكتر في زلاجة بي جي. وناول الفنلندي بروكتر كيسًا من الحبوب وزجاجة ماء.

قالت بروكتر: "تبًا"، فالرحلة قصيرة ولم يحضروا الحفاضات. توارت "الرئيسة" خلف شجرة لدقيقة ثم قفزت عائدة إلى الداخل. كان ضوء النهار يتلاشى بسرعة.

رتب آرفو وضع سيا وماكس في مقصورتهما، وحشر المعدات حولهما حتى تلاشى الضوء تمامًا. دست سيا عنقها في عنق ماكس. ولفا أذرعهما وساقيهما حول بعضهما. اندفعت الزلاجة بقوة. وسرعان ما أصبح كل شيء مظلمًا وساكنًا، لا يقطعه سوى إيقاع أنفاسهما المطمئن، وحفيف الزلاجة، وتنهيدة عارضة من أحد الكلاب. خلت سيا بأفكارها، وفي السكون تحدثت الأفكار إليها. وبينما كانوا ينزلقون عبر الليل، انتابها شعور بانعدام الوزن، وكأنها ترتفع إلى الظلام في الأعالي. امتدت الشرائط الخضراء للأضواء الشمالية عبر الفضاء. كانت هي عالية في السماء، تنظر إلى نفسها وإلى ماكس في الأسفل.

كانا يتحركان بسرعة، متشابكين معًا.

كما لو كانا في نعش عند نهاية الحياة، أو في رحم عند بدايتها؛ لم تكن تدري أيهما.

الفصل الواحد والسبعون

موسكو

بعد مرور أسابيع

فتح حراس سجن ليفورتوفو باب العزل الانفرادي الخاص بـ السجين 36 بقرقعة معدنية صاخبة، ثم وضعوا القناع فوق رأسه واقتادوه إلى الردهة. ساروا بخطى حثيثة، بينما كانت ساقا السجين الواهنتان تزحفان أحيانًا على الأرضية تعبًا. انعطفوا وساروا عبر ممرات السجن الكئيبة المطلية باللون الأسود الباهت، وصولًا إلى ممرات أكثر إضاءة طُليت جدرانها بالأزرق الشاحب والبيج. لم يكن مسموحًا بأي تواصل بين نزلاء ليفورتوفو؛ لا حبال لتبادل الرسائل، ولا حتى نظرة خاطفة إلى وجه سجين آخر، كما كان تبادل الكلمات بين السجناء والحراس محرمًا تمامًا. وكما جرت العادة في ليفورتوفو منذ عهد القياصرة، استخدم الحراس طقطقات معدنية للتواصل فيما بينهم إذا التقى فريقا حراسة في ممر ضيق. كانت تلك "الطقطقة" إشارة تحدد أي فريق عليه أن يحشر سجينه داخل الصندوق الخشبي الموجود عند طرفي الممر، لفسح المجال للفريق الآخر للمرور.

باتت هذه الرقصة طقسًا مألوفًا في الأسابيع الأخيرة؛ فقد كان كل جناح في السجن، المصمم على شكل حرف K، يكتظ بالنزلاء. كانت القوائم تشير إلى وجود ثلاثين سجينًا في ليفورتوفو بتاريخ 21 ديسمبر، أما الآن فالعدد وصل إلى 251. قُسّمت الزنازين الكبيرة إلى غرف منفردة ضيقة ومكتظة، وأصبح العديد من كبار المسؤولين السابقين في الحكومة الروسية محتجزين الآن في مساحات لا تكاد تكبر

عن مساحة النعش. لم يشهد السجن هذا الاكتظاظ منذ العصر الذهبي للرعب، حين كان ليفورتوفو سجن الإعدام المفضل لدى ستالين.

أصدر الحراس الذين يسوقون السجين 36 بعنف الآن إشارة الطقطقة المعدنية للفريق الذي يقتاد السجين 77. كان عليهم الإسراع في الأمر؛ فالسجين 36 مُنتظَر في إحدى غرف القبو، حيث وقّع النائب العام أوامر الإعدام صبيحة هذا اليوم بالذات. وعلى عكس الاعتقاد السائد، فإن الإعدامات في ليفورتوفو نادرة للغاية. صحيح أن الحظر الذي فرضته روسيا لعقود على عقوبة الإعدام قد رُفع مؤخرًا، إلا أن ذلك كان إيماءة وطنية لحالة الحرب التي تعيشها البلاد أكثر منه أداة عملية؛ فعمليات التصفية الرسمية تتطلب أعمالًا ورقية تفوق بمراحل مجرد إلقاء أحدهم من الشرفة. وبغض النظر عن ذلك، كان الأمر المؤكد أنه لم تتم تصفية أحد بهذه المكانة هنا منذ عهد بريجنيف، أو ربما ستالين. حتى الحراس لم يكادوا يصدقون أن الأمور وصلت إلى هذا الحد.

رد الفريق الذي يرافق السجين 77 بطقطقة تفيد الامتثال: سيحشرون "حمولتهم" في الصندوق الموجود عند طرف الممر حتى لا يرى السجناء بعضهم، ولا يشموا روائح بعضهم، ولا يسمعوا صوت خطواتهم أثناء المرور.

طق طق، طق طق.

وهكذا، اقتاد حارسان آنا أندريفنا أغابوفا، السجينة 77، وهي مقنعة الرأس، ودفعاها داخل صندوق خشبي بارد.

مر السجين 36، فاسيلي بلاتونوفيتش غوسيف، المعروف بلقب الإوزة، بجوار الصندوق، وسيق به إلى قبو قديم، حيث قرأ ضابط كبير مناوب من جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) مرسوم النائب العام وطلب منه الإدلاء ببيان.

قال غوسيف:

– "أنا بريء من كل التهم".

كان لا يزال يرتدي القناع وبذلة السجن الرياضية الفضفاضة. لم يكن يعلم أنه يواجه جدارًا من الطوب، ولم يرَ مصارف المياه المحفورة في القاعدة عند أسفل الجدار، كما لم يسمع صرير مقبض الصنبور وهو يُلوي، ولا صوت اندفاع الماء وهو يملأ خرطوم الضغط المخصص للتنظيف.

كان آخر ما أبصرته عينا الإوزة هو ظلام القناع، وآخر ما التقطته أذناه هو وقع خطوات تقترب من خلفه.

نُقلت جثته إلى المشرحة. قرقرت المياه المدممة وهي تنحدر في المصارف بينما كان الحراس يغسلون الطوب والحجر بخرطوم الضغط. أما بذلة السجن الرياضية الفضفاضة الخاصة بالإوزة، فلم تتضرر، وباعتبارها ملكية للدولة، غُسلت في ذلك المساء، وطُويت، وأعيدت إلى المخزن بحلول صباح اليوم التالي.

وكما هو الحال مع جميع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الذين أُعدموا في روسيا، تُركت خانة سبب الوفاة فارغة في شهادة وفاته.

***

راح الظلام يقضم إحساس آنا بالزمن ببطء وثبات، حتى عجزت بعد فترة عن التمييز بين الدقائق والساعات، أو بين الأسابيع والشهور. كل ما كانت تدركه هو أن سواد زنزانتها لا يقطعه سوى زيارات من طبيبة مجهولة الاسم، وفريق من الحراس تفوح منهم روائح الكحول والملفوف والكولونيا. في كل زيارة، كانوا يدسون القناع فوق رأسها ليسوقوا آنا عبر الممر المعبق برائحة الكلور.

كانت الرحلة إلى ليفورتوفو عبارة عن شظايا ذكريات: طلقة نارية على التل فوق روس-فارم، استيقاظ وجيز في مروحية، ثم الغرق مرة أخرى تحت ضوء قاسٍ وسماع أصوات صفير وقرقرة مشؤومة لأجهزة غير مرئية. كان هناك طبيب بملابس جراحية زرقاء ومحلول وريدي، ومرة أخرى كانت تمتطي بينيلوبي نحو اللاوعي. في مكان ما على الطريق، أجروا جراحة لكتفها.

في الأيام القليلة الأولى، أو ربما الأسابيع، كان الحراس يقتادونها إلى غرف الاستجواب في الطابق الثاني للقاء رجال مجهولين يعرضون الشاي أو القهوة ثم يطرحون الأسئلة. لم تتذكر سوى القليل عن تلك الفترة، تمامًا كالجراحة. هل أخبرتهم عن سيا ولولو؟ عن سويسرا؟ بدأت تشك الآن أن المشروبات كانت ممزوجة بعقار SP-117؛ بنتوثال الصوديوم، مصل الحقيقة الخاص بجهاز الأمن الفيدرالي. لكن مهما كان ما قالته، توصلت إلى قناعة بأنهم لا يعرفون الحقيقة. توقفت جلسات التخدير تلك في مرحلة ما. لم تعترف. بعد ذلك، أخذوها إلى الغرف ذاتها، لكن هذه المرة جلس معها رجل يُدعى إيليا بينما كانت تكتب شهادتها عن تلك الليلة، مرارًا وتكرارًا. طرح إيليا الأسئلة، وعرض نسخًا بديلة لقصتها تنبع – دائمًا – من افتراض إدانتها. كان إيليا يحب أن يردد أن المسألة تتعلق بكشف تفاصيل خيانتها، لا ما إذا كانت قد ارتكبتها أم لا؛ فذلك أمر مفروغ منه حسب إصراره. كم نسخة كتبت؟ ورغم ذلك، لم تعترف.

بعد الكتابة، انتقلوا إلى أجهزة كشف الكذب والكهرباء.

ظنت أن ذلك حدث ثلاث مرات. كانت متأكدة أنها لم تزد عن خمس. كانت نوبة من الحراس تجرها إلى غرفة بيضاء ناصعة ذات بلاط لامع يغطي الأرضيات والجدران والسقف. كانت الأرضية تميل نحو مصرف في المنتصف، وتتوسط الغرفة طاولة مخدوشة عليها حاسوب ويحيط بها كرسيان. كانت هناك ممرضة بدينة بشعر رمادي خفيف وعينين لامعتين تلصق الأقطاب الكهربائية فوق كليتيها. كانت الممرضة تربت بلطف على وجنتها وتخبرها أن تكون "فتاة مطيعة". ثم يصل رجل ذو كتلة من الشعر الأبيض وشارب يشبه شارب حيوان الفظ. كان يثبت أجهزة استشعار على أصابعها، وكفة قياس ضغط الدم على ذراعها، وجهاز قياس التنفس على صدرها، ثم يعبث بحاسوبه قليلًا.

بعدها يسأل إن كانت آنا تعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية.

فتصر قائلة:

– "لا.. لا".

عندها يضغط على زر، فتسري الكهرباء لتشوي جلدها وتشنج جسدها، وتنقلب الغرفة من نهار إلى ليل وبالعكس.

كانت لديه أسئلة أخرى (هل كنتِ على علم بعمل زوجك لصالح الـ CIA؟ هل أشعلتِ الحريق في روس-فارم؟ هل جندتكِ هورتنسيا فوكس في المكسيك؟ في روس-فارم؟ في جنيف؟)، وكل سؤال قد يرافقه جرعة من التيار الكهربائي.

أو ربما لا. كانت الكهرباء تضرب عشوائيًا. في إحدى الزيارات، لم يضغط مسؤول جهاز كشف الكذب على الزر مطلقًا. وفي زيارة أخرى، جلبت كل "لا" تيارًا كهربائيًا، ولأيام (أو أسابيع؟) لم تستطع الوقوف باستقامة. وفي زيارتها الأخيرة، بللت بذلة السجن الرياضية عند سماع صوته لأول مرة.

ومع ذلك، لم تعترف. سيكون الأمر أسوأ إن وافقتِ، قالت لنفسها مرارًا وتكرارًا. عندها ستخسرين، وسيكون موتهم جميعًا بلا طائل. حتى في مستنقع عقلها المحموم، كانت تدرك أن عدم اليقين والترقب هما العذاب الحقيقي، أكثر بكثير من الكهرباء. هل عرفوا بالفعل؟ ماذا أخبرتهم؟ كم من الوقت مضى عليها هنا؟ هل ستغادر أبدًا؟ هل ستدفع الـ "لا" التالية صاحب "شارب الفظ" لضغط الزر؟ أسئلة بسيطة، ولا إجابات.

ثم توقفت جلسات كشف الكذب. كان الحراس يأتون، ويغطون رأسها بالقناع، وينقلونها بسرعة إلى غرفة استجواب أخرى للنقاش مع إيليا.

عند الوصول، كان إيليا يوقع الأوراق التي تؤكد نقلها من زنزانتها إلى غرفته. ينصرف الحراس، ويضغط إيليا مفتاحًا يضيء مصباحًا أحمر خارج الباب: "تحقيق جارٍ". جلست آنا على الطاولة. أمامها كوب من "الستايروفوم" مملوء بشاي أسود مائل للملوحة. لم يتصاعد منه أي بخار؛ ربما لم يكن دافئًا من الأساس. لم ترتشف منه قط؛ ولم يجبرها إيليا. على الجدار البيج، كان هناك أنبوب يصدر

طنيناً. ومن السقف تدلت مصابيح قديمة لدرجة أن بيريا ربما استخدمها لإنارة جنونه.

في الضوء الخافت، استطاعت رؤية الجلد المصفر على يديها. انكمش ثدياها؛ وأصبحا يسبحان بوهن داخل بذلة الركض الزرقاء الكريهة الرائحة. كانت قدماها باردتين دائمًا. حركت أصابع قدميها داخل حذاء التنس المتسخ لتتأكد من قدرتها على تحريكها. كان الحذاء أكبر من مقاسها قليلًا وبلا أربطة – فالسجناء غير مسموح لهم بامتلاك أي حبال، مهما كانت صغيرة أو واهية. استعادت آنا كل تفصيل من الكابوس الذي عاشته في روس–فارم. وعندما يستقر عقلها على أشياء حقيقية – كإطلاق النار على كتفها مثلًا، أو إشعال الحريق – كانت تتخيل أنها تلف تلك الفكرة المزعجة في كيس كبير وتلقيها من فوق برج. استمر أنبوب التدفئة في الطنين والقرقعة بينما كانت تتدرب بصمت على ما ستقوله.

أغلق إيليا الباب وجلس مبتسمًا قبالتها. كان لديه شعر داكن كثيف يمسحه عن وجهه بشكل وسواسي. كان يشبك يديه على الطاولة وينظر بوقار في عينيها عندما يطرح الأسئلة. لم تكن هناك مجاملات، ولا مقدمات، ولم يقدم أي معلومات أبدًا.

بدأ إيليا قائلًا:

– "ليلة روس–فارم.. لماذا كنتِ في السيارة؟"

– "أردت التأكد من أن شخصًا ما كان يراقبني".

– "ولماذا ظننتِ أن أحدًا يراقبك؟"

– "كان مجرد شعور. كنت أركب الخيل مع هورتنسيا فوكس بعد ظهر ذلك اليوم. أحسست بذلك حينها. كانت القيادة محاولة للتأكد. وكنت محقة".

بسط إيليا يديه وبدأ يعبث بجلد إصبعه:

– "لماذا عدتِ إلى المنزل؟"

– "رجال تشيرنوف أخذوني".

قال إيليا وهو لا يزال يركز نظره على إصبعه:

– "أتعلمين، لقد قدم العديد من رجال فريق تشيرنوف تقريرًا كاملًا عن تلك الأمسية. يقولون إنهم كانوا هناك لمراقبتك أنت وهورتنسيا فوكس. ويقولون إن تشيرنوف قرر، بعد جولة ركوب الخيل، دخول القصر للتحدث مع هورتنسيا وصديقها ماكسيميليانو، وفاديم. اصطحب معه رجلين من ضباط الأمن الفيدرالي إلى الداخل. وهنا تكمن المشكلة: أنت الناجية الوحيدة من هذا اللقاء المنحوس الذي انتهى بعنف مذهل. إذن، أنتِ عدتِ إلى المنزل. أخبريني ماذا حدث بعد ذلك. كل التفاصيل. وبالترتيب".

– "كانت الكهرباء مقطوعة في العقار بأكمله. أنا..."

فُتح الباب بقوة. تسمرت آنا في كرسيها. هذا شيء جديد. دخل حارس آخر وفك قيودها.

سأل إيليا:

– "هل تريدين شايًا؟ يمكنه أن يحضر لك شايًا دافئًا".

هزت آنا رأسها نفيًا.

قال إيليا:

– "لا شيء فيه.. أقسم لك".

هزت رأسها مرة أخرى.

قلب إيليا عينيه قائلًا:

– "لقد استخدمنا بنتوثال الصوديوم سابقًا. ولن نستخدمه مجددًا. لكِ كلمتي".

لم يعنِ ذلك شيئًا، لكنها كانت ترغب في الشاي الدافئ أكثر من أي شيء في العالم، لذا أومأت بالموافقة.

أحضر الحارس كوبًا يتصاعد منه البخار مملوءًا بالشاي الأسود. شربته آنا في ثلاث رشفات رغم أن لسانها انكمش من الحرارة. لم تتذوق شيئًا ألذ منه قط.

رفعت آنا الكوب الفارغ. نادى إيليا الحارس الذي أحضر كوبًا آخر. هذه المرة تلذذت به: رشفات بطيئة، وجهها فوق البخار، متشبثة بالكوب وكأنه طفلها.

أشار إيليا بيده: تابعي.

قالت:

– "دخلت المنزل الرئيسي. كانت الكهرباء لا تزال مقطوعة. كانوا يتحدثون في غرفة المعيشة. أُشعلت نار في المدفأة، وكانوا يتجادلون. الكثير من الأمور لم تتضح لي إلا لاحقًا. كان غوسيف وتشيرنوف يطاردان عائلتي منذ أشهر. هددونا، ووضعوا والدي في السجن. ما علمته تلك الليلة هو وجود صلة بالـ CIA، وخطة لسرقة أموال لتمويل انقلاب. ولكن، كالعادة، نشب شجار حول المال. أراد فاديم الاستيلاء على مبلغ أكبر بكثير مما اتفقوا عليه كما يبدو. كان يخطط للهرب مع كاستيّو، مسؤوله، وسحب أكبر قدر ممكن من المال أثناء ذلك. ربما كان تشيرنوف يشك في هذا لبعض الوقت. تجادلوا وتجادلوا، وأخيرًا أطلق فاديم وماكس النار على تشيرنوف ورجاله. أخبرني فاديم أنني سأذهب معهم، فرفضت. لم يعجبهم ذلك".

– "وماذا فعلتِ بعد ذلك؟"

– "أوقفتهم".

***

أحضر الحارس المزيد من الشاي الأسود الرائع، وسردت آنا على إيليا كل شيء من جديد. وصفت التبادل القبيح للكلمات مع فاديم. الشجار بالأيدي عندما حاولت الهرب من الغرفة. احتجازها، بينما كان ماكس وفاديم في مكان ما، ربما يرتبان لعملية الإخلاء.

قالت آنا:

– "لطالما افترضت أنهم هربوا. لكنني أعلم أنك لن تخبرني".

ابتسم إيليا ابتسامته الباهتة. في هذه النقطة من القصة، كان عادةً يقاطعها ويتهمها بالكذب. كان يقول إنها أطلقت النار على شخص ما، عادة فاديم، أو يعلن أنها تآمرت مع سيا. وأحياناً كان يعيد صياغة قصتها بشكل زائف، مضيفاً تفاصيله الخاصة أو ناسجًا حكاية جديدة تمامًا تؤكد إدانة آنا، ثم يحاول إقناعها بالموافقة على روايته.

لكن هذه المرة قال:

– "دور هورتنسيا في هذا الأمر غريب، أليس كذلك؟"

– "إنه كذلك".

– "يخبرنا ماكسيموف أنك كُلفتِ بتجنيدها. وأن جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR) كانت لديه شكوك بأن شركتها، هاينز دوسون، ساعدت فاسيلي غوسيف – أو الإوزة كما تسمينه – في اختلاس أموال الدولة من البلاد. يتساءل المرء، بعد كل هذا، من كان يعمل حقاً لصالح من؟"

كانت هذه المرة الأولى التي ينطق فيها إيليا باسم ماكسيموف.

قالت آنا:

– "لا أعرف ما هي حقيقة سيا فوكس. لكن الواضح لي أن ماكس كاستيّو جند زوجي. لا أعرف إن كانت سيا ضابطة حقيقية في الـ CIA، أم مجرد شريكة واعية بما يحدث. وأفترض أن ذلك لا يهم. ما أعرفه هو أنها زودتني بمعلومات تشير إلى وجهة تلك الأموال الحكومية. قطعة من اللغز حول خطط الإوزة، ولكن للأسف لم تكن كافية لبناء قضية قانونية".

قال إيليا:

– "إذن.. ماذا حدث بعد ذلك؟"

– "بينما كنت أرفض المغادرة معهم، تحول غضب فاديم إلى جنون. كان يتمتم بشأن الجثث. يتحدث بكلام لا معنى له. أرسل ماكس رسالة من هاتفه. كانت سيا تتوسل إليّ لأذهب معهم. بدأ فاديم يكوم الأشياء على الأريكة لإشعال حريق. كان ماكس وسيا يساعدانه. شق فاديم طريقه عبر المنزل مشعلًا النيران. ثم عاد إلى حيث كنت، في غرفة المعيشة، ولم يستطع الوصول إليّ تمامًا بسبب الدخان. أطلق النار بشكل عشوائي داخل الغرفة، وحينها أصابني في كتفي. كنت على الكرسي الملقى على الأرض في تلك اللحظة. لم أعد أسمع أصواتهم. لقد هربوا من النيران. ونجحت في تحرير نفسي".

– "أخبريني كيف".

– "لم يكونوا قد خططوا لتقييدي. استخدموا شريطًا لاصقًا، لم يكن كافيًا ووُضع في أماكن خاطئة".

– "أمر ملائم لقصتك".

شربت آنا المزيد من الشاي وألقت الجملة المعتادة لهذا الجزء من المحادثة:

– "إنها الحقيقة".

وأمام هذا الإصرار، قابلها إيليا بهزّة كتفيه المعتادة.

تابعت آنا:

– "بمجرد أن تحررت، هربت من المنزل واتصلت بماكسيموف في جهاز الاستخبارات الخارجية. وبالطبع لديكم السجلات".

قال إيليا:

– "شيء واحد لا أستطيع فهمه تمامًا، هو لماذا أراد فاديم إحضارك أصلًا. أفهم أنه لم يكن زواجًا سعيدًا".

قالت آنا:

– "كنت ضمن ممتلكاته. كان يجب اقتلاعي معه. مثل قطة تُدفن مع فرعون. أو جارية تُترك لتهيم على محرقة مشتعلة مع ملك ميت. أينما ذهب، كان عليّ أن أذهب".

ضرب إيليا الطاولة بيده قائلًا:

– "حسنًا.. ليس هذه المرة".

***

أخذت آنا حمامًا ساخنًا. كان جلدها مشدودًا فوق ضلوع برزت كأعمدة الخيمة؛ ومع كل شطفة ماء كان يسقط المزيد من الشعر ليلتف حول أصابعها. رغت الصابون أربع مرات وما زالت تشعر بملمس زيتي. أحضرت امرأة أنيقة ذات كعكة من الشعر الأحمر المجعد صندوقًا من الورق المقوى يحتوي على أدوات تجميل، وملابس داخلية ورقية، وتنورة، وحذاء مسطحًا، وبلوزة. قالت المرأة إنهم أضاعوا الملابس التي كانت ترتديها عند وصولها، وإن تعويضًا من الدولة سيصل في غضون شهرين، أو ربما ثلاثة.

في مكتب لا يحمل أي لافتة، سلمت المرأةُ آنا إلى طبيبة، دفعت إليها بصمت صينية بها خبز أسود وحساء وكوب آخر من الشاي. راقبتها الطبيبة وهي تأكل

وتشرب، ثم أعطتها زجاجة ماء مملوءة بسائل لونه كلون البول الداكن. شمته آنا – كانت رائحته سكرية حلوة – وشربت نصف الزجاجة. قادتها الطبيبة عبر متاهة من الممرات، ومع كل منعطف كان الضوء يزداد سطوعًا. وصلتا إلى غرفة انتظار بها أرائك مخملية حمراء. كان على إحداها معطف أسود كبير. ساعدتها الطبيبة على ارتدائه.

سألت آنا:

– "متى يحل رأس السنة؟"

عبست الطبيبة وقالت:

– "اليوم هو التاسع عشر من فبراير".

انزلقت آنا داخل المعطف الفضفاض ووجدت أن عقلها قادر على إجراء الحسابات. واحد وستون يومًا. واحد وستون يومًا منذ الحريق.

خرجت بتثاقل إلى البرد القارس، عابرة تحت بوابة معدنية عالية. كانت سيارة مرسيدس سوداء بلوحات حكومية تنتظر ومحركها يدور، وأعمدة العادم تستقر فوق الثلج الموحل. استندت على كتف الطبيبة كي لا تنزلق على الجليد. فُتح الباب الخلفي بصوت مسموع.

نظرت آنا إلى الداخل. لوح لها ماكسيموف بيده قائلًا:

– "كابتن أغابوفا، اصعدي، الجو بارد للغاية".

الفصل الثاني والسبعون

موسكو

لم ينطق ماكسيموف بكلمة واحدة طوال الطريق إلى ياسينيفو. بدا أن البقعة الصلعاء في قمة رأسه قد انكمشت منذ آخر مرة رأته فيها آنا؛ ربما أجرى عملية زرع شعر. غادرا الطريق الدائري لموسكو (ميكاد MKAD)، وتجاوزا مبنى الحراسة، ثم توقفت السيارة خارج المدخل التنفيذي. لاحظ ماكسيموف نظرتها المترددة نحو الباب.

قال:

– "الأمر لا يحتمل التأجيل. أنا آسف".

سارا ببطء نحو مكتبه. لم يمد يده لمصافحتها، وقد سرّها ذلك لأنها كانت سترفض. سحب لها ماكسيموف كرسيًا من تحت طاولة الصنوبر اللامعة، ثم أحضر مساعد بعض الشاي.

قال ماكسيموف:

– "سأوجز في الحديث، حتى تتمكني من الذهاب إلى المنزل والراحة".

المنزل، فكرت في نفسها. أين هو الآن؟

وضع ماكسيموف ملفًا أمامها، ونقر عليه بمفاصل أصابعه، ثم اتجه نحو النوافذ.

سأل:

– "كم تعرفين عما جرى في هذا البلد؟"

قالت آنا:

– "لقد كنت في ليفورتوفو".

رد قائلًا:

– "نعم، بالطبع. حسناً، سيكون لديكِ وقت لتعرفي ما فاتك. سنمنحكِ إجازة إدارية لمدة ستة أشهر للنقاهة".

قالت بذهول:

– "حسناً".

قال ماكسيموف:

– "عندما اتصلتِ بي تلك الليلة أيتها النقيب، كان ذلك أول مؤشر نتلقاه على أن زوجك، والإوزة، وتشيرنوف، وقلة غيرهم، يخططون لانقلاب بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). وبناءً على ذلك التحذير، قمعنا المحاولة. والتحقيقات لا تزال جارية".

كان ماكسيموف يتحدث إلى انعكاس صورته على النوافذ الزجاجية الكبيرة.

تابع قائلًا:

– "لكن أحداث تلك الأمسية كانت – ولا تزال – مشوشة. لا شيء منها يبدو منطقيًا حقاً، للأمانة. مقتل ضباط من جهاز الأمن الفيدرالي (FSB)، وهروب زوجك. كانت مسألة الأدلة الجنائية شائكة للغاية، كما يمكنك أن تتخيلي؛ فالحريق التهم كل شيء تقريبًا. ولا أثر حتى الآن لـ فاديم وزائريك الغامضين".

تساءلت الآن عما إذا كان قد أحضرها إلى هنا لتعترف. هل كانت هذه جولة أخرى؟

استطرد ماكسيموف:

– "تدركين أيتها النقيب مدى تعقيد هذا الوضع برمته. حتى يوم أمس، كان رجال الأمن الفيدرالي متحمسين لإيقافك أمام الحائط وإطلاق النار عليك. (أبناء العم) لا يحسنون التعامل مع الغموض كما تعلمين؛ فالتخلص منك حل أنظف. كنت أتفهم وجهة نظرهم، لكن ساورتني الشكوك. لقد اتصلتِ بي تلك الليلة للإبلاغ عن المؤامرة، على سبيل المثال. لماذا تفعلين ذلك إن كنتِ متورطة؟ ولكن من ناحية أخرى، هل يُعقل حقًا أنك لم تكوني على علم بخيانة زوجك؟ هل يعقل أن ماكسيميليانو كاستيّو جند فاديم دون علمك؟ وماذا كانت – أو من هي – هورتنسيا فوكس؟"

لم تكن واثقة تمامًا بعد من أنهم سيطلقون سراحها، لكنها قررت منذ زمن بعيد، في ظلمات ليفورتوفو الكئيبة، أنها لا تبالي.

قالت:

– "لقد قرأت تقارير استجوابي، أليس كذلك؟"

تلقّت إيماءة بالموافقة، فتابعت:

– "حسنًا، إذن لقد سمعت أجوبتي عن هذه الأسئلة. هل تريد مني تكرارها الآن؟"

أشار ماكسيموف إلى الملف الموضوع على الطاولة.

قال:

– "لا.. أريدكِ أن تتصفحي هذا".

كان في الداخل رزمة أوراق مُدبسة. حملت الصفحة الأولى نسخة من رخصة قيادة فاديم. كانت هناك أيضًا برقية من وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). سبق لها أن رأت القليل منها مما مررته مصادر جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR). كانت هذه البرقية تحمل وسم (RH) – أي تداول مقيد – وبالإضافة إلى علامات التصنيف التقليدية، حملت ستة أحرف فريدة ميزتها آنا؛ إذ كانت تشير إلى أن موطن هذه الوثيقة هو قسم العمليات السرية داخل الـ CIA. شرعت في القراءة:

الموضوع: تقرير الموقف 15 يناير: إعادة توطين فاديم كوفالتشوك من قبل NROC

1. الوثائق: تغيير الاسم القانوني، رقم الضمان الاجتماعي، رخصة القيادة، إثبات الإقامة. التنسيق مع مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) الميداني في مينيابوليس لتأمين موقع دائم في الغرب الأوسط العلوي.

2. يكشف التقييم النفسي الذي أجرته الخدمات الطبية في الـ CIA بعد زيارة استغرقت ست ساعات مع "المعنيّ" في منطقة واشنطن العاصمة عن ضائقة عاطفية مستمرة بعد الانشقاق. لا يزال "المعني" يشعر بالذنب والغضب فيما يتعلق برفض زوجته الانشقاق معه. ذكر "المعنيّ" أفكارًا انتحارية.

3. لا يزال "المعنيّ" يعاني أوهامًا بالعودة إلى روسيا. احتمال هروبه المرجح يدفع مقيّم الخدمات الطبية إلى الاستمرار في التوصية بإدارة الحالة ومراقبتها على مدار الساعة (7/24) حتى تتحسن حالة "المعنيّ".

4. يواصل فريق إعادة التوطين المشترك (NROC / موسكو X) تكليف المصادر في جميع أنحاء العالم بجمع معلومات حول مصير زوجة "المعنيّ" ومكان وجودها.

5. سيقدم فريق التعامل في NROC التحديث التالي في الساعة 15:00 غدًا بعد استخلاص المعلومات المقرر. تحياتنا.

قلبت بضع صفحات أخرى في الرزمة ثم وضعتها جانبًا. يا إلهي، فكرت في نفسها، من كتب هذا؟ كان الأمر إما فخًا متقنًا، أو حرية. انتصارًا. رمقها ماكسيموف بنظرة حائرة، وكأنه مثلها تمامًا، عاجز عن استيعاب الأمر.

قال ماكسيموف:

– "لدينا مصدر في مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) يمكنه الوصول أحيانًا إلى معلومات المنشقين. وجاءت هذه الوثيقة ضمن آخر دفعة معلومات سلمها. ما رأيك في ذلك يا كابتن أغابوفا؟"

دفعت الملف عبر الطاولة.

وقالت:

– "ما رأيي؟ لقد قضيت شهرين في ليفورتوفو وأنا أخبرهم برأيي في هذا الأمر".

أشار ماكسيموف إلى الكرسي الموجود أمام (السماور) الذي يحمل نقش نسر إمبراطوري باهت.

قال:

– "بينما كنتِ في ليفورتوفو، جاء العقيد المسؤول عن التحقيق في الأمن الفيدرالي إلى هنا لتقديم إيجاز. جلس هناك، على ذلك الكرسي، ولخّص الأمر برمته بشكل جيد. قال إنكِ في الحقيقة إما خائنة وإما بطلة. وإننا ربما لن نتمكن أبدًا من إثبات أي منهما – وربما نضطر لتصفيتك في كلتا الحالتين – لكنكِ حتمًا واحدة منهما".

هز ماكسيموف كتفيه، ولملم الملف، ثم رماه عائدًا إلى مكتبه.

ملست تنورتها البائسة بيديها. خائنة وبطلة. أنا الاثنان معًا، حدثت نفسها. مثل كل الروس الصالحين.

الفصل الثالث والسبعون

موسكو / سوتشي / كيب إيدوكوباس / مزرعة آنا

لم تكن آنا تدري إلى أين تذهب. سجلت دخولها في فندق الريتز قبل أن يحزموا أمتعتها ويرسلوها إلى أحد المنتجعات المغلقة التابعة لـ جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR) في سوتشي؛ وهي قرية تزلج أعيد تأهيلها كانت قد بُنيت للأولمبياد، عبارة عن مجموعة من المباني الصفراء بلون زهرة عباد الشمس، ذات ممرات مقنطرة حيث كانت المتاجر والمطاعم تقبع يومًا ما. امتدت مسارات مرصوفة بالحجارة الحمراء بمحاذاة النهر، بينما توقف برج الساعة ذو القمة المستدقة عن العمل. كان الجليد قد بدأ بالذوبان، ففاضت الممرات الخشبية والدروب بمياه الجبال.

طوال أسبوع كامل، كانت تنام حتى وقت مبكر من بعد الظهر، وتستيقظ لتناول غداء مكون من الشاي والخبز الأسود الجاف، وتزور معالجًا طبيعيًا من أجل كتفها الذي كان لا يزال يتحرك كما لو أن الرمل يملأ مفاصله. كان رفع أي شيء أثقل من كوب ماء أمرًا مجهدًا. وأثناء المشي، كان ثقل ذراعها اليسرى ينفجر في النهاية ألمًا حادًا، كما لو كانت معلقة بخطافات شد.

كانت تتصل أحيانًا بـ ماكسيموف لمناقشة أمر والدها.

كان يقول لها:

– "انسِ الأمر يا آنيا. لقد حاولنا، لكن الإوزة حرك التروس، وكان من الصعب إيقاف القانون".

ظل والدها في سجن بوتيركا. أخبرها ماكسيموف أن تبقى بعيدة، في سوتشي. "خذي بعض الوقت. هذا ليس طلبًا".

في الأمسيات الهادئة وفي سريرها، كانت تفكر في لوكا.

تدربت على رسمه في مخيلتها كي لا يضيع منها. بدأت بأشياء بسيطة: ابتسامة، ضحكة، ملمس يد. وبحلول الأسبوع الثاني، استطاعت إعادة عرض مباريات جان مارتل، والتنزه في "شارع كل العطلات"، والتسلل إلى شقتها لممارسة الحب. وعندما يقترب النوم، كانت صورة لوكا تبدأ في التلاشي، فتعتذر آنا. تخيلت أحيانًا طيف لوكا يطمئنها، ويقر بصحة خياراتها. لكن تلك كانت كلمات آنا، وليست كلماته، واستحضارها جعلها تشعر وكأنها لصة.

حدثت نفسها قائلة:

لقد سلبتِ مستقبله بالفعل، فهل ستسرقين كلماته أيضًا؟

لم تفكر في أشياء حقيقية تخص سيا، ولا ماكس، ولا فاديم. عندما كانت أفكارها تشرد نحوهم، كان عقلها، الذي تشكلت أخاديده في "دفيئة" ليفورتوفو، يتوقف ببساطة عن العمل.

في بداية الأسبوع السابع، حين غمرت مياه الثلج الذائب الممرات، وصل ساعٍ من الكرملين يحمل رسالة من رئيس الإدارة الرئاسية. قرأتها ثلاث مرات بينما انتظر الساعي خارج غرفتها.

سألت وهي تعيد الرسالة:

– "ماذا يجب أن أحزم؟"

أجاب الساعي:

– "لا شيء على الإطلاق".

***

نقلتها سيارة مرسيدس حكومية إلى مجمع مبانٍ مكتبية مورق في سوتشي. هناك، في غرفة بلا نوافذ، أجرت امرأتان تفتيشاً ذاتيًا دقيقًا لها بعد تجريدها من

ملابسها. قامتا بتصوير كل تجويف بالأشعة السينية للتأكد من أنها لم تخبئ قنبلة داخل جسدها. استُبدلت ملابسها بتنورة سوداء جديدة، وبلوزة بيضاء باهتة، وزوج من الأحذية العملية الضخمة التي كانت تصدر طقطقة بغيضة على الأرضية الخرسانية. وُضعت ملابسها وهاتفها وحقيبتها في أكياس بلاستيكية محكمة الإغلاق وأُودعت في خزانة. أخذت ممرضة مسحة منها لإجراء فحص شامل للأمراض المعدية، وأجرت اختبار تفاعل البوليميراز المتسلسل (PCR)، وقدمت عينة براز.

انتظرت ساعتين في غرفة معقمة حتى يتمكنوا من تأكيد النتائج. أجرت المرأتان تفتيشًا ذاتيًا آخر، ثم اقتادتاها إلى غرفة جديدة، حيث كان ستة من أفراد الحماية الرئاسية يسترخون ويطالعون المجلات على مقاعد جلدية طويلة. سلموها معطفًا من الفرو "دوبليونكا"، ودفعوها بسرعة إلى الخارج عبر تيار الهواء الهابط من مروحة هليكوبتر منتظرة. جلست في المنتصف، ورجال الأمن يحيطون بها من كل جانب. لم يتحدثوا، ولم يبتسموا، بل راقبوها دون أن يرف لهم جفن. بعد بضع دقائق، أصبح هذا الأمر طبيعيًا.

فكرت: بعد ليفورتوفو، لن يكون هناك شيء غير مريح مرة أخرى.

حدقت آنا في المدى المتوسط. كانت تفرك ندبة كتفها أحيانًا، لكنها أغمضت عينيها في معظم الوقت.

هبطت المروحية داخل عقار الرئيس على البحر الأسود، في إيدوكوباس. كانت مهابط الطائرات تحاذي تلًا أخضر ساطعًا، زعم والدها يومًا أنه يخفي حلبة هوكي الجليد الشخصية للرئيس، مدفونة بعمق خمسة طوابق تقريبًا داخل المرتفع. سارع رجال الأمن بنقلها من المروحية إلى ممر حجري عريض ينحدر نحو فيلا على الطراز الإيطالي تلوح فوق البحر. كان أكبر سكن خاص في روسيا.

قال والدها ذات مرة وهو يهز كتفيه: "الرجل الأكثر نفوذًا يجب أن يمتلك المنزل الأكبر".

التف المسار نزولًا، بجوار كنيسة أرثوذكسية ذات سطح أخضر، وعبر حدائق غناء تكتظ بأشجار السرو الشاهقة، والأسيجة المشذبة، وأشجار الصنوبر، وسط طقطقة وأزيز أدوات البستانيين، وخرير المياه المتدفقة، وفرقعة أحاديث اللاسلكي.

قادها رجال الأمن إلى المنزل الرئيسي عبر بوابة يعلوها النسر الإمبراطوري المزدوج الذهبي. عبروا فناءً مظللًا تتوسطه نافورة كبيرة تقرقر مياهها، وصولًا إلى قاعة شاهقة يرتفع سقفها على صفين من الأعمدة المربعة ذات اللون الكريمي. بعدها، دلفوا إلى ردهة، مارين بغرفة منخفضة السقف تتوهج بضباب أرجواني؛ لمحت فيها منصة عليها عمود. انتهى بهم المطاف في غرفة طويلة بها طاولة بنية، وأرائك جلدية بنية، ونوافذ منحوتة من الخشب الداكن تطل على الشيء الوحيد الذي لم يكن بنيًا: البحر. أحضروا لآنا شطائر وشايًا. وراقبوها وهي تأكل بينما كانت تحدق في التلال الخضراء الرملية المنحدرة نحو الماء.

بعد ساعة، جلس قبالتها رجل قصير ممتلئ الجسم، ذو عينين ميتتين ويدين مفعمتين بالحيوية. لم يصافحها، لكن يديه تحركتا على الطاولة، وفوق رأسه، وعلى كتفيه.

سأل وهو يفرك يديه معًا:

– "هل لديك أي أسئلة؟"

– "لا أعتقد ذلك".

– "هل تدركين مدى كرم هذا اللقاء؟"

– "أدرك ذلك".

– "هل تفهمين أنه لا يجوز لكِ الاقتراب منه أو لمسه؟"

– "أفهم".

أشار لها الرجل لتتبعه. سار في المقدمة، وهي خلفه بخطوتين، وفريق الأمن ينتشر حولهم. قادها إلى غرفة أخرى، أطول من سابقتها، بنوافذ أكبر تندفع نحو البحر، وأرضيات "باركيه"، وسقف مغطى بالأفاريز الذهبية والزخارف الجصية، وستائر ذهبية متلألئة، وجدار داخلي محاط بصف من أعمدة الجص الأبيض المطعمة بأوراق الذهب. ابتلعت السجادة الذهبية الوبرية حذاءها.

فكرت: هذا يشبه "روس-فارم"، أنا أكره هذا المكان.

كان هناك كرسيان عند الطاولة، واحد في كل طرف، والمسافة بينهما لا تقل عن خمسة أمتار. كانت الطاولة ناصعة البياض، وانعكاس الشمس عليها يؤذي عينيها. قادتها يدا الرجل الراقصتان إلى أحد الطرفين، إلى كرسي منخفض جدًا بالنسبة للطاولة، ومن الواضح تمامًا أنه أقصر من الكرسي الآخر.

قال الرجل:

- "سيدخل قريبًا. هل تحتاجين لاستخدام الحمام؟"

هزت رأسها نفيًا.

- "جيد. اجلسي على الكرسي، ممنوع التجول، مفهوم؟"

- "نعم".

جلست واضعة يديها في حجرها كفتاة مطيعة، تراقب الأمواج وهي تتجمع في مثلثات بيضاء قبل أن تتكسر. حلقت طيور البحر بجوار النافذة، لكنها لم تسمع نعيقها وصراخها في الغرفة الصامتة.

فكرت: هذه غرفة عزل هوائي، مكان يلتقي فيه عالمان.

جلست لما بدا وكأنه ثلاثون دقيقة، لكن منذ ليفورتوفو، فقدت الثقة في إحساسها بالزمن.

ثم فُتح الباب، ودخل الرئيس فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين، "الخُزيان"، رئيس وسيد روسيا كلها، متبخترًا إلى الغرفة.

كان يرتدي بدلة سوداء، وقميصًا أبيض، وربطة عنق زرقاء. حين التقت به آخر مرة، قبل سنوات، كان مفعمًا بالحيوية. أما الآن، فقد كان وجهه ورقبته منتفخين بفعل المنشطات. لم يبتسم. ولم يقترب لمصافحتها. تهاوى في كرسيه، متواريًا بحدبة ظهره تقريبًا، وجفل كما لو كان ظهره يؤلمه. قبض على الطاولة، وشفتيه مضمومتين، وبدأ الكلام.

قال الخُزيان:

– "يا نقيب أغابوفا.. ما زلت غير متأكد تمامًا مما يجب أن أفعله بشأن قضيتك. مع الإوزة كانت الأمور أكثر وضوحًا؛ كانت الأدلة كثيرة جدًا. كدت آمر بإطلاق النار عليكِ أنتِ أيضًا. لم يكن قرارًا سهلًا. هل ارتكبت خطأ؟"

– "بي أنا، أم بالإوزة؟"

ارتجفت شفتاه، وكأنه يشعر بالتسلية تقريبًا:

– "بكِ أنتِ".

– "لا. أنا لست خائنة".

انحنى الخُزيان أكثر في مقعده. التقطت آنا نفحة من رائحته التي حملتها فتحات التهوية القوية عبر الطاولة. كانت تتوقع رائحة كرات العث أو الموت؛ لكن بدلًا من ذلك، كانت رائحة غسيل منعش.

قال:

– "قرأت التقارير الواردة من ليفورتوفو. المحققون تأرجحوا في رأيهم بشأنك. لم يستطيعوا اتخاذ قرار. هل نبقيك محبوسة، نصّفيكِ، أم نطلق سراحك. دوامة لا تنتهي. أنتِ حرة لأنني، في النهاية، اخترت إبقاءكِ على قيد الحياة".

قالت:

– "هذا منطقي. فأنا بريئة".

هز الخُزيان كتفيه وتحول بناظريه نحو النوافذ. كان طائر نورس يرسم دوائر كسولة في الخارج. توهج وجهه في الضوء المنعكس عن الطاولة. وتلألأ البحر في ظهيرة ناصعة البياض. كل شيء ذهبي في تلك الغرفة كان يلمع تحت الشمس. التفت ليواجهها.

وفي تلك اللحظة، غمرت آنا مشاعر متضاربة، تكاد تكون إحساسًا بالتألّه.

فكرت: *أنا لا زلت قوية. لكنك، أيها الخُزيان، تضاءلت.*

تألقت عيناها الزرقاوان باليقين، بينما لم تعكس عيناه سوى الشك المجرد.

أنا أعرف، فكرت، *وأنت لا تعرف.*

لقد سرقتُ من لص.

وسأفلت بفعلتي.

***

بعد أسبوع واحد من إيدوكوباس، وقفت آنا عند بوابات سجن بوتيركا وهي تتشبث بزجاجة من البراندي الداغستاني المفضل لديه. آخر مرة شرباه فيها كانت وهما يتآمران في ميدان الرماية بـ "روس–فارم" حين كان العالم يافعًا. صرّت المفصلات محتجة بينما انفرجت البوابة قليلًا.

خرج والدها وحيدًا، مذهولًا، وأغلقت البوابة خلفه بقرقعة. كان يحمل كيسًا بلاستيكيًا. ارتدى سترة زرقاء باهتة وسروالًا يتدلى طويلًا فوق حذائه. تعانقا. لقد ترك دزينة أو أكثر من الكيلوغرامات وبعض شعره داخل السجن. لم تكن رائحته كما كانت.

فكرت: لقد دفعنا ثمناً باهظًا لهذا.

قال:

– "يا إلهي يا آنيا.. يا إلهي".

ضمها بقوة، وقبّل جبينها، وشعرها، ووجنتيها. بللت دموعه وجهها.

قالت له:

– "نحن بأمان يا أبي. لقد فزنا".

***

بدأ العمل في "الداتشا" الجديدة في أبريل. كانت آنا تزور الموقع في عطلات نهاية الأسبوع للإشراف على البناء وركوب بينيلوبي. كان العمل بطيئًا، وتأخر ذوبان الجليد هذا العام، وكانوا لا يزالون يتخبطون في وضع الأساسات. لم تكن في عجلة من أمرها. أحياناً كانت تعدو بالخيل في المرعى قرب الغابة، وفي أوقات أخرى تهرول حول المضمار. والآن، مع دفء الجو، تركت شعرها ينمو ليطير مع الريح عند العدو بأقصى سرعة.

في الإسطبلات، وضعت السرج ولجامه على بينيلوبي. جهزت الفرس بحقيبة سرج لم تُستخدم منذ بعض الوقت؛ تلك التي لم تكن تحب التفكير فيها، والتي حثتها حواسها السليمة على تدميرها قبل أشهر. لكن ماكسيموف كان قد زل لسانه بشيء ما كان ينبغي له قوله، وقررت أنها لن تتجاهل الأمر. ركبت صاعدة نفس المسار الذي طاردت فيه ماكس وسيا. كان أحد جيوب حقيبة السرج محشوًا بقارورة ماء مستطيلة وبضع قطع من الخبز الأسود. واحتوى الجيب الآخر على بطارية محمولة. ركبت لمدة ساعة عند حافة التلال، وهي تتحقق لتتأكد من أنها وحدها.

بدا المكان هادئًا، رغم أنها كادت تموت هنا. أحبت الطنين المنخفض لخطوط الكهرباء، وتغريد الطيور، وحفيف الأشجار، والمناظر الممتدة للمراعي والإسطبلات. عند بداية الطريق، ترجلت وأنزلت حقيبة السرج عن بينيلوبي. تحركت بسرعة، مجربة الشريط والمشابك مرة، ومرتين، وثلاثًا. مرت أشهر منذ أن أرتها سيا الطريقة. عند المحاولة الرابعة الفاشلة، أطلقت سيلًا من الشتائم ونظرت حولها.

قالت: أنتِ وحدك، لديك الوقت.

في المحاولة العاشرة، انفتحت اللوحة. أخرجت الحاسوب المحمول، ووصلته بالبطارية، وانتظرت حتى تدب فيه الحياة. تطلب تسلسل لوحة المفاتيح عشرات المحاولات، وسرعان ما شعرت بالإحباط لدرجة أنها فكرت في التخلي عن هذا الأمر برمته. لكنها واصلت المحاولة. وعندما نجحت أخيرًا، كتبت رسالة قصيرة، بأسرع ما يمكن لأصابعها أن تتحرك:

***

الفرق الميكانيكية المشتركة بين جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR) والأمن الفيدرالي (FSB) تحرز تقدمًا في مطاردة فوكس وكاستيّو. يعملون على خيوط داخل تكساس والمكسيك. كونا بخير.

أغلقت آنا الحاسوب المحمول. وأغمضت عينيها. كان هذا هو الصواب. لن تندم على ذلك.

مررت يدها فوق الحاسوب.

ثم وضعته على حجر كبير، والتقطت صخرة أخرى، وشرعت في تهشيمه إلى قطع صغيرة.

حطمت الشاشة، والغلاف، ولوحات الدوائر. ذهبت الشظايا إلى حقيبة السرج، وامتطت بينيلوبي لتهبط التل. ولعدة ساعات، هرولت بمحاذاة الجدول والبرك، تتوقف أحياناً لتترجل وتنثر قطع الآلة في الماء.

بينما كانت تركب عائدة إلى المنزل، خفق قلبها بإيقاعه الطبيعي. كانت أفكارها صافية. عند مدخل المرعى، مسحت آنا الحقول والغابات الكثيفة وراءها بنظرها. أسدلت شعرها وربتت على كتفي بينيلوبي.

ثم مالت بجذعها للأمام لتدفعهما نحو العدو. كانت الشمس ساطعة ودافئة. وجعلت الرياح من شعر آنا عباءة شقراء. تحركتا برشاقة فوق العشب، وكل خطوة تغلق المسافة نحو المرتفع المنخفض في نهاية المرعى. وبينما اقتربتا من التل، مالت آنا نحو أذن الفرس.

همست آنا:

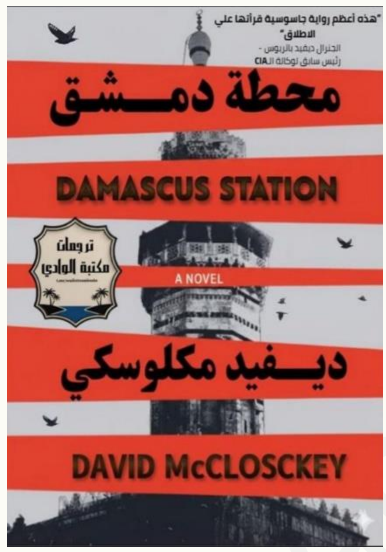
– "اركضي يا فتاة.. اركضي، اركضي".

اركضي.

-تمت-

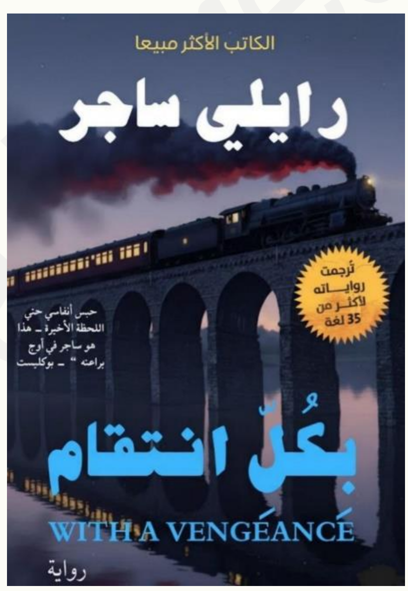
ترجماتنا

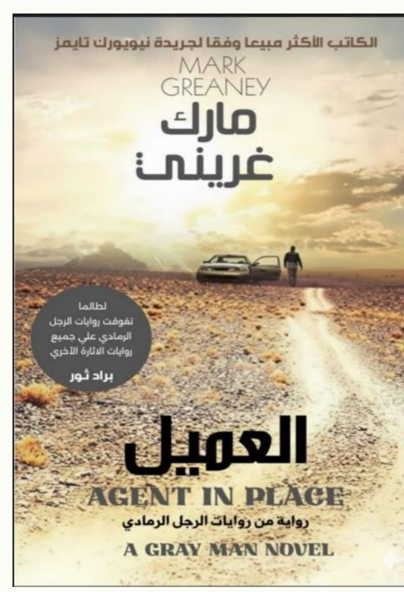












وغيرها الكثير علي قناتنا👇👇

t.me/wadistreambooks

موسكو إكس

ديفيد مكلوسكي

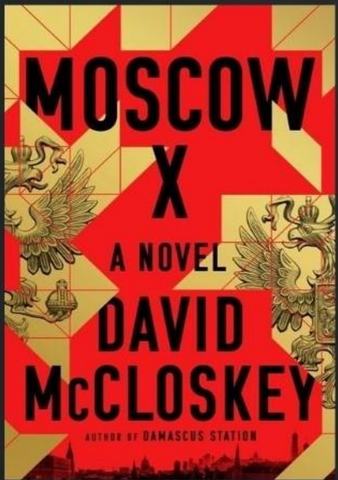
عملية جريئة لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) تهدد بإشعال الفوضى داخل أسوار الكرملين..
ولكن، هل تجرؤ "لانغلي" على وضع ثقتها في العنصر الروسي الذي يقف في قلب العاصفة؟

يتسلل عميلا الـ CIA، "سيا" و"ماكس"، إلى العمق الروسي تحت غطاء تجاري متقن، في مهمة لتجنيد "رجل المال" وخازن أسرار فلاديمير بوتين. "سيا" تختبئ خلف واجهة محامية لندنية بارعة في إخفاء ثروات فاحشي الثراء، بينما يدير "ماكس" إرث عائلته في المكسيك؛ مزرعة لخيول السباق الأصيلة، ليست في الحقيقة سوى واجهة استخباراتية عتيقة منذ الستينيات.

ينتحل الثنائي صفة زوجين للإيقاع بـ "فاديم"، مصرفي بوتين الخاص، وزوجته "آنا". لكن ما يجهله الجميع هو أن "آنا" ليست مجرد زوجة، بل ضابطة استخبارات روسية تعمل تحت غطاء عميق وشديد السرية داخل البنك نفسه.

وبينما يغوص "سيا" و"ماكس" في مستنقع روسي يقطر بالبذخ الفاحش وتنهشه حروب العصابات الدموية، يكتشفان أن طوق النجاة الوحيد قد يكون بيد "آنا"، التي تخوض لعبتها الخاصة والخطرة.

في رحلة لاهثة تنتقل بين مزارع الخيول في شمال المكسيك، وأروقة "لانغلي" الباردة، وفخامة روسيا-بوتين المظلمة؛ تأتي رواية "موسكو إكس" لتكون أكثر من مجرد قصة تجسس تحبس الأنفاس.. إنها تعليق قاسٍ وصريح على طبيعة الحقيقة، والولاء، والانتقام في خضم حرب الظل المستعرة بين الولايات المتحدة وروسيا.



ترجمات مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks

ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks